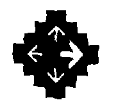
أسير عاشق

چان چينيه

ترجمة : كاظم جهاد



أسير عاشق

أسير عاشق

جان جينيه

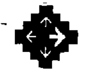
ترجمة : كاظم جهاد

Un captif amoureux

Jean Genet.

Gallimard, Paris

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي، ١١١١١ باب اللوق ، القاهرة
ت : ٣٩٠٢٩١٣ س.ت : ٢٦٩١٩٨

غلاف : ذات حسين

يُنشر هذا الكتاب بالتعاون مع
منظمة اليونسكو العالمية للثقافة
UNESCO والبعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون، قسم الترجمة بالقاهرة



رقم الإيداع : ٩٥/١٦٩٨
الترقيم الدولي : ISBN 977 - 5406 - 026 - 9

كلمة للمترجم

هنا ترجمة لكتاب "أسير عاشق" للكاتب الفرنسيّ جان جينيه. كان الكاتب قد عكفَ على كتابته بين العامين ١٩٨٤و١٩٨٦، أي في الفاصل الأخير من حياته، لاستعادة الشهور الطويلة (ما يقرب من عامين) التي كانَ أمضاها في ضيافة الفدائيّين الفلسطينّيين في "عجلون" (الأردنّ) بخاصّة، في مطلع العقد السبعينيّ، والجولات التي قام بها، في الفترة نفسها أو في فترات لاحقة، في أقطار المغرب ولبنان وسوريّا. وسواء في إقامته تلك بين الفدائيّين، في الخيَم أو تحت النجم الساهر (حيث منحه الفلسطينيون اسماً حركّياً: «المُلازم عليّ»، وتصريحَ مرورٍ يخوّل له الانتقال بين جميع الحركات ومجموعات المقاومة)، أو في جولاته في المدن العربية، لم يكن جينيه، وقد هرِمَ لكنْ لم يَشِخْ، مشغولاً إلاّ بالقضيّة الفلسطينية وتمرّد الفلسطينيين، جاهداً في أن يقرأ معنى هذه القضيّة وأن يتتبّع صيرورة هذا التمرّد. يقرأها في ذاتها تارةً، مُقارناً إيّاها، طوراً، بانتفاضة «الفهود السود» في أمريكا، راداً معطياتها كلّ مرّة إلى مجمل تاريخ المنطقة والعالَم.

عبرَ تكليفي بهذه الترجمة، توخّت «اليونسكو» الاحتفاء بالإعلان عن قيام دولة فلسطين. ومع انّ أحداثاً عديدة قد استجدت في السنوات الأخيرة، وعلى ابتعاد الذاكرة، العربيّة والعالميّة، نوعاً ما، عن الفعل الفدائيّ الذي يشكّل «العجيبة» المحوريّة التي يتأسّس عليها ويدور مجمل هذا الكتاب، فلا أحسب أن أسلوب جينيه وقوةّ كتابه هذا يمكن أن يكون أدركهما الشحوب لمجردّ مرور عشر سنوات هي الفاصل بيننا وبين صدوره. ولئن تميّزَ هذا الكتاب أولاً بالنقد الحادّ، الذي لا يوفّر حتّى القيادة الفلسطينيّة، فإنّ ثمةّ فرحاً أيضاً، يعصف بالكتاب من بدئه حتّى منتهاه. وكما طرَحه المفكّر الراحل فيليكس غواتاري في دراسة له لـ «أسير عاشق» ظهرت، فورَ صدور الكتاب، في «مجلّة الدراسات الفلسطينيّة» (الطبعة الفرنسيّة)، فيظلّ ممكناً دائماً قراءة هذا الكتاب الشاسع باعتباره عملاً متعدّد الأصوات أي «بولفونيّاً» بالمعني الذي منحه الناقد الروسيّ ميخائيل باختين لهذه المفردة. عمل لا يفرض فيه أسلوب الروائيّ و المسافر صوتَه وحده وأفكاره، بل يدَعك، ومن هنا فرادة الكتاب وطبيعته الاستثنائيّة، ترى إلى مصائر الآخرين وتسمع أصواتهم، وذلك حتّى في الايماءة الخفيّة، ما لا يكاُد يُرى أحياناً، وفي الكلام الموشوش، بل الصامت، ما لا يكاد يُسمع والذي يظلّ مع ذلك يهدر بقوةّ.

ولماّ كان عمل يتمتّع بهذه الدرجة من الوضوح لا يحتاج إلى تقديم، فلن أتقدّم هنا إلاّ بملاحظات تقنيّة هي من قبيل تحوطّات المترجم أو تنبيهاته. لقد وضع جينيه نفسه عدداً من

الحواشي احلتُها إلى آخر كتاب ، متبوعة بإشارة توضح أنّها عائدة إلى المؤلّف. وشجّعني هذا على وضع ملاحظات تعريفيّة حرصتُ حتّى لاأُتعب القارئ على أن اجعلها لا تزيد على المائة ، قاصراً إيّاها على ما يمتنع بدونه فهم قصد الكاتب . كما قمتُ بتصحيح هفوات جينيه (القليلة) في كتابة بعض الأسماء العربيّة أو عزو بعض الوقائع المعروفة في تاريخ العرب، ويجد القارئ إشارة إلى جميع هذه التدخّلات في حواشي المترجم . وهناك عناصر كان يكفي لإضاءتها وضع مفردة توضيحيّة أو اثنتين داخل النصّ ، يميزّهما القارئ من نسيج الكاتب بما يحيط بهما من أقواس كبيرة: [ ]. والشيء نفسه فعلْته مع ما أضفته من مفردات لا تستقيم بدونها الجملة ولا يدرك المعنى. ولم يكن من هذا بدّ ، سيّما وانّ جينيه قد رحلّ في الأسابيع نفسها التي كان هذا الكتاب ماثلاً فيها للطبع ، فلم يتمكّن من مراجعة تجاربه المطبعيّة الأخيرة مراجعة كافية . ولاشكّ انني اتحمّل مسؤلية هذه التدخّلات (الطفيفة) . ثمّة ، كذلك ، بضع عبارات ، بالغة الطول ، تشي أكثر من سواها بان الكاتب ، الذي عُرف بقوّة السبك وصرامة التعبير وجزالة العبارة فكانَ بذلك واحداً من «سادة» النثر الفرنسي ، لم يتمكّن من مراجعتها وإعادة النظر فيها . وهي تظلّ تتعذّر على الفهم ، حتّى لقد عجز العديد من كبار كتّاب الفرنسيّة عن تفسيرها لي بدقّة أو باطمئنان – أو هي تحتمل أكثر من فهم . وهنا كان لابدّ من الحسم في اتجّاه يظلّ بالطبع «اتجّاه» قراءتي أنا ، ولعلّي ما كنتُ في هذا معصوماً من الخطأ دوماً.

المترجم

باريس ، صيف ١٩٩٦

ذكريات (١)

الصفحةُ التي كانت في البداية بيضاءَ، تخترقُها الآنَ، من علٍ الى سفلٍ، علامات سوداء صغيرة: الحروف، والكلمات، والفواصل، ونقاط التعجّب، هذه العلامات التي بفضلها يُقال إنّ هذه الصفحة صارت مقروءة. ومع ذلكَ فإنّ بعضَ قلقٍ في الفكر، ونفوراً هو أقرب ما يكون الى الغثيان، وضرباً من التردّد أُحجِمُ بسببه عن الكتابة، هذا كلّه يجعلني أتساءل: هل الواقع هو حقاً هذا المجموع من العلامات السوداء؟ البياض هنا حيلة تحلّ محلّ شفافية الرقّ والمغْر المحزز في رُقُم الصلصال، ولربّما كان لهذه المغْرة بارزة الأشكال، مثلما للبياض والشفافية نفسهما، واقعٌ أقوى من العلامات التي تأتي لتشوّه هذا كلّه. أكانت الثورة الفلسطينية مكتوبةً في العدم، زخرفاً على عدمٍ، وهل الصفحة البيضاء، وكلّ انزياحٍ صغير على الورق الأبيض بين كلّ كلمتين، أكثر حقيقيّة من العلامات السوداء؟ القراءة بين الأسطر فنّ أفقيّ، وبين الكلمات هي فنّ عموديّ. ولئن كانَ واقعُ الزمن الذي أمضيتُ في جوار الفلسطينيين – لا أقول معهم – محفوظاً في مكانٍ ما، فإنّه (وأنا أُعبّر عن هذا برداءة) سيكون محفوظاً في طيّات كلّ كلمة تزمع الابانة عن هذا الواقع، على حين يتكوّر الأخير حتى ليقترن بنفسه، محشوراً، أو بالأحرى متغمِّداً بهذا القدر من الدقة بين الكلمات، في هذا الفضاء الأبيض لكلّ صفحة من الورق، لكنْ ليس في الكلمات نفسها التي كُتِبَتْ ليتلاشى هذا الواقع. أو فلأعبّرنّ على نحو آخر: فالفضاء المحسوب بين الكلمات أكثر امتلاءاً بالواقع من الزمن الضروريّ لقراءتها، لكنّه ربما كان معبّأ أيضاً بذلك الزمن المضغوط والفعليّ، المحصور بين كلّ حرف من اللغة العبْريّة [والحروف الأخرى]. عندما لاحظتُ أنّ السود هم الأحرف فوق صفحة أمريكا، البيضاء، كانت هذه صورة فرضت نفسها على الذهن بسرعة. أما الواقع فكامنٌ في ما لا يمكن أبداً أن أعبّر عنه بدقة، هناك حيث تُعاش المأساة العشقيّة بين أمريكيّين مختلفَي اللون. فهل أفلتَتْ منّيَ الثورة الفلسطينية؟ تماماً. أحسبُ أنني أدركتُ ذلك عندما نصحتْني ليلى شهيد بالذهاب لزيارة الضفة الغربية. رفضتُ. لانّ الأراضي المحتلة ليست سوى مأساةٍ تُعاش ثانيةً ثانيةً من قبل المستعمر والمستعمَر. إنّ واقعهما هو هذا التداخل الخصب بالكره والمحبّة في المَعيش اليوميّ، أشبه مايكون في ذلك بالشفافيّة، صمتاً تهرسه الجُمَلُ والكلمات.

في فلسطين أكثر ممّا في أيّ مكانٍ آخر، بدت لي النساء متمتّعات بميزة إضافية بالقياس إلى الرجال. كلّ رجلٍ، مهما كان من بأسه وشجاعته وحدبه على الآخرين، يظلّ محدّداً بفضائله الخاصّة. أمّا النساء، وما كنّ ليُقبلنَ في القواعد بل هنّ مسؤولات عن الأعمال في المخيّمات، فكنّ يُضفنَ لجميع فضائلهنّ بُعداً كاملاً يبدو متخفّياً على ضحكٍ شاسع. في التمثيلية التي أدّينَها لحماية راهب، كان الرجال سيفتقرون الى الاقناع. ولربّما كان «الحريم» قد ابتُكرَ من قِبَلِ النسوة أكثر ممّا على أيدي الرجال. بعدَ تناول غدائنا الهيّن، كان الوقت حوالى الثانية عشرة ونصف الساعة ظهراً. الشمس تسقط عموديةً على «جرش»، والرجال في

قيلولة. كنّا أنا ونبيلة المستيقظَين الوحيدَين؛ ولنهربَ من الظلّ قرّرنا الذهاب إلى مخيّم «البقعة» القريب جداً. كانت نبيلة ماتزال أمريكية؛ وستطلّق زوجها لتبقى مع الفلسطينيين. كانت في الثلاثين، بجمال بطلات «الويسترن». وفي بنطال «الجينز» والسترة من النسيج الأزرق ذاته، وبشعرها النازل طليقاً حتى الخصرين، إنّما مقصوصاً على الجبين باستقامة، كانت في جادّات المخيّم في ساعة كتلك هي الفضيحة بالذات. كلّمتْها فلسطينيات يرتدين اللباس الوطنيّ، ولاريب أنّهن كنّ دهشات لسماع هذه المرأة-الصبيّ تردّ عليهنّ كامرأة عربية، بلكنة فلسطينية. عندما تتحادث ثلاث نساء، فبعد عبارتَي مجاملة أو ثلاث، تلتحق بهنّ خمس اخريات، أو سبع أو ثمان. كنت الى جانب نبيلة، إنّما منسيّاً، بل مُتَجاهَلاً. بعد خمس دقائق، دُعينا الى منزل إحدى الفلسطينيات لشرب الشاي - تعلّة لمواصلة الحديث في ظلّ حجرة باردة. فرشنَ غطاءاً لنا نحن الاثنين، وأضفنَ مخدّات، وبقين جميعهنّ واقفات، يُحضّرن الشاي أو القهوة. لا واحدة كانت تعنى بي، إلاّ نبيلة التي تذكرت وجودي قربها فمدّت لي كاساً صغيرة. كنّ يتحدثن بالعربية. محاوروي الوحيدون كانوا هم الحيطان الأربعة والسقف المبيّض بالجصّ. كان شيءما ينبئني بأنّ وضعي ماكان لينسجمَ مع ما كنتُ أعرف عن الشرق: رجل وحيد يتوسّطُ فريقَ نساءٍ عربيّات. كان كلّ شيء يُعلن عن هذا الشرق الذي سأراه بالمقلوب، لأنّ هؤلاء النساء، خلا ثلاثاً منهنّ، كنّ متزوّجات؛ كلّ واحدة ولاشكّ لرجل واحد. وكان وجودي كمثْلٍ باشا ممدّد أمامهنّ على مخدّاتٍ مثيراً للريبة حقّاً. فقطعتُ سيلَ الكلام يتبادلنه ونبيلة، وسألتُ الأخيرة أن تترجم:

- أنتنّ جميعاً متزوّجات؟ أين أزواجكنّ؟

- في الجبل!

- يقاتلون؟

- زوجي يعمل في المخيّم!

- وزوجي ايضاً.

- ماسيقولون لو عرفوا بوجود رجل وحيد بينكنّ، ممدّد على مخدّاتهم وأغطيتهم؟

قهقهنَ جميعاً، وقالت لي إحداهنّ:

- سيعرفون ذلك. سيعرفونه منّا، وسنضحك طويلاً من مُحاربينا إذْ نراهم متضايقين. ربّما، عن زعلٍ، سيتظاهرون بعدم مداعبة سوى الصغار.

ما كانت النساء في أثناء الكلام عازفات عن كلّ عمل: كانت كلّ واحدة تنشغل بواحد أو اثنين من صغارها الذكور، تغيّر الحضائن أو تمنح ثديها أو الرضّاعة، حتى يكبر الطفل، يصبح بطلاً ويموت في العشرين لا على الأرض المقدّسة وإنّما من أجلها. هذا ما قلنَه لي.

كنّا في مخيّم «البقعة»، في أواخر ١٩٧٠.

لا يَدين مجد البطل إلاّ بالقليل لضخامة الغزوات، في حين يدين بكلّ شيءٍ لنجاح التكريمات: «الالياذة» أبقى من حرب «أغاممنون»، والمسلات الكلدانية من جيوش «نينوى»، والعامود من «تراجان» و«أغنية رولان» [من مُلهمها]. وإنّما نُفّذت جدارية «الأرمادا» ونصب «ڤاندوم»، وجميع صور الحرب، بَعدَ المعارك، بفضل الغنائم وحيويّة الفنّانين وتقاعس الانتفاضات والأمطار. وحدها تبقى الشهادات المتفاوتة في الدقة، لكن دائمة الاثارة، التي يتركها الفاتحون للأجيال القادمة.

ألفينا أنفسنا في حالة إنذارٍ على حين غرّة. لقد انتفضتْ أوربا، ومابرحتُ من ذاكَ دهشاً. استشهدُ بكلامٍ يعود الى ما قبل ذلك بثلاث سنوات: «سينمائيون من تلّ أبيب ينثرون على شواطئهم جزمات، وخوَذاً، وبنادقَ، وأصفاداً، وآثار أصابع أقدامٍ بشرية على الرمال، ليمثّلوا الهزيمة التي صُمّمت في إستديوهات لوس أنجلس». لم يكن تصوير المعارك، الانتصارات أو الهزائم، بالشيء الجديد، فلكلّ معسكر حيَله ومُحنّكوه؛ كان فنّانون ملحقين بالجيش في كلّ واحدة من الحملات على مصر؛ يرسم الرسامون والملوّنون انطلاقاً من الحدث ما سيخلّفه لنا الظافرون. ولقد قيل لي إنّ اسرائيل، في ١٩٦٧، هيأت أوّلاً، ثمّ صوّرت و«مَنْتَجتْ» هزيمة مصر؛ وفي اليوم السابع عرضتْها على تلفازات العالم التي استلمَتها في الأوان نفسه مع يقينِ انتصار اسرائيل على العرب. ثمّ فجأةً توفّي عبد الناصر، وطغى بهاءُ تشييع جثمانه على موته. كان المهد، أو الطابّة، أو، إذا شئتم، التابوت، يتمايل، يرقص، يكاد يطير فوق الرؤوس البادية عليها أمارات الغضب، لكن التي ربّما كانت مستأنسة باللعبة. وإنّ حسيناً، وبومدين، وكوسيغين، وشابان-دالماس، وهيلاسي لاسي أسد يهودا، ورؤساء دول أو حكومات آخرين، قد رُفعوا جميعاً من قبل قبضات تزن الواحدة منها خمسة عشر كيلواً، عظاماً ولَحماً، وعلى أكتاف كانت نُحتَتْ صندوقاً صندوقاً في محلاّت التحميل وإفراغ الشاحنات في القاهرة؛ أقول رُفِعوا وأُنزِلوا على الكنبات بالرهافة التي يُرفَع بها بين الابهام

والسبّابة جورب من حرير. أشاوس مصر احتفظوا لأنفسهم بالتابوت.

لمّا كانت هذه اللعبة مخوضة بإتقان، فقد اختفت طابّة «الرّكْبي» في الحشد، لتعاود الظهور في الزاوية الأخرى من الشاشة. كان لاعبو «ركْبي» عديدون يتنازعونها ولاريب. أيّة ركلة قدم غاضبة ستبعث بها مترنّحة الى الخلود؟ جعلَ الحمّالون يسيرون أسرعَ فاسرعَ، تجبرُ مشيتهم المجنونة القرآنَ على أن يتبعها، يترنّحون سُكارى وماهُم بسُكارى. الأقدام، السيقان، الحناجر، والتابوت، هذا كلّه راح يتلاطم. الحمّالون، الأكثر دهاءاً من [لاعبي فريق] «كلّنا سُـود» All Blacks (١)، أحاطوا بالتابوت. وكان الحشد قد التهمَه. تابعَ الناس أجمعين هذا الشوط على الشاشة وخمّنوا الطابّة وهي تنزلق بين السيقان، من القبضات إلى الأكتاف، بين الأفخاذ وفي الشَّعر؛ وإذ تلاشت الحشود ومرتّلو القرآن والتابوت ولاعبو «الرّكْبي»، بقيت وحدها السرعة على أرض مصر، وجَعلتْ تتفاقم حتى الحفيرة. إطلاقات المدفع الكاذبة أخمدتها حفنات التراب لدى مواراة الجثّة. وعلى القبر، وبالرغم من الحرس، راح ألفٌ أو اثنان من الأقدام الطليقة ترقص حتّى صباح اليوم التالي. أقدام تسير بالسرعة المطلقة، سرعة اللّه الواحد الأحد بلا شكّ. وماكان في وسعي ألاّ أفكّر بمباراةٍ لكأس العالم في الدفن الشرقيّ، كانت عملية الدفن هذه ستفوز فيها.

بعد ذلكَ بفترة قصيرة، في أيلول / سبتمبر ١٩٧٠، لمّا كان حسين ملك الأردن مهدّداً بالزوال على أيدي الفدائيين، مدّت له أميركا يَد مساعَدة. وإذْ لم يصمد لا قلب عبد الناصر ولا معنويّاته، فإنّ مباراة «الرّكْبي» العاطفية والفحولية التي شاهدنا على التلفاز كانت شعيرة طامحة لمحو هزيمة ١٩٦٧، وتمويه هذه التي كان العام ١٩٧٠ يُنذر بها. أكان الراحل يتخفّى؟ كان لحيوية هذا العرض على الشاشة سذاجة القُبل المطبوعة على فم هدّافٍ وعلى شعره وسلسلته الذهبية وقرط أذنه وأجفانه. أكانت صرخات الجمهور الواقف وهتافات الاستحسان تحيّي الهدّاف أم تبادل القُبَل؟ هل اختفى أحدٌ، تحتَ عشرة صبيان سابحين بالعرَق؟ أهوَ لابد؟ لقد تلاشى جثمان «الريّس». وإنّ هذا الذي كان شمسَ شعبٍ بأكمله سيمتزج بأرز التابوت ويُلقي الزمن ختمه على كلّ شيء. حقبة الأمم تُخوزِق الشعب العربيّ. الأوطان تنفعل... تلزم حروب جديدة. وسيخدم عبد الناصر من جديدٍ وقد حوّلتْه القصص المصوّرة.

كنتُ، قبل وصولي هناك، أعرفُ أنّ وجودي في القواعد الفلسطينية على ضفة الأردن لن يُقال بوضوحٍ أبداً: لقد استقبلتُ هذه الثورة كما تتعرف أُذن موسيقية على النغمة الصحيحة. غالباً كنتُ أنام خارج الخيمة، بين الأشجار، وأتطلع الى المجرّة شديدة القرب وراء

الأغصان. وماكانَ الحراس، المسلَّحون، ليحدثوا أدنى جلبة، إذْ يتنقّلون في الليل، على العشب وأوراق الأشجار. لكأنّ خيالاتهم تريد الامتزاج بجذوع الأشجار. كانوا ينصتون. هم الحرَس.

كانت المجرّة، إذْ تستمدّ أنوارها من أضواء «الجليل»، ترسم قوساً يتجاوزني، ويجتاز وادي الأردن، لينتهي متناثراً في صحراء السعودية. ربّما كنتُ، أنا المتمدّد ملتحفاً بغطاء، أكثر مساهمةً في هذا المشهد من الفلسطينيين الذين كانت السماء مكانهم الأليف. كنت أتخيّل، مااستطعت إلى ذلك سبيلاً، أحلامهم، ذلك أنّ لديهم أحلاماً، عارفاً أنني كنتُ مفصولاً عنهم بحياتي كلها التي قضّيتُها في السأم. ولمّا كانت كلمتا «المهد» و«البراءة» ممتزجتين إلى هذه الدرجة من الطُّهر، فلعلّ الفلسطينيين لا يجرؤون على رفع رؤوسهم خشيةَ تلويثهما: كان ينبغي ألا يروا في هذه الليلة أنّ السماء كانت تشهد ولادتها – تتمتّع بمهدها – في أنوار اسرائيل المتحرّكة. نرى في إحدى تراجيديات شكسبير إلى فريقٍ من الرماة وهم يرشقون السماء بالسهام. وما كنت سأُفاجَأ لو أنّ الفدائيّين، وقد أغاظهم هذا الجمال كلّه المنبثق في شكل قوس من أرض أسرائيل، انتصبوا على سيقانهم المنفرجة وأطلقوا رصاصهم على المجرّة، ما دامت الصين والبلدان الاشتراكية تمدّهم بما يكفي من الذخيرة لإسقاط نصف المعمورة. أيطلقون الرصاص على النجوم، فيما هيَ تنبثق من مهدهم نفسه، فلسطين؟

ـ موكب وحيد، هوَ موكبي أنا. الموكب الذي كنتُ أرأسُ في الجمعة الحزينة بدِرع كاهنٍ أبيض وغفّارةٍ سوداء. ليس لديّ الوقت لأحدّثكَ، يقول لي الراهب محمرّ الوجه غضباً.

ـ رأيتُ موكبين. راية العذراء...

ـ كلاّ، لا وجود لما تدعوه بالموكب الثاني والعذراء. الصبْية السوقيّون السائرون بخطوٍ موقّعٍ نافخينَ في الأبواق؟ هم صيادون بحريّون مغمورون كان يجدر بهم مواصلة مسيرتهم. ألا كم يَهوون الفضيحة!

الحال، كان موكبان قد تقاطعا أمامي، الأوّل يقوده هذا الراهب اللبنانيّ، والآخر تسبقه راية العذراء، البيضاء الزرقاء، ويتشكّل بحسب الراهب الغاضب من رجال، سوقيّين وبحّارة يمشون إلى الميناء مشية موقّعة وسريعة. عرفتُ من راهب بنديكتيّ فيما بعد أنّه كان ثمة بالفعل موكبان اثنان. الأول كانَ، بالرغم من الموسيقى، يسير ببطء، في كآبة مصطنعة. وكانت جوقة، من رجال ونساء، تعزف جنّازاً كان مع ذلك فرحاً، وهذا الموكب شبه الباكي شطرَهُ شطرَين موكبٌ آخر مشكّل من رجال فتيّين، على شيء من العنفوان، ينفخون في

الأبواق بإيقاع النفير. وفي طليعته كان رجلٌ قويٌّ يحمل عالياً، على رايةٍ، رسماً للعذراء. ميّزتُها من يديها المضمومتين، والغيوم المهدّبة قليلاً بالأبيض في السماء الزرقاء، وكانت نجوم مذهّبة تحيط بها كما نرى في لوحات موريّو، وأصابع القدمين فوق هلالٍ بَدا باتراً. كان يُفترض بالنجوم، وزرقة السماء، والمسيرة الموقّعة، والأبواق، واللحن الفرح، والجزمات المطاطة، وكنزات البحّارة، والرجال وحدهم، هذا الموكب كلّه، وبحسب الراهب النجوم أوّلاً والقمر، هذا كلّه كان يفترض به أن ينبئني: فمع أنّه يرسم حول السيّدة مداراً كاملاً، فإنّ عدد النجوم كان بالعدّ والتمام عددَ بنات نعش الصغرى؛ وزرقة السماء كانت هي زرقة البحر؛ والغيوم المُهَدَّبة أمواجاً لا تكاد أن تكون منحنية؛ والهلال هلال الاسلام؛ والأبواق كانت تعزف لحناً احتفاليّاً لأنّها كانت ذاهبة في الاتجاه الصحيح، لا تتردّد عن أن تشطر شطرَين موكباً في حِداد؛ وفي الفتيان المنتعلين جزماتٍ مطاطيةً كان ينبغي تمييز صيّادين؛ أمّا المرأة المرسومة، بدون الهالة التي تحيط عادةً برأس العذراء، فترمز إلى النجمة القطبية. كان هذا مطلع الخطاب الذي ألقاه عليّ الراهب البنديكتيّ. ثمّ إنّه قال لي إنّ رسم السيّدة ماكان عذريّاً ولا مسيحيّاً، بل جاءت به شعوب البحر قبل–الاسلاميّة. أصله وثنيّ، ومنذ آلاف السنوات «يعبده» البحّارة؛ يَدلُّهم أبداً، حتّى في أكثر الليالي حلكةً، على الشمال؛ وبفضله تبلغ حتّى السفينة الأقلّ تجهيزاً اليابسة من دون ريب؛ لكنّ الأب لم يعرف أن يقول لي لمَ كان ذلك الموكب بمثل هذا الفرح في يوم رحيل الابن، تاركاً أمّاً ذات ستّ عشرة سنة بمثل صورة السيّدة المرسومة على الراية. لم يقبل هو بالتساؤل طويلاً، فحدّثتُ نفسي، أي بدون أن أنبس ببنت شفة، بإنّه ربّما لم يكن فرح الأبواق ليعني سوى انتصار الوثنية في يوم الجمعة هذا على ديانة الابن.

في تلك الليلة، في عجلون، أبصرتُ النجمة القطبية، كانت على يميني، في مكانها بين بنات نعش الصغرى؛ ولئن كانت المجرّة مفرّقةً في صحراء البادية العربية، فأنا ماكنتُ لأقدرَ إلاّ أن أستسلم لدوارٍ فلَكيّ لرؤيتي نفسي في بلاد إسلاميّة كنتُ ما أزال أحسب المرأة فيها نائية، مستحضراً في ماقبل غفوتي موكباً من الرجال يبدون عزّاباً استولوا – غزو آخر – على رسمِ سيّدة بالغة الجَمال تمثّل النجمة القطبية الثابتة في الأثير أبداً، على مسافات لاتُعدّ، عائدة إلى كوكبة أخرى ككلّ امرأة (٢)؛ كان الصيّادون مُستَمْنين أكثر منهم أزواجاً، وكلمة «قطبية» هذه تصف كلاًّ من المرأة والنجمة. وعلى سكوني في أغطيتي، والأنف في اتّجاه السماء، فإنّني أحسستُ، مهتدياً بالنور، بالانجراف في دوّامةٍ تجعلني فيها رقّة الأذرع المعضّلة أترنّح وأتطامنُ [في آنٍ معاً]. كنتُ أسمع على بُعد خطوتين ماء الأردنّ يجري في الليل. كنتُ أجمَد.

بدافع اللعب أكثر مما عن قناعة، استجبتُ الى الدعوة لإمضاء بضعة أيام في صحبة الفلسطينيين. وإذا بي أمكث هناك زهاءَ عامين. وفي كلّ ليلة، متمدداً، شبه ميت، منتظراً أن يُنيمني قرص «النمبوتال»، كنت أبقي على عينيَّ مفتوحتين، صافيَ الذهن، غير مندهشٍ، ولا خائفٍ، ولكن بالتأكيد مستأنساً لوجودي ههنا، حيث كان رجالٌ يترصّدون منذ زمن طويل، على هذه الضفة من النهر مثلما على الأخرى، فلماذا لا افعل كما يفعلون؟

مهما كان مبلغ فقري يومذاكَ، فقد كنت رجلاً تمتَّعَ بامتياز الولادة في مركز امبراطورية هي من السعة بحيث كانت تزنّر الكرة الأرضية بكاملها. وفي الوقت نفسه كان الفلسطينيون يُقتلعون من أراضيهم منازلهم وأسرّتهم. لكن ما أطول الشوط الذي قطعوه منذ ذلك الحين!

«نجوماً، كنّا نجوماً. من اليابان، ومن النرويج، من دوسلدورف، والولايات المتحدة، وهولندا – ولا تندهشنَّ إذا ما رأيتني وأنا أعدّ على أصابعي – ومن انجلترا، ومن بلجيكا، وكوريا، والسويد؛ من بلدان كنّا نجهل اسمها وموقعها على الخارطة، كانوا يأتون، ليصوّرونا للصحافة والسينما والتلفاز، ويحاورونا. «كاميرا»، «في الكادر»، «لقطة متحركة»، «صوت من خارج». رويداً رويداً أصبح الفدائيّون يتموقعون «خارج كادر» الصورة، ويتعلمون أنّ من الممكن التكلّم «من خارج». وإنّ صحافياً اقتاده خالد ابو خالد على مسافة ثلاثة أمتار، راحَ يدّعي بفضل هذه المساعدة أنّه صديق الفلسطينيين. تعلّمنا أسماء مدن ماكانت لتخطرَ على بال أحدٍ منا، وصرنا نستخدم أجهزة لم نرها من قبلُ أبداً. لكن لا أحد في القواعد أو في المخيمات شاهد فيلماً أو صورة فوتوغرافية أو تلفازاً أو صحيفة أجنبية تتحدث عنا. كنّا موجودين. كنا نقوم بأشياء مدهشة بحقّ، ما داموا يأتون من بعيدٍ ليرونا. لكن أين كان ذلك البعيد؟ كان الصحافيون يقضون معنا زهاء ساعتين لأنهم كان عليهم أن يستقلّوا الطائرة في عمّان، ليحضروا بعد ساعاتٍ، في لندن، تشييع اللورد مير. كثيرون كانوا يعتقدون أنّ ياسر عرفات وأبا عمار اسمان لرجلين مختلفين، بل قد يكونان خصمين. ومن كانوا يعرفون حقيقة الإسم كانوا يخطئون إذ يضاعفون ثلاث مرّاتٍ أو أربعاً «جيش تحرير فلسطين» أو «فتح» (بعدد الأسماء والشعارات التي تحملها كلّ حركة)، متوهّمين أننا أكثر من عددنا الفعليّ بثلاث مرّات أو أربع. كنا محطّ إعجاب العالم طالما بقي كفاحنا محصوراً في الحدود التي يُجيزها الغرب للعالم العربيّ. اليوم، لم يعد ممكناً الذهاب الى ميونيخ أو أمستردام أو بانكوك أو أوسلو – لقد اندفعنا حتى أوسلو، حيث يسقط الثلج بهذه الوفرة بحيث يمكن تجميعه بقدر ما يتساقط وعجنه في كريات نتقاذفها على الأوجه. كنّا، في رمالنا وعلى كثباننا، رجال الأسطورة. فأنْ نهبط ليلاً، في مهاوي غور الأردن، لنزرع الألغام ونعود في الصباح، أكانَ ذلك

صعوداً من الجحيم أم نزولاً من السماء؟ عندما كان أوربيّ أو أوربية يُعاينناننا. . . »

كانت هذه الحكاية تصلني عبرَ فدائيّ-ترجمان، لكنّ الفدائيّ الذي يبتكرها، كان يوفّر لي الانطباع بأنه غالباً ما ردَّدها؛ كانت الكلمات في مكانها الصحيح، ومن الاستقرار في العبارة بحيث فهمتُها قبل ترجمتها. هل قرأ الفدائيّ ذلك في نظراتي؟ صار يخاطبني مباشرةً:

ـ كان جميع المقاتلين في سنّي متشابهين. كانوا مثلي. كانت نظرة الأوروبيين تتوهج ـ أعرف اليوم لِمَ وكيفَ كانت تتوهج: من الرغبة. ذلك أنها كانت تمارس فعلها على أجسادنا حتى قبل أن نلمحها. حتى عندما ندير ظهورنا، كانت نظراتكم تخترق علباء الواحد منّا. وبعفويّة، كنّا نتخذ الوقفة [«البَوز»] الملائمة: بطولية، وبالتالي مُغرية. السيقان، الأفخاذ، الجذوع، الأعناق، كان كلّ شيء يتبارى في الفتنة، لا لأننا كنّا نريد إغراء أحدٍ بالذات، ولكن لأن نظراتكم كانت تستفزّنا، وكنا نستجيب كما تنتظرون منا أن نستجيب، ما دمتم جَعَلتُمونا نجوماً. وممسوخاً أيضاً. كنتم تسمّوننا: إرهابيين. كنّا «نجوماً» إرهابيّة. أيّ صحفيّ ما كان سيمضي لكارلوس على صكّ مصرفيّ ضخم ليشرب على طاولته كأسين من الويسكي أو ثلاثة، ليسكر معه ويستمع إليه وهو يخاطبه بلا كلفة؟ إنْ لم يكن كارلوس فأبو العزّ.

ـ من هو؟

في ١٩٧١، اغتيل رئيس وزراء حسين، وصفي التل. سادَ الاعتقاد بأنّ فلسطينياً قد ذبحه في القاهرة وغمس يديه في دمه وشرب من الدم. كان اسمه «أبو العز». وهو الآن معتقل في لبنان، لدى «الكتائب». كانَ الفدائيّ الذي يتحدث إليَّ أحد مساعديه. لن أقول اسمه. عبرَ «شربتُ دمه»، هذه العبارة التي يتناقلها الصحافيون الغربيون باشمئزاز واضح، فكّرتُ أنا أوّلاً باستعارة تعني: «لقد قتلتُه». إلا ان رفيقه يقول لي إنه لعقَ بالفعل دمَ وصفي التل.

ـ ولكنّ اسرائيل تدعو جميع المسؤولين والفدائيّين العاملين في «منظمة التحرير الفلسطينية» إرهابيين. لا شيء يشفّ عن الإعجاب الذي لا بدّ أنها تمحضكم إيّاه.

ـ أكيدٌ أنّنا لسنا، في هذا الميدان، بالمقارنة بهم وبالأميركان والأوربيين، بأكثر من أقزام. وإذا كانت المعمورة بكاملها ملكوتاً للارهاب فنحن نعرف من المسؤول: إنكم توزّعون الارهاب مُتَخفّين. أما إرهابيو اليوم، والذين اتحدث عنهم، فَيعْرضون أجسامهم بطيبة خاطر. هنا الفرْق.

عندما أصبحت شرطة الشوارع، بعد اتفاقيات ١٩٧٠، تتألف في عمّان من دوريات فدائيّة وبدوية، مختلطة غالباً، كان الفدائيّون، بعدم اكتراثهم الساخر، يقرأون ويفكون رموز جميع بلدان العالم وشعاراتها، ويفحصون بسرعةٍ جوازات السفر التي كان البدو يقلبونها في جميع الاتجاهات بحذر زائد، ويديرونها بين أصابعهم المرهفة، أصابع ارستقراطيّي الصحراء. بلا ابتسامة، كان الأخيرون يعيدون ترخيصات الإقامة وأوراق السماح بالمرور وعدم التعرّض، والبطاقات الرمادية، يعيدونها مقلوبة. كان فَزَعهم ولا أوضح. ولأنهم تعرضوا للازدراء في ١٩٧٠، فقد مارسوا قتل الفلسطينيين بفرح غامر في حزيران/يونيو ١٩٧١. ما كان سبب المجزرة كامناً هنا، أمّا فرح القتل فَبَلي.

شديدة الشبه هي عمّان اليوم بالحارة التي ما تزال تُدعى «جبل عمان»، والتي تظلّ أكثر أحياء المدينة ترفاً. جدران «الڤيلات» مبنيّة بالحجارة المدبّبة في وجهها الظاهر، أحياناً بالحجم المسمى: «رأس البلّور». بثقله، بكثافته، كان هذا الركن المترف من المدينة يتعارض، في ١٩٧٠، ونسيجَ مخيمات الفلسطينيين وحتى مع صفائحها الفولاذية. فأن تكون الأنسجة بآلاف الألوان المنولَة باجتماع مِزَق قماشٍ يُرتَّق بها هذا الشق أو ذاك، فهذا ممّا كان يؤنس العين، الغربيّة بخاصة. وإذْ ترى المخيّمات من بعيد، وفي يوم ضباب، فأنتَ تخالها عامرة بالسعادة، لفرطما تبدو كلّ قطعة من الصفيح الملون وقد اختيرت لتنسجم وألوانَ القطع الأخرى. وما كان لهذا التناغم أن يسودَ إلا شعباً جَذِلاً، مادامَ عرفَ أن يجعلَ من مخيّماته متعة الأنظار.

مَنْ، عندما يقرأ هذه الصفحة في أواسط ١٩٨٤، التاريخ الذي كُتِبَتْ فيه، سيتساءل إذا لم يكن التعبير الشائع: «لقد فرَّخَتْ» لينطبقَ على المخيّمات الفلسطينيّة؟ في نقاط عديدة من المعمورة: أفغانستان، المغرب، الجزائر، أثيوبيا، إرتيريا، موريتانيا...، نرى اليوم، ربّما كما قبل أربعة آلاف سنة أو أكثر، الى شعوب كاملة وهي تعاود الانغماس في حياة رحالة، لا بفعل اختيار ولا بسبب تنمّلٍ في السيقان؛ هذا ما نراه من كوة الطائرة أو عندما نتصفح المجلات الباذخة التي يخلع ورقها الصقيل على المخيمات أمناً ظاهرياً كبيراً ينعكس حتى داخل الطائرة، في حين ليست هي سوى فضلات الأمم «الجالسة». أمم، لأنّها لم تعرف أن تصْرف «مياهها القذرة»، فهيَ راحت وتركتْها في وادٍ، على منحدرِ رابيةٍ، أو، بالأحرى، بين المدارين والاستواء.

نكتشف في الفضاء، داخل الهواء المضغوط، أنّ المدن والأمم المحصّنة، سجينة الأرض على شاكلة غيلفر، إذا كانت استخدمتْ رحّالتها من بحّارة مرتزقة وملاّحين من أمثال ماجلان وغاما وابن بطوطة، ومن كشّافين وقادة ومسّاحين، فهي قد استخدمتهم مزدريةً إياهم. ثم صار الطقس أكثر فاكثر اعتدالاً، وأكثر فاكثر حرارة، في جوار المصارف، وفي ملاذ سبائك الذهب

المخزونة في الأقبية، عندما صارت العُملة « تتنقّل » بفضل الكمبيالات.

ينبغي النضال ضدّ هذه الأناقة التي كانت ستقدر أن تُوهمنا بأنّ السعادة كامنة هنا، تحت هذا الانتشار الخياليّ الباذخ. ينبغي أن ننظر بارتياب الى صور المخيّمات تحت الشمس أو على ورق المجلات المصقول. تكفي هبّة ريح واحدة ليطير كلّ شيء، النسيج والصفائح، الزنك والفولاذ. فلقد شاهدتُ البؤسَ بأمّ عينيّ ذات يوم.

ربّما كان اجتراح الكلمات المستخدمة من قبل البحّارة شيئاً سهلاً. لكنْ أيَّ لغة كان الانسان يستخدمُ عندما يتيه، وماكانتْ له بعد مَلَكة الشعراء، بمعنى سكان الأرض السائرين والمستريحين على تربة هادئة، والمتمتّعين بالوقت الكافي لتخيُّل الفضاءات البحريّة غير المتناهية ومَهاوي القيعان و[أعاصير المحيطات المدعوّة بـ] « عواميد الماء »، بل هو مجرد بحّار يتنقل مدفوعاً، مالم يحصل تدخّل سماويّ وأموميّ، بأملِ عودةٍ غير مأمولة الى الأرض المعروفة والى جوار مدْخنة؟ أيّ كلمات كانت تنبثق حينئذ من الفم لتسمّي شاطئاً أو قطعة من الخشب، طرف السفينة أو وسطها، وهذه الخرقة المثلّثة: السارية؟ لامُدهشَ قطٌّ في أن تكون هذه الكلمات قد ابتُكِرَتْ في مسّ من الجنون وإنّما في كونها ما تزال حية على لساننا بدل أن تكون غاصت في الغرق الكبير. إنّها، وقد ابتُكِرَتْ في التيه والعزلة، أي في الخوف، إنّما تحمل الى قاموسنا تارجحاً ما يزال يجعلنا نترنّح.

للسفر من كلاغنفورت الى ميونيخ، تستقل قطاراً يتموّج عبر الكثبان، من منعطف الى آخر، وترى فيه الى مُفتّش التذاكر النمساويّ وهو يتقدم في الممرّات، بالمشية نفسها التي كانت للملاّحين عندما يسيرون على سطح السفينة في طقس عاصف. هذه هي الذكرى البحريّة الوحيدة المتبقية في مرتفعات « التيرول » من امبراطورية بريّة وبحرية ما كانت تغرب عليها، في اليابسة وعلى البحار، أيّ شمس. بيدَ أنّ هذه الهيأة المترنّحة في دهاليز القطار، عرفها أيضاً مكسمليان وشارلوت عندما ذهبا إلى المكسيك (٣). « الأغوار السحيقة » تعبيرُ مبالغة، كأغلب صيغ الملاحة، صيَغ قديمة لكن لم تُنْسَ أبداً. فعندما كان البحّارة الضائعون في الوحدة والضباب والماء والترنّح المستمر يتيهون، ربما بأمل الضياع، فهم كانوا يتيهون في اكتشافاتهم اللفظية أيضاً: كاسرات الأمواج، و« الفنسْتيرات » والدفّاقات والأقوام الغريبة و« البأوباب »، و« النياغارا »، وكلاب البحر (٤) ... وبمساعدة قاموس لا تعرفه أرملته التي تزوّجت بعده من صانع قباقب، يقصّ البحّار أسفاراً لا يخوضها أحد بلا خوف وبلا متعة. ربما كانت مياه « الأغوار السحيقة » تعادل في سماكتها أحلك الظلمات، حيث لا تستطيع أيّ عين

أن تخترق آلاف الجدران المتتالية، بحيث انّ الألوان، وقد صارت متعذرة على التمييز، لم تعد نافعة. عمّان عاصمة أقدر أن أصفها مستعيناً بالتعبير نفسه. ذلك انّ الجبال السبعة التي تتالف منها المدينة تقابلها تسعة وديان، تقعّرات لاتقدر المصارف لا وَلا المساجد أن تملأها. وعندما تاتي من الأحياء النبيلة، أقصد الأعلى والأثرى، فانت تنزل في الأغوار السحيقة، وتدهش لانّك تنحدر فيها بدون قناع الغواص، وتدرك أنّكَ بَلغتَها بالاستناد الى ما ياتي: الساقان أكثر حيوية، ورضفتا الركبتين تعملان باكثر سرعة، والقلب ينبض بإيقاع أخفَت، إلاّ إنّ صياح المارّة، وضجيج السيارات - وأحياناً فرقعة الرشاشات - تبدو وهي تتدافع كفريقَين متبارِيَين في رياضة جديدة، من أجل هيمنة مؤقتة تعطى للصرخات أو الضجيج. وهذا كلّه يولّد مزيجاً لا يتضح فيه أيّ شيء، سوى صخب غامض يُنعَت، بصورة تبعث على الاستغراب، بالأصمّ، مع أنّك أنت من يُصاب بالصمم - هذا من حيث الأذُن. أمّا من حيث العين، فهي تستقر على واجهات جميعها رماديّ، مصطفة على جانبَي شوارع «الأغوار السحيقة». لا شكّ إنّ الغبار ما يزال عربياً، والبضاعة يابانية، إلاّ إنّ طبقة معادلة من الغبار، هي على العين بمثل رقة الشعيرات داخل أذن حمار، طبقة متجمعة على البضائع المشحونة من طوكيو، ما تزال تشكل ليلاً، لكنّه ليس بالليل الكليّ. هوَ بالاحرى مضاءٌ بالغبار الرماديّ الذي يمكن القول إنّه يصنع من عمان مدينةَ أغوار سحيقة. هذه الرقّة الهابطة على آخر موديلات الصناعة الألكترونية اليابانية، آخر موديلات الأرخبيل الأكثر تقدماً في العالم، كيف تُؤولّها؟ رفض لترف مؤقت ومُعيق؟ انْطمار لا رجوع فيه؟ صورة لمستقبل نهائيّ سيؤول إليه كلّ شيء؟ رقّة تريد أن تسبغ شيئاً من الرهافة على أكثر الأجهزة فظاظة؟

لكنْ هل علم الفلك هو هذا العلم الذي كان سيضارع اللاهوت في عدم جدواه لو لم يكن البحارة، المدفوعون بخوفهم من الأغوار السحيقة والشواطئ الصخرية الكاسرة، يسردون أسماء السماء وكواكبها؟

من عمّان، مدينة مملكة داود، المدينة النبطية، فالرومانية، فالعربية، الآتية من غور العصور، تتصاعد نتانةٌ طينيّة.

لمّا كانت العناية الإلهيّة الهادية ماعادت مقبولة، فلم يبقَ سوى الاقرار بالصدفة. بفضلها اكتشفتُ الطريقين اللتين تقودان الى مصر بعض شبّان المغرب العربيّ المصمّمين على الموت من أجل «فتح»، المنظمة الوحيدة التي كان اسمها في ١٩٦٨ معروفاً من لدن جميع العرب. ولما كان بورقيبة يؤْثر الدبلوماسية على الحرب، فهو قد منعَ أن تقوم على تراب تون

شبكات المتطوّعين التي كانت مع ذلك تجتازه. أكان يُطبق عينيه، أم أنّ الشيخوخة الزاحفة كانت تجعله يُطيل قيلولاته؟

بعض الكلمات يستحقّ، أكثر من كلمات أخرى مجهولة هي أيضاً، أن يُستَكْنَه. وحتّى إذا لم نسمعها سوى مرّة واحدة، فإنّ موسيقاها تفرض نفسها، وكلمة «الفدائيين» واحدة من هذه الكلمات. في القطار، بين سوسة وصفاقس، تعرّفت على مجموعة من ستّة شبّان كانوا يضحكون فيما يأكلون السردين المعلّب والجبْنة. كانوا فرحين، لأنّ لجنة الفحص عدّتهم غير صالحين للخدمة العسكرية، وفهمتُ منهم أنّهم تصنّعوا البلاهة والجنون والاستمناء الذي يصيب بالصمم. لعلّهم كانوا في سنّ العشرين. تركتهم في صفاقس. نزلت إلى الرصيف. وسألتقيهم ثانيةً في جوارِ نافورةٍ للماء، يأكلون من معلّبات أخرى، لكن، بدلَ أن يردّوا على تحيتي وابتسامتي، بدت عليهم أمارات الحرج. خفضَ بعضهم عينيه ليتفحّص ثقوب الجبْنة الصفراء، أمّا الآخرون، وقد تذكّروني، فقد بدأوا بصوتٍ خفيضٍ محادثة سريعة فهمت منها — إلاّ إذا كان أحدٌ أخبرني بذلك — أنّهم نزلوا من القطار من جهة السكّة حتى لايراهم مفتش محطة صفاقس. في اليوم التالي، حملهم قطار الى «مدينة» حيث أقاموا في فندق صغير. وفي المساء اجتازوا الحدود الليبية.

حدث هذا في مطلع صيف ١٩٦٨. كنت أذهب الى صفاقس غالباً. سألني أحد عمّال الفندق إن كانت تونس تعجبني — على هذا النحو تبدأ دائماً العلاقات الغرامية بعد نظرة متبادلة. قلتُ أنْ كلاّ.

ـ تعال لملاقاتي هذا المساء.

إلتقينا قرب مكتبة.

ـ سأقرأ عليك وأترجم لك ما قرأت.

أخرج لنا الكتبيّ بعض الكراريس الشعرية العربية من تحت صفوفٍ من الكتب، حاسباً أنّها كانت مخفيّة جيّداً. فتحَ باباً وأدخلنا في حجرة صغيرة. قرأ الشابّ أولى الأشعار المهداة الى «فتح» والفدائيّين. رأيت خصوصاً الخطوط العربية المتفنَّن بها في مطلع كلّ بيتٍ، الى اليمين.

ـ لِمَ هي مخبأة؟

ـ لاتريد الشرطة لها أن تنتشر. تعلم أنّ مهندسين أميركان وڤيتناميين من سايغون يعمّرون الجنوب التونسيّ. وبورقيبة يخشى المشاكل مع أمريكا ومع إسرائيل. لقد اعترفت حكومتنا بسايغون. تعال معنا غداً. نحن ثلاثة، نسافر الى مسافة اربعين كيلومتراً خارج المدينة. بالسيّارة.

ـ لعملِ ماذا؟

ـ سترى. ستسمع.

لم تُثِرْ فيَّ القصائد، ترجمتها بأية حال، أيّ انفعال آخر سوى هذا الذي أثاره جمال الخطّ العربيّ. تتكلّم عن المعارك وعن النكبة، ولكنّني لم أفهم من استعاراتها، الخطيبة والطير والعسل، شيئاً. في اليوم التالي، حوالى الخامسة مساءً، أخذني الشبّان الى الصحراء. أوقفوا السيارة عند ملتقى طريقين صحراويّين. في السادسة، استمعنا الى المذياع. كان يبثّ بالعربية خطاباً لبورقيبة. وكان الشبان يخرجون بين الفينة والفينة عن طورهم، يسخرون. ومع انتهاء الخطاب، انتهجنا طريق صفاقس ثانيةً.

ـ لِمَ هذه الرحلة؟

ـ هي، منذ سنتين، متعتنا في الاستماع إلى بورقيبة وهوَ يخطب في الصحراء.

ثمّ، بجديّة أكثر، أروني طريقين صحراويتين تلتقيان في الرمال: تمرّ الطريق الأولى بالجنوب مع قوافل الجِمال، والثانية بشمال تونس. كلتاهما آتيتان من موريتانيا، والمغرب، والجزائر، في اتّجاه طرابلس الغرب، والقاهرة، فالمخيّمات الفلسطينية. كان مُنتهجو طريق الشمال يأتون بـ«الأتوستوب» أو يسافرون في القطار بلا تذاكر، مادام المفتّشون لايمعنون في الالحاح، وهذا ما عرفته من أحدهم. أمّا الآخرون، المارّون بالجنوب، فيتبعون قوافل البدو مختلطين بها. كانت حدود الملك إدريس مفتوحةً لهم. ومن طرابلس الغرب، وبعد تدريب عسكريّ يدوم أسابيع، يتجهون الى القاهرة، بالقطار، ومن القاهرة الى دمشق أو عمّان، لم أعد أتذكّر كيف.

نسيت أن أقول إنّه، عبر هذا المسار «غير الشرعيّ»، كان مدّ من المقاتلين الآتين من أقطار المغرب الأربعة أو الخمسة ينهمر على المخيّمات الفلسطينية لمساعدتها. عبرَ هذا، ببساطة، عرفتُ قوة النداء والأصداء والتردْاد شبه الفوريّ الذي كان للمقاومة الفلسطينية في

العالم العربيّ. لاشكّ أنّه كان ينبغي مساعدة الفدائيين في رفض الاحتلال الصهيونيّ بالرغم من اميركا، إلاّ إنّني كنتُ ألمح تحت هذا الإلزام إلزاماً آخر: كان شعب كلٍّ من الأقطار العربية يريد ان يتخلّص من الاستعبادات القديمة: فالجزائر وتونس والمغرب، بهزّها أوراقها كالأشجار، أسقطت الفرنسيين الذين كانوا متخفّين فيها؛ كوبا أسقطت أمريكيّيها، وفي ڤيتنام الجنوبية لم يعد الأخيرون ليتمسّكوا إلاّ بخيطٍ للعذراء، أمّا مكّة، الباهت لمعانها، فماعادَ لديها من حجّاج.

حوالى تلكَ الفترة، كان الوزير بن صالح قد أدخل في المحادثات التونسيّة هذين الرقمين: ٤٩ و٥١؛ أي واحد وخمسون بالمائة للحكومة وتسعة واربعون بالمائة هي نسبة الربح المتروكة للأفراد؛ وكان ٥١ يمثّل يومذاك الرجال، و٤٩ النساء. ربّما بدافع اللعب قطعَ بن صالح إيماءات التجّار، ممّا أعطى أسواقاً مشذّبة: أشجار «لونوتْر» (٥) وباعة السجّاد يحدّقون، هزيلين، مجدوعي الايماءات، بالأرض كأنّهم يبحثون عليها عن أغصانهم المقطوعة. أمّا عين بورقيبة الزرقاء السماويّة فماكانت لتتطلع إلاّ الى واشنطن. في كلّ قرية في الساحل، من الشمال الى الجنوب، كان خزّافون تونسيّون يديرون كأنّما بلا كللٍ ملايينَ الجرار العائدة إلى ما قبل ثلاثة آلاف سنة، جرار مكتشفة دائماً في غور البحر على أيدي صيّادي الاسفنج، معبّأة أبداً بالزيت المحفوظ في الوحل منذ العهد القرطاجيّ، مجدّدة كلّ صباح، وما تزال ساخنة قليلاً من جرّاء الفرن المطفأ منذ لحظة. من هذه الحقيقة كنتُ أرى الى تونس وهي تتضاءل: صلصاليّة بكاملها في النهار، تُدوَّرُ وتُباعُ على هيئة جِرارٍ من الطين المطبوخ لفتياتٍ نرويجيّات. كنتُ أقول لنفسي إنّها ستنتهي الى الاندثار، تونس هذه.

بعد ذلك بأسابيع، نحوَ منتصف آيار / مايو ١٩٦٨، عثرتُ ثانيةً في باحة جامعة السوربون بباريس على كراريس الشعر العربيّ هذه، إنّما بلا خطّ باذخ، تُغنّي مجد «فتح». أعتقد أنّ الطاولة التي تعرضها كانت تُجاورُ كتبَ ماو؛ في آب / أغسطس سحقَ الاتحاد السوڤياتيّ ربيعَ براغ.

كان الشبان التونسيّون الذين قابلتُ في الجنوب التونسيّ بين الثامنة عشرة وعشرين سنة يومذاك: سنّ الاغتلام والاغراء من أجل الاغراء، أو الاغراء من أجل الاغتلام والهزء من

الأخلاق العائلية المُعلنة وغير المعيشة أبداً. كان للشبيبة هذا القدر من الاندفاع، بل من الوقاحة، سيّما وأنّ عبد الناصر كان يشجّع تمرّدها وأنّ البعض كان في أماكن أخرى يتهيأ للموت. كانت شبيبة تونس هي هذه، وأدركتُم من قبلُ أنّني قلتُ إنّ شطراً منها كان كما وصفتُ، والشطر الآخر يتهيأ ليصبح شعباً من ندُل المقاهي وخدم المطاعم، خدم لبضعة صفوف [في المطاعم] أو رؤساء خدمٍ بضعةَ صفوف. ويشكّل خدم الطوابق [في الفنادق] الدرجة الأخيرة صوب السماء: كان شبّان طوابقَ جميلون شبه عراة، ومتزوّجون أحياناً، يغادرون تونس في الدرجة الأولى في الطائرات، صحبةَ مصرفيّ سويسريّ، ونادراً صحبة مصرفيّة، وانتهى آيار/مايو ١٩٦٨. في عمّان، راح نضال الفلسطينيين، الخافت في البدء، ضدّ الملك حسين، يتصلّب.

إنّ بعض الكلمات حول الجِرار تتسبّب لي بالحكّة، وأريد أن أفصح عنها. رأيتُ الجِرار تُصنَع. كان الصلصال على بُرج الخزّاف، والخزّاف يديره بقدمه، فيجعلني أفكّر بالفلاّحة التي تدير بقدمها ماكنة خياطة من علامة «سنجر»، وعندما تقارب الجرّة الاكتمال يرفعها عن البرج ويرميها في صندوق، فتنكسر، وكان مساعدٌ يعجن قطع الصلصال الماتزال طريّة ويصنع منها كتلة متماسكة قابلة للمزج بتلّة الصلصال المجهّزة للبرج، ذلك أنّ الخزّاف كان قد ارتكبَ في اللحظة الأخيرة خطأً لا يُدرأ. كانت إحدى أصابعه، ربّما الابهام أو إصبع سواه، بباعث من التعب أو لسبب آخر، قد ثقبت الجرّة باستنادها عليها أكثر من اللزوم، أو أحدثت عيباً مشابهاً. كان ينبغي البدء من جديد، فلن تُثبت الجرّة عتقَها الألفيَّ ثلاثاً. مابرحَ الخزّافون اليابانيّون، اليوم أيضاً، يلعبون والحادثَ، وبالتالي فلن يدركهم الهرم أبداً. وسواء كان الحادث آتياً من طبيعة الطين، أو برج الخزّاف، أو الفرن، أو البرنيق، فهم يترصّدونه ليُفاقموه أحياناً، وفي جميع الأحوال لينطلقوا معه في مغامرة جديدة، مغامرة شكلٍ أو مسحة قاعديّة، قد تكون أكاديمية لكن مجروحة بخدشة ظفْرٍ، أو بالطبخ الهيّن أو العالي أكثر من اللزوم، ويروحون يُلاحقون هذه الهفوة، يطاردونها بهوَسٍ، يعملون عليها، ضدّها، حبّاً بها، حتّى تصبح مقصودة، تعبيراً ما عن أنفسهم. وإذا ما أفلحوا شعروا ببالغ الرضى: النتيجة حديثة. أمّا النتيجة التونسيّة فليست كذلك أبداً، لكنّ المصرفيين السويسريّين لا يهيمون بالخزّافين اليابانيّين. والى الأسباب التي ذكرتُ أعلاه – الشبيبة المفعمة عنفواناً تذهب للنضال الى جانب الفلسطينيين – ينبغي أن نضيف قرفَها من الجِرار الألفيّة.

في بلدهم، كان الشبان التونسيون الذين أتحدث عنهم يتطلعون حولهم ويجدون مَن يُطوّعون: فلاحين [يميّزونهم] من كلامهم الأخرق، آتين من الجنوب من قرية ماتزال مهملة في

خارطة الأمطار، أو السيّاح الفرنسيين سهلي الاقناع. عينهم الفحميّة تعمل بقدر لسانهم المتدلّي. تبدو سرعة الثرثرة ناجمة عن منشّط (أمفيتامين)، في حين كانت هذه الشبيبة المفلوقة تكرّر ماحفظتّه ببساطة، مادام مذيعو التلفزيون الفرنسيّ كانوا معلّميهم الوحيدين: «بفضل النسيج الاجتماعيّ وإزالة الجُنوح الزاحف، لن يعود النجاح على جميع الأصعدة ليعتمد إلاّ علينا لنيل أكبر العوائد الممكنة بفرض أرقى السلع حتّى إذا كانت مقاربة الميادين المستحدَثة تتطلب أجهزة بالغة التعقيد من آخر صيحة». لكنْ خارجَ تونس، سواء بالعربية أو الفرنسيّة، لامزعجَ كان ينبسُ ببنت شفة. ذلك أنّه كان يلزم أفعالٌ، ومن أكثر مايمكن وقاحةً، على حين تبدأ القيلولة في تونس في الثانية بعد الظهر. ممدّداً على ظهره، كان بورقيبة ينام.

ومع ذلك فقد كان شيّقاً الحلم بأولئك الفلسطينيين، ولا أحد، إلاّ في اسرائيل، كان يعرف انّ جميع الأقطار العربية في آسيا ستطردهم؛ لا أحد كان يعرف ذلك ومن قبلُ كان كلّ واحدٍ يتمنّى هذا الخروج، وينظّمه برياء. فلسطينيّ واحد، ويكون الغليان. في ١٩٨٢، كان وصولُ الفلسطينيين إلى تونس العاصمة شيئاً ذا بالٍ بالنسبة الى هذا الشعب الخَدِر، الذي فيه شيء من التركيّ، وشيء من الايطاليّ، وشيءمن البروتانيّ [نسبة إلى مقاطعة البروتانيّ La Bretagne الفرنسيّة]، عنيتُ الشعب التونسيّ. أكثر من ألف فلسطينيّ، وفي وسطهم عرفات نفسه.

هنا، لا قبلُ ولا بعدُ، عليّ أن أقول ما كانته «فتح». قبلَ هذا، كان مبتكرو تسميات عديدة لحركات فلسطينية قد استخدموا اللغة العربية كأطفالٍ وفقهاء لغةٍ في آنٍ معاً. لذا سأحاول تأويل المفردة «فتح» متيّقناً من أنّني لن أصوّر ثراءها أبداً.

ف. ت. ح.، ثلاثة حروف صحيحة تشكل بهذا الترتيب جذراً ثلاثيّاً يدلّ على شقّ، صدع، انفتاح، بل حتى على نصرٍ وشيكٍ على أنّه مشيء من لدن اللّه. تشير «فتح» الى الرتاج أيضاً، مادامت تستدعي المفردة «مفتاح» التي نعثر فيها على الحروف الأساسيّة الثلاثة، تسبقها «الميم». كما يوجّه الجذر الثلاثيّ نفسه «الفاتحة»، السورة الأولى في القرآن، التي تفتتحه. وهذه الحروف، ف. ت. ح.، هي الأحرف الأولى للكلمات «فلسطين» و«تحرير» و«حركة». وإنّما لتوليد «فتح» قُلِبَ ترتيب كلمات العبارة [«حركة تحرير فلسطين»].

لاشكّ أنّ «ماكرينَ» كباراً قد استأنسوا [بابتكارها].

أستعيد: «ف» لـ «فلسطين»؛

«ت» لـ «تحرير»؛

«ح» لـ «حركة».

لو قرأناها بعكس الترتيب، نِلنا «حتف». هذه الكلمة، إذا كانت كلمة، لا تعني شيئاً [كذا].

في الكلمات الثلاث: «فتح» و«مفتاح» و«فاتحة»، أعثر على الدلالات الثلاث التالية، إنّما سريّة:

«فتح»، التي تعني شقّاً، صدعاً، انفتاحاً وإذْن انتظاراً، أراده الله، لنصرٍ؛ انتصار شبه سلبيّ؛

«مفتاح»، التي يتكشّف فيها، شبهَ مرئيٍّ، المفتاح في الشقّ أو الرتاج؛

و«فاتحة»، الكلمة الثالثة الطالعة من الجذر نفسه، وهي أيضاً انفتاح، أو افتتاح، ولكن قرآنيّ. السورة الأولى للقرآن حيث ألمح الدلالة الدينية. وعليه، فوراءَ هذه الكلمات الثلاث الطالعة من هذا الجذر الذي أعطى «فتح»، إنّما تترصّدنا الأفكار الثلاث للنضال (النصر) وللعنف الجنسيّ (المفتاح في القفل) وللمعركة المكلّلة بالظفر بعناية من اللّه.

على القارىء أن يقرأ هذا التأويل الطويل كدعابة، إلاّ إنّ اختيار المفردة «فتح» وترتيبها قد شغلاني بما فيه الكفاية لأعثر فيها على الدلالات الثلاث التي تحدّثت عنها، مادمتُ وضعتُها فيها من قبل. تتكرر المفردة «فتح» في القرآن ثلاث مرّات أخرى.

هذه الصورة للفدائيّ أكثر فأكثر تعذّراً على المحو. يستدير في الطريق: لن أرى وجهه بعد الآن، لن أرى سوى ظهره وخَياله. وفي اللحظة التي لن أستطيع فيها أن أكلّمه بعد الآن ولا أن أسمعه، أشعر بالحاجة لأن أتحدّث عنه.

يبدو أنّ الامّحاء لا يعني الاختفاء فحسب، وإنّما ضرورة ملئه بشيء مختلف، ربّما كان هوَ نقيض ما يمحوه. كما لو كان ثمة ثغرة في المكان الذي يختفي فيه الفدائيّ عن الأنظار. ذلك أنّ رسماً ما، صورة ما، بورتريتاً ما، يريدون استدعاءه، بجميع معاني هذه الكلمة [التذكير به ومناداته]. يستدعون الفدائيّ من بعيد – بجميع معاني التعبير الأخير

[البُعد في المكان والشبَه البَعيد في الصورة]. أفَكانَ يريد الاختفاء حتى يظهر «البورتريت»؟

كان ألبرتو جياكوميتي يرسم أفضلَ مايرسمُ نحوَ منتصف الليل. في أثناء النهار يكون قد عاينَ بتركيز حادّ – لا أقصد أنّ ملامح «الموديل» كانت في داخله، فهذا شيء آخر. في كلّ يوم، كان ألبرتو يُعاين للمرّة الأخيرة، يسجّل الصورة الأخيرة للعالَم. في ١٩٧٠، عرفتُ الفلسطينيين، وكان مسؤولون مغتاضون عديدون قد طالَبوا تقريباً بأن يكتمل هذا الكتاب. خشيتُ أن تدلّ نهايته على نهاية المقاومة. وذلكَ لالأنّ كتابي سيكون قد أوضحَ ماهيَ المقاومة؛ بل ماذا إذا كان قراري بإذاعة ما كانتْه سنواتي مع المقاومة يدلّني على أنّها تبتعد؟ ذلك أنّ شعوراً لايُسمّى يُنبئني: إنّ الثورة تتهافت، تتعب، وقد تنعطف في الدرب وتختفي. ستُصنع منها أناشيد بطوليّة. ذلك أنّني عايَنتُ المقاومة كما لو كانت ستختفي غداً.

لمن يراهم على شاشة التلفاز، أو لمن يشاهد صورتهم في الصحف، كان الفلسطينيون يبدون وهم يدورون حول الكرة الأرضية، وبمثل هذه السرعة بحيث كانوا في الوقت نفسه هنا وهناك. ولكنّهم أنفسهم كانوا يعرفون أنّهم مُغَلَّفون بجميع العوالم التي اخترقوها. فهل كنا، هم ونحن، على خطأ محقق، أم أنّنا، في حاشية وهمٍ قديم، فجرُ حقيقةٍ جديدة؛ الوهم والحقيقة نفسهما اللذين ارتطمَ أحدهما بالآخر عندما اصطدم وهم بطليموس بالحقيقة الجديدة، والتي هي بلا شك مؤقتة، تلكم هيَ الحقيقة الكوبرنيكيّة؟ يحسب الفلسطينيون أنّهم مطاردون من قبل الصهيونية والامبريالية والأميركانيّة. في أكثر اللحظات هدوءاً، أي نحو المساء، كنا محتمين بحيطان شقّتنا الحجرية في قلب مبنى «الهلال الأحمر الفلسطينيّ» بعمّان. كان ألفريدو يُملي عليَّ بعض العناوين. وها هي صرخة، بل بالأحرى عويل، يمزّق المساء. لقد أعولت السيدة الفلسطينية الخمسينية. كانت هذه الفلسطينية قد رحلت شابة الى «النبراسكا» وأثْرَتْ. ما زلتُ أتذكّر محيّاها ولكنتها الأمريكية (٦)، وثيابها السوداء أبداً. فسواء تعلّق الأمر بصدارٍ وتنورة واسعة أو ضيقة أو بسراويل طويلة، أو بمعطف مبطن بالفرو الأسود، وسواء كان ملبسها من نسيج رقيق أم غليظ، كان كلّ ما ترتديه أسود اللون تماماً: الأحذية، والجوارب، والعقود السُّبحية السوداء، والشعر والوشاح الذي يُمسك به. كان وجهها قاسيَ الملامح، وكلامها مقتضباً وناشفاً، ونبرة صوتها حَلْقية. ولم يُسرَّ رئيس «الهلال الأحمر الفلسطينيّ» الذي وضع تحت تصرّفها غرفة وكذلك صالون المركز، لم يسرّ لنا من حكايتها إلاّ بما يأتي: كانت في منزلها في «النبراسكا»، جالسة أمام التلفاز، حين رأت الى صور الفدائيّين وهم يُذبَحون على أيدي البدو. فأطفأت التلفاز وعدّاد الكهرباء وتلقّفت حقيبتها اليدوية وجواز سفرها ودفتر الصكوك، وأقفلت باب بيتها متعدّد الأقفال، ومرّت

بمصرفها وحجزت، في وكالة للسفر، مقعداً بالطائرة الى عمّان. ومن مطار عمان جاءت بسيارة الأجرة لتقدم خدماتها للهلال الاحمر الفلسطينيّ الذي وجد نفسه في غاية الحرج، لانّه، خَلا توقيع الصكوك (وهذا ما قامت به الى حدّ الافلاس)، لم تكن هذه الفلسطينية باذخة الثروة لتحسن القيام إلاّ بشيء واحد: أن تجلس أمام التلفاز، حتى بدون أيّ ترف في الأثاث، لتشاهد أفلاماً أمريكيّة.

ماكنّا نكلمها إلاّ لماماً. كانت تتقن الأميركية ولا تكاد تعرف العربية. إلاّ إنّ صرختها، التي فهمناها بعدَ ذلك بقليل، أوقَفتْنا على انصعاق الفلسطينيين عندما اكتشفوا فجأة أنّ جميع أمم العالم تطاردهم. كانت في ذلك المساء تبحث لا على التعيين عن محطة تلفاز تساعدها في تزجية الوقت. فراحت تضغط على الأزرار الواحد بعد الآخر. ولم تعثر إلاّ على حوارات متبادلة بالعربية. ولقد أُنقِذَتْ من سأم زوال النهار وصمتنا أنا وألفريدو، ومن صخب عمان البعيد، الأصمّ، وإذا بإحدى الشخصيّات تنطق بعبارة كاملة بلكنة أميركان بروكلين. لكنّ الشخصية الثانية، وهذا هو باعث الصرخة، ردّت بجملة منطوقة بالعبرية: كان تلفزيون عمّان قد التقط في تلك اللحظة بثاً آتياً من تلّ أبيب. على الفور، وبيدٍ مرتعشة من الغضب، قطعت السيدة الفلسطينية الجملة العبرية. عادَ السكون. لئن كان الفلسطينيون يذهبون دفعةً واحدة الى أوسلو، ومن هناك الى لشبونة، فهم يعرفون أن ثمة من يُعْلِم عن مسار رحلتهم في هذه اللغة الممقوتة.

كانت الحجرات فارهة في «ڤيلاّت» جبل عمّان؛ أربعة صالونات: واحد من طراز لويس الخامس عشر وآخر من الطراز «المُديريّ» (٧)، وثالث من الشرقيّ، ورابع من الحديث، وأحياناً الحديث على الطريقة الأمريكيّة؛ جدران غرفة الصغار مغطّاة بقماش «البركال» وغرفة المربيّة بـ «الكريتون». كان الخدم والطبّاخون والبستانيّون وخدم الغرَف والمساعدون من كلّ نوعٍ يذهبون للنوم في ضواحي عمّان، في مخيّم «الوحدات» أو، على مسافة عشرين كيلومتراً، في مخيّم «البقعة». كانت باصات للخدم تقلّهم في المساء، غافين من الآن، وتعيدهم في صباح اليوم التالي وقوفاً إنّما مايزالون غافين أيضاً. وكان حارس يبقى ليعدّ الفطائر والشاي لاستيقاظ السادة. وعليه، ففي عالم اللاجئين هذا، كان السادةِ والخدم متساوين. ولقد أثبتتْ كلمة «لاجيء»، التي صارت فيما بعدُ لقباً اجتماعياً أنّها تعادل لقبَ ملاّكين بالقياس الى أصحاب «الڤيلاّت» المبنية بالحجر المقصوب الذي يصمد بوجه الرياح؛ لقب يهدِّد، إنّما بَعدُ بلا قسوةٍ مفرطة، مخيّماتِ الأنسجة المرقّعة.

«أنا كفؤكَ، أنا لاجيء، أنا أعلى منكَ، بيتي مبنيّ بالحجر المقصوب. لاتتسبّب لي لاباذى ولا بحُزن، أنا لاجيء، ومثلكَ مُسلم.»

ولقد بَدا الخدم، الماخوذون بالذهاب والمجيء بين المخيّم والڤيلاّ، قابلين، بفخرٍ، بتدنّيهم. ثمّ جاء العام ١٩٧٠ ليُبلبلَ الناس أجمعين. قدّم موسرون فلسطينيّون غرَفهم لخدمهم مؤقتاً. بعضهم، عن حذرٍ، اكتفى بتناول الطعام المُعَدّ في المنزل. منذ أيلول/سبتمبر، وبين ليلة وضحاها تقريباً، صارت الديموقراطية هي الموضة. خفْيةً أوّلاً، ثمّ جهراً، راحت الفتيات يرتّبن فراشهنّ بانفسهنّ، بل يذهبن الى حدّ إفراغ منافض الصالون. ذلك أنّ الخدم من الرجال حملوا البندقية ليشاركوا في معارك عمّان. أصبحوا أبطالاً، أو قتلى، وهذا أفضل، ماداموا شهداء. ولأسبابٍ عديدة، كان على الفترة أن تظلّ موسومة بهذه التسمية: «أيلول الأسود».

شاءت أسرٌ ألمانية عديدة أن تؤوي فدائيين جريحين كانوا [في المخيّمات] يُعالَجون في مستشفيات متنقّلةٍ كمستشفى الدكتور ديتر الذي سأتكلّم عنه بما فيه الكفاية لتعرفوا أنّه أقام مدرسة للممرّضات في مخيّم غزّة، في ١٩٧١. أخذني إليها عصراً ذاتَ يوم، بعدما انتهى من عيادة الجرحى أو المرضى. دخلتُ معه في الحجرة الوحيدة في أحد منازل المخيّم. إستقبلنا المسؤول السياسيّ وأبَوا كلّ فتاةٍ عازمة على تعلّم أوّليّات التمريض.

شربنا الشاي طبعاً. بدأ ديتر درسه أمام سبّورة سوداء معلّقة الى الحائط، راسماً شخصاً ذكراً مع أعضائه التناسليّة. لا فحسب لم يضحك أحدٌ أو يبتسم، بل لقد ساد صمتٌ مقدّس. كان المترجم الفوريّ لبنانيّاً. أوضح ديتر دورة الدم بطباشير ملوّنة. رسمَ الشرايين والأوردة، هذه بالأزرق، وتلك بالأحمر. عيّن القلب، والرئتين، والمناطق الحيوية، وموضع الألياف المُرتجلَة وشكلها. ومن القلب، والقحف، والرئتين، والوتين، والشرايين، والفخذين، انحدرَ الى العضو الذكريّ:

- يمكن أن تستقرّ هنا الرصاصة أو العبوة.

رسم، إذَن، الرصاصة قرب العضو. لم يموّه على أيّ شيء بيده أو صوته أو كلماته. أعرف أنّ هذه الصراحة كانت مثمّنة من قبل المسؤول والآباء. وماكان يشغل بال ديتر هو نقص الأطباء والممرّضين - والممرّضات أيضاً - في المخيّمات.

- سيتعلّمنَ الأساسيّ، في عشرين درساً، لكنّي لن أمنحهنّ شهادات أبداً: هذا ما يُلزم به المسؤولون السياسيّون والعسكريّون. سيتبعنَ الفدائيين ويعالجنَ الجرحى. لكن لن يذهبن الى عمّان ليُقدّمن أقراص الاسبرين أو يهيّئن حمّاماتِ أقدامٍ للسيّدات المليارديرات في جبل

عمّان.

ثمّة الكثير من الفلسطينيين في رينانيا [بألمانيا]. يعملون في المصانع، ويجيدون الكلام بالألمانيّة التي تُحال فيها الأفعال عادةً إلى آخر الجُملة. ويتعلّم صغار الفلسطينيين من أمّهات ألمانيّاتٍ العربيةَ وتاريخَ فلسطين ويسمّون باسم صانع المجزرة جميع قصّابي دوسلدورف ذوي الصدريّات الملطخة بدماء الأبقار.

لاحظتُ، منذ وصولي الى قواعد عجلون، العريف الفلسطينيّ الأسود الذي كان الفدائيّون يردّون عليه أو ينادونه إن لم يكن باحتقار، فعلى الأقلّ بسخرية. هل كان لون بشرته هو السبب؟ قال لي فدائيّ يتكلّم بالفرنسيّة أنْ كلاّ، ولكنّه ابتسم. لمّا كان شهر رمضان قد حلّ، فإنّ المقاتلين كانوا ينقسمون الى مؤمنين، وقليلي الايمان، وغير مُبالين. كان الأخيرون يتناولون الطعام. ولعلمه بكوني مسيحيّاً، جعلَ العريف سماطاً يُفرَش على الأرض، وطرح عليه إناء شوربة وقدْراً من الخضار وقال لي أن أتعشّى، وبقيَ واقفاً، امتثالاً لتعاليم القرآن. كان عليّ أن أختارَ بسرعة: أن أرفض، وهذا يعني أن أرفض دعوة رجلٍ أسوَد؛ أو أقبل وهذا ممّا يُحيل المعاملة الخاصّة مرئية أكثر من اللزوم؛ فَبدا لي تناول القليل حلاًّ وسطاً أنيقاً. ثمّ إنّ بضع كسْرات خبزٍ مغمّسة بالشوربة كانت تكفيني. وكان مقاتلان واقفين ورائي. عندما حسبتُ الاكتفاء مهذّباً، نهضتُ، فأمرَ العريف مقاتلَين باحتساء ماكنتُ بدأتُ بتناوله. أدركتُ من حرارة وجنتيّ أنّي قد احمررتُ. أنْ أقول لعريفٍ إنّ الفدائيين يأكلون معي لابَعدي، وخصوصاً لا من فضلة طعامي، فلا بأس، لكنْ أن أقول ذلك لأسوَد؟ كان ينبغي خصوصاً عدم إعارة الحدث أهميّة. فسكتُّ. أأجلسُ قربَ الفدائيين وأسألهما قطعةَ خبز؟ لاحظ الفدائيّان كلّ شيء، إلاّ العريف الأسود، فلم يلاحظ، كما يبدو لي، شيئاً.

عندما يتذكّر الفلسطينيون، فهل يرون أنفسهم في الملامح والايماءات وأوضاع الجسد والأعضاء والثياب المضحكة التي كانت لهم قبل خمس عشرة سنة؟ أيرون أنفسهم من القفا، مثلاً، أم من جانب؟ وهل هذه الصورة عن أنفسهم، من القفا أو من الوجه، هي هنا، إنّما أكثر فتوّةً في قلب الحدث الذي تسترجعه الذاكرة؟

مَنْ منهم يتذكر المشهد الذي حضرتُه تحت أشجار عجلون، بعد معارك عمّان بأيام؟ كان الفدائيّون قد بنوا خميلة صغيرة مسقوفة بأوراق الأشجار، ووضعوا في وسطها طاولة، أي

أربعة ألواح أفقية مرتبكة على أربعة قوائم مغروسة في الأرض – أربعة أغصان متينة مقطوعة ومشذّبة – وكذلك مصطبتين ثابتتين في كلّ جانب من الطاولة. فاجأنا رمضان، كما كان متوقعاً، بهلالٍ منفرج ناحية الغرب. كنا تعشّينا في حلقات، قرب الخميلة، وها نحن جالسون على الطحلب، شَبِعين، حولَ الدست الساخن، لكن الفارغ، نصغي الى ترتيل آياتٍ من القرآن. كانت الساعة نحو الثامنة مساءاً.

-« هذا الرجل وحش»، يقول لي محجوب الذي بدا أكثرنا جوعاً في تلك الأمسية. ويواصل: إنّه، منذ نيرون، أوّل رئيس دولة يشعل النيران في عاصمته نفسها.

إستطعتُ، بمساعدة افتقاري المعهود الى كلّ اعتداد قوميّ، أن أجيب:

-عفواً يا دكتور محجوب، إنّنا نحن من قمنا، قبله، بنفس ما قام به نيرون. فعندما طلبَ أدولف تيير س (٨)، قبل مائة سنة، الى الضباط البروسيين أن ينسفوا باريس انطلاقاً من « فرساي »، فهو قد قام بما هو أكثر وأعنف مما يقوم به [فلان] الآن. وكان بمثْل قصرَه.

كانت نجمة الرعيان في الأفق، فذهبَ محجوب، الذي كان مبلبلاً نوعاً ما، لينام في الملجأ. وكان بين عشرة واثني عشر فدائيّاً، تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثالثة والعشرين، قد اندسّوا منذ لحظات في الخميلة الغاصة بهم تقريباً، والتي تركوا لي فيها مقعداً بينهم. تكلّف أحد الفدائيّين بالحراسة، أمام الباب. دخل رجلان، مقاتلان بالطبع، شبه طفلين، ولكنهما يدّعيان الفحولة بما انّ كلاً منهما كان يحمل تحت أنفه بعض الزغب. راح كلّ واحد يزن الآخر من نظراته كما يُقال ويحاول تجفيله. وقفا أمام الطاولة، واختارا وضعيتين متقابلتين، بشيء من العجرفة والصّلف. صَعَّدَ كلّ منهما بنطاله ليحمي من كلّ تجعدٍ ممكنٍ ثنيةَ الكيّ غير الموجودة. كنت جالساً على المصطبة الثالثة، صامتاً ومنتبهاً، مثلما طُلِب مني أن أفعل. سحبَ مقاتل كان قريباً مني يده من الجيب الأيسر من بنطال الفهود، وأخرج منه، بحركة شديدة الانسانية ولا تُستَخدَم في الوقت نفسه إلاّ لمناسبات احتفالية نادرة، حزمة من أوراق اللعب (البوكر)، خمسين بطاقة منحَها لأحد اللاعبيَن ليقطعها، ثم نشرها كمروحة على الطاولة أمام اللاعبين الاثنين. سيطر أحدهما على اللعبة وجمعَ الأوراق، في شكل متوازي الأسطح، وبعدما تفحَّصها، قام بخلطها كما يلزم، وتقاسمها وَرَديفَه. كان كلاهما صارم الملامح، شبه شاحب من فرط الريبة، مزموم الشفتين، متشنج الفكين، غارقاً في صمت ما أزال أسمعه حتّى الآن. كان المسؤولون يمنعون اللعب بالورق في القواعد، « هذه اللعبة البرجوازية والتي لا يمارسها إلاّ البرجوازيون » كما قال لي محجوب. بدأت الجولة. كانت تبْذر، هي والرهان، البخلَ في نظرات اللاعبين. غَرَفَ أحد اللاعبين المبلغ المُقامر به مرّة، ثم غَرَفَهُ الثاني،

وكانا متعادلين في براعتهما. كان كلّ زوج من الأعين، حول البطلين ووراء ظهريهما، يتطلع الى مروحة الأوراق، التي ما كانت تكاد تُفتح حتى تُغلق، والتي كانت اللعبة عليها مقروءة. وخلافاً لمبادئ اللعب، كان الشهود في الخلف يرسمون إشارات كان اللاعب المُواجه يدّعي أنّه لا يعيرها أدنى انتباه. أعتقد أنّهما كانا يلعبان لعبة شبيهة بهذه التي تُسمّى بـ « البوكرالكاذب ». كنت مفتوناً بتركيز كلّ لاعب نظراته على أوراقه؛ كان كلٌّ يخفي عصبيّته وقلقه. كما كنت مفتوناً بسرعة التردّد أمام ورقة أو اثنتين أو ثلاث. ومفتوناً أيضاً برشاقة الأصابع النحيفة، ذات القصبات المرهفة التي كان يمكن أن تنكسر عندما يغرف اللاعب الرابح البطاقات ليعيدها الى جهته. جعل أحدهما ورقة تسقط الى الأرض واستعادها برخاوة ذكّرتني بِصُوَر فيلم يُعرض ببطء. ولقد جعَلني عدم الاكتراث، بل حتى الازدراء، اللّذان كانا في نظراته عندما شاهد الصورة، أعتقد بأنه رفع آساً أو ورقةً رابحة.

« لابد أنْ يكون قد غشَّ »، هذا ما يفكّر به المرء؛ لقد مارس الغش مقلداً حركة كاذبة يعرفها الغشاشون. القليل الذي أعرفه من العربية مكوّن، بخاصة، من التهديدات والشتائم. هكذا كانت شتائم حادّة مهموساً بها بين أسنان اللاعبين، وفي لُعابهما الظاهر، ولكن مُسْتَوْقَفة بسرعة.

نهض اللاعبان. تصافحا من فوق الطاولة، بلا ابتسامة، ومن دون أن يتبادلا أيّة كلمة. وحدها كازينوهات أوربا أولبنان تتيح الفرصة للوقوف على طقوس هي بمثل هذه الكآبة. وكذلك نهايات سباقات كرة المضرب، إنّما في استراليا. تظهر الابتسامة أحياناً على محيّا صبّي طائش، متأنق، « يقطع » أوراق اللعب طولاً. كلّ ورقة، مقعرة كانت أو محدّبة، بحسب وضعيتها على الطاولة، يمكن أن تكون هي القارب الذي يرحل فيه اللاعب الغشاش من الشاطئ، أو النصف الأول من حيوان ذي ظهرين، أو المرأةَ المستلقية على الشاطئ مُباعدةً فخذيها. وإذا ما شوهدت الابتسامة على قسمات وجه الرديف بُعيدَ توزيع الأوراق، فهذا يعني أنّه يلعب لعبة نظيفة، عاكساً في نظراته الغياب الكامل الذي يعرفه من يزرّر بنطاله أمام الجمهور.

« أوبون » Obon هو الإسم الذي يمنحه اليابانيون للعبة أخرى. إنّه عيد الموتى الذين يعودون بين الأحياء لثلاثة أيام كاملة. لا يكون الميت، العائد من قبره، حاضراً إلاّ في ايماءات الأحياء، الخرقاء على نحو مقصود، والتي أقرأ فيها ما يأتي: « إنّنا أحياء، ونضحا[illegible] من موتانا، وهم لا يمكنهم أن ينجرحوا، فهم يظلون هياكل عظمية في باطن حفيرة ». هك[illegible]ث أنّ الأطفال، ناسفي جميع الطقوسيات هؤلاء، لايحملون الى شققهم غير [illegible] الموتى، ليُجلسوه: « نحن، يقول الموتى، سنبقى في المقبرة، إنّنا لا نزعج أحداً، أمّا حضورنا، فبإيماءاتكم

الخرقاء هي وحدها ما يفصح عنه.» هكذا يُجلسون الموتى غير المرئيين على أجمل الوسائد، ويقدّمون لهم أشهى الأطباق، والسكاكر مذهبة الأطراف كهذه التي أهديَتْ لِليان دوبوجي Liane de Pougy في عيلاد ميلادها الثالث والعشرين. يَعْرج الصبْية في مشيتهم عن قصد. ولقد شعرتُ بأنّ الصغار يتمرّنون على العَرَج طوال الشهر السابق للأوبون، حتّى يحسنوا رمي الجثة في مجرى الماء الذي ينطلقون إليه في سباق يتوقف فجأة: هكذا تتساقط القصبات وعظام الفخذ والجماجم، ويشمل الضحك جميع الأحياء. كانت إيماءة حنون وساخرة كافية لأن يذوق الميت بعض حياة. وإنّ لعبة الورق التي لم تكن قائمة إلاّ في ايماءات الفدائيّين الواقعية على نحو فاضح (كانوا قد تصنّعوا اللعب، بلا ورق، وبلا «آسات»، ولا صور خدم، ولا عصيّ ولا سيوف، وبلا سيدّات ولا ملوك)، قد ذكّرتني بأن جميع نشاطات الفلسطينيين إنّما هي شبيهة بعيد «الأوبون»، حيث لا ينقص سوى ما يجب الاّ يظهر، ملزِماً مع ذلك بالأبهة، حتّى لو عبْرَ الابتسامة وحدها فحسب.

بَدا «علم» الصرخة معروفاً في العالم العربيّ، تقريباً كفنّ الولادة وقوفاً، حيث تتشبّث المرأة بحبلٍ معلّق الى السقف مباعدةً ساقيها.

ـ جان، هل سمعتَ المرأة؟ يقيناً إنّها عربيّة. هي بالضبط صرخة جدّتي عندما انتزعتْ من أبي إرثها.

ـ وما كان ذلك الإرث؟

ـ ثُمْن شجرة زيتون.

ـ وما يعني هذا؟

ـ ثلاثة كيلوات ونصف الكيلو من الزيتون.

كلمات قليلة كانت كافية ليقول محمّد فقره، تبعيّة أبيه، صرخة العجوز العربية، صرخة ربّما كانت عفويّة إلاّ إنّ علوّها مكتسب منذ الطفولة. لا أحد يعلّم الحارس صرخة الانذار: يكون تَعلّمها في فتوّته عندما كان صوته جهوريّاً، وهو يُعاود العثور عليها بنفسه لدى الحراسة، إذا كان صوته قد تبدّل، أو كان خطرٌ يداهم. وغالباً ما تندّ عن السوريّين، على حذرهم، الصرخة نفسها التي يطلقها الفلسطينيّون المراوغون، وذلك عندما يظهر [على ورق «التاروت» أو الاستخارة] سيف أو سلسلة سيوف؛ وجميع هذه الصوَر، خلا السيوف

السبعة، هي علامات فأل سيء: سيف واحد: مغالاة؛ سيفان: رقّة؛ ثلاثة سيوف: بُعْد؛ أربعة سيوف: غياب أو وحدة؛ خمسة سيوف: هزيمة؛ ستّة سيوف: محاولات؛ سبعة سيوف — السيوف السبعة الشهيرة (٩): أمل، وهي الصورة الوحيدة في اللعب التي يتلقّونها بالقُبَل؛ ثمانية سيوف: توبيخات؛ تسعة سيوف: استمناء؛ عشرة سيوف: وحشة، دموع، نواح؛ والصرخة، المفجوعة أكثر منها مهدِّدة، لا تشبه قطُّ صرخة الفرح التي تعلن عن وصول العصيّ وهي رموزٌ سارّة.

في مخيّم «البقعة»، كان المهانون ينتقمون. وكان اليابانيون والطليان والفرنسيون والألمان والنرويجيّون هم المصوّرون السينمائيّون والفوتوغرافيّون ومسجّلو الصوت الأوائل. وعلى خفّته، صارَ هواء «البقعة» أثقَل. وأولئك الذين لم يأمرهم أحد باتّخاذ وضعيّة التصوير [«البوز»] أمام العدسة، والذين سيفوزون بالنجوميّة إذا ماصَوّروا نجماً — أي كلّ فلسطينيّ يرتدي هنا بذلة الفهود ويحمل كلاشنكوفاً — كانوا يمسكون بفريستهم. كان اليابانيّون، بعصبيّتهم شبه الطبيعيّة، عصبيّة ساكني أرخبيلٍ منفعلٍ، يهدّدون، بالانجليزية، بالاقفال راجعين الى طوكيو بلا صورة، تاركين اليابان في جهلها للثورة الفلسطينية، غير مخمّنين أنّ إرهابيّي اللدّ الشهيرين كانوا يتدرّبون على بُعد عشرة كيلومتراتٍ من هناك، مع خرائط إسرائيل والمطار في جيوب بناطيلهم العسكرية. ولقد جعلَ الفرنسيّون فدائيّاً يكرّر الوقفة إثنتَي عشرة مرّة. وبثلاث كلماتٍ ناشفة، أوقف الدكتور الفريدو هذه المهزلة كلّها. فحتّى يثبت الايطاليّون معرفتهم باللقطة التصاعديّة، كانوا يأمرون المقاتلين بإسناد الرشّاشة الى الكتف بعد إفراغها من الرصاص، ثمّ يرتمون الى الأرض بحركة سريعة ويصوّرون الفدائيين على هذه الشاكلة؛ كانت روح انتقامٍ تأتي بفوضاها الفرحة. نادراً ما يُصوِّر المصوّر الفوتوغرافيّ، أمّا الفدائيّ فكثيراً. لكنّ الأخير، عندما يتخذ وقفة التصوير، إنّما يموت من السأم أكثر ممّا من التعب. يَحسب بعض الفنّانين أنّهم يرون حول الشخص المُصوَّر عزلة العظماء هذه، التي ليست سوى علامة على التعب والمرأى المنهَك لتكبّده رقصَ المصوِّر. أكان يلزم أن يأتي سويسريّ ويصوّر الفدائيّ الأجمل على دلوٍ مقلوبٍ لنرى إلى خَياله على خلفيّة شمسٍ غاربة؟

إنّ مالايزال يُدعى بالنظام، هذا الارهاق الجسمانيّ والروحيّ، لَيقوم من تلقاء ذاته عندما يسود ما ينبغي، اشتقاقيّاً، أن يُدعى بالتفاهة.

تنبع الخيانة من الفضول والدوار في آنٍ معاً.

لكنْ ماذا إذا كانت الكتابة كذباً حقّاً؟ وماذا إذا كانت تعمل على إخفاء ما كانَ، إذْ لاتمثّل الشهادة أكثر من خداعٍ بصريّ؟ حتى إذا كانت الكتابة تقول نقيضَ ما حدثَ، فهي لا تقدم منه سوى وجهه المرئيّ، المقبول، والأخرس إذا صح التعبير، لأنه لا يتمتع بوسيلة لإظهار ما ينطوي عليه حقاً. والمشاهد المختلفة التى أرى فيها أمّ حمزة، إنّما هي مسطّحة نوعاًما. تَقْطر ولا شك بالحبّ والصداقة والرأفة، لكن كيف يمكن التعبير في الوقت نفسه عن المشاعر المتناقضة التي تصدر عن مختلف شهود تلك المشاهد؟ الأمر نفسه بالنسبة إلى جميع صفحات هذا الكتاب التي لن تتضمن سوى صوت منفرد. وكسائر الأصوات، فإنّ صوتيَ مغشوش. وحتى إذا ما خمَّنا الغشّ [في هذا الموضع أو ذاك] فإنّ أيّ قارئ لا يقدر أن يعرف طبيعته. هذه هي الأشياء الحقيقية الوحيدة التي جعلتني أكتب هذا الكتاب: ثمار البندق التي قَطفتُها بين أسيجة بساتين عجلون. لكنّ هذه الجملة تطمح الى حجْب الكتاب، وكلّ جملة الى حجب الجملة السابقة لها، فلا يبقى على الصفحة سوى خطأ: ماكان يحدث غالباً نوعاًما، وما لن أقدر أبداً على وصفه بحذقٍ، وما أتوقف، بحذقٍ أيضاً، عن محاولة فهمه. ماكان هشام يثير انتباه أحد، لا بين الشيوخ ولا بين الشبان. لا لأنّه لم يكن ذا بالٍ، بل لأنّه لم يكن ليقوم بشيءٍ فإنّ أحداً ماكان يُعيره أيّ اهتمام. وذاتَ يوم، وقد شعر بألم في الركبة، راح وسجّل اسمه في قائمة المراجعين لزيارة اليوم التالي الطبيّة. جاء في اليوم التالي وأعطيَ الرقم «١٤» في لائحة الانتظار. كان حامل الرقم «١٥» فدائيّاً مسؤولاً، قائد مجموعة. وبعدما مرّ المراجعون الثلاثة عشر الأوائل، نادى الدكتور دييتر باسم هشام وترتيبه في القائمة. سمع هشام النداء، إلاّ إنّه من فرط ارتباكه من أنّ طبيباً كان ينادي باسمه، لم يُدرك إلاّ بعدَ لأيٍ أنّه هو المعنيّ. أشار بإصبعه الى الفدائيّ المسؤول الذي كان يأتي بعده في الترتيب:

ـ كلاّ، قال له الدكتور، تمرّ أنت أوّلاً، ركبتك توجعك.

أشار المسؤول على هشام بان يمرّ قبله. وهذا ما قام به هشام. قيل لي إنّه منذ ذلك اليوم الذي أشار عليه فيه طبيب ألمانيّ بان يمرّ قبل الفدائيّ، صارَ هشام يَتَعاظم. لا لأنّه يتوهم أنّه يحتل مرتبة أعلى، لكن منذ تلك اللحظة التي تراجع فيها فدائيّ مسؤول أمامه مؤقتاً، وهشام يتلّع بصدره إلى الأمام. بعدَ هذا بفترة، تلاشى هشام من جديد، أمام تغاضي المسؤولين عن الردّ على تحيته. إنّ أيّ خيلاء ماكانت مرئية في مخيّم «البقعة».

خارجَ الخميلة، كانت مجموعة من الفدائيّين تنتظر تحت الأشجار أدوارها في حلاقة الذقن، غير عابئة بلعب الورق. رأيتهُم متعبين، ومع ذلك فعلى قدر من الاسترخاء. بدأت شعيرة الحلاقة، الطويلة. كان على كلّ واحد ان يأتي، أوّلاً، بحزمته من الأغصان اليابسة. كانت نار تُوقد بمساعدة أوراق الأشجار، والماء يُغلى في علبة عتيقة فارغة. لاشكّ في أنّ نوعية رفقتهم كانت ستسمح بأن يحلق كلّ فدائيّ نفسه لو أنّ مرآة واحدة كانت تكفي المجموعة الصغيرة بكاملها. إلاّ إنّ المرآة كانت صغيرة، يُمسَك بها باليد، وكانت تلك راحة تضاف الى راحة المساء ان يترك كلّ واحد لحيته ووجهه لعناية يدَي فدائيّ واحد سمّي بـ «الحلاّق». وإنّ مداعبة يدٍ، ودودٍ أو غير مكترثة، ولكنها بأيّة حالٍ يد إنسان آخر، تمرّ على الخدّين وعلى الذقن بحثاً عن الشّعْرات الباقية، إنّما هي كمثْلِ موجة تصل حتى أصابع القدمين المتعبتين بعدَما تكون هَدأت جميع أعضاء الجسم الجالس. كان الفدائيّون يُحْلَقون بالترتيب. يحدث هذا عموماً في المساء، بين الثامنة والعاشرة، ثلاث مرّات في الأسبوع.

لكن لِمَ يُمنَع اللعب بالورق؟

ـ إنّني أدَعُ للفدائيّين كامل حرّيتهم.

كنا نتمشى في الليل أنا ومحجوب، تحت الأشجار.

ـ حرّيتهم؟ آمل ذلك.

ـ أنا لا أمنع سوى اللعب.

ـ لكن لماذا اللعب بالورق، بالذات؟

ـ لقد أراد الشعب الفلسطينيّ الثورة. وعندما سيعرف أنّ قواعد الفدائيّين في الأردن قد تحولت الى صالات قمار، فسيعلم بأن المواخير تتهيّأ.

كنتُ، وأنا أدافع قدر ما أستطيع عن لعبة لا تستهويني شخصياً، أعبّر عن أسفي من أنّ محجوباً قد قرّر لوحده أن يمنع لعبة يتوخى الفدائيّون منها بعضَ تسلية.

ـ غالباً ما تنشب في اللعب شجارات.

كان من السهل أن أريه أنّ لعبة الشطرنج باتت تشكل صراعاً لا هوادة فيه بين الاتحاد السوڤياتيّ والقوى الغربية. حيّاني محجوب بنشاف. ذهبَ لينام. عرف الفدائيّون ذلك. كان

العرض الذي قدّموه من أجلي موجّهاً للتعبير عن خيبتهم. ذلك انّ اللعب بالايماءات وحدها، في حين كان ينبغي أن تتعاقب في أيديهم صُوَر ملوكٍ وملكاتٍ وخدمٍ، اي جميع الصور التي ترمز الى السلطة، إنّما يمنح شعوراً بالغشّ، وملامسة الشيزوفرينيا عن قرب. اللعب بالورقِ بلا ورقٍ كلّ ليلة: استمناء ناشف.

عليَّ، منذ الآن، ان انبّه القارئ الى انّ ذكرياتي دقيقة، في ما يتعلق بالوقائع والأحداث والتواريخ، غير انّ المحادثات أُعيد تركيبها. كان ما يزال سائداً، قبل اقلّ من قرنٍ من الزمان، « وصف » المحادثات المتبادلة. أعترف بإنّني انسقتُ الى الحقبة. ذلك انّ الحوارات التي ستقرأون مُعادٌ تركيبها فعلاً. آمل أن تكون أمينة، لكنّني اعرف انّها لن يكون لها ابداً حذقُ حوار حقيقيّ، بما انّ [معمارياً من امثال] ڤيوليه لودوك Viollet-le-Duc، بارعاً او غير بارع، قد مرَّ بها. لا تحسبوا مع ذلك انّني لا أحترم الفدائيّين: فلعلّي قمتُ بكلّ ما في وسعي لاستعادة نبْر الأصوات وتنويعاتها وكلمات الجمل: تبادلنا، انا ومحجوب، بالفعل، هذا الحوار الذي هو يمثل صدق لعبة الورق بلا ايّ ورقة في اليد، في حين كان اللعب حاضراً في دقّة الأيدي والأصابع وقصباتها.

هل هذا نابع من مزايا تقدّمي في السنّ ام من هذه الهفوة المتمثلة في امتلاكي القدرة، عندما أسترجع حدثاً، لا على رؤيتي كما أنا الآن وإنّما كما كنت فيه اوانَ وقوعه؟ وخارجاً عنّي ايضاً، أنا الغريب الذي يُعاين، بل حتى يتفحص، بالفضول نفسه الذي نحدّق به في داخلنا، أولئك الذين ماتوا في هذه السنّ او تلك، فأنا أراهم في السنّ نفسها التي كانت لهم ساعة الحدث المتذكَّر. أهي مزيّة لسنّي أم نتيجة بؤس حياة بكاملها، انّني اراني من القفا، انا الذي كنت مستنداً بقفايَ دائماً الى الحائط؟

أعتقد انّني أفهم اليومَ بعض الإيماءات او الأفعال التي ادهشتني على ضفة الأردنّ، في مواجهة اسرائيل؛ أفعال أو إيماءات معزولة – كانتْ في حقيقة القول جزُراً صغيرة مُمتنعة يُبَلبِلُني نسقُها، وهي اليومَ أرخبيل وضّاء في تماسكه. كان لي في دمشق ثماني عشرة سنة.

يختلف ورق اللعب العربيّ عن هذا الذي يستخدمه الفرنسيون والانجليز. لعلّ العربيّ اليوم إسبانيّاً: إرث الاسلام المحفوظ في أصابع الصغار الذين يلعبون لعبة « الرّوندة » (أو « التدويرة »). قام كلّ من محجوب في الأردن، والجنرال [الفرنسيّ] الأقطع غورو في دمشق،

بمنع اللعب بالورق لأسباب كانا يعدّانها متباينة. لابدّ انّ الاجتماعات السريّة، وبالتالي المضادّة لفرنسا، كانت تؤرّق غورو. كان السوريّون يلعبون بالورق في المساجد ليلاً، تضيء لهم شمعة صغيرة أو فتيلة مغمّسة بقليلٍ من الزيت. وعليه، فقد رأيتُ ثانيةً الجنديّ الفرنسيّ الصغير الذي كنتُ، جالساً القرفصاء الى جانبهم. كان حضوري ولاريب يطمّنهم. فإذا ما فاجأتهم دوريّة من النقّابين، ضائعة في الأزقة وأدهشها الضوء، فسأقدر أن أشرح لها أنّنا كنّا هنا نصلّي لفرنسا بورَع. وحتّى يتيقّن السوريّون من أنّني لن أنساهم، فهم كانوا يُرونني بعدَ اللعب الأنقاضَ التي كان الجنرال غورو يتقصّد ولاشكّ الابقاء عليها، رافضاً الترميمات حتّى يظلّ كلّ دمشقيّ يرتجف خوفاً الى الأبد. في الصباح، مع صلاة الفجر، كان المقامرون يعودون الى بيوتهم يمسك أحدهم بالآخر من إصبعه الصغيرة أو إبهامه. وها أنا أرى السيوف، والسيوف السبعة، من جديد.

بينَ القلّة القليلة الذي عرفتُها في صفوف «فتح»، حسبتُ ثمانيةً ممّن يُدعون «خالد أبو خالد». كان ازدهار مثل هذا القدر من الأسماء الحركيّة مدهشاً بحقّ. كانت الأسماء المستعارة موجّهة بالأصل لإخفاء المحارب، أمّا اليوم فإنّها، بالعكس، تُزيّنه. ولعلّ من شأن اختيار الاسماء المستعارة أن يفصح عن الاستيهامات التي ترتبط بها ألقاب «شيفارا» - إدغام شي غيفارا - و«كاسترو» و«لومومبا» و«الحاج محمّد». كان كلّ اسم مستعار قناعاً، من نسيج جدّ رهيف، شفيفٍ أحياناً، يقبع تحته اسم آخر - قناع آخر - من نسيج آخر أو من النسيج نفسه إنّما من لون مختلف، نميّز وراءه انعكاسات اسم آخر. كان «خالد» يخفي بالكاد اسمَ «مولود» مركّباً على «أبي بكر» دون أن يخفيه، و«أبي بكر» على «قادر». كانت هذه الألقاب والكنيات المتراكبة تحيل الى شخوص متراكبين يتخفّون على كائن بسيط فيما ندر، معقّد في الغالب ومتعَب. وفي هذه الحالة، ربّما كان الإسم اسمَ فعلٍ قابلٍ للبوح هنا، وآثم هناك. كنتُ أقبلُ بالمظاهر بالتهذيب نفسه الذي أقبل به الشيء الفعليّ، وكان يساعدني ولا شكّ جهلي، وعندما يحدث لي أن أكتشف الإسم الأوّل فأنا أكتشف في داخلي بعضَ حنَق. أمّا عن هذين الإسمين: المظهر والواقع، فثمّة الكثير ممّا يمكن قوله! والأسماء، المخترَعة أحياناً، أو المنسوخة عن الذكرى المشوّهة للأفلام الاميركيّة، في محاولة لتمويه ما قد يكون بقيَ من الفعل غير القابل للبوح، هذه الأسماء حسبتُ أنّني ألتقط صداها أو مُقابلَها في العبارات الجاهزة أو الصرخات، المثبّتة عن طريق المحاكاة، والمنسوبة إلى أشخاص «يجْرون» في متخيّل الشعوب المنتفضة. ياترى من الذي قال:

- «حتى أقاتلكم، فأنا سأتحالف مع الشيطان»؛

- «مَن قبلَ بالتعشّي مع الشيطان جاءَ بملعقة طويلة»؛

ـ «الحرية لا تُطلَب، بل تُنتزَع»؛

ـ «سنصنع ڤيتنامَين، ثلاث ڤيتنامات، أربعاً، خمساً، عشراً»؛

ـ «خسرنا معركة، لكنّنا لم نخسر الحرب»؛

«أنا لا أخلط بين الشعب الأمريكيّ الذي أحبّ وأمحض الاعجاب وبين الحكومة الرجعيّة لهذا الشعب»؟

تُنسَب هذه المقولات الى أبوّة مخفيّة جيّداً. لعلّ الرابعة عائدة الى غيڤارا، ولعلّ أبا الثالثة هو عبد القادر أوعبد الكريم، وآباء الثانية شرشل أو ستالين أو روزڤلت. ويُقال إنّ أبا الأولى هو لومومبا لكنْ زكّاها عرفات، وهذا هو ما مكّن خالداً من ان يقول لي:

ـ إسرائيل هي بالنسبة إلينا الشيطان الذي ينبغي التحالف معه لدحر إسرائيل.

يبدو لي انّ العبارة قيلت دفعة واحدة: بلا تنقيط، أي بلا تنفّس إلاّ في نهايتها، في انفجار الضحك الذي ختمَها. إفهموها كما تتقدّم وكما تشاؤون.

كانت صورة جدّ تقاعدية تفرض نفسها بمثل ابتذال لوحات الدعاية في «المترو» [قطار المدن تحت-الأرضيّ] الباريسيّ. هي ذي:

«من نارٍ إلى أخرى، كانت النداءات والأسماء الحركيّة والأناشيد تتجاوب. مَن كان يومذاك في سنّ العشرين أبصرَ المعمورة وهي يلتهمها الشّرر، أو على الأقلّ يلحسها، مثلما كان حرف Rفي الكلمة "Révolution"(ثورة) يُلتَهَم، من دون احتراقٍ، بنيرانٍ متجدّدة أبداً.»

ما رأيتُ، قبل أي شيء آخر، هو ان «كلّ شعب»، حتى يبرر تمرّده بأقوى نحو ممكن، يروح يبحث عن فرادته في أقصى الزمان. تحت كلّ انتفاضة، تتكشف أعماق نَسَبيّة [جينيالوجيّة]، لا يكمن عنفوانها في أغصانها التي ما تزال هي نفسها محتملة، وإنّما في جذورها، بحيث تكون الانتفاضات المنبثقة في كلّ مكان من المعمورة تقريباً، شبيهة بعبادة ضخمة للأموات. هكذا نُبِشَتْ كلمات وعبارات ولغات كاملة. ولأنّني أجبتُ في بيروت بطرافة، قال لي محدّثي اللبنانيّ، وهو يبتسم، في شبهِ حنانٍ:

ـ ها أنت تصبح فينيقياً حقاً.

ـ فينيقيّ؟ لماذا؟ ألا تريد ان أصبح عربيّاً؟

ـ عربيّ؟ كلاّ! أبداً. إنّنا لم نعد عرباً منذ أن اجتاحت سوريا لبنان (١٩٧٦).
السوريوّن عرب. أما اللبنانيون فمسيحيّون، «فينيقيون».

كان الجيل الأحدث سناً يتالف من رجالٍ ـ خلْدٍ. بعدَ ألفَي سنة من التنقل على سطح الأرض، وبعد أسفار على ظهور الخيل أو على القدمين أو بالبحر، وعبر أنفاق جوفية، هوَذا المرء يعود الى أماكن تنبثق فيها، هنا وهناك، مكامن للخلد، ويروح يبحث عن بقايا هيكل، وإذا ما عثرَ عليها فيا للأمثولة! كان انعدام اللياقة، لا في هذا البحث وحده، وإنّما في تماهي شعبٍ وشعباً آخر، جذوراً وأغصاناً، أقول كان يبدو لي، زدْ عليه عدم مضمونية النتائج، ضرباً من البذاءة الباريسية، الصالوناتيّة. فوحده الكسل يوهم الانسان بأنّ النبالة يكشف عنها الانتماء الى محتدٍ نبيل. الفلسطينيون، عندما عرفتُهم، كانوا يفلتون من هذا البؤس. ذلك أنّ الخطر كان في هذه الحالة سيكمن في اضطرارهم الى أن يروا لهم في اسرائيل «أنا عليا».

ماكانت معركة السوريين لاحتلال المخيم الفلسطينيّ «تلّ الزعتر» قد حصلت بعد في ١٩٧٢. وستُخاض في ١٩٧٦. ولكنّ الفلسطينيين أروني تحشيدات الكتائب، المُشرفة على موقع المخيّم. يحمل كلّ من قسمَي هذا الكتاب عنوان: «ذكريات». عليَّ أن أقود القارئ في رواحٍ ومجيء عبر الزمن، وكذلك عبر المكان. سيكون مكان هذا الكتاب المعمورة بكاملها، وزمانه: الفترة التي مرت بين العامين ١٩٧٠ و ١٩٨٤.

تحمل مجموعات بيار الجميل، المنسوخة عن الميليشيا الهتلرية والمؤسّسة في نفس الفترة معها، اسم «الكتائب». القمصان السوداء، والقمصان البنيّة، والقمصان الزرقاء ـ «الفرقة الزرقاء» الشهيرة التي ماتت من البرد في الثلوج الخرافية لروسيا البيضاء ـ ، والقمصان الخضراء، والقمصان الرمادية، فالقمصان الحديدية (١٠).. صارت الكلمات التي تتحدث عن «ثنايا الراية التي تتأمّل» تقابل في ذهني هذه التي تتحدث عن «جوانب العلَم...» (١١). كان فتيان «الكتائب» يسيرون في ١٩٧٠ في مشية عسكرية موقّعة، محاربين جيّدين يتلون أناشيد تُمجّد الحبل بلا دَنس. الحقّ، لقد فتنوني. من بلاهتهم، استطعتُ أن أحدس فظاظتهم. كان هؤلاء الجند، المترددّون بين السوقيّ والراهب، مدفوعو الأحناك الى الأمام، والماشون بالايقاع العسكريّ، يُنشدون أغنية (كان موسيقار مرهف قد عدّل إيقاعها حتّى يتفجر بالمهابة اللائقة بكلّ زحفٍ الى الأبدية لا رادَّ له). من أفواههم المغبونة، المائلة سحنتها الى السواد، كانت الأغاني تخرج حمقاء برهافة. كانت ولا شك تملأ العذراء والسماء بالخشية من وصول جميع هؤلاء الموتى شبه المراهقين بمثل هذه السرعة وبمثل هذه الكثافة. كما كانت

تراجيديةً، الفحولةُ الظاهرية لهؤلاء الفتْية يغنّون رقّة إلهة غير مرئية أو فاجرة لبِقة تترنح في حمايةِ أكاليل الورد البيضاء. بدا لي هؤلاء الشبان، مفتولو العضلات، موَقّعو المشية، غير قائمينَ في الواقع، بل كانوا من قبلُ يسكنون قبّة السماء التي سينتهون إليها بالفعل.

«كانوا يمشون مشية حربية». لكنّ الحرب لا تقوم في المشية الحربيّة، بل من المحتمل ان يكون المحاربون هم الوحيدون الذين يجهلون المشي المُوَقّع. كانت عبارتي تحاول ان تسبغ شيئاً من النبالة على مشية الكتائبيين الثقيلة جداً، المسرحية نوعاًما (بحسب طراز أوبرا بيروت)، مشية أرادها قائد كان بحاجة الى هذا المسرح العتيق، لأنه إذا لم يكن ليمشيَ أبداً، فهو كان يفكّر مع ذلك بحسبِ زمنَين، وإذَنْ فبالمشية المُوقّعة.

ردّ عليّ ولَدا بائع الصحف بخجل. كانا كتائبيّين، وعندما كلّماني ففيما يلمسان الميدالية الذهبية لعذراء «لورد»، بل فيما يتشبّثان بها - وبالشاكلة نفسها كان الماليّ [نسبة إلى «مالي»، البلد الأفريقيّ المعروف] الذي التقيتُ على ضفة النيجر يلمس تعويذته (بضع كلمات سحريّة بالعربيّة، مكتوبة على ورق جدّ رهيف، ملفوف في كيس من الصوف الأحمر).

- لمَ تلمسها؟

- حتّى تذكّرني باداء صلاتي القرآنية في الصباح.

الصليب ورسم العذراء، خصوصاً عندما يكونان محفورين - وبالأخصّ في نحتٍ بارز - إنّما من الذهب: هل ترى كان الكتائبيّون، لكي يصونوا قوّتهم، يلمسون الصليب أم العذراء، أم الذهبَ، أم ذكَر العالم؟ لا احد يَقتل، إذ يُقتل، لمحض إرادته وإنّما بأمرٍ من الربّ محامياً عن امّه، وابنه، والذهب، هديّة ملكٍ مجوسيّ، إله الجيوش الذي يأتي لنصرتنا بسرعة لمقارعة الآخر الذي يُهدّده: إله الاسلام. في ١٩٧٢، قبّل كتائبيّ فتاةً لبنانيّةً أمامي. بين نهديها المسمرَّين - وكانت السمرة تفضح النهدين المُعَرّيَين لنيل حمّامات شمس - كان يلمع الصليب الذهبيّ الصغير، مرقوشاً بالجواهر واليواقيت، لكنْ، في محلّ المصلوب، كانت الدريئة لؤلؤة سوداء في شكل بيضة. كان فم الفتى يبدو وهو يبتلع الجوهرة ولسانه يداعب بشرة النهد. جَعلت الفتاة تضحك. واحداً بعد الآخر، اخفض الكتائبيّون الثلاثة الرأس أمام هذا «التناول» [بالمعنى الكنسيّ للكلمة]. قالت لهم الفتاة بمنتهى الارتخاء:

- يحرسكم عيسى المسيح وتنصرنا أمّه العذراء.

ثمّ ما إن نطقت بهذا التبريك حتّى انصرَفتْ، عفيفة.

كان فرانثيسكو فرانكو يحكم. وكنتُ، قبل وصولي إلى دير مونتسيرّات قد اجتزتُ صخوراً، صخوراً وحقولَ قمحٍ ناضج. من أعمدة المصلّى كانت تتدلّى رايات حرير مبرّد بلون الكرز مطرّزة بالذهب أو بما يوحي، اليومَ، بفضل بريقه، بالذهب؛ والاحمر هو بالفعل لون زيَن الكنيسة في يوم الفصح. كان القدّاس مُقاماً. بعدما رايتُ، بشيء من التأثّر (ستفهمون لاحقاً معنى هذا التأثّر قبل ملاقاة حمزة وأمّه)، أقول بعدما رأيت العذراء السوداء تعرض ابنها (سوقيّ يعرض على هذه الشاكلة عضوه الذكريّ، وهو أسود، وإذن فهي عذراء سوداء تعرض سوقيّها الأسود)، جلستُ على مصطبة في مكانٍ ما. كانت الكنيسة ملآى برجالٍ ونساءٍ في حداد. وكان اغلب المؤمنين شبّاناً. كان القسّ وتابعاه، ورئة ثسنيروس Cisneros (١٢)، يرتدون الغفّارة الحريرية ذات لون الكرز. راحت أصوات أطفالٍ، أصوات من كريستالٍ هشّ، شبه أخضر، تُنشد قدّاساً لـ [الموسيقيّ الايطاليّ] پالسترينا Palestrina، كنت في أثنائه عاجزاً عن التحرّر من هذا الإسم الذي يبدأ اسم فلسطين Palestine باحرفه الستّة الاولى. ثمّ جاءت قبلة السلام الشهيرة: فَبعدَ «الصعود»، طبعَ القسّ قبلتين على خدّي كلّ من تابعيه اللذين أوصلا القبلَ الى كلّ راهبٍ جالسٍ على كرسيّه الخشبيّ في محلّ الخورس. فتح اثنان من اطفال الخورس السياجَ ونزل رئيس القسس بين المؤمنين. قبّلَ عديدين منّا، وكنتُ بين مَن تركوا أنفسهم يُقبِّلون، لكنّني لم أوصل المداعبة لجاري، هكذا بحيث انقطعت سلسلة الإخاء على يدي. إقترب الرهبان الآتون من الخورس في الجناح المركزيّ من أبواب عمق المصلّى. فتبعهم المؤمنون، رجالاً ونساءاً، وكنتُ معهم. وهي اللحظة التي وقعَ فيها، لي أنا وحدي، ضربٌ من خارق: إنفتحت الأبواب كما لو من تلقاء ذاتها، وبدا كلّ مصراعٍ مدفوعاً من الخارج، أي إجمالاً بعكس ما يحدث في يوم «أحد الأغصان»، عندما يقرع الرهبان، الطالعون من باب السكرستيّة، الأبواب الكبرى ثلاث مرّات – تذكرةً بدخول المسيحِ أورشليمَ –، ويطالبون بحقّ الدخول الى جناح الكنيسة المركزيّ. هنا، في يوم الفصح، انفتحت الأبواب من خارج الى داخل، في حين كانت هي تنتظر في الوراء، في المصلّى المُضاء، القسّ مع عصاه وجميع الرهبان، الذين كانوا يريدون الخروج. كان الريف يبدأ عند البوّابة. وعلى إيقاع نغمٍ انتصاريّ سار الموكب بين حقول القمح، وحقول الذرة، بعيداً جداً بين الصخور التي لم يجرأ على تسلّقها حوالى العام ٧٣٠ أوّل فاتحي إسبانيا من المسلمين. منذ زمن بعيد والكلّ يُنشدون «ڤيني كرياتور» («جاء الربّ»). حينئذ، ولنفسي فحسب مثلما أفترضُ، تذكّرتُ أنّ الـ «ڤيني كرياتور» التي تُنشَد في الفصح تُنشَد في قدّاسات الأعراس أيضاً. رشّ الرهبان والتابعون على الريف ماء التبريك. ومضى القسّ يباركه، حاسباً أنّه ينفح فيه السكينة، بيَدٍ واحدة، إنّما رافعاً الابهام والوسطيّ. كان يرفع عقيرته بالانشاد بقوّة. حسبتُهُ مجنوناً. والحشد أصابه مسّ من الجنون، فكان على قاب قوسين أو أدنى من الهذيان. كان مطر قليل، بضع

قطرات، سيخفّف عنّا. تحت الشمس كان الريف القطلونيّ محنيّاً ككلّ ما يتحرّك في إسبانيا. ولا شكّ أنّ اللّه، الذي فطر السموات والأرض، تسلّى كثيراً بنحت هذه الصخور الحمراء والقضيبيّة، التي ربّما كانت، رغمَ الأسطورة، متوّجة منذ انبثاقها بالعرب، لكن التي يُباركها القسّ كما يُبارك حقول القمح. كانت الشمس في اشتعال. والنهار في منتصفه. فجأةً، أدرنا الظهرَ لهذه الطبيعة التي تربّى عليها، ومن أجلها، وتعالى، نشيد زفافيّ، لاتينيّ وجيورجيّ، وعدنا الى الكنيسة، يقودنا راعينا، وكانت العودة الى هذا الظلّ، قبيلَ الرجوع الى المعبد، هي هبوط الليل علينا في الغابة، حيثُ تنتظرنا تحت ضوء القمرالأحراج والفرْجات الغابيّة وأجمات الأشجار. الحال، أنْ نشكّل حلقةً من فتيان وفتيات في منتصف الليل في قلب الغابة، تحت القمر، فهل كان هذا من أجل الصلاة هناك أم لمضافرة جهود عديدة لتوجيه لعنةٍ ما، مادام الاسلام كلّه يمتثل لدورات القمر؟ هل من الورع المسيحيّ في شيء أن يطرح العرسانُ أقدامهم داخل الهلال؟ وبِمَ أقارن تأثّري؟ كان أحدٌ سوى الخالق حاضراً هنا. أيّ فزع يقبل المقارنة بما يأتي: «الجبل الأبيض يتقدّم نحوي؟»، «المهرّج "غروك" يدخل الحلبة ويُخرج من بنطاله كمنجةَ أطفال؟»، «يد الشرطيّ تهبط على كتفي، واليد تقول لي: "أنتَ انتهيتَ"»؟

ترنّ المفردة «وثنيّة» كتحدٍّ مقذوف بوجه كلّ مجتمع. والمفردة «مُلحد» مفرطة القرب من الأخلاقيّة المسيحيّة، مسيحيّة إنّما لمسيحٍ مختزَل الى شوك تاجه الملكيّ والسماويّ وحده؛ وإنّ الوثنيّة لتجعل الوثنيّ يغوص في أبد الآباد، الذي يُدعى عادةً «ليل الزمان»، الليل الذي لم يكن اللّه فيه قائماً بعد. وإنّ ضرباً من السكْر والسخاء ليمكّن الوثنيّ من مقاربة كلّ شيء بالتوقير نفسه الذي يقابل فيه كلّ شيء آخر وحتّى نفسه من دون اتّضاع. مُقاربته. بل ربّما تأمّله. لاشكّ أنّني أهَب الوثنيّة أكثر ممّا تستحقّ، ولعلّي أخلط في السطور السابقة بينها وبين الاحيائيّة. بتذكّري تلك الشعيرة أقول من أيّة مغارةٍ خرجتُ، وفي أيّة مغارةٍ أجدُني أحياناً من أجل تأثّرٍ عابر.

أردتُ في «مجلّة الدراسات الفلسطينيّة» أن أُري ما كان بقيَ من صبرا وشاتيلا بعدما أمضى الكتائبيّون في المخيّم ثلاث ليالٍ. صلبوا هناك امرأة وهي حيّة. رأيتُ جسمها، ذراعيها المُباعدَتين، يغطيهما الذباب، خصوصاً عند أطراف أصابع يديها العشر: ذلك أنّ عشر خُثَر من الدم كانت تُسوّدها؛ كانوا قد قطعوا سلاميّاتها phalanges، فتساءلت إن كان اسمهم phalangistes («الكتائبيّون») آتياً من هنا؟ في اللحظة المباشرة، وفي المكان، في شاتيلا،

ذلك اليوم التاسع عشر من أيلول / سبتمبر ١٩٨٢، بدت لي هذه الفعلة نتيجة مزحة. بقطعهم الأصابع بقاطعٍ، كما يشذّب بستانيّ شجرة طقسوس، ماكان هؤلاء الكتابيّون المازحون سوى بستانيّين مرحين يحوّلون حديقة إنجليزية الطراز الى حديقة فرنسيّة. وما إن تلاشى هذا الانطباع الأوّل بعد نيلي قسطاً من الراحة، حتّى عشت مشهداً آخر. إنّ احداً لا يقطع الأغصان ولا الأصابع بلا سبب. عندما سمعت النساء إطلاقات البنادق، من نوافذهنّ الموصدة لكن مكسورة الزجاج، ورأين الى اشتعال المخيّم بالصواريخ الكشّافة، شعرنَ بأنّهن في المصيدة. قلبنَ علَب الحليّ على الطاولات. وكمن يرتدي قفّازَ كفٍّ لعيدٍ لايُمهل، وضعت كلّ امرأة خواتمها على الأصابع العشر لليدين – بما فيها الابهام – وربّما أكثر من خاتم في كلّ إصبع. أكنّ يحاولن الهرب مغمورات هكذا بالذهب؟ إحداهنّ، في مسعى لاستدرار شفقة كتائبيٍّ ثملٍ، سحبت من الابهام خاتماً فقيراً وسفيرَهُ المزيّف. إلاّ إنّ الكتائبيّ، الثمل من قبل، والذي صار أكثر ثمالة لدى رؤية الزيَن، ولكي يمضي بسرعة، قطع بسكيّنه (أو بقاطعٍ وجده قرب المنزل) أصابع المرأة حتى السلامى الأولى ثمّ وضع السلاميّات والأنامل في جيوب بنطاله.

إستُقبل بيار الجميّل من قبل ادولف هتلر في برلين. وما رآه – ئك الفتيان الشقر والمعضّلون في القمصان البنيّة – جعله يعقد العزم: ستكون له ميليشياه الطالعة من فريق لكرة القدم. كان اللبنانيّون يسخرون منه، هو اللبنانيّ والمسيحيّ، لأنّ القوة ينبغي ألاّ تكمن إلاّ في المال. فدفعت سخرية المارونيين بيار الجميّل وابنه بشيراً الى التحالف والاسرائيليين مباشرةً، والكتائبيين الى استخدام الفظاظة، انعكاس القوة، الأكثر نجاعةً هنا من القوّة. وما كان لبيار ولا لابنه أن يحكما من دون دعم سلطةٍ عرّابة، وهذه السلطة كانت هي إسرائيل، مثلما كان لفظاظة اسرائيل عرّابها: الولايات المتحدة الأمريكيّة.

هكذا صرتُ أعرفُ بصورةٍ أفضل الكتائبيين الذين يقبّلون الصليب الذهبيّ بين نهدين، ويمسكون بالفم بميدالية العذراء المعلّقة الى سلسلة ذهبية، ويجعلون شفاههم الهدلاء تتيمهّل على يد البطريرك، الذي كان هو نفسه يداعب استمنائيّاً وبورعٍ طرفَ عصاه المذهبّة.

كنتُ رفعتُ عالياً أجفاني وعينيّ لأنعم النظر الى «الحضور الحقّ» في المعرض الكنسي الذي كان «الرغيف» يُعرَض فيه ببذخٍ، وبساطةٍ، وعناد. كم من حوادث الغرق الفرديّة، هي الكنيسة...

كانت خيول الاسلام تعدو. أكانت هاربة؟ دلفنا الى المصلّى وراء القس. كانت العذراء السوداء مع ابنها الزنجيّ قد استعادت وقفتها، لكن أكانت الحماسة التي استبدّت بي في يوم الفصح ذاك ستقع لو لم أكن، في برشلونة، قد اصطحبتُ معي في سيارة الأجرة شاباً مغربياً في سنّ العشرين، بقي معي طوال الشعيرة؟ إنّ تلك القبلة الأولى المعطاة من قبل القسّ في محلّ الخورس في المصلّى والتي تضاعفت بقدر الأرغفة التي وزّعها يسوع الناصرة على ضفة البحيرة، القبلة التي كانت لها قيمة تويجٍ يتناثر في تويجيّات لكلّ منها قيمة قبلة أولى، ذكّرتني بالقبل متناقصة العدد التي كان رئيس القبيلة المزيّفة يطبعها على وجنتَي كلّ من الأعيان الستّة عشر.

«لكلٍّ ما يستحقّ.» وربّما كان أنبل الأعيان هو هذا الذي لم يتلقّ سوى قبلة واحدة. لمّا كنتُ أجهلُ كلّ شيء، فلم أكن لأعرف اتّجاه القُبَل: ربّما كانت قبلة واحدة علامة على التوقير الأكبر، الذاهب من الأبسَط الذي تشير اليه ستّ عشرة الى الأوحَد؟

في الليل، قبيل الفجر، كانت ثلاث مجموعات من الفدائيّين تغني ويردّ بعضها على بعضٍ بالغناء من تلّ الى آخر. كانت قد سارت لزمن طويل، إذْ كانت تغير قواعدها. حدثَ هذا في كانون الثاني/يناير ١٩٧١، أي بعد أيلول الأسود بأربعة اشهر. بين كلّ غناء وآخر كنت أسمع سكون الصباح، أي الكثافة المصنوعة من صخب النهار كلّه الذي لم يتفجر بعد. كنت مع المجموعة الأقرب الى نهر الأردن. أشرب الشاي، جالساً القرفصاء، مُحْدِثاً الضجة المناسبة في الرشفة، لأنّه كان ساخناً، ولأنّ من الشائع هنا أن تفصح عندما تشرب الشاي عن فرح اللسان واللهاة. كنت في الوقت نفسه آكلُ حبات زيتونٍ وشيئاً من الخبز غير المخمّر. كان الفدائيّون من حولي يتحدثون بالعربية ويضحكون، غير عارفين أنّ يوحنا المعمدان قد عمَّدَ المسيح غير بعيدٍ عن المكان.

كانت القمم الثلاث غير المرئية إحداها للأخريَين، تتجاوب. في تلك الفترة، أو بعدها بقليل، كان بوليز يحضر عمله الموسيقيّ «مردّات». لم تكن الشمس أشرقت بعد، لكنها كانت تلوّن بالزرقة السماء التي كانت ماتزال مظلمة ناحيةَ الشرق. حتى الأصوات، الطريّةُ بَعدُ، أصوات «الأشبال» الذين كانوا في سنّ الرابعة عشرة، كانت تجرّب النبرة الخفيضة، لباعث جماليّ، ولنيل أكبر قدر ممكن من التعدديّة الصوتية (البوليفونيّة) إذْ كان الجميع يغنّون معاً. لكن، كذلك، من أجل أن يبرهن الأشبال على نضجهم في كلّ شيء، وعلى كفاءتهم الحربية وبسالتهم وبطولتهم، وربما أيضاً على محبّتهم للأبطال، وذلك بإفهامهم

الآخرين أنّهم نظراؤهم الأكفاء. كانت إحدى المجموعات تصمت بانتظار أن تجيب الأخريان، غير المرئيتين، في غناء جماعيّ أيضاً، إنّما في مقامات موسيقية مختلفة. غناء جماعيّ، إلاّ في بعض المقاطع التي يرتفع فيها صوت أحد الأبطال بدرجتين نَغَميّتين أو درجتين ونصف الدرجة، في اللحظات المرصودة للزغردة (١٣)، وفي المقاطع التي يختارها هو، فحسب. آنذاك تصمت أصوات الجوقة، كما نتراجع في الطريق للافساح في المجال لمرور أحد الأجداد. كان تقابُل الأصوات يؤكّد المقابلة بين الملكوت الأرضيّ، ملكوت اسرائيل–الدولة، والأرض التي لا أرض لها ولا دعامة سوى نبرات جنود فلسطين.

«وإذن، فهؤلاء الصبْية مقاتلون. جند. فدائيّون. هؤلاء الارهابيون الذين يذهبون الى أقاصي العالم في الليل، سرّاً، وفي الصباح، في واضحة النهار، ليزرعوا ألغاماً!»

كنت حسبتُ الصمت مُطبقاً بين غناء تلّ وسواه. إلاّ إنّ المقطع الثاني والرابع سَمَحا لصوت جدولٍ لم أعرف أبداً إنْ كان قريباً أم بعيداً، بان يتخلّل الغناء. ولقد شقّ صوته، الذي كنتُ أحسبُهُ، بسبب وشوشته، واضحاً و«شخصياً»، أقول شقّ، إنّما بسريّة، طريقاً بين تلّتين، وسطَ الجوقتين. لم يحدث، إلاّ بين المقطعين الخامس والسادس من الغناء، أن رفعَ صوته وغمرَ الوادي كلّه. كما لو كان، مع انتقال معنى الكلمات من شبكة الماء الى شبكة الأصوات، قد بُحَّ وانتفخَ، حتى لقد صارَ مهيمناً، عنيفاً، طارداً الأصوات الطفلية المنخفضة، وفي خاتمة المطاف مزمجراً، غَضباً. وبدا لي أنّ من الحماقة أنْ يطرد هذا الدكتاتور أصوات العشاق، لكن لعلّهم لم يسمعوا أبداً السيلَ ولا الجدول.

لم يكن الظلام شديداً. كنت أميّز أشكال الأشجار والأكياس الكبيرة والبنادق. كنتُ، بعدما تآلف عيناي كتلةً سوداء ضخمة، أميّز، إذ أنعمُ النظر، بدلَ اللطخة السوداء، ممشى طويلاً جداً وشديد الظلمة، وفي نهاية الممشى مفرقاً تتفرع منه ممّاشٍ أخرى، أكثر ظلاماً. لم يكن النداء العشقيّ آتياً من الأصوات، ولا من الأشياء، ولا، ربّما، مني أنا نفسي، وإنّما من انتظام طبيعةٍما في الليل، كما يحدث غالباً أن يطلق منظرٌ، في النهار، من تلقاء ذاته، إيعازاً بالحبّ.

عبر التنغيمات المختارة والمرتجلة من قبل أحد «الأشبال» – مثلما كانت بقية الغناء كلها مرتجلة – ، ولأنّ التنغيمات المجردة من الكلام تتصف عموماً بالحدة، خُيّلَ إليّ أنّ ثلاث «ملكاتٍ لليل» [كما في «الناي المسحور» لموتسارت]، بشوارب خفيفة وبذلات فهود، كلّ منهن مبتعدة عن الأخريين، وضائعة، التقينَ في الصباح، وفي اهتزاز الأنغام، وهذا كلّه بالثقة وعدم الاكتراث واللا تحوّط الذين يميّزون ملكات الأوبرا الناسيات أسلحتهنّ وملابسهن

وموقعهن كمحاربات، مع أنّ رشقة رصاص أردنية كان بمقدورها أن تحيلهن الى الصمت الأبديّ بإطلاقات هي بمثل دقة وتناغم غنائهن نفسه. ربّما كانت هؤلاء الملكات يحسبن أنّ زيّ الفهود يجعلهنّ يغنّين بصمت، أو بلغة أو موسيقى تبثّان في ماتحت الصوت.

كانت أسطورة البطل الجاهليّ «عنترة»، المحفورة في الأذهان، قادرة على الانبعاث في كلّ لحظة. أُذكّر بما يأتي: كان الفارس عنترة يغنّي، وهو في سن الثمانين، ثابتاً على صهوة جواده، عذوبة مَقام الحبيبة الراحلة. فصوّب اليه عدوّ ضرير قوسه، مهتدياً بصوته فحسب، وأرداه في الحال قتيلاً، بسهم أصابه في الحالب. حلّ صوت عنترة محلّ العينين المجردتين من الحياة، ليقود السهم.

كانت الأصوات، في ذلك الصباح على الأقلّ، بمثلِ ثقة أنغام المزامير والنايات والصافرات؛ أصوات حقيقيّة تمكّنك من أن تشمّ بالأنف رائحة الخشب الذي صُنعت منه الآلات، وأن تتعرف على الياف ذلك الخشب، أصوات هي بمثل حقيقيّة أنغام الآلات في «حكاية جنديّ» التي ميّزتُها بصوت ستراڤنسكي نفسه، المتكسّر ورائع الوقع على الأذن. وإنّني لأعتقد أنّ كلّ ما هو خشن في الحروف الصائتة في العربية، التي تُسمى بالحروف الحَلْقيّة، قد تحوّل [في أفواه هؤلاء الفدائيّين]، إمّا عن طريق نوع من الادغام، أو الترخيم، أو، بالعكس، عبر ضربٍ من الإطالة، اقول تحوَّل الى أصوات مخمليّة.

ضياء باهر من ناحية الشرق، يتقدم صعودَ الشمس ويشيع النورَ فوق الكثبان. كنتُ أسفلَ أشجار الزيتون التي أعرف جيداً.

كنا درنا دورة جديدة حول التل نفسه، فيما كنت أحسبُ أنّنا اجتزنا تلالاً عديدة. خدعة حربية فقيرة موجهة لإيهام العدو بأنّ الفلسطينيين حاضرون في كلّ مكان وزمان. هكذا، طوالَ عامين، بقي الفلسطينيون يجابهون آلات اسرائيل بالغة الحساسية بلقايا غير ناجعة بالمرّة، ولكنّها مُلهية، وخصوصاً شعريّة وخطيرة.

على سؤالي: ما كنتم تغنّون؟ أجاب خالد:

ـ كلّ يرتجل ردّه؛ بعدما تعطي المجموعة الأولى الموضوع الغنائيّ الأول، تكون المجموعة الثانية هي أولّ من يرد، فتبعث الثالثة الى الأولى بإجابة–سؤال، وهكذا دواليك.

ـ عمّ تتحدثون بخاصة؟

ـ عن الغرام طبعاً. وقليلاً عن الثورة.

ولقد حققتُ اكتشافاً آخر. كنت أحيط حتى بربُع النغَم وانحناءات الأصوات. للمرة الأولى في حياتي، كنت أشهد غناءاً عربيّاً يخرج من الأفواه والصدور بحُريّة؛ غناءاً محمولاً بنفَسٍ حيٍّ تقتله الآلات (الأسطوانات و«الكاسيتات» والمذياعات) منذ أوّل نغمة.

في الصباح، ومن دون أن يعبأ أحد بالموت المتربص من كلّ جانب (اتحدّث عن موت المغنّين، المحاربين-الفنّانين الذين كانت أجسادهم تجازف بالتعقّن تحت شمس الظهيرة)، أُتيح لي أن أسمع توليفة موسيقية رائعة تُرتَجل في طريق الجبل، في قلب الخطر.

لنتوقّفْ قليلاً عند الحقيقة المعروفة في أنّ الذاكرة ليست بالشيء الموثوق منه. تُعدّل، لا عن مكرٍ، الأحداثَ وتنسى التواريخَ وتفرض ترتيبها الزمنيّ الخاص، وتتناسى أو تُحوّل الحاضرَ الذي يَكتب أو يَسرد. تُفخّم ما كان عادياً: فأكثر إمتاعاً لكلّ واحدٍ أن يكون شاهداً على أحداث نادرة لم يتحدث عنها أحد من قبل. من عرفَ واقعة فريدة، فذة، نالَ حصته من هذه الفرادة الاستثنائية. من هنا رغبة كلّ كاتب مذكراتٍ في البقاء وفيّاً لخياره الأول. أترانا نقطع كلّ هذه المسافات لنلاحظ أنّ التفاهة وراء خطوط الأفق هي نفسها التي هنا؟ يريد كاتب المذكرات أن يعبّر عما لم يره أحدٌ في هذا التّفه قبلَه. وإنّنا لَمحظوظون، ومن مصلحتنا أن نوهم بأن رحلة الأمس تستحق عناء ما نكتبه الليلة. نادرة هي الشعوب الموسيقية بصورة عفويّة. وما دام لكلّ شعب، ولكلّ أسرة، مغنّيهما، فإن كاتب المذكرات يطمح إلى أن يكون مغنّي ذاته، دون أن يعترف لنفسه بذلك إلاّ لماماً. وإنّما تدور في أعماقه هذه المأساة الضئيلة لكن غير المنتهية أبداً: أكان هوميروس سيكتب الالياذة لولا غضب أخيل؟ أكنّا سنعرف غضب أخيل لولا هوميروس؟ ولو أنّ شاعراً رديئاً غنّى أخيل، فما كان يا ترى سيعرف عن هذه الحياة المجيدة، والقصيرة، والهادئة، التي هي هبة من زيوس؟ يعرف الارستقراطيون الانكليز والعمال الآليّون أن يصفروا ألحان ڤيڤالدي وجميع ضروب غناء جواثيم انكلترا وعصافيرها. أمّا الفلسطينيون، فكانوا يبتكرون أغاني شبه منسية، مكتشَفة في أعماقهم حيث كانت تقبع مخفيّة قبل أن يغنّوها. وعلى هذا النحو لم تكن كلّ موسيقى، حتى الأحدث عهداً، لتبدو لي مكتشفة، بل هي تعاود الانبثاق من حيث كانت هاجعة من قبل، محفوظة في الذاكرة التي كانت هي قابعة فيها (الميلوديا بخاصة)، غير مسموعة بعد، لكنْ كأنّها محفورة في أخاديد صغيرة في الجسد، هكذا بحيث يُسمعني المؤلف الموسيقيّ الجديدُ الغناءَ الذي كان منذ الأزل راقداً فيَّ يتغمّده الصمت.

بعدَ ذلك الصباح بأيامٍ، التقيتُ خالداً من جديد. كنت أحسب أنّني ميّزت صوته في

إحدى جوقات الكثبان الثلاثة. أيّ موضوعة غنائية اختار؟ قال لي بابتسام:

ـ لأنّني سأتزوج في غضون شهر، فقد كان مغنّو الكثيبَين المقابلَين لهذا الذي كنّا أنا ورفاقي نجتازه، يسخرون من خطيبتي، وينعتونها بالقبيحة، البلهاء، الحدباء، الأميّة. كان عليَّ أن ادافع عنها، وكنت أتوعّدهم بأنني سأودعهم في السجن عندما تكتمل الثورة .

نزع بندقيته الصغيرة من على كتفه ووضعها مع البنادق الأخرى، أخمصها على العشب. راحت أسنانه تلمع تحت شاربيه.

أكتبُ هذا في شباط/فبراير ١٩٨٤، أي بعد حادث الأغاني بأربع عشرة سنة. لم أسجل أيّ شيء في الطريق أو في القواعد، ولا في أيّ مكان آخر. إنّني أسرد الحدث لأنّني كنت الشاهد عليه، ولأن تأثيره عليَّ هو من القوّة بحيث ساظل مطبوعاً بميسمه الى الأبد: أحسب حياتي منسوجة من أحداثٍ هي بمثل هذه القوة، وأكثر.

ـ ولمَ لا تودعهم في السجن اليوم؟

ـ تعرف أنّنا لا نملك هنا معتقلات.

ـ سجن متنقل...

ـ أعرضْ علينا خطة.

ـ وماالذي حدث؟

ـ الذي حدث هو أنّ افراد الجوقتين الأخريين ردّوا على غنائي. ثمّ أشرقت الشمس، وبعد تأدية صلاة الفجر سألوني: وأنت، ما الذي كنت تفعل في السرّ مع الملك حسين وغولدا؟

ـ فمافعلتَ؟

ـ ضاعفتُ مدّة الحبس.

ـ وبعد ذلك؟

ـ قالوا لي إنّهم وصفوا التلة التي كانوا يسيرون عليها، وكان اسمها هو: «العروس».

بقي صامتاً، مع ابتسامة خفيفة على فيه، وسألني بخَفر:

ـ هل كانت أغنية جميلة؟

أحسبُ أنّني، لدى رؤية يده، راحة يده الضخمة وإبهامه الغليظ، أدركت عنفوانَ غنائه، وروحه.

ـ ربما أعياك فهم بعض الكلمات؟ في إحدى اللحظات سمّيتُ جميع مدن العالم التي نفّذنا فيها عمليات فدائيّة ووصفتُها. هل رأيت كم أعرف أن أغني «ميونيخ» بالألمانية، وفي درجات نغمية متعددة؟

ـ وصفتَ المدينة؟

ـ نعم، شارعاً شارعاً.

ـ أتعرف ميونيخ؟

ـ لفرطِما غنّيتُها، بتّ أعرفها جيداً.

ثم حدّثني، والابتسامة لا تفارق شفتيه، عن تصوّره للفنّ، وأضاف، بجديّة:

ـ ما أكثر ما أزعجنا الجدول!

ـ لماذا؟

ـ ما إن تسلّم ناصية الكلام حتى أراد الاحتفاظ به لوحده.

وإذَنْ، فقد انتبه الى هذا الصوت، صوت الجدول، الذي اعتبرتُه أنا في البداية كتوماً والى هذه الدرجة من السريّة بحيث أن أذناً أخرى، سوى أذني، لم تسمعه!

لكن إذا كانت أعضاء أخرى سوى أعضائي تلتقط إحساساتٍ هي بمثل هذه الموقوتية، فهل كان ماحسبتُ أنّني الوحيد الذي يعرفه معروفاً من لدن الجميع، فمالي من حياةٍ سريّة؟

ذات مساءٍ، فيما كان الفدائيون يستريحون في المساء خصوصاً بعد نهار عملٍ: تموين، مراقبة القاعدة، ومركزها، ومواقعها حول المركز، ومختلف مواضع الأسلحة نصف الثقيلة، ومراقبة أجهزة الاتصال بالراديو والهاتف، وكلّ ما يتعلّق بأمنِ الفلسطينيين، من دون أن أذكر حالة الانذار الدائمة في مواجهة القرى الأردنية، الخطيرة دوماً، سألني خالد أبو خالد كيف يقاتل «الفهود السود».

كانت حكايتي طويلة بسبب من فقر مفرداتي العربيّة. لقد أدهشتْه حرب العصابات في المدن.

ـ لمَ يقومون بهذا كلّه؟ أوَليس لديهم جبال في أميركا؟

ربما لافتقارها الى عمق ظاهر، انتشرت حركة « الفهود السود » في أوساط الزنوج والشبان البيض الذين ألهبت حماستهم جرأة مناضلي القاعدة والمسؤولين، وكذلك رمزية شعارية جديدة، احتجاجية على نحو حاسم. كانت هذه الرمزية (شعر أفريقيّ ومشط حديديّ وقبضة يد) سبقَ أن استُخدمَتْ من لدن حركات سوداء أخرى، أكثر التفاتاً الى القارة الأفريقية (أفريقيا متخيّلة يمتزج فيها الاسلام بالاحيائية). ولم يرفض « الفهود السود » هذه الشعارات، بل أضافوا اليها: "All power to the people" (« كلّ السلطة للشعب »)، وفهدة سوداء مرسومة على خلفية زرقاء، والسترة الجلدية، والبيريّة، وخصوصاً الأسلحة المرئية، المعروضة على نحو مشهود. أن نقول إنّ « الحزب » لم يكن يتمتع بأيديولوجية لأن « النقاط العشر » كانت إمّا مفتقرة الى التشخيص أو متناقضة، وإنّ ماركسيته–اللينينيّة كانت خياليّة، فهذا كلّه لن يعني شيئاً ذا بال إذا ما نحن اتفقنا على أنّ الثورة، كلّ ثورة، إنّما يتمثّل هدفها، خصوصاً، في تحرير الانسان – وهو هنا الأسود الأميركيّ – وليس في التفسير الدقيق والممارسة المضبوطة لأيديولوجية تتقدم، نوعاً ما، باعتبارها متعالية [كالأديان]. إذا كانت الماركسية–اللينينية ملحدة قانوناً، فإنّ حركات ثورية، كالفهود السود والفلسطينيين، لا تبدو كذلك. إلاّإنّ مسعاها السريّ ربما كان يتمثل في احالة اللّه، وببطء، مستهلَكاً، فقير الدم، مسطّحاً، منسيّاً، وشفافاً الى حد الامّحاء الكامل. ربما كان هذا تكتيكاً، طويل الأمد بلا شك. إلاّ إنّه فعّال. وعلى أيّة حال، كانت مسيرة الفهود بكاملها تتقدم باعتبارها سعياً الى تحرير الانسان الأسود. بتحرّكهم بالاعتماد على صوَر كانت تثير الانخطاف والانحسار، فرضوا فكرة « جميل هو الأسود » Black is beautiful، التي كانت تفرض نفسها حتى على الشرطة السود، أو حتى على مَنْ كان الواحد منهم يُدعى « توم » Tom [السود المنخرطين في دوائر المجتمع الأبيض]. وبتسارعٍ ربما كانت تقف السلطة وراءه، تجاوزت الحركة الهدفَ الذي كانت السلطة تتوقّعه.

أصبحت الحركة هشّة، هشاشة صرعة، لكن صلبة، لأنّها كانت تغتال الشرطة وتتعرض الى الاغتيال.

هشّة عبر حاشيتها المتذبذبة التي أشرت إليها، وبفعل طريقة تمويل الحركة، ووفرة الصور

التلفزيونية مؤقتة المفعول تحديداً، وبلاغة فظة ورقيقة في آن معاً، وغير مدعومة بتفكير داخليّ صارم، وبفعل نزعة مسرحية رجراجة - كالنزعة المسرحيّة بعامة - ، وأخيراً بفعل نوعية الشعارات سريعة الزوال.

دعونا نستعيد: عبرَ الحاشية المتذبذبة. لاشك أنّها كانت تشكل نوعاً من السدّ الحاجز بين البيض والفهود السود، لكنْ، علاوةً على أنّ هذا الحاجز كان مدموغاً بالطيش، فقد كان ثمة تنافذ بينه وبين «الفهود».

طريقة التمويل: إنّ انخطافاً سريعاً بالحركة قد تحقق في الأوساط «البوهيمية» الثرية، سوداء كانت أو بيضاء. كانت الصكوك تنهال، وكانت فرق للجاز والمسرح تسلّم صندوقَ الحركة ريعَ حفلات عديدة. كان الفهود يتعرضون لغواية الإنفاق على المحامين والمحاكمات والنفقات الضرورية. وكانوا متعرضين أيضاً لاغراء التبذير. ولقد انقادوا.

صور التلفاز: صور متحركة، لكن ذات بعدين، تمتّ بصلة الى المتخيَّل، وبالتالي الى أحلام اليقظة، أكثر مما الى الواقعة الخام.

بلاغة الفهود: أفرحت الشبيبة البيضاء والسوداء التي راحت تقلدها، إلاّ إنّ كلمات من قبيل «جماهيريّ» و«أنا إنسان» و«كلّ السلطة للشعب»، سرعان ما تحوّلت الى عادة تمنع كلّ تفكير.

أما النزوع المسرحيّ، فمَثله مَثلُ التلفزيون، يقذف بالانسان في المتخيَّل، إنّما بوسائل الطقوسية.

لقد تم فكّ رمزيّة الحركة بسرعة لم تساعدها على الصمود. قُبلَت بسرعة، وسرعان ماطُرِحَتْ جانباً لأنّها فُهِمَتْ بأسرعَ من اللزوم. ومع هذا، ولهشاشتها، فسرعان ما قُبلت، أوّلاً من قبَل الشبيبة السوداء، التي استبدلت «الماريجوانا» باستفزازات المظهر والشَّعر، ومن ثمَّ من قبل الشبيبة البيضاء التي وجدت فيها مناسبة للتحرّر من لغة كانت قد بقيت «ڤيكتورية»، والتي راحت تقهقه عندما سمعت جونسون، ونيكسون بعدَه، يُنعَتان بـ«اللواطيِّين» علناً، ودعمت «الفهودَ السود»، محاولةً تقليدهم، باعتبارهم كانوا يمثلّون الحركة الأكثر طليعيّة. هذه المرّة، صارَ السود مرئيِّين لا كخاضعين ولا كافراد يُدافَع عن حقوقهم، وإنّما كمهاجمين ضارين، مفاجئين، نائين عن التوقّع، واخيراً كمُتفانين الى حدّ الموت في التزامهم الذي كان ممتزجاً بالدفاع عن الشعب الأسود.

ربما كان هذا الانفجار صارَ ممكناً بفعل حرب ڤيتنام وصمود «الڤيتكونغ» بوجه

الأميركان. بإعطاء الكلام لزعماء الفهود السود أو بعدم رفض إعطائهم إيّاه في التجمعات الجماهيرية ضدّ حرب ڤيتنام، كان الآخرون يمنحونهم، بصورة من الصور، حقّ التدخل في شؤون البلاد. بعد ذلك، وهذا شيء ينبغي عدم التقليل من شأنه، انخرطَ في الحزب بعض السود ممّن حاربوا في الهند الصينيّة [ڤيتنام حاليّاً] وعادوا الى الولايات المتحدة بغضبهم وعنفهم ومعرفتهم بالأسلحة النارية.

لا شك في انّ الدور الأكثر تأكيداً للحركة قد تمثّل في تسليط الضوء على وجود السود. استطعتُ أن الاحظ هذا بنفسي: ففي ١٩٦٨، في المؤتمر الديمقراطي في شيكاغو، كان السود ما يزالون إن لم أقل خجلين فعلى الأقل حذرين. كانوا يخشون الشمس والتأكيدات. وسياسيّاً، كانوا «يحتجبون». وإذا بهم، في ١٩٧٠، يعيشون مرفوعي الرأس جميعاً، مكهربَي شعر البدن. كان النشاط الفعليّ، والعميق إجمالاً، للفهود السود قد انتهى تقريباً. وإذا كانت الحكومة الأميركية قد أرادت إبادتهم بإفساحها في المجال لنوع من التضخم تظل هي كفيلة بإزالته، فهي سرعان ما أدركت خطأها: لقد استغلّ الفهود فترة التضخم للاكثار من تلك النشاطات والحركات التي تحولت الى صوَر، صوَر قوية، وفعّالة سيّما وانّها كانت ضعيفة، أي مقبولة بسرعة من قبل جميع السود والشبيبة البيضاء: إنّ ريحاً عظيمة كانت تهب على «الغيتو» (المعْزل) وتكنس معها كلّ شعور بالعار، كلّ رفض للظهور، والمهانة العائدة الى أربعة قرون من الزمن. وما إن انقشعت هذه الريح حتى بدا للجميع انّها ماكانت أكثر من نفحة، نفحةٍ حنونٍ تقريباً، وصداقيّة.

يمكن أن تنبيء أيّ كلمة كانت بتشكّل أيّ صورة كانت، ثمّ بظهورها. إلاّ هذه التي سأثبّتُ ههنا، فهي قد تقدّمت عبرَ وفرةٍ من صوَر أخرى كانت تتراجع من حيث الالق والقوّة والاقناع بقدرما راح قراري في الكتابة يتشخّص ولايتمسّك إلاّ بها: تلكم هيَ صورة الليل القطبيّ. كانت طائرة خطوط «اللوفتانزا»، التي أقلعت من هامبورغ في مساء ٢١ كانون الأول / ديسمبر ١٩٦٧، قد حملتنا أوّلاً إلى كوبنهاغن. واجبرنا تعرقل أدوات الملاحة الجويّة على العودة الى فرانكفورت. فاستعدنا الرحلة في صباح ٢٢ منه. كان المسافرون، باستثنائنا أنا وثلاثة أميركان وخمسة ألمانيين، يابانيّين صامتين. وحتى وصولنا «انكوراج»، لم يحدث ما يستحقّ التسجيل، لكنْ قبل الهبوط بقليلٍ قالت إحدى المضيفات عبارات مجاملة بالانجليزية والألمانية، ثمّ نطقت بـ: «سايونارا». ربّما كان النغم الواضح للصوت، والغرابة المنتظرة من قبلي منذ زمن طويل لهذا الجرس، وشفافية حروف العلّة التي لم تكن الحروف الصحيحة لتكاد تحملها، بإيجازِ هذه الكلمة في الليل، والطائرة ماتزال في خط العرض الغربيّ تتهيّأ

لمغادرته، قد تسبّبت لي بانطباع منعش جديد تماماً يمكن دعوته بالاستشعار.

عاودت الطائرة الانطلاق. أم لا؟ كانت المحركات تدور إلاّ إنّني لم أحسس بصدمة الاقلاع، الهيّنة أو الفظّة، وكان الظلام من الكثافة بحيث لم أكن لأعرف إن كنّا مانزال رابضين. كان الجميع صامتين، ربّما نياماً أو كان الواحد يجسّ نبضه لنفسه. أبصرتُ عبر الكوّة ضوءاً أحمر مثبّتاً في مقدّمة الجناح. قالت لي مضيّفة إنّنا اجتزنا القطب وكنّا «ننزل على» الشطر الشرقيّ من المعمورة. كان تعب الرحلة، والمسار الذي تمّ تغييره، وتيه الطائرة، والليل الذي بدا وكأنه لايريد الانتهاء إلاّ فوق اليابان، وفكرة أننا الآن في شرقيّ الارض وأنّ حادثاً كان ممكناً في كلّ ثانية فيما تُثبت كلّ ثانية جديدة أنّه لم يقع بعد، ووقْع الكلمة «سايونارا» عليّ، هذا كلّه كان يمنعني من النوم. انطلاقاً من هذه المفردة صرت منتبهاً الى الشاكلة التي كانت الأخلاقيّة اليهودية–المسيحيّة، السوداء والغليظة ولاشكّ، تنقشع بها قطعة قطعةً من جسدي حتّى لتجازف بأن تدَعني عارياً وأبيض. كانت سلبيّتي تدهشني. كانت العملية تتحقّق عليّ، وكنت أنا الشاهدَ عليها، أشعر بالهناءة من دون أن أشارك فيها. بل حتّى كنتُ على حذرٍ: ستنجح هذه العمليّة تماماً إذا لم اتدخّل. كان الارتياح المحسوس به مغشوشاً نوعاً ما. ربّما كان أحدٌ سواي يتفرّسني. طويلاً قارعتُ هذه الأخلاقيّة حتّى لقد صار نضالي أخرق. وعبثيّاً. وإنّ كلمة يابانية، الكلمة المدعومة بالصوت المطواع لفتاة، قد بدأت العملية. وما بدا لي مدهشاً أيضاً هو أنّني كنتُ، في نضالاتي السابقة، سأعجز عن أن أكتشف، حتّى لو اخترعتُها أو تعلّمتُ اليابانية، هذه المفردة البسيطة، شبه الطريفة، التي كان معناها العاديّ مايزال يفلت منّي. إنّني، وقد فاجأتنيَ القدرة التطهيرية، الاشفائية، لكلمة بسيطة مقروءة بشفافيّة، ظللتُ قابعاً وسطَ الحَيرة. بعد ذلك بقليلٍ بدا لي أنّ «سايونارا» (صوت «الراء» غير موجود في اليابانية، فتُلفَظ المفردة: «سايونالا») كانت تشكّل على جسدي البائس، البائس لأنّه أطبقَ على هذه الأخلاقية اليهودية–المسيحية حصاراً مُهيناً، اقول كانت تشكل عليه لمسة القطن الأولى التي كانت ستنظّفني تماماً، وكما ذكرتُ تدَعني عارياً وأبيض. هذا التحرّر الذي كنتُ أحسبهُ طويلاً وبطيئاً ومُنهكاً، ممّا يعني في العُمق أنّه مُمارَس كما لو بمعونةِ مبضعٍ، قد بدأ في ضربٍ من اللعب؛ كلمة، غير معروفة، مطروحة بدهاءٍ بعدَ مفردتين، إنجليزية وألمانية، وهذه الكلمة، التي هي صيغة ترحيبٍ موجّهة لجميع المسافرين، كانت هي البداية الخفيفة لتنظيفٍ لن يعمل إلاّ على سطحِ ذاتي، ومع ذلك فهو سيحرّرني من هذه الأخلاقيّة اللزجة أكثر ممّا هي حاتّة. كان عليّ أن أفكّر بأنّها ستزول لا بعمليّة جراحية، تظلّ دائماً احتفاليّة نوعاً ما، وإنّما بفضلِ صابونٍ صاقلٍ. لاشيء كان داخليّاً. نهضتُ، مع ذلك، لقضاء الحاجة في خلفيّة الطائرة، آملاً التخلّص من دودة وحيدة طولها ثلاثة آلاف سنة. كان الشعور بالارتياح مباشراً تقريباً: سيكون كلّ شيء على ما يرام مادام التحرّر قد بدأ بلطمة موجّهة للتهذيب. بفضل

تجميلٍ رفيعٍ كانت أخلاقية ثقيلة تتحلّل. كنت أجهلُ فلسفة «الزنّ» ولا أدري لمَ أكتب هذه العبارة. كانت الطائرة تواصل مسيرتها في الليل، ولكنّني لم يكن ليخامرني الشكّ في أنّني، لدى وصولي الى طوكيو، ساكون عارياً، مبتسماً، سريعاً، وقادراً على أن أفصل بضربة واحدة رأسَ أوّل جمركيّ، والثاني أيضاً، لا أعبأ به قطّ. والطفلة اليابانيّة التي كنتُ أخشى وأتمنّى أن تموت لم يرمقها الجماركة ولا بنظرة. وبدا لي أنّ هشاشة عظامها وحقيقة أنّ ملامح محيّاها كانت من قبلُ مسحوقةً، هذا كلّه بدا لي كمثلِ استفزازٍ يستدعي أن يُسحَق. عَدا هذا، كان ثقل جزمات الطاقم الألمانيّ متناسباً وعضلات الفخذين والإلية، ومتانة الجذع، ونياط الرقبة، وقسوة النظرات.

«إنّ هذه الهشاشة كلّها لهيَ عدوان يستلزم الردع.»

ربّما كنتُ أقول هذا لنفسي بصيغة أخرى، ويمكن الافتراض أنّني كانت تجتازني صور يهودٍ عراة أو شبه عراةٍ، هزيلي الأجسام في معسكرات الاعتقال التي كان هزالهم يشكل فيها استفزازاً.

«أن تبدو بمثل هذه الهشاشة والانسحاق فهذا توسّلٌ من أجل السحق. وإذا ما سُحِقَتْ فمَن ذا الذي سَيعلم؟ نحن الآن أكثر من مائة مليون يابانيّ حيّ.»

كانت حيّةً تُرزق وتتكلّم باليابانية.

كلّ قرارٍ يُتّخَذ في العماء. حتّى في الحُكم الشخصيّ، إذا كان الحُكم المدلى به يدَع القضاة في غاية النصَب، مستنزفين، ومساعديهم مُنهكين، والجمهور مبهوتاً، والمجرم طليقاً، فإنّ الحرية والحُكم سيجدان جذرهما في الهذيان. أن نصوغَ حُكماً بالعناية نفسها التي يصوغ بها أبله قصيدة، ياللقضيّة! أين تجد الانسان العازم على ألاّ يحكم ليكسب عيشه؟ من هم الرجال الذين سيهجرون دهاليز القضاء ليتيهوا ويذووا في صياغة حكمٍ يجازفون فيه بفهمِ أنّ التهيئة مفرطة الدقّة لفعلةٍ سيئة هي مسرَحة تعيق نجاحها؟ إنّ القاضي، المتقنّع بالغفليّة، لا يحمل سوى لقب وظيفته. والمجرم ينهض عندما يناديه القاضي باسمه. ولمّا كانا مرتبطين فوراً بشذوذٍ بيولوجيّ يضع المُجرم في مواجهة رجل القضاء، ويجعله كذلك يُكمّله، فالمجرم لا يقدر أن يكون بدون رجل القضاء. مَن هوَ منهما الظلّ ومَن الشمس؟ نعرف أنّه كان ثمّة مجرمون عِظام.

لسوف يحدث كل شيء على خلفيّةٍ من الظلام: إنّ المحكوم، وهو على عتبة الموت،

وعلى الرغم من ضآلة وزن هذه الكلمات، وفقرها، وعلى قلة أهمية الحدث، ما يزال يريد أن يقرّر وحده معنى ما كانت عليه حياته. حياة حدثت على خلفيّة من الظلام يريد هو لا إضاءته وإنّما مُفاقمَتَه.

« ستوني-بروك » جامعة تقع على مسافة ما يقرب من ستين كيلومتراً من نيويورك. المباني الجامعية ودور الأساتذة، وكذلك دور الطلبة، تقع جميعها في قلب الغابة. كان علينا، أنا والفهود، أن نلقي فيها محاضرتين، واحدة أمام الأساتذة، وثانية أمام الطلبة. الغاية: التحدث عن « بوبي سيل »، عن اعتقاله، عن التهديد الفعليّ بتلقّيه حكماً بالاعدام: الكلام أيضاً عن تصميم حكومة نيكسون على إبادة حزب « الفهود السود »، عن مشكلة السود بعامة، وبيع صحيفة الحزب الأسبوعية، وتسلّم صكين عن المحاضرتين، الأول بخمسمائة دولار آتٍ من الأساتذة، والثاني بألف دولار من مجموع الطلبة، وجمع التبرعات، ومحاولة استقطاب بعض المتعاطفين بين الطلبة السود... وفيما نتأهب للدخول في السيارة (كنّا في مقرّ الحزب في « برونكس »)، قلت لداڤيد هيليارد [أحد قادة الحركة]:

ـ أتاتي معنا؟

إبتسم قليلاً، وقال انْ « لا »، ونطق بتعليق بدا لي ملغزاً:

ـ ما يزال ثمة أكثر ممّا يلزم من الأشجار.

إنطلقتُ مع زايد وناپيير. طوال الرحلة بالسيارة، لم تكفّ الجملة: « ما يزال ثمة أكثر ممّا يلزم من الأشجار » عن ملاحقتي. وعليه، فَلم تكن الشجرة، بالنسبة الى أسود لم يكد يبلغ سنّ الثلاثين، لتعني نفس ما تعنيه للأبيض، أي عيداً من الأوراق والعصافير والأعشاش والقلوب المحفورة على الجذوع والأسماء المتعانقة، وإنّما: مشنقة. إنّ رؤية شجرة، إذْ تبعثُ ذعراً ليس بقديم العهد جداًّ، إنّما تُجفّف الحلقَ وتُجرّد الحبال الصوتية من كامل جدواها. يعتلي رجلٌ أبيضُ العارضةَ الرئيسة مُمسكاً بالحبل المعقودة فيه العقدة: هذا هو ما كان يراه، قبل أيّ شيءٍ آخر، الزنجيُّ الذي ينتظر العقَاب. وما يفرّقنا اليوم عن السود لايتمثل في لون البشرة أو شكل الشعر بقدر ما هو في ذلك التكوين النفسيّ الغاصّ بالهواجس التي لن نعرفها نحن أبداً، إلاّ إذا ما نطق أمامنا إنسان أسود، على نحو ساخر وسريّ في آن واحد، بجملة تبدو لنا ملغزة. وإنّها لَمُلغزة. ذلك أنّ السود دائماً ما يحتفظون لانفسهم بعُقَدٍ متشابكة من الهواجس. من بؤسهم، صنعَ السود ثروة.

كان أساتذة « ستوني-بروك » في غاية الانشراح. استقبلونا بحرارة بالغة، وما كانوا

يفهمون لمَ لمْ أكن أحاول التميّز نوعاًما عن الفهود ببلاغة اقل عنفاً. كان عليّ، في نظرهم، أن أهدئ من جموح المسؤولين، وأن أوضح لهم...، الخ. ثم عُبِّئ باسمي صكّان وأُعطيا للفهود. أثّرت فيَّ هذه اللباقة كثيراً. قالت لي سيدة بيضاء، أستاذة:

ـ علينا أن نحتج على ذبح «الفهود السود»، لأنه، على هذا المنوال، سنخاف بَعدَهم على أبنائنا.

عليّ، بعد التفكير، أن أكتب ماياتي: منذ إنشائه في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٦، لم يكفّ حزب الفهود السود عن تجاوز نفسه، من فرط «نوافير» الصوَر شبه غير المنقطعة، من مطلع العام ١٩٧٠ حتى منتهاه. في أبريل / نيسان ١٩٧٠، كانت قوّة الفهود السود ماتزال في كامل مضائها، وذلك الى حدّ أنّ الأساتذة، في الجامعات، كانوا لايتمتعون بأيّ سبيل للنقاش، من فرط ما كانت انتفاضة السود تنطلق من بديهيّات كان عجز البيض، جامعيين أم غير جامعيّين، أمامها، يدفعهم الى تجريب مجرّد تعازيم. كان بعضهم يسأل الشرطة أن تتدخّل. إلاّ إنّ حركة الفهود السود، المأساوية والفرحة، ماكانت حركة جماهيرية أبداً. كانت تدعو الى التضحية الشاملة، والى استخدام الأسلحة والابتكارات اللفظية، والى الشتيمة التي تصفع وجه الأبيض. ماكن لها أن تمتلك العنف الاّ بتغذيته ببؤس المعزل (الغيتو). وماأحالَ حرّيتها الداخلية الكبيرة ممكنة هو الحرب التي كانت الشرطة تشنّها عليها، هي والادارة والمجتمع الأبيض وشطر من البرجوازية السوداء. وكانت الحدّة المفرطة لهذه الحركة تدفعها الى التلف بسرعة. فيما تُفرقِع، بل فيما تقْدَح، وتحيل مشكلَ السود لامرئياً فحسب، بل كذلك مضيئاً.

ندرة من المثقفين الامريكان ادركتْ انّ حجج الفهود، لأنّها لم تكن مستمدّة من الخزّان المشترك للديموقراطية الامريكية، كانت تبدو عموميّة، والفهود عديمي الثقافة أو «بدائيّين». وفي طورهم ذاك، لم يكن عنف ماكان يدعى ببلاغة الفهود السود أو نزعتهم اللفظية لينتمي الى نظام الخطاب، بل الى قوّة التأكيد – أو النفي – ، والى غضب اللهجة والنبر. كان هذا الغضب، الدافع الى أفعال، يمنع الانتفاخ أو التفخيم. وليُقارنْ كلّ مَن شهدَ الشعارات السياسية للبيض، «مؤتمر شيكاغو الديموقراطيّ» في أغسطس/آب ١٩٦٨ مثلاً: ليس الابتكار الشعريّ بالموفّق لدى البيض.

نلاحظ الآنَ انّ حزب الفهود السود لم يحفّز فحسب أو يشجّع تنويع الوان الأنسجة أو

الشعر لدى الفتْية السود: كان البيض يعلمون أنّ وراء هذا الاستفزاز الوقح في اتّجاههم، إنّما تكمن إرادة عيش يمكن أن تذهب الى حدّ التضحية بالحياة. وكان الفتْية السود، غريبو الأطوار في سان فرانسيسكو وهارلم وبيركلي، يُخفون ويُبرزون أنّهم يحملون سلاحاً موجّهاً ضدّ البيض. وبفضل الفهود، صارَ السود، الذين كان الواحد منهم مايزال يُدعى «توم» Tom، أي أولئك الذين كانوا يشغلون مناصب في الادارة أو كانوا قضاة أو عُمْدات في المدن الكبيرة ذات الأغلبية السوداء، والذين ماكانوا يُنتَخَبون أو يُعَيّنون إلاّ من أجل المَظاهر، هولاء السود صاروا «مرئيّين» الآن، و«منظوراً إليهم»، و«مسموعين» من قبل البيض. لالأنّهم كانوا يطيعون الفهود، أو لأنّ الفهود كانوا أداة لهم، بل لأنّ الفهود كانوا مخشيّين. كان ثمة أحياناً مايسبّب بؤس المعازل (الغيتوات): أن ترى الى «أعيان» لايسمعهم البيض وهم يميلون الى بسط نفوذهم وكسر شوكة السود، لاعن انهمام بالعدل وإنّما عن إرادة قوّة. هؤلاء كانوا يكمّلون عمل النظام والقانون الأمريكيّين. لكن الفهود السود، بين ١٩٦٦ و١٩٧١، بدوا كفتيان برابرة، يهدّدون القوانين والفنون، وينادون بديانة ماركسية–لينينة قريبة من ماركس ولينين قربَ دوبوفيه Dubuffet من كراناخ Cranach (١٤). أوَما ينبغي النوم؟ نحوَ منتهى الليل، بعد النقاشات والسجالات وأقداح الويسكي وسجائر الماريجوانا، كان ينبغي الرقاد. وكان في مِعَد بعض الفهود قروحٌ كثيرة.

ذلك الفتى الأسود الذي كان يقبع في السجن لأنّه قد كان دخّنَ [المخدّرات] أو سرقَ، أو اغتصبَ، أو أشبع أحدَ البيض ضرباً، تحسبه ابن إنسان أسود مهذّب، يحترم القوانين، قوانين الدين وقوانين الدولة، إلاّ إنّ هذا الفتى الزنجيّ كان في الواقع، وهو نفسه يعرف ذلك، قد اغتال رجلاً أبيضَ قبل ثلاثمائة عام، وساهم في عملية فرار جماعيّ مصحوبة بالسطو والنهب والتعرّض لملاحقة الكلاب، وهو من استدرجَ واغتصب فتاة بيضاء وشُنقَ بلا محاكمة، إنّه أحد زعماء انتفاضة وقعت في ١٨٠٤، ترسف قدماه في قيودٍ موثوقة الى حائط السجن، إنّه من ينحني ومن يرفض الانحناء. لقد أعارته إدارة البيض أباً يجهله هو، أسود مثله، وربّما كان منذوراً لأن يُحدث القطيعة بين الزنجيّ البدئيّ الذي واصلَ القيام، وبينه هوَ. طريقة تناسب الأبيض وتلحق به الضرر في آن: تناسب الأبيض لأنّ الادارة يمكن أن تضرب أو تغتال أفراداً من دون أن تتهم نفسها بهذا القتل؛ وهي تلحق الضرر بالأبيض لأنّ مسؤولية «جرائم» الأسود ستكون محدّدة بالفرد، لابمجتمع السود، وهكذا فستُدخله إدانته في نظام الديموقراطية الأمريكيّة لإفساده. وعليه، فالبيض بائسون جداً: فهل ينبغي إدانة الزنجيّ أم مجرّد رجل

أسود؟ بفضل «الفهود السود»، كان ثمة سودٌ جدّ طيّبين [في نظر البيض]، تمّ احتواؤهم، لكنّ الفهود أثبتوا بنشاطهم انّ زنجياً إنّما يظلّ كذلك [اي زنجياً] (١٥).

لكنْ، لحسنِ الحظّ، لذعةُ ثومٍ.

يُدعى، في المعسكرات الفلسطينية، «أشبالاً» فتيةٌ بين السابعة والخامسة عشرة من العمر، مدرّبون على عمل المحارب. يبدو نقد هذه المؤسّسة سهلاً. كان لها فائدة نفسية، إنّما محدودة. يمكن نيل صلابة الروح والجسم بفضل تمارين رياضية شاقة، متعاظمة التعقيد، تُلزم، لقهر البرد والسخونة والجوع والخوف والذعر والمفاجاة، بردود مباشرة. إلاّ إنّ ظروف التدريب الصعب لن تلتقي أبداً ووضعية المحاربين المطلوب منهم مواجهة حيَل محاربي الجهة المقابلة، المصمّمين على القتل، بمافيه قتل الصغار. لما كان قادة الأشبال يعرفون انّهم يُدرّبون صغاراً (١٦)، فإنّ رقّة، شبه أمومية، تتخلّل اوامرهم، مهما يكن من قساوتها.

«كلّ فلسطينيّ يعرف إطلاق النار منذ سنّ العاشرة»، هذا ماقالته لي ليلى بانتصار. ماتزال تحسب انّ إطلاق النار يتمثّل في تسديد البندقية والضغط على الزناد. بل إنّ الاطلاق الجيّد يتمثل في التصويب على العدوّ وإردائه قتيلاً، والحال، فإنّ هؤلاء الصغار، شأنهم شان الفدائيين، كانوا يستخدمون أسلحة متجاوَزة بسرعة. الاطلاق، أين؟ وعلى مَن؟ وخصوصاً، في أيّة ظروف؟ في هذا الميدان الجمهريّ، ميدان الألعاب أكثر منه ميدانَ معاركَ، المتروك للأشبال، كان ذلك مناخَ مُهودٍ باعثاً على الطمانينة وليس أبداً على القساوة التي لاتُغتَفَر والتي ينجم فيها الذعر ممّا لن نعرفَ من العدوّ أبداً. وكانت دروس حرب العصابات أوّلية. شاهدتُ، مراراً وتكراراً، الأشبالَ يتدرّبون على المرور بين الأسلاك الحديدية الشائكة التي هي نفسها دائماً، من دون أن يطرح نفسه مشكل جديد، وبالتالي من دون أن يلْفوا انفسهم ملزمين بمواجهة موقف مفاجيء وخطير مصمّم في خبايا الأدمغة الاسرائيلية، هكذا بحيث بدا لي هؤلاء الصغار وهم يقومون بدور قواعد «بوتمكين» [التمويهيّة] نفسه. كانت معسكرات الأشبال تريد أن تثبت لصحفيّي العالم أجمع، في زيارتهم المنظّمة، انّ أجيالاً كانت تولد وهي تحمل البندقية في القبضة، وخطّ التسديد في العين، واستعادة الأراضي المحتلّة في القلب. وخلا صحفيّي الأقطار الشيوعية، فلا واحدَ أرادَ أن يبدو مخدوعاً.

كانت إسرائيل تمزج بتصريحاتها هذا الحقد الذي لن يخمد أبداً (وترى في الخرائط الى الأبيض وهو يحاذي الأزرق المشير الى البحر المتوسّط، وفي الشرق لبنان، وفي الجنوب المملكة الأردنية التي تمثّل ماكان حتى ١٩٤٨ يُدعى فلسطين. وهو، اي الأبيض، موجّه لمحو مايدعوه

نظام الأمم اليوم إسرائيل). لوحدها كانت صوَر الأشبال في معسكراتهم كافية لتشير إن لم نقل الى هشاشة الدولة [الاسرائيلية]، فعلى الأقلّ الى الخطر الدائم، ومع ذلك فإنّ استعدادات أسرائل وتحركاتها ما كانت لتقبل المقارنة بمعسكرات الصغار هذه التي كان العلمَ المثلث يُرفَع فيها بأحتفال كل صباح. حضرتُ «رفْعات» للعلم عديدة: كانت الراية صغيرة، على مقاس قامة الصغار؛ عندما يلوّح صغار التلامذة بعلَم صغير من الورق لدى مرور ملكة، فهذا لايُدهش احداً، وعلى الابتسامة الصغيرة للملكة تردّ ابتسامة الأطفال الصغيرة جداً: في معسكرات الأشبال كان رمز الوطن فقيراً الى الدم، ولعلّي أقول إنّ الرموز تكبر بقدرما يتقدّمون في العمر. وإذا ماتصاعدَ دخان مفاجيء وغلّف معسكر التدريب كلّه، فلن يشعر الصغار لابالمفاجأة ولابالذعر، فهذه عملية مبرمجة، لكن ماسيحدث لو أنّ الظلام فُرِضَ من قبَل إسرائيل في عزّ النهار ماحقاً الشمس! – مايعني التعبير: «لذعة ثوم، لحسن الحظّ...»؟ إنّ تفاهةً للطعم مفرطة يمكن أن تزيلها لذعة ثوم صغيرة، وغالباً ماكان الأشبال الأكثر سنّاً، والأكثر «فساداً» من القادة المعتادين، يضيفون الى تدريبات الصغار لذّة ساديّة، وهذه الاضافة، التي ربّما كانت شرّيرة، إنّما هي مُنشّطة.

النظافة تليق بالفلسطينيّين؛ فإذا كنتَ ذاهباً الى الموت، فَينبغي ألاّ تصل إلاّ بعد تطهّرٍ وجَلْيٍ دقيقين. كالمعتاد، كان خالد هو من اعلَمني بالأمر: كان فدائيّان في سنّ العشرين، من أولئك الذين كانوا يغنّون معه على الكثيب، يغتسلان بعناية في العراء، غيرَ بعيد عنّا. بدا الفدائيّون الآخرون وكأنهم لا يرونهما، وخصوصاً لا ينظرون الى ناحيتهما. بكلمتَي التطهير والجلي إنّما أريد التعبير عن الدقة التي تبلغ حدود الهوس في العناية بالجسد، والعمل من أجله، عمل بَدا مقدّساً، أي بمعنى أوّل ما يخدمه المرء. بالمنشفة أوّلاً، وباليدين بعد ذلك، كانا «يجلوان» جسدهما ويمرران أصابعهما مراراً عديدة بين أصابع القدمين حتى لا يبقى فيها أي وسَخ. ثم مختلف المناطق الجنسية، والجذع والإبطين. كان المقاتلان يتعاونان، فيسكب أحدهما من الماء النظيف على الآخر بعدما يكون هذا قد مرٌّ على جسمه بالصابون. كانا منعزلين نوعاً ما عن بقية المحاربين الذين لم تكن تفصلهما عنهم إلاّ بضعة أمتار، وكانت عزلتهما آتية، بالذات، من هذه المشغلة التي كانت تبعدهما عنهم الى الأبد. كانت، في الوقت نفسه، تضخّمهما حتى ليكتسبا أبعادَ جبالٍ، وتُقصيهما عن الجميع كما لو كانا نملتَين. تحدّثتُ عن «الجلْي»، وتبدو لي الكلمة صائبة جداً: كان كلّ من المقاتلين يجلو جسده كما تجلو الخادمة الأواني التي ينبغي غسلها بمسحوق «التايد» وتلميعها بعد الغسل. ولقد بدا لي هذا شيئاً مغايراً للوضوء المعهود في الاسلام. منصاعاً لسلوك الفدائيّين، ناسخاً اياه، تركتُ

أحدهما يترنم بأغنية، وتبعه الآخر. سحبَ الأول محفظة صغيرة كانت قربه، وجّر سحّابها وأخرج منها مقص خياطة صغيراً، وشرعَ، فيما يواصل الغناء، مرتجلاً إيّاه كالعادة، يُقلّم أظافر أصابع قدميه، وخصوصاً زوايا الأظافر التي يمكن أن تمزّق الجورب، ومن ثمّ أظافر أصابع اليدين اللتين غسلهما بعد ذلك، ثم غسل وجهه وعضوه حليق شعر العانة، دون أن ينقطع عن غنائه، المرتجل دائماً، وعارفاً، أبداً، كيف يعثر على الكلمات الموجّهة لفلسطين. لا أدري لمَ لمْ ينزلا الى الغور في اتجاه اسرائيل تلك الليلة. لم يمنحهما الحمّام ما قبل-المأتميّ صفة القداسة. بل عادا واختلطا ببقية الفدائيّين. وسيقومان بكلّ شيء من جديد عندما يُعَيَّنان لرحلة الألغام مرة أخرى.

قصّت عليَّ نبيلة، فيما تُقهقه، قهقهة تنبثق من أعماق الحلق بالطبع ليُرى على عنقها العقْد «البندقيّ» (نسبة إلى مدينة «البندقيّة») من طراز ذاك الذي كانت تحمله [علياء] الصلح (١٧)، قصّت عليَّ نهاية عجوز فلسطينية كانت في سنّ الرابعة والثمانين. لقد أحاطت بطنها الضامرة بمشدّ يُخفي أربعة صفوف من القنابل، ولا شك أنّ نساءاً بعمرها، أو أحدث سناً، لهنّ عاداتُ جنسها ونحافتها وبياض بشرتها، قد ساعدنّها في تهيئته. ثم راحت واقتربت، وهي تبكي بدموع حقيقية، من مجموعة من حركة «أمل» كان أفرادها يستريحون ضاحكين بعدما تعبوا من إطلاق النار على الفلسطينيين. طويلاً بكت العجوز، مازجة بكاءها بالشكوى. إقتربت منها المجموعة، بلطف، لتهدّئها، لكنّ العجوز ظلت ممعنة في البكاء، وراحت تهمس بالعربية بشكاوى لم يكن أفراد المجموعة الشيعيّة ليفهموها: كان عليهم أن يلتصقوا بها تقريباً. عندما أعرف عن طريق الصحف أنّ فتاة في سن السادسة عشرة فجّرت نفسها وسطَ مجموعة جنود إسرائيليّين، فأنا لا أدهش كثيراً. إنّ الاستعدادات المأتمية الفرحة هي ما يُحيّرني. فأيّ خيطٍ كان على العجوز أو الشابة أن تسحب حتى تنفجر القنبلة؟ إنّ تعديل المشدّ لتمكين جسد العذراء من أن ينال المرونة الأنثوية وشديدة الاغواء لكفيل بإثارة حفيظة الجنود المعروفين بدهائهم.

في غرفةٍ في الفندق، مع ناقلٍ للموسيقى على الأذنين، كنتُ أصغي، ولتتخيّلوا دفناً حقيقياً في كنيسة، أمامَ تابوتٍ محاطٍ بباقات الورد، أكاليل وثماني شموع، ميت حقيقيٌ في قبره، وإذا بـ«جنّاز» [موتسارت] يهبط عليَّ، بجوقته والخورس. لم يكن الموت هوَما تُعيده الموسيقى، وإنّما الحياة، حياة الجدث، حاضراً كان أم غائباً، والذي كان القدّاس يُنشَد من أجله. كنتُ أحمل سمّاعتين. وكان موتسارت، المنصاع للطقوس الرومانية والعبارات اللاتينية التي أستمع أنا اليها على نحو أخرق، يسأل الراحة الأبدية، بل حياة أخرى؛ ولئن لم تكن أيّ

شعيرةٍ لتُمارَس، ولم يكن أمامي لاباب كنيسةٍ ولا مقبرة، ولاراهب، ولا من جثوٍ على الركَب، ولا مباخر، فإنّني، ماإن [تعالى ابتهال] « الكرياليسون »، حتّى سمعتُ جنوناً وثنيّاً. خرج الكهوفيّون من المغارات راقصين لاستقبال المتوفّاة، لاتحتَ الشمس أو القمر، وإنّما في ضباب حليبيّ لايدين بنوره الاّ لنفسه. كادت المغارات أن تشبه ثقوبَ جبنةٍ صفراء ضخمة مقطوعة، والكهوفيّون، الذين لم تكن لهم من أبعاد إنسانية، كانوا يرقات ضاحكةً، بل مقهقهةً، تتكاثر، وترقص لاستقبال ميّتةٍ جديدة، أي، بالتالي، ومهما يكن العُمر، المتوفّاة الشابّة نفسها حتّى تتعوّد البقاءَ من دون ضيق، ولكي تتلقى الموت أو حياةً أزلية جديدة، هبةً تُسرُّ، سعيدة وفخوراً باقتلاعها نفسها من الحياة الدنيا؛ وإنّ أيّام الغضب والتبويقات وارتجافات الملوك، هذا كلّه ماكان يشكل قدّاساً، بل الحكاية المغنّاة لاوبرا تحقّقت في أقلّ من ساعة، الزمن الكافي لاحتضارٍ معيشٍ وممثَّلٍ أمام رعب فقدان العالَم والاستيقاظ في... أيّ عالَمٍ، وبأيّ شكل؟ إنّ المرور بالأبهاء السفلية، والذعر من القبر، والشاهدة، وخصوصاً المرح، بل القهقهة الراكضة أعلى من الخوف، والسرعة التي كانت المحتضرة تهبها لنفسها لتخرج من هذا العالم، ببالغ اللهف لأن تعافنا لتهذيبات الحياة اليومية غير المُجزية لتصعد، لاأقول تنزل بل تصعد الى النور، ضاحكةً، بل ربّما وهي تعطس، هذا هو ماكنتُ أشاهد من لحن « ديبس إيراي » حتى لحن « اللاكريموسا » الثامن الشهير؛ لحن ماكنتُ لاميّزه عن الألحان التالية له، قابلاً بالقهقهة، بل سأقول بالحريّة المتجرّئة على كلّ شيء. عندما يقرّر فتى، بعد أيّام من القلق العاتي والحيرة، أن يغيّر جنسه، مايُدعى بهذا التعبير الرهيب « مُغيِّر جنسه »، أقول عندما يتخذ قراره، فإن الفرح يغمره إذْ يفكّر بالعضو الجنسيّ الجديد، بالنهدين اللذين سيُداعب حقاً بيديه الصغيرتين الناضحتين، وبنتْف الشعر، وخصوصاً فبقدرما يذوي العضو الجنسيّ السابق، وفي أمله هو بأن يسقط هذا العضو الذي لم يعد قابلاً للاستعمال تماماً، فإنّ فرحاً ربّما كان قريباً من الجنون يغشاه عندما يتحدّث عن نفسه ولايقول « هو » وإنّما « هي »، ويدرك أنّ نحو اللغة هو أيضاً ينقسم الى شطرين، وأنّ شطراً من اللغة، دائراً على نفسه، ينطبق عليه هو، في حين كان الآخرون يفرضون الشطر الآخر. ولابدّ أن يكون الانتقال من أحدهما الى الآخر غير المرغوب به، لذيذاً ومرعباً. « إنّ فرحك ليغمرني... »، « وداعاً يانصفي العزيز، إنّني لاموت في ذاتي... » وإنّ هجرانَه المشية الذكورية التي يمقتها ويعرفها، يعني أن يهجرَ العالم للاعتزال في الدير أو في مستشفى الجذام؛ وأنْ يغادر عالم البنطال الى عالم المنْهدة فهذا معادلٌ للموت المنتظَر والمخشيّ؛ ثمّ أليس هذا بالقابل للمقارنة بالانتحار حتى يغنّي الخورس لحن « التوبا ميروم »؟ وعليه، فربّما كان من يغيّر جنسه مسخاً أو بطلاً، بل ملاكاً أيضاً، لأنّي لا أعلم إن كان رجلٌ سيَستخدم، ولو مرّة واحدة، هذا العضو الجنسيّ الاصطناعيّ، الاّ إذا شكّل الجسد كلّه ومصير الجسد عضواً أنثوياً ضخماً، بعدَما يكون العضو الذكريّ الذاوي قد سقطَ، بل،

أسوأ من ذلك، بعدمًا يكون قد انهار. وسيبدأ الذعر بصمود القدمين اللذين يرفضان أن يصغرا: فالأحذية النسوية عالية الكعب من قياس ٤٣–٤٤ جدّ نادرة، الأ إنّ الفرح سيغمر كلّ شيء، هو والغبطة. وهذا هو مايعبّر عنه «جنّاز» موتسارت، الفرح والخوف. وعلى هذا النحو كان الفلسطينيون والشيعة ومجانين اللّه يندفعون ضاحكين صوب المغارات العتيقة، ليثبوا إلى الأمام مع آلاف الضحكات، ممتزجين بالتراجع العنيد للمتردّدات [الأبواق ذوات الأنبوبين]. بفضل فرح الموت، بل الفرح بالجديد، المضادّ لهذه الحياة، وبالرغم من شعائر الحداد، تعطّلت الأخلاقيّات. فرح مُغيِّر جنسه، فرح «الجنّاز»، فرح «الكاميكاز»... فرح البطل.

عرفتم ولاشكّ، خصوصاً في الصغر، سعادة البقاء تحت المطر، مطر مدرار، وبالتفضيل في الصيف، عندما يكون الماء الذي يهطل ويبلّلكم فاتراً؛ سعادة معاكسة للخيبة المتمثلة في تنشيف أيديكم، أنتم الغربيّين، بوضعها على فوهة المجفّف بساخنِ الهواء، مادامت متعتكم لاتكمن في تنشيفها بقدرما في تبليل المنشفة النظيفة. ماكنت، إذ أرفع إصبعي المبللة، لأعرف أبداً من أين تأتي الريح، ولا اتجاه المطر، الأ إذا كان بالغ الميَلان، شأنه شأن آخر شعاعات الشمس الغاربة، وعندما أدركتُ أنّني كنتُ اتّجه، لدى أوّل رشقة، في اتّجاه الاطلاقات النارية، فإنني طفقتُ أضحك كطفلٍ يُدهَش. وكمثلِ أبله يحتمي بحائط، كنت أشعر بسعادة تصّاعد فيّ فجأة، مع يقين سلامتي، في حين كان الموت مؤكداً على مسافة مترين من الجدار؛ كنتُ في الحفل. ماكان للخوف من وجود. والموت، شأنه شأن مطر الحديد والرصاص الى جانبنا، كان يشكل جزءاً من حياتنا. لم أرَ على وجوه الفدائيين سوى ابتسامات سعيدة، أو سوى الهدوء، المجروح ربّتما. وكان أبو غسّان، الفدائيّ الذي جرّني من ردن قميصي بقوّة ووضعني في منجى من الرصاص، في زاوية ميتة، أقول كان يبدو هائجاً و[في الأوان نفسه] منشرحاً.

«رشّاشات من دون سابق إنذار، وفوق ذلك حماية هذا الأوربيّ»، هذا ماكان أبو قسّام يفكر به، لاريبَ، ماداموا جعلوه مسؤولاً عنّي، لأنه يجيد الفرنسية. لاحظت أنّه لا أحدَ من المقاتلين، المسلّحين والمحملين بالذخيرة – خراطيش معلّقة على الصدر – كان يريد ولوج المباني والبحث عن ملجأ يمكن أن يردّوا منه وربما أن يحموا سكان البيوت. كان الجميع – إلأي – فتْيةً غير معروكين بمافيه الكفاية، و[إذْ يتعلق الأمر بمعاركَ فَـ] الصفة «معروك» مناسبة هنا بحقّ. سرى فيَّ ضرب من الاحساس بالضيق، يدعوه الآخرون استسلاماً. ولعلّ العبارة: «كلّ شيء منتهٍ» تعبّر عمّا كنت أشعر به خيرَ تعبير. ماعادَ أحد حتى ليقاتل، قرب جرش. كانت طوابير المعابد التي تركها الروم منتصبةً، تكفي. وكانت الاطلاقات تثقب واجهات المنزل، لكن لمّا كنّا محتمين وراء جدارٍ متعامدٍ وإيّاه، فلاأحد كان يواجه خطراً. كان الموت، القابع في

الجوار، قد أُبقيَ على مسافة. لو تقدّمتُ مترين لقُتلتُ، وهناك، حقّاً، وباقوى ممّا في أيّ مكان آخر، عرفتُ النداء على شفا هاوية افقية، وكانَ أكثر إمْرةً واقتداراً على استقبالي الى الأبد ممّا تقدر عليه هاوية تُنادي باسمي. دام إطلاق النار برهة طويلة، كما في باقي الأيام. وكان الفدائيون الشبان يضحكون. ماكان أحد ، خلا أبا غسّان، ليعرف الفرنسية، لكنّ عيونهم كانت تقول لي كلّ شيء. أكان هاملت سيعرف هذه السعادة لدوارٍ انتحاريّ، لو لم يكن لديه جمهور ولامَنْ يردّ عليه؟

لكنْ لمَ أصبح صوت الجدول في تلك الليلة قوياً حتى لقد أغاظني؟ أكانت الجوقات والتلال قد اقتربت من مجرى الماء بدون أن ينتبه أحد؟ أحسب بالاحرى أنّ صوت المغنين قد أدركه التعب، وأنّهم، من تلقاء أنفسهم، ظلوا يصغون الى هدير المياه لأنه كان يسحرهم، أو، بالعكس، لأنهم وجدوا فيه ضجّةً مزعجة.

حتى أحدثكم على نحو افضل عن الذكرى، فإن صورتين تتراكبان. أوّلاً، صورة الغيوم البيضاء. إنّ كلّ ما كنت الشاهد عليه في الأردن ولبنان يظل مغلّفاً بغيوم شديدة الكثافة، ما تزال تتقدم نحوي. واحسبُ أنّني أفلح في اختراقها عندما اهجم، بعماء، باحثاً عن رؤيةٍ لا أدري ما هي. ينبغي أن تظهر في نضارتها، كما رأيتها لأول مرة وكنت أحد عناصرها أو الشهود. فمثلاً، صورة الأيدي الأربعة لفدائيّين كانا ينْقران على خشب تابوت، ويبتكران إيقاعات متسارعة. تظهر الصورة، فينقشع الضباب. بسرعةٍ أو ببطءِ ستارةِ مسرحٍ تُرفَع، يظهر ما كان يحيط بالأيدي الأربع القادرة على ابتكار الانغام، يظهر بوضوحِ رؤيتيَ الأولى. أميّز حينئذ، شعرةً شعرةً، الشاربين السوداوين لكلّ منهما، والاسنان البيضاء اللامعة، والابتسامة التي لاتمّحي إلاّ لتعاود الظهور بصورةٍ أقوى.

الصورة الثانية، صورة صندوق كبير للتعليب، أفتحه فلا أجد فيه سوى النشارة. تبحث يداي في النشارة، ويستبد بي الياس لانني لا أجد سواها، على علمي بأن هذه النشارة ليست هنا إلاّ لحفظ أشياء ثمينة. تمسك يدي بشيء صلب، وتتعرف أصابعي على «رأس إله الحقول»، اقصد عروة إبريق الشاي الفضيّ الذي كانت النشارة تحميه وتخفيه في آن، أي تحفظه. كان عليَّ أن أبحث في هذه الأغلفة التي لا نهاية لها حتى يأتي إليَّ الابريق سالماً من كلّ شوَه. بالابريق أعني أحد الاحداث الفلسطينية، كنت أحسبه ضائعاً في النشارة والغيوم، لكنه كان محفوظاً في نداوته الصباحية، كما لو أنّ أحداً – ربّما كانَ ناشرَ كتبي – قد علّبه

وحفظه حتى أقدر أن أصفه لكم كما حدَث.

لذا أقدر ان أكتب: إنّ الغيوم لَمُغذّية.

استعيد، بأيّة حال، اندهاشي، المُعبَّر عنه كما يأتي: «إذا كانت مَلَكاتهم تقبض على ما أتوهَّم أنني الوحيد الذي يقبض عليه، فعليَّ ان أكتمَ ما أشعر به، ذلك أنّهم يحدث لهم أغلب الأحايين ان يصدموني. لا يعود الكتمان في هذه الحالة تهذيباً، بل حذراً.» وإنّني، وعلى الرغم من صراحة الوجوه والايماءات والتعابير، وعلى الرغم من شفافية الفلسطينيين، سرعان ما عرفت أنّني كنت أدهشهم بالقدر ذاته، بل وأكثر مما كنت أندهش أنا نفسي. وإذا كانت جميع هذه الأشياء موجودة هنا لتُشاهَد، لتُشاهَد فحسب، فلن تقدر على وصفها أية كلمة. شذرةٌ من يدٍ على شذرةٍ من غصنٍ، وعين لم تكن لتراهما بيدَ أنّها تراني وتفهم. كان الجميع يعرف أنّني كُنت أعرف أنّني كنت مُراقَباً.

«أتراهم يدّعون الصداقة والرفقة؟ هل أنا مرئيّ أم شفّاف؟ مرئيّ لأنّني شفاف؟».

«أكيدٌ أنني شفّاف، لأنني مرئيّ أكثر من اللزوم، كمثْلِ حجر، أو عشب، لكنّي لستُ واحداً منهم. كنت أعتقد ان عليَّ أن أكتمَ أشياء كثيرة، لأنّهم كانت لديهم نظرة الصيّاد: مرتابة ومتفهِّمة».

«لا أحد، إذا لم يكن فلسطينياً، يقدر أن يقوم بأشياء كثيرة لفلسطين: حُرٌّ هو في أن ينفصل عنها ويذهب الى مكان هادئ، ساحل الذهب مثلاً، أو ديجون. أمّا الفدائيّ فَعليه إمّا أن ينتصر أو يموت أو يخون». هذه حقيقة أولى ينبغي أن تظلّ ماثلة في الذهن. يهودي وحيد، إسرائيليّ سابق، يعمل في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، اسمه: إيلان هاليڤي. لا المنظمة ولا الفلسطينيون ليخشوا منه مكروهاً مادامَ هجر الصهيونية نهائياً.

أو أنْ يسقط الفلسطينيّ ويموت. إذا ما بقيَ على قيد الحياة، قيدَ الى السجن، ليخضع الى التعذيب مراراً عدة، ثم يؤخذ الى الصحراء ويودع في أحد المعسكرات، ليس بعيداً عن «الزرقاء». في فقرة قادمة سنعرف «لحظات البطالة» في حياة الفدائيّ. ولربّما تدخل فريق من الأطباء الألمان. هؤلاء يذهبون حيثما يُمارَس التعذيب، يقودهم، ربّما، إلزام داخليّ بالتجارة: تزويد المعسكرات بآلات التعذيب، بيع الأطباء الأدوية وآخر عجائب إعادة تربية الأعضاء، وأخيراً ضمان عبور المعذّبين العنيدين الحدودَ حيث سَيُنقَذون. آنذاكَ يُسلّمون الى مستشفى، في دوسلدورف أو بولونيا أو هامبورغ، حيث يُعنى بهم. وإذا ما غادروا المستشفى، تعلّموا

الألمانية والثلج ورياح الشتاء، وراحوا يبحثون عن عمل وأحياناً يتزوجون امرأة واحدة.

قيل لي إنّ هذا كان هو مصير حمزة. فرضية كرّرها أكثر من مسؤول فلسطينيّ. منذ كانون الأول / ديسمبر ١٩٧١، لم أقابل شخصاً واحداً يقدر أن يؤكد لي أنّ حمزة ما يزال حيّاً يرزق.

لكن ما «لحظات البطالة»؟ ربّما كان التعبير يتخفّى على السرّ الأكثر تعذّراً على البوح لمقاتل فلسطينيّ. مّم تكون أحلام ثوريّ ينتفض في الصحراء، من دون أن يكون عرف أيّ شيء عن الغرب، ولاشيء تقريباً عن خياله أو انعكاسه المتمثّل في الشرق؟ أين يجد الفدائيّون أسماءهم المستعارة؟ ماالفعل الذي يمارسه الجَديد عليهم؟ مثلاً.

....
....
....
....
......................................(١٨)

إنّ نظرة موشورية معيّنة يمكن أن تُعْلمنا – لكن بمَ؟ كان يمكن، قبل سنوات، أن تقابل في مختلف أنحاء العالم العربيّ نوعاً من معلّمة بالغة الطيبة والحدب على أفقر الفقراء. تظلّ هي نفسها مع كلّ رجل، وكلّ امرأة، وكلّ صغير، أيّاً كان شرط الواحد منهم: لأنّها كانت بالولادة أميرة من آل أورليان [في فرنسا]. تحت علوٍّ كهذا، كان الازدراء، إن كان ثمّة شيء منه، يصبح متعذّراً على الرؤية، لاأحد ليُخمّنه، لا الأمراء ولا الشحاذّون العرب، فهي كانت تدري بنفسها أميرة مرتبطة ببيوت العواهل، إنّما من أوربا، مُدركةً، سواءً بسواءٍ، الجوعَ في قريةٍ أو عمومةَ شيخٍ مع نبيّ الاسلام.

لكن مَن، أو ماالذي جعلني أعود الى هذا المنزل؟ هل هي الرغبة في رؤية حمزة مرةً ثانيةً بعدَ مضيّ أربع عشرة سنة؟ أم معاودة التقاء أمّه التي كان يمكن أن أخمّن من دون القيام بهذه الرحلة أنّها باتت عجوزاً وفي هزال؟ أم الحاجة لأن أثبت لنفسي أنّني أنتمي، مهما كان

مبلغ قرفي، الى تلك الطبقة الملعونة إنّما المرغوبة بسريّة، هذه التي لاتعرف أن تميّز خارجاً عنها الأكثر نبالةً من الأكثر فقراً؟ أم إنّ وشاحاً غير مرئيّ قد انتسجَ، من دون أن نحترس، فأوثقنا بعضاً الى بعض؟ إنّها ماكانت ستهزأ من حسين: فهولم يكن من آل أورليان.

مدن الصفيح في مملكة. في كسْرةٍ من مرآة يرون وجههم وجسدهم قطعةً قطعة، والمهابة التي يكتشفون فيهما تتحقّق أمامهم في نصف رقاد؛ وحتى منتهاه يسبق هذا الرقاد الموتَ دوماً. كلّ واحد يهيىء نفسه للقصر، ومنذ سنّ الثالثة عشرة يحمل الجميع أوشحة من الحرير منسوجة في فرنسا، فُصّلت وخيطت خصيصاً لمدن صفيح المملكة، إذ ينبغي معرفة الألوان والرسوم الملفتة للنظر كمثْلِ « سنّارات قلوب » [خُصَل مسّطحة على الصدغ تُدعى كذلك]. هكذا كان نسق انتقاليّ يقوم بين مدينة الصفيح وعالَم الخارج، نسق محدّد ببيع الأوشحة والملمّعات والعطور وأزرار الأكمام البلاستيكية وأساور مزيفة لساعات سويسرية مزيفة مقابل مايقدّمه الماخور والجماع. وينبغي أن تكون الأوشحة والقمصان المطرّزة بالماكنة لائقة، فتُبرز بهاءَ طلعة القوّادين. للأوشحة والقمصان والساعات معنى: المدّ بهندام. عبر هذه الرموز، يفهم مبعوثو القصر ومستقطبو الشرطة مَن يناديهم، خصاله السريّة أو المُعلَنة بقوّة. هذا نذرَ نفسه للمجازفة بحياته، وذاك يهب أمّه أو أخته أو كلتيهما؛ هذا يعرض جنسه، القابل للاستخدام في أوربا، وذاك صوتَه الآمر، أو المؤخرة، أو العين، أو الهمس العاشق في الاذن، ولا أحد يلفّ الوشاح على عنقه الاّ بالعقدة الملائمة لعنفوانه الفريد. إنّهم، وقد ولدوا من جماعٍ مصادف وحُضنوا تحت سماء مدن الصفيح، الصدئة، جميلون جميعاً. آباؤهم آتون من الجنوب. مبكّراً يكتسب الفتيان وقاحة الذكور المهيأين للأعمال والثروات خارج مدينة الصفيح والمملكة. بعضهم شقر: جمال عاصف، استفزاز يسير على القدم لعامين آخَرين.

« لاأعيننا وحدها. بل شَعرنا وأعناقنا وأفخاذنا. كأنّك، ياجان، لاتعرف شيئاً عن ألق أفخاذنا؟ »

سواء كان القصر هاوية تهدّد بابتلاع مدينة الصفيح، أو مدينة الصفيح هي الهاوية التي تجتذب بعُدّتها القصرَ، فنحن نتساءل: أين تكمن الحقيقة وأين الانعكاس؟ سواء هذا أو ذاك، وسواء كان القصر هو الانعكاس ومدينة الصفيح الحقيقة، فإنّ حقيقة القصر ماكانت الاّ في الانعكاس والعكس بالعكس. يكفي أن تزور القصر أوّلاً ومدينة الصفيح من ثمّ. هي لعبة قوى بالغة الاحتدام حتّى لَنتساءل إذا لم تكن ظاهرة الفتنة التي نتحدث عنها معيشة في هذه

المجابهة المألوفة، الغنجاء، والحاقدة، التي تشدّ أحدهما الى الآخر هذين القصرين، قصر ينظر ساكنه بحسدٍ الى بؤس رجال ونساء يستنفدون أنفسهم في محاولة العيش، حالمين بالخيانة – خيانة مَن؟ – ، عارفين دفعةً واحدة أنّ الامتلاك والترف سيعلوان إذا ما عرفا غوايةَ فقرٍ مطلق. أية ضربة عقبٍ رائعة ستدفع الطفل العاري، المسخَّن بلهاث ثورٍ، والمسمّر بالبرُنز، والمقذوف أخيراً في المجد الكونيّ بفضل الخيانة؟ هل الخائن مجرّد رجلٍ ينقلبُ الى صفّ الأعداء؟ هو هذا أيضاً. كان پيير الموقّر، رئيس دير «كلوني» Cluny، قد أمر بـ«ترجمة» القرآن ليدرسه بصورة أفضل. وخلا نسيان حقيقة أنّ الأثر الإلهيّ، بانتقاله من لغة الى أخرى، ماعاد يوصل غيرَ مايمكن إيصاله، أي كلّ شيء خَلا الإلهيّ، فلاشكّ أنّ پيير كانت تدفعه الحاجة الى الخيانة (التي تتجلى عبر ضربٍ من الرقص الثابت، كالحاجة الى التبوّل مثلاً)، مثلما تدفعه التعلّة المعروضة. إنّ غواية الانتقال «الى الجهة المقابلة» هي، من قبلُ، الخوف من ألاّ يمتلك المرء سوى اليقين الوحيد والخطيّ – أي، بالتالي، يقين غير ذي يقين. وإنّ معرفة الآخر الذي نفترض أنّه شرّير مادام عدوّاً، لَتتيح الحرب وكذلك العناق الحارّ لأجساد المتحاربين والمذهبَين الاثنين، وذلك بهذه القوّة بحيث يصبح أحدهما تارةً ظلّ الآخر، وطوراً مُعادلَه، وموضوعَ أحلام جديدة وأفكار معقّدة طوراً آخر. أفكار معقّدة تتعذّر على الفصل؟ وراء ضرورة «الترجمة»، ينبغي أن نتمكن من الكشف عن ضرورة «الخيانة»، التي مابرحت شفّافة، ولن نرى في غواية الخيانة سوى ثراء ربّما كان شبيهاً بالشمالة الايروسيّة: مَن لم يعرف جذلَ الخيانة ماعرفَ عن الجذل شيئاً.

لايقبع الخائن في الخارج، بل هو في كلّ واحد. كان القصر يستقطب جنوده ومُخبريه ومؤامسه في مابقي مثيراً للرغبة من سكان منقلبين على عجيزاتهم، وكانت مدينة الصفيح تردّ بجميع ضروب الهزء. إنّها، وهي ركامٌ من المسوخ وأنواع البؤس، والتي يراها القصر وتراه بأنواع بؤسه، لتعرف متعاً مجهولة في كلّ مكان آخَر. وماكان يتنقّل فيها على ساقين وجذعٍ، حوالى الغروب، والغروب يمتدّ فيها من الصباح إلى المساء، على ساقين وجذعٍ تمتدّ منه قبضة تمتدّ من طرفها يدٌ بحجم جرن الماء المقدّس، طاسة من اللحم الحيّ تطالب بالأوبول (١٩)، بثلاث أصابع نصف شفّافة. يخرج المعصم من أسمالٍ هي، زيادةً في السخرية، أمريكية مستخدَمة، مدعوكة، رثّة، أكثر فأكثر شبهاً بالوحل والغائط قبلَ أن تُباع كأسمالٍ وزبل. في مكانٍ أبعدَ، ودائماً على ساقين، يتقدّم عضو جنسيّ أنثويّ عارٍ، محلوق، ناضج وطريّ يريد الالتصاق بي دائماً؛ وفي مكانٍ آخر مقلة وحيدة، بلا جفنٍ، ثابتة تارةً، بلا نظرة، وحادّة طوراً ومعلّقة الى قطعة من الصوف زرقاء سماوية؛ وفي مكانٍ سواه مؤخرة وعضو ذكريّ مرئيّ، متعبٌ ويتدلّى بين فخذين بلا عضل. إنّ الخيانة لَفي كلّ مكان. كان كلّ صبيّ يراقبني يريد بيعَ أبيه أو أمّه، والأب ابنتَه ذات خمس سنوات. الطقس رائع. والعالَم ينهار. كانت السماء في أماكن أخرى،

ومع ذلك فإنّ راحةً لاتُفسَّر كانت ههنا، حيثما لم يعد ثمّةَ سوى وظائف. تحت سقوف الصفيح كان النهار رمادياً والليل نفسه. مرّ قوّاد يرتدي بذلة أمريكية من طراز الثلاثينيّات. محيّاه متشنّج. ولكي يُرخيه كان يَصْفُر كما لوكنّا في الغابة ليلاً. كنّا في قلب الماخور المفتوح للأفندية التائهين. وكان حيّ المواخير هذا، الذي لاتعرف إن كان جحيماً أو هو قلب الجحيم، محلاً لمطلق اليأس أو بيتاً للاستجمام، كما نقول « بيت الراحة »، أقول كان، لباعث خفيّ، يمنع مدينة الصفيح من الامعان في الغرق، ومن الاختلاط بالطين الذي طُرِحَتْ عليه كأنّما بفائق العناية. كان، بهدوء، يشدّ مدينة الصفيح الى بقية العالَم، وبالتالي الى القصر. فيه يُمارس الحبّ الذي يسهر عليه القوّادون والقوّادات والموامس والزبانية، مجبرين أنفسهم على ممارسة الجنس المدعوّ بالطبيعيّ، أي الناقص. لالواطيّة هنا، ولامصّ ذكور، بل جماعات متوازية، اضطجاعاً أو قياماً، بلا قُبَل ولا التهام للفرج أو الذكر أو المؤخرة: الجنس الزوجيّ، القوميّ، الجبليّ السويسريّ. الغرابات الايروسية مشتغَلَة – ومبحوث عنها – أكثر في أروقة القصر حيث تنتشر مرايا، حيطان كاملة من المرايا تتكرّر فيها أدنى مداعبة الى مالانهاية له، حتى تلك اللانهاية التي تميّز فيها العين تفصيل صورةٍ شبه نهائية صارت متناهية الصغر، عبرَ زوايا غير متوقّعة لكنْ مُنتظرة، لتؤطّر أخيراً المنظر المرغوب: مدينة الصفيح. أو سواها. هل ينبغي أن نقول إنّ سكان القصر أكثر رهافة من أهل مدينة الصفيح؟ وهل يعرف أهل مدينة الصفيح أنّهم مقيمون في مُخَيخ القصر، يديمون لذاذته؟

كان كلّ يشعر بالارتياح لتعفّنه، وبالتالي بمسرّة الافلات من المجهود الأخلاقيّ والجماليّ، فالمواخير لاترى الاّ رغباتٍ زاحفة ويسيرة الارواء وهي تفد إليها. والذاهب الى الماخور يزحف إليه على آلاف الأطراف، بطنه في الطين، يبحث عن الثقب الذي ينضح ويبتلّ، ويعثر عليه، فيزول نكّد الاسبوع في خمس انتفاضاتٍ تدوم خمس ثوانٍ. ولو استطاع

الأجنبيّ – عربياً كان أو سواه – أن يأتي الى هنا، فسيرى في الماخور الى دوام حضارة محفوظة بعناية، تلكم هي حضارة التماسّ الأليف، شبه التقيّ، مع النفاية، ماتدعوه أوربا بالقذَر. كان ثمّة دائماً ساعة منبّهة تمّ توقيتها. في خمس دقائق، يكون الزبون تخفّفَ من أحلامه. وصبيّ الثامنة عشرة الذي يريد الانخراط في الحرس الملكيّ أو في سلك مخبري الشرطة، عليه مع ذلك أن يخشى « ضبط » أبيه هناك وهو يتغوّط: بضربة من عقبه، يسحق المتدرّبُ الحدَثُ شدقَ الأب الجالس القرفصاءَ أو يزعم أنّ هذا الرجل آتٍ من النرويج. غياب الأخلاق يُفزع الجميع لكنّه لايُقرف أحداً. والاستفراغات تُعزّي: لها مقابلها في الروح، حيث نشعر بالارتياح؛ إنّها تمنعنا من إبادة أنفسنا. وإنّ مؤخرةً لَتسير، وتسعى الى ممارسة وظيفتها. كم لزمَ ياترى للوصول الى هذا الحدّ، إلغاء فخر أنْ يكون المرء ذاته، فخر امتلاكه اسمَ شهرة،

اسماً شخصياً، سلالةً، وطناً، آيديولوجية، حزباً، قبراً، والافادة من قبرٍ مع تاريخين، الولادة والموت ـ ولادة وموت بالصدفة ـ ؛ ومن الصعب أن ندعو بـ « الصدفة » هذا العلوّ المطلق الذي يحكم في الاسلام الأرض والسماء. ويظلّ نسق التبادل بين القصر والحُكم والحاشية والاصطبلات والخيول والخدم والمدرّعات ومدينة الصفيح معقّداً، غير بائن ولكنّه مؤكّد. يتيح لمستوى كّل من المكانين أن يكون معروضاً. كلّ شيء يمرّ بلاقسر، كما يأتي: للقصر ائتلاقه الذي هو بؤس. وأوامر الرجل-الشمس وبطانته إنّما هي ميثولوجيّة. ولاتنبع فظاظة الشرطة الأ من استعجالها الطاعةَ بأسرع وأفضل مايمكن. ومدينة الصفيح تكبح وتصفّي وتسبغ ضرباً من الاعتدال على هذا الاستعجال الساذج. يجتاز الصبْية أبناء الغراميّات غير المحكيّة، بالغو الجَمال، الماخورَ حيث يُنير ماهو موجودٌ الأجسادَ والوجوه. وإلى جمالهم ينضاف الازدراء الوقح. ولمّا كان الفحل قويّاً أيضاً، فهو يظلّ مستقيماً، صاحبَ قوامٍ إنْ لم يكنْ صاحبَ مَقام. فالقصر، ليحتفظَ بسلطانه، يُلزم بالقوّة الخارجة من مدينة الصفيح ليلاً.

« أنا القوّة. أنا المصفّحة ».

عند هذا الحدّ من تخييلي، أتساءل من دبّر هذا كلّه: إنّ إلهاً، لكن لا أيّ إله، ولا هذا الذي هو كائن، سيروح، لاأقول ينبعث بل يولد للمرّة الأولى على روث حمارٍ وبقرة، ويجتاز، لاندري كيف، عالم المواخير، ليعيش بالتقتير، ويموت مصلوباً ويصير هو القوّة.

ـ أتقدر أن تبيع أمّك؟

ـ سبق وأن قمتُ بهذا. عندما تخرج من عجيزة على أربعة أطراف، فمن السهل أن تبيع عجيزة.

ـ والشمس؟

ـ للّحظة الحالية، نحن أخَوان.

يقود شقاء القرى إلى العاصمة، أي الى سماء الصفيح الصديء، فضلاتٍ ليست الأ وظيفة تتمخض عن فتْية جميلين. يُكثر القصر من استهلاك الشبيبة.

« مادام ذلك من أجل صيانةِ نظامٍ، فلتكن موحلاً ولتمزقّك الشمس. »

أيُّ جمالٍ يملك، إذن، هؤلاء المراهقون الطالعون من مدينة الصفيح؟ في سنيّهم الأولى تهبهم امرأة، أمّهم أو مومسٌ، كسرةً من مرآةٍ يأسرون بها شعاعاً من الشمس ويعكسونه في إحدى نوافذ القصر، وأمام هذه النافذة المفتوحة يكتشفون، نتفةً نتفةً في المرآة، جميع جوانب

الجسد والوجه.

عندما كانت فصائل البدو تنبش جثث الفدائيّين المقتولين بين عجلون والحدود السورية، لقتلهم من جديد (كانت العبارة المكرسة هي: «فلنتخفّفْ من مائة رصاصة زائدة»)، كان الملك في باريس. أكانَ هجر المجازر لثلاثة ايام ليجرّب موديلاً جديداً من «اللامبورغيني»؟ بقيَ شقيقه وليّ العهد في عمان. فجأة، أطبقت ثلاثة صفوف من الدبّابات الحصار على معسكر «البقعة» الكائن على عشرين كيلومتراً من العاصمة. دامت المفاوضات بين نساء المخيم والضباط الأردنيين نهارَين وليلتين. كانت العجائز يُثِرْنَ الشفقة، والشابّاتُ الرغبةَ، وكنّ جميعاً يعرضن ما لا يزال قادراً على إثارة مشاعر العسكر: الأطفال، الأثداء، الأعين، التجاعيد والغضون. بدا رجال المخيم جاهلين حركةَ التعهّر المقدس هذه. أداروا ظهورهم صامتين وراحوا يتمشون في الأزقّة الموحلة، ثلاثةً ثلاثةً، أو خمسةً خمسةً، يدخّن الواحد منهم ويداعب مسْبحة العنبر. تخيّلوا ملايين اعقاب السجائر، مذهّبة الأطراف، السجائر الشقراء المقذوفة الى الأرض وهي لم تَكَدْ أن تولع. كان الامراء يهدون السجائر ليعلّموا الفلسطينيين جغرافية الخليج. وكان الرجال يرفضون محادثة ضباط حسين. وما أزال أحسبُ أنّ الفدائيّين (جميع رجال المخيّم كانوا فدائيّين) قد اتفقوا مع النساء، شابات وعجائز، على أن يتحدثن هنّ، فيما يصمت الرجال ليدهشوا الجيش الأردنيّ بإصرار صادق أو مصطنع. أعتقد اليوم أنّه كان مصطنعاً، إلاّ إنّ الضباط البدو ماكانوا عارفين بأنّهم كانوا أمام تمثيلية مسرحية موجّهة للتمويه على عملية انقاذ. فلإعاقة الأردنيين من اجتياح المخيّم، كان على الفلسطينيين أن يصمدوا نهاراً آخر وليلة. كانت النساء يصرخن، والصغار الذين يحملن على الظهر أو يمسكن بهم بالأيدي يشعرون بأنّهم تحت طائلة التهديد، فيصرخون بصوت أعلى. ولقد رحنَ يدفعن العربات المحمّلة بالأطفال وأكياس الرز والبطاطا والعدس، وعبرنَ حاجز الأسلاك الشائكة. أمّا الرجال، الغاطّون بعدُ في الصمت، فكانوا ما فتئوا يُسبّحون.

ـ نريد العودة الى ديارنا.

كنّ في الطريق المؤدية الى نهر الأردن. شاع في صفوف الضباط هلعٌ كبير.

ـ كيف نطلق النار على النساء وعلى عربات محمّلة بالأطفال؟

ـ نريد العودة الى ديارنا.

ـ أية ديار؟

ـ في فلسطين. على الأقدام. سنعبر الأردنّ. اليهود أكثر إنسانيّة من الأردنيّين.

كان ضباط من الشركس، يهمّون بإطلاق النار على هؤلاء النسوة وعلى صغارهن الذاهبين لعبور نهر الأردن الكائن على مسافة أربعين كيلومتراً.

« يا جلالة الملك، أنصحك، لا تطلق النار ».

كانت هذه، كما يبدو، هي الجملة التي نطق بها جورج پومپيدو أمام الملك حسين. فإذا كان سفير فرنسا في عمّان متجاهَلاً على هذه الشاكلة، فإنّ پومپيدو كان، عبرَ مُخبريه، يعرف انتفاضة النساء. كان كاهن مسيحيّ، نسيت اسمه مادام ما يزال على قيد الحياة، يؤمّن الاتصال بين بعض المسؤولين الفلسطينيين و(ربّما) بين ما كان يدعى آنذاك باليسار الفرنسيّ المرتبط بيسار الڤاتيكان. عندما علمت السلطات الأردنية بوجوده في المخيم، وجّهت الأمر الى القادة السياسيّين والعسكريين بتسليمه الى الشرطة الملكية.

يُعتبر « قصر العدالة » في بروكسيل، ونصب « ڤكتوريا وألبرت » في لندن، و« هيكل الوطن » في روما، و « أوپرا باريس »، عجائب أوربا الأربع، وهي في الواقع أقبح مبانيها. ولقد خفّفت بَركةٌ قبحَ أحدها. عندما تتقدم سيارة من مدخل اللوفر الى جادة الأوپرا، فإنّ ما تراه منها في العمق هو أوپرا باريس أو قصر « غارنييه »، المتوّج بقبة خضراء-رمادية أعتقد أنّها هي أول ما يلاحظ المرء. وعندما كانت نساء « البقعة » خارجات من المخيم بدعوى الذهاب الى بيوتهن في فلسطين، كان الملك حسين مدعواً لوليمة غداء تقام على شرفه في الأليزيه. كان قد قطع قسماً من جادة الأوپرا. قيل لي إنّ الشيء الوحيد الذي رآه الملك هو قبة الأوپرا، الخضراء-الرمادية، التي كُتبت عليها، بالزيت الأبيض، بحروف كبيرة: « فلسطين ستنتصر ». كان راقصات وراقصون وآليّون عاملون في الأوپرا قد صعدوا على السقف عشية مرور الموكب وكتبوا هذه الجملة-الرسالة. قرأها الملك. وإذن، فلم يكن أيّ مكان في العالم ليبدو في منجى من الارهابيين؛ وأوپرا باريس، المسكونة من قبلُ بشبح فانتوماس، والمسكون قبوها بما كان يدعى بـ« شبح الأوپرا »، ها هي ترى الى تسقيفتها مسكونة بالفدائيّين. بقي هذا التحذير الموجز في كلمتين اثنتين، مقروءاً لفترة طويلة، بالرغم من الأمطار والشمس، وأوامر پومپيدو الذي لا بد أنّه ضحك كثيراً.

لكن سواء في الأوپرا أو في أماكن أخرى، فقد أتيحت لي المناسبة، بعدَ عشرين سنة أو أكثر، لأن اقرأ على حيطان باريس الرمادية، الردّ الاسرائيليّ السريع، الكتوم، شبه الخجل، على

عبارة «فلسطين ستنتصر»: «اسرائيل ستبقى». حدثَ المشهد الذي وصفتُ أعلاه بثلاثة أيام قبل ما لا ازال أُطلق عليه في ذاكرتي عنوان: «الفلسطينيّون: الحفلة الاخيرة في مخيّم البقعة». كم هي كبيرة قوّة هذا الردّ ـ اكثر ممّاهو محاججة ـ أو هذه المجابهة للتأكيد المحدود في كلمة «ستنتصر»، بالتأكيد شبه الأبديّ في كلمة «ستبقى»! سبق أن قلت إنّ اسرائيل، في ميدان الخطابة البسيطة، وفي منتصف ليل باريس، تذهب في عباراتها المقذوفة على الجدران بسرعة، أقول تذهب بعيداً جداً.

إذا كنّا نفهم أن يموت شعبٌ دفاعاً عن أرضه، كما فعل الجزائريون، أو عن لغته، كما يفعل البلجيكيون الفلاماندي‌ون أو الإيرلنديون الشماليون، فينبغي أن نقبل بأن يقاتل الفلسطينيون ضدّ الأمراء، دفاعاً عن أرضهم وعن لكنتهم. إنّ دول «الجامعة العربية» الواحدة والعشرين تنطق بالعربية، والفلسطينيون كسواهم لهم لكنتهم، حتى إذا كانت خفيّة وعصيّة على القبض من قبل أُذُنٍ غير مدرَّبة. وليس تقسيم المخيّمات الفلسطينية الى حارات تعيد تركيب قرى فلسطين، هذا التقسيم الذي يصون وينقل الى هذه المخيّمات جغرافيةَ البلاد بنسبٍ معقولة، ليس في نظر الفلسطينيّين بأكثر أهمية من الاحتفاظ بلكنتهم نفسها.

هذا هو تقريباً ما قاله لي مبارك في ١٩٧١. عندما عرضت على شاب عربيّ أن احمله معي في السيارة الى مسافة ستين كيلومتراً في الاتجاه الذي كان يقصد، انطلق راكضاً وقال لي أن أنتظره. بأقلّ من ربع ساعة، قطع مسافة كيلومترين وجاء حاملاً كنزه الوحيد، قميصاً ممزّقاً، ملفوفاً في جريدة: «لليوم الذي...». يكفي أن يُشدَّد على المقطع الأوّل أو ماقبل الأخير من كلمة، حتى يعود شعبان عاجزين عن التفاهم. والكنز الذي بدا لنا عديم القيمة يصبح هو الكنز الوحيد الواجبة حمايته ولو جازف المرء من أجل ذلك بحياته.

وإلى اللكنة، يكفي حرف واحد مضاف الى الكلمة، أو منسيّ، أو «مزدرَد»، لوضع نهاية مأساوية. كان سوّاق الشاحنات في حرب ١٩٨٢ لبنانيين أو فلسطينيين. وكان كتائبيّ مسلّح يفتح يده، ويسأل:

ـ ما هذا؟

ويكون جزاء الاجابة رصاصة في الرأس أو توديعاً حاراً باليد. تُقالُ كلمة: «طماطم» في عربيّة اللبنانيين: «بانادورا»، وفي عربية الفلسطينيين: «بندورة». إنّ حرفاً واحداً، مضافاً أو منقوصاً، ليعادل هنا الحياة أو الموت. وكانت كلّ حارة في مخيم اللاجئين تجهد في استعادة

تصميم بناء القرية المهجورة في فلسطين، والتي ربما هُدمت لتُبنى على أنقاضها مولّدة كهرباء. إلاّ إنّ شيوخ القرية ما برحوا يحتفظون في داخلهم باللكنة، التي هربوا حامليها في صدورهم، هي وأحياناً بقايا بعض خلافات ومنازعات. كانت الناصرة هنا، وعلى بضع أزقة منها، نابلس وحيفا. ثم يأتي صنبور الماء العموميّ النحاسيّ: على يمينه الخليل وعلى يساره إحدى حارات القدس العتيقة. وحول الصنبور بخاصة، كانت النساء، المنتظرات امتلاءَ السطل بالماء، يتبادلن التحايا والأحاديث بلكنتهن الأصليّة، وبلهجتهن، التي هي أشبه ما تكون برايات حربٍ تشي بالأصل. وكان ثمة بضعة مساجد، بمنائرها الأسطوانية، وقبتان أو ثلاث. عندما كنت هناك، كان الموتى يدفنون في عمان، رأسهم موجّه صوب الكعبة. حضرت عمليات دفن عديدة، وأعلم أنّه في مقبرة «تييه» مثلما في مقبرة «بيرلاشيز» [بباريس]، تشير بوصلة الى اتجاه مكة، سوى أنّ القبر، أو بالأحرى، الحفيرة، هي من الضيق بحيث يلزم أحياناً طيّ جثة المتوفّى ليرقدَ بسلام.

في جميع الأزمنة وجميع البلدان، شكّلت اللكنات واللعب على الكلمات مناسبة للتقاتل، غاية في الفظاظة أحياناً، ولا بد أن يكون كلّ سارق قد قابل في حياته واحداً من هؤلاء القضاة الذين ما كنّا نفلت منهم أبداً. كانوا، إذْ يقرأون صحائف أعمالنا أثناء المحاكمة، يعرفون تلوين نبرة الصوت ورنين الكلمات:

ـ سرقة؟

ـ سرقة.

سكون. ثمّ، فجأةً، صوت بالغ العذوبة يشدّد على أصوات الأحرف بدقّة حتى ليحفر على مقعد المتهم يقينَ إثمنا الأبديّ:

ـ سـ... ر... قـ... ـا... ت ت ت ت.

سرقات! صمت. سرقات! نقطة، وهذا هو كلّ شيء.

مرّة أخرى في تاريخ التمرّد، تخدم النساء كخدعة. إلزام لا رجوع عنه: عدم تسليم هذا الراهب المسيحيّ. إلزام لا معْدَل عنه: إنقاذ المخيّم. أمام طعم الفرار والأداء المسرحيّ والتنكّر وتغيير الصوت، والايماءات، بدت النساء متقافزات من المتعة، في حين كانت متعة الرجال كامنة في تصنّع الجُبن وعدم الانهمام. استناداً إلى فكرة: «لنَدّعِ التعرّضَ الى أكبر الاهانات،

فالبدو يريدون الدخول على نسائنا»، تم التجرؤ على وضع سيناريو وتنفيذه:

إتصل وليّ العهد بالملك هاتفيّاً. كان پومپيدو الى جانبه، هو وعبارته الشهيرة. خيّم الظلام كما في العادة. وكما يلزم، كان على الرايات الخمس، التي تمثّل، من اليمين الى اليسار، الأبَ والحَمَلَ والصليبَ والعذراء والطفل، أن تتقدم الى الدبابات الأردنية. جاء صغارٌ في ثياب حمراء وصدارات من الدانتيل، طويلة وبيضاء، حاملين ما يشبه شمساً ذهبية. هذا كلّه في اتجاه صفوف الدبابات، الثلاثة. أعتقد أنّ الموكب كان يرتّل باليونانية. كان على كلّ جنديّ أردنيّ أن يبقى في الليل مفتوح العينين والأذنين ليقبض على الراهب الفرنسي حيّاً أو ميتاً. وكان الجميع قد شاهدوا، بعينَين جاحظتين، طقوساً كهذه حول الكنيسة الاغريقية الصغيرة في عمّان. ولذا لم يروا بدلاً منها شيخاً أشبه ما يكون بفلاح عجوز، يجتاز الأسلاك الشائكة وحده، ببنطال من المخمل، محاطَ العنق بوشاحٍ احمر. قربَ الدبّابات، كانت النسوة الساهرات قد بقينَ صحبةَ أطفالهن النائمين، خارجَ المخيّم. طلعَ الصباح: وهاهنّ باسمات، فرحات، ساحرات، يقتدن الضباط بايديهن ويُدخلنهم الى جميع بيوت المخيّم. لقد حرصن على أن يفتحن أمام أعينهم علب الثقاب وأكياس الملح، والملح الخشن، حتى يتيقنوا من أن أيّ راهب لم يكن مختبئاً هناك. بعد رجوع الملك حسين بثمانية أيام، أقيم حفل مصالحة بين جيش البدو (الذي تعرّض على هذا النحو، وبأية صورة! الى سخرية نساء ورجال استعادوا، أخيراً، القدرة على الكلام والابتسام لزمن طويل) وبين الفدائيّين، تماماً كما حدث في مخيّم «الشرشف الذهبيّ» (٢٠) أو في الغرب القروسطيّ حيث كان الملوك الأشقاء يقبّل بعضهم بعضاً على هذا النحو من القوة بحيث تحدس، بسرعة، مَنْ سيخنق مَنْ. أو، إذا شئتم، فكما في عيد مصالحة بين الصين واليابان، ألمانيا الغربية والشرقية، فرنسا والجزائر، المغرب وليبيا، ديغول وأديناوَر، عرفات وحسين. هكذا بحيث لم أكن لأرى من نهاية للقبل المُرائية. كنّا ننتظر الحفل، ولقد جاء.

كان حسين قد بعث بسلال من الفواكه، وعرفات بسلالٍ من القناني آتية من أقطار الخليج: عصير جوز الهند والمانغا والمشمش، الخ.، بعثا بها الى «السُّهْلة» الكائنة في مدخل المخيّم، والتي كانت قد سهرت فيها النسوة وأطفالهنّ الزاعقون. هل حدث كلّ شيء كما أصف؟ قبل ذلك ببضعة شهور كان عدد قليل من الجند وعدد أقل من الضباط، قد فرّوا من الجيش الأردنيّ. قابلت عدداً منهم، بينهم ملازم شابٌ شديد الشقرة ذو عينين زرقاوين. لو سألته من أين جاءته شقرته ولون العينين السماويّ، لأجاب بأنّه ورثهما من قمح «البَوس» [في فرنسا] وزرقة الشعب الفرنسيّ الذي قام بأولى الحملات الصليبية: «ذلك أنّني أنحدر، كالآخرين، من الصليبيين الإفرنج». أكان له الحقّ في امتلاك هذه الشقرة، هو العربيّ؟ قلت له

بصوت مرتفع:

ـ من أين ورثتَ هذه الشقرة؟

ـ من أمّي. يوغسلافية.

قالها بفرنسية لا لكنة فيها.

ربما كان ضباط ظلّوا «مخلصين» لحسين أداروا وجوههم حتى لا يروا الراهب الفرنسيّ المُطالَب به وهو يغادر المخيم. مرّ الراهب بهدوء، في سترته المائلة الى الخضرة، ووشاح لتغطية الأنف حِيكَ من القطن الأحمر، و«كسكيت» من «مخازن أسلحة السانت–إتيان» (منطقة «اللوار» في فرنسا). ولقد أفاد الفلسطينيون من تلك الليلة ليقودوه الى سوريا، ومن هناك استقلّ الراهب الطائرة الى ڤيتنام.

جئتُ في الصباح الباكر صحبةَ صديقٍ مصريّ، لأشاهدَ عن كثب. رأيتُ أوّلاً، على الطاولات الخشبيّة المغطاة بسمُطٍ بيضاء، تلالَ البرتقال وقناني عصير الفواكه. كان الحشد قد استيقظَ قبلي: فصيل من بدو الصحراء، مع الخرطوش المزدوج من الرصاص متصالباً على الصدر؛ مجموعتان من الفدائيين بلا أسلحة، مصوّرون دوليّون، وصحفيّون، ومصوّرون سينمائيون من أقطار عربية أو مسلمة. رقص البدو عفيفٌ من حيث أنّه لايساهم فيه الاّ الرجال، يمسك الواحد منهم في الغالب بمرفق الآخر أو إبهامه. وهو إيروسيّ من حيث أنّه لايرقصهُ كما قلتُ الاّ الرجال، ومن حيث أنّه يُمارَس أمام النساء. فَمن، في هذه الحالة، وأيّ جنسٍ يتحرّق من الرغبة في اللقاء الذي لن يتحقّق أبداً؟

أيمكن الكلام عن عيدٍ بلا سُكْر؟ لئن لم تكن وظيفة العيد لتتمثّل في إحداث السكر، فينبغي أن نأتي إليه ثملين. أيمكن الكلام عن عيدٍ من دون محرّمٍ يتراجع؟ عيد صحيفة «لومانيتيه» في «لاكور نوف» مثلاً؟ لما كانت المشروبات المخمّرة محرّمة في القرآن، فقد أقبلَ السكْر ذلك الصباح من الغناء، ومن الشتائم والرقص، أو، إذا شئتم، فمن الشتائم التي تحوّلت الى أغانٍ ورقصات. كنتُ في أسفل السهْلة، التي كنتُ أراها كما في لقطةٍ صعوديّة. وكان الراقصون الى جانبي. وفي مواجهة الفدائيين الذين كانوا في أزياء مدنيّة، والذين كانوا مابرحوا جامدين، بل حتّى متشنّجين الى حدّما، بدأ الجنود البدو رقصهم، دون أن يرافقهم سوى صرخاتهم وهتافاتهم ووقع أقدامهم على الأرضيّة الاسمنتية. فحتى يرقصوا بارتياحٍ، كانوا قد نزعوا أحذيتهم ولكن احتفظوا باسفل الرّان [عصابة الساق]. عرفت منذ تلك اللحظة أنّ البدو كانوا قد قرّروا استخدام رقصهم، كما استخدم الفلسطينيون قبل ذلك بثمانية أيّام

نساءهم، وذلك من فرط مابدا لي أنّ الرقص كان إظهاراً، بل مايشبه اعترافاً بهذه الأنوثة المتناقضة وخراطيشَ الرصاص المتصالبة والمكتظة بحيث لو انفجر واحد منها لكان فصيل البدو كلّه سيتفجّر، وفي هذا الإلغاء المقبول بسرعة، بل الذي ربّما كان مقصوداً، كانت تقبع فحولتهم أيضاً، إن لم أقل جسارتهم.

هوذا كيف رقصوا: في صفّ واحد أوّلاً، ثمّ راحوا يزدوجون. عشرة جنود أو اثنا عشر أو أربعة عشر، يتماسكون بالأذرع كعرْسان بروتانيّين؛ ثمّ جاء لينضاف صفّ آخر من إثني عشر جندياً، متماسكين بالأذرع أيضاً، في قمصانهم الطويلة المزرّرة حتى ربلتي الساقين، وحتى عصابات السيقان. اللياقة المرعيّة: عمامة وشاربان، لكن لاأسنان تحتهما؛ ولمّا كانوا عارفين بظفرهم اليوم، فماكان هؤلاء الجنود البدو ليبتسموا. أمّا العُقَداء، فبَلى. كان الجنود بالغي الخجل، ولاشكّ أنّهم كانوا يعرفون انّ الابتسامة تُذهب عن النفس سعارَها كلّه. بإيقاعٍ ثنائيّ، ثقيل، حتى ليذكّرك بالرقص في «الأوفيرن» [فرنسا]، كان البدو يرفعون رُكبَهم عالياً ويهتفون:

ـ يحيا الملك.

وأمامهم، لكن على مسافة، كان الفلسطينيون في لباسهم المدنيّ يحاكون رقصة البدو برعونة ويردّون ضاحكين:

ـ أبو عمّار.

كان الايقاع هو نفسه. أربعة مقاطع يقولها الأردنيون، وأربعة ينطق بها الفلسطينيون، أقول الايقاع نفسه والرقص نفسه، لأنّه كان بقايا رقصٍ، بضعةً من رقص، والانعكاسَ الباهتَ لبضع خطواتٍ من رقصة منسيّة من أجل ترتيبات المكاتب وربطات العنق غير المعقودة جيّداً، ولاشيء يُذكّر من الوجوم المدلهمّ للبدو الذين كانوا يتقدّمون وعلى مرآهم ما مايشبه التهديد، ومعهم، وحولهم، صحراؤهم الآتية لحمايتهم، فجأة. وأكثر منه تمجيداً للملك، كان هتافهم «يحيا...» شتيمة مقذوفة بوجه الفلسطينيين الذين كان حرجهم يتعاظم من رعونتهم — تدنّيهم — في الاستعراض. كان البدو يرقصون ومعهم، حولهم، الصحراء وليل الزمان. ومابرحتُ أتساءل إذا لم يكن الرقص، المتزايد حيويةً وصرامةً، رقص البدو المدرّعين بالبارود والرصاص، سيكتسب ذاتَ يومٍ القدرةَ على تقويض مايبدو هو مُحامياً عنه: المملكة الهاشمية، وأبعدَ منها، أمريكا، واجتياح السماء لملاقاة الفدائيين فيها والتكلّم بلغتهم. وربّما كانت الأساليب هي هذه الأوالية التي نتعلّمها بسرعة لإيصال أفكارٍ، لكن الا ينبغي أن نفهم من المفردة «لغة» شيئاً آخر، ذكريات الطفولة، الكلمات، وخصوصاً البناء المعطى منذ السنوات

الأولى تقريباً، وأسرعَ من المفردات، مع الحصى والقشّ وأسماء الأعشاب ومجاري الماء وفراخ الضفادع وصغير أسماك الشبّوط، وأسماء الفصول وانقلاباتها، وأسماء الأمراض - (إمرأة «تموت من الصدر»)، تعبير تصبح جميع الكلمات: التدرّن، السلّ الزاحف، مبتذلة الى جانبه)، ومع الصرخات والشكاوى التي نبتكر في الحبّ صاعدين ثانيةً من الطفولة، مع اندهاشاتنا وإدراكاتنا المفاجئة...

«أنتَ أحمرُ كسرَطان.»

ياللدهشة! السرَطان رماديّ، قريب من الأسوَد. تمشي الدابّة القهقرى، أبصرناها في الجدول. رمادية، وكان علينا أن ننتظر ونرى أنّ السرَطان الذي كنّا ناكل قدّ مرّ بالماء المغليّ الذي وهبه الموتَ وجعله أحمر. لم يكن البدو والفدائيون ليتكلّموا اللغة نفسها. لبعضهم والبعض الآخر كان تعبير «السرَطان الاحمر» سيظلّ غامضاً تماماً. والفلسطينيون، الذين كان رقصهم يزداد سوءاً، كانوا آيلين إلى الانهيار. صفّارة ناشفة: لقد ادرك ذلك المسؤول العسكريّ للمخيّم، وبذراعه أشار الى الطاولات والفاكهة. أُنقِذوا! وهنا يعني التعبير أنّه قد «أُنقِذَ ماء الوجه»، فانهال الراقصون، الناقعون بالعرَق، على القناني والبرتقال، متصنّعين الظمأ القاتِل. لم يتبادل البدو والفلسطينيون الكلام في أيّة لحظة.

يمكن أن يكون حقد القبائل جهنّمياً، حتى إذا صِينَ بصورة اصطناعيّة. أرقام أخرى: كان جيش البدو بكامله يضمّ خمسة وسبعين ألف جنديّ طالعين من خمس وسبعين عائلة تقريباً، ممّا يمنح سبعمائة وخمسين ألف نسمة، وكان هذا هو العدد الرسميّ للسكان الأردنيين «الأقحاح». وإنّ الأردنيين، إذ انتصروا بالرقص، قد أجابوا بصورة من الصوَر على السؤال الذي كنتُ أعالج في ذهني قبل يومين من ذلك أو ثلاثة.

والفلسطينيون، الذي عزَلهم هذا التصرّف الفحوليّ العتيق، كانوا خلّفوا الأردنيين بعيداً وراءهم، هم وامتيازاتهم الغامضة، من دون أن يدهشوا مع ذلك إسرائيل، على حين يفترض بكلّ حياةٍ، هذا الكنز الوحيد للبعض والبعض الآخر، أن تُعاش، وهي ستُعاش، في سطوعها الفريد.

الأرقام التي ذكرتُ عائدة الى ١٩٧٠.

ماكادت الشمس تشرق في الغابات من ناحية عجلون [حتّى جاؤوني قائلين]:

- ينبغي أن تراهما. تعالَ معنا، سنترجم لك.

في السادسة صباحاً، أثار حنقي الى حدّ ما ثلاثة عشر صبياً أو أربعة عشر، أوقظوني.

ـ إشربْ، أعددنا لكَ شاياً.

ألقوا بأغطيتي جانباً وأخرجوني من الخيمة. لو تبعتهم، صاعداً طريقاً بين أشجار البندق طوالَ كيلومترين، فسارى الحقل والمُزارعة. في جنوب الأردن، تظلّ تلال عجلون شبيهة بتلال المورڤان الفرنسيّة. ترى أحياناً مساحةً مزروعة بالقمحيّات، وأزهار العسل، لكن الجرّارات في الحقول أقلّ، ومامن بقرة.

كان محيط الأبنية مصوناً بصورة جيدة، هذا مالاحظته أوّلاً. وفي حديقة البقل الصغيرة التي تسبقها كان ينمو شيء من البقدونس والكوسى والكرّاث والراوند والفاصوليا السوداء وكرمة متسلقة كان كلّ عنقود عنبٍ أبيض فيها معرّضاً لأشعة شمس الصباح. كانت المُزارعة، الواقفة عند عتبة الباب المقبّب في هيئة قوس رومانيّ، تتطلّع الى رهط هؤلاء الصبْية يجرجرون معهم كهلاً. من غضونها وخصلات الشعر الرماديّ الخارجة من شالها الأسوَد، كنتُ أراها قريبة من سنّ الستين. لاحقاً سأكتب ان أمّ حمزة كانت في ١٩٧٠ قريبة من الخمسين، وعندما رأيتها ثانيةً في ١٩٨٤ كان محيّاها ثمانينيّاً. رفضتُ التعبير: «تبدو ثمانينيّة»، لأنّني نسيتُ السرعة المتزايدة أكثر فأكثر صوب الانهيار، بفعل الدهانات والمساحيق والتدليك والحيَل وبقية الاجراءات الممارَسة على التجاعيد والجلد و«السيلوليت»، اي بالتالي المسارعة الى الموت؛ نسيتُ في أوربا كيف يتحلّل وجه فلاّحة دبَغه الجليد والشمس والتعب والشقاء واليأس، وعليه، موشكاً على الاستسلام، بعض مكرٍ طفوليّ، مفاجيء كانه التحلْية الأخيرة.

مدّت لي يدها وحيّتني بلاابتسامة، لكنّها حملت الى شفتيها الاصبع الذي لامس يدي. قمتُ بالتحية نفسها، التي كرّرتها هي أمام كلّ فدائيّ، بتهذيب وتوجّس، إن لم أقل باحتراس. أردنيّة، وماكانت بالفخور من ذلك، ولابالمستحية منه، ولكنّها قالت إنّها أردنية. لما كانت وحيدة في دارها، فقد كان من الممنوع الدخول الى الحجرة الرئيسية... ثمّ إنّه...

ـ لامكان لخمسة أشخاص، فمابالك بخمسة عشر...

كانت تتحدث بيُسر. قيل لي فيما بعد انّ عربّيتها كانت بمثْل جَمال عربيّة المعلّمين. حافية القدمين على القشّ. نادراً ماتقرأ صحيفة. كان الموضع الفارغ الوحيد في الحقل، وبالتالي القادر على استقبالنا جميعاً، هو حظيرة الماشية، الملاصقة للمنزل، والدائرية تماماً.

ـ أين هو القطيع؟

ـ قاده أحد أبنائي الى هناك. وزوجي يقود البغل حتّى رأس الجبل.

ـ وإذن، فالمزارع الأردنيّ الذي كنتُ أحيّيه كلّ صباحٍ بآليّة، كان هو زوجها. كان يعير بغله للفدائيين الذين كانوا يحملون في كلّ يومٍ طنابير عديدة للمقاتلين الذين يراقبون من على صخرةِ القرى الصامتة. لكنّ كلّ شيء كان محاطاً بالصمت. وماكان الفلاحون الاردنيون ليبدوا للعيان. من وقتٍ لآخرَ كنتُ أرى بالمنظار فلاحةً ترتدي خماراً أسود تلقي لدجاجها بالبذور أو تحلب ماعزاً، تفيء الى منزلها وتغلق الباب. ولاشكّ أنّ الرجال كانوا ينتظرون في الخلف، مع بندقية، وخطّ التسديد يتغيّر من دريئة الى أخرى، أي على القواعد أو الدوريّات الفلسطينية.

في عشيّة الصباح الذي ذهبنا فيه الى المزرعة، كان فدائيان قد دخلا مبتسمين في حوش منزلٍ كان يُحتفَل فيه بعرسٍ، فالتقاليد تفرض أن يُقدّم المضيف الطعام والشراب للزائرين، بمَن فيهم المتسكّعين. كان الجميع يبتسمون للجميع، الاّ للفلسطينيين الذين انطفأت الابتسامات لمقْدمهم؛ فخرجوا منكّدين. قدّمت المُزارعة القهوة للجميع. دخلت لتهيئتها الى حجرتها الرئيسية، التي ربّما كانت الوحيدة. كانت الحظيرة دائرة مغطّاة الأرضية بالقشّ. وحيال السياج الداخليّ كانت حافّة مبنية تخدم كمصطبة حجرية. جلسنا؛ كان الصبْية يمزحون، ودخلت المزارعة حاملةً طبقاً عليه إبريق قهوة وخمسة عشر فنجاناً فارغاً أحدها موضوع داخل الآخر. ساعدناها.

ـ ولكنّنا ستة عشر.

حسبتُ أنّني أسأت الفهم. إنّ امرأة وحيدة هنا لاتجالسنا أبداً، لكنّنا جميعاً نريد أن تكون هي الشخص السادس عشر. رفضتْ بلا تكشيرة، إنّما بلا تظارفٍ أيضاً. وافقتْ، للحظة، أن تجلس على عتبة الحظيرة، المرتفعة قليلاً. ماكانت شعرة واحدة لتتجاوز الشال، ممّا يعني أنّها حسّنت هندامها أمام مرآة في أثناء تقديم القهوة. كنتُ في مواجهتها، فكان خَيالها يتقطّع بعكس النور. لاحظت قدميها، الكبيرتين، عاريتين إنّما من البرونز، طالعتين من فستانها الأسود صغيرالثنيات: كان حوذيّ « دلفي » قد جلس في الحظيرة للتوّ. كانت، إذْ نسألها، تردّ، بل تتكلّم بصوتٍ واضح، حسن الرنين. وكان مقاتل يجيد الفرنسية يترجم لي عن عربية يقول لي هو بصوت منخفض إنّها أجمل عربيّة سمعها أبداً.

ـ أنا وزوجي متفقان تماماً على الاّ يكون لنصفَي شعبنا الاثنين سوى بلدٍ واحدٍ، هو هذا. لم نكن سوى شعبٍ واحدٍ عندما شكّل الأتراك الامبراطورية. ولم نكن سوى شعبٍ واحدٍ قبلَ أن يفرض علينا الفرنسيون والانجليز، بمَساطرهم، هندَساتٍ ماكنّا لندركها. وضعوا

تحت الانتداب الانجليزيّ فلسطين التي يدعونها اليومَ إسرائيل، ووهبونا أميراً من الحجاز... جئتم الى بيتي مع مسيحيّ، قولوا له إنّني أحيّيه بمودّة. قولوا له إنّكم إخوتنا، وإنّه ليؤلمنا أن تسكنوا مخيّمات من الصفيح، ونحن منازل. أمّا هذا الذي يحسب نفسه قيّماً علينا، ففي مقدورنا الاستغناء عنه وعن عائلته. بدلَ أن يعالج أباه، تركه يموت...

الروح الوطنية هي، عموماً، التأكيد المتفاقم على سيادة وتفوّق مفترَض. وأنا أعيد قراءتي هنا، أحسب أنّ خطاب المُزارعة كان يُقنعني، بل يؤثّر بي كمثل أيّ صلاة في كنيسة بالغة العُمق. كنتُ أسمع بالاحرى نشيداً يتكلّم عن تطلّعات شعب. وعندما نفكّر بالفلسطينيين، فينبغي الاّ يغيب عن بالنا أبداً أنّهم لايملكون شيئاً: لاجواز سفر ولاأمّة ولا تراباً، وإذا كانوا يغنّون هذا كلّه ويتطلّعون إليه فلأنّهم لايرون سوى أشباحه. وبلا اختيال ولا نثريّة، كانت المزارعة الاردنية تغنّي. وما كان بالغَ القوّة، والموسيقيّة، لم يكن يأتي أبداً من ترتيل، ولامن تصريح، بل من التعبير المقول بصورة شبه ناشفة، والصوت باقياً هو النبر الصحيح لبديهيّة.

ـ ولكنّه مسلم مثلك، قال احد الفتْية، باستفزاز وضحك.

ـ ربّما كان يحبّ مثلي أريج الخزام، إلاّ إنّ الشبَه يتوقف عند هذا الحدّ.

تكلّمت بنبرة هادئة، بلاخشية، جالسةً على العتبة، زهاءَ ساعة. نهضتْ وانبسطتْ، وأفهمتنا أنّ عملها في الحقل قد بدأ.

إقتربتُ منها وهنّأتُها على حديقتها.

ـ نحن من أهل الجنوب، قالت. كان والدي جندياً بدوياً. أعطوه الحقل قبل وفاته ببضعة أسابيع.

ماكانت المُزارعة لتُعربَ في صوتها عن أيّ خيلاء أو تواضع أو عن غضب، بل كانت تردّ على كلّ واحد من أسئلتنا أو ملاحظاتنا بأناة وحُسن أدب.

ـ أتَعرفُ مَن عَلّمنا العنايةَ بالأرض؟ الفلسطينيّون، في ١٩٤٩. علّمونا كيف نقلب التربة ونختار البذور وساعات السقي...

ـ لاحظتُ كرْمتكم الجميلة جداً، لكنّها تزحف على الأرض...

إبتسمت لأوّل مرّة، ابتسامة واسعة.

ـ أعلم أنّ الكروم، في فرنسا والجزائر، تُسنَد بحيث تتسلّق كاللوبياء. تصنعون منها النبيذ. عندنا، هذه معصية. نحن نأكل العنب. والأعناب التي تنضج في الشمس مباشرةً، مطروحةً على الأرض، لها طعمٌ أفضل.

لمستْ طرفَ أصابع كلّ منّا، ولمسنا نحن طرفَ أصابعها، وراحت تنظر إلينا مبتعدين.

ليس متعذراً أن يقوم كلّ فلسطينيّ، في دخيلائه، بإدانة أرض فلسطين لكونها اضطجعت بسهولة، وخضعت للعدو القويّ الماكر:

ـ لم ترفسْ، ولم تتمرّد! كان يمكن أن ترعد براكين، وأن تزفر حمَمٌ، وأن تتفجّر الصاعقة وتشعل ناراً.

ـ أن تتفجر الصاعقة؟ ولكن السماء تقف الى جانب اليهود. أوَما تزال تجهل هذا؟

ـ لكن أن تضطجع! أين ذهبت الزلازل المشهورة؟

لكنّ هذا الغضب الذي ماكان لفظياً فحسب، وإنّما هو وليد الألم، كان يزيد من الاصرار على القتال.

ـ يتبجّح الغرب بالدفاع عن اسرائيل.

ـ على عجرفة الأقوياء سيردّ عنف الضعفاء...

ـ حتى العنف الأعمى؟

ـ حتى الأعمى. أعمى ومتفتّح البصيرة.

ـ ما تقصد؟

ـ لا شيء. إنّني أعبّر عن سخطي.

ماكان أيّ من الفدائيّين ليتخلّى عن بندقيته، فهي إمّا أن تبقى معلقة على كتفه، مع حمّالتها الجلدية، أو أن يطرحها الفدائيّ أفقياً على ركبتيه، أو يوقفها عمودياً بينهما، دون أن يفكر بأن هذه الوضعية إنّما تحمل في ذاتها تهديداً إيروسياً أو مهلكاً، أو كليهما معاً. وخَلا ساعات النوم، لم أرَ أي فدائيّ في القواعد يتخلى عن بندقيته. سواء كان المحارب يطبخ، أو

ينفض الأغطية أو يقرأ رسالته، فالسلاح كان دائماً أكثر حياةً منه هو نفسه تقريباً. وذلك الى حدّ أنّني أتساءل إذا لم تكن الممرّضة، عندَما ترى صغاراً يأتون اليها بلا أسلحة، تعود الى بيتها، شاعرةً بالاهانة من رؤية صبْيةٍ عراة الأجسام. ولئن لم تشعر بالمفاجأة فلأنها كانت محاطة بالفدائيّين.

عندما خرجنا من بيتها، ومالإن أبصر الفلسطينيون في المنعطف غابة أشجار البندق الصغيرة، حتى انصرفوا تاركينني وحيداً في الدرب. دخلوا في الغابة، وكان كلّ واحدٍ يحاول الاختباء، هادئين كاطفالٍ على سطل قضاء الحاجة، إنّما مرئيّين جميعاً من قبلي قليلاً، أنا الذي كنتُ أميّز أطرافَ قمصانهم البيضاء؛ كانوا يتغوّطون مقرفصين. أعتقد أنّهم مسحوا مؤخراتهم بأوراق أشجار قطعوها من الأغصان الدانية، وعادوا في صفّ، محكَمي شدّ الأزرار، مسلّحين كما في العادة، ينشدون في الدرب نشيداً ثوريّاً مرتجلاً. وأعدّوا لدى الوصول شاياً.

عندما كنتُ أعيد التفكير بالمزارعة، فتارةً تبد ولي امرأة تتوقّد ذكاءاً وشجاعة، وطوراً أعجز عن ألاّ أرى فيها مثالاً لبراعة التخفّي. هل كانت هي وزوجها يتظاهران، باتفاق مخفيّ مع جميع سكان عجلون، فيزعم هو كونه صديق الفلسطينيين حتى الزلفى، وهي، برهافة أكثر، تُحاجج وتعرب عن ذكاء سياسيّ؟ هل كانا متعاونَين، بالمعنى الذي كان الفرنسيون يهبونه لفرنسيين آخرين قريبين من الألمان، أم زوجين مكلّفين بإبداء الدماثة لإعلام الفصائل الأردنية بصورة أفضل؟ في هذه الحالة، ربّما كانا أوصلا التفاصيل الحاسمة التي مكّنت، في حزيران/يونيو ١٩٧١، من إبادة جميع الفدائيين. فأنا أتساءل لمَ كانت تلك المزارعة بمثل ذلك الاندفاع ضدّ حسين؟ أكان بعض أقربائها فلسطينيّين؟ أكان لديها حسابٌ تصفّيه؟ أتتذكر أنّها أُنقذت ذات يومٍ على أيدي فلسطينيّين؟ إنّني مابرحت أتساءل.

كلّ هذه المظاهر الكاذبة والأخطاء وخداعات البصر ماكانَ اكتشافها ليفوت.

الصحفيين، المتواطئين أو المبهورين بائتلاقات كلّ تمرّدٍ، وكان ينبغي أن تنبّههم سذاجة هذه الأشياء بالذات؛ الحال، إنّني لاأتذكر مقالة صحفية واحدة تبدي اندهاشاً أمام اصطناع هذه الخداعات وطفوليّتها. والصحيفة التي كانت تبعث بالمصوّرين والآليّين والمحققين الصحفيين الى مثل هذا البُعد ربّما كانت تُلزم، لأنّها تنفق أموالاً فعلية، بان تكون الأحداث

تراجيدية حتّى تستحقّ مثلَ هذا العناء. ليس ينبغي استحضار التعبير الشهير: «تفرّقوا، لاشيء ليُرى»، المنسوب للشرطة الفرنسية: فمادام الصحفيون كانوا يُعاقون قبل مَداخل القواعد الفلسطينية – قفْ! سرّ دفاع – ، ولمّا كانت القواعد هي هذا المحلّ المحرّم دخوله على الجميع، فلعلّ الجميع كانوا يخمّنون، من دون أن يجرؤوا على قول ذلك، أنّه «ليس ثمّة مايُرى». وهل أقول إنّ هذا الكتاب الذي أنا بصدد كتابته الآن، هذا الرجوع صعداً في ذكريات لحظات شائقة، إن هو إلاّ مراكمة لتلك اللحظات بغيةَ إخفاء هذه العجيبة الكبيرة: إنّه «لاشيء ليُرى ويُسمَع»؟ – هل هو في هذه الحالة ضربٌ من متراسٍ مُقامٍ لحجب هذا الفراغ، تجميعٍ لتفاصيل صحيحة قد تمنح، بالعدوى، مصداقيةً لسواها؟ – كنتُ، من دون أن أجد علاجاً لهذه الشاكلة المبتذلة في صيانة سرّ عسكريّ، أشعر بالعُسر: كانت منظمة التحرير الفلسطينية تستخدم الطرائق الخفيّة أو الوقحة التي تستخدمها الدول الناجحة.

وبالفعل، فأنا لم أرَ ولم أسمع شيئاً لايمكن إيراده، لكن الايجد هذا مردّه في سذاجتي الشديدة، وشرودي – هذا الشرود مثلاً الذي كان يجبرني على النظر بكلّ هذا الاندهاش، في إحدى القواعد، الى مسارات رهط من اليساريع الجرّارة، الجاهلة هي نفسها أنّ الفدائيين كانوا الى جانبها أكثر فأكثر جوعاً وبرداً؟ – وهل رأى فيّ أبو عمر متواطئاً طائش الرأس أم الشيخ المفتقر الى الحصافة والذي، مهما حدثت من مخاطر فهو لن يسردها، ولن يفهمها، لا ولن يعيرها الأهمية نفسها التي يمحض لرحلةِ يَساريع؟

فجأةً رفعَ الفدائيّ الذي ترجمَ بصورة ممتازة عربيّةَ المُزارعةِ الكلْفةَ التي قامت بيني وبينه بالرغم منّا تقريباً. دُعيتُ لحفل عيد ميلادٍ من قبل ضابط سابق في الجيش التركيّ هو أبو الفدائيّ.

كانت عمّان، المُبقى عليها، مثلها مثل الكثير من عواصم العالم العربيّ، في التفاهة الغبراء التي تتمتع بها ضيعة بدوية كبيرة، وذلك حتى فترة قريبة، حوالى ١٩٧٠ بأية حال، أقول كانت عبارة عن خرَق. وبعدَ الأعاصير العديدة التي عصفتْ ببيروت، هيَ ذي اليوم مصابة بالسكتة. وبصوتٍ خفيضٍ أوّلاً، سجّلَ الجدول أنّ جميع البلدان العربية صارت تحترس من الفلسطينيين، فلاواحد منها ليعنى بتقديم مساعدة ناجعة لشعب معذَّب كهذا: على يد العدوّ الاسرائيليّ، وبفعل انقساماته الثورية والسياسية، والتمزّقات الداخلية لكلّ فرد. كانوا يحسبون أنّ الشعب الذي هو بلاأرض يهدّد كلّ أرض.

ستختفي «لبنان، سويسرا الشرق الأدنى، الصغيرة»، عندما تختفي بيروت تحت

القنابل. وإنّ تعبير «بساط من القنابل»، الذي لاكَتْه الاذاعات والصحف، لهو التعبير الملائم: فلقد سحقت بيروتَ بسُطٌ من القنابل، منشورة عليها. بقدرما تتقوّض المدينة، بمنازلها المشطورة نصفَين كمُصاب بالاسهال، تستضيف عمّان عضلاً وكرشاً، وإلى حدّ السمنة. وبقدرما ننحدر في المدينة العتيقة، تصبح مكاتب تصريف العملة متلاصقة، جداراً لجدار، وجهاً لوجه وأنفاً لأنف، آتيةً مباشرةً من لندن، من «السيتي» [حارة المصارف في لندن]. ومإإن يشتدّ سعير الشمس حتى يُنزل الصرّافون الضاحكون غليظو الشوارب الستارة الحديدية لمكاتبهم ويخفّوا الى سياراتهم «المرسيدس» المكيّفة، في قمصانهم، عرقِين. يذهبون لينامو القيلولة في ڤيلاتهم في جبل عمّان. اغلبهم فلسطينيّون، ونساؤهم - بالجمع - دهينات. يقرأن «ڤوغ» (مجلّة «الموضة») و«ميزون إي جاردان» («منازل ورياض»)، ويتناولن الشوكولاته ويسمعن «الفصول الأربعة» بالكاسيت. كان ڤيڤالدي شديد الرواج عندما وصلتُ في تموز/يوليو ١٩٨٤؛ ولدى مغادرتي كان ماهلر بصدد الوصول. وكانت الأطلال الأزلية قد نجحت في تحقيق هذه العجيبة: تستمدّ ممّا يحطّمها الْقاً وخلوداً. مإإن ترمّم عموداً مجروحاً أو سقيفة مثلومة، حتى لايعود الخراب الاّ صيانة. كان لعمّان، في غبارها ووسخها، وبفضل خرائبها الرومانية، بعض بهاء. هكذا اجتزتُ بستاناً لابأس بسعته قرب الأشرفية. كان الفدائيّ-الترجمان ينتظرني. أصفُ: لم يكن ذلك المنزل، الشبيه الى حدّما ببيت آل نشاشيبي، متعدّد الطوابق. كان الصالون الكبير ملاصقاً لبستانٍ لأشجار المشمش. وكان والد عمر جالساً على أريكة، يدخّن النرجيلة. وكانت سجّادة الصالون من السعة والسمْك والكبَر، ورسومها من الفتنة بحيث فكّرتُ بخلع حذاءيّ.

« سيَشمّون قدميَّ غير النظيفتين، قدَمي ساعي بريدٍ اجتاز ماشياً على القدم كيلومتراتٍ عديدة ... »

كان على السجّادة إناء محمّل بفطائر بالعسل.

- نهماً، ينبغي أن يكون المرء نهماً للحلوى الشرقية.

كان أبو عمر طويلاً، ناشفاً، وعليه مظاهر قسوة. شعر راسه وشاربيه، المقصوص قصيراً، تامّ البياض.

- نعمْ، الشرقية، واحترسْ من ولدي الذي قرّر الاّ يحبّها مادام تحضيرها وصناعتها لايدلاّن على أنّها ماركسيّة-لينينيّة-علميّة. ارِحْ نفسك ياصاح.

عندما بلغتُ المخدّات، اي طرفَ السجّادة، تمدّدت متكئاً على مرفقي. كان عمر وأبوه

وفدائيّ آخر اسمه محمود جالسين القرفصاء، محتفظين ثلاثتهم بالجوارب، فأزواج الأحذية الثلاثة بقيت عندَ حافة السجادة، على بلاط المرمر. ومن حسن الحظّ أنّني ضحكتُ إذ رأيتُ الى الماء يصنع فقاعاتٍ في كرة النرجيلة الزجاجية.

ـ يبدو أنّ هذا يُدهشك ويسلّيك، قال لي الضابط السابق في الجيش التركيّ.

ـ لديّ الانطباع المضحك في رؤية بطني أمامي بعدَ شرب ربع قنينة من الماء المعدنيّ «پيرييه».

إرتسمت ابتسامة صغيرة على شفتَي كلّ من عمر ومحمود. صغيرة حقاً، شبه غير مرئية.

ـ ربّما كانت خلفيّة تفكيرك هي التالية: بطنكَ أمامكَ وفمي يُحدث عاصفته.

كانت عبارته تعبّر بالفعل لاعن خلفيّة تفكيريّ أنا وإنّما عن خلفيّة انطباعٍ كان يتعذّر طرحه على هذا البساط، تحت ثريّا المورانو، أمام الضابط. عرفتُ أنّه كان في سنّ الثمانين.

لحدود التواضعات المقبولة في المحادثات حركيّة عالية، وهي قد تكون كذلك بقدر الحدود الجغرافية للدول، وكما في حالة الأخيرة فإنّما تلزم حربٌ، مع أبطالها وجرحاها وقتلاها، لزحزحة هذه الحدود. وإذاما تزحزحت، فلاقتراح حدود جديدة هي فخاخ. على هذا النحو مازلت لاأعرف عن «الأخوان المسلمين» إلاّ القليل.

ـ سألني كاتب في القاهرة، في العام الفائت، أن أصحّح إحدى مقالاته بالفرنسية. كان لديه أربعون صفحة. قرأتها، وشعرت بالاختناق منذ الصفحة الثانية. الكثير من التأكيدات الحاقدة كان معبّراً عنها في سائر المقالة... أشياء من قبيل: «ينبغيْ حمل السلاح ضدّ كلّ ماليس مسلماً... إعلان الاضرابات الآن... لاأحسن عند اللّه من الرائحة التي تنبعث في اليوم العاشر من فم أخٍ مُضربٍ عن الطعام، مهما كرَهَها البشر، وكذلك من فم الملحد الذي يعاني الجوع.»

رسمَ رجل القضاء المغربيّ، فيما يقول لي ذلك، إيماءة قرفٍ كانت من الحدّة بحيث حسبتُ أنّني أتفرّج على ملهاة هي أكثر تطرّفاً من خطاب ذلك القاهريّ. رفضَ أن يصحّح هذا النثر الفرنسيّ. الحال، إنّ كلّ واحدٍ من «الأخوان المسلمين»، إذ يعرف أنّه يخاطب فرنسياً، يعنى بمراعاة الحدود المألوفة للمحادثة. وعليه، فلم أنفذ أبداً الى جحيم «الأخوان المسلمين»،

مثلما ينفذ المرء بالأمس الى جحيم «المكتبة الوطنية» بباريس. لم يكن الضابط في الجيش التركيّ ليخشى السقوط في السماجة. وهنا أيضاً، ومثلما ساقوم به لاحقاً بصدد أبي عمر ومبارك، عليَّ أن أنجح في وضع عملٍ مزيّف في الظاهر، مادمتُ، حتى أردم الفراغات، أعيد صوغ خطاب السيّد مصطفى، والاّ فلن أقدّم أكثر من مخطّط خرائبيّ ومظلم يتعذّر على الفهم. إنّني أظلّ وفياً للمحتوى. وعندما يكون بعض الأحياء مايزالون على قيد الحياة، فأنا أغيّر الأسماء والكنيات والأحرف الأولى من الأسماء.

ـ بدأتُ النطق بلغتكم في إسطنبول. أتمنّى أنّني لم أبقَ أخرق. ولدتُ في الواقع في نابلس، ونحن نحمل لقب «النابلسيّ». ننتمي الى هذه الأسرة العريقة، ومنذ الساعة الثامنة وثماني دقائق من هذا الصباح لديَّ ثمانون سنة. كنتُ، في ١٩١٢، ضابطاً في الجيش العثمانيّ، أدْرس في برلين في عهد ڤيلهيلم الثاني. وفي بداية الحرب، في ١٩١٥، عندما كنتَ أنتَ كما أعتقد طفلاً فرنسياً وعدواً لي من قبل (يبتسم بطيبة كمثّل قدّيسة أو طفلٍ صغير)، كنّا نحن – كلاّ، إنّ «نحن» هذه لاتجمعك بي بل تقصيك، فهي تفيد هنا الألمان والأتراك – كنّا تحت إمرة القيصر ڤيلهيلم الثاني، وكنتُ برتبة مُلازم. لم يكن أمامنا بعدُ ماريشالكم فرانشيه ديسپيري. سيأتي. وعليه، فأنا أجيد الكلام بالتركية وهي لغتي الأولى، وبالعربية؛ أترك لك تقييم فرنسيّتي، وبالانجليزية والألمانية. لاتقسُ عليّ في الحكم إن تكلّمتُ عن نفسي هذا المساء، فهو عيدي حتى منتصف الليل. في ١٩١٦، عيّنوني في الاستخبارات.

كانت كلّ عبارة تلتهمها العبارة اللاحقة، وهي تلتهم بدورها السابقة، من دون وقتٍ للهضم. وكانت مرصودةً لي عناية الاصغاء.

ـ هذه الحرب التي تعدّونها أنتم الأوربيين منتهية، ستدوم طويلاً. مسلماً كنتُ، وظللتُ كذلك في الامبراطورية، مع أنّنا كنّا نعرف أنّ إلهاً متعالياً لم يعد في الصرعة، لكن هل يعني أن تكون مسلماً اليوم شيئاً آخر سوى أن تقول إنّك مسلم؟ ماأزال عربياً ومسلماً في نظر العرب والمسلمين. في عهد الأتراك كنتُ فلسطينياً، واليوم أنا لاشيء، بل شيء هيّن. عبرَ ابني الصغير ربّما، عبرَ عمر؟ أظلّ فلسطينياً عبرَ هذا الذي خانَ الاسلام من أجل ماركس. أؤمن، مثلكَ، بفضائل الخيانة، ولكنّني أؤمن، بأقوى من ذلك، وبصورة هي للأسف غامضة، بالوفاء. يتركونني، كما ترى، بسلامٍ في منزلي بعمّان، لكن هاأنذا أردنيّ، أي، لاحظْ ذلك، من سيء الى أسوأ، من حُكم الخديوي الى هذه المملكة، ومن الامبراطورية الى الاقليم.

ـ أما تزال ضابطاً في الجيش التركيّ؟

ـ إذا أردتَ. عن تهذيبٍ، يدعونني عقيداً. هو لديّ يمثل أهميّة لقب «دوق السفيو»

S.F.I.O. أو أمير «الخطوط الجويّة الدوليّة الفرنسيّة» الذي قد يهبني إيّاه السيّد جورج پومپيدو (٢١). أنا نظرياً تابع الى المولود الاخير - ولمَ لا أقول البُرعم الأخير؟ - لسلالة هاشمية من الحجاز، اي انّني كان عليّ منذ ١٩١٧، كلاّ، اخطات، بل منذ ١٩٢٢، مادام أتاتورك قد التحق في تلك الفترة بأوربا وتعاملَ معها...

- ألاتحبّ كمال أتاتورك؟

- المشهد ملفّق. المشهد الشهير الذي يصوّر أتاتورك وهو يرمي القرآن من على المنصّة، في قاعة الجمعية الوطنية. ماكان ليجرؤ والقاعة ملآى بنوّاب مسلمين. لكنّه اثبت فيمابعد أنّه كان يكرهنا.

- إستردّ لتركيا في آخر أعوامه الأسكندرونة وأنطاكية.

- لقد وهبهما الفرنسيون لتركيا. وماكان ينبغي القيام بذلك. هي أراضٍ عربية. ومازال سكّانها ينطقون بالعربية. لكن كنتُ اقول لك إنّني، في ١٩٢٢، كان عليّ، مادمتُ كففتُ عن التبعية للعثمانيين، ان أتبع للانجليز وعبدالله، بل حتى لغلوب باشا الذي جرّدني من رتبة الضابط لأنني خدمت في الجيش التركيّ في عهد أتاتورك. قام غلوب بذلك لأنّي تلقيت تعليماً عسكرياً في ألمانيا.

- عرفتْ فرنسا هي أيضاً «جنوداً تائهين».

- ماأجملها تسمية! لكنّ جميع الجنود تائهون. لاتكاد الساعة أن تكون العاشرة. لي الوقت حتى منتصف الليل. مع العودة الى عمّان، المدينة التي كنتُ قاتلتُ فيها الانجليز يقودهم اللنبي، قام إبني البكر إبراهيم، الذي هو من أمّ ألمانية، زوجتي الأولى، قام بإعادة اشتراء المنزل من اجلي، إذ صارَ ينبغي إعادة اشترائه. في مقهى مجاورة للفندق الذي تحلّ أنتَ فيه - «فندق صلاح الدين» كما أعتقد - كنتُ ألعب النرديّة، فميّزوني وكان عليّ أن أمضي في السجن خمسة شهور (أنتَ أكثر حظاً منّي، مادمتَ لم تمضِ في السجن سوى بضع ساعات، صحبةَ نبيلة النشاشيبي - هذا ماقاله لي احد اشقّائها)، ثم أُطلقَ سراحي. أُطلقَ؟، ياللمزحة! بل صرت حرّاً في الاّ أجتاز نهر الأردن هذا وألاّ أرى نابلس ثانيةً. ثمّ إنّني لاأعبأ بها.

أعادَ إلى شفتيه فوهة النرجيلة. فأفدتُ، بجبنٍ، من هذا الصمت الوجيز.

- لكنّك ماتزال ضابطاً في الجيش التركيّ.

ـ محذوفاً من الكوادر، كما يُقال، ومنذ زمن بعيد. مع عدوّ كعصمت إنّونو، الأقلّ فظاظة والأكثر حقداً من كمال. والمرّة الأخيرة التي إرتديت فيها البزّة العسكرية أمام الجمهور كانت في دفنه، في أنقرة، قبل ثلاثين عاماً. وتحتفظ زوجتي الأولى بالبزّة، في بريمين، حيث تُقيم، عندَ ولدي إبراهيم.

راح يدندن بخفوت:

«المرّة الأخيرة، قبل ثلاثين سنة، إرتديتُ في دفنه بأنقرة، البزّة العسكرية التركيّة.»

ثمّ بإيقاعٍ آخر:

«آخرِ مرّة في أنقرا

قبل ثلاثين سنة — قرا

لبست البزّة التركيّة

قدّام الجمهور.»

ـ ماتسمعه الآن، هذا اللحن الذي يعاودني ولايتركني أبداً، هو ضرب من أغنية قصيرة كان يؤديها أوّل حامل أطباقٍ موسيقيّ (٢٢) على طاولتنا في إسطنبول.

ـ هل كنتَ، وانتَ تقاتل الانجليز بين صفوف الأتراك، تشعر بأنّك تقاتل العرب الذين كانوا في قوّات ألِلنبي ولورنس؟

ـ تتحدث عن الشعور! الشعور، عندما تكون عسكرياً، وتحبّ أن تقود، وأن تُطاع، وأن تطيع، آه أن تطيع، وعندما تحبّ أوسمة البلدان الظافرة، الشعور، ألستَ عديم الايمان به ياسيّد جينيه؟

ضحكنا، انا وهو، لبعضٍ من الوقت، بتهذيبٍ، وبلا صخب، في حين بقيَ عمر ومحمود وقورَين.

ـ ثمّ إنّه لاشيء حدثَ بمثل هذا الوضوح وكما يرويه هذا الآثاريّ الصغير وعديم التواضع. إنّ لورنس قد جمّل كلّ شيء، حتّى اعتداء الأتراك عليه يريكم إيّاه كفعل بطوليّ. أنظر الى مايحدث اليوم في عمّان والزرقاء: لقد تلقّى جميع الجنود والضباط فلسطينيّي الأصل، عبر مختلف القنوات، الأمر بالفرار من الجيش الأردنيّ المكوّن من عناصر ماتزال حيّة من «القوّات العربيّة» التي كان شكّلها غلوب باشا، ومن فتْية بدوٍ، ومن فلسطينيين،

وبالالتحاق بـ « جيش تحرير فلسطين » . فَما عدد مَن قاموا بذلك (٢٣) ؟

ـ قليل .

ـ بل قليل جداً . فلمَ؟ هل عن خيانة للوطن الفلسطينيّ؟ أم عن جُبن؟ حتّى لايحاربوا إخوةً في السلاح سابقين؟ أم عن وفاء للملك حسين؟ أنا عسكريّ عتيد وأعرف أنّ هذا كلّه له وزنه . كنتُ ضابطاً في الجيش العثمانيّ، ضابطاً عربياً . وعندما يتحدث مؤرخوكم عن عصيان شامل قام به العالَم العربيّ بدفعٍ من لورنس، فلنقل، بأكثر مرحاً، إنّهم قاموا بذلك بدافعٍ من الذهب، نعم، صناديق الذهب التي أرسلها الملك جورج الخامس . ولقد قامت مناظرات جادّة كانت المطامح تسعى فيها إلى التخفّي وراء بلاغة تتحدث عن الحريّة والاستقلال والوطنية والسخاء؛ وكان الطموح، بالرغم من التحوّطات، قد شُوِّه بالمطالبات بالمناصب والحاكميّات والمراتب العسكرية والأسفار، أوجز لأنّني أنسى، لكن لن أنسى الذهب . إنّ عينَيَّ الزرقاوين قد شاهدتاه، وأصابعي أيضاً . المناظرات! دعنا نتكلّم عنها! عن الذهب! عن قطع الذهب في الجيوب! روى لي ولدي زيارتكم في الاسبوع الفائت لمُزارعة، أعتقد أنّها ابنة ضابط صفٍّ بدويّ عماه الذهب البريطانيّ وبروقه . هو عَماه الذهب، وأمراؤنا عماهم الذهب أيضاً، الذهب والأوسمة الكبرى وأوسمة رباط الساق والأشرطة وربطات العنق والميداليات المعلّقة على الصدور المنفوخة للبدو الذين تكفي إطلاقة من بندقيّة « لوبيل » لإسكارهم . انظر إليّ أو دعْ عينيك مغمضتين، انظر مايحدث حولك أنت الذي لايرى فيه سوى الشَّعر : عمر منخرط في « فتح »، فهل تحسب أنّ الفدائيين يتراكضون إليها عن إيثار؟

صرخَ، إنّما بصوتٍ مكتئب : « ياعمر، ويامحمود، تستطيعان اليوم أن تدخّنا أمامي »، ثمّ في اتّجاهي، فيما يستند إلى وسائده الحريريّة المطرّزة : « ماكانا، طوالَ أريكتي، ليتمكّنا من التدخين أمام شَعريَ الأبيض . » لم ينتبه الى زلّة لسانه [« طوال أريكتي » بدلَ : « طوال حياتي »]، أو لم يحسب أنّ من الضروريّ التأكيد عليها بالاعتذار منها، ولعلّي كنتُ أفضّل أن أحتفظ أمامي بشيخ عثمانيّ يحسب نفسه أريكةً أكثر منه حيّاً، ثمّ لمّا كان الحلم والرخاوة يُنعشان، فلعلّه يرى نفسه وزيراً؛ صمَتْنا .

كانت الأيدي في الجيب تُداعب من قبلُ الولاّعة والسجائر الشقراء .

ـ ستُدرك ذاتَ يومٍ ماكان عليه الانجليز . فكِّرْ بالشركس . دعنا نخصّهم بثلاث دقائق من الكلام : كان السلطان عبد الحميد بحاجة الى جيش باعث على الثقة (مسلم لكن ليس عربياً) لقمع انتفضات البدو . ففكّر بسركاسيّي الامبراطورية الروسية . أهداهم الخديوي أفضل أراضي المنطقة ـ الأردن هذه وماسيشكّل سوريا أيضاً ـ ، أراضي كانت الينابيع فيها نادرة

لكن ثريّة، ولئن كانوا تخلّوا لليهود عن قراهم في الجولان، فماتزال لديهم قراهم قربَ عمّان. تُرى من كان الشركس؟ هم ضرب من القوقازيين المسلمين قاتلي البدو. وهم اليوم الجنرالات والوزراء والسفراء ومدراء المراسلات الملكيّة، وهم يخدمون السيّد حسين ويحمونه من الفلسطينيين.

ذهب الفتّيان للتدخين وراء أحد أعمدة الدار. هذه المُراعاة أمام الأرستقراطية العربية أو المتقدّمة باعتبارها كذلك، رأيتُها أنا على وجوه الفدائيين، وفي كلماتهم وإيماءاتهم، وكذلك عندما دخلت [علياء] الصُلح في صالون فندق ستراند ببيروت. يمكن أن ينتظر وصف تلك الأمسية، مادام العثمانيّ عادَ مقتحِماً:

ـ في قاعة طعام الضبّاط (هنا كان علينا أن نخسر الحرب عن احتشام، لأننّا، في قاعاتنا للطعام ذات أطباق المازّة المائة وكؤوس العرق، لم نكن لنفكّر الاّ بالطعام)، وسطَ الصحون والمشروبات والنكات، كانت أحاديثنا ستُصاب بالعرَج لو لم تكن نقطة ثابتة، نجمة الرعيان، تهدينا: الذهب، ياصاح. كانت تلك الأحاديث تركّز على ماياتي: أكان علينا، نحن الضباط العرب في الجيش التركيّ، أن نامل ونساعد تدهور الامبراطورية وانتصار المعسكر الأنغلو-فرنسيّ؟ إنّني أعترف بمايمكن الاعتراف به، أي بماكان نبيلاً في قراراتنا، وأحتفظ لنفسي بمطامحنا الباعثة على الغثيان في الحالة التي كان فيها لودندورف سيهزمكم في «السوم». من قبلُ، في عهد محمّد علي، كان الانجليز يحتقروننا؛ مثلما كان يحتقرنا الفرنسيون في الجزائر وفي تونس (التي كانت، طوال حرب ١٤-١٩١٨ هذه، تصلّي في الجوامع من أجل انتصارنا، ربّما بباعثٍ من الباي تركيّ الأصل، لكنّ الصلوات التونسية كانت في خاتمة المطاف تُصعَّد الى اللّه من أجل انتصار ألمانيا وتركيا على أقطاركم)؛ كما كان الايطاليّون منذ ١٨٩٦ في أرتيريا، يحتقروننا. أفكانَ علينا أن نامل انتصار جميع هؤلاء المسيحيّين؟

ـ الألمان مسيحيّون هم أيضاً.

إنفرد السيّد مصطفى ببضع ثوانٍ ليُدندن باغنية حامل الأطباق الموسيقيّ.

ـ لابلد عربياً كان مستعمراً من قبل الألمان. والمهندسون الألمان هم من بنوا طرقنا وسكك حديدنا. هل رأيت سكّة حديد الحجاز؟

ـ لم أرَها هذه الأيام. بل في سنّ الثامنة عشرة. فلقد أدّيت خدمتي العسكرية في دمشق.

ـ في دمشق؟ ينبغي أن تحدّثني عن هذا. في أيّ عام؟

ـ في ١٩٢٨ أو ١٩٢٩.

ـ هل احتفظتَ عنها بذكريات طيبة؟... كلاّ، كلاّ، لاتحدثني عن هذا البلد، ولاعنك ولا عن غراميّاتك. أعرف مايكفيني. لنعُد إلى السجال الذي كان يلهب ضميرنا العربيّ كلّ يوم، وكلّ ساعة. إنني أمحض ذكرى أتاتورك احتراماً معتدلاً. ماكان يحبّ العرب، ولايكاد يعرف لغتهم (٢٤)، ولكنّه أنقذ من العالم العثمانيّ ماأمكنه إنقاذه. إهانة الامبراطورية كما فعلتم، والخليفة الأخير يهرب على قارب إنجليزيّ، أسيراً وفاراً كما فعلتم بعبد القادر أيضاً! وإنجلترا هنا عبرَ غلوب باشا، وصامويل في فلسطين، وفرنجيّة في لبنان، وعفلق في سوريا هو وبَعثه المضحك، وفي البادية العربية ابن سعود...

ـ ماالذي لم يكن ينبغي أن يكون المرء في ١٩١٤ و١٩١٨؟

تحت ثريّا المورانو، وعلى سجّاد أزمير، نهض أبو عمر قائماً أمامي.

ـ كنّا، قبل ١٩١٧، وقبل وعد بلفور، نعرف أنّ ملاّكي أراضٍ أثرياء...

للمرّة الأولى سمعتُ اسم هذه العائلة، آل سرسق.

ـ ... ملاّكي أراضٍ أثرياء كانوا قد عقدوا، أثناء الحرب، اتصالات من أجل بيع اليهود قرى كاملة، أراضي جيّدة ورديئة مجتمعة. كنّا نعرف أسماء العائلات العربية المستفيدة...

ـ أكان لديها متواطئون في «الباب العالي»؟

ـ هذا ممّا لاشكّ فيه. والانجليز، المعادون للساميّة والواقعيّون مع ذلك، عنيوا بمستعمرة أوربية مجاورة لقناة السويس، ليشرفوا على شرقيّ عدن ويحتفظوا به.

دقتّ الساعة منتصف الليل في رقّاص الأبنوس والصدَف. كان الضابط في الجيش التركيّ قد بلغ الساعة السادسة عشرة من سنته الثمانين. سأله عمر بتوقيرٍ إذا كان لايخشى خدش مشاعر زائرٍ غريب. تطلّع إليّ الشيخ، بحدبٍ كماأعتقد.

ـ ولالحظة واحدة. إنّك آتٍ من بلدٍ سيواصل، بعد موتي، سكنى جَناني: بلد كلود فارّير وبيير لوتي (٢٥).

في كلّ نهارٍ وكلّ ليلةٍ، كان الموت يُلامَس عن قرب: من هنا هذه الأناقة المَحوكة حوكاً على الدوام، والتي يبدو الرقص على الأرض، تحت التصفيق الشامل، إلى جانبها ثقلاً. معَهم (أي الفدائيّين) تصبح الأشياء أليفةً، أمّا الحيوانات فلاأدري.

إنّ الموت، المحسوب في فصائل تذهب من عشرة أشخاص الى عشرة آلاف، لم يعد هنا ليعني شيئاً، وعلى الخصوص فلايمكن الشعور بأسى مزدوج أو مضاعف ثلاث مرّاتٍ أو أوربعاً عندما يحتضر أربعة أصدقاء بدلاً من واحد، أسى هو مائة مرّة أشدّ عندما يموت مائة. وبصورة مفارقة، كان موت فدائيّ أثير يجعله يحيا بقوّة أكبر، ويظهر في تفاصيل لم تُلاحَظ من قبلُ أبداً، ويتكلّم، ويردّ علينا وفي صوته قناعة جديدة. إنّ الحياة، الحياة الواحدة لفدائيّ هو الآن ميت، لَتتخذ، لبُرهة، كثافة ماكانت تعرفها البتّة. وإذا كان، في أثناء حياته، حياة فدائيّ ابن عشرين سنة، قد فكّر بمشاريع يسيرة على التحقيق في الغد، كغسل يديه أو إيداع رسالة مكتوبة في البريد...، فأنا يبدولي أنّ هذه المشاريع غير المحقّقة تنضاف إليها الرائحة العفنة للهواء الذي يتحلّل هو فيه: ذلك أنّ مشاريع الميت تظلّ لها عفونة رهيبة.

لكن ماالذي كانوا يريدون أن يصنعوا بهذه الرأس البيضاء، البيضاء بجلدها وشعرها ولحيتها غير الحليقة، البيضاء والورديّة والمدوّرة دائماً، والحاضرة بينهم؟ شاهداً؟ لم يكن جسدي ليهمّ: كان يحمل، فحسبُ، رأسيَ المدوّرة والبيضاء.

كان الأمر أكثر سهولة: فبدلَ طفلٍ، اكتشفَ «الفهود السود» فيَّ شيخاً مهجوراً، وكان هذا الشيخ ابيض. ولما كنتُ غرّاً في جميع الميادين، فقد كنت أجهل السياسة الأمريكية إلى هذا الحدّ بحيث لم أدرك إلاّ لاحقاً أنّ السيناتور والاس كان عنصريّاً. ولعلّي حقّقت هنا حلماً بالغَ القدَم وطفولياً، يقودني فيه غرباء - ولكنّهم أقرب إليّ من أبناء جلدتي - الى حياة جديدة. حالة الطفولة هذه، بل قد أقول حالة البراءة، فرضتْها عليّ رقّة الفهود السود، رقّة لم أُمحَضها عن امتياز، ولكن كنتُ أحظى بها لأنّها كانت تبدو لي وهي تشكل طبيعة الفهود بالذات. الحال، أن أعود، وأنا الكهل، الى حالة صغير متبنّى، كان هذا أمراً بالغ العذوبة مادمتُ تلقّيتُ بفضله حماية حقيقية وتربية حنوناً. وعليه فالفهود السود إنّما يتميّزون بفضائلهم التربويّة.

وفّر لي الفهود السود من الحماية ماجعَلني لاأشعر في أمريكا بالخوف أبداً - إلاّ عليهم. وكما لو بمفعول سحرٍ ما، فلم تكن الشرطة ولاالحكومة الأمريكية لتضايقاني. في البدء، قبل أن يتبنّاني دافيد هيليارد، كان أحدٌ يرافقني أغلب الأحايين، عندما أريد الذهاب الى هارلم،

حتى اليوم الذي دخلت فيه باراً للسود ماكان يقدّم الشراب الاّ للسود: ربّما كان ذلك مدخلاً ممهّداً لماخورٍ، لأنّ فتيات جميلات كنّ يأتين إليه صحبةَ سماسرة سود. طلبتُ كوكا كولا. فأثارَ ترتيبي للعبارة ولكنني قهقهة الجميع. وفي عزّ النقاش مع سمسار ومع صاحب البار، عثرَ عليّ إثنان من الفهود السود كانا هبّا للبحث عنّي، أقول عثرا عليّ في «دغل المدن».

إنّ فزّة البيض أمام أسلحة، وستَرٍ من الجلد وشعر متواطيء مع العصيان، وكلام بل حتّى نبرة للصوت شرّيرة وحنون في آن: هذا كلّه أراده الفهود السود. كانوا يقصدون هذه الصورة، المسرحية إذا شئتم والدرامية. المسرح لعرض المأساة وإخمادها. ومأساة مظلمة في جميع الأحوال عن أنفسهم ومن أجل البيض؛ وبتسببّهم بعرضها في الصحف وعلى الشاشات، كانوا يريدون أن تسكن هذه الصورة وعي البيض، وبهذا التهديد نجحوا، لأنّ الصورة كانت مدعومة بميتات حقيقية مسبّبة جميعاً بالأسلحة المنهوبة من قبل الفهود السود: كان هؤلاء يطلقون النار، ولدى رؤية الأسلحة، التي تشير الى دريئة ما، كان الشرطة يطلقون. إنّ القول، مثلاً، إنّ «فشل الفهود نابع من كونهم وهبوا أنفسهم "صورة مميّزة" قبل أن يقوموا بنشاطات فعليّة تفرض مثل هذه الرؤية» (أوجز هنا تقريباً السؤال الذي طرحته عليّ صحيفة «رومپار»)، ليّستدعي أكثر من ملاحظة. وفي أوّلها أنّ العالم يمكن أن يتغيّر بوسائل أخرى سوى الحرب التي تَقتل. «السلطة في طرف البندقية»، نعم، ربّما، لكنّها تقيم أحياناً في طرف ظلّ البندقية أو صورتها. وإنّ مطالبات الفهود، الملخّصة في «النقاط العشر»، هي في الأوان ذاته بسيطة ومتناقضة. ولربّما كانت مخبأ تتحقّق وراءه عملية سوى هذه المعروضة بوضوح. فبدلاً من استقلال فعليّ، ترابياً وسياسياً وإدارياً وبوليسيّاً، استقلال يتطلّب مجابهة السلطة البيضاء، راحَ يتحقّق تحوّل للإنسان الأسوَد. لم يكن مرئياً، وهوذا مرئيّ. تتحقق هذه المنظورية بصورٍ شتى. ليس الأسوَد لوناً: فعلى خلفية من جلدٍ ذي بقَعٍ متراصّة إلى حدّما، يمكن أن يبثّ في ثيابه ألواناً هي عيد حقيقيّ، ديكور أو زينة، من اللازورد، والورديّ، والخبّازيّ، وعلى خلفية سوداء قليلاً أو كثيراً، مايتطلّب بحثاً عن مسحات «بستل» أو ذات عنف، جاذبة للعين بأية حال، وهذه الزيَن لايمكن أن تخفي المأساة الممثّلة ههنا، لأنّ العينين إنّما تحيّيان فيها، ولأنّ أناقةً مرعبةً تنبعث منها.

هل هذا التحوّل تغيُّر؟

«نعم، عندما يمسّ هذا التحوّل البيض، ويتغيّرون منه هم أيضاً. لقد تغيّر البيض لأنّ مخاوفهم لم تعد هي مخاوف الأمس.»

وقعَ صرعى، وحدثت اعتداءات تثبت أنّ السود صاروا أكثر فأكثر تهديداً، وأنّهم

ماعادوا يخشون البيض. ثمّ شعرَ البيض بأنّ مجتمعاً فعلياً كان يتأسّس قريباً منهم. مجتمع كان قائماً من قبل، ولكنّه كان خائفاً ويحاول أن ينسخ، تدليساً، المجتمع الأبيض، وهوذا ينفصل بحيث يرفض أن يكون هو النسخة: ففي حياته اليومية، وفي أسرار إفرازه الأسطوريّ، كان مالكولم إكس، بل وحتى مارتن لوثر كنغ ونكروما أنموذجيّين في نظره.

إنّ الأمر لشبه أكيد: إنتصرَ الفهود السود، وبوسيلة تبدو هيّنة: باللجوء الى الحرير والمخمل والشعر الوحشيّ والى صورٍ طبعت الأسوَد بالتحوّل وغيّرته. كانت هذه الطريقة - للحظة الحالية - هي طريقة النضالات الكلاسيكية، وصراعات الأمم، ومن أجل التحرير الوطنيّ، وربّما في الصراع الطبقيّ أيضاً.

ـ أكان هذا مسرحاً؟

ـ يتطلّب المسرح، كما يُفهَم عادةً، فضاءاً دراميّاً، وجمهوراً، وتمارين. ولئن كان الفهود يمثّلون، فهم لايفعلون ذلك على الخشبة. وماكان جمهورهم سلبياً أبداً: إنْ كانَ أسوَد، صارَ نفسَه، وإلاّ لاحتقرَهم؛ أو أبيض، شعرَ بالانجراح وتعذّب من جراحه. ولئن افترضنا أن ستاراً مثالياً يمكن إسداله على العروض فإننّا لمخطئون: فالاسراف، في الترف والكلام والهيئة، كان يحمل الفهود الى إسرافٍ متجدّد دائماً، وأكبر فأكبر كلّ يوم. ولربّما توجّب الكلام الآن عن الأرض التي تنقص. وليس مايأتي بأكثر من فرضية.

بالنسبة الى جميع الشعوب المحدّد كيانها القوميّ جيّداً - بل حتّى للبدو، الذين لايجتازون مناطق كلأهم بصورة فوضوية - تتظلّ الأرض تشكل الدعامة الضرورية لوطن. وهي ليست هذا فحسب. فالأرض أو المجال الترابيّ هو المادّة بالذات، والفضاء الذي يمكن أن تتنامى فيه إستراتيجية. وسواء كانت طبيعية أم مزروعة أو مصنّعة، فهي الفضاء الذي يمكّن من تحقيق مشروع حربٍ أو من الانسحاب الاستراتيجيّ. يمكن أن نعدّها مقدّسة أو لا، فالشعائر الفطريّة الهادفة الى انتشالها من «المدنّس» ليست بذات شأن: هي، قبل كلّ شيء آخر، الموضع الضروريّ الذي انطلاقاً منه تخاض الحرب أو يُصار الى الانسحاب. والأرض تنقص السود كما تنقص الفلسطينيين. إنّ الوضعيتين، وضعية سود أمريكا ووضعية الفلسطينيين، لاتلتقيان في جميع النقاط، ولكنّ كلا الشعبين بلا أرض. ولمّا كان السود معذّبين حتّى الاستشهاد بصريح التعبير، فمن أيّ مجالٍ يهيّئون تمرّدهم؟ من الغيتو (المعزل)؟ لايمكنهم التحصّن فيه، إذ تلزم متاريس وحواجز وملاجيء، وأسلحة، وذخيرة، وتواطؤ السكان السود بأكملهم؛ كما لايمكن الانسلاخ منه لشنّ حرب على المجال الأبيض: فكامل المجال الأمريكيّ هو للأمريكان البيض. وإنّما في أماكن أخرى وعلى نحوٍ آخر سيقوم السود

بعمليات تخريبيّة داخل الوعي. الأمريكان في مجال الأسياد أنّى كانوا. وسيعمل الفهود السود على إرهاب الأسياد، لكن بالوسائل وحدها التي هي في متناول أيديهم: الاستعراض. وسيفعل الاستعراض فعله، لأنّه مدفوع باليأس، وهم يعرفون مفاقمته بفضل مأساويّة حالتهم: تهديد الموت، والميتات الفعلية، وذعر الأجساد والأعصاب.

والاستعراض استعراض؛ يهدّد بالافضاء الى الخياليّ المحض، وبالاّ يكون سوى «كرنفال» ملوّن، وهذا هو ماغامرَ به الفهود السود. أكان لديهم الخيار؟ لو كانوا أسياداً، أو الملاّكين مطلقي السيادة لمجال، فلعلّهم ماكنوا سيشكّلون حكومة: برئيسٍ، ووزير للحرب، وآخر للتربية، وماريشال، وكذلك، ومنذ خروجه من السجن، «القائد الأعلى» نيوتن (٢٦).

إنّ البيض النادرين الذي كانوا متعاطفين والفهودَ السود سرعان ماتعبوا. ماكانوا ليقدروا أن يتبعوهم الاّ في مجال الافكار، لا الى تلك الاكواخ التي كان السود، المتمترسون، مجبرين فيها على تهيئة إستراتيجية تنهل ينابيعها من المتخيّل، وعلى تنفيذها.

وعليه، فقد كان السود سائرين إمّا في الجنون أو صوبَ تحوّل المجتمع الأسوَد؛ الى الموت أو السجن. وكانت نتيجة المشروع هي هذا كلّه، ولكنّ الغلبة على مايتبقى، ومن بعيد، إنّما كانت معقودة للتحوّل، ومن هنا أمكنَ القول إنّ الفهود السود قد انتصروا بقوّة الشّعر.

عدتُ، عن طريق «السلط،» الى مخيّمات عجلون. كان ذراعا أبي قاسم مرفوعين، وهما أوّل مارأيت. كان ينشر غسيله على حبلٍ مشدود من شجرة الى أخرى. والنبع في الجوار. كان خدم الوزراء الأردنيين، قبل مجزرة عمّان، يوردون فيه خيولهم. وكان الفدائيون يشغلون الفيلات الخمس أو الستّ المخصصة للوزراء. أين عثر أبو قاسم ياترى على القرّاصات التي ثبّت بها الغسيل؟ أجابني بعبارة تعليمية، بلا ضحكٍ ولاابتسام:

ـ يجد الفدائيّ دائماً ولوحده ماهو ضروريّ. هي ذي القرّاصات. إن كان لديك غسيل تنشره، فخذ هذه، لن تعثر على أخريات، فأنتَ لستَ فدائياً.

ـ شكراً، أنا لاأغتسل أبداً. أأنت تمزح ياأباقاسم؟، إنّ كلّ مافيك جنائزيّ.

ـ محمّد يذهب الليلة الى غور الأردنّ.

ـ هو صديقك؟

ـ نعم.

ـ منذ متى تعرف برحيله؟

ـ منذ عشرين دقيقة.

ـ وهل هذا غسيله؟

ـ غسيله وغسيلي. ينبغي أن نكون نظيفَين الليلة.

ـ هل أنتَ قلق، ياأباقاسم؟

ـ بل شاعر بالحصار. وساظلّ كذلك حتى يرجع، أو حتى الساعة التي لايعود فيها مايؤمَل.

ـ أنت ثوريّ وتحبّ محمّداً الى هذا الحدّ؟

ـ عندما تصبح ثورياً، فستفهم. لديّ تسع عشرة سنة، وأنا أحبّ الثورة، أكرّس لها نفسي وآمل التمكّن من القيام بذلك طويلاً. بيدَ أننّا كنّا هنا في استراحةٍ نوعاًما. نحن ثوريّون وبشر. أحبّ جميع الفدائيين وأحبّك أيضاً؛ لكنْ تحت الأشجار، في الليل والنهار، أقدر أن أختار محضَ صداقتي لأحد أعضاء المجموعة أكثر من غيره. هنا، أقدر أن أقسم قطعة الشوكولاتة التي لديَّ الى قسمين لا الى ستة عشر قسماً، وأن أهب نصفها لمن أريد. إنّني أختار.

ـ أنتم جميعاً ثوريّون ولكنك تفضّل واحداً منهم.

ـ وجميعهم فلسطينيون. وأنا أفضّل حركة «فتح». وأنت، ألم تفكّر أبداً بأنّ الثورة والصداقة تنسجمان؟

ـ أنا نعم، لكنْ قادتك؟

ـ إذا كانوا ثوريّين، فهم مثلي، لديهم تفضيلاتهم.

ـ والصداقة التي تتكلّم عنها، هل تجرؤ على دَعوتها حبّاً؟

ـ نعم. هي حبّ. أوَتحسب أنّني، في هذه اللحظة، في دقيقة كهذه، أخشى الكلمات؟ الصداقة، الحبّ؟ إنّ شيئاً لَيظلّ حقيقياً: إنْ قُتلَ محمّد هذه الليلة، فإنّ حفرةً ستظلّ الى جانبي دائماً، حفرة ينبغي ألاّ أسقط فيها أبداً. قادتي؟ في سنّ السابعة عشرة، وجدوا لديّ من الوعي مايكفي لقبولي في «فتح». لقد احتفظتْ بي «فتح» عندما كانت أمّي

بحاجة إليّ. والآن، في سنّ التاسعة عشرة، مايزال وعيي ههنا. ثوريّ، وفي لحظات الراحة أمتثل للصداقة التي تريح هي أيضاً. هذه الليلة، ساشعر بالحصار لكنْ سأقوم بعملي. وجميع الحركات التي عليّ القيام بها في غور الأردنّ، تعلّمتُها منذ عامين، وأعرفها كلّها. دعني أعلّق ثوبيَ الأخير.

كان عدد المخيّمات في الأردن عشرة أو إثني عشر. أستطيع أن أذكر منها: «مخيّم جبل حسين» و«الوحدات» و«البقعة» و«مخيّم غزّة» و«إربد»، فهي المخيّمات التي عرفتُ أكثر من البقية. كانت الحياة فيها أقلّ أناقة، أقصد أقلّ نقاءاً ممّا في القواعد. وأقلّ تحليقاً. وعلى الرغم من صحو النساء، فإنّ كلاًّ منهنّ، حتى الأنحَف، كان لها ثقلها الأنثويّ، وأنا لاأتحدث عن ثقل الجسد، النهدين، والعجيزة، والحوض، وإنّما عن ثقل إيماءاتهنّ النسويّة التي هي يقينٌ وراحة. وإنّ الكثير من الأجانب، أي غير الفلسطينيين، ماكانوا يذهبون الى أماكن أخرى سوى المخيّمات، تلك التي تشرف على «القواعد» – التعبير الأخير للضحك! – التي تراقب نهر الأردنّ، أمّا القواعد المسلّحة حقّاً فكانت تسيطر عليه من ناحية الجبل. وكان الفدائيّون يعودون الى المخيّمات للاستراحة – لقضاء وطرٍ كما يقال – أو لجلب أدوية.

كان كلّ من المخيّمات يتمتع بصيدلية صغيرة، ملآى، لأنها ضئيلة الحجم، بعلبِ أدويةٍ عتيقة فقدت مفعولها، غير مشخصة النوعية، آتية من المانيا، وفرنسا، وايطاليا، واسبانيا، والبلدان الاسكندنافية. أدوية لم يكن أحد هنا ليعرف أن يقرأ ما هو مكتوب عليها، طرق استعمالها، وصْفتَها... وعندما احترقت خيام كثيرة في مخيم «البقعة»، بعثت العربية السعودية، كهدية، بمنازل صغيرة من التنك المتموّج، جيء بها من الرياض مباشرةً بالطائرة، وأحاطتها عجائز المخيّم بالاستقبال اللائق ببنات الملوك: ضرب من الرقص المرتجل، شبيه بالرقصة التي ابتكرها عزّ الدين (٢٧): احتفاءاً بدراجته الهوائية الأولى التي راح يرقص أمامها. كانت منازل الصفيح أو الألمنيوم تلمع في الشمس وتعكس ضياءها وحرارتها. تخيّلوا مكعّباً ينقص أحد اضلاعه، هذا الذي يستقر على الأرض، وقد شُقّ، في ضلع آخر منه، باب. في هذه الغرفة، الموضوعة هنا، تحت شمس منتصف النهار، لا شكّ أن زوجين في سنّ الثمانين سيجدان نفسيهما مشويّين في الصيف، متجمّدَين في ليالي الشتاء. ولقد خطر على بال بعض الفلسطينيين أن يملأوا تموّجات السقف والأضلاع بالطين، يثبّتونه فيها بمشابك معدنية، وبذروا في هذه الجنينة المصغرة أعشاباً كانوا يسقونها كلّ مساء؛ ولقد نبتت فيها أزهار، خشخاش أو خشخاش منثور. هكذا تحوّل منزل الصفيح المتموّج الى مغارة مضياف في الصيف والشتاء، إلاّ إنّ قليلين نسخوا كثبان الساعي شوڤال هذه (٢٨).

ترى ما يصير الانسان بعدَ عواصف النار والحديد؟ يحترق، يُعول، ينتقل الى الحالة الحطَبيّة، الى شعلة، ثم يَسودّ، يتفحّم، رويداً رويداً، بالغبار، ومن ثمّ بالتراب، وبعد ذلك بالبذور، والطحالب، والأعشاب، ولا يبقى منه سوى الفكّين والأسنان، حتّى ينتهي، أخيراً، الى كومة صغيرة ما برحت تزهر إلاّ إنّها ما عادت لتنطوي على أيّ شيء.

عندما أتطلّع إلى الثورة الفلسطينيّة من علوّ يتخطّاني، أرى أنّها أبداً لم تكن رغبة باستعادة أراض شبيهة بحقول ضائعة وحدائق للخضار أو بساتين بلا أسيجة، بل حركة كبرى لتمرّد واحتجاج مساحيّ، تذهب الى أقاصي العالم الاسلاميّ، لا الأقاصي الحدودية، فحسب، وإنّما هي مراجعة وربّما كذلك رفض للاهوتٍ شبيه في قدرته على التنويم بمهدٍ بروتانيّ. وكان واضحاً لدى الفدائيّين الحلم (لكن ليس، بَعْدُ، القرار) برجّ الأقطار العربية الاثنين والعشرين والذهاب الى ما هو ابعد، حتى تولد لدى الجميع ابتسامات ما إن تولد حتى تنقلب الى البلاهة. ولقد بدأت ذخيرة الفدائيّين تنفد. راحت الولايات المتحدة، المستهدَف الأول، تجترح معجزات. كانت الثورة الفلسطينيّة تغوص شاقوليّاً، هي التي كانت تحسب انّها تسير مرفوعةَ الرأس. إنّ التدريب على هبة الذات (لأنّ «ن.» كان لايقدر على العودة إلى أوربا) هو تقريباً دوار يدفع المرء لا إلى أن يهب ذاته -كما يوحي به تعبير «هبة النفس» - وإنّما الى أن يقذف بنفسه في هاوية، لا ليساعد بل ليلحق بأولئك الذين يفنون لانهم قذفوا بأنفسهم فيها. وذلك خصوصاً عندما نميّز، لا بالتفكير وإنّما عبر الذعر، حجمَ الابادة القادمة.

قلتُ في مقطعٍ سابقٍ، بصدد الرفق الذي يذهب الى حدّ الزلفى في كلمات الفدائيين ونبرهم وإيماءاتهم أمام ممثّلي نبالة المصارف أو التاريخ من الفلسطينيّين، إنّني ساعود الى [علياء] الصُلح.

شاهدتُ في جنوب لبنان مقاتلين جرحى، راقدين في أغطية المستشفيات، البيضاء، تُجفلهم نساء عجائز مغطيات الأعين والأفواه وصفحات الخدود بطبقات المكياج، دفوف باسكيّة [دفوف ذات جلاجل] حقيقيّة بباعث من النبرات مختلفة الطبقات التي كانت تُحدثها كلّ واحدة من حركة الأساور الذهبية، الجوفاء أو الملأى، والعقود الذهبية، والاقراط الذهبية أيضاً، أو المطلية بالذهب، المتعاونة لقرع نواقيس جنائزية. قلت لإحداهن:

- ستوقظهم اجراسكنّ أو تقتلهم!

ـ أتعتقد؟ نحن كثيرات الحركة لأننا لاتينيّات. وبأية حال، متوسطيّات. مادمنا مارونيّات. وفينيقيات. نبحث، وسنواصل البحث، عن التكتّم، ولكننا لا نستطيع أن نُخرس ايماءاتنا المتوجّعة أمام كلّ هذه الآلام، ولا يمكن لجميع مباذلنا إلاّ أن ترنّ. ثم إنّ شهداءنا يعشقونها. كثيرون قالوا لي إنهّم أبداً لم يروا ما هو أكثر ثراءاً ولا أكثر جمالاً. فلندَعْ أنظارهم المُصابة تمتليء بالسعادة على الأقلّ.

ـ لا تتحدّثي يا ماتيلد مع غريب. لنذهب قربَ مبتوري الأعضاء.

فيما بعد، ستتاح لي الفرصة لأن أراقب، عن كثبٍ، السيدات العجائز المتبقيات ممّا كان يمثل العائلات الفلسطينية الكبرى.

هل يمكن أن تمثّل يخنة الفاصولياء بالأوز التشبيهَ الملائم لوصف عجوز فلسطينية جميلة؟ ومع هذا، فإن وجوه السيدات الثريات وطرائقهنّ تدفع الى التفكير بطهوٍ مفاجئ أحياناً، وخصوصاً بطهوٍ على نار خفيفة قام بتدوير الوجنات، وحفَظَ للبشرة سحنتها الوردية. كان كلّ شقاء شعبهن يزيد ملامح هذه السيدات، الناقعات في البؤس، سطوعاً وعذوبة، مثلما يَطيب طعم الأوزة في دسمها نفسه. وعليه، فقد كنّ ـ واحدة منهنّ بخاصة ـ رقيقات على نحو رائع، وأنانيّ، أي أنّ رقتهن كانت موجهة لإبعاد ضروب الشقاء النيئة أكثر مما يلزم. كنّ يَنضجن على نار هادئة حتى يزددن عذوبة. وكنّ يتتبعن تطورات الآلام في شاتيلا كما يتتبعن مجرى سوق الذهب أو الدولار، وفي الحالتين عبرَ نجودٍ مطرزة أو قطنية أو حريريّة. كانت الآلام معروفة، لكن بعد مرورها بمخدّة وثيرة أو ثوب له من العتق مائة عام أو مائة وعشرون، طرّزته أصابع ميتة ونظراتٌ عمياء. كنّ يمارسن رفيعَ التهذيب ـ إنّما كزينة. وعندما كنّ يتحدثن، صدفةً، عن مدينة «البندقية،» فأبداً لم يكنّ يجرؤن على لفظ اسم [ناقد الفنّ ومدير العروض الروسيّ] دياغيليف، بل، على العكس، كانت المحادثة حول البندقية تقود، برهافة، الى تفكير حول البحيرة والقناة الكبرى ومزجّجات مورانو ومواكب التشييع بالجندولات...

ـ ربما ذكّركِ هذا بدفن دياغيليف!

ـ لقد رأيتُ موكب الدفن يمرّ، من على دربزين «الدانييلي».

من سريرهنّ الاستعراضيّ، يتطلعن الى شعبهنّ عبر منظار من الصدَف. من هذا السرير ومن النوافذ، كانت الأميرات ذوات المعاصم القويّة بمافيه الكفاية لحمل الأساور الذهبية الثقيلة، ينظرن الى المعارك واكتئاب نظراتهن يزيد المشهد أناقة.

ومن نافذة منزلٍ محمول، كنت أنا أنظر الى البحر، في البعيد، والى قبرص، وأنتظر المعارك، لكن ليس الى الحدّ الذي أتحوّل معه الى أميرة عجوز ريّانة اللحم. أبداً لم يقلقني هذا الشبه، فلا الملامح العَصيريّة ولا العذوبة التي تتغلف بها هذه الارستقراطية المدّعية الانحدار من عليّ، كانتا تتلاءمان وذوقي، قطّ. ومع ذلك، فربّما كنتُ عاينتُ ثورة الفلسطينيين مثلهن، من نافذة أو مقصورة، وعبر منظار صَدَفيّ. فَسواء كنتُ بعيداً عن الفدائيّين (وأنا أكتب هذا الكتاب مثلاً) أو بينهم، كنتُ أظلّ دائماً على مبعدة، مفصولاً بشيءٍ ما، عارفاً أنّ الخطورة موفَّرة عَليَّ، لا بفضل رشاقة هيئتي «السلتيّة»، ولا بفضل غشاء سميك من دسم الأوز، وإنّما بسبب درعٍ أكثر التماعاً وموثوقية: عدم عائديّتي الى شعب وإلى نضال لم أمتزج بهما كلياً أبداً. كان القلب معهم، وكان الجسد معهم، وكان الفكر معهم. كانوا [أي القلب والجسد والفكر] هناك كلاً في دوره: أبداً لم يكن الإيمان مطلقاً، ولا أنا بكاملي هناك.

ثمّة شاكلات عديدة للتزاوج. لكنّ ماكان يبدو لي غريباً هو مناورات هذه اللعبة العجيبة، في كلّ يومٍ، نهارَ ليلَ، وفي كلّ ساعةٍ وثانية، تحت الأشجار: الماركسية والاسلام. كلّ مافيهما متعارض نظريّاً: فالقرآن و«رأس المال» يكره أحدهما الآخر، ومع ذلك فإنّ تناغماً يجتذب الجميع كان يبدو منبثقاً من هذين الحَرْفين. مَن كان يهب عن سخاءٍ بَدا وهو يفعل ذلك عن عدالة، بعد قراءة فطنة للكتاب الألمانيّ. كنّا نبحر في أقصى الجنون، بسرعة وتباطؤ، وكان جبين إلهٍ يصطدم بالجبين المنخسف لماركس الذي كان ينكر ذلك الاله. اللّه في كلّ محلّ، وليس في أيّ محلّ، بالرغم من الصلوات الموجّهة الى مكّة. كان لوي جوڤيه ممثلاً معروفاً في فرنسا منذ ٤٦–١٩٥٠. وبالتجرّد نفسه أجبتُ بالموافقة على طلبه بأن أكتب له قطعة مسرحية بشخصيتين أو ثلاث. أدركتُ أنّ التهذيب يملي عليه السؤال شبه الاستفزازيّ، والتهذيب نفسه هوما ميّزتُ في صوت عرفات عندما قال لي:

– ولِمَ لاتضع [في الفلسطينيين] كتاباً؟

– بالطبع.

لما كنّا نتبادل اللياقة، فَلم نكن ملزمين، لاأنا ولاهو، بهذه الوعود المنسية قبل أن يُنطَق بها. ولربّما كان اليقين من أنّه لم يكن ثمة مايقبل التصديق لافي سؤال عرفات ولافي إجابتي هو الباعث الفعليّ في نسيان الورق والقلم. ماكنتُ بالمُعتقِد بمشروع هذا الكتاب – ولاأيّ كتاب –، ولا بالمتيقّن من الانتباه الأ لماكنت أرى وأسمع. همتُ بفضولي وبِماكان هذا الفضول يَرصد. ومن دون أن أنتبه لذلك، استقرّ في ذاكرتي كلّ حدثٍ وكلّ كلام. لم يكن

لديّ ماأفعل، الاّ الاصغاء والرؤية، وماهُما بالمشغلة الممكن البوح بها. وعليه، فقد بقيتُ هناك، شاعراً بالفضول ومتردّداً، وشيئاً فشيئاً، كالزوجين الهرمين الذين لايعبأ أحدهما بالآخر في الوهلة الأولى، استبقاني في عجلون حبّي للفلسطينيين وحنوّهم.

فرضت سياسة القوى الكبرى وعلاقات منظمة التحرير الفلسطينية معها على الثورة الفلسطينية ضرباً من الحماية المتعالية التي كنّا نستمريء؛ فَتَحتَ الأشجار وعلى الذرى، كانت قشعريرة لعلّها منطلقة من موسكو، ومن جنيف وتل أبيب، تمرّ بعمّان، وتذهب، رجفةً رجفةً، حتى جرش وعجلون.

وكانت تعمل إلى جانبها الارستقراطيات العربية والفلسطينية، الفيّة العهد وبالغة التعقيد، الموازية لهذه الهيمنة الحديثة، والمتراكبة معها كما حسبتُ للحظة.

وكانت الروح الوطنيّة الفلسطينيّة تشبه في عجلون «الحريّة تقود الشعوب» لديلاكروا على المتاريس. كانت رؤيتها من بعيدٍ تعني، بفعل انزياحٍ معروفٍ، رؤيتها بروعة. الحال، كانت ولادتها غامضة وعسيرة على البوح. كانت شبه الجزيرة العربية خاضعة بكاملها للسيطرة العثمانية، الرفيقة لدى البعض، والقاسية في نظر البعض الآخر. وكان الانجليز، تاريخياً، وبصورة خرقاء، وبمساعدة صناديق الذهب، قد وعدوا العرب بالاستقلال وبإنشاء مملكة عربيّة إذا ماانتفض الشعب – الناطق بالعربية – ضدّ العثمانيين والألمان في ١٩١٦ و١٩١٧ و١٩١٨. لكن من قبلُ كانت العائلات الفلسطينينة واللبنانية والسورية والحجازية الكبرى المتنافسة تلتمس دعم الأتراك تارةً والانجليز طوراً، لالنيل حريّة أكبر لهذه الأمة الجديدة، التي ربّما كانت نطفة، غير مولودة بعد، عنيتُ الأمة العربية، وإنّما للاحتفاظ بسلطانٍ ما والبقاء بين هذه العائلات الفخمة التي تتحدث عنها أسماؤها وحدها: الحسينيّ، والجوزيّ، والنسيبيّ، والنشاشيبيّ...، فيما كانت عائلات أخرى تنتظر انتصار الأمير فيصل أو تعمل ضدّه.

لاشيء قيل بوضوح: ماكانت عائلة فلسطينية لتجهر بالصوت، بل ربّما كان لكلّ واحدة منها ممثّلها لدى كلٍّ من المعسكرَين: لدى العثمانيّين كما لدى الأنغلو–فرنسيّين.

هذا الانقسام الأرعن منذ ١٩١٤.

ثمّ وجدت العائلات التي كانت، بمنتهى انعدام الحيطة، قد اختارت المعسكر الانجليزيّ، ومنها عائلة الأمير فيصل، وجدت نفسها مجبرة على الانقلاب على الانجليز عندما علمت بتحويل الموطن اليهوديّ القوميّ الى دولة.

وخلا بعض الأثرياء السوريّين واللبنانيّين – آل سرسق مثلاً – وذريّة الأمير عبد القادر العجيبة، فإنّ جميع العائلات الفلسطينية المعدودة بصورة وراثية من كبار الأسَر فرضت نفسها في الصفوف الأولى من فلسطين، مقاتلةً في أوان بذاته كلاًّ من الانجليز وإسرائيل، أي في طليعة الوطن بالضرورة.

تعدّ عائلة الحسينيّ، أي أبناء مفتي القدس الكبير وأحفاده وأبناء إخوته وأحفادهم (٢٩) الكثير من الشهداء من أجل القضية الفلسطينية بين أبنائها. (ولئن كنت أستخدم بعض المفردات، كمفردة «الشهيد»، فأنا لاآخذ بنظر الاعتبار قطّ هالة النبالة التي يتباهى بها الفلسطينيّون. بابتعادٍ مازحٍ نوعاًما، أقبل هنا وهناك ببعض مفردات معجمهم. وساعود الى هذه الاختيارات.)

روتْ عليٌّ [والدة ليلى]، السيّدة شهيد (ولاتخفى دلالة الاسم الأخير)، التي ولدت في عائلة الحسينيّ، فهي ابنة أخي مفتي فلسطين، روت عليٌّ، بافتخارٍ كما يبدولي، اختيارَ خديوي القسطنطينيّة:

ـ كان ثمّة من الفوضى في الخليط المسيحيّ الشاسع حول «الضريح المقدّس»، ومن المشاجرات المُرائية، المبتذلة والحسابيّة (مَنْ يُحيي العدد الأكبر من القدّاسات في الكنيسة، ومن يشغلها وقتاً أطول: الكاثوليك الروم أم الأرثدوكس الروس، اليونانيّون أم المارونيّون، غزيرو الشعور أم مكلّلو الشعر، وبحسب أية شعيرة؟ من المطارنة الفرنسيين إلى الطليان فالألمان والاسبان والاقباط، والكهنة اليونانيين والروس، كلّ واحدٍ يريد الوعظ بلغته)، بحيث قرّرت السلطات الخديويّة أن تحتفظ عائلتان أو ثلاث عائلات مسلمة، في أراضيها في القدس، بمفاتيح «الضريح المقدّس» وكنيسة «الصعود». والى الآن أتذكّر صخب العربة على البلاط وهي تعود بأبي حاملاً مفتاح ضريح المسيح وفرح أمّي لرؤية زوجها يرجع سالماً.

بقيت «العائلات الكبرى» حاضرة في النضال. ولئن كان جميع أعضائها معروفين ومعترفاً بهم، فهم لم يخلصوا للقضية بالقدر ذاته، بل لقد استخدمها بعضهم، مبتعدين عنها ومقتربين منها بحسب المصالح. وتضم عائلة الحسينيّ الكثير من الأبطال، وكذلك عائلة النشاشيبيّ، منافستها منذ العهد العثمانيّ مع ذلك.

وماكان ممثّلو العائلات الكبرى ليوفّر بعضهم البعض، بل كان من ضمن امتيازاتهم أن يرووا صدقاً أو خطلاً مايضرّ بخصومهم، نظرائهم. وإن شيئاً ليصعب عليّ فهمه: الشتائم المتبادلة بين الفدائيّين. هل معرفتي الرديئة للعربيّة هي السبب؟ ومع ذلك فقد سمعت شتائم تطال القادة العسكريين. فماكان المقاتلون ليخفوا قلّة تقديرهم لهم. كانوا يحدّثونني عن

القادة باحتقار، لكن لاعن نظرائهم أبداً. أرى في هذا التفصيل الصغير ميزاناً بالغ الرهافة: الوزن معطى بدقّة من دون أن يُقال.

كما كان الفدائيّون يجهلون نفثات السّحر التي كانت جميع هذه العائلات الكبرى، جيلاً عن جيل، تضيفها لتزيين الملحمة الاسلامية. لاأحد كان في مقدوره أن يسرد عليّ هذه الحكاية التي أدين بها للسيّدة شهيد:

«عندما دخل [الخليفة عمر] (٣٠) القدسَ، قرّر قبل القيام بايّ شعيرة أخرى أن يصلّي. وماكان في القدس بَعدُ من محلّ عبادة إسلاميّ. فاقترح السكان عليه أن يصلّي في كنيسة. فرفض قائلاً مامعناه: لوفعلتُ، فإنّ واحداً ممّن سيعقبونني سيرى في فعلي تعلّة للاستيلاء على هذه الكنيسة مادامَ قد صُلّيَ فيها لإله المسلمين. ثمّ صلّى في الخارج. في المكان الذي أقام فيه المسلمون منذ ذلك اليوم مسجد قبّة الصخرة.»

حكاية عربية تعادل، بدقّتها، أسطورة القدّيس الفرنسيّ لويس الذي كان يَقضي (من القضاء) تحت شجرة بلّوطٍ، مُباركاً الثمار.

بمساعدة حكاياتها المتقنة، كانت السيّدة شهيد، هيَ الفلسطينية، تُعمّق أسطورة إسلام متسامح، في الأوان نفسه الذي تعنى فيه، كما يُعنى بالقبور في المدافن الانجليزية، بالسمعة المتناقلة من عصرٍ الى آخر لـ[خليفة] إن كان عاش قبل ألف وخمسمائة سنة، فهو ربّما كان في عائلتها، مباشرةً أو بالتصاهر. وكان الفدائيون يجهلون مثل هذه الحكايات.

كان تنصيب فيصل ملكاً للعرب هو وعد لورنس الذي لم تفِ به إنجلترا. نالت فرنسا، التي انتدبتها «عصبة الأمم»، لبنان وسوريا، في حين كان من حصة إنجلترا فلسطين والعراق وشرقيّ الأردن. فتحوّل تنافس العائلات الكبرى إلى وطنيّة. ولّما أصبح كبار رجالاتها قادة حربيّين، صارت إنجلترا وفرنسا تدعوهم قادة عصابات، ونحو ١٩٣٣ خدماً لهتلر في الشرق الأوسط. كانت المقاومة الفلسطينية تولد.

ذاتَ يومٍ، قال لي بوّاب فندقٍ كنتُ احادثه إنّه ينتظر ردّ كندا، حيث كان يأمل أن يُشغّل في فندقٍ ضخمٍ، «بدلَ البقاء هنا بلا مستقبل». وهي اللحظة التي مرّ فيها وراءه خادم عجوز، محنيّ، مكسور، مكتئب، سرعان مااختفى من مكتب الاستقبال.

ـ هوذا مستقبلي إذاما بقيت. ستّون عاماً من الخدمة، قال لي بازدراء.

ـ بلا يوم تمرّدٍ واحد.

فأجاب، مسعوراً، وراحة يده تدقّ على أكاجة المكتب:

ـ نعم أيها السيّد، وتماماً، ستّون عاماً من الخدمة بلا يوم تمرّدٍ واحد. ولذا فأنا مستعدّ للذهاب الى أيّ مكان.

كان المسؤولون السياسيّون والعسكريّون لجيش تحرير فلسطين ومنظمة التحرير الفلسطينية، وسياسيّو جميع الأمم المستعدّون لملاقاة عرفات، والصحفيون الذين هم بقدرٍ أو بآخر أصدقاء المقاومة أو المقبولون من لدنها، وبعض الكتّاب الألمان المتعاطفين وإيّاها، هؤلاء جميعاً كانوا زبانية فندق ستراند ببيروت. وكان من الممكن أن تشرب في صالونات الفندق كأس ويسكي أو اثنين مع حرّاس قدّومي. كانت [علياء] الصلح دخلت للتوّ، يستقبلها مدير الفندق. قبل أن تصل الى مقعدها، جعلت حماة الأمير المغربيّ عبد الله معطف فرو الفيزون الأبيض المبطّن بالحرير الأبيض والهابط حتى قدميها ينسرح طوال جسدها. لقد انزلق وشكّل لها، طوال ثانيةٍ، قاعدة من الفرو قفزت هي عليها. فالتقط أحد الندُل المعطف وحمله على ذراعيه المبسوطتين حتى مشجب الثياب.

كنت في الثامنة عشرة عندما أروني، هنا في بيروت، في «ساحة المدافع»، المشنوقين الأربعة (قيل لي إنّهم «لصوص» ولكنّني أحسب اليوم أنّهم كانوا دروزاً متمردين)، وكانوا مايزالون معلّقين؛ بسرعة أعين زبانية فندق ستراند، فتّشت عيني عن موضع أزرار سراويل المشنوقين وعثرت عليه. في الستراند بحثت الأعين أولاً عن الإليتين الشهيرتين لـ[علياء] هذه المعروفة بكونها فاتنة وحمقاء، ثم ارتقت الى الفم واللسان المعروفين بكونهما ذربَين.

ـ لقد انسجمنا على الفور. كنت، قبل أسبوع، مع معمّر في طرابلس.

كان الضباط الفلسطينيون يصغون إليها بتأثّر واضح ـ ماكانوا يخمّنون أنّ منظمة التحرير الفلسطينية ستُمنَع في ليبيا بعد عشر سنوات وتُغلَق مكاتبها في طرابلس الغرب ـ، وكان إصغاؤهم من الرصانة بحيث أنّ صوتها، في هذه التصريحات التي كانت تريدها همساً موجّهاً للبعض في سكون كاتدرائية، قد ارتفع حتى بلغَ احتفالية درسٍ في «الكوليج دوفرانس». درس منقّط بقهقهات آتية من الحلق لتذكير كلّ واحدٍ بالتحديق بالعنق المزنّر ثلاثاً بعقد ڤينوس، والذي كان ذلك الضحك ينبثق منه، ضحك يأمل أن يكون لؤلؤياً ولكنّه يرنّ بغلظة عندما يتهجّى الاسم الشخصيّ للقذّافيّ، «معمّر».

لاأحد كان يقدر على محاورتها. وحده تجرأ على ذلك المذياع الذي كان يعلّق بلا شعورٍ بالضيق على المجازر المتكررة على ضفاف الأردن وهرب الفدائيين المستَقبَلين برقّة من قبل الجنود الاسرائيليين.

لم تُمسّ الإليتان، ولا الحلق ولاالعنق ولاالفم. افهم اليوم، وهذا ماكنتُ بالأمس أتساءل عنه، أن ينتعظ فدائيّ أمام هذا الجمال الذي هو ثمرة العناية التجميلية والتدليكات والصفعات المضادّة للسيلوليت ومساحيق الهندب وخثيرة النحل والخثيرة المدعوّة بالملكيّة والتحسينات التي يشرف عليها اختصاصيون كيمياويّون صلفون. وإنّ اللهف الذي أبداه الفدائيون ذلك المساء قد فتح عينَي. لم يكن التكريم موجّهاً للشيطانة ذات العجيزة محلولة البراغي بحركتها الدائمة، وإنّما للحكاية التي كانت هي آتية بها الى فندق ستراند المبنيّ من الكونكريت المسلّح. في فندق ستراند كان يلتقي مسؤولو منظمة التحرير الفلسطينيّة، وبينهم كمال عدوان وكمال ناصر وابو يوسف النجّار، الذين ساروي مصرَعهم على أيدي إسرائيليين يحاكون لواطيّين، وربّما كان هذا الاغتيال هو الردّ على عملية ميونيخ في أثناء دورة الألعاب الأولمبية في ١٩٧١.

« فيردان(٣١)، مركّب أُحسِنَ تنظيمه. (لم أقل إنّها خليط من الصلبان والأهلّة يشكّل مقبرة واسعة.) وقعت هناك مَقتلة، من دون منفّذ آخر سوى اللّه نفسه، وكان سينيغاليّون وملغاش وتونسيّون ومغاربة وموريسيّون وكالدونيّون وكورسيكيّون وبيكارديّون وتكونكينيّون وريونيونيّون يجابهون في ارتطامات قاتلة مرتزقةً بوميرانيّين وبروسيّين، وويستفاليّين وبلغاراً وتركاً وصرباً وكرواتيين وتوغوليّين؛ لقد التُهم آلاف الفلاحين في الوحل، جاؤوا من كلّ حدبٍ وصوبٍ ليموتوا هناك. يهبون الموت بقدرما يتلقّونه. وذلك إلى هذا الحدّ، وبهذه الكثرة بحيث أنّ شعراء عديدين – ووحدهم الشعراء ينطرح عليهم السؤال – فكّروا بهذا الموقع ككتلة مغنطيّة تجتذب الرجال، الجنود الدوليين، والقوميّين، والاقليميين، وتجبرهم على المجيء للموت هنا، كتلة مغنطية تشير الى نجمة قطبية أخرى، ترمز إليها امرأة أخرى، عذراء أخرى.

«لقد هبطت قبورنا الفلسطينية من الطائرات على العالم اجمع، ولمّا كنّا نموت في أيّ مكان كان، فما من مقبرة أثريّة لتهبها إمضاءها. إنطلق موتانا من نقطة واحدة من الشعب العربيّ ليشكّلوا قارةً مثاليّة. لو لم تنزل فلسطين من الامبراطورية السماوية على الأرض أبداً، أفكنّا سنبدو أقلّ حقيقيّة؟»

هكذا كان فدائيّ يغنّي بالعربية.

« كانت ضربة سوط الانتهاكات ماسّة. أولاء نحن أمّة سماوية على شفا التلف، وأحياناً على أهبة الهبوط، مع الوزن السياسيّ لامارة موناكو. » يردّ بالعربية فدائيّ آخر.

«أن نضع، نحن أبناء الفلاحين، مقابرنا في السماء، وأن نؤكّد على حركيّتنا الحالية، ونبني امبراطورية غير ماديّة أحد قطبيها بانكوك والآخر لشبونة، العاصمة هنا، وهنا وهناك جنينة من الورد الاصطناعيّ معارة من البحرين أو الكويت، وأن نُرهب الكون، ونجبر المطارات على أن تقيم لنا أقواس نصرٍ لها رنين أجراس أبواب حوانيت البقالة، فهو أن نحقّق مايحلم به مدخّنو الماريجوانا بحقّ. لكنْ أيّة سلالة "لم تُقمْ حكمها الألفيّ على وثيقة زائفة؟" ».

يقول فدائيّ ثالث.

في كلّ مكانٍ كان «الأوبون»، الميت اليابانيّ غير الموجود، ولعب الورق بلا ورق.

أصيل تحت الأشجار.

ـ نلتفّ أكثر بقليلٍ في أغطيتنا. ننام. غداً نستيقظ نسخةً من العالَم اليهوديّ. سنكون أنشأنا إلهاً فلسطينياً ـ لاعربيّاً ـ، وخلقنا آدمَ وحوّاءَ، وهابيلَ وقايينَ، فلسطينيّين...

ـ اين أنتَ من عبارتك؟

ـ نسخة.

ـ مع اللّه، والكتاب، وتهديم المعبد والبقيّة؟

ـ نيو–إسرائيل إنّما في رومانيا. سنحتلّ رومانيا والنبراسكا ونتكلّم هناك الفلسطينية.

ـ كم من العذب، وقد كنتَ عبداً، أن تكون شَكِساً. أن تكون فلسطينياً وتصبح نمراً.

ـ عبيد، وسنكون لدى الاستيقاظ سادة مرعبين؟

ـ عمّا قريب. في ألفَي سنة. «لونسيتُكِ ياقُدس»...

كان الفدائيان يبعث أحدهما للآخَر، بين طرَفي المعسكر، بهذه الغمزات. ماكانا ليكفّا عن الابتسام، ولاعن تمليس شاربيهما بالابهام، بالسبابة أو باللسان، والكشف عن جميع أسنانهما، وإشعال أحدهما سيجارة الآخر. تقديم الشعلة، مدّ الولاّعة مشتعلةً، وقاية الشعلة براحة اليد، تقريبها من الطرف الواجب إشعاله، إطفاء النار خطأً، فرْك حجر الولاّعة ثانيةً، إنّ فوضى هذه الايماءات كلّها لهيَ أثمن من الهبة البخيلة لسيجارة فيما يجعل أمراء الخليج ملايين علب السجائر تمطر. هذه الايماءات البسيطة والصعبة تعرب عن رفقٍ أو صداقة حقيقية، تصرّح بهما ابتسامة، إعارة مشطٍ، مساعدة في تصفيف الشعر، نظرة بسيطة الى مرآة صغيرة. لكنّ الحضرة كانت من الحضور، بل من الوقاحة بحيث حدثَ لي أن آسفَ على رائحة حساء «ڤياندوكس» ساخن.

عندما أعيد قراءة هذا الكتاب، الاحظ إشارات كثيرة الى الأشجار. ذلك أنّها بعيدة. رأيتها قبل خمس عشرة سنة، ولعلّها الآن مقطوعة. حتى في الشتاء، عندما كانت الأوراق تصفرّ، فهي ماكانت لتسقط. أتحدّثُ هذه العجيبة في مكان آخر؟ أكانت عجيبة؟ لئن تذكّرتُ الأشجار فلتعلموا أنّ السعادة والسلام المسلّح كانا يتجوّلان هناك. سلام مسلّح، لأنه كان ثمة أسلحة، وكانت القذيفة في فوهة المدفع، ولكنه سلام لا أتذكر أنّني أحسستُ في مكان آخر بسلام أعمق منه. كانت الحرب تحيط بنا من كلّ جانب: اسرائيل ساهرة، مسلّحة هي أيضاً، والجيش الأردنيّ يمارس تهديده، وكلّ فدائيّ يقوم، بدقة، بما هو منذور للقيام به، وكانت كلّ رغبة ملغاة من قبلِ هذه الحرية القويّة: بنادق، رشاشات كاتيوشا، نَعَمْ، جميع هذه الأسلحة، مع أهدافها، لكنْ تحت الأشجار المذهّبة، كان السلام. الحال، هذه الأشجار تعود الآن: لم أتحدّث كفايةً عن هشاشتها. كان كلّ شيء غابةً، شجراً ذا أوراق صفراء مشدودة الى الأغصان بسويقات جدّ نحيفة وحقيقية. ومع ذلك فقد كانت غابة عجلون من الهشاشة بحيث بدت لي كمثّل هذه الصقالات الموجّهة للاختفاء بعد اكتمال المبنى. كانت غابة غير مادية، بل بالأحرى مخططاً لغابة، غابة مرتجلة بما تيسّر من الأوراق، لكنْ كان يتحرك فيها محاربون هم من الجَمال بحيث يحملون معهم السلام. بما أنهم ماتوا جميعاً. أو أعتُقلوا أو عُذّبوا.

كانت مجموعة فرَج، المؤلفة من حوالى عشرين فدائياً، مخيّمة في الغابة بعيداً عن

طريق الاسفلت بين جرش وعجلون. وجدناه انا وأبوعمر جالساً على العشب المحفوف. كان أبو هاني عقيداً يقود كامل القطاع، أي مجالاً يمتدّ على حوالى ستين كيلومتراً من حيث الطول وأربعين من العرض، يحيط نهر الأردن بجانبين منه، والحدود السورية بجانب ثالث؛ وأوّل مايقوله العقيد لزائريه النادرين هو: رتبته. أتذكّره كمثّلٍ حامل للشارات ذي أطراف قصيرة، يحمل عصا قصيرة ونجوماً على الكتفين، وجهه مفرط الحمرة، غاضب أكثر منه آمراً، لكن اقرب مايكون الى الحماقة. تُذكّر بورتريهات الملك الفرنسيّ شارل العاشر بتقاطيعه، لكن لابقامته. وكان لفرج ثلاث وعشرون سنة. وبسرعةٍ اتخذت محادثتنا المسار الذي يودّه هو.

ـ أأنتَ ماركسيّ؟

لمّا كنت فوجئتُ، ولعدم تعليقي أهمية كبيرة لا على السؤال ولاعلىٰ الجواب، قلتُ له:

ـ نعم.

ـ لمَ؟

أبديتُ عدم الاكتراث ذاته. بَدت لي فتوّة وجه فرَج بريئة، بلا مكرٍ وبلا فخاخ، باسمة إنّما مترقّبة لإجابتي، التي تمهّلت في النطق بها الى حدّما، وبلاورويّةٍ قلتُ:

ـ ربّما لأنّني لاأؤمن باللّه.

كان أبو عمر يترجم فورياً وبدقّة. وثب العقيد، أقصد أنّه، وهو الجالس مثلنا جميعاً على الطحلب أو العشب الأصهب، نهضَ كمن يقفز وصرخ:

ـ كفى! (كان يخاطبنا انا والفدائيين). في مقدوركم هنا أن تتكلموا عن كلّ شيء. عن كلّ شيء. لكن لا أن تضعوا وجود اللّه تحت طائلة السؤال. لاتجديف مباح. ولن يهبنا الغرب بعد الآن درساً.

راحَ أبو عمر، بالاسترخاء نفسه وهو المسيحيّ والمؤمن، يترجم بهدوء إنّما بضيق. من دون أن يرفع ناظريه صوب العقيد فرج الذي كان يحدّق بي، ومن دون أن يرفع صوته، أجاب، في ضربٍ من السخرية الممزوجة كما أعتقد بالرقّة، بالطريقة التي أحسب أنّه يُخاطَب بها المجانين غير الخطيرين:

ـ لك مطلق الحريّة في عدم الاستماع إليه. وسيكون هذا سهلاً عليك. مقرّكَ هناك، على بُعد كيلومترين. ستدركه بربع ساعة، لومشيت على مهل. ولن تعود تسمع شيئاً. أمّا نحن، فسنحتفظ بالفرنسيّ حتى الخامسة صباحاً. سنصغي إليه، ونردّ عليه. سيكون حرّاً في

إجاباته، ونحن أحراراً في أسئلتنا.

وإذن، فسيعطونني هذه الليلة شهادة انتسابي أو يمنعونها عليّ.

إنصرف أبو هاني بعدما ذكّر بأنّ عليهم أن يقدّموا له تقريراً عمّا سأقول هذه الليلة.

ـ أنا مسؤول عن الانضباط في المخيّم.

في الصباح التالي، عادَ الى قاعدة فرَج. صافحَني. وكان يزعم أنّه يعرف ماقيل.

دامت سهرتنا في خيمة تعلوها الأشجار حتى هزيع متأخر من الليل. طرحَ عليّ كلّ فدائيّ أسئلة فيما يحضّر الشاي أو القهوة أو حجّته.

ـ عليكم أنتم أن تكلّموني. أن تقولوا مثلاً ماتقصدونه بالثورة، وماتعملون لإنجاحها.

ربّما كانت حمّستْهم الساعة الزاحفة نحو الصباح، وطقس كان يزداد إبهاماً، هذا الطقس الذي هو خارج كلّ مكان والذي يُسْكِر، يشوّش عقارب ساعات الذاكرة ويبدو وهو يدَع كامل الحرية للكلام. هكذا، في المدن، عندما يكون بارٌ موشكاً على إغلاق أبوابه، تسمع فجأةً وبدقّةٍ صخبَ أجهزة المراهنة، ويحيلنا شيءما فينا مرهفي السمع وعلى أقصى مانكون من الصحو، فنودّ مواصلة النقاش الذي يُستَعاد في الخارج لأنّ ندُل البار يشعرون بالنعاس. سمعنا نباح بنات آوى وراء جدراننا التي هي من الجوخ. وفي المكان الذي كان قد أصبحَ خارج الزمن والمكان، ربّما بباعثٍ من تعبنا، راح الفدائيون، مدفوعين بلباقتهم الفتيّة التي بدوا وهم يستعذبونها، يواصلون الكلام وأبو عمر يترجم:

ـ مادامت «فتح» بداية ثورة وليس بداية حرب تحريرٍ فحسب، فسنستخدم بدايات العنف هذه للتحرّر من أصحاب الامتيازات، وأوّلاً من حسين، ومن البدو والشركس.

ـ لكن كيف ستقومون بذلك؟

ـ النفط للشعوب لا للأمراء.

أتذكر جيّداً هذه العبارة، لأنّني كنتُ أفكّر، بسذاجةٍ أكثر ممّا عن التواء، وبمزيج من القناعة واللعب، بأنّ الشعب الأفقر ربّما كان، إذْ يمعن في الفقر، محتاجاً الى أن يحتفظ أعلى منه بأمراء جدّ مشحمين، مستقصياً الشحم غير المرئيّ وغضارة الجنائن، لأنّ بعض الفقراء يدّخرون من أجل عيد الميلاد، ويهدرون أموالهم من أجله، فيما يدّخر آخرون أكثر فقراً ليربّوا نبتة كثيفة. ثمة شعوب تدَع القمل يفترسها في الليل، والهوام في النهار، ليُسمّنوا قطعان

ملوكٍ وَرِعين. ولمّا كانت فكرتي مفرطة الازعاج هذه الليلة، فلم أفصح عنها. كان دخان تبغ الجزيرة العربية يخرج من أفواهنا ومناخرنا.

ـ ينبغي أن نتخلص من المملكة ومن أمريكا، ومن إسرائيل والاسلام.

ـ لكن لمَ الاسلام؟

كنتُ، منذ وصولنا، قد لاحظت اللحية السوداء والنظرة اللاهبة، الشعر الأسود اللمّاع والبشرة الداكنة، وكان السكوت يبدو بالغ الحدّة سيّما وأنّه انقطع منذ وهلة. كان سؤاله هو: «لكن لمَ الاسلام؟» وبصوتٍ رقيق، حازم إنّما شبه شفّاف بجلائه:

ـ لماذا التخلص من الاسلام؟ عجباً! التخلص من الله؟

كان يخاطبني بخاصّة. وواصل:

ـ لستَ هنا في بلد عربيّ فحسب، لستَ فحسبُ في الأردن، ولاعلى ضفاف نهر الأردن، بل في صحبة الفدائيين، وعليه فأنتَ صديق. لدى وصولك ـ يبتسم ـ، لدى وصولك ـ أنتَ آتٍ من فرنسا وأنا من سوريا ـ، لدى وصولك، قلتَ لنا إنّك لاتؤمن باللّه، لكنّني أعتقد أنّك لولم تكن تؤمن باللّه لماأتيتَ.

واصلَ الابتسام.

ـ أنا أريد ان أكون مسلماً صحيحاً. ولووافقتَ، فسنتجادل نحن الاثنين، امام الجميع. أأنت موافق؟

ـ نعم.

ـ إذن، انهضْ، إقطعْ نصف الدرب وأنا النصفَ الآخر. سيُعانق أحدنا الآخر. ولْتَدُمِ الصداقة قبل الجدال وبعده، لكنّ الصداقة تسبق الجدال. بُعثتُ قبل سنة الى الصين طوال ثلاثة أشهر. وماأحتفظتُ به من أفكار ماو هو التالي: قبْلَ الجدال، الصداقةُ وبرهانها: قبلتان على الخدّين.

كان يتكلّم بيُسر. ولئن كان أجفله موقف بمثل شدّة الفرديّة هذه، فقد كنّا نشعر بأنّه يتكلّم انطلاقاً من يقين، وكانت الألوهة أمامه تفرض ذلك. كان الصمت مطبقاً بين الفدائيين عندما نهضنا ليُعانق أحدنا الآخر في مركز الخيمة ونعود الى مكانَينا. واستُانِفَ الجدال على وتيرة: «ينبغي، مع كلّ شيء، استثمار النفط.»

بلا شكّ. وسيعنى خبير أو أكثر بالهيدروكاربورات. لكن في هذا الصباح كان يبدو للفدائيين أنّ نفط العربية السعودية محتوى في بئر واحدة لاغور لها، بئر للدانايدات (٣٢)، بئر شبيهة بصندوق الانجليز المليء بقطع الذهب والذي لم يُفرَغ أبداً بالرغم من الجيوب الملأى والأكياس والعلَب وخروج [جمع « خرْج »] أحصنة الضباط العرب-الأتراك. تكلّم السوريّ أبو جمال:

- لولم يكن اللّه موجوداً، لماكنتَ هنا. كان العالَم سيخلق نفسه بنفسه، فيكون العالَم هو اللّه. ولكانَ العالَم طيّباً. كلاّ، ليس العالَم اللّه. إنّه ناقص، واللّه ليس كذلك.

ترجم أبو عمر الى الفرنسية. وبنوعٍ من الوقاحة، إنّما بتعب، وبالتالي ثملاً من التعب، أجبتُ:

- إذا كان اللّه هو خالق العالم، فإنّه قد خلقه في حالة سيئة، وهذا مايعني الشيء ذاته. واللّه هو سبب حالة العالم هذه.

- نحن هنا للاتيان بعلاجات. ونحن أحرار في علاجاتنا وفي بؤسنا.

كنتُ أميّز من قبلُ أنّ الأرض مسطّحة و« اللّورين » ماتزال تُدعى « لوترينغن » وتعود الى « لوتيريا ». أأستنجد بالقديس توما الاكوينيّ؟ واصلنا أنا وأبو جمال الجدال من دون أن يخمّن أيٌّ منّا أنّه سيقود لامحالةَ الى الزندقة، لكنّ ماكان يبدو لي أكثر تثميناً لم يكن حجة بدلَ أخرى، وإنّما ضرب من اللطف والحسم، نعم، هذا وليس المناظرة نفسها التي بدت لي طالعةً من اسكولائية فقيرة للدم، لطف وقناعة-معارَضة يساهم فيهما الحاضرون. كنّا في الواقع أحراراً، إنّما في قول أيّ شيء كان. ومع أنّنا لم نكن سكارى تماماً، فقد أمعنّا في التحليق، عارفين بأنّ أبا هاني كان على مسافة كيلومترين، وحيداً ربّما، يجرع غفوةً بعد غفوة.

قطعتُ، بصورة شبه مباغتة، عبارةً لفرَج لأخاطب أبا جمال:

- إذا كنتَ شئتَ، بل لعلّكَ فرضتَ، أن تبدأ المجادلة واضعاً إياها تحتَ إمْرة اللّه، فإنّك كمن يقطع قدميّ، فأنا لاأرجع الى شخصٍ بمثل هذه الفخامة. وهو من الفخامة سيّما وأنّك حرّ في تفخيم كافّة أبعاده. وإذا كنتَ شئتَ، ولعلّكَ فرضتَ أن تضع المجادلة تحت عنوان الصداقة، فلأنّك، وأنت المسلم، أكثر ثقةً بالصداقة ممّا باللّه. لأنّنا هنا مسلّحون، ملحد بين مؤمنين، ملحد ومع ذلك فهو صديقكم.

ـ من يَهب الصداقة إن لم يكن اللّه؟ لي ولكَ، ولنا جميعاً في هذا الصباح. أكنتَ ستُصبح صديقاً لولم يُحلّ اللّه فيك الصداقة نحوَنا، وفينا نحن الصداقة نحوَك؟

ـ ولمَ لايُحلّها في إسرائيل

ـ يقدر أن يُحلّها فيها متى شاء. واعتقد انّ سيشاء ذلك.

بيدَ أنّنا رحنا نتحدّث كلاً في دوره عن إمكانات ريّ الصحراء.

ـ وعليه، فينبغي التخلص من الأمراء، وهم يمتلكون الصحراء. ودراسة العلوم الهيدرولية (المائيّة). المزعج هو انّ أمراءنا ينحدرون من سلالة النبيّ، قال فرَج.

ـ سنُريهم أنّهم مثلنا من ذريّة آدم.

هذا ماقاله أبو جمال. ثمّ، متوجّهاً إليّ:

ـ إذا ماتوجّه لكَ بالتهديد جنديّ أردنيّ، اي مسلم، فسأقتله.

ـ سأحاول القيام بالمثْل إذاما هدّدكَ.

ـ وإذا ماقتلكَ فسأنتقم لك بان أقتله، أضاف ضاحكاً.

ـ لاشكّ أنّ من الصعب البقاء مسلماً. أنا أحترمك لأنّ لديك إيماناً.

ـ أشكرك.

ـ اشكرْني لأنّني أعرف الاستغناء عنه.

كان من الصعب عليه أن يغامر بذلك. تردّد، ثمّ في النهاية لم يفعل.

ـ أرجو اللّه أن يُعيد لك الايمان.

ضحكنا عالياً، جميع مَن كنّا في الخيمة، حتى أبو عمر وابو جمال. كانت الساعة حوالى الرابعة صباحاً.

كانت هذه الجلسة ولاشكّ مسحورةً بهذا الحضور في الليل لشبيبة تشرب الشاي وعصير البرتقال، وتسمع وتُعلّم كهلاً فرنسياً طُرِحَ فجاةً تحت أغصان شتاءٍ كان قد بدأ بأيلول

الأسود، وسطَ إرهابيين ضاحكين بلا كلبيّة، ساخرين وقادرين على استحداث لقايا لفظية، فاسقين نوعاًما ولكن بوقار تلامذة يسوعيّين في سنّ السابعة عشرة، إرهابيّين كان اسمهم يُرجِف صفحاتِ الجرائد كأوراق الأشجار. كانت مآثرهم على الأرض وفي قلب السماء تُروى بذعرٍ وقرفٍ، قرفٍ مُحاكى بجودة على الوجه وفي الكلمات. ماكان الإدلاء ببعض العموميّات الأخلاقية بخصوصهم ليُقلقهم قطّ. تلكَ الليلة، من المساء الى الفجر...

منذ وصولي الى عجلون، كان الوقت يشهد تحوّلاً غريباً. كلّ هنيهة صارت «نفيسة»: إنّما نفيسة حتّى لتغدو على هذه الدرجة من الألق بحيث ينبغي التقاط شظاياها: بعدَ زمن القطاف، جاء قطاف الزمن.

أفلحتُ مع ذلك في إدهاشهم بابتلاع ثماني «كبسولات» من منوّم «النمبوتال». كان نومي هانئاً في ملجأ مُقامٍ عميقاً في الأرض، تحت الخيمة بالذات. كان السود الأمريكان بين «الفهود السود» قد نالوا تعاطفي، لكنّ دخولي الولايات المتحدة كان بالغ الطرافة بعدما منعَ عنّيَ القنصل الأمريكيّ في باريس تأشيرة الدخول، بيدَ إنّ وضعي كان أكثر طرافةً هنا، حيث رحتُ أنام بهدوءٍ في حضن هذه المساواة الفطرية، المكتسبة والمنفّذة بفطرية: أبداً لم يبدُ لي الحدث جليلاً، ولامضحكاً ولاكالحاً أو بطولياً، إذْ كان في مقدور الفدائيين الرقيقين هؤلاء أن يخيّموا في «شان-دو-مارس» بباريس وأن نتطلّع نحن إليهم عبر المنظار من بعيد، خوفاً من البلل لأنّهم كانوا يبولون عالياً وإلى بعيد. وقُبيل أن أتمدّد على الأغطية التي أروني إياها في الملجا، كانت أعناق الارهابيين الخمسة عشر أو العشرين مشرئبة في اتجاه العلبة، وكانوا مفتونين بعدد «كبسولات النمبوتال» (ثماني) وبالهدوء السائد على محيّاي، ينظرون الى تفاحة آدم وهي تتحرك في بلعومي فيما أبتلع السمّ. رأيت على وجوههم من الاندهاش، وربّما من الاعجاب، ماجعلني أعتقد أنّهم كانوا يفكرون بماياتي:

-ربّما كان ابتلاعٍ مثل هذه الجرعة من دون خشيةٍ مرئيّةٍ أمارةً عن الشجاعة الفرنسية. إنّنا نؤوي هذه الليلة بطلاً.

تعود إلى خاطري تلك الساعات المقضاة في الجدال، والشجارات الوديّة، وتلك الليالي الطويلة من التعب الأحمق والترويضات المتبادلة: رطانة غير ذات قوامٍ أعيد ابتكارها فيما أكتبها.

لكلّ مسجدٍ، مهما كان من صغره، نافورته، شبكة رفيعة من الماء، بركة أو فسقيّة محاطة بجدران واقية، للوضوء الشعائريّ. وفي الغابة، كان الفدائيّ التقيّ، ابن ست عشرة سنة أو تسع عشرة، يُهيىء، لحلق شعر عانته مثلما للصلاة، بمعونة اغصان مورقةٍ وسطلٍ للماء، نهرَ «غانج» مصغّراً أو مدينة «ڤاراناسي» بالغة الصغر وفرديّة في أسفل شجرة تينٍ أو زانٍ أو بَهْشٍ، شطفاً حقيقياً يُطهّره. كانت الهند قد أعيد بناؤها بهذه الجودة بحيثُ كنتُ، لدى المرور قربَ مكان الصلاة هذا، أسمع من فم المسلم، القائم ويداه كالصدَفة قدّامَه، همسةَ: «أوم ماني پاد مي أوم» (٣٣). كانت الغابة المُسلمة ماهولةً ببوذيّين قِيام.

إلاّ إذا:

حيثما سال أو تكوّمَ شيءٌ من الماء كان ذلك نبعاً، وأمامه قائماً الليل الجانّ، وفي كلّ خطوةٍ يصطدم الاسلام هنا بالوثنية، ولو بأقلّ ممّا في المغرب. فحتى المعتقدات المسيحية هي هنا تجديفات بحقّ اللّه، الواحد الأحد كالمعصية أو الاسم، والوثنية تأتي بشيء من الليل للهاجرة، ومن الشمس للظلام، وببعضٍ من الطحلب، نداوة آتية في شُعَيراتٍ من نهر الأردن، متسبّبةً بالربو للجنّ الذي يسهر ويعطس مع عصاه في اليد. نداوة تخلّف اثرَ قدم إنسان.

لّما كان الفدائيون لم يملكوا شيئاً أبداً، ولم يعرفوا أبداً الترفَ الذي يريدون تطهير العالَم منه، فإنّهم تخيّلوه. و«فترات البطالة» [في حياة الفدائيّ] التي أشرتها إليها أعلاه هي ماأريد الكلام عنه وإخفاءه: أحلام اليقظة تلك، التي ينبغي التخلّص منها عندما لاتكون لنا القوة ولاالحظّ في عيشها. آنئذ نبتكر هذه اللعبة: الثورة، مادام التمرّد ينال هذا الاسم عندما يدوم ويكتسب بنية، وعندما يكفّ أن يكون نفياً شعِرياً ويطرح نفسه كتاكيد سياسيّ.

حتى يؤتي هذا الفعل الذهنيّ أُكُله فهو كان ينبغي أن يحدث، أشبه مايكون ببطانة الملابس الغربيّة، لكنّهم بدوا مستغنين عنه بالتدريج. كان ارتقاء الثروة والقوّة الذهنيّتين بصورة محضٍ في الذات يمكّن - ياللوهم! - من تهيئة الأسلحة التي تمكّننا من تدميرهما ماإن نلتقي الثراءَ والقوّة الفعليّين. وخَلا المخدّة المتزغّبة والمستهلَكة لعجوز عثمانية في غور دارٍ تركيّة

عتيقة، كان المخمل الأحمر ينقص في الأردن تماماً. ولقد الفى الفدائيون انفسهم مجبرين على ابتكار سلطان المخمل الأحمر ـ لمَ هذا النسيج بالذات وبهذا اللون؟ أثمة علاقة بينهما وبين السلطة؟ قد أقول أنْ نعم. فبذخ هذا الحُكم شبه المطلق، حُكم الملك-الشمس، يفرض المخمل الأحمر، ولقد تمّ تكريس الامبراطور الفرنسيّ الأوّل بالمخمل وبالأحمر ـ وكذلك الامبراطور الثاني. الأنسجة الأخرى أقلّ خنقاً، وألوانها تظلّ لطيفة. أمّا المخمل الأحمر! وماكان الحجر المقطوع والذي هو على قدرٍ من الرقّة، المبنيّة منه ڤيلاّت عمّان، وخصوصاً ڤيلاّت «جبل عمّان»، ليسحق المجموعات الفدائية بقدرما يثقل على النساء والشيوخ الباقين تحت جوخ المخيّمات. كنتُ ماإن أصل الى عمّان حتى أشرع بحياة إنسانٍ قُبِرَ حيّاً.

«إنّها لمشؤومة ومأساويّة. ثمّ إنّه ينبغي ان تكون مشؤومة حتى يظهر فيها مثْل هذا الشّعر: لاياتي إليها الاّ الفقراء» (القطرانيّ، متحدثاً عن حديقة التويلري بباريس في الليل.)

قراءة ماركس؟ طلبَ بعض الفدائيين ان أجلبَ، لدى إيابي من دمشق، مؤلفات ماركس، وبخاصّةٍ «رأس المال». كانوا يجهلون انّ ماركس قد كتبه مستقرّ العجيزة على وسائد من الحرير الورديّ، وأنّه كتبه بالتالي ليقارعَ رخاوة الحرير الورديّ والخبّازيّ والمَناضد والجرار والثريّات وأنسجة الصقليّات وصمت الخدم وامتلاء الصوانات من طراز «الريجنس». في الأردن كان لدينا العواميد، أفقية في الغالب، عواميد رومانية ساقطة، فمرفوعة، فساقطة من جديد، نقيض الترف مادامت هي التاريخ.

أولاء هم، في ترتيب تصاعديّ، من ربّما كانوا أعداء الفلسطينيين: البدو، والشركس، والملك حسين، والاقطاعيون العرب، والايمان الاسلاميّ، وإسرائيل، وأوربا، وأمريكا، و«البنك العالي» (Haute Banque). يعود قصب السبق الى الأردن، وبالتالي لجميع المتبقّين، من البدو الى «البنك العالي».

ذات ليلةٍ من كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٧٠، انعقد اجتماع في مغارة، أشرفَ عليه محجوب. الأخير مخاطباً الفدائيين:

ـ عليكم أن تراعوا وقف إطلاق النار. هذه العبارة، أقولها لكم رسمياً. هذا مفروغ منه. أنتم مقاتلون، فكونوا دهاة. شقيقاتكم وبنات أعمامكم متزوّجات من أردنيين. جدوا وسيلة للتقدّم الى التعداد ببندقية حمٍ أو ابن عمّ بالتصاهر. لم أجد سوى هذه الفكرة. كونوا أمكرَ منّي. لن تسمح حكومة حسين بعد الآن بالعلميات الخارجة من القواعد في اتجاه إسرائيل أو

القطاع (٣٤).

لم تُقبَل نصائح محجوب حقّاً. قدّم كلّ فدائيّ تعلّته، التعلّة نفسها دائماً: «ماقيمة محارب بلا سلاح؟» بل حتى: «مامعنى محاربٍ منزوع السلاح؟» ماالفارق بينه وبين رجلٍ عارٍ عديم الفحولة؟ لزمت ثلاث ساعات لجعْلهم يمتثلون بلاقناعة، في المغارة المضاءة بمصابيح الجيب وولأعات السجائر. ولاشكّ أنّني كنتُ، لدى الخروج من العَرين، الوحيدَ الذي استوقفه صفاء الليل، إلاّ إذا كان الفدائيون، أمام جمال السماء والأرض الموعودة، قد شعروا بجرحهم أمضى من ذي قبل.

كان على كلّ واحدٍ أن يُعيد سلاحه بعدَ يومين. كانت المخابيء مهيأة. وستكون البندقية، المفكوكة والمعتنى بدهنها، عتيقة إذا مااستُأنفت المعارك في زمن بعيد.

كان مجموع الفدائيين في الأردن مرخّصاً لهم، بحسب اتفاق، بالبقاء محتاطين، دائماً في رباعيّ الأضلاع هذا الذي تتشكل أضلاعه من نهر الأردن وطريق السلط–إربد والحدود السورية–الأردنية وطريق السلط–نهر الأردن. وفي المركز، تقريباً، عجلون.

كان هذا يحدث في داخلنا: كان عضوٌما مضطرباً ويشيع فينا الاضطراب، أو أنّنا كنّا نرى فجاةً العالَم أو نحسب رؤيته على نحوٍ أفضل. آنئذٍ كان محلٌّ، فارغٌ غالباً، بلاإنس، ولاحيوان، ولا حتى يسروع، بل شيء من الطحلب والحصى والأعشاب والنجيليّات المكسّرة بمسربٍ مائيٍّ، نعم، كان كلُّ شيء يمغنط فجاةً، وببالغ اللطف، كلُّ شيء، ويختلج المكان من دون أن يكون تحرّك قطّ. كان – أو هذا حادثٌ منذ زمنٍ بعيد – قد اكتسب طبيعةً إيروسيّة. كذلك كانت مروج عجلون. ماكانت لتنتظر سوى إشارة، لكن ممّن؟

من حرجٍ الى آخر، حيث كانت مجموعة فدائية قد خيّمت، كان الفدائيون، الصامتون، يمرّون حالمين في الغالب إنّما مسلّحين، وآخرون بلاأسلحة، يرصدون، يقظين، وامضين. هذا يحمل صندوق قنابل يدوية، وذاك ينظّف مسدّساً.

مهانة الهزيمة، مادامو عرفوا مجدَ إزعاج حسين وجَمْعه البدويّ؛ وكانوا اختطفوا الى الصحراء طائرات العال والخطوط السويسرية؛ وعلموا بموت العديد من الرفاق على يد العدوّ الاسرائيليّ المترصّد وراء نهر الأردنّ؛ وأدركوا الصمت المترع بالتهديد في القرى الأردنيّة وربّما كذلك مايفكرّ به الصغار والنساء المتروكون في المخيّمات؛ ولم يهضموا العار في أن يبصروا، من دون التجرؤ على صلْي العجلات بالرصاص، سيّارةَ الكاديلاك البيضاء الملبّسة بالكُرَوم،

المبطّنة بالجلد المحبّب الأحمر، منزوعة السقف، تجتاز المجال المقدّس، يقودها سائق بدويّ يعتمر كوفيّة حمراء وبيضاء، تمرّ زاعقةً وبأقصى سرعتها أمام الجند الذين صفّوا عرباتهم.

«أنا سائق الأمير جابر، جئت للتطمّن على ابن شقيق سكرتيرة مَعاليه»، واختلطت نهاية الجملة العربية بصخب العجلات تنزلق وزعيق مغيّر السرعة.

عن طريق عناصر الأمن التي كانت تتحشّد منذ منتصف الليل، حتى إذا كانت تفعل ذلك بتكتّم، عرفنا بوصول سفير الاتحاد السوڤياتيّ في القاهرة وزيارته لعرفات، في مكانٍ بقيَ سريّاً في جبال عجلون. جاء في طائرة حوّامة. لم تكد الزيارة المفاجئة تفاجئنا: كانت القضية الفلسطينية قد بدأت تتجاوز صفتها الاقليميّة. وبدأت القوى العظمى تعنى بمنظمة التحرير الفلسطينية هذه، التي كانت ماتزال غير ذات بالٍ، والمولودة قبلَ قليل.

علينا الافادة من هذه الزيارة لمحاولة النظر الى الأشياء من علٍ نوعاًما، مع أنّ من الصعب التحوّل فجأةً الى طائرة عمودية الاقلاع. كان كلّ فدائيّ يحسب نفسه حرّاً على هذه الأرض التي يجتازها ماشياً على القدم أو بالسيّارة، من دون أن ينفصل عن السطح. كان السطح هوَ مانشغلُ، عارفين في مشينا تضاريسَ التربة. كان أفق كلّ فدائيّ، نظرته وقدمه الصحيحتان قليلاً أو كثيراً، هذا كلّه كان ينبؤه بها. يكفي أن ينظر أمامه ليعرف أين هو ذاهب، أو وراءه ليعرف من أين أتى. لاالمذياع ولاالصحيفة كانا يجمعانه ببقية الثورة، الأ، من وقتٍ لآخرَ، أمرٌ بمهمّة. وكان ذعر الفدائيين، بمن فيهم المسؤولون، كبيراً عندما قلتُ إنّني يجب أن أحضر اجتماع الكويت.

ـ ماالذي ستفعل في الكويت؟ إبقَ معنا. ثمّ مَن يذهب الى الكويت؟ أوربيّون بخاصّة. والجميع سيتكلّم بالانجليزية، وأنت لاتعرفها.

ـ لديّ على جواز سفري تاشيرة الكويت، وغرفتي في الفندق هناك محجوزة، وهذه هي الدعوة التي تلقّيتُ.

ـ أنتَ عنيد. سنقودك بالسيارة الى درعة. سيرافقك فدائيان.

ـ ولمَ اثنان؟

ـ نحن دائماً اثنان، تحوّطاً. ستعبر كما تقدر الحدود في درعة. وفي درعة سيقودك

اثنان آخران الى دمشق. ومن هناك تستقلّ الطائرة الى الكويت. ولدى العودة بعد المؤتمر، تنتظرك سيّارة في مطار دمشق وتقودك الى درعة. في درعة تجد من ينتظرك، وسيُعيدك الى هنا فدائيان.

كان قرارٌ قد اتُّخذ بالاّ أبرح عجلون.

لكنْ، أعلى منّا، كانت دبلوماسية منظمة التحرير الفلسطينية ناشطةً، وإن كان حسين يكبحها بنصيحة من السفارة الأمريكية التي كانت رحلات دبلوماسيّيها بين عمّان وتل أبيب وواشنطن معروفةً، لافي تفاصيها وإنّما عبرَ الاحاديث. وعلى تنقّلنا من نقطة الى أخرى، إنّما دائماً على مستوى الأرض لدواعٍ أمنيّة، كنّا، نحن الذين نحسب أنفسنا أحراراً في هذا المحيط الذي تحدّثت عنه، نمتثل لأوامر عقداء كان ارتفاعهم الأعلى مقرّراً في خرائط الأركان العامّة التي كانت، وقد كفّت عن البقاء أفقية، تُعلّق على جدار مرتفع الى حدّما، ممّا يُلزم بأن يمسك المرء بعصا في يده ليُري أقصى الشمال: نهر الأردن وأولى مدن القطاع. هل فطنَ الفلسطينيون الى أنّهم، بإهمالهم على خارطة نصفَي الكرة الأرضية جغرافية إسرائيل واسمها، كانوا يمحون في الأوان نفسه فلسطين؟ عندما يرسمون إسرائيل بالأزرق فكأنّما يرمون بها في البحر الأزرق؛ أو بالأسود فإنّ المجال يصبح «موضع الظلمات ذاك المسكون بالظلال» بحسب الإغريقيّين.

كان عرفات وكامل أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية يتخذون ارتفاعاً آخر، حاملين معهم وفاقاتهم وخلافاتهم، وبفضل الطائرات يمضون من عاصمة الى أخرى. ربّما كانت فلسطين كفّت بالنسبة إليهم عن القيام كأرض. كان واقعها أن تنقسم الى أشطارٍ أشطار: جزيئات عمليةٍ حسابيّة بين الشرق والغرب. ومع ذلك فقد كان كلّ واحدٍ منّا يعرف بصورة مبهمة أنّ السلام الذي كنّا نحسّ به، السلام الذي كنّا نستمريء، إنّما ندين به الى منظمة التحرير الفلسطينيّة.

كنّا جَهلنا كلّ شيء عن رحلة كيسنغر الى بكّين، وكذلك عن عودته في اليوم التالي الى الباكستان. أنّى لنا أن نعرف، على شفا هذا الشاطيء الصخريّ، أنّ مساعدة الصين لمنظمة التحرير الفلسطينية كانت تتناقص؟ ثمّ ماكانت الصين، منظوراً إليها من هنا؟ كانت أوّلاً اسماً: ماو. وكان الكثير من الفلسطينيّين، من فدائيين بسطاء أو قادة ذوي شأن، قد دُعوا الى بكّين – مثلما الى موسكو. ومازلت أعتقد أنّهم كانوا يخلطون بين الصين والجماهير المعبّأة والتظاهرات الساخنة التي جاؤوا بصوَرها أو حكايات حياة يومية فردوسية؛ ولقد حدّثني المدعوّون للمرّة الأربعين على الأقلّ عن فتنة الكهول الذين يمارسون كلّ يومٍ، بصمتٍ أو

بابتسام، تمارينهم السويديّة في ساحة « تين آن مين ». كما حدّثوني عن اللحى الطويلة والضامرة للشيوخ الرياضيين في حين تشكّل اللحية هنا كسوة.

ربّما لن اعرف أبداً إن كان ينبغي أن أكتب « مقاومة فلسطينية » أو « ثورة فلسطينية ». وهل ينبغي أن أبداها بالحروف الكبيرة؟ لكنّ الحروف الكبيرة غير موجودة في العربيّة.

في مطلع هذا الكتاب، حاولت وصف جولة لعب بالورق تحت خميلة. قلتُ إنّ إيماءات اللعب كلّها كانت فعلية، لكن مامن ورق. لافحسبُ لم يكن ورق اللعب على الطاولة، بل لم يكن من ورقٍ قطّ، وعليه فإنّ جولة اللعب بالورق ماكانت جولة. لم يكن الورق حاضراً ولا غائباً؛ كاللّه بالنسبة إليّ لم يكن الورق موجوداً. أيمكن أن يتخيّل المرء مثل هذا النشاط، من دون موضوع آخر سوى التصنّع (الدعوة التي وُجّهت لي، وترتيب اللعبة، وسيرورة العرض، وذلك الانفعال ليخبروني بغيابٍ)، أقول التصنّع من أجل التصنّع، للتحدّث الى مَن كان يمارسه كلّ مساء؟ الورق، كالمخدّر، معيشاً كافتقاد؟ كانت نهاية اللعبة هي بدايتها: العدَم أوّلاً بأوّل. وإجمالاً فإنّ غياب الصوَر (« الباستوس » أو الرّحْل والفرسان، والسيفين والسيوف الثلاثة والخمسة والستّة والسبعة،وهل كان كلوديل يعرف ياترى لعب الورق الاسبانيّ—الموريسكيّ؟) أقول إنّ هذا الغياب هو ماكان يمرّ أمام عينَيّ.

الم يكن المحتلّون الجدد لهذه الأرض ليعرفوا، إذْ طردوا الفلسطينيين، وألم يتعلّموا من الغنوص ماسيصبح عليه هذا الشعب المطرود؟ أنّه قد يحتلّ فضاءاً آخر لأمّة أخرى، مالم يَفنِ نفسه؟

ـ كيف ياتُرى لم يَذُبْ يومذاك؟

كيف لانجيب على هذا السؤال كالتالي:

ـ أنّى لأحدٍ أن يُذيب شعباً في مسيرة؟ في أيّ بلدٍ حدثَ هذا من قبلُ؟ في أيّة أماكن؟ وبأية أدوات؟

مازلتُ لاأعرف ماكان الفدائيون يشعرون به في صميم أنفسهم، لكنّي أعتقد أنّ أراضيهم ـ فلسطين ـ ماكانت فحسبُ خارج المنال، إن كانوا هم يبحثون عنها، كورق اللعب بالنسبة الى اللاعبين، أو اللّه في نظر الملحدين، بل لم توجد هذه الأراضي أبداً. كان ثمّة آثارٌ

باقية، لكن بالغة التشوّه في ذاكرة الشيوخ التي تكون صورة الأشياء المتذكَّرة فيها أصغر من الأشياء نفسها عادةً. وإذ تضعف الذاكرة بقدرما نشيخ، فإنّ هذه الأشياء تتضاءل، أو تضيؤها الذكرى فتصبح أكبر من اللزوم. من النادر أن تظلّ الأبعاد دقيقةً في الذاكرة التي تحفظها. الحُدَب، والثغور، وأسماؤها، هذا كلّه يتغيّر. وإنّ أدنى نبتة تكون قد سُحِجَتْ، والغابة صارت ورقاً، كتاباً، صحيفةً، والتُهِمَتْ كلَّ يوم. وهي ذي الدريئة المستهدَفة من قِبَل الفدائيين تتحوّل لديهم الى شيء يعيا على التصوّر. ولقد كانت الايماءات مهدَّدة بفقدان نجوعها بباعثٍ من هذه القاعدة المسرحيّة: التمرّن من أجل العرض. وكان لاعبو الورق، الملأى أصابعهم بالأطياف، يعرفون، مهما يكن من جمالهم وتطامنهم، أنّ إيماءاتهم ستُؤبَّد – نبغي أن نفهم هذا أيضاً كحكم مؤبَّد – جولةَ لعبٍ بالورق بلا بداية ولانهاية. كان يقبع تحتَ أيديهم الغياب نفسه القابع تحت أقدام الفدائيين.

«كان واضحاً أنّ قسماً من الضباط يحنّ الى الأسلحة الثقيلة والدروع الفولاذية، والآلات التي يُدَرَّس استعمالها في كبار المعاهد العسكرية في أوربا والولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتيّ. كانوا يرتابون من عبارة حرب العصابات أو الغوار التي تعني حرباً صغيرة على المرء أن يتحالف فيها مع الضباب، والرطوبة، والفيضانات، والرياح الموسمية والأعشاب المتشابكة العالية، ونعيب البوم في الليل وموقع الشمس والقمر. كانوا يعرفون أنّك لا يمكن أن تقول: «استعدّ!»، إلاّ لرجل هو في وضعية استعداد. والمدارس العسكرية خصوصاً غير مؤهلة لفرض النظام والطاعة، وبالتالي تحقيق النصر، على محاربين نصف مُرَيَّشين، هؤلاء العرب الساخرين، شركاء الطحالب وحزّاز الصخر. أن تنزلق من شجرة الى أخرى، ومن صخرة الى ثانية، وأن تجمد في مكانك لدى سماعِ أدنى ضجة، ولو مجرد تنهّدة، فهذا ما لن يقدر أيّ من ضبّاط المعاهد العسكرية على القيام به.»

تعبّر الأسطر السابقة عن رأي الفلسطينيين الذين يأسفون على غياب الخدعة الحقّ والصدق في القتال، وربما أحياناً، أخوّة معينة في السلاح.

«البدو من جهة، والإسرائيليون من أخرى، يمارسون القتل بالطائرات أو الدبابات بحقّ أعداد غفيرة من السكان. يكفي أن يتسلّل بعض المغاوير برهافة الى اسرائيل، حتى تقوم الطائرات بقصف مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين.» كانوا في «الملَكية» – تدركون أنّني أقصد البحرية الملكية القديمة – ومايزالون في البحرية الملكية المغربية يُطلقون اسم «الأميرالات» على البحّارة المصابين بالسفلس والذين تحمل إضبارتهم الطبية صلباناً – أو

نجوماً. الصليب الأوّل، بسبب من البثور، يُستَقبَل بنشوة شبيهة بقُبَل الملاعب لدى تسديد هدف، إذْ ماعادَ مايستوجب إثبات الفحولة: القرحة الأولى هي تكريس.

ـ كان الجميع، من الطبيب الى الممرّض فالطبّاخ، يعنون بنا جيّداً. كنتُ أميرالاً ذا أربعة صلبان. أو، إذا فضّلتَ، فأربع نجوم. مع خمس نجوم، تكون الامبراطورية. والموت. كان الملك الأبرص المعروف حتى في الاسلام يحمل التكريسين: تكريس مسْحة المرضى [كما في الكنائس] وتكريس البرَص نفسه. وإنّني لاتساءل إذا لم يكن الضباط الأكثر شراسة، والذين كانوا يطالبون بأسلحة ثقيلة، بدبابات ومدافع، بل وحتى بالسلاح النوويّ، ويتمسّكون بالحرب الكلاسيكية، أقول إذا لم يكونوا ليحلموا بأن يصبحوا «أميرالات»، وربّما بأن يموتوا من أجلِ الوطن إنّما متيّقنين من نيلهم تشييعاً وطنياً. أي أن يموتوا كرجال.

ولم يكن طلبة معهد «سان–سير» [الفرنسيّ للعلوم العسكريّة] وحدهم الذين يرون في حرب العصابات افتقاراً الى النبالة، بل كان الاتحاد السوفياتيّ هو الآخر يرفض أن يحمل على محمل الجدّ هذه الظاهرة التي يدعوها هو أيضاً إرهاباً. وإذا كان ينبغي أن ينتصر الجيش الفلسطينيّ، فهو عليه أن يتحوّل أوّلاً الى ماكنة ثقيلة، وان يصبح صدر كلّ عقيدٍ فلسطينيٍّ هو الحامل، بل المعْرض، لأربعين ميدالية أو خمسين، أصداف جميع الامم كريمات المحتد.

في آخر ليلة من رمضان، قربَ نبع ماءٍ في الأردن مجاور لنهر الأردنّ، أقام مسؤولان احتفالاً، إنّما مختزَلاً الى وفرة من الكعكة بالعسل وبعض الضحك الطريّ. ولقد استقبَلا بالعناقات شاباً يتدلى شعره على ظهره: إسماعيل. لمّا كنت معتاداً على الألقاب والأسماء المستعارة، فأنا لم أندهش من هذا الاسم (قريباً من هذا النبع جارِ المكان، بين جسرَي داميا واللنبي، حيث كان يوحنّا المعمدان قد عمّدَ يسوعاً، قرّر الفدائيون أن يستبدلوا اسمي الشخصيّ باسم عليّ). كانت خصلات شعرٍ بنيّة ومستوية، على شاكلة بونابارت، تغطّي كتفَي اسماعيل.

ـ هو فلسطينيّ. يؤدي خدمة العلَم في الجيش الاسرائيليّ. ويتكلّم العبرية بطلاقة.

قلتُ للمسؤول إنّ وجه الشابّ الجانبيّ أكثر يهودية منه عربياً.

ـ هو درزيّ، لكن لاتتحدث عن هذا خصوصاً. ماإن رآك وعرف أنّك فرنسيّ، حتّى تغيّر وجهه. (مازلتُ لاأفهم معنى هذه العبارة). إنّه يواجه مخاطر عديدة ليأتينا بمعلومات.

سألت إسماعيل بالفرنسية، وأنا آكل وأضحك:

ـ أنشدْ لنا النشيد الاسرائيليّ.

بَدا من نظرته أنّه فهمني. فوجيء، ولكن كان لديه من حضور البديهة مايكفي ليُطالب بترجمة سؤالي الى العربية، مع أنّه هو نفسه قال بالانجليزية راداً على تعليقٍ محجوب:

« حرب كلاسيكية، لاادري. حرب كلاسيكية أو رومانطيقية. »

بدت لي هذه الإجابة أدبيّة بخاصّة.

عندما غادرَ في مطلع الليل ليرجع الى اسرائيل من دون أن يقبض عليه الحرس اليهود، عانقَ الجميع إلاّي.

مادام الفسلطينيون يعرفونه، فلعلّ هذا العربيّ يعرف ماحدث للأب « هوك »، الذي التحمت نهايات أجفانه [كأبناء الجنس الأصفر] بعدما أقام في التيبت أربعين سنة. كان الوجه الجانبيّ لهذا الفلسطينيّ عبريّاً وإيقاعه غربيّاً.

قبلَ ذلكَ بأيّامٍ، كان مُلازم سودانيّ في سنّ الثلاثين قد أعربَ في جرش عن اندهاشه من سماع رجلٍ يتكلّم بالفرنسية ويردّ عليه أبوعمر باللغة نفسها.

ـ كلّ مايحدث هنا هو بسببكم أيضاً. أنتم مسؤولون عن حكومة پومپيدو...

قال لي هذا وأشياء أخرى نسيتُها، لكن أبداً لن أنسى ذلك الوجه الأسود لامع الشعر وذا الخدّين المحزّزين بوَسْمٍ قبَليّ يخاطبني لابالفرنسية فحسب، وإنّما بالفرنسية العاميّة، مع لكنة ضواحي باريس، وبمعجم موريس شوڤالييه بالذات. وكان إذ يحدّثني يضع يديه في جيبَي بنطاله بصورة مشهديّة. سمعتُ إذَن [بتقطيع مالوف في الدارجة]:

ـ كلْ مايحدثْ هنا هوّه بسببكمْ أيضاً. انتمْ مسؤولونْ عن حكومةْ پومپيدو...

فسّر له أبو عمر بالعربية أنّني بعيدٌ جداً عن الحكومة الفرنسية. فهدأ وصرنا صديقين جداً: عندما كنت ألاقيه، كانت ابتسامة هي مايقترب دائماً. كنتُ أعرف أنّ نكتة جديدة كانت تُهيَّأ لي وحدي.

ـ ياللحظّ الرائع أن نفهم أحدنا الآخر على هذه الشاكلة. لولانا، نحن السودانيّين، لماعرفتَ الفرنسية وإنّما لهجة مورڤاندية.

ـ أفصِحْ.

ـ كان لكلّ إقليم فرنسيّ لهجته، لأنّكم كنتم برابرة. وعندما كنتم أقوياء بمافيه الكفاية لتأتوا الى بلادنا، ماكنتم أكثر من لعبة تصبير لغويّة. وكان يلزمكم لسان مشترك لتفتحوا بلادنا. كان الجنديّ الباسكيّ ينطق بالباسكيّة، والكورسيكيّ بالكورسيكيّة؛ والالزاسيّ والبريتانيّ والنيسيّ والبيكارديّ والمورڤانديّ والآرتيزيّ، المنهمرين على مدغشقر والهند الصينية [ڤيتنام حاليّاً] والسودان، كان عليهم أن يتعلّموا لغة ضباطهم المتخرجين من «سان-سير»، أي الفرنسية الباريسيّة. وكانت المخاطر تُجبر الجند التائهين اثنين اثنين، في الحارات الفقيرة، على أن يتعلّموا بضع عبارات مفتاحية على الأقلّ:

«النجدة ياجنود الفرقة!»

«هلمّوا يافتيان!»

«نحن اثنان في خطر!»

«حبّذا يوم التسريح!»

«إلينا ياأصحابَ الجنْد!»

أصلٌ [للفرنسية] طريفٌ، دقيقٌ أو غير دقيق، بالرغم من وزير التعليم العموميّ، وبعد ذلك وزير المستعمرات، جول فيري. قد تكون هذه اللغة الفرنسية، الحسّاسة والخفيفة، التي اجتازت فرنسا رويداً رويداً، ولدت من ذلك الارتجاف المرتعب الذي أورثه الجند الصغار من بروتانيين وكورسيكيين وباسكيين، بغزوهم الأراضي وموتهم في المستعمرات، أقول أورثوه لفرنسا-المركز. ولابدّ أنْ تكون اللهجات ألفت نفسها مجبرة على التراجع حتى تفيء الى دارها، في فرنسا، لغةٌ شبه كاملة أُتقِنَ وضعها هناك، وراء البحار. ولعلّ طباق هذا الحدث، أو تتمّة الملحمة كامنة في ماياتي، والذي يأتي من المغرب في ١٩١٧:

«ياللشجعان! - والذين يطالبون بالمزيد دوماً! - عندما قلتُ لهم إنّني سأسلّحهم وأمدّهم بالذخيرة، فهم كانوا سيودّون لحس يديّ لو سمحتُ لهم بذلك. لكنّني أحتفظ ببرودة أعصابي. إنّ من يتملقّني لم يولد بعد، لا ولم يُحبَل به. يحبّون العراك، وأنا أقودهم إلى العراك، شجعاني هؤلاء. كانوا ينتظرون سيوفاً، وإذا بي آتي بالبنادق: كانوا سيبيدون «بوشيا» [ألمانيا] بكاملها. بالبنادق الرّنانة ذهبوا حتىّ منطقة «السّوم» [الفرنسيّة].» إستشهدتُ باللحظات الكبرى من خطاب نُشِرَ في «ليلوستراسيون». ذهب «هوا» حتّى السوم.

نزلـ «ـوا» من القطار. قطعـ «ـوا» مائتي مترٍ صامتين، وتنفّسوا بقوّة. كانـ «ـوا» قرابة ألف. رقدت الدفعة الأولى من دون أن تنبس ببنت شفة، ثمّ الثانية، فالثالثة. ماتـ «ـوا» بطيئاً. أطبقت مناقيرَهم هبّةُ ريحٍ محمّلة بالغاز. وانتشرَ نحوَ شمال «آبفيل» بساط بربريّ مديد، جدّ مبسوط، صوفيّ ورماديّ.

هذا كلّه سرَده عليّ مبارك. ضابط سودانيّ، لكنّه بالأحرى قذّافيّ. لم تصلني أخباره إلاّ بعدَ فترة. وكما حدثَ مع حمزة، فأنا لم أعرف سوى اسمه الأوّل. بعدَ شيء من التردّد، اختارَ مبارك حبَشاً لاعرفات. ينبغي أن أقول لكم جماله، رقّته، وخدّيه المحزّزين بندوبٍ قربانيّة.

لـ «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، التي يقودها جورج حبش، ندين باختطاف الطائرات الثلاث التي جاءت لتحطّ في مطار «الزرقاء». بقيت الطائرات مع ركّابها وراكباتها تحت الشمس ثلاثة أيّام.

بعدَ غياب اسبوعين في دمشق، عدتُ الى قواعد الفدائيّين، فوجدتُ أنّها قد خُفّفَت وبُوعد بين بعضها والبعض الآخر، وذلك الى هذا الحدّ بحيث شعرت على الفور بهشاشة البناء الجديد. أكان هذا صنيع إنسان أحمق، مبتدىء، عنيد، استراتيجيّ فلسطينيّ رديء، أو «مُتَكتك» فلسطينيّ رديء؟ فرضت نفسها على خاطري، وعلى الفور، هذه الصورة: «جدار ورقيّ مبلل». أيّ نجدة يمكن أن ينتظر الانسان عندما يكون معزولاً مع ستة رفاق أو سبعة، مع ستة أسلحة فردية أو سبعة، ولا يرى أمامه من أحد، حتى ولا جسم العدو نفسه، الذي بقيَ على مسافة كيلومتر من المساحة المربّعة المعقودة للفدائيّين، لكنّه عدوّ متأهب ويتمتع الى ذلك بأسلحة ثقيلة يخدمها خبراء في القذافة؟ لقد سرت الاشاعة في أنّ ضباطاً أميركان واسرائيليين كانوا يساعدون جنود حسين (هذا ما أكّده لي عدد من الفلسطينيين في ١٩٨٤ أيضاً، وإن كان الضباط الأردنيون ينكرونه بازدراء).

كان عليّ أن أقوم برحلة أخرى الى دمشق. وهذا البناء الجديد هو ما فكّرتُ به بعدَ أربع عشرة سنة، عندما حدّثتْني جاكلين، وسط أنقاض بيروت المهدّمة، عن إحدى رحلاتها الى جنوب لبنان.

ـ بعد مجزرة صبرا وشاتيلا، احتُجزَ مدنيّون ومقاتلون فلسطينيون لساعات عديدة في زنازن أو غرف فنادق في صيدا وفي صُور وقرى الساحل الكائنة بين المدينتين. كانوا في البداية

يشهدون شعيرة الاقنعة (الكاغولات). هذا ما كان يحدث: كان الجنود والضباط الاسرائيليون يأمرون سكان القرية أو الحارة بالمرور أمام رجل رأسه مقنّع. كان جميع السكان يمرّون أمامه، ولم يكن الجاسوس لينطق بكلمة حتى لا يعرفه أحد: كان يشير الى «الآثمين» باصابعه المغلّفة بقفاز. ولكن بمَ هم آثمون؟ بكونهم فلسطينيين أو لبنانيين أصدقاء للفلسطينيين، أو يمكن أن يكونوا أصدقاء لهم، أو ان يتداولوا المتفجرات.

ـ ألم يُعْرَف أيّ من المقنّعين؟

ـ ابداً. كانت إشاعة تقول بأن فلسطينياً خائناً كان يشير من وراء قناعه على المسؤولين الفعليين عن العمليات. ولم تُعرف الحقيقة، أو ما يمكن ان يكون هو الحقيقة، إلاّ بعد أيام: كان المقنّع جندياً اسرائيلياً. وكان يشير على هذا أو ذاك لا على التعيين. ولما كان أعضاء أسرة الميت مشتبَهاً بهم هم أيضاً، فكانوا يلزمون الصمت. وعندما عُرف انّ اسرائيلياً كان يضطلع بدور الفلسطينيّ الخائن، كان المكروه قد وقَع. لا أحد كان يجرؤ على اكتشاف الحقيقة، لخوفه، مع كلّ شيء، من ان يُكْشَفَ وراء القناع عن فلسطينيّ صديق أو قريب.

ـ وهل استمرت التمثيليّة زمنا طويلاً؟

ـ اسبوعين أو ثلاثة. هذا كافٍ. كان الشكّ يحوم في كلّ مكان. ثم جاءت تمثيلية الغُرَف.

لقد روتْها لي شابة لبنانية. كان الفلسطينيون، من مقاتلين ونساء ومدنيّين، يُكدَّسون في زنزانة أو غرفة. ثم فجاة، تتعالى في هذه الغرفة صرخات مذعورة، وشكاوى بالعربية، وبكاء، وصراخ، وأخيراً حشرجات، وتتخلل هذا كلّه أصوات عربية يلفّق أصحابها جرائم مرعبة وثارات بحقّ عرب آخرين، وبحقّ اقرباء، وأصوات فدائيّين يتهمون ضباطاً لهم، ويخونون رفاقاً في القتال، ويجهرون باسرار، عسكرية خصوصاً... إلاّ إنّ كلّ ماذكرتُه الآنَ إنّما قام بتمثيله جنود اسرائيليون يجيدون الكلام بالعربية وسُجِّلَ على أشرطة، وصار يُبَثّ على السكان في غُرفٍ أولاً، بصورة حميميّة تقريباً، ما دام كلّ اعتراف بالخيانة كان يأتي متبوعاً، كخلفية موسيقية، بضحك الضباط الاسرائيليين يعلّقون بالعربية على الاعترافات، يسخرون منها أو يتصنّعون القرف. وفي الغد أو اليوم الذي يليه تبثّ مكبرات الصوت الاعترافَ نفسه، بصوت أقوى، في ساحات القرى. كلّ هذا المسرح الحربيّ كان له هدف واحد: إخافة السكان اللبنانيين، من الشيعة أو سواهم، والفلسطينيين بخاصة. حدث هذا في أيلول/سبتمبر ١٩٨٢. وهذه الأكذوبة الضخمة التي ربّما كانت قد سُجِّلت في استديوهات تلّ أبيب، كانت تصرخ بالعربيّة بما يأتي: «تذكّروا دير ياسين».

إنّ ذكرى هذا «المونتاج» هي التي دفعت فرنسيّاً الى القول: «كانت التظاهرة الكبرى التي خرجت الى الشوارع في اسرائيل ضدّ اجتياح لبنان في ١٩٨٢ مبرمَجة قبل بداية الاجتياح. كان كلّ شيء مرسوماً: الاجتياح نفسه، قصف بيروت، اغتيال بشير الجميل، مجازر شاتيلا، والاشمئزاز الواضح في جميع شبكات تلفزيونات العالم وصحفه، كلّ شيء كان متوقعاً ومرسوماً، بما فيه الغثيان الذي أصاب العالم، وضربة الاسفنجة الماسحة الختامية التي تردّ وجه اسرائيل أقلّ قذارةً: التظاهرة نفسها».

وهذا هو ما دفع أيضاً السيدة «ش...» الى القول:

«بشاحنة ومكبّر للصوت، جَعلونا نهرب من دير ياسين».

أعترف بأنّني حلمت بذلك المُخرج أو رئيس الجوقة، الذي ربما كان صاحب رتبة عالية في «التصاهال» [الجيش الاسرائيليّ]، وهو يطلب تمثيل صرخة أو حشرجة كانتا تبدوان ناشزتَين بجلاء. حلمتُ به وهو يُجري هذه التمارين في أزياء عربيّة ليُخرج الممثّل من داخله شكاوى أو آلاماً أثرى. ربّما كان المسؤول مخرجاً كبيراً في مسرح «الحابيمة» في تلّ أبيب؟

لنعدْ الى ١٩٧١. ففي جميع الأماكن التي أقيمت فيها قواعد الفدائيّين في عجلون وما يحيط بها (سبق أن قلت إنّ التحصينات والمتاريس كانت من الهشاشة بحيث لا تتيح أيّ دفاع، ثم إنّها كانت معروفة من قبل الأركان العامة الأردنية، متراً متراً)، كان الضباط الشركسيّون ومساعدوهم الجنود البدو، قد توصلوا الى تحقيق هذه «المأثرة»: بمعونة الظلام والمسافة، تمّ إخفاء مكبرات للصوت راحت تبث أصوات مسؤولي المقاومة، التي كانت في الغالب عصيّة على التمييز.

«أُطبق الحصار علينا جميعاً. فلنستسلمْ. لنُسلّمْ أسلحتنا الى الضباط الملكيّين. وعَدَنا الملك نفسه بأن يستردّ كلّ فدائيّ يتقدم منزوع السلاح سلاحَه في اليوم التالي. انتهى القتال. لن يتعرض أحد للعنف. إنني أتحدّث باسم الملك وأبي عمار».

تَخَيَّلوا وقع هذه الأصوات على مقاتلين هم في الغالب أحداث. أصوات هي في الأوان ذاته قريبة وبعيدة، «تُلعلع» بين العاشرة ومنتصف الليل، أصوات ضخمة، تهيمن في الليل على الغابة والجبال، بل هي أصوات الجبال بالذات، تُسْمع على الضفة الأخرى من الأردن، تساعدها رداءة المكبّرات التي لا تمكّن من تمييز الأصوات.

في حزيران/يونيو، وتموز/يوليو١٩٧١، حاصرت قوات حسين الفدائيّين الذين بلغ عدد القتلى بينهم، بحسب رواية رسمية، بين ثلاثمائة وأربعمائة، في حين بلغ عدد المعتقلين

آلافاً من الأفراد وُزّعوا على مختلف سجون المملكة وعلى معسكر «الزرقاء». امّا الباقون فقد تمكنوا من الهرب الى سوريا، في ما وراء إربد. كثيرون منهم عبروا نهر الأردن، حيث تمّ تجريدهم من السلاح، ولكن استُقبلوا بحفاوة من قبل الضباط والجند الاسرائيليين: إذا كانوا قد هربوا بعدَما استمعوا الى خيانة قادتهم المزعومة، فَهاهُم في اسرائيل وحيدون، جدّ وحيدين، أمام خيانتهم الفعلية أمام العدوّ. كان فرنسيّان، قاتلا أسوةً بالفدائيّين والى جانبهم، قد ذهبا حتى إربد. وهما اليوم مدفونان في مقبرة إربد الى جانب الشهداء الفلسطينيين. وأنا لا أرى في هذا الهرب جبناً ولا هلعاً، وإنّما شيئاً آخر أعظَم. كان الفلسطينيّون قد هربوا أمام الحضور المفاجيء لغير المتوقَّع. ذلك انّ الموت، المتوقَّع، لم يأتِ. كان الفدائيّون ينتظرون الرصاص، والآلام الموعودة، والموت، والجراح، لا هذه الضوضاء، في منتصف الليل، التي عُرف فيما بعد انّها ماكانت شيئاً آخر سوى ضجيج محرّكات الحوّامات المُشغّلة وهي رابضة على الأرض، ومراوحها، مفخَّماً عشرات المرات، وبضع إطلاقات مدفعٍ وزخّات رشاش، إنّما بلا قذائف ولا رصاص. ثم يقطع هذا الصخب سكون مفاجئ، ليمكن من الاستماع جيداً الى خيانة القادة الداعين الى الخيانة. «الذعر»: هذه هي تقريباً الكلمة التي ينبغي أن أكتب على الفور، ذلك انّ هذا الذعر هو ما يجعل الساقين تتحرّكان تلقائياً، لا بفعل إرادة الهرب من الموت، بل بفعل إرادة الهرب من غير المتوقّع (ولعلّ هذا هو ما كان يقلقني أكثر من أيّ شيء آخر عندما شاهدتُ الأشبال فجأة: كان يمكن تدريبهم على كلّ شيء، إلاّ على مالايستوعبه العقل). نعم، لا الهروب من الجيش الأردنيّ، وإنّما الهرب الى اسرائيل كمَنْ ينتحر.

«ضدّ اسرائيل، سأتحالف حتى مع الشيطان»، قال لي مسؤول فدائيّ ذات مرة.

وها هو الموقف يعرض نفسه مرتين: صوت القادة الذين يدعونني الى الخيانة، وهذا التحالف الفعليّ مع الشيطان: اسرائيل.

ربّما كانوا، في محاولة الهرب من الصوت، يأملون العثور على ملاذ ما، وربّما، دون أن يعرفوا أنّهم كانوا في اسرائيل، حسبوا أنّهم في فلسطين، حيث كانوا بالفعل! - وإذْ أتحدث عن االذعر panique، فأنا لا أعرف إذا كان [إله الرعيان] بان Pan يثير الخشية إذْ ينادي بنايه غير المتساوي القصبات (٣٥)، والذي تتّصف نغماته بهذه الرقة بحيث يقذف من يسمعها بنفسه في أيّما مَقْذفٍ معتقداً أنّه ذاهب إليه. لقد ارتفعت سحائب من الدخان لتحجب القمر. وإذا كان الصوت الضخم العابر من رابية الى أخرى هو صوت الربّ، فربما كان الفدائيّون، الجاهلون بمعجزات الألكترونية الصوتية، قد ركضوا للاحتماء بربّ الأرباب. ربما كان تعبير «صارت مزاميره تعزف» [الذي يعادل في الفرنسيّة التعبيرَ العربيّ: «راحت فرائصه ترتعد»] يتمتع بهذا المصدر، السماويّ.

حتى إذا كان الجسم والأعضاء لم يخمّنوا الذعر بعد، فهو قد عبرَ الأطلسيّ منذ وهلة.
كان فندقي في عمان، التي كنت أذهب اليها غالباً، قائماً في طريق طائرات «البوينغ» التي تاتي محمّلة بالأسلحة المهداة للملك حسين من الولايات المتحدة.

قلت إنّ الشابين الفرنسيين، واسم كليهما «غي»، مدفونان في إربد، بين فدائيّين آخرين. كانا في سنّ تقارب العشرين. وكانت صديقَتاهما الفرنسيّتان معهما. كانا يساعدان الفلسطينيين في ترميم الحيطان المتداعية، وبذا يتعلّمان العربية والبناء في آنٍ معاً. وبَدا لي الشابّان، وقد عرفتهما في مخيّم «الوحدات»، إبنَين لأيار/مايو ١٩٦٨ [انتفاضة الطلبة في باريس]، متحرّرين وفي الوقت نفسه مليئين بافكار جاهزة، إنّما راهنة.

ـ يجب القضاء على [فلان] لأنه فاشيّ، وإبدال حكمه بنظام ثوريّ غير سوڤياتيّ.

ـ أيّ نظام؟

ـ نظام يقوده «السيتوس» (٣٦) مثلاً.

لايمكّن سرد لحظات المقاومة كما أفعل الآن من القبض على تواصليّتها التي كانت ضاحكة وفتيّة. وإذا كان في مقدور صورة واحدة أن تعبّر عنها، فساغامر بتقديم هذه الصورة: «لا تَتابع، بل، بالعكس، هزّة جوفية طويلة شبه غير محسوسة، شبه ثابتة، تجتاز مجموع البلدان». أو هذه: «قهقهة طويلة، شبه صامتة، لشعب باكمله، يضحك الى حدّ الامساك بخصريه، لكنه يجثو على الركب أمام ليلى خالد عندما تقف في إحدى طائرات «العال» وبيدها قنبلة يدوية مسحوبة الفتيل، وتأمر الطاقم اليهوديّ بالتوجّه إلى دمشق بوَداعة. وهذا هو ماحدث فعلاً. تلته ثلاث طائرات، من الخطوط الجوية السويسرية كما أعتقد، غاصّة بالأميركان والأمريكيات، بقيت جاثمة تحت شمس «الزرقاء»، بأمرٍ من حبش، كما أسلفت في القول».

بعد ذلك بأيام، قامت انتفاضة الأطفال. هكذا ينبغي أن نسمّيها، ما دام أحداث فلسطينيون وفلسطينيات ومعهم بعض الأردنيين، في سنّ السادسة عشرة، كانوا يقتربون من المدرّعات الأردنية في جادّات عمان، مبتسمين، ضاحكين، هاتفين: «يحيا الملك»، ويقدّمون لطاقم كلّ دبابة باقة من الزهور. دهشين، لكنْ في غاية السرور، يفتح أعضاء الطاقم برج الدبابة الصغير، ويمدّون أذرعهم، فتنفجر الدبّابة عندما تلقي الفتاة التي تقدّم باقة الزهور بالقنبلة المخفيّة، تلقي بها في المقصورة، عند أقدام أفراد الطاقم. وتروح الآنسة، وقد أخفاها زملاؤها ودفعوها في أحد الأزقة، تستعيد أنفاسها بانتظار باقة أخرى وقنبلة جديدة، وهكذا

دواليك. لقد رووا لي هذا في عمّان. أكانت المقاومة تتزيّن بفظاظات محلوم بها، وهل كانت انتفاضة جماهيريّة، إنّما رسمية، تتهيأ؟ هل وقعت هذه العمليات المرويّة، حقّاً؟ المهم أنّ الصفعة التي تلقاها رئيس وزراء حسين من ابنته ذات الستة عشر ربيعاً، ما تزال تدوّي حتى الآن.

عندما أفكر بهؤلاء الصغار، أرى ثعلباً وهو يفترس فرخَ دجاج. شدقا الثعلب ملطّخان بالدم. يَتلع برأسه، يكشف عن أنيابه، كاملة، لّماعة، بيضاء، مدبّبة، ولا يلزم إلاّ القليل حتى ترتسم ابتسامة طفلية على برطميه المتلمظين. إنّ شعباً هرماً يستعيد شبابَه في التمرّد، والتمرُّدَ في شبيبته، ليبدو لي، بعض اللحظات، مطبوعاً بالنحس – ذلك أنني أتذكر كما تتذكر بومة. تتفجر الذكرى عبر «شظايا صُوَرٍ»، والرجل الذي يكتب هذا الكتاب، يرى صورته نفسها موغلة في البُعد، في النّسَبِ الصغيرة جداً لقزمٍ هو أكثر فأكثر صعوبة على التمييز سيّما وأنه أكثر فأكثر هرماً. ليست الجملة الأخيرة من قبيل الشكوى؛ إنّها تحاول إعطاء فكرة عن الشيخوخة وعن الشكل الذي يتخذه فيها الشَّعر، أي تضاؤل أبعادي نفسها في عينيّ. إنّني المح، مُقبلاً بأقصى سرعةٍ، خطَّ السمت الذي ساختفي وراءه، ممتزجاً به. لن أعود أبداً.

لدى العودة من دمشق مررتُ بجرش وأردت أن ألتقي ثانيةً ديبتر، الطبيب الألمانيّ الذي أنشأ في مخيّم غزّة مستشفى صغيراً. إستقبلني طبيب آخر، لبنانيّ رقيق المحيّا، وقال لي:

–ليس الدكتور ديبتر هنا. هو في ألمانيا. أنت صديق لديبتر، وهوذا ماحدث. لقد سُجِنَ وعُذِّب. ثمّ تمكّن سفير ألمانيا الاتحادية من إعادته الى بلده. كان الجيش الأردنيّ قد اجتاح مخيّم غزّة ليفرض قوانينه، وربّما للبحث عن الفدائيين المختبئين فيه. كان الجند ينهالون بالضرب على النساء والأطفال، كلّ مَن كان حيّاً، وكلّ مايجدون. ولمعرفتهم بأنّ ثمّة جرحى، فإنّ ديبتر والراهبة–الممرضة والممرّض الألمانيين انطلقوا الى المخيّم حاملين علباً وأدوية: كحولاً وضمادات، مايلزم للطوارىء. أحاط بهم الجند ماإن بدأوا بمعالجة الجرحى. وشرعَ الأردنيّون بالضرب، الضرب الذي تعلم كيف يمارسون. إعتقلوا ديبتر والراهبة والممرّض، في المعتقل نفسه الذي أُوقُفتم فيه أنتَ ونبيلة النشاشيبي والدكتور الفريدو. أعتقد أنّك ينبغي ألاّ تُظهِرَ نفسك في عمّان أكثر من اللزوم.

لوكان يريد المقاومة...، إلاّ إنّ ديبتر كان ألمانياً أثيريّاً، بالغ العناية بالمرضى، قادراً على بذل الجهود وتحمّل التعب، يسهر طويلاً على مُراجعين يأتون لرؤيته مساءاً بسبب من عزلتهم؛

كان يُريحهم ببضع كلماتٍ وأقراص أسبرين. كان أشقر، عنيداً، لكن هشّاً.

في دمشق علمتُ أنّ البدو انتصروا. وتقول لي حكاية الطبيب اللبنانيّ شيئاً آخر: إنّ الفلسطينيّين قد خسروا.

في مخيّم «البقعة»، كان مسؤول المخيّم، وهو شيخ عربيّ في سنّ المائة، مايزال يخرج في الصباح الباكر في نزهة صحيّة. عاري القدمين، بعباءة بيضاء، مع وشاحٍ أبيض معقود حول رأسه المجعّد، يخرج مع الفجر، وغالباً قبل الفجر. أي أنه كان يصلّي صلاته الأولى في الطريق. يسمع، بكامل التقوى، الأذان الآتي من المنارة المجاورة. ويستعيد رحلة حجّه، سائراً ببطء إنّما بهدوءٍ صوب خطوط الجيش الأردنيّ، بل حتّى كان يجتازها ولّما يرّها. وكان جميع الجند والضباط يحيّون الرجل المعمّر المايزال قويّاً. وهو نفسه ماكان يردّ على التحية إلاّ في العودة، مجتازاً بالتالي الجنود الأردنيين ثانيةً، إنّما في الاتجاه المعاكس.

ـ أقبل منهم فنجان قهوةٍ صغيراً. كان أحد الضباط في تونس. وهو يعرف أن يسقي القهوة بماء زهر البرتقال. أحبّه كثيراً.

ـ الضابط؟

ـ بل فنجان القهوة. يُريحني ويساعدني على الرجوع.

ومع انحدار الشمس، يعود الشيخ الى المخيّم متطامناً. كان يُرى الخَيال الأبيض، المستقيم الى حدٍّما، بلا عصا تُعينه، بعيداً في المغيب، قبل أن يختفي وراءه، بالغَ الاستطالة، خَيالُه الأسوَد.

كان قد عدَّ الخطوات في الذهاب. وأعاد تدقيقها في الإياب. كانت مقاوَمةٌ، ماكرة وباسمة، حذرةٌ بَعدُ، تقوم بأولى خطواتها. وبسرعةٍ كانت مسافة الخطوط الأولى للأردنيّين تُحسَب وارتفاعات البنادق تُضبَط. يأتي الفدائيون بصحن شوربةٍ للشيخ، الذي كان يسمع أحياناً الاطلاقات الناريّة الأولى، فيروح لينام في حجرته الضيقة.

ذاتَ يومٍ أردتُ أن أعرف إنْ كان أتقنَ الحساب أو كانت تلك أسطورة. توجّهت بالسؤال لكريم، الذي كان يحادثه غالباً. الحال، كان هذا المسؤول الكهل في سنّ الستّين لاالمائة. كان، بفضل تجاعيده شديدة العمق، وشاربَيه، وحاجبَيه المبيضين، يخفي عمره الحقيقيّ، ولكنّه استخدم منحدرات جلده كما يستخدم الفدائيون الوديان وظلالها. وعندما كان يعود، لم يكن خفيَ عليه شيء: من تسليحات الأردنيين حتّى لون الأحذية، حرْج أو نخلة غير يسيرة التحديد، عدد المصفّحات وأسمائها، رأى كلّ شيء وحفظَه: الوقت،

الساعات، الدقائق، وكان يُردّد كلّ شيء. وفي خيمةٍ في الطرف الآخر من المخيّم، كان لديه امرأتان وفي القواعد سبعة فدائيين، هم أبناؤه.

هل يُحمَل وسام الشرف الى اليسار؟ أعتقد. ولاأحدَ لاحظ أنّه كان يحمله، مع أوسمة اخرى، على يمين صدره. بمَ كان ياترى يجازف بحَملها في الصحراء؟ كيف مات؟ عن هرم؟ عن تعب أو بفعل إطلاقة؟ لكن هل هو ميت؟ كان مزهواً بإخفاء لعبته بهذه القلّة. كانت عيناه تضحكان عندما يراني: كنتُ مضلّلاً، مثله. فلمّا كنتُ بلاورقٍ ولاقلمٍ فأنا ماكنتُ أكتب شيئاً، ولعلّه راقبني وخمّنني؟

يمكن أن يقودني المقطعان الأوّلان إلى وجهة لاأعرفها. وحده الاسم، فلسطين، يقدر أن يصوّرهما. أربعة مقاطع لاشكّ أنّ سرّها كان آتياً من الشطر الليليّ من أثمَن أعدائهم. لم يكن التعبير «أيلول الأسوَد» سوى نقطة على الخطّ الأيمن من الزمن المحسوب في تقويمكم الغريغوريّ، وصار «أيلول الأسود» كلمة سرٍّ محمّلة بالانفعال تلتقطها مائة مليون نسمة.

جعلتْ غولدا مائير نفسها تُنتَخب في شبابها ملكة جَمال فلسطين. «فلَسطين» كما يلفظها «الفلَسْطينيّي» (الفلسطينيّون). وماهذه السطور، وهذا الكتاب كلّه، الا ألْهية تبعث دواراتٍ مفاجئة سرعان ماتزول. كنتُ أشعر بدواراتٍ أخرى بإزاء مفردَتي «الاسلام» و«مسلم».

يصل المرء عجلون بالخروج من «البقعة» صوبَ نهر الأردنّ، ماراً أمام الرادار الأمريكيّ المكلّف بمتابعة الأقمار الصناعية. بعد المعركة بشهرٍ، ترى أنّ كلّ مايذكّر بالفلسطينيين، باستثناء علب السجائر الفارغة أو نصف الملأى، قد تمّ إحراقه، محوه، دفنه، أو إزالته ببساطة، خلا الأدغال المتفحّمة. أو أنّ الفدائيين قُتلوا أو اعتُقلوا، واقتيدوا الى الصحراء حتى الحدود مع العربية السعودية، بعدما مرّوا بالسجون الأردنية التي كانت تعذّبهم بأفظع من الصحراء. وكان خبراء الـ«أف. بي. آي.» [مكتب المباحث الفيدراليّة، الأمريكيّ] أكثر ارتياحاً هناك في تلك الفترة، من دون المكيّفات الهوائية للأسف. وفي الأرياف كانت المعركة قد هرست القمحَ والشعير والشيلم والباقلاء، وكان ينبغي انتظار بيروت ١٩٧٦ وبيروت ١٩٨٢ لأرى ثانيةً، حول شاتيلا بخاصّة، الطبيعة المكدَّرة والمتفحمّة حتى العظام، نفسها، وحتّى أعرف أنّ عظام الصنوبر والتنّوب سوداء. قرأت أنّه في المواضع التي تُرتَكب فيها جريمة، تظلّ دائماً بقايا تتمتع

بقيمة علامات. وفي ١٩٧٢، في قرية شركسيّة صغيرة، على منحدرات الجولان، بعد ستّ سنوات من الاحتلال الاسرائيليّ، عثرتُ على ثلاث مزقٍ من رسائل مرسَلة من دمشق (ومكتوبة بالعربية طبعاً). كانت الرسائل الثلاث عائدة الى الجنديّ السوريّ نفسه، الذي كان قد هرب، والتجأ في دمشق، وخلا آياتٍ قرآنية عديدة، يتضح منها انّ اللّه أبقى عليه حيّاً ليسبّح جنديّ باسمه أخيراً، خلا ذلك كانت الرسائل فارغة. كان المرسَل إليهم، أعضاء الأسرة، ميّتين أو لم يستلموا الرسائل في الحين. وكان الجنود الاسرائيليون هم أوّل من قرأ الرسائل وتركوها هنا. كانت المنازل الاربعة الصغيرة في القرية الشركسيّة، بمغالقها الخضراء وسقوفها من القرميد الاحمر، مهجورة، مشرعة النوافذ والأبواب. وبعد الانزال في «آفرانش»، شوهدت في النورماندي [في فرنسا] بضع قرى في حالة مماثلة، وقد نهبها الأمريكان.

بصورة غريبة، كان مالم يمكن إزالته في عجلون هو الحُفَر المُحدَثة في الأرض، ولقد رأيت ثانيةً الملاجيء الثلاثة الصغيرة التي تمتُ فيها قربَ الفدائيين. كانت الحيطان والسقوف تُدخّن. ومزقٌ من الأغطية البنيّة تتجرجر مع الموتى هنا وهناك. علمتُ ذلك من حجارةٍ تدعم ورقةً، وأحياناً بطاقة هويّة مجلّدة بغلاف بلاستيكيّ، نعم، بطاقات الهوية مستطيلة الشكل، مدوّرة الأطراف، زرقاء–خضراء كنتُ أميّزها على الفور، مع صورة الفدائيّ في الزاوية اليمنى، وخصوصاً اسمه الحركيّ، مكتوباً بالعربيّة. لاحظت، فيما أجتاز القرية، وقبل أن أرى الفلاحين ونساءهم، اختفاءَ السكون: كان كلّ شيء يصخب، يقوقيء، يصهل، يتكلّم. لاأحد في هذه القرية ردّ على تحيّتي، لكن لم تبدر من أحدٍ إيماءة ولاكلمة قاسية أوجافية. كنتُ عائداً من بين أعدائهم الفلسطينيين كمن يعاود الصعود من بين الأموات.

عندما وصلتُ الى عمّان، كانت المقاومة الفلسطينية فريسة للذعر بكاملها. لم تكن قائمةً بعدُ الوحدة الظاهرية التي ستعرضها منظمة التحرير الفلسطينية بعد فترة، بل بالعكس كانَ عدم التفاهم والشراسة، بل الحقد تقريباً بين مجموعات المقاومة الإحدى عشرة، يتجلّى بغضب. وحدها «فتح»، التي لم تفلت من الانتقادات ولا من الصراعات الداخلية، كانت تعْرِض واجهةً موحّدة: وماكانت لتفعل ذلك إلاّ بإدانتها الحركات الأخرى.

إنّ ما حدث اعتباراً من تموز/يوليو ١٩٧١، أي انطلاقاً من معركة عجلون وجرش وإربد، ما يزال يدهشني حتى الآن. لقد تصاعد نوع من المرارة في العلاقات بين الفدائيّين، وكنت الشاهد على ما يأتي: كنت أعرف فدائيّين في سن العشرين. كانا صديقين في القاعدة نفسها، على ضفة الأردن، إلاّ إنّ احدهما بقي فدائيّاً، فيما نال الآخر ترقية صغيرة. ذات يوم،

في «البقعة»، طلب الفدائيّ البسيط ترخيصاً بالذهاب ليعودَ زوجته، وكانت مريضة في عمّان (على بُعد عشرين كيلومتراً). هذا هو الحوار الذي أعيد بالطبع تركيبه، معتمداً على ذاكرتي:

ـ سلام الله عليكم.

ـ .. عليكم السلام.

ـ يا عليّ، هل تقدر أن تعطيني إجازة لأربع وعشرين ساعة، فزوجتي حامل.

ـ وزوجتي أنا أيضاً. ومع هذا فأنا باقٍ هنا. النوبة نوبتك في الحراسة هذا المساء.

ـ ساجد بديلاً.

ـ هي نوبة البديل أم نوبتك أنت؟

ـ لديّ صديقان أو ثلاثة ممن يوافقون.

ـ لا.

بقدر ما كان النبر يحتدّ، كان الأول يميل الى التوسّل، والآخر، وكما لو كان الأمر عبارة عن تحوّل طبيعيّ، منتظَر، وضروريّ بالمعنى اللاهوتيّ للكلمة، يكتسب نبرَ قائدٍ صغير، ورنّة صوته بالذات. لم يعد الأمر يتعلق بروح الانضباط، ولا بأمن المخيّم، وإنّما بالتنافس الشائع بين الجنود البسطاء ومن هم أعلى رتبة. رجلان يتجابهان من أجل وطن واحد ما يزال بعيداً عن الأنظار.

علمتُ فيما بعد أنّ الحقد الذي ولد ذلك اليوم بين الاثنين ما يزال إلى الآن حيّاً، ولمّا كان الاثنان يتكلمان الانجليزية بطلاقة، فإنّهما يُدليان الى صحف هذه اللغة بتصريحات تلمح فيها صدى ذلك الحقد الذي ما برح فتيّاً. هل الحقد قائم باديء ذي بدء، ولكي يتجسّد على أفضل نحو ممكن، فهو يحتاج الى صديقين؟

غادرَ كلّ مَن كان فلسطينياً بالولادة أو بالتصاهر. عبرَ سوريا أوّلاً، ونحو تلك الفترة – نهايات ١٩٧١ – ما أعتقد، بدأ الفدائيون موجة التسللّ الثانية الى لبنان. آخرون ربّما كانوا ذوي دهاء – بفضل حَمٍ أو صهر أردنيّ – اشتروا قطعَ أراضٍ قرب عمّان. يُقال إنّ هؤلاء هم أثرى رجال المملكة الهاشمية. عندما تكون معهم على انفراد، ترى أنّهم يحتفظون من الفترة الثورية بحقّ – من ١٩٦٨ الى ١٩٧١ – بمفرداتٍ معدودة مثلما تُستعاد مفردات لهجة الطفولة

في فم فلاحٍ سابقٍ صارَ رئيس شركة في باريس. يشعرون بكونك متواطئاً في ذلك العهد، ولّما كانوا يخشون ألاّ تكون كذلك اليوم فإنّ ستاراً خفيفاً ينزل على احمرارهم. بسرعة، ودون أن تسأل أنت ذلك، يقولون لك سعر منزلهم في جبل عمّان، «الحارة الأكثر أبّهة في المدينة».

تلزمني سنوات عديدة لأفهم كيف أصبح مسؤولون، أقصد مسؤولين معروفين تُذكَر أسماؤهم في الصحف الغربيّة، أصحاب ملايين من الدولارات. إنّ ماكنّا نعرف، من دون أن نعرفه جيّداً، بإغماض الأجفان نصفَ إغماضٍ، ماعادَ يشكّل بضع جزرٍ صغيرة متناثرة في بحر المقاومة، وإنّما خزْنة فعليّة يملك فيها كلّ واحد، بعلمٍ من الآخرين، جاروره أو جواريره. يحفظ فيها مستندات ثروته في سويسرا أو سواها. وكان يعرف أيضاً مايخزن الآخرون، إذْ لم تكن الثروة غالباً سوى كنزٍ مُتقاسَم.

وكان المقاتلون يعرفون هذا كلّه. إنّ سنَد امتلاكٍ يمكن إخفاؤه بسهولة، لكن لايمكن إخفاء غابة، أو فيلاّ، أو سجلّ مساحة. وكانت القيادة العليا تعلم بالأمر أيضاً. ربّما كانت تفيد من ذلك؟ لاأحد في «فتح» كان يجهل اباحسن، وسيّاراته الرياضيّة والفتيات الحسناوات الموصوفات، هؤلاء وأولئك، من قبل بوشاسي («عاشق مشيقات القامة»، كما أفترض، مادام يُلقَب كذلك) (٣٧)؛ لقد قابلتُه مرتين أو ثلاثاً، والمرّة الأولى في ظرفٍ أصابه بالحيرة، لأنّني كنت مجبراً على أن أسأله، أمام الفدائيين المستأنسين، إبراز بطاقة هويته. فتّشَ في جيوبه، في نصف امتعاض ونصف استئناس، وأخرج من جيب السترة، فيما يلوّن خدّيه شيء من الدم، البطاقة الزمرديّة التي يحملها كلّ فدائيّ. كان، هو المستفزّ الأعصاب والرياضيّ، المسؤول شديد البأس عن منظمة «أيلول الأسوَد» التي كان هو يخطّط لعمليّاتها. قيل لي إنّ عرفات كان يفيد من غروره لصالح المنظمة. علمت بموته هو وأبي ضياء، بتفجير سيارته، كمن يتلقى نبأ هزيمة. باستعادة بطيئة لكن واثقة، للمنظور، صرتُ أرى ماحدث. كنت أقول لنفسي مايأتي تقريباً:

من الطبيعيّ أن يلهب الحسد أعين المقاتلين عندما يلجون الى داخل منزلٍ مترف، وخصوصاً أن يأتي الفساد من بعض المسؤولين الذين يعالجون ويداعبون كيلوات من الأوراق النقدية الجديدة والخضراء من فئة مائة دولار. عندما تبرز نجاحات حركة ثورية، يُختزَل التفاني إلى براهين على الانتماء منذ أوّل ساعة. كيف يمكن التمييز بين الهبة الكليّة للذات والاحتيال من أجل منصب أو الهيئة بالغة العناية لوضعية طَموحٍ – في المال أو السلطة؟ أو كلا الأمرين، خصوصاً عندما يعلن طامحٌ أنّه «يضع ذاته بكاملها في خدمة المصلحة العامة والثورة»؟ لقد استشهدتُ، بين المعقّفات، بالترجمة الفرنسية لعبارة دقيقة برّر بها أحد المسؤولين، أمامي، ثروته (تموز/يوليو ١٩٨٤).

وأخيراً، فهناك المتأخّرون، الثوريّون الآتون بعدَ انتهاء الأعباء، والذين يهرعون راكضين عندما تكون الثورة صارت دولة؛ هؤلاء يَلْفون أنفسهم مجبرين على أن يقاتلوا بالأيدي العارية المصارعين الذين تعلّموا، في أثناء «المسيرة الطويلة»، الطّعم شديد العذوبة للسلطة.

قدّمَ لي اغتيال القائد الأعلى لحركة «الصاعقة» زهير محسن في فندق بالغ البذخ في مدينة «كان» الفرنسيّة، إضاءةً كانت من الحدّة بحيث خشيتُ أن أصبح أنا نفسي الاشارة الضوئية الدالّة على خطف الأموال المخصّصة لتسليح الفدائيين وإطعامهم، ولقد أدركت ذلك بصورة هي من المفاجأة بحيث حسبتُ (دام هذا قليلاً من الوقت) أنّني الوحيد في العالَم الذي اكتشفَه. وفي روما وباريس، ضاعفَ مسؤولون في منظمة التحرير الفلسطينيّة شعوري بالبلبلة عندما قالوا لي، ضاحكين فيما بينهم ومدخّنين لفائف من التبغ من الصنف الأوّل، «موست» كما أعتقد:

ـ لكنّنا جميعاً كنّا نعلم. كنّا ندعوه فيمابيننا بـ«السجّادة الشرقية».

إذا كان الجميع يعلمون، فماالذي كان محسن يعرفه ياترى حتى يلزم الجميع الصمت عندما كان هو على قيد الحياة؟

إذْ أعيدُ قراءة ماكتبتُ، ألاحظ أنّني اتّخذت نبراً سجالياً. هاأنا بعيد عن الغرق المسرحيّ الذي لايرتفع فيه الماء أعلى من حنكي.

كان إلزام هتلر اليوميّ، الأوّل، والذي لامفرّ منه، هو الاحتفاظ من أجل اليقظة بهندامه، و«كنْس» شاربَيه المقصوصَين، شبه الأفقيّين، اللذين تبدو كلّ شعرةٍ فيهما وهي تخرج من المنخر، والخصلة السوداء والملمّعة ماكان يحقّ لها أن تخطيء وجهتها على الجبين الجامد، ولا الصليب المعقوف لينبغي أن يدير أطرافه ناحيةَ اليسار، أمّا الألق الغاضب أو الملاطف في العينين فبمقتضى اللحظة، وكذلك نبره الشهير والبقيّة التي لايمكن أن تُقال. ماالذي كان ياترى سيحدث لو تحوّلَ، لدى وثبته من سريره، أمام وجهاء الرايخ وسفراء المحوَر، فتى فنلندياً أشقر وأمرد؟

والامر نفسه ولاشكّ عندما يتحوّل شخصٌ، من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، من نعل حذائه المزدوج الى جوف قبّعته، من جوارب النجاشيّ حتى مظلتّه الشمسيّة، من أساور عقب مارلين حتى غليونها، أقول يتحوّل الى شعار. أيمكن تخيّل تشرشل بلا لفافة؟ أو تصوّر لفافة بدون تشرشل؟ أوَيمكن أن تنعقد كوفيّة على رأس آخر سوى رأس عرفات؟ لقد أهداني

الأخير، كما يفعل مع الجميع، كوفيّة جديدة وقال لي «إلبسْها في ذكراي». لمّا كان لايتمتع بحريّة الممثلين في الامضاء على صورهم، فهو يهدي نتفةً من نفسه. ويظلّ عرفات في نظر الغربيّين كوفيّة أسيئت حلاقتها. ولقد دُهشتُ لرؤيته، إذْ كان يشبه نفسَه لدى التطلّع إليه مواجهةً، لكنْ عندما التفتَ ليردّ عليّ وأراني جانب وجهه الأيسرَ، رأيتُ رجلاً آخر. الجانبُ الأيمن شديد القساوة، والايسر بالغ الرقّة حتّى لتغدو الابتسامة عليه شبه أنثويّة، فيروح هو يُصلّبها باندفاعات عصبيّة، كأنْ يتلاعب بهدُب الكوفيّة السوداء والبيضاء. تتهدّل الهدُب والشّرابات على عنقه، وأحياناً على عينيه، كما تفعل خصَل الشعر على جبين صبيٍّ مستاء. هذا الرجل اللطيف والذي ينظر إلي بعيد عندما لايشرب القهوة، رحتُ، لدى رؤيته عن مسافة متر ونصف المتر، افكّر بالجهد الذي ينبغي ان يبذله المرء، «في العماء» نوعاًما وكأنّما في ليل الجسد، إذاما أرادَ ان يبدو لنفسه وللآخرين شبيهاً بنفسه. أن تغفوَ الضفدعة وتستيقظ يحْموراً؟ ايعادل عرفات متغيّراً عرفاتَ مفكّراً؟ لايدين الفدائيون له وحده بأيّام الهداة، بل قد أقول أيّام العيد، التي كنت أودّ لو وصفتُ. لا يدينون بها له وحده، لكنّه وحده كان مسؤولاً عن الهزيمة.

أكان جموده مقصوداً، وبالتالي فعلاً لاينقطع؟ كان هذا العنكبوت الضخم يعمل من دون أن يبين عليه ذلك، رائلاً لعابه بصمت وهو لايكاد ان يحرّك النسيج المتموّج الذي كان سطحه يتّسع؛ افَكان يحسب، إذ يرشف فنجان القهوة تلوَ الفنجان، ويَسمعني من دون أن يصغي إليّ، أنّه يرى، في البعيد، العنكبوتة الضخمة الاخرى، يحدّق بها وهي تنسج لعابها، مزيدةً السطح الفعليّ لنسيجها: غولدا مائير؟ كان عرفات يفوه ببعض الكلمات في مثْل حذر الذبابة السائرة على النسيج بخطوات محسوبة. أكان هو هذا؟ أم كان يقوم باللعب نفسه الذي يمارسه العماد طلاس في سوريا؟

«في البدء صنّفَ جميعَ أزهار سوريا، من «أذن الفار» الأكثر عاديّة حتى «البرسيّة»، تليها زهرتان مجهولتان أسماهُما «خزامى الأسد» و«زنبق طلاس»، تليها ثماني عشرة امرأة عصيّة على النوال: كارولين دو موناكو، والسيّدة دايانا، وملكة جمال العالم في ١٩٨٣، ولويز بروكس لولو، واخريات، وقصيدة عن كلّ واحدة منهنّ، تُصْدرها دار نشره الخاصّة.»

هكذا كان الفلسطينيّون يتحدّثون عن العماد طلاس الذي كان، بالرغم من خواتيمه الضخمة، يَستمني فيما يتصفّح مجلّة «پلاي بوي» الاباحيّة، كما قال لي، ضاحكاً، أحد المسؤولين.

هذه «بورتريهات» بعض مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية.

لاأستطيع ان اقول شيئاً عن ابي علي أياد. لاشيء تقريباً. صوره الفوتوغرافية، شأنها شأن صور أبي عمّار، معلقة على جميع حيطان منظمة التحرير الفلسطينية. كان في حزيران/يونيو ١٩٧١ يقود منطقة جرش. وكان الجيش الأردنيّ يطلق النار على الفلسطينيّين المحاصرين. توقف الطرفان عن إطلاق النار. وبواسطة عرفات تمّ إبلاغ أبي علي أياد ماياتي: بتعلّة عماه النصفيّ، وعرجه، ومشيته البطيئة التي لايستطيع القيام بها الأ بمساعدة عصا، يضمن له الملك حسين النجاة إذا ماتخلّى عن الفدائيين، رفاقه في السلاح. إلاّ إنّه بقي. لقي الجميع مصرعهم. لاالشرقيّون يعرفون شيئاً عن [الفارس الفرنسيّ القديم] «بايار» Bayard، ولاالغربيّون. وعليه، فليس يكفي الموت. إنّ جميع الفلسطينيين يعظّمون ذكرى أبي علي أياد، لكن لاحظوا ماياتي: في اللحظة نفسها التي اختارها عرفات لمعانقة حسين، ربّما تذكّر انّ حسين هذا نفسه كان ينصب للفلسطينيين فخّاً آخر. كان عرضه النجاةَ يعني ماياتي:

«اهبُكَ إمكان التحوّل الى جبان. خذه حتى اخزيَ به الفلسطينيين بكاملهم في المستقبل واذلّهم في ماضيهم.»

وهذا ممّا يطبع بالروعة رفض ابي علي أياد.

غالباً مانتساءل بخصوص الموت، لابلا باعث، عمّا إذا كان ينبغي الاعتقاد بالخلود، وعن مدى دوام قيَم هذا الباعث. ايمكن ان نقول الموت... من أجل ماذا؟ او بالاحرى الموت من أجل مَن، إذا لم تكن هذه القيم، لااقول تُتَناقَل عبر هذا الموت بحماقة، وإنّما تولد منها بواعث للعيش جديدة؟

ساجيب هذا المساء بانْ لا. ليست البطولة بالمُجدية، خشيةَ ان تصبح انموذجية. يمكن ان نموت لعصيان أمرٍ موجّهٍ وغواية متاحة.

عن أبي علي أياد لن اقول المزيد.

هل كان ضرب من الكسل الذهنيّ الفرنسيّ، ورنين المفردة «مليون»، وكون العملة القديمة تبدو الآن عائدة الى الفرنك البدئيّ، بل «منحدرة» منه، أبعدَ من «لويزيّات» العهد القديم و«سولاته»، هل هذا كلّه كان هو الباعث في عدم قبول «الفرنكات الجديدة» [المدعوّة بالثقيلة] في الحسابات اليومية الأ مؤخّراً؟ هنا أيضاً كان الأبناء هم مَن ميّزوا الفرنكات الجديدة. التقاليد، الجمود: هل المفردتان مترادفتان؟ حتى ٦٨-١٩٦٩، ماكانت «فتح» ولا أية منظمة فلسطينية أخرى محمولة على محمل الجدّ. بل لقد كان هذا الاسم مجهولاً. وفي

نظر الكثيـر من الغربيين، كـان اسم فلسطين هو اسم بلاد اليـهـود الشغـولين والذين كـانوا يسكنون هذه البلاد منذ نشأة العالَم.

وعليه، فقد كان اليهود «هناك، منذ إبراهيم والفراعنة». وإنّ عنفوان «فتح»، وقوّة حضورها في المخيّمات، والأمل الذي مدّت به الفلسطينيين، ومقاومتها حسيناً والسكان الأردنيين، ودعم عبد الناصر، والمساعدة الصادقة من فيصل ملك السعودية، والدعم الخائف الذي قدمّته بقية الأقطار العربية، وشخصية قادتها، هذا كلّه صنعَ من منظمة التحرير الفلسطينية ومن الفلسطينيين رهاناً سياسياً هو بمثل أهمية دولة قائمة ترابيّاً، وعضو في «الجامعة العربية» التي سرعان ماانتمت إليها المنظمة. ومتفادياً أصداء النقاشات والمشاحنات والتيارات التي تقوم في كلّ حركة مقاومة، سأقول، فحسبُ، إنّ منظمة التحرير الفلسطينية قد اصطفّت منذ ولادتها الى جانب الاتحاد السوفياتيّ، وذلك الى هذا الحدّ بحيث أنّ إسرائيل صنعت وقالت وكتبت كلّ شيء حتى يرى الناس في المنظمة إفرازاً من الاتحاد السوفياتيّ بل سليلاً مباشراً له. ومثل هذه الرؤية كانت تريح المانويّة الأمريكية. والأوربية. سيتطلب هذا دراسة واسعة. كما كانت هذه الرؤية تريح نزوع الاتحاد السوفياتيّ المعهود إلى [العمل بمقتضى قاعدة] «الغاية تبرّر الواسطة».

لمّا كان ذكر جميع الأسماء متعذّراً، والتخييل غير قابلٍ للاغتفار، فسنكتفي باستطراد وجيز. [لنأخذْ] هبة الذات لقضيّةٍما، سواء كانت القضيّة تبدو لنا مقدّسة لأنّها نائية، أو متسامية بحيث لانقدر أبداً أن نجمعها بافعالنا اليومية؛ وليس مايُدعى بـ«الوراء» «بَعيدَ عمليات الحرب» فحسب، الاّ إذا كان هذا «البعيد» مستَحدَثاً بالكلمات التي تستحضر المجازر والتي تقوم بذلك من أجل إمتاعنا عبر التحقيقات الصحفية (اللقطات «الورائية» المحقّقة في الاستديو، أو الملتقطة بالعدسة الموجّهة، أو المكتوبة في المكتب الصحفيّ لسفارة، ومشاهد الحرب مع جرحى وقتلى ينهارون، مقاتلين يطلقون النار وقوفاً أو جاثين على الركَب أو مضطجعين، والكوارث التي تلذّ دائماً مشاهدتها أو القراءة عنها في الأريكة)؛ أقول إنّ «الوراء» هو أيضاً ذلك الموضع الذي ينظر المرء انطلاقاً منه بدون خشية، «آخذاً وقته» بلا شعورٍ بالعار: كان يقلب صفحة الجريدة المتعلقة بآسيا ليختار صفحة البورصة، أو يدير زرّ المذياع، ويعود إلى التحقيق الصحفيّ، ويُعادل تعبير «أخذ المرء وقته» هنا تعبير «قضى وطرَه». وماعاد المقاتل الذي يموت إذا ماغادرحفرة العبوات، وذلك الذي يحبس نَفَسه لأنّه يتظاهر بالموت بين الموتى، جاهداً في أن يظلّ غيرَ مرئيّ، والآخر الذي يَقتل، هؤلاء ماعادوا يتمتّعون بصلة بـ«الوراء» لأنّهم محرومون من الخيار، فماعادوا «ليأخذوا وقتهم». وإذا كنّا

نمارس، لدى ذكر الموتى أو المحتضرين، الحلمَ أو التكّهن أو التحنّن أو حتّى التماهي، وخصوصاً التأثّر، فلأنّ لدينا الوقت والترف في أن نقوم بذلك. «فلتأت لتفتنّني القضية المقدسّة التي يموت من أجلها آخَر». إنّ هبة الذات هذه لبالغة التعقيد. وإنّ بطولة الفلسطينيّين لرائعة مرّة وإلى الأبد، وهي بعض الأحيان ثمرة هندسة جدٍّ مبتذلة، ونتيجة عقدة عسيرة من الحسابات يكون الموت فيها ملامَساً عن قربٍ شديد أو بعدٍ شديدٍ إذا شئتم، وذلك لفرط دقّة الاشراف على الايماءة التي تلامسه، سواء أكانت هي البُرْدة التي تتحاشى قرنَي الثور، أو السير على شفا هاوية، أو المداهمة بالسيف مُشهَراً في الوجه، أو استفزازاً أو تصنّعاً. وبشاكلة هي من القرب بحيث يرى البطل الموتَ بامّ عينيه: له شكل خزْنةٍ ضخمة مقفلة على ملايين الدولارات. فجأةً، ينكشف للبطل الرقم السرّيّ للخزنة. لتنفتح الخزنة، وستتحوّل رُزَم المال الى أحجار كريمة وفرو ولفافات تبغ وسيّارات مرسيدس، وماسيراتي، وماريلين، وذلك بالترتيب. إذا لم يكن للبطل مجد أبي علي أياد أو قواسمة، كان له الذهب، والرغبة في أن ينال منه المزيد.

«إذا لم أنل لا المجد ولا الموت، فلمَ أرفض مُعادلهما كمكافأة؟»

ـ مهما كانَ ثراءُ قصورِ فلان ومجوهراته...

ـ اذكرْ لي إسمين أو ثلاثة أسماء.

ـ أعرف أكثر بكثير. وأنت أيضاً. قلْها.

ـ سمِّ واحداً فقط.

ـ كان على وشك أن يتخلّى عن عرفات عندما قامت سوريا...

ـ إسمه؟

ـ كلاّ.

يصعبُ ههنا الارتجال: كيفَ تحوّلت الرغبات المبتذلة أو الأحلام بالمضاجعات الجماعيّة الى تفانياتٍ ساميَة؟ ومن الصعب بالقدر ذاته أن نفهم كيف حوّلت نشاطاتٌ رائعةٌ رجالاً عاقدي العزم، أقوياء وجَميلين الى بخلاء يُسيل صفٌّ من أعمدة المرمر لعابَهم من الرغبة. خذوا مَن تشاؤون؛ إسبروا غور الكلى والقلوب والأمعاء لتكتشفوا فيها الفضلات (ينبغي التعوّد وتكييف النظر والشمّ وأرهَف مافي حاسّة اللمس)، هذا ماكانت تنبع منه حريّتنا قرب نهر الأردن. لعلّنا دِنّا بالليالي والنهارات المسحورة لمزايدات القادة وصفقاتهم ودهائهم.

ففي أيّ حماةٍ في داخلهم كان عليهم ياترى الدفاع عن مصالحهم التي كانت حرّيتنا تعتمد عليها؟ لقد اجتاز الملك، متبوعاً بوزرائه، ذاتَ يومٍ من ١٩٦٨ كما أعتقد، شوارع عمّان الرئيسية وهو يصرخ:

«يحيا الفدائيون! أنا أوّل فدائيّ.»

كانت عفويته كملك شابّ تُملي عليه هذه الصرخة، عفوية وديماغوجية غير صالحتين للاستعمال البتّة.

كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٤: إغتيال قواسمة.

تحتَ البشرة الشفافة للمقاومة، كنّا نرى الى فقرها المتزايد للدم. كانت القنوات المعقّدة تنقل وحلاً يصفو رويداً رويداً، وقنوات أخرى يَسودُ فيها سائل نقيّ، وكم هو عجيبٌ أنْ ترى إلى أطهَر الأوعية وهي يدفعها الموت الى الانفجار. لم يكن من جحيم فعليّ، لاهنا ولا في مدن الصفيح.

عندما سلّمني عرفات، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠، الرسائل التي تسمح لي بالتحرّك بحريّة في المخيّمات وفي قواعد منظمة التحرير الفلسطينية، فهو ماكان يجازف إلاّ قليلاً. أكان يعرف انّ القواعد المدعوّة «بوتمكين» كانت محدّدة المواقع من لدن صحفيّي الشرق والغرب، حتّى أدناهم موهبة؟ كانت بعض التفاصيل تدلّ على حيَل الفلسطينيين بسرعة. والمرئيّة أكثر هي تلك التي تهبهم القدرَ الأكبرَ من الثقة. الجهد الظاهر فعلاً الذي كان يبذله التلامذة الآتون من مونپليه وأكسفورد وشتوتغارت وليڤورن وبرشلونة ولوڤان وأوتريشت وغوتبورغ وأوساكا، ليقنعونا بانّ الفلسطينيين كانوا محقّين في خوض هذه الحرب ضدّ النظام الهاشميّ. كان المراسلون يعرفون ذلك. كانوا خصوصاً يرون أنّ الفدائيين لايعرفون شيئاً من فنّ تمثيل قاعدة حقيقية باخرى زائفة. لم يكن لدى الفدائيين أيّ تراث للزائف: المرمر الزائف بدل الحقيقيّ، المأساوية الزائفة التي تحاكي الألم، المسرح اخيراً والاخراج المشهديّ. لاشيء ممّا يشبه «الجادّات الملآى نخلاً مزروعاً في صناديق» التي كانت فصائل من أفراد الشرطة المتنكّرين في أزياء البساتنة يزحزحونها ليلاً ليحقّق بورقيبة، في سيارته منزوعة السقف، في كلّ مدينة، في الساعة الحادية عشرة، دخولاً احتفالياً عبرَ جادّة يظلّلها النخل المنتصب في الأصص وقد نَما في مساءٍ غير ماطر. وبعدما يكون بورقيبة قد مرّ واستقبله الأعيان، تُنقَل

النخلات في الليلة التالية من أجل دخوله في اليوم التالي مدينةً في جنوب المدينة السابقة. مسار سرّيّ مُقرَّر، كانت عين بورقيبة الزرقاء، غير المخدوعة، تباركه. فلقد كان الديكتاتور، العارف أهميّة التضليل يميّز الأشجار نفسها، وكلّ واحدة منها تحمل اسماً يعرفه بورقيبة ويهتف به في مروره:

«روكروا! واترلو! فاشودا! صباح الخير!» (٣٨)

وترى في القواعد الفلسطينية إلى الطلبة معسولي الكلام - بالانجليزية والألمانية والفرنسية والاسبانية -، والقادرين على اتخاذ الوقفة (البَوز) المناسبة للصورة، والاحتفاظ بالابتسامة نفسها، المتعَبة من فرط الاسترخاء [المصطنع]، واستعادتها عشرين مرّة أو خمساً وعشرين لصحيفة بذاتها، واصطناع الفرح أو الغضب، واختيار الكليشة أو التعبير الشائع المناسب لهذه الصحيفة أو تلك... إيماءات غير مجدية، فالصحفيون والمصوّرون الفوتوغرافيون ومراسلو التلفزيونات اكتشفوا من قبلُ الخطأ والتفصيل اللذين يُثبتان أنّ هذه القاعدة إنّما هي خدعة، وأنّ المراهق الذي يتكلّم يعرف الكلام، لا القتال.

إرسال هؤلاء الطلبة الى الحرب ليتعلّموا؟ هوذا السجال العتيق جداً يعاود الانبثاق في هذه السنّ:

«هوميروس يفقأ عينيه لأنّه ليس أخيلاً؛ الموت في برهةٍ وجيزةٍ أم الغناء للأبدية؟»

كان الصحفيون يعرفون الفارق بين الوثب وسطَ دخْنة مولّدات الدخان وبين النزول، تحت الصليات، الى غور الأردن. والفدائيون أيضاً، والأشبال.

بالرغم من احتراسهم الكوريّ (كوريا الشمالية)، ماكان «الفهود السود» ليقدروا على التخلّص ممّا يأتي: الاجتذاب المتبادل؛ هكذا بحيث أنّ «حركة الفهود السود» كانت مشكّلة من أجسامٍ ممغنَطة يمغنط بعضها البعض.

كان الفدائيون يمتثلون لصرامةٍ باسمة. وكانت الإيروسيّة محسوسة. كنتُ أميّز موجاتها من دون أن أُثارَ بها. أتتذكّرون الصفوف الثلاثة من الدبّابات حول مخيّم «البقعة»، وخروج النساء الفلسطينيّات عاقدات العزم على الذهاب سيراً على القدم مع صغارهنّ الى بيوتهنّ، في فلسطين؟ كان لهذا الخروج هدف، ذلكم هو التخفّي على الهرب - لناجح -

لرجلِ دينٍ مسيحيّ فرنسيّ. أسخَطَ هذا الانتصار الجنودَ البدوَ الذين جابهوا بالرقصِ المسؤولين السياسيين والعسكريّين الفلسطينيين. البرهان الفحوليّ يصعب تقديمه، وأصعب من ذلك الافلات من ضرورةِ تقديمه. ولربّما وجَبَ « أنْ ندَعَه يعيش ». ولقد رقَصَ البدو، متحدّين بيروقراطيّي منظمة التحرير الفلسطينية. رقصوا بروعة. كان رقصهم بلا عيوب، لاأحد ليجرؤ على لمسه. وإنّ ذلك الرقص، الذي حفظه جفاف الرمال طوال ألفَي سنة أو ثلاثة آلاف سنة من كلّ فساد، قد بَدا للفدائيين الضجرين فتيّاً، نضراً وفاتناً. ولربّما ندمَ الفلسطينيون لأنّهم تحدّوا بعض الشيء تراثاً كان من العتق بحيث يوهم بأنّ هذا العالَم الجديد لم يكن هرماً وإنّما متعَباً، متغضّناً، في حين كان عالَم الصحراء قد بقي بلا شائبة.

بعد هذا الحدث بثلاث سنوات، تزوّج أحد المسؤولين. دُعيت مع الكثيرين، لا الى الزفاف، وإنّما الى حفلة الغداء التي تلته. وكان العريس قد قبل دعوة عشاء لدى أبي عمر حضرتُه مع بعض الفدائيين جاؤوا بزيّهم المدنيّ.

ـ أستَجعل من امراتك ممرّضة؟

ـ أبداً. لقد تزوّجتها عذراء.

ـ وهل تصرّ على الاحتفاظ بها عذراء؟

ضحكنا قليلاً، إلاّ إنّ محيّا العريس بقيَ ناشفاً، جامداً.

ـ أريد زواجاً حقيقياً. لن تصبح زوجتي ممرّضة.

ـ هل لديك شيء ضدّ الممرّضات؟

ـ كلاّ إنْ كنّ أجنبيّات. إمرأتي مسلمة.

كانت المزحة عتيقة جداً، ولكنْ قيلت من جديد:

« ينبغي الوثوق بالصحراء حتى نستعيد فيها ينابيعنا. »

لكنّي أتساءل إذا لم يكن ينبغي إكمال هذا القول المأثور والعجيب بماياتي:

« فَلنُعلّم ماركس أسباب الثورة الصناعية في إنجلترا ومراراتها ولننتظرْ أن تحفظ الصحراء ينابيعنا. »

ربّما كان الرمل، كرقصاته الفحولية، العرْسيّة أو المُداعِبة، يصون العالَم العربيّ: خياماً وقوافلَ وجِمالاً . . .

الحلم [الغربيّ] بالشرق والحلم البدويّ:

الخيمة / الهواء المكيّف.

السفر / [السفر] بلا رضوض.

الجَمل / سيارة مرسيدس.

الرقص / رقص الأسلاف على طريقة الـ «سميرف» (٣٩)

الفحولة / فريد الأطرش.

طوالَ شطرٍ من ١٩٧٠ وكاملِ العام ١٩٧١، أوهمَ عدم الاكتراث بكلّ سياسة دولية باستقلال الفلسطينيين، باستثناء المسؤولين السياسيّين. لنتذكّر ردّ عرفات على فدائيّ من «فتح»:

ـ لمَ ينبغي أن نعرف إن كان الروس أو الأمريكان موافقين؟ قبل خمس سنواتٍ كنّا نذهب أنّى شئنا، نقيم الثورة أو أيّ شيء آخر، من دون أن نسألَ رأي أحد.

ـ لاأحد كان يفكّر بنا. واليوم نحن مشكلة: ولاأحد يدع المشاكل تتنزّه مادامت قابلة للحلّ جميعاً.

مثلما كان الفلسطينيّون، في ١٩١٠، وفي ١٩١٧، يشكلون، ولمّا يعلموا بذلك، حلماً (حلم يقظة أو سواه) لليهود البولنديين والأوكرانيين، الذين ربّما كانوا لايعرفون عن فلسطين سوى أنّها أرض الميعاد، أرض الحليب والعسل، ومن دون أن يخطر على بال أحدٍ أنّه سينبغي طرد ساكنيها. لما كانت فلسطين فضاء حلمٍ يتعيّن بناء كلّ شيء فيه، فقد كان يهود ١٩١٠ يحلمون بها أرضاً خالية، مسكونة في أسوأ الاحتمالات من قبل ظلال لا قوام لها، ولا من حياة شخصية. ما من فلسطينيّ كان يعرف أنّ جنينته كانت فضاءاً فارغاً منذوراً لأن يتحول الى مختَبر، وأنّه، هو نفسه، مالك الجنينة، ماكان فيها أكثر من ظلّ عابر، ظل لايقبع الاّ في الأحلام على مسافة مئة كيلومترٍ من هنا.

لكن كيف يمكن سحق البيوض؟ كالقمل وكالبيوض، كانت معامل الجرار تتكاثر. أكان ثمّة نرويجيّون يذهبون أكثر فأكثر للاصطياف في الأقطار العربية؟ كانت الأسعار تحبّذ العُملات الاسكندنافية في الجزائر والمغرب وتونس ومصر ولبنان وسوريا والأردن، في ورشاتٍ صغيرة لجِرارٍ تعود الى بضعة آلاف السنوات.

وعلى النحو ذاته تقريباً، لم يكن الفلسطينيّون المعروفون كثيراً أو قليلاً تحت اسم «اللاجئين» ليشكّلوا في ١٩٧٠–١٩٧١ حتى مادةً للحلم، بل كانوا يجدون أنفسهم، ببساطة، ممثَّلين في الاعانات السنوية التي تقدمها «وكالة غوث اللاجئين» الى كتلة من البشر في المخيّمات ماكان شخص واحد فيها معروفاً. الحال، كان على العالم أن يسمع في ١٩٧٠، من جديد، كلمة عتيقة كانت اختفت من القواميس السياسية: فلسطين. ماكانت هذه الكلمة، في صيغ المفرد والجمع، والتذكير والتانيث، تحدّد لا رجالاً ولا نساءاً، بل كانت هذه الكلمات المسلّحة تشير الى ثورة ماكانت القوى العظمى لتعرف بعدُ إن كان عليها أن تحتويها أو تدمّرها، هي التي لا تعرف أن تقوم إلاّ بهذين الشيئين. ربّما كان الفلسطينيون، الفوضويون، والأحرار ظاهرياً، منذ ١٩٦٦، قد أرّقوا هذا الوعي السياسيّ أو ذاك. إلاّ إنّهم ظلوا، لزمن طويل جداً، محلوماً بهم أكثر منهم مفكَّراً بهم.

كانت النقّالات الصغيرة في مدخل القرية، أو في مخرجها إن شئتم، بل بالأحرى الى جانب تلة من القاذورات أو النفايات، هذه المفردة التي تلزق بالأصابع والأغطية، والتي هي ثمرة سعادةٍ كبيرة أو «موتٍ صغير» [الذروة الجنسيّة كما تُدعى في الغرب] أو دليل عليهما، نفاية الحياة الزوجيّة، مزيج من العُلَب الفارغة المفتوحة بمفاتيح العُلَب والفرُش العتيقة والأواني المكسّرة ترى وسطها الى أطفال المخيّمات الجوّابة عراة الأقدام وهم يبعثرون النفايات ويعيدون تكويمها. كانت النساء يذهبن لسرد المغامرة العذبة في فساتين ذات دوائر مزركشة بتفتة كاذبة، والرجال يضفرون السلال: صغَر أيدي الفحول السمراء وحركيّتها الكسول. وماكان سارقو الدجاج ليتحرّشوا ابداً بمجال الحرّاثين، والصبْية السوقيّون والفتيات يذهبون الى القرى للشحذ والسرقة والكذب، فهارس حيوية جامعة لصنوف الرذائل، جحيم فردوسيّ ترى اليه القرى وهو يصل أو وهو يرحل. وكان الفدائيّون الحقيقيّون يعرفون القانون وإليه يمتثلون، ومع ذلك فأمامَ أيّ نظّارةٍ كان الفلسطينيون والمخيّمات الجوّابة يبدون وهم يلعبون؟ العالَم كلّه؟ اللّه؟ أنفسهم؟ يراقبون جودة اللعب لدى بعضهم والبعض الآخر؟ يكونون ضدّ ماهُم عليه؟

كان المخيّم الأخير الذي رأيت للتسيغان (الغجر) الرحّل في بلاد الصرب، وبالطبع عند مدخل قرية أوجيتسه—بوجيغا أو مخرجها، يقع قرب تلّة من القاذورات. كانت النقالات ماتزال من خشبٍ متعدّد الألوان، تجرّها خيول، وكانت في ذلك الصباح محلولة. أبصرني الصبْية شبه عراة الأجسام، فركضوا يُعلمون النسوة اللائي أعلَمنَ بدورهنّ الرجال كثيفي الشعر. ولم يبن هؤلاء إلاّ عن ربع الوجه تلمح فيه عيناً كاملة، تكفي لرؤيتي، لكن لاأكثر من اللزوم. واختفت نُتَف الوجوه هذه. بعد ذلك بقليلٍ جاءت امرأتان جميلتان، في حوالى السادسة عشرة، في مشية مائلة ومدروسة شأنها شأن تأرجح الكفلين، بمقتضى خطٍّ يبدو غير مباشرٍ ومع ذلك فإنّ كامل المشهد ذاكَ كان ولاأكثر فجوراً، أقول جاءتا لاستفزازي، يحميهما جدار بيت. في مواجهتي، إنّما منعزلتَين عن المخيّم الذي لابدّ أنّه كان يراقبهما مع ذلك من على بعض البُعد، راحتا ترفعان ببطءٍ شديدٍ فستانَيهما ذوَي الدوائر، أحدهما أخضر والآخر أسود بأزهارٍ حمرٍ، يرفعانهما حتى الخاصرة، وكشفت كلّ واحدة عن عضوها الجنسيّ غير الحليق. لما كانت فلسطين كوكباً سيّاراً يتنقل داخل العالم العربيّ [فقد قابلتُ ذات يوم] ما يشبه قبيلة فلسطينية، كوكباً تابعاً لفلسطين يدور حولها دون أن يفلح في الاصطدام بها أبداً. كانت هذه الفضلة الاجتماعية تدور في الفلك مثلما كانت مخيّمات «التسيغان» الغجرية في «صربيا» تبقي على مسافة بينها وبين «الصرْب» بسبب من عاداتها وأعرافها، أو بفضل قرار منها، فهذه هي طريقتها في العيش. إذا كان نظام الكون يلزم بشموس تدور من حولها الكواكب، فالنظام الاجتماعيّ يبدو لي مشابهاً أيضاً: تظلّ كلّ شمس تحتفظ بمسافتها، بالمعنى الهندسيّ للكلمة. ما أقدم هذا القانون الكونيّ للمدارات الاجتماعية! والأحداث الكثيرة التي تخترقه، من زيجات المصلحة الى الغراميّات المجنونة فانتصار سلالة ضئيلة على عدوّتها، فمضاربات مصرف «لازار» الكارثيّة، وما يبقى، ودوران الأجرام السماوية والأرضية، هذا كلّه كان يمنحني، لبضع ثوانٍ، قياساً آخر لإدراك عمل الثورة الفلسطينية.

كانت إسرائيل هي الشمس التي تحسب نفسها الأكثر فرادة، الشمس التي إذا كانت لا تقدر أن تكون الأكثر سطوعاً ولا الأكثر بعداً في الكون، فهي مع ذلك أوّل شمس ولدت في الكون الماضي الى اتساع، الوليد الأول، عموماً، في الانفجار الكونيّ البدئيّ.

كانت سوريا، عندما أصبحت مقاطعة عثمانية، تحسب نفسها أمّ فلسطين، في حين بقيت الأخيرة أرضاً مسمّرة إلى الامبراطورية التركية، ولكنّ هذه الأرض كانت هي الفضاء الذي تتحرّك فيه العائلات الكبرى، المجتذَبة جميعاً على نحوٍ يزيد أو يقلّ الى «الباب العالي» [السلطان العثمانيّ]، وكلّ واحدة منها تحاول أن تدفع عنه الأخريات. في أيلول/سبتمبر

١٩٨٢، عندما اجتاز الجيش الاسرائيليّ بيروت الشرقية ودخلَ الغربية، خشيتْ نبيلة النشاشيبي، بسبب من ملامحها ولكنتها الفلسطينية، أن تُساء معاملتها، فقد كانت هي الطبيبة المسؤولة عن «مستشفى عكّا»، في أطراف شاتيلا. التجأت مع زوجها إلى شقّة ليلى، التي هي واحدة من آخِر سليلي عائلة الحسينيّ. قلتُ لها:

ـ حدّثيني عن فلسطين في العهد العثمانيّ.

كنّا في صالون والدة ليلى، الباذخ. بدأت نبيلة بالقول:

ـ كان في فلسطين في أثناء العهد العثمانيّ عائلتان شهيرتان، الحسينيّ والنشاشيبيّ. كانتا في حربٍ دائمة، وفلسطين هي روضة لَعبهما.

نظرت حولها ورأت الى المخدّات المطرّزة والانسجة والتحفيّات والمجوهرات والى الناس المحيطين بنا.

ـ أتقدر أن تأخذني الى السفارة الفرنسية؟ لستُ بالمطمئنّة هنا. ليس المكان آمناً.

في مايتعلّق بوفاق هاتين العائلتين، المتحالفتين المتنافستين، وتزاوُرهما، كان ألقُ كلّ منهما يستند إلى قرابة تحدث كلّ ألفٍ ونصف ألف عام: انحدارهما، عبرَ عليّ وفاطمة، من النبيّ محمّد، من جهة. ومن جهة ثانية، وهذا نادرٌ في الأقطار الاسلامية، الانفتاح على الغرب بفضل ارتياد المدارس الأوربية في مدن فلسطين ولبنان. ولقد كنتُ أخمّن النشاط «الحلزونيّ» الذي قامت به «فتح»، وخصوصاً عرفات، الذي استخدمَ هاتين العائلتين اللتين أعتقد أنّهما استخدمَتاه بصورة أو بسواها.

بأيّ لعبٍ، يختلط فيه الحبّ والمال، صارت عائلتان كانتا تبدوان متضادّتين في كلّ شيء، عائلتان لاأقدر أن أقول اسمهما، متحالفتين اليوم بالتصاهر؟

أكتب هذا لأنّ من الحسن ألاّ يغيب عن ذهن القاريء، في أثناء القراءة على الأقلّ، أنّ تاريخاً معقّداً، مع إرادات القوّة المتعدّدة فيه، كان رهنَ العمل في فلسطين. لم يكن هذا الفضاء فارغاً قطّ. ماتزال العائلات الكبرى، مالكة الاراضي خصوصاً، والتي سلبت اسرائيل منها ملكيتها، تحتفظ في نظر زبانيتها من الفلاحين بالقها المتمثّل في كونها سليلةَ النبيّ.

طويلاً قبل أن يصبح فدائيّاً، كان الشعب فلسطينيّاً، اي انّ أُسُسه كانت مصنوعة ممّا يبقى من غابةٍ مقتلعة لاتموت فيها مع ذلك جذوع عشرات أشجار الأنساب الماتزال أغصانها

الأخيرة خضراء، والتي تتمتّع اغصانها الأولى بألف وخمسمائة سنة من العمر على الأقلّ، بل ربّما أكثر، مسيحيين وواحديّين (٤٠) في العهد البيزنطيّ، يهوداً من قبلُ، ومسلمين أخيراً.

ماكانت هذه العائلات بالغة القدَم، والمعتادة على القينيّة والتضليل والتدليس، لتخشى انقلابات العالم، لكنّ طبقةً تقبع أدنى منها مباشرةً لاتقدر ألاّ تفقد صوابها. عرفتُ بها في بيروت التي راح مدير صحيفةٍ فيها يقول لي مذعوراً كيف أحسّ بانزلاقه نحوَ الشرّ:

ـ عاد ولدي الى المنزل مرّاتٍ عديدةً بفواكه جدّ طازجة. رفضتُ في المرّة الأولى تناولها، لأنّ اصلها لم يبدُ لي موثوقاً منه. وفي الثانية اكلتُ منها، يدفعني جوع شديد. بعد ذلك، صرتُ أنتظر أن يحمل لي ابني منها، وأخيراً صرتُ أستاذه في هذا الفنّ، السرقة. سرقة الفواكه، النفط، الطحين، هذا لاشيء إن كنتَ تعرف السرقة، لكنْ أنْ تعرف الكذب فهذا ماانتهينا إليه. لقد صنع منّا الاجتياح مُجرمي حقّ عام. وخصوصاً كذّابين، وفي هذا وحده انهارت أخلاقنا، التي كانت مستورةً للحظة.

خلتُ، وأنا أستمع إليه، أنّني أرى الى الصيرورة المُهَلهَلة للدكتور محجوب.

كانت أخلاقية ناجعة وتعاقديّة تتسبّب بآلامٍ حقيقية لبرجوازية ماتزال تؤمن بالفضائل التي كان يعلّمها آباء معهد القديس يوسف. كانت هذه البرجوازية تأتي تماماً بعد العائلات الكبرى التي كانت أرستوقراطيتها الحربية والوقحة تحميها من وخزٍ زائدٍ للضمير. هنا، كما في جميع مجتمعات النبالة، يُستشهد، بابتسامٍ، بالمقولة:

« أنْ تسرقَ هو أن تغيّر موضعَ الشيء. »

من الغريب انّه، ليس بعيداً عن عمّان، وبالتالي عن الادراة الهاشميّة والانتفاضات الفلسطينية في المخيّمات، كانت قبيلة زائفة، صغيرة وهائمة، من حوالى خمسمائة شخص، تعيش في خيامٍ أكثر ترقيعاً من خيام الفلسطينيّين، تتنقّل من وادٍ الى آخر، وتعتاش عموماً من سرقات صغيرة وتسوّلاتٍ أصغَر. عرفتها، وهي ذي حكايتها، إن لم يكذب عليّ رجال هذه المجموعة الصغيرة: جاءني الدكتور ألفريدو يسألني مايمكن أن نفعل لمجموعة الأفّاقين المجهولين بالقياس إلى الأفّاقين المعروفة هويّاتهم. لافقط كان أفرادها أفراد عائلة، بل كانت أكثر من هذا مطرودة من مخيّم الى آخر، ومن قرية أو بلدة إلى أخرى، لاتتمتّع بمجالٍ ولاحتى بقطعة أرض. كان هؤلاء يخيّمون بالتفضيل في حقول الشيلم المحصودة للتوّ. وماكانت منظمة الأمم المتحدة لتحميهم، مادامت لم تعترف بهم ولاحتى كمُهجَّرين. ماكانوا ليعرفوا القيام بشيء، بل يكرهون العمل، ولذا، فلكي يبقوا، كانوا يعيشون من السطو والشحذ. على أنّ هذه القبيلة

المصغّرة والزائفة كان لها نظامها المراتبيّ، الذي تتألّف قاعدته من مجموع النساء، تليهنّ الفتيات، والأطفال الذكور، ومختلف الرجال المُعافين، ثمّ من ستة عشر شيخاً ملتحياً يتزعّمهم رئيس رأيتُه لكن لم اعرفه، ولقد بدا لي أكبرَ أفراد القبيلة سنّاً، أو المتمتّع بالسلطان الأكبر، وبالتالي بالطرائق الأكثر لطافةً ونأياً في آنٍ معاً.

يتكلّمون عربيّة قيل لي إنّها سائدة خصوصاً في منطقة الميناء السوريّ «اللاذقية». ولربّما كانت رحلتهم هي التالية، مادام أيّ من الأشخاص الذين استنطقتُ لم يتقدّم لي بإجابة منسجمة وإجابات الآخرين: لعلّهم انتهجوا الطرق في ١٩٤٨ وقد طردتهم إسرائيل من فلسطين. من هناك تاهوا في النقب حيث إقاموا أكثر من سنة. ثمّ هاموا في سيناء، وعادوا الى فلسطين التي صارت تُدعى إسرائيل وجاؤوا الى الأردن عبر مختلف ممرّات البتراء؛ إرتقوا، من مجالٍ الى آخر، حتى الشمال والشرق؛ ومن ثمّ جاؤوا، من دون أن يستقرّوا البتّة، الى المناطق المحيطة بعمّان حيث عرفناهم، أنا وألفريدو ونبيلة النشاشيبيّ، نعم، من دون أن يستقرّوا في مكانٍ، وكذلك، وعلى مايبدو، من دون الارتباط بأحدٍ ولاالوثوق به. ولئن لم تتنوّع الجماعة أفرادها، بفعل الزواج اللُّحميّ، فهي دامت منذ نزوحها بفضل ماأدانته الكنيسة أشدّ إدانة: سفاح المحارم.

زرناهم نحن الأربعة، أنا ونبيلة والفريدو وفدائيّ إسمه شيران، لنحصيهم أوّلاً، ولنعرف ماينقصهم. كان شيران يترجم.

ـ سنعود بعد غد. أحصينا ثلاثاً وعشرين خيمة. سنأتي بثمانية أغطية لكلّ خيمة. وبصناديق من علب السجائر. وبعُلَب أعواد ثقاب. وبصابون. وبمائة علبة من لحم البقر المعلّب. وبضعفها من السردين.

كان جميع أفراد القرية تقريباً يحيطون بنا. وبدت عليهم الخيبة لأننا لم نُعطِ شيئاً على الفور. وكان ردّهم الوحيد على خطابنا تقريباً هو انّ هزّوا أكتافهم. كان هؤلاء الناس يعيشون لحظةً بلحظة، عاجزين كما يبدو عن تصوّر مستقبلٍ يمضي من اليوم الى مابعد غد. ثمّ أنّني بدا لي، لاأدري بفعل أيّ تفصيل أو أيّة تفاصيل، أنّنا كنّا بالأحرى أمام جماعة همّشت نفسها إرادياً — بل ربّما عصابة وضعها خارجَ القانون الفلسطينيون الممتثلون للقانون والحقّ — أكثر ممّا أمام مابقي من قبيلة تضاءلت من جرّاء المسيرات والموت والتعب والبؤس. لو كانت هذه القبيلة المزعومة الغاصّة بالرزايا انتمت الى المجتمع بالرغم من الشقاء الكبير لماكانت ستُهجَر، هذا هو على الأقلّ ماكنّا نقوله بعضنا لبعض. وماأوقعنا في الحيرة هو انّ أيّاً منهم، رغم إلحاح نبيلة وشيران، ماكان أحدٌ يريد أن يُعلمنا إسمه الشخصيّ ولااسم هذه القبيلة الزائفة، هكذا بحيث

لمّا كنّا نتكلّم عن حاجاتها من دون أن نقدر على تسميتها، فإنّ المسؤولين الفلسطينيين تصوّروا أنّنا كنّا نتحدّث عن أشباح تعاني من الجوع والبرد، ولم يساعدونا الاّ بالضحك، منّا خصوصاً. فاختطفنا أغطية ومعلّبات من ثلاثة مخازن للمؤونة في مخيّم «البقعة» الذي لم يكن المسؤولون عنه قساة ولارؤوفين، بل مستأنسين فحسب. وعدنا [الى القبيلة الزائفة] بعد يومين، في شاحنة صغيرة محمّلة بالهدايا.

مايزال الجَمل يمثّل في الأردنّ رمز الرخاء، وكان لديهم جمل وأربعة أحصنة وقطيع من الماعز. كان هذا القطيع بكامله يعود الى رئيس القبيلة، الذي لم يكن أيٌ منّا رآه بعد.

ليس مؤكّداً أنْ يكون رجال هذه القبيلة ونساؤها حسبوا، عندما قلنا لهم إنّنا لن نعود إلاّ بعدَ يومين، أنّنا ذهبنا الى غير رجعة، لكنّ عودتنا بدت لهم من البُعد بحيث تُعادل عودة النيازك التي تستعيدها حسابات طويلة في حين لاتكاد الأجيال الجديدة أن تتذكّر رعب النيزك الأحدث عهداً، [وإذاما تذكّرتْه فـ] كحكاياتٍ ميثولوجيّة. كان رجوعنا يصنع منهم في نظر أنفسهم، بصورة من الصوَر، خلَفَ أنفسهم. وإنّ الرجوع بعدَ ألفَي سنة من الانتظار، ومع هدايا بهذه الوفرة، ليستاهل عيداً. فنُصبَتْ خيمة كبيرة، ضيّقة وبالغة الطول، أحاطَ بها جَمْعهم كلّه. تركنا الشاحنة قرب الخيمة، يحرسها فدائيّان. كان الصمت مطبقاً تقريباً، خلا التحايا المتبادَلة بين نبيلة وبضع نساء. رُفِعت رقعة من الخيمة، وإذا بنا في داخلها. كان أسياد القبيلة الستّة عشر متربّعين على أغطية في أحد أركان الخيمة، وجلسنا نحن في الركن الآخر على أغطية مماثلة. وقدّمت نساءٌ الشاي للجميع، إنّما للأسياد أوّلاً. دنت منّا حاملات الشاي وصببنَ لي أنا الأوّل، بسببٍ من سنّي. لم نسمع سوى صخب رشف الشفاه للشاي الحارق، رشفات قويّة تبدو للانجليزيّ نوعاً من قلّة الأدب، ولكنّ وقْعها جميل في اللحى والرمال!

إرتفعت الرقعة من جهة الأسياد، فظهر سيّد الأسياد الستة عشر والباقين. لم يرَنا. نهض الستّة عشر ونحن أيضاً، وبقي الجميع ثابتين. قبّل السيّد أوّلَ الرجال الستّة عشر ستّ عشرة قبلة على خدّه الأيمن، وتلقّى الثاني على خدّه الأيمن أيضاً خمس عشرة قبلة سمعناها، بل حسبتُ أنّ وقع الشفة على الجلد كان حميّة إضافية، والثالث تلقّى أربع عشرة قبلة شبه خافتة، والرابع ثلاث عشرة قبلة، والخامس إثنتي عشرة، والسادس إحدى عشرة، والسابع عشراً، والثامن تسعَ قُبَل. ثمّ أخذ السيّد نفَساً وشيئاً من اللعاب. كان ملتحياً وجدّ نبيل الهيأة؛ ولو انّ صبياً وقفَ الى جانبه رافعاً عباءته الصوفية السوداء، أو ركعَ، لماشككتُ في أنّ القبيلة الزائفة تواصل، كالفاتيكان، شعائر بلاط بيزنطة. واصل السيّد عمله: تلقّى التاسع ثماني قبَل، على جلدة الخدّ، والعاشر سبع قبلٍ، والحادي عشر ستّاً، والثاني عشر خمساً، والثالث عشر أربعاً، والرابع عشر ثلاثاً، والخامس عشر اثنتين، والسادس عشر قبلة واحدة

كانت هي الأخيرة. ولمّا كان أهدانا هذه المعجزة: اكتشاف شعائر القبيلة كمالو خلسةً، فقد أدار ظهره من دون أن ينظر إلينا وخرج. إنفصل أحد الرجال الستّة عشر وجاء يقول لنا، بالعربية، وبلطفٍ شديدٍ، انّ رئيس القبيلة يقبل الهديّة وأنّه سيستلمها بنفسه.

من أين كانت تأتي هذه القبَل المعطاة ببُخلٍ لكن لا بطيش؟ أبداً لم أرَ، لا في الاسلام ولافي سواه، أحد الأشراف يُقبّل بهذه الشاكلة، بانثيالٍ رصين، كما لو كان يلصق بجلد كلّ خدّ، أو بالأحرى يغرز فيه، مجموعة مشخّصة من الميداليات الرّنانة، شفاهاً وخدوداً يلتصق بعضها بالبعض الآخر وينفصل عنه بالصخب نفسه الذي تحدثه الشفاه والألسن وهي ترشف حارقَ الشاي. أم كان يلصق على كلّ خدٍّ طوابعَ؟ من أين تنبع هذه الشعيرة؟ أكانت تنبع «من»...؟ أم هي شعيرة ملفّقة لتمييز هذه القبيلة الزائفة وعزلها على نحو أفضل؟ هل إنّ مراتبيةً جديدة نشأت من آداب سلوكٍ ابتكرتها هيَ؛ وفي العهود القادمة سيواصل الصغار علامات النبالة هذه حاسبينَها أقدم من سواها في العالَم؟

تفاهَمنا، أنا ونبيلة والفريدو وشيران، بغمزة: سنُوزّع الحمولة بأنفسنا، وإلاّ فسَنغادر بالشاحنة ملأى. إبتعد الشيوخ الستّة عشر من دون احتجاج ولاابتسامة. نظرنا الى المخيّم: لم تعد فيه ثلاث وعشرون خيمة، وإنّما سبع وثمانون. لاتتألف كلّ خيمة من أكثر من قطعة نسيج تستند الي وتد، تسكنها امرأة وحيدة أو صبيّ وحيد، والخيمة الأكثر سكّاناً كانت تؤوي فتاةً وطفلةً وطفلاً، ثلاثتهم وسخو الأنف. مادمنا وَعدنا بثمانية أغطية لكلّ خيمة، فقد عدنا للبحث عن أربعمائة أخرى، وهو عدد اتفّقنا عليه. في مساء اليوم التالي، كانت النساء يبعنَ عند مدخل «مخيّم غزّة»، أو يقايضن بعلب السردين، مايقرب من أربعمائة غطاء.

ـ لوكنت في وضعهم لقمتُ بالشيء نفسه، قال لي الفريدو.

ـ وأنا كذلك، قالت نبيلة.

ـ وأنا أيضاً، قلتُ. لكنْ أن يفعلوا هذا بنا لهو مبالغة، فكّرنا نحن الثلاثة.

حدثَ ماياتي في شتاء ٧٠-١٩٧١. في كلّ واحدة من زياراتي للقواعد في عجلون، كان الدكتور محجوب يستقبلني وهو يزداد نحولاً وشحوباً تحت سمرته، مشيقاً، شعر رأسه أطول وأكثر رمادية في بعض خصلاته من ذي قبل، يستقبلني مبتسماً في حين كان، بسبب من آلام شديدة في العمود الفقريّ، يستند الى عصا ويبدو أكثر فأكثر انحناءاً وهرَماً. كان يقول لي في كانون الأوّل / ديسمبر:

ـ لو أفلحنا في اجتياز الشتاء!

وفي كانون الثاني / يناير:

ـ يصعب احتمال البرد. وخصوصاً الريح والجليد. إذا ماابتعد الطقس السيء، فسيكون كلّ شيء على مايرام.

وفي شباط / فبراير يؤكّد لي:

ـ أودّ لوقاموا في عمّان بمزيد من الجهد لإرسال مؤونة. يمكن أن تنقصنا. أنظرْ الى الفدائيين، إنّهم يزدادون ضعفاً. كثيرون منهم يسعلون. وهذا مؤسف. مع أوّل طلوعٍ للشمس، سيكون كلّ شيء على مايرام.

مالم يكن محجوب يراه وإنْ كان يعرفه هو العافية البادية على الجنود الأردنيين؛ يعيشون في ثكناتهم المدفّأة جيّداً، ويغتذون من الخراف والدجاج. في آذار / مارس، كانت ثقته مفرطة:

ـ هي ذي الشمس تعود ياجان. شهر آخر بارد قليلاً، وسيكون كلّ شيء على مايرام. لحسن الحظّ. ولم تعد لدينا من أدوية.

كان محجوب قد علمَ بماحدث في «الزرقاء». كان مستشفى قد أقيم على مسافة بضعة كيلومترات، بأموال عائدة الى العراق. وكان على الصليب الأحمر الدوليّ، الطبيب والممرّضات الذين كانوا يعالجون فيه عدداً من الفدائيين، أن يغادروه بعد يومين أو ثلاثة، فيصبح المستشفى آنئذ مِلْكَ الحكومة الأردنية. أعتقد أنّ الفكرة وتنفيذها يعودان الى الدكتور ألفريدو؛ هو باية حالٍ مَن حدّثني عنها:

ـ أأنتَ موافق؟ تعالَ معنا. سنرى مايحدث في المستشفى العراقيّ. ستكون نبيلة هناك. وسيقود فرج الشاحنة الصغيرة. وسيصاحبه أحد رفاقه.

بضع عبارات فحسب عن ألفريدو. لقد تربّى في كوبا، حيث درس الطبّ، وهو شديد التفاني من أجل الفلسطينيين، يتكلّم بالطبع الاسبانية والانجليزية والفرنسية. كوبيّ، لكن قيل لي إنّه ولد في إسبانيا، من أمّ هي كونتيسة قشتاليّة. وكان من قبلُ شديد الانتقاد لسياسة كاسترو.

كان ألفريدو يحترس من الصليب الأحمر، فقد رفض الأخير مساعدة الهلال الأحمر الفلسطينيّ في أثناء معركة عمّان. وكنت أقول لنفسي ولاشكّ إنّ ألفريدو، هذا الطبيب

والكوبيّ، يعرف ولاشكّ أضاليل الطبّ الغربيّ. أهي مزحة منه، هو الذي تربّى في كوبا ومارس الطبّ في هفانا، أن يقول:

ـ فلسطين أم كاتماندو، لم أقرّر بعدُ. مارأيك؟

سمحَ لنا الحارس المسلّح في المستشفى العراقيّ بالدخول. كان في المدخل صناديق مسمّرة عليها بطاقات، بعضها مكدّس فوق بعض. صناديق أدوية وأدوات جراحة مهداة من الصين القومية أو تايوان ومختلف الأقطار الأوربية. لكن لم يكن أحد هناك، خلا الحارس، الذي كان يدخّن فيما يَحرس. لا أحد في الطابق الأوّل. وكانت تكمّل هذا الطابق سطيحة ذهبنا اليها أنا ونبيلة وألفريدو وفرج. كان صبيّ جميل، أشقر وصغير، ممدّداً على مناشف، عارياً تماماً، يداعب شقراء عارية مثله وعلى المناشف نفسها، وكلاهما لايعيران الأسطوانة الدائرة في الحاكي قربَهما سمعاً. فاجَاهما دخولنا. خرجَ فرج والفدائيّ.

شرعَ الطبيب السويديّ والممرّضة الهولنديّة بارتداء ثيابهما. قال لي ألفريدو:

ـ وبّخْهما بالفرنسية. وستترجم نبيلة الى الانجليزية. وبّخْهما طويلاً، وسأذهب للقيام بجولة لرؤية الجرحى.

كانت الطبيبة الفلسطينية نبيلة النشاشيبي بمثْلِ استنكاري، ومع ذلك فكلانا كنّا راغبين بالضحك، ولكنّنا تظاهَرنا بالاستنكار الفعليّ.

«هناك عشرون جريحاً في الطابق الأوّل ولاأحد يعنى بهم»، قال لنا ألفريدو. شرع هو الآخر بتوبيخ الطبيب السويديّ والممرّضة، البادي عليهما الخوف. ثمّ خاطبني بالفرنسية:

ـ إشغلْهما لحظاتٍ أخرى.

ترجمت نبيلة للطبيب السويديّ، الذي بدا عليه الارتباك، ملامتي الكاذبة. عاد ألفريدو:

ـ دعهما. لنذهب.

بعد ذلك بساعتين، كانت جميع مشافي المخيّمات الفلسطينية تتقاسم محتويات صناديق الأدوية وأدوات الجراحة التي حمّلها فرج وصديقه الفدائيّ في الشاحنة الصغيرة في أثناء توبيخنا السويديَّ والهولنديّة.

في اليوم التالي، ولأسباب لاعلاقة لها بهذا السطو، أوقفنا الجيش الأردنيّ أنا وألفريدو

ونبيلة وطبيباً إيطالياً، قربَ عمّان، واقتادنا تحتَ مراقبة الشرطة الى السجن. ثمّ أُطلق سراحنا. ولمّا عرف أبوعمر باعتقالنا، أمرَ بأن اذهب مع الفدائيين وتحت حراستهم الى ضفة نهر الأردن وابقى هناك. صارت عمّان ممنوعة عليّ. كان يخشى إيقافي. فالتقيت في عجلون بالملازم السودانيّ مبارك ثانيةً.

على الفور، تلوح لي قبّعة القشّ تلك فوق عين موريس شوفالييه. ومنذ سنوات بعيدة لم تعدْ لكنة الضواحي في بلڤيل ومنيلمونتون أو پانتان. إنّ هذه الأسماء الثلاثة لقلاعٍ قديمة، أو التي هي اليوم مناطق تشير الى مراكز في أطراف باريس، يُنطَق فيها بلغة فرنسية بمثل صحّة لغة المذياع والتلفاز النحويّة وبمثل نقائها، وبالطبع من دون اللكنة الباريسيّة، لكنة الراء «اللاثغة» مثلاً، المشدّد عليها الى هذه الدرجة في الحلق بحيث تتقدّم كالخاء الاسبانية، وبحيث تُمَدّ النهايات المعتلّة للأفعال فإذا بـ«إلْ ڤا بلوڤوار» («ستَمطر») تصبح، في لكنة سكّان الشمال: «إي ڤا بلوڤوير» (٤١). ولقد سمعتُ في ١٩٤٣ جَصّاصاً، مع «كسكيته» على العين، يصحّح شرطياً ربّما كان من «پواتييه»، أمام مطرٍ مصحوبٍ بالبرَد. حسب الشرطيّ انّ من الفصاحة ان يقول بصوتٍ جهوريّ:

ـ كأنما ستَمطر.

ـ لاتعرف الكلام، قالَ له الجصّاص. ينبغي ان تقول «كأنّها ستَمطور». أو ببساطة: «ستمطور هذا الماساء.»

مايزال بعض الكلمات المبتكَرة في عهد شبابي يُستخدَم، إنّما من دون اللكنة الباريسية، وكذلك، وللأسف، من دون اللقايا العاميّة الزاخرة بالشّعر النافذ والملطّف بدخنة الملابس الداخلية المنسجمة وإيّاه. وإذا مااُنتَ أردتَ استعادة الحيوية في تصاعد اللغة فعليكَ بالتكسّع حول «روان» و«الهافر» و«كيفيلي» الصغيرة أو الكبيرة و«بوفيه» و«سنْس» و«جوانيي» و«تروا» ـ حيث ربّما كان السجن المركزيّ يُلزم الشبيبة بالاعراب عن ابتكاريّة عالية. ثمة حظّ قليل في انّ يكون المهرّج ذرب اللسان مايزال هو الصبيّ ذو السروال بالغ الطول. إنّ مُطران من باريس، ضاحويّ اللكنة، يشغل مكانه من دون ان يحلّ محلّه في عذوبة الايماءة. هذا مثل على حيوية الردود التي تحدّثتُ عنها: لقد أوقفتُ سيّارة اجرة، نحوَ ١٩٥٠. تردّد السائق، وكان ابن ستّين سنة، وله شاربان غليظان شبه مبيضّين، ثم وافق قائلاً:

ـ حسناً، إنّه اتّجاهي، فانا عائد الى المرأب.

ـ وإذَن، فانت مَن يسدّد الأجرة.

إلتفتَ برقّة، وتفحّصني، ثمّ، من فوق كتفه، وكمَن يَعذرُ تقريباً، جعلَ عبارته تنهمر عليّ:

ـ على الفور ياغلام، وكَما دائماً، فبالغرام!

كان كلّ شيء حاضراً: اللكنة الباريسيّة المفخّمة واللاثغة نوعاًما، وسرعة الاجابة ودقّتها: الطريقة الماكرة ولاشكّ في تفرّسه وإدراكه إيّاي؛ والمُعايَرة، اقصد تقدير النبر الصحيح للوتيرة بالغة الرقّة التي سيهبها لردّه؛ رائعة صغيرة ثمينة نوعاًما تُهدى لي في الواحدة صباحاً في ساحة «لاريپوبليك» («الجمهورية») بباريس. قلتُ إنّ حيوية الكلام المنمّق تبدو وقد حملتها قطارات الضواحي الخارجة من محطّات باريس الرئيسيّة الخمس صوب محطة ختامية مؤقتة. ولئن كان الرجال والنساء الواقفون، تطوّح بهم السكّة التي يجعلهم منحناها يترنّحون، يتبادلون الغمزات في الأروقة التي تتوسّط عربات الدرجة الثانية، ففي المحطّات، «دَوي» أو «مولون» مثلاً، كانَ ينهمر، مغلّفين بخجلهم بعدُ، انصافُ سينيغاليين وأرباع عرب وغوادلوبيّون كاملون يقفزون من فوق الجيرانيوم على الطريقة الفرنسية من دون إيذاء أيّة زهرة؛ ثمّ، فجاةً، وتحتَ الهلال الطالع اخيراً من الغيوم، كانت محطّة «دَوي» تصبح بمثلِ عالمية مطار كراشي. كانت بناطيل الجيل اللاصقة بأفخاذ الشبّان وأوراكهم إيروسية وعفيفة في أوانٍ بذاته لفرط ماكان جمال الخطوط يتناسق والظلام الهابط؛ كان الجميع عراة. لكن ماكانت المفردة «تشاو» (وداعاً) تكاد تُقال بجميع اللكنات، وإذا بالصمت يخيّم من جديد. لم تعد الفرلانيّة (٤٢) لتشكّل اليوم صرعةً، ثمّ إنّ أيّ فرنسيّ ماكان ليجرؤ على استخدامها في الأردن حيث كانت «الفرلانية» ستبدو بمثل سماجة إطلاق المرء ريحَه، هذا الشيء الذي يستهجنه العرب. من وقتٍ لآخر، وعلى الطريقة الفرنسية، كان المقطعان أو المقاطع الثلاثة الأولى يُنطَق بها بدلاً من المفردة كاملةً. وعن اقتصادٍ، يقطّع الصيّادون بالصنّارة باظافرهم دودة الأرض الى سبع أو ثماني قطعٍ، كلّ منها طُعمٌ للصنارة، وكانت عبارات ذلك العهد مؤلّفة من شظايا تميّزها الأذن المتواطئة.

فَانْ يقولا مثلاً [بفرنسيّة «معلوسة»]: «صْعاد دراجْ بْسُورع، نْ صرْتْ؟» («ساصعد الدرج بسرعة، اينَ صرتَ؟»)، كلاّ، ماكان الفرنسيّان المدعوّ كلّ منهما «غي»، سيتكلّمان أمام أيّ عربيّ بهذه الشاكلة التي نعَتاها امامي بـ«الخرقاء». كنتُ اثمّن رهافتهما، لكنْ عرفتُ فيما بعدُ باعثَها بفضل عمر: كانت لغة بِمثل هذا الاقتضاب ستدفع الى الارتياب بهما.

ـ إنّ تهشيم الفرنسية في بلاد اجنبيّة إنّما يعني الكلام بلغة سريّة. أقلّ من هذا يقودك

الى الاعدام، قال لي غي الثاني.

ـ نحن نعمل مع القاعدة.

فتح ثانيةً فاه الذي بقي فاغراً، لأنّ غي الثاني اضاف:

ـ أوّلاً، مامن مهنة حمقاء.

شخّص غي الأوّل الفكرة أكثر:

ـ ليس هناك الاّ أناس حمقى.

ـ الفلسطينيون أناس مثلنا، قال غي الثاني.

ـ لمَ لانساعدهم؟ لديهم الحقّ بوطن.

ولمّا كانت المفردة الأخيرة، المتروكة وحيدة في نهاية الجملة، تبدو على غير استقرار، اضاف غي الأوّل:

ـ يريدونه وطناً ديموقراطياً. يمكن أن تقرأ هذا؛ إنّه مكتوب في برنامجهم.

ـ لو كان پومپيدو منَعني من المجيء لماأطعتُه، قال غي الثاني وهي يتطلّع إليّ، كما يُكتَب في الصحف، ببرود.

ـ لاأدري لمَ لايكون الجميع إخوة، قال غي الأوّل.

ـ لانريد أن تهيمن عليهم أمريكا أو الاتحاد السوفياتيّ. تقدر فرنسا أن تساعدهم. ومادام [فلان] فاشيّاً، فلمَ لانتخلّص منه؟

كانا بالطبع من باريس، من دون لكنة الضواحي. هما بالأحرى خارجان من فوهة «مترو» في ساحة «الباستيل». وكان الفلسطينيون، المحيطون بهولاء الفرنسيين الثلاثة والفرنسيّتَين، ينظرون من دون قول أيّ شيء، جاهلين أنّهم كانوا يشهدون في هذه الحجرة بعمّان معركة فرنسية في مجالٍ مّاوراء البحار، أو أنّ المكان كان يُعيد أجواء مقهى باريسيّة. كان الصبيّان سخيّين بحقّ، إذ جاءا بـ«الأوتوستوب»، مارّين بإيطاليا ويوغسلافيا واليونان وتركيا وسوريا، ليساعدا سكّان مخيّم «الوحدات» في بناء حيطان لجديدة، غير متيّقنين من انّ الكلّ، الحيطان والبنّائين، لن يُباد على أيدي البدو... أعتقد أنّني استعدتُ بدقّة الى حدّما ردود الصبيّين إذ دوّنتُها أعلاه. كنّا نرمي للفدائيين بمباذلَ بائسة بحقّ.

كنتُ، من دون الاكتفاء بالمفردتين « سخيِّين » و« سخاء »، اللتين كتبتُ بحقّ « غي الأوّل » و« غي الثاني » عن تهذيبٍ، أتساءل أيّ ميلٍ لمغامرة من هذا النوع دفعهما الى عبور كلّ هذه البلدان؟ الانسحار بالشرق الأوسط، « الشرق المهجور » مثلاً، « شرق هذه اللؤلؤة »، منزل پيير لوتي في « لوريون » (٤٣)؟ لكنْ لاباعثَ من هذا النمط يبدو وقد أجبرهما على الانطلاق نحو الشرق وانتهاج مسار رحلات ماركو پولو. أم كان جموحٌ ما هو الباعث، الغامض غموضَ الانفجار الكبير الأوّل (٤٤) الذي لانعرف ماتسبّب به، ولاحتى إذا كان حصلَ فعلاً، ثمّ إنّ الانفجار، إذا كان بدئياً، فهو لايمكن أن يعرف سابقةً، والحال فإنّ رحلة المدعوّين « غي » لاتتمتّع الاّ بسوابق. هل انطلقا بعد ١٩٦٨ الى كاتماندو واكتشفا في طريقهما المخيّمات الفلسطينية؟ وهل كانا يقرآن قبل رحيلهما كرّاساً يسارياً أضاءت فيه المفردة « فدائيّ »، بموضعها، كاملَ الجُملة، وفرضت قوّةُ الاقناع في تلك الجملة الرحيلَ؟ ثمّ لماذا ارتحلا؟ إنّ البقاء ليسهل تفسيره: سحْر الوضع عموماً؛ لكن السفر؟ أكانا عارفين بصورة ممتازة بالطرق الواجب انتهاجها، وبالمخاطر، وخصوصاً بالهدف المرجوّ بلوغه؟ كانا يكتشفان نفسَيهما، ربّما باندهاشٍ، متدرّبَين في البناء، جاهلَين أنّ هذه المهنة ستكون هي المرحلة ماقبل الأخيرة. بعدها يأتي الموت كمُحاربَين .

ـ نحن جميعاً إخوة .

ميّزتُ الهبة الفرنسية الكونيّة : نأتيهم بكلّ شيء، فنّ إرساء الاسمنت المسلّح، والتهذيب، وتحرير المرأة، و« الروك »، وفنّ « الفوغ » أو اللحن المتسلسل، والتآخي، وميّزتُني أنا نفسي في الهبة الفرنسية الكونيّة، شاغلاً مكاناً ربّما كان ضئيلاً، إنّما منتفخاً.

« إذا استمرّا بالنبر ذاته فإنّ حوصلتي القوميّة ستّطقّ. » صمتٌ. لاحظنا أنّه، لاجتياز كلّ هذه البلدان، كان بلَدان فحسب، سوريا والأردن، يُلزمان بتأشيرة مرور من سفارتيهما بباريس، مادام الاثنان فرنسيّين.

كلاهما كان يحمل اسم « غي »، لكنّهما كانا يتنادَيان كما يأتي :

ـ قل، أنت؟

ـ نعم، ماذا؟

ـ أنتَ مَن ينادي؟

ـ كلاّ. وأنت؟

ـ أنا أفكّر كما تفكّر.

ضحك غي الأوّل، ثمّ غي الثاني، وبعد ذلك المرأتان. كانت أوربا في نظرهما وفي نظر صديقتَيهما مفهوماً جغرافياً غفلاً، إلاّ إنّ فرنسا تتمتّع بتاريخ طويل تُحاور فيه جان دارك [السياسيّ المُعاصر] منديس فرانس. كانوا يحملون للفلسطينيين صدى سخاءٍ ولد على ضفاف «السين». بفضل ترجمة عمر، ابن السيّد مصطفى، فهم الفدائيون انتفاضة نوّار/مايو ١٩٦٨ [الطلاّبية في فرنسا] واكتشافها الشعوبَ المستغلّة، وخصوصاً الغرائبيّة. كان الأربعة يبتسمون بتثاؤب الجائعين. وكانت الحجرة، الملحقة بمكتب «فتح»، تجعلني أفكّر بكواليس مسرح حيث، بين خمسة مسؤولين باريسيّين عن «الإكسسوار» في عروض الباليه الروسيّة في ١٩١٣، كان أكثر من نيجنسكي في ثيابٍ مفهّدة وحاملة لرسوم أوراق ميتة أو طحالب، على أهبة الوثب ليقدّم رقصة «استهلال لأصيلِ إله غابات».

لمّا كانوا يعملون مع القاعدة، مبصرين في الوسخ علامةً على النبالة العمومية، وبالتالي فضيلة بروليتارية، فإنّ الأربعة بدوا لي مزهوّين باعناقهم وأوجههم ومعاصمهم وثيابهم القذرة. ولقد شَكّني غي الثاني بهذه الجملة التي نطق بها عالياً:

ـ إرتديتَ ثيابك للقيام بالثورة لدى متدنّي التنمية: قميص من الحرير الأبيض ووشاح من الكشمير.

تبادلنا عباراتٍ أخرى. وخلا الفلسطينيين، اتفق الجميع على كوني أسخر من الثوريّين عندما قلتُ إنّني توقّفتُ في القاهرة لمدّة أربع وعشرين ساعة لأذهب لمشاهدة الأهرام في الغروب ورديّةً فوقَ ضباب النيل.

ـ مررتم بأسطنبول. أفلم يذهب أحد ليزور جامع آية صوفيا؟

ـ الفتاتان أرادتا ذلك.

لاحظتُ من شيء لاأقدر على وصفه انّ الشابّين الفرنسيّين كانا في كلامهما يبدآن [عن تَعالٍ] الاسمَ «عربيّ» بحرف صغير بدلَ أن يبدآه بحرف كبير [كما تقتضيه قواعد الفرنسيّة]. وإذا كانت لغتهما غير موفّقة دائماً، فإنّ طرائقهما كانت أفضل: كان الفرنسيّان يُحيّيان العرب مثلما كان لويس الرابع عشر يفعل مع سائسيه، لفرط ما كان إلزامهما قوياً بإغاضة پومپيدو، وعليه فقد تعلّما تناولَ الطعام بالأصابع أفضلَ منّي. وببالغ الرشاقة.

لعلّ مادفعني الى هذا التقديم الطويل لهؤلاء الفرنسيّين هو خوفي من الا أعاود أبداً

العثور على هذه اللكنة الباريسية التي طالما فتنتني. إلاّ لدى ركّاب قطارات الضواحي، الذين مايزالون يحملونها، ونادراً ماأذهب الى ضواحي باريس.

طوال الرحلة، وربّما في أثناء التهيئة لها، احتفظ الفرنسيّان باللحية والشاربين، الناشئين والمكتنزين منذ الآن، لانهّما، ربّما بعدَ تصفّح أعداد قديمة من «ليلوستراسيون» الصادرة في فرنسا في عهد عبد الحميد، اعتقدا بالمجيء الى شعبٍ مُلتحين، في حين لايُبقي الشبّان الفلسطينيون إلاّ على شاربين نحيفَين، مقصوصَين جيّداً. والملتحون الوحيدون الذين كانا يلاقيان في الشوارع، ونادراً في «فتح»، هم من «الأخوان المسلمين». وعليه، فقد اضطرّ غي الأوّل والثاني لحلق لحيتهما. سردَ عمر عليّ الأمر كما يأتي:

ـ عندما وَصلا هنا كان لدى كلّ منهما رأس ضخمة، ولمّا كنت الوحيد الذي يفهمان، فقد كنتُ أدعو الواحد منهما بـ« الباربوز» (٤٥). وبعدَ مرورهما عند الحلاّق، كان وجه كلّ واحدٍ من الصغر (هما طفلان تقريباً) بحيث كنتُ لدى رؤيتهما أرغب بأن أقدّم لهما ثديي.

ـ! Canaille have, Jean (٤٦)

إنّ لونه، وعريه، ومخمل جلده، وعضلاته، ومرونته، ومنحنيات الوجه الرقيقة بل شبه الذائبة الى حدّ الألم بالرغم من الحزوز القبليّة التي كانت ستصنع منه حيواناً موسوماً بالحديد، حيواناً شائقاً إنّما حيواناً في قطيع، وبالتالي ماشية تُباع، هذا كلّه ماكان بذي بالٍ لولا الكآبة التي كانت تبدو، إذ تصدر عنه، وهي تُطبق عليه في غمدٍ من الغياهب المرئيّة، لاعندما يجد نفسه وحيداً فحسب وإنّما عندما يصمت الى جانبك أيضاً. كان يتلقّى سؤالاً فيجيب. وكانت الاجابة مشخّصة، معقّدة غالباً، مفسَّرة، ممّا يدفع الى افتراض انّه كان عالجَ السؤال في داخله قبل أن يُطرَح عليه. لكن من أين كان يأتي صوت مبارك؟ كنتُ أقول لنفسي أوّلاً، وبحماقة، انّه لمّا كانت قارته الأصلية تعود إلى عالَم الجنّ أكثر ممّا الى جغرافية لاتقبل الخطأ، فمن البديهيّ أنّ عالَم الحيوان ينبع من غير المتوقَّع، والصوت من الضُباح أكثر ممّا من اللغة المُمَفصَلة. وإذا كانت تجارة الرقّ ومطاردة الانسان وشراؤه والمتاجرة به، إذا كان هذا كلّه – ومايزال – يمثل أفعالاً واقعية، تشغل الصيارفة بقدرما تشغل التجّار، وتعود الى مجرى الفلوران [نقد فضّيّ في هولندا] أكثر ممّا الى لسعات السوط، وتشكل أفعالاً مفهرَسة مثلما هي اليوم استثمارات اليورانيوم والنحاس والتنغستين والذهب، فإنّ فرنسيّته هو ماكانت قابلة فحسبُ للفهم، وتامّة الصحّة نحوياً، بل لقد وهبَ نفسه هذا الغنج المتمثل في إيصالها باللكنة الضاحويّة التي كنت أبحث عنها منذ زمن طويل واحسبها متعذّرة على العثور، بل ربّما ميتة،

كما تعرف لغة أن تموت. ودفعتْني الى الابتسام فكرةُ أنّ زنجيّاً من السودان (السودان الانجليزية–المصرية سابقاً) صارَ شبيهاً بـ[عالِم الأناسة الفرنسيّ] جورج دوميزيل، يصون لكنة منقرضة مثلما كان دوميزيل يصون لغاتٍ محتضرةً عديدة. بل أكثر من هذا، لما كانت اللكنة أسرع انتشاراً من اللغة، فهي تتبخّر أسرع. هكذا كان يحدث لي في دمشق أن ألتقط تل أبيب في إذاعة فرنسية وأن أسمع محقّقاً صحفيّاً يتكلّم باللكنة الساخرة لضواحي باريس.

متكلّماً بالطبع بالانجليزية، ومخاطباً إيّاي ضاحكاً، قال لي مبارك: "Can I have, Jean!" («هل تقدر أن تناولني، ياجان...»)، ناطقاً إيّاها بحيث أفهم [بدايتها بالفرنسيّة]: "Canaille have, Jean!" («أيهّا الوغد، ياجان!»). وعليه، فقد كان يقدر أن يطرد كآبته دفعة واحدة، لكنّها كانت تعود من دون أن يقدر هو، كما يبدو لي، أن يتوقّع عودتها.

نحو سنّ الخامسة عشرة، يقول لي، صار هائماً بالمغنّي الفرنسيّ موريس شوڤالييه الذي لم يسمع منه سوى اسطوانتين: «بروسپير...» و«ڤالنتين». كان يحبّ هذه اللكنة، التي هي محاكاة ساخرة للكنة حارة منيلمونتون، واحتفظ بها. وياكم كان سرور مبارك عندما قلتُ أنّ منيلمونتون تُدعى بالعاميّة «منيلموش»!

الحال، إنّ جميع الأفارقة السود الذين عرفتُ، في سنّ مبارك تقريباً، هم فرحون حتى في العزلة. ففكّرتُ بأنّه يحمل في حناياه جرحاً خطيراً، لكنْ مخفيّاً بحيث لن أقدر أبداً على تسميته ولا أن أقول محلّه الجسمانيّ أو الروحيّ. والى سحر مبارك، الطبيعيّ، حسبتُ أنّه يضيف سحراً آخر هو اللذاذة المُداعِبة للفتّية السود. إنّ لبعض الشبّان صوتاً هو من الخفوت بحيث يدفعك الى تقريب أذنك أو الى أن تسألهم تكرار الكلام. ومحيّاهم حزين، بلاسببٍ معروفٍ حتّى من لدنهم، والحال إنّهم في حِداد: توأم بقي بعد التوأم الآخر المتوفّى بعد عشرة أيام من العيش أو عشرين.

ـ Canaille!

راح يبتسم من اندهاشي، وأحياناً أتساءل إذا كان يخلط الفرنسية بالانجليزية عن نفاجة.

ـ أنا وحدي ركّاب «الجيت–سيت» بكاملهم.

واختفى في غياهبه، التي تناهى الى سمعي منها، في لغة عربية–إنجليزية–فرنسية،

العبارة التي غالباً ماينطق بها الفدائيون المتعبون: «ستكون لنا الأبدية لنستريح».

كانت هذه في الواقع إحدى العادات غير الواعية، واحدة من تلك العبارات غير معلومة الأصل ومختلطة الأبوّة، والتي يعزوها الفدائيون، على هوى المصادفة، للأمير عبد القادر أو لعبد الكريم الخطابيّ أو للومومبا أو ماوتسي-تونغ أو غيفارا. ظننتُ أنّني أسمع رنّة مألوفة وقلت ذلك لمبارك. نظرة ساخرة، مدسوسة كالسؤال نفسه:

ـ فرنسيّ ولاشكّ، مادمتم في أصل العالَم.

وشوشتُ:

ـ «لاتبدو لي الأبدية طويلة بمافيه الكفاية لأستريح فيها.»

ـ العبارة أفضل: لمن هي؟

ـ بنجامان كونستان، في «سيسيل». أو في «الدفتر الأحمر»، نسيتُ.

كان على وشك أن يُصاب بالذهول.

ـ عاجزٌ آخَر.

ثمّ يغوص في ذاته حتى ليصبح لاأكثر من حيوان ذلول في أعقابي.

ـ الا ترى، ياجان، إنّني أفريقيّ في آسيا. الفلسطينيّون يحيّرونني.

ـ فلسطين هي القطر الأقرب الى أفريقيا.

ـ الأهرام هي بالنسبة إليَّ آسيا. فرعون، نبوخذنصّر، داود، سليمان، تيمورلنغ، تدمر، زرادشت، عيسى، بوذا، محمّد، وهؤلاء جميعاً لايتمتّعون بايّ شيء ممّا هو أفريقيّ.

ـ من الذي يقف الى جانبك؟

ـ نابُيلون، إيسابيل القشتاليّة، إليزابيث الأولى، وهتلر. وكذلك: التراب، الفضاء، هذا انزياح لغويّ، انزياح مختال.

بعد زمن طويل، بعدَ موته كما أعتقد، عرفتُ أنّه ماكان ليجامع كما نفعل عادةً. ولاحتى مع رجل. كان منيّه يبدو وهو ينبثّ عبر النبر الحلقيّ لصوته، وينتقل الى مَن يسمعه أو مَن تسمعه. لا يعني هذا أنّه كان يطرح نكاتاً إيروسيّة -كان يبدو وهو يتفادى

تفاصيلها – بل كان لحرارة هذا الصوت الثقة الآمِرة والخجول في آنٍ لعضو ناعظ يداعب خداً محبوباً. في هذا أيضاً كنتُ أرى فيه الوريث الأكثر بديهيّة لسوقيّي الضاحية الباريسية القديمة.

أكان يحاكي اللكنة الضاحويّة عن قصد؟ لم أقدر بأية حالٍ أن «أضبطه» في لحظة من نسيان النفس تسمح لي بالاعتقاد بأنّه كان يفعل ذلك عن محاكاة. لاشكّ أنّ أيّاً منّا يقدر ان يتذكّر الحوادث التي تُديم لكنةً ما على وجه ناشز: طيّار مارتينيكيّ عابر يترك في «ديجون» لخليلةِ ليلةٍ واحدةٍ طفلاً بورغونيّاً ذا شعرٍ جعْد؛ وفتاة المانية من هامبورغ تنطق بفرنسية جدّ أنيقة موقّعة بمُعاينات كهذه: «ثمّ فجاةً أفرغ فيَّ...»، أو: «كم كنتُ حمقاء، لقد دسّه في عظمي»، عبارات تقولها بسذاجة، ومن دون شعورٍ بالعار: كان عشيقها، وهو عامل من منطقة «الڤوج»، وأسير حرب طوال ثلاث سنواتٍ، يكلّمها كما كان يعرف، بلا مكرٍ، جاهلاً هو نفسه فظاظة الكلمات، وخصوصاً انّ مثل هذه التعبيرات لاتنتظم جيّداً في الفرنسية. ربّما كان ضابط صفٍّ مولود في الحارة الباريسية «بانتان»، التقاه مبارك في جيبوتي في شبابه، قد أودعه هذه الهديّة: اللكنة الجميلة. لم يحدّثني مبارك عن ذلك أبداً، سوى أنّه سمع أكثر من مائة مرّة «بروسپير» و«ڤالنتين» بالحاكي، وأحبَّ كثيراً الصوت الأبحّ أحياناً لموريس شوڤالييه.

كان وفاق السماء الزرقاء وسعف النخيل الأخضر والأرض الصلصالية، هذا المشهد الذي كان يتراءى لي عندَ المغيب، يذكّرني بأنّ الفلسطينيين هم أيضاً ينسجمون وإيّاه، ذلك أنّ السماء والسعف والأرض والمقاتلين كانوا جميعاً يجهلون بعضهم البعض. الصخب الوحيد الذي كنت أسمعه طوال أكثر من سنة كان فرقعة سلاح وأزيز طائرة أو حوّامة. هكذا بحيثُ لم أنتبه إلاّ بعد معركة عجلون الى انّ الدجاج لم يكفّ عن القوقاة، والبقر عن الخوار، ما دمت أسمعه أخيراً.

الأسطر السابقة موجّهة لإرجاء اللحظة التي أطرح فيها على نفسي السؤال التالي: أكانت الثورة الفلسطينية ستجتذبني بمثل هذه القوّة لو لم تنهض ضدّ الشعب الذي بدا لي هو الشعب الأكثر ظلاماً، هذا الذي يدّعي انّ أصله هو الأصل، الشعب الذي يزعم أنّه كان ويريد انّ يظلّ هو الأصل، والذي يعدّ نفسه «ليل الزمان» [أي أسحَق عهود التاريخ]. أعتقد انّني، إذْ أطرح هذا السؤال، فانا أقدّم في الأوان نفسه إجابة عليه. وبارتسامها على خلفيّة من «ليل البدايات» – وذلك على نحو أزليّ – كانت الثورة الفلسطينية تكفّ عن تشكيل نضال عاديّ من أجل أرض مغتصبة، وتتحوّل الى نضال ميتافيزيقيّ. إنّ اسرائيل، بفرضها على العالم

شرعَها وأساطيرها، إنّما تمتزج والسلطة. وإنّ مجرد رؤية بنادق الفدائيّين الفقيرة لهي كافية لترينا المسافة المتعذرة على القياس بين التسليحَين: فمن جهة، ندرة نادرة من القتلى والجرحى بخطورة، ومن الجهة الثانية، الابادة الشاملة المقبولة أو المرغوب بها من قبل البلدان الأوربية والعرب.

المراثي الطويلة لاسرائيل، والتهاني الموجهة للديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، والصحراء المسقيّة والمُخْصَبة والمزروعة بالأشجار، والصراعات الحادّة والمهذّبة بين اليهود الغربيّين والشرقيّين (الاشكناز والسيفاراد) والاكتشافات العلمية والأثرية والبيولوجية لهذه البلاد التي لم تلق لنفسها إلاّ تسمية «دولة»: ماكان أيّ شيء يصلنا في ١٩٧١ إلاّ بعدَما يجتاز الأراضي المحتلة، أي انّ نوعاً من الرقابة يسمح لنا بملاحظة ضرب من التشويه أو التزييغ الهندسيّ مفروض من قبل الدولة العبرية. لم تكن اسرائيل تتحدث مباشرة أبداً، أو إنّنا لم نكن نسمعها: كان عَرب الأراضي المحتلة هم من يحدّثوننا عنها.

إنّ دولة اسرائيل لهيَ كدمة في الشرق الأوسط، رضّة تتأبّد على الكتف المسلم، لابفعل العضّة الأخيرة – في ١٩٦٧ – فحسب، بل كذلك لأنّها مكنّت، بعدَها بقليل، من إلقاء القبض في دمشق على إيلي كوهين، وإعدامه شنقاً، حتّى لقد حسبَ كلّ فلسطينيّ، بل كلّ عربيّ نفسه مهدّداً من قبل الجاسوسيّة اليهوديّة؛ تسلّل ممكن، تسلّل مؤكّد. قبل أيّام (١٩٨٥)، قال لي ج. إنّ «الموساد» [جهاز الاستخبارات الاسرائيليّة] يوزّع الأفيون والحشيشة على فتْية منطقة جنوب لبنان.

ـ سبق وأنْ اتُّهمت الشرطة الأمريكيّة بتوزيع المخدّرات على الشبيبة السوداء.

ـ أعلَم. والموساد يبعث بأفراده للتدرّب في الولايات المتّحدة. ربّما كانت الغاية مختلفة، مادام الوضع مختلفاً، لكن الوسائل تظلّ هيَ هيَ. هنا، يأمل رجال الموساد أن تفقد الشبيبة كلّ إرادة، فتدلّ، وسط الانتشاء، على مخابيء أسلحة الفدائيين. ولقد أطنب الاسرائيليّون في الاشادة باستخباراتهم، في الصحف وعن طريق المذياع، وعبرَ نوع من الهمس يبدو كتوماً إنّما هو مختار بعناية، حتى انّ فزعاً فظيعاً مافتيء يشوّش العرب. وإنّ أشخاصاً عديدين قد عرفوا هذا الرجل الذي سأتّحدث عنه. فلقد ظهرَ رجلٌ في هذا الشطر من بيروت، الذي سيشكل بيروت الغربية، أي المسلم بخاصّة، والمناصر للفلسطينيّين بكامله تقريباً. لكن لاأحد يتذكّر ظهوره. كان هنا على حين غرّة، من دون أن يكون قد جاء. لاأحد رأى شيئاً، وكان ذلك الرجل يتكلّم العربيّة باللهجة الفلسطينيّة، وهو هنا فجاةً، شبيهاً في ذلك بالآلهة الذين يرغبون في المجيء خلسةً، ولوقتٍ، الى الأرض، ولقد جذب إليه الأنظار باختلالاته

خصوصاً. وسواء لدى الصبْية الذين كانوا يتهكمّون منه أو الآباء الذين يتظلّمون له، لاأحد كان يدعوه إلاّ باسمه: المجنون. ولما كان المجنون في كلّ مكان على الدوام، فكان من الطبيعيّ أن يكون هنا أيضاً، مثلما في كلّ مكان آخر، منبثقاً أغلب الأحايين تحت ظهور مسرحيّ. لكن لما كان كلّ واحد يتمتّع ببذرة من الجنون، فقد كان هذا الرجل المُتَحامِق بلطف، يجيز لنفسه جميع ضروب الشذوذ، كأنْ يطلع في الليل فجاة، ويُسلّط على الوجوه مصباحه وهو يغنّي لحناً لااتّساق فيه.

ـ المجنون، كانوا يقولون هازّين الكتفين. مع ابتسامة طيّبة بخصوصه.

لاأحد كان يمعن في الدنوّ منه لأنّ رائحته كانت كريهة بفظاعة في سائر أطرافه: القدمين، والفم بصورة مرعبة، واليدين والمؤخّرة والذكَر.

ولمجرّد أن يكون في منجى من الريح، كان ينام أنّى كان، ملتحفاً بطّانيةً وحيدة. كان يشحذ، وعندما يَشتم، كان يقول عن الاسرائيليّين سوءاً كثيراً.

في ١٥ أيلول / سبتمبر ١٩٨٢، أوّل الصباح، كانت الدبابات الاسرائيلية في بيروت الغربيّة. كنت أنظر إليها آتيةً، فرأيت الأولى منها، والتاليات، عندما مرّت الدبابات قرب السفارة الفرنسيّة، ولم أرَ من مدهش سوى دخول الدبابات الاسرائيليّة بيروت، بيدَ أنّ أهالي المدينة أبصروا، على الدبّابة الأولى، المجنون. هذه المرّة، كان صارمَ الوجه. ماكان يُغنّي. وكان يرتدي بزّة عقيد في الجيش الاسرائيليّ.

لاأعرف المزيد عنه، لكنّني واثق من أنّ رائحته الكريهة كانت خدعة، لقْية جميلة، حتى لايدنو منه أحد بغتة.

طوال تلك الفترة، من ١٩٧٠ حتّى عبور قناة السويس من قبَل السادات في ١٩٧٣، كانت إسرائيل قد كفّت عن الوجود؛ وحدها صرخات الأراضي المحتلّة وشكاواها، أناشيد ملحميّة أكثر منها عويلاً حقيقيّاً، كانت ماتزال تأتينا، من دون أن تُبلبل القواعد والمخيّمات أكثر من اللزوم. وإذا مامات أحد أو تألّم وراء نهر الأردن، فماكان ذلك سوى حداد عائليّ، ومع ذلك فقد كان الجميع بالغي القلق ويعرفون الوضع بحيث لايمكن ألاّ يكونوا أدركوا أنّ الحرب مع حسين تخدم إسرائيل بتمديدها احتلال [شرقيّ] الأردنّ، وكنّا نعرف أنّ تنقّلات الدبلوماسيّين إنّما تُثبت أهميّة هذه الأماكن التي كنّا فيها بلا أهميّة.

أحياناً، في المساء، كان عربيّ يدنو من القاعدة مرتدياً جلابية. يشرب معنا الشاي أوالقهوة، يتناول شيئاً من الرزّ، يودّعنا بصوت رفيقٍ ويمضي. «أتعرف لمَ بقي واقفاً، يسألني

فرج؟ ماكان ليقدر أن يجلس. على امتداد ساقه، تحت الجلابية، يخبيء بندقيّته. هو ذاهب إلى إسرائيل. وسيُطلق جميع رصاصاته، إذا ماتوفّر له الوقت، ولربّما سقط إسرائيليّ نحو منتصف الليل أو غداً صباحاً.»

السطور التالية موجّهة خصوصاً لتثبيت الفوارق القائمة بين القواعد والمخيّمات. ومن البديهيّ انّ هذه الملاحظات تخاطب الغربيّين، لأنّ العرب يعرفون محتواها. وبالفعل، كانت العقليّات هنا وهناك مختلفة.

حتّى ١٩٧١، كانت القواعد المواجهة لنهر الأردنّ تراقب الأراضي المحتلّة وذلك الشطر من فلسطين الذي تسميّه الأمم المتحدة إسرائيل.

كانت هذه القواعد منشآت عسكريّة خفيفة نوعاًما، تضمّ من عشرين إلى ثلاثين مقاتلاً فلسطينيّاً، يرقدون جميعاً في الخيَم، مسلّحين في البدء ببنادق بسيطة، ثمّ برشّاشة أو اثنتين لكلّ واحد.

وكان هناك «طبقات» عديدة من القواعد. تلك المتموقعة على شفير الشاطيء الصخريّ الذي يجري الأردنّ في أسفله. وعلى مسافة بضع مئات الأمتار، قواعد أخرى تخدم كدعمٍ للسابقة وتظلّ مثلها في حالة إنذار. وحول نصف الدائرة الثاني هذا، كان هناك ثالث ورابع. وخامرني الانطباع أنّها كانت في صفوف أربعة، مرتّبة في منعطفات. كان الشطر المحاذي لنهر الأردن مكشوفاً إلى حدّما، لأنّ الضفة ماكانت متضرّسة، وفي جميع الأحوال أقلّ من تلك المؤديّة إلى طريق جرش–عمّان، المدعوّة أيضاً بـ«الاسفلت».

كانت هذه المنشآت خاضعة لمراقبة الجيش الأردنيّ، والأخير نفسه في اتّصال يزيد مباشرةً أو يقلّ مع سكّان القرى الأردنيّة التي كانت القواعد قريبة منها. لنقلْ على الفور إنّ الرواح والمجيء على هذا الامتداد كلّه، بين «الاسفلت» ونهر الأردن، كان حرّاً بمافيه الكفاية. وماكانت النساء لتدخل إلى هناك أبداً، إلاّ لجلب الرسائل وحملها، وماكنّ ليتنزهّن هناك البتّة، بل يبقين جالساتٍ على الحشيش قبالةَ الحرّاس.

بسيكولوجيّة الفدائيّين المكلّفين بمراقبة ماكان يشكّل أرضهم والذي يجتازه أعداء يحسبون أنفسهم أحراراً أو يتظاهرون بذلك، وهم في الواقع مرصودون من قبل الرصاص في كلّ منعطفِ طريق. ومن جسر اللنبي حتّى جسر داميا (يذكّرني هذا الاسم بالمغنيّة الواقعيّة ماريز داميا وأغنيتها «الصلاة السيئة» التي ترجو فيها زوجةُ بحّارٍ استقلّ البحرَ مريم العذراءَ أن

تُغرقـه بدلَ أن يقع في أسر ندّاهات البحر)، كـان في مواجهـة الفـدائيين في الأردن جنود إسرائيليّون، مختلطون بالسكّان الفلسطينيّين سجناء الثكنات والإدارة اليهوديّة، هكذا بحيث ماكـان يمكن إطلاق النار من هذه الضفـة من الأردن لاعلى التعيين، ووحدهم رماة مهَرة كانوا يراقبون الأراضي المحتلّة.

في أيّامنا، ومع مرور الزمن، فقدَ التعبير قوّته الأصليّة، شبه المقدّسة، بالقياس إلى تعبير «الألزاس واللورين» [المتنازَع عليهـما تاريخيّاً مع الألمان] في فرنسا. وإنّ الفرْضة الصغيرة الموصلة بين الكلمتين [في الفرنسيّة: «الأراضي-المحتلّة Territoires-Occupes «الألزاس-اللورين» L'Alsace-Lorraine] لَتُعمّق الشبَه، بيدَ أنّني أظلّ، الآنَ كما بالأمس، مفتوناً بملهاة الحقد وملهاة الصداقة، المصطنعتَين كلتيهما غالباً، واللتين لاتكفّان عن رسم هدُب الحدود، التي تُوَسَّع كثيراً أو قليلاً. الحدود هي الخطّ المثاليّ الذي لايمكن الترخيص به إلاّ باتّفاق بين الطرفين مع انّ هذه الحدود وعبورها يخضعان لمراقبة الطرفين في الأوان ذاته، ومن هنا الاتفاقيّات التي هي مَلهاواتٌ تكون فيها الوجوه المتجابهة إمّا مفعمة بالتهديد أو بالرقّة إلى حدّ الاغواء. وأخيراً، فإنّ هدُب الحدود، أو الحاشية الحدودية، إنّما هي الموضع الذي يعبّر فيه كامل شخصٍ، منسجم أو متناقض وذاته، عن نفسه بالشكل الأرحَب. وفي الاختيار العسير الذي يتيح لي أن أكون سوى نفسي، كنت سأختار أن أكون ألزاسيّاً-لورينيّاً. فالألمانيّ والفرنسيّ لايعادلان لاهذا ولاذاك. وإذْ يكفّ أحد، مهما قال، عن أن يكون يعقوبيّاً، فإنّه ماإن يقارب الحدود حتّى يصبح ماكيافيليّاً؛ ومن دون المجازفة بالتأكيد على كون الهدُب تظلّ هي الموضع الترابيّ الذي تظلّ الكليّة فيه ممكنة، ربّما كان من الإنسانيّ توسيع الهدُب ترابيّاً، من دون تدمير المراكز بالطبع مادامت هي التي تمكّن الهدُب من القيام، وإنّني لأرى في هذه الأخيرة، من قبلُ، إلى الخيانة المُبرَمة، قويّةً كـ«فتيان فخذ الملائكة» (٤٧)، فَقدَمٌ هنا، وقدمٌ هناك، وأخرى إلى الشمال، ورابعة في الجنوب وإلى مالانهاية له، معمار من الأقدام يدمغ بالاستحالة كلَّ انتقالٍ، وكلَّ سير.

مكّن احتلال اسرائيل لبيروت الغربية في ١٩٨٢ من ظهور حكايات عديدة منها هذه: اقتاد بعض الصبْية عدداً من المجموعات اللبنانية من زقاق الى آخر وصولاً الى محترف كان الفلسطينيون قد غادروه منذ قليل. ولم يعثر اللبنانيون هناك الاّ على رُزَم من الدولارات الأمريكيّة المزيّفة بروعة. فملأ اللبنانيون جيوبهم، وكانوا جميعاً سائقي شاحنات. وكانت الدوريات يومذاك تمنع على سوّاق الشاحنات اللبنانيين أن يذهبوا الى الشمال، نحو بيروت مثلاً. وحدها كانت تمرّ الشاحنات الاسرائيلية المشحونة في اسرائيل. فبدأت الملهاة: يعرض سائقو الشاحنات على الجنديّ الاسرائيليّ حفنة من الدولارات، فيرفض الجنديّ بصلابة؛

يُضاعف السائق اللبنانيّ الحفنة، فيغمض الجنديّ عينيه نصفَ إغماضٍ، برخاوة أكثر، ويضع الدولارات في جيبَيه بسرعة، ويدير وجهه حتى لايرى الشاحنة وهي تمرّ، وهكذا كانت آلاف الدولارات المزيّفة تجتاز الحدود جالبةً المسرّة للجنود ولسائقي الشاحنات وسكان بيروت الغربية الذين ماعادوا مجبرين على تناول الفاكهة المشحونة من تل أبيب. مرّت شاحنة. ثمّ عشر. ثمّ الجميع. وذهبت الدولارات المزيّفة في الجيوب الحقيقيّة للجنود الاسرائيليين الحقيقيّين الذين راحوا يَثْرون في الحياة المدنية أو يقبعون في السجن.

قيل لي في بيروت إنّ هذا حدث فعلاً. وإنّه لأمر جائز. فَبعض الوفاقات مقبولة لدى العدوّ: التواطؤ. وماكان هذا إشعاعاً، بل ضرباً من الهدأة كان كلّ طرف يفكرّ فيه بأنّه خدعَ الآخر.

وعلى حين ترى، بين الفلسطينيين والأردنيين، أنّ الكثير من الضباط وضباط الصف والجنود الفلسطينيين الهاربين من جيش الملك حسين، عندما بدأ الهجوم في حزيران [تمهيداً لأيلول الأسود]، تمكّنوا من الهرب لأنّ رفاق السلاح الأردنيين السابقين تظاهروا بعدم رؤية من كانَ يجتاز الخطوط، فأنا لم أسمع أبداً أن الاسرائيليين والفلسطينيين تبادلوا مثل هذه الدماثة «في القاعدة»، إلاّ إنّ سياسة التخوم هي من الرهافة والتعقيد والتشوّش بحيث يفقد كلّ مَن غامر فيها بالرؤية بصرَه — أو حياتَه.

لكن، وسبقَ أن تحدثت عن هذا، — كان ممكناً في تشرين الثاني/نوفمبر أن تلاقي في القواعد — في القواعد لا في المخيّمات — ، بعض الفتْية طويلي شعر الرأس، حاسريه، مع سالفين هما بمثل غلاظة سوالف الصقلّيين أو رؤساء خدم الفنادق، يمزحون بالعبرية. وكان الفدائيون الأكبر سنّاً منزعجين من اللبس ومفتونين به، إذْ كان هؤلاء الفتْية، المازحون وسط المجموعة، يسخرون من موشي دايان مثلما من عرفات. كنّا نعرف أيضاً أنّ شيئاً من العبرية كان يُعلَّم. ومإن ينتهي الصيام، كان هؤلاء الفتية يتناولون الطعام كمثل أيّ عربيّ، ماسحين أصابعهم بالبنطال عند ارتفاع الفخذين، ربّما مثلما يفعل أيّ يهوديّ في تل أبيب.

قِدْر، وسفينة، وطائر، وسهم من الورق أو طائرة مثلما يصنع الصغار على مقاعدهم الدراسية، والتي تتحول ماإن يعاد فتحها بهدوء إلى صفحة من جريدة أو ورقة بيضاء. وعلى حين كان انزعاج مبهم يكدّر عليَّ صفوي منذ زمن طويل، فإنّ انصعاقي كان بالغاً عندما أدركت أنّ حياتي، أقصد حوادث حياتي المعاد فتحها جيّداً والمفروشة أمام عينيّ، ماكانت سوى ورقة بيضاء كنت، من فرط طيّي إياها، قد حوّلتها الى شيء جديد ربّما كنت الوحيد الذي يراه بثلاثة أبعاد، شيء له مظهر جبلٍ، أو هاوية، جريمة أو حادث مميت. ماكان يمكن أن يبدو فعلاً بطولياً، كان في الواقع شبَهَه، المقلَّد بروعة أحياناً، أو برداءة، لكنّ عيوناً عديمة النباهة كانت تخلط بينه وبين الفعل نفسه، وتتأثّر لرؤية ندب جرحٍ طبيٍّ لاخطورة فيه مادمتُ أحدثتُه بنفسي، ندب يحوّله من يكتشفونه الى علامة باقية من مغامرة فروسية مع امرأة مغويّة وزوج غيور ومسلّح ساكتم هنا اسمه، مُعرباً عن وفاء واحترام للمرأة المحبوبة ونوع من كبَر الروح يجعلها تتستّر على الزوج المُهان المتخيَّل. هكذا كانت حياتي مؤلفة من مبادرات بلا أهمية ومنفوخة ببراعة على هيأة أفعال ذات جسارة. لكن عندما أدركت ذلك، أي أنّ حياتي إنّما تنخطّ في تجويفٍ، فإنّ هذا التجويف صار بمثْلِ رهبةِ هاوية. يتمثّل العمل المدعوّ بالدُّمْشَقَة في حفر رسوم على قطع من الفولاذ بالحامض تأتي لتنغرز فيها أسلاك ذهبية. فيّ، كانت الأسلاك الذهبية تنقص. ولاشكّ في إنّ التخلّي عنّي الى إدارة الرعاية الاجتماعية جعلَ ولادتي مختلفة عن بقية الولادات لكنها ليست بالمُرعبة أكثر؛ وماكانت الطفولة التي عشتها لدى مزارعين كنتُ أرعى أبقارهم لتختلف كثيراً عن أية طفولة؛ وكانت فتوّتي كلصٍّ ومومس تشبه الفتوّات الأخرى التي تسرق أو تتمومس بالفعل أو في الحلم؛ كلاّ، لم تكن حياتي المرئية سوى تصنّعات مموّهة بإتقان. وكانت السجون أكثر أموميّة معي ممّا كانتْه الشوارع الساخنة في أمستردام أو باريس أو برلين أو برشلونة. فماكنتُ لاجازف فيها بالتعرّض للقتل، ولا للموت جوعاً، وكانت أروقتها هي المكان الأكثر إيروسية والأكثر إراحةً الذي عرفتُ. وستشكل الشهور التي أمضيتُ في الولايات المتحدة الى جانب الفهود السود هي أيضاً الدليل على التأويل السيء لحياتي وكتبي، فالفهود كانوا يرون فيَّ متمرداً، إلاّ إذا كان قد قام بيني وبينهم تواطؤ ماكانوا هم انفسهم ليتوقّعوه، لانّ حركتهم، التي كانت تمرّداً شعرياً ولَعِبَاً أكثر منها إرادة للتغيير، إنّما كانت حلماً عائماً فوقَ نشاط البيض.

ماإن نقبل بهذه الأفكار، حتى تنجم عنها الأفكار التالية: فلئن كانت حياتي بأسرها في تجويف، ولكنّها تُرى في بروز، وإذا كانت حركة السود شكّلت بالنسبة لي ولأمريكا شبَهاً، وإذا كنتُ ذهبت إليها بالطبيعية والسذاجة اللذين وصفتُ، وإذا كانوا قبلوني بسرعة، فلأنّهم ميّزوا فيَّ المُتَشَبّهَ العفويّ؛ وإذا كان الفلسطينيون سالوني أن أوافق على القيام بزيارة لفلسطين، أي إلى داخلِ تخييلٍ، فهل كانوا ميّزوا نوعاًما المُتَشَبّهَ العفويّ هم أيضاً؟ وإذا كانت حركاتهم

تشابيه لا اجازف فيها بأيّ شيء سوى التعرّض للابادة، افماكنتُ من قبلُ مُباداً في لاـحياة قائمة في تجويف؟ كنت أفكّر بهذا وانا على يقين من انّ امريكا واسرائيل لاتتلقّيان تهديداً من شبَهٍ، ومن هزائم مصوّرة كانتصارات، وتراجعات مقدّمة كخطوات الى الأمام، بإيجازٍ من حلم عائم فوق العالم العربيّ، قادر على قتل ركّاب طائرة، أي لاشيء سوى ماهوَ أخرق نوعاًما. وبموافقتي على الذهاب مع الفهود السود، ثمّ مع الفلسطينيين، حاملاً وظيفتي كحالم داخل الحلم، أفَماكنتُ عنصراً يُعيق الحركات من أن تقوم؟ أماكنتُ الأوربيّ الآتي ليقول للحلم: «إنّك حلم، فخصوصاً لاتوقظنّ النائم»؟ ماإن فكّرتُ بهذا حتى عرضَ لي مايأتي: بونابرت مرتجفاً على جسر آركول، ومجلس «الخمسمائة» يعلن عنه خارجاً عن القانون، والجنرال مغمى عليه؛ وأيّ ماريشال، وليس الامبراطور، حقّق ياترى انتصار أوسترليتز؟؛ والرسّام داڤيد وهو يضمّ إلى لوحة تكريس الابن أمّاً غائبة عن باريس في ذلك اليوم، والتكريس نفسه هل كان ياترى مفروضاً من قبل «بابا» غير مطوّع؟ وأيّ تجويف تحوّل إلى بروز في «مذكّرات السانت–هيلين» (٤٨)؟ وهذه الفكرة التي اجتذبتْها السابقات: ربّما كان مانعرف عن الرجال، مشاهير أم لا، قد تمّ تصوُّره للتخفّي على المهاوي التي تتألف منها الحياة. وهكذا يكون الفلسطينيون محقّين إذ نصبوا قاعدة بوتمكين [التمويهيّة] ومعسكرات الأشبال، لكن ماالذي لم تكن بنادقهم تخفيه، بل بالأحرى تكشف عنه؟ هل الحدث الذي بفضله نُرى هو الانبثاق البطوليّ، ضرب من ظهور بركانيّ، صعود موقوت من تلك التجاويف المتعذّر البوح بها من قبل الشعوب أو الأفراد سواء بسواء؟ ربّما كانت شناعة المُتَشَبّه العفويّ ترفعه الى المستوى الذي يبرز فيه فقاره ويدفع الى رؤيته. وإنّما يتعلّق الأمر بمِسْخيّة من نوعٍ آخر.

لا أن ترى نفسكَ فحسب، بل كذلك ان تلمسها، وتسمعها، وتشمّها، هذا كلّه يشكل جزءاً من رعب التحوّل الى مسخٍ، وكذلك من سعادة ذلك التحوّل. ان تكون خارج العالَم اخيراً! – وإنّ تغيير المرء جنسه لايعني مجرّد التعرّض الى بعض التصحيحات الجراحية، بل كذلك انْ تُعلّم العالم كلّه، في إشارته إليك، تغييراً لقواعد اللغة إلزامياً. انّى كنت، سيَدْعونك «آنسة»، أو «سيّدة»، وسيمّحي الآخرون لانك صرت الأولى، ولدى النزول من العربة يمدّ لك الحوذيّ قبضته مسدودة: «النساء والصغار أوّلاً...» ومن هذه الكلمات يتبيّن لك انّ زورق الانقاذ سيُنجيك في حين تغرق «التيناييك» وعلى متنها ركّابها الفحول؛ وستبرز في المرآة صورتك بشعر تلامسه أصابعك، معقود في ضفيرة أو على شاكلة الغلمان؛ وسيتكسرّ كعباك العاليان البلوريّان الأوّلان، فتَحارُ؛ وتمتدّ يدك غير المدرّبة بعد للتستّر على انتعاظ مستحيل مادام لم يعد لديك ماينتعظ... الحقّ، إن الجميع لن يفاجأوا بهذه التغيّرات الهورمونية والجراحية والناجمة من إعادة تربية الأعضاء، إلاّ إنّهم، جميعاً، سيحيّون في

دواخلهم تحوّلك ونجاحه، اي البطولة الكامنة في محاولة ذلك، ومتابعته حتى موتك، ووسطَ الفضيحة. إنّ مغيّري جنسهم – بل مغيّرات الجنس لأنّهن استحققن جمْع النسوة هذا – لهنّ بطلات. وفي طقوس ورَعنا نحن، تراهنّ يخاطبن بلا كلفة القديسين والقديسات، الشهداء والشهيدات، المجرمين والمجرمات والأبطال والبطلات. وإنّ الهالة الحافّة بالابطال لَبِمِثْلِ إدهاش هالة مغيّرات جنسهنّ. ومَن بلغَ البطولة، إنْ لم يمت كلّ يوم، بقيَ طيلة حياته يتنزّه وعلى رأسه شمعة مشتعلة في وضح النهار مثلما في عزّ الليل. ونحن لدينا مغيّرات جنسهنّ بجميع الحجوم. كانت أبعاد السيّدة «ميّان» متواضعة بإزاء «ماتا–هاري». والكثير من الفدائيين هم أبطال.

كان مبارك، المعضّل أبداً والأسوَد محزّز الوجنتين والضبابيّ، يتمشّى الى جانبي ولا أسمعه. وكان ابو عمر قد افهمني دوري هنا من دون أن يقوله لي حقّاً: «ستكون وظيفتك هنا شاقة جداً: الاّ تقوم بأيّ شيء».

ولقد أدركتُ: انْ أكونَ هنا، ان أسمعَ، لازماً الصمتَ، وان أنظر، ان أبدي موافقتي أو أدّعي عدم فهم أيّ شيء؛ ان أكون الشيخ بين الفدائيين، وان أتقدّم للفلسطينيين باعتباري هذا الآتي من الشمال. وكان الجميع بمثل تكتّمي. هنا، وللمرّة الاولى، أكتب مفردة «الخُلْد» التي تشير الى المُندسّ (أو المُندسّة) لإخبار العدوّ؛ ومراراً عديدة بدا لي أنّ بعض الفدائيين، المارّين بعَجلون، كانو ا يطرحون عليَّ أسئلة هي من التشخيص بحيث كنت أتساءل في نفسي بخصوصهم: أكانوا يعدّونني «خلداً»؟ وكان يحدث لي أن أعتقد أنّهم كانوا يخشون ذلك، إلاّ إن حرَجي كان يُنسى بسرعة، لأنّ المسؤولين، إن كانوا على ارتياب، كانوا يبعثون لي بفدائيين فتيان هم على هذه الدرجة من الجمال بحيث كنت أُسَرّ كلّ مرّة بدقّة الاختيار وأتلقّاه كمثْلِ تكريم، أو بالاحرى كمثْل هديّة تقول لي: «تأمّلْ هذا الوجه الصبوح طوال ساعات وكن سعيداً.»

امّا مبارك فكان يقول لي باكثر صراحة:

ـ ستؤلف كتاباً، لكنك ستجد صعوبة في نشره. لايعبأ الفرنسيون بالعرب. ربّما كانوا يعبأون بالفلسطينيين بعض الشيء، لأنّهم يتهموننا بمواصلة إبادة اليهود في جنوب لبنان. وإنّ بلدك وبريطانيا، وهما البلدان الأكثر معاداة للسامية في العالم، يؤيداننا إنّما في السرّ. قد يكون لك بعض الحظّ في أن تجد بعض القرّاء، لكن ينبغي أن تعثر على هذا الحظّ في مساس عباراتك وسرعة قراءتها. أقترحُ عليك صورة: طفل بليد عليه أن يتناول زيتَ كبدِ سمكِ

المورة. يفرغ القنينة باسماً لأنّ صوت أمّه يسحره. من أجله (من أجلها) يبلع ملعقة من الزيت المنفر تلوَ الأخرى. سيتبعك القراء إذا ماعرفت ان تصبح أمّاً لهم. تكلّمْ بصوت رقيق و[في الأوان ذاته] صلب.

ـ صوت حديديّ في قفّاز من المخمل؟

ـ الآتفقه شيئاً من العرب، فهذا أمر طبيعيّ، لكنّك لاتفقه شيئاً من الفرنسيّين أيضاً...

واقترحَ عليّ كتابة سيناريو فيلم يقوم هو بإخراجه.

ـ هل أنت عربيّ أم زنجيّ؟

ـ تلزمني بالطبع وجهة نظر، وأنا لا أملكها.

طوال السنوات بين ١٩٧٠ و١٩٨٢، لم أذهب الى السينما الاّ مرّة واحدة. سرعان ما نسيتُ الفيلم والصوَر، ومابقيَ هو ذكرى أمسية شبيهة بتلك الامسيات التي يقضيها سائح بين يدّي مدلّك في بانكوك. لقد عُهِدَ بي الى مقعد–أريكة أو أريكة–مقعد كان الانحدار اللذيذ للمسند يرافق فيه صعوداً خفيفاً للمقعد تحت كوعيَّ. شعرتُ، مذعوراً، بالسقوط في فخٍّ لذيذ. أطفئت الأنوار. لم يكن جسدي ينطمر فحسب في سرير من الرماد (ذكرى التلميذ الذي يُقال له إن القديس لويس كان يريد، عن تواضعٍ، الموتَ على سرير من الرماد)، سرير يجعل منه، أي من جسدي، حديثَ نعمةٍ، ربّما أميراً، بل ربّما كان على عيني أن تساهم هي الأخرى في الحفل، لأنّ الكاميرا–الخادمة كان عليها أن تتصاعد من المهاوي لتُريني، وأنا في مرْمدتي، عشّ سنونوّة عاديّة وبيوضها على حائط مستدقّ. كان ينبغي أن يصنع ذلك غبطة الفقير، إلاّ إنني سرعان ما بدرتْ منّي ردّة فعل: نهضتُ وجلستُ على درجات السلّم، آملاً أن يستعيد ورکاي خشونة المصاطب الخشبية؛ بيدَ أنّ الدرجات كانت رخوة، وعينيّ اللتين كانتا في الماضي تبتهجان للّقطات الثابتة صارتا تعثران على التفاصيل التي كان مجموعها مُفرحاً من دون أن تفتش عنها حقاً، فخرجتُ. في لقطات مباشرة («زوم»)، كانت الرافعات السينمائية والأسلاك الجنونية تعرض موت الفلسطينيين الى حدّ إثارة غبطة المشاهدين. إنّ لهزيمة الفلسطينيين بواعث أخرى غير انهمام الفدائيين بعرض جانب وجههم الجميل على الغربيين.

كان مبارك يصغي إليّ:

ـ هل تفكّر بجسر نهر «كويي»؟

ـ مَن لم يشاهد معارك يخوضها اليابانيون ضدّ إنجليز مغلوبين لكنّهم يواصلون القتال، لن يقدر أن يقارنهم بممثلين تمّ التقاطهم في « سوهو » .

ـ والفنّ؟

ـ لم أكوّن لنفسي عن الفنّ فكرةً أبداً.

ـ للبؤساء مسرّات لن تعرفوها أبداً. أن يموتوا من الجوع ليمدّوكم بصورٍ جياع. إنّهم نافعون. تتمثل أهميتهم في تشكيل انعكاسٍ لصورتكم في المرآة عندما تكونون مفرطي القُبح. ألم تتساءل أبداً مايفكّر به عنك انعكاسك عندما تكون مُديراً ظهرك؟

ـ هل تريد أن أمقتَني؟

ـ كنتَ في الصالة، وأتيتَ الى الكواليس. قمتَ من أجل هذا بالرحلة من باريس حتى هنا. لكنك لن تصيرَ ممثّلاً البتة.

لابدّ أن الكتلة المغنطيّة التي كانت تسير الى جانبي قد انطفأتْ. فلم يصبْني أيّ إشعاع.

ـ أشعر بالـ. . . لرؤيته.

هل فكّرتُ بأنّني كنتُ أشعر بالعار أم بالسّعار لرؤيته (٤٩)؟ كانَ مبارك قد اختفى.

يبدو أنّ كلّ منظر شهير يظلّ يحتفظ بدمغة النظرات التي عبَدتْه: الأهرام، والحمراء، ودلفي، والصحراء. وكان الملازم مبارك يبدو لي في جميع طرائقه مدموغاً بكونه تلقّى إعجاباً مفرطاً. ربّما كان هذا موجّهاً لي وحدي، لكنّه كان، في القواعد شديدة الاحتشام والعفّة، يُظهر غنَجاً يريد أن يفتن أيّاً كان وأيّ شيء. وإذا لم يكن أمامه ليفتنَه سوى شجرة، فتيّة كانت أو هرمة، فهو يروح يجرّب عليها سلطانه. وماكان أيّ من الفدائيّين حسّاساً لابرازه المدروس لجسده ومختلف مناطق وجهه، العينين والابتسامة والأسنان والشعر، ربّما لأنّ كلّ واحدٍ منهم كان يحمل الكنوز ذاتها، إنّما شبه منطفئة عن حياء؛ وهكذا فقد كان مبارك يعرف أنّني المفتون الوحيد ـ إلى حدٍّما ـ بحضوره، خصوصاً عندما كنّا نتيه في الغابات. ولقد حدسَ ذلك بحيث كان، عندما يجلس على العشب، يُبرز فخذيه بدراية، أو، عندما نهيم في الغابة، يلتفت فجاة، فيما يواصل المحادثة، ويفتح أزرار بنطاله ليتبوّل، ثمّ، بعدَما يعيد إحكام الأزرار، يمدّ يده ويهديني سيجارة. كان في مقدور الفلسطينيين أن « يُطيِّروا الماء» كما يقولون في الأحراش، لكن لاأحد كان سيجرؤ على أن يقدّم سيجارة بالأصابع التي كانت منذ وهلة قد

كان بادياً بهذه الدرجة من الوضوح أنّ مبارك كان سمساراً – في ثكنة أو حيّ بغاء – وفي الأوان ذاته مومساً كبيرة، بحيث كنت لاأفهم مايفعل بين الفدائيين، ولالمَ جاء من السودان. كان، كالكثيرين، قد درس في مونبلييه (فرنسا).

ـ عندما عبثَ عليّ حكومة پومپيدو، فهل كنتَ تعبث تماماً؟

يبتسم بلطافة.

ـ عندما أرى وجهاً جديداً، أبيض خصوصاً، فأنا لاأقدر أن أمتنع عن اجتذاب انتباهه إلي

ماكانت الحزوز القبلية، ولاسواد وجهه اللامع كحذاءين جديدين، هذا كلّه ماكان ليسمح باحتجابه عن الرؤية.

ولقد احتجبَ طوال شهرين أو ثلاثة.

ربّما استعاد رتبته كضابط الى جانب النميريّ، وهذا ماكنت آمله له، لأنّ انهمامه بأن يفتن كان يمنعه من أن يكون عنيداً بلاجدوى.

هوذا، إذن، ما كان عليه لقائي الأوّل مع حمزة. كانت إربد القريبة من الحدود السورية، تصمد أمام الجيش الأردنيّ أفضل من عمّان مثلاً، والمخيم الفلسطينيّ الواقع في أطراف المدينة أفضل من المخيّمات الفلسطينية الأخرى في الأردن وأطول زمناً. كان ثمة من يفترض أن هذا الصمود نابع من العامل الجغرافيّ: قرب الحدود السورية الذي يجعل الأسلحة والذخائر والمؤونة تصل بأكثر سهولة. تفسير ممكن، إلاّ إنّه جزئيّ. فالمخاطر التي كان سكان الحدود يواجهونها سرعان ما غذّت ضرباً من الأنانية وانعدام التضامن بعد احتلال اسرائيل الجولان. ولإحالة هذه الأنانية قابلة للتحمّل، سرعان ما جاء مفهوم «الوطن» لينجدَ سوريّي الجانب الآخر.

«وبعد كلّ شيء، فلسنا فلسطينيّين ولاأردنيين، بل سوريّون. ولمصلحة وطننا، المهدد بالتصاهال والوحدة العربية، الآتية لامن دمشق وإنّما من القاهرة أو بغداد، علينا أن نحترس، أي أن نلتزم جانب الحياد.» ربّما كان هذا التفكير الصادر عن الفطرة السليمة يدعم اختيار حافظ الأسد.

ـ إعادة بناء سوريا كبرى بعدَ كسر شوكة الفلسطينيين/

كيف يقوم ياترى الوطن، ككيانٍ سيّد؟ كانت « الفلاندر» مستقلة لزمن طويل، ثم شكلت أقاليم بورغندية، فباتافية، ففرنسية، ثم أصبحت مملكة ذات سيادة تمخضت عن شخصية ومكّنت من صنع نمط جديد: البلجيكيّ. كيف يكون المرء بلجيكياً؟ أردنياً؟ فلسطينياً؟ بل حتى سوريّاً بعد خمس وعشرين سنة من الانتداب الفرنسيّ وخمسمائة سنة من الاحتلال التركيّ؟

أمّا سكان إربد، فإنّ باعث صمودهم كان شجاعتهم نفسها وإحكام التحصينات وخصوصاً حصافة المسؤولين الفلسطينيين الذين عرفوا، أفضل من المسؤولين في عمّان أو جرش، وأسرع منهم، أن يحدّدوا بالدقة اليومَ الذي سيشنّ فيه الشركس وبدو حسين هجومهم، إن لم أقل الساعة بالضبط. ولقد خزّن سكّان إربد ومخيّمها الفلسطينيّ من الماء والطحين والزيت كميّات هي من الوفرة بحيث بقي منها حتى بعد الدخول الرسميّ لقوّات البدو. لقد أروني مراراً عديدةً الترجمة الانجليزية لهذا الأمر: « الهجوم في الساعة الرابعة صباحاً، في ساحة "مكسيم"، بعمّان». قيل لي إنّ الأمر كان صادراً عن القصر. كيف يمكن نكران جسارة الرجال والنساء وعبقرية المسؤولين الدفاعية؟ لكن ماإن نستخدم هذه المفردات في إربد حتى نكون مضطرين لسحبها في عمّان التي سرعان مااستسلمَتْ. إن افتقار القادة الى الخيال، والذعر وعدم الانضباط اللذين استبدّا بالمقاومة والسكان، لهي مفردات فقيرة، مثلها كمثَل مفردَتي الجسارة والعبقرية المُبرمتَين. وهيَ تتضمّن إجمالاً كامل الشحنة العاطفية للكلمات التي تتوافد ماإن نحاول تفسير فعلٍ يمسّنا، ناسين أنّ الأعوام السابقة والتي نناضل ضدّها قد منحت هذه المفردات الثقلَ الذي يخدمنا اليوم. وكذلك أننّا أوّل من نحتاج، دائماً، هنا وهناك، إلى كلمات ذات دلالاتٍ غير متعيّنة، راجفة.

لم يفلت الفلسطينيون أبداً من هذه المفارقة: بقدرما تمرّ السنوات والقرون، تتعبأ الكلمات بانفعال وألق وأحداث متضاربة وأحداث-واجهات، وأهمية أو نفع، مثلما يتعبأ رأسمال بالنفع: رويداً رويداً تثرى المفردات. يالصعوبة القيام بثورة عندما لانعود نحرّك مشاعر مَن نقوم بها من أجلهم! لكن ياللمشغلة إذا كان علينا أن نهزّ مشاعرهم بكلمات معبّأة بالماضي، ماضٍ مقيمٍ على شفا الدمع، دمع فاتن!

كانت علامات عديدة تدلّنا على اقتراب الجنود البدو؛ وعلى عِلمنا أنّ كلّ مقاومة ستنهار في خاتمة المطاف، فقد كان ينبغي الصمود، وبين هذه العلامات أذكر ذلك السيل، في

الطرق، مشياً على الأقدام، على البغال أو في الشاحنات، من سكّان شُعث، مغبرّين، جافّي الحلق، هاربين من مخيّمات عمان والبقعة وغزّة. والفوضى في ماكان بقيَ من الادارة، فوضى في الجمارك والشرطة التي كان بعض الفلسطينيين والأردنيين يلتحقون بها بسرعة، في حين كان آخرون ينخرطون في «فتح» عن إرادة. ولقد حسبَ بعض المسؤولين، خالد أبو خالد خصوصاً، أنّني كنت في خطر في فندق أبي بكر، فنادوا على فتى جاء إلينا باسماً. من يجرؤ على القول إنّه، إذا كان رأى خمس عشرة مرّة أو عشرين مرّة فيلم «المدرّعة بوتمكين»، فليس على أمل العثور من جديد على الوجه الودود والمتطامن قرب بُرَيج المدرّعة لبحّار روسيّ يتحدّى جماله وحده نزول الجنود المسلّحين؟

كان المقاتل يحمل بالطبع بيده كلاشنكوفاً، لكن هذا كان شائعاً هنا الى هذه الدرجة بحيث لم أرها، بل رأيت، وحده تقريباً، الوجهَ الوسيمَ للفدائيّ وشعره فاحم السواد.

كان وسيماً، بل وأكثر، مُضاءاً باليقين في أنّ المقاومة في إربد هي غاية حياته بالذات. كان في سنّ العشرين، وله شعر فاحم السواد، وكوفيّة، وشاربان ناشئان. وكان شاحباً، بل كامداً، بالرغم من سُمْرته ومن الغبار.

ـ هل في بيت والدتك غرفة شاغرة؟

ـ غرفتي أنا.

ـ هذه الليلة؟

ـ هذه الليلة أنا في القتال، وسَينام في غرفتي.

ـ خذه معك، في رعاية اللّه، إنّه صديق.

صافحني الشاعر الفلسطينيّ خالد أبو خالد. لم أره ثانيةً أبداً.

كنّا نسمع، إنّما بعيداً جداً، هدير المدفعية الثقيلة. لاشكّ أنّ هذا كان في جرش، التي كانت في ١٩٧٠ قرية صغيرة جداً، بمنازل من الآجر، قرب موقع أثريّ رومانيّ كانت بعض الأعمدة فيه ماتزال منتصبة، وأخرى مضطجعة، إلاّ إنّ تعبير «موقع رومانيّ» يكفي. كان حمزة يريد أن يحمل كيس أمتعتي. لم ألاحظ عليه في البدء شيئاً لم أره في بقية الفدائيين: الابتسامة والمرح والصوت الذي هو من الرقّة بحيث يبدو خطيراً، مع شيء من الطيش والرصانة المفاجئة. كان في هذا كلّه شبيهاً بالجميع، فلا نفاجة قطّ.

ـ إسمي حمزة.

ـ واسمي . . .

ـ أعرف . قاله لي خالد .

ـ وهو نفسه من قال لي إسمك .

لما كان أدرك أنّي أعرف بعض المفردات العربية بالدارجة المغاربيّة، راح يستخدمها وإيّاي. كان الوقت نحو منتصف النهار، في منتصف رمضان، الشهر الذي لايتناول فيه المسلمون الطعام ولا الشراب ولايدخنون ولايجامعون قبلَ غروب الشمس. وبمقتضى حديث نبويّ، فبالفرح لا بالحرد والاستياء يهدي المسلم لربّه شهرَ صيامٍ، من الشروق الى الغروب، معوَّضاً باحتفالات ليلية. وكان الهدوء، المرئيّ كالجليد تقريباً، ينبسط على مدينة إربد بكاملها، وعلى مخيّمها الفسطينيّ. كان بادياً على الرجال والنساء والأشياء هذا التجرّد الذي يعرب عن سلام كبير، أو يعلن عن تصميم هو من الرصانة بحيث يظلّ في مقدور أدنى التماع أن يذيبه.

لتيه الاسلام أو المجتمع الاسلاميّ وتجوابهما في الفضاء والزمن، بمقتضى لاأدري أيّة تيّارات، هذا التجواب والتيه والترحّل اليوميّ والأرضيّ، هذا كلّه له مقابله في ترحُّل الأعياد في تقويم متحرّك يرجيء الأعياد ومواقيت الصلاة والصيام، أي شهر رمضان عبر الأعوام، إلاّ إذا كانت هذه الطوافات في التقويم رمزاً لتيه كونيّ نجهل نحن مغزاه. مقابلَ مايبدو على المسيحيّة من ثبات، يفرض علينا الاسلام صوراً دائمة الحركة والتغيّر، في السماء وعلى الأرض.

كان التوتّر، المحسوس به قربَ الطريق، يتلاشى بقدرما نلج المدينةَ والمخيّم.

كان رجال ونساء، من جميع الأعمار، ماضين، عارفين أينَ ولأيّ هدف. كان لكلّ إيماءة وزنها، وثمنها، اللذان ماكان ليزيد منهما أو ينقصمها قرب الأسلحة الثقيلة ولا مخرج الطوارىء – أو الفخّ – الذي كان يمكن أن تشكّله الحدود السورية للفلسطينيين الملاحَقين. ماكنّا لنعرف إن كانت هذه الحدود مفتوحة أم مغلقة. نحسبها مفتوحة، وإذا بها مغلقة منذ خمس دقائق. أو العكس. كنا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧١، وأقدر أن أشهد أنّ العداء في الشارع، عداء التجّار ورجال فنادق إربد للفلسطينيين كان، منذ تلك اللحظة، محسوساً.

ـ سأعثر على سيارة أجرة، وستكون غداً في درعة، وبعد غدٍ في دمشق.

كان الكثير من سكان المخيّم، بل ربّما الجميع، يعرفون حمزة. يبادلونه لدى مروره تحيّة،

أو ابتسامة، أو غمزة. فيردّ هو بابتسامة.

ـ ما دينك؟

ـ لادين لي. لكنْ إنْ أصررتَ، فأنا كاثوليكيّ، وانت؟

ـ لاأدري. ربّما كنت مسلماً، لكن ماعدتُ لادري. اليوم، أنا محارب. سأقتل الليلةَ أدرنياً أو اثنين، وبالتالي مسلمَين آخرين. أو قد يقتلونني.

يقول لي ذلك مبتسماً، لا برهافة ورضى، إنّما مع بريق في عينيه وعلى أسنانه. كانت لعلعة البنادق والعبوات الناسفة مستمرّة حتى لقد شكّلت جزءاً من الطقس. مشينا بحذاء شارع كان فيه رجال عمالقة، بشاربين خفيفين، وبندقية في اليد، وشعر طويل، ملفوف أو بالأحرى حلزونيّ، شبيه بالتصفيف المدعوّ بالانجليزيّ، متدرج بين الكستنائيّ الفاتح والأصهب، يغطّي أكتافهم. كان هؤلاء المقاتلون يستندون الى الحيطان. وفي بحثهم عن رقعة من الظلّ الذي كان لايكفّ عن التضاؤل، كان كلّ واحد يهفو الى أن ينْحف كملصق إعلانٍ ويندسّ في سماكة الحائط. بادلهم حمزة تحية.

ـ فدائيّو «الصاعقة»، يقول لي.

«الصاعقة». إسم منظمة فلسطينية خاضعة لسوريا تماماً، وإذْ يُنطَق به أمام أشجار الأرتانيا الضخمة هذه، المسلّحة والمرتدية بزّة الفهود المرقّطة، والمنتعلة أحذية مطاطة لاتُسمَع، فهو يرنّ في أذني كسماجة من نوع: «فدائيّو الپاپيڤا» (٥٠).

تداعٍ للكلمات، يتمخض عن فكرة غريبة بالنسبة إليّ حتى لقد سمعتُني، في الشارع الخانق، وأنا أضحك، ضحكاً رفيقاً لاحظه حمزة.

ـ تضحك؟ لماذا؟

فاجأني السؤال وضحكي الى هذه الدرجة بحيث أجبت:

ـ بسبب الحرارة.

إجابة بدت لي ولحمزة نهائيّة.

لم يقل لي حمزة، الذي كان شعر رأسه مقصوصاً بانتظام، عن المقاتلين سوى انهم شجعان. كان لاريب يعرف الفارق بين الشجاعة والجسارة، ويعتقد أنّ مقاتلي الصاعقة جسورون في القتال وشجعان بحيث يقاتلون محتفظين بشعرهم الطويل المجعّد. مجعّد الى

هذه الدرجة من الاتقان ويحيط الوجه بخصَل إنجليزية فاتنة بحيث لم أقدر على الامتناع عن أن أتصوّر أنّ الواحد منهم يُجعّد شعر الآخر بمعونة مكوى للشعر محمّى على الجمر لدى الاستيقاظ وفيما يتناولون الشاي.

كان ضمنَ منهجي أن أفكّر كما يأتي: «إذا كان عليهم أن يثبتوا قدراتهم في القتال، فهم أُسود.»

فيما بعد، في ١٩٧٦، أثبتوا في «تلّ الزعتر» أيّ وحوشٍ كانوا، أكثر رهبةً من الأُسود. أثبتوا ذلك، إلاّ إنّ ضحاياهم كانوا هذه المرّة هم فلسطينيو «فتح».

في هذا الموضع من الكتاب، سأتحدّث عن موت كمال عدوان وكمال ناصر وأبي يوسف النجّار، الذين كانوا ثلاثة أعضاء ذوي شأنٍ في «فتح». كان كمال ناصر، الذي عرفتُ، يبدو لي الأكثر لطفاً، وأقلّهم في ذلك كمال عدوان، فلقد كانت فظاظته في المناداة تزعجني. كانوا يبذلون مافي وسعهم للاحتفاظ بغفليّتهم، إلاّ إنّ تحوّطهم راح يتضائل حتى تلاشى. وكانوا يلتقون في فندق «ستراند» ببيروت برفاقهم وببعض الصحفيين. رأيتهم في الطريق المؤدية الى سفارة الجزائر مراراً، بلا حرس ولاحماية، لا أمامهم ولا من الخلف. يسيرون بلا قلق، يدخّنون. أعتقد أنّ الستينيّات هي التي شهدت بداية صرعة الشعر الطويل النازل على الكتفين، موضة بدأت حيّية ثمّ صارت شعثاء (هذه هي الكلمة). كانت جميع التسريحات تبدو ممكنة، الشعر الطويل، ونصف الطويل، والمقصوص عند الجبين، والشعر المفروش، والأسود الزيتيّ، والشعر العائم، والمجنون، والكستنائيّ، والأشعث، والأشقر المجعّد، إلاّ إنّ أنثوية التسريحات هذه كان ينبغي أن تجد، بصورة من الصور، مايقمعها في مواقف جدّ فحولية للجسد، أي أنّ القدر الأعلى من التعضّل كان مطلوباً، لا عضلات مرئية فحسب، وإنّما مضمرة أيضاً، ومتضخّمة. وهذه الصرعة، صرعة الشعور المطليّة بالأحمر، بل وحتى بالأبيض في انجلترا، كانت قد ولدت في كاليفورنيا من هزيمة الجيش الأمريكيّ في ڤيتنام. أعتقد أنّ الأرض نفسها شهدت تفتّحاً ربيعياً: فشل أمريكا في ڤيتنام الشمالية والشعر الطويل وبناطيل الجينز المدعوّة بموحّدة الجنس، وماسات بفصّ واحد، ومجوهرات بربريّة (نسبة الى البربر) تحيط بالمعصمين والعنق، والمشي حافياً، والتسريحات الأفريقية السوداء، وأزواج الغلمان المشعرين، طويلي شعر الذقن، بالغي الحنان، وفي الشوارع قبلات هؤلاء الأزواج، و«الكيف» يدخّنونه، وأقراص الـ «أل، أس، دي» المتناوَلة علناً، وسيجارة حشيش واحدة تتنقل بين تسعة أفواه أو عشرة، ولوالب طويلة من الدخان تذهب من المعدة الى الفم الفاغر لعشيقٍ، واللولب نفسه، لايكاد

يتضاءل، يمضي من فم الى فم، ومن معدة الى معدة، أي، بإيجاز، تفتّح للشبيبة غير ربيعيّ إنّما من نمط شرق أوسط أدركه الصيف، شبه آيلٍ الى الخريف ويتوجّس من مقْدم شتاءٍ قارس.

كانت خدمات منظمة التحرير الفلسطينية قد وضعت حارسين، فدائيين، في أسفل السلّم وعند باب كلّ من المسؤولين المذكورين الثلاثة. هوذا مافسّره لي داود:

ـ «هيبيّان» اثنان، بشعر طويل ومجعّد، يتكلّمان الانجليزية مع حلول الظلام، ويمسك أحدهما بالآخر من عنقه، يتبادلان قبلات طويلة الأمد، يقتربان ضاحكين، مترنّحين، من الحارسين الواقفين أدنى السلّم المؤدّي الى كمال عدوان. يشتم الحارسان اللوطيين الفضائحيّين، وإذا بالأخيرَين يُخرِجان، بسرعة تشهد على تدريب بالغ الدقّة، مسدّسين ويرديان الحارسين قتيلين، ويصعدان السلّم بسرعة، يدلفان الى غرفة كمال عدوان ويغتالانه. وكان مشهد مماثل تقريباً يدور في الساعة نفسها عند محلّ إقامة كلّ من كمال ناصر وأبي يوسف النجّار.

بفعل هذه العملية يمكن اعتبار الاغتيال واحداً من الفنون الجميلة، شريطة أن نهب الكلمات الحروفَ الكبيرة التي تنتظرها هي. وكجميع الاعمال التي تكرّسها الفنون الجميلة، فإنّ الاغتيال يلزم بالتكريم بميدالية أو أكثر. وأحسب انّ ميداليات قد عُلّقت على ستّة صدور أو أكثر. تقول الحكاية التفصيلية إنّ ستّة رجالٍ شقر قد اختيروا، وربّما كان هذا الاختيار، هو خصوصاً، بالغ الصعوبة. لا لأن الشقر كانوا ينقصون، إطلاقاً، بل لأنه كان ينبغي انتظار أن ينمو الشعر، أن يكون له طول جميل حتّى تُجَعّد أطوَلُ خُصَله ولينزل على الكتفين أو ليقصّ مايتداعى منه على العينين. كان ثمة ولاشكّ معلّقون يزعمون انّ كلّ زوج قد حُلِقَ شعره الى الصفر، على غرار المظليّين، ثمّ وُضِعَ على الرأس شعر مستعار ينزل على امتداد الوجه. مهما كان الأمر، فإنّ الجميع وافقوا على فكرة الإعداد هذه: فحتى يضفوا صدقية كافية على مداعبات العاشقَين، كان عليهم أن يتدربوا على القبلة الفميّة. وإنّ عضلات الأعضاء ومرونة الأجسام وخفة السيقان والبراءة والمظهر الأمرد للوجوه، هذا كلّه كان ينبغي تدبيره بدقّة، وخصوصاً الأصوات الأنثوية من غير نشاز. وفقط عندما تيقنّوا من ذلك، قام بحريّون بنقلهم في الليل وبمنتهى التكتّم الى أحد شواطيء بيروت. وفي أثناء ذلك الإعداد، كان عليهم أن ينسوا معرفتهم الكاملة للعربية، واللكنة الفلسطينية أو اللبنانية، وخصوصاً لائحة من الكلمات العامية التي تُتبادَل إبّان المداعبات الطويلة التي تشحذ الرغبة. أمّا ماحدثَ للمسؤولين الفلسطينيين الثلاثة ولامرأة أحدهم، فنعرفه. وإذاما فضّلتُ رواية الشعر المستعار، فأنا أحسب أن الاسرائيليين الستّة، بعدما أعادوا مسدّساتهم الى أغمادها، نزعوا فروات الشعر هذه وتلاقوا ليذهبوا، بهذه المشية الهادئة التي تعلّمها الكتائبيون، الى الشاطيء حيث سيعيدهم القارب ذو المحرّك الصامت الى حيفا. ومن دون أن أضمن نجاح البورتريت، فأنا

أتخيّل أنّ هؤلاء الستّة، رياضيّي الهيئة، الذين كانوا بشعر مجعّد قبل لحظات، هم الآن حليقو الشعر، يُرون الطاقم، بزهو بلّوريّ، كيف تبادلوا القبل من الفم لاثارة حفيظة الحرّاس الذين حسبوا، بلا ارتياب، انّهم يرون لوطيّين عرباً، فراحوا يضحكون بلا ضيق، وكيف اغتالوا القادة الفلسطينيين الثلاثة بكلّ يُسر. هل كان هذا الزهو البلّوريّ هو زهو كونهم يهوداً، وهو في هذه الحالة زهو عدم كونهم كسائر البشر؟ لقد وصفت صحف العالم كلّه، من دون أن تتحدّث عن إرهاب، عمليةَ الاغتيال هذه المنفّذة على أرض ذات سيادة. وُصفَت العمليّة كواحد من الفنون الجميلة، واستحقّت النوط المناسب والذي تمّ تقديمه. ولم يكن ذلكَ لأنّ الشقر ينقصون، لفرط ما في اسرائيل من «صبْرة» [إسرائيليّين ولدوا في فلسطين بعدَ قيام الدولة العبريّة] من أصلٍ إشكنازيّ.

[لو كنتُ ولدتُ هناك، فـ] بدلَ تعميدي، وحتى من دون معرفة امّي اليهودية، كانت مؤسّسة الرعاية الاجتماعية ستدَع على جسدي عن طريق الخطأ «ذلكَ الجدولَ غيرَ العميق المدعوّ افتراءاً بالموت» (٥١)... وبعد تلقّي تربيتي بحسب المعتقد التلموديّ، كنت ساصبح اليوم حاخاماً شيخاً يُصلّي ويَندب، ويدسّ اوراقاً مبلّلة بين احجار حائط المبكى. وكان ابني سيصبح جاسوساً رفيع المستوى في «الموساد»، أي في سفارة إسرائيل بباريس، وحفيدي ربّانَ طائرة «ميراج» يلقي قنابله على بيروت الغربية بابتسام.

تفكير أبله، لأنّني ماكنت في هذه الحالة ساكتب هذا الكتاب ولا هذه الصفحة: كنت ساصبح شخصاً آخر، له أفكار أخرى، ومعتقد آخر، ولكنتُ سابحث عن أسلافي بين بائعي الفراء. كنت سأملك خصلاً تصل حتى الصدر: وهذه الخصَل هي ماآسف عليه.

قفلَت هذه المجموعة راجعة عبر البحر الى اسرائيل. في ليلة بذاتها، كانت قد جاءت بثياب تراعي الصرعة، وشخّصت المنازل، التي ربّما كان مراقبون يهود آخرون بجوازات سفر بلجكية قد وصفوها من قبل؛ وكانت المجموعة المقسّمة ثلاثاً قد تدربّت بإتقانٍ على أدوار اللواطيين المغرمين، وشرعتْ فجاة بالفعل لا بالتمثيل، ثمّ لاذت بأذيال الفرار يغطّيها، ولاشكّ، زملاء يبدون في الظاهر محايدين، وقفزت الى الزوارق المطاطة وبلغت حيفا تحت السماء الحلولكة. ماكانت حاجتي للكلام عن المجزرة بعدما تذكّرتُ الشعر الطويل والمجعّد لمقاتلي «الصاعقة»؟ كان داود، في سرده للعملية كما رُويتْ له، يشفّ عن نوع من الاعجاب بالجسارة ونقاوة الأسلوب، وبالتنفيذ الذي كان من الاتقان بحيث يكشف عن فنّان عظيم إنّما وحيد، يبدأ خطّاً ويكمله دفعةً واحدةً، إلاّ، بالطبع، إذا مابقي في الظلّ، وعلى نحو مفارق، جهازٌ بالغ الحذق ماكانت المأثرة في بيروت لتشكّل الاّ إمضاءه. وبدا لي انّه كان ينضاف الى الاعجاب انسحارٌ بكون عملية بمثل هذا العنف والسرعة قد نُفّذت في ضرب من اللعب أو

التمثيل من قبل خصَل شقراء تتدلى على أكتاف جزّارين. ولكم حتّى أن تفترضوا أنّ اسرائيل قد فخّمت المأثرة في صُحفها، في القدس وسواها، وربّما كانت ماتزال تفعل ذلك عندما تقبض في البحر على الزوارق الفلسطينية وتُغرقها.

إنّ ستّ لمّات من الشعر الأشقر المستعار، وشيئاً من أحمر الشفاه ومن الكحل في العينين، هذا كلّه لايكفي لأن يجلب الى شوارع بيروت ذلك الذعر كلّه الذي يظل من المؤكد أنّ أحداً لم يفطن له. ولربّما كان الضحك الداخليّ لمغيّري جنسهم الذين لم يكفّوا عن الاحساس بفحولتهم، يقابل انصعاق مغيّري جنسهم الفعليّين الذين يخشون الافتضاح بباعث من صوتهم الثرثار لا كأصوات النساء، بل الذي يزعم استقلاله، كإيماءاتهم نفسها: صوت بلا حامل. على النقيض من ذلك، كان على الاسرائيليين مجعّدي الشعر الستّة ألاّ ينسوا أنّهم رجال، لديهم عضلات من أجل القتال، وأنّهم مدرّبون على القتل. كانت غرابة وضعهم بكاملها آتية من الرقّة، من الرهافة الأنثوية لايماءاتهم التي ستتحوّل، بين هنيهة وأخرى، وبمنتهى الدقّة، الى ايماءات قتّلة، لا قاتلات. عرفوا أن يُقبّل الواحد منهم الآخرَ لساناً بإزاء لسان، برأس محنيّ، وذكَراً بإزاء ذكر، إلاّ إنّ هذه الايماءات كانت سهلة وترد الى الخاطر فوراً. وماكان هو الأطول في التدريب والأكثر تعقيداً إنّما هو الرهافة الخاصّة في الاصابع لرفع شعرةٍ عن جبين المحبوب أو طرد دويبة من على كتف العاشق بنقرة ظفْر.. لاشكّ أنّ هذه التمارين في شوارع اسرائيل قد استغرقت فترة طويلة. ترتيب ثنية في الوشاح، والضحك بنبر حادّ، ثم التجرّد بغتةً من البهارج والتحول ثانيةً الى محارب هدفه القتل. والذهاب للقتل فعلاً، لا القتل كما في نهاية مسرحية نالت الكثير من التصفيق، وإنّما القتل وتخليف جثث. أتساءل إن لم يكن عذباً الاندساس في الأنوثة الحنون، وعسيراً التخلّص منها من أجل فعل إجراميّ. إلاّ إنّ البطولة كانت كامنة هنا أيضاً. عندما تخلّى شارل الخامس عن امبراطوريته وممالكه وبحاره ذاهباً ليعتكف في دير سان-جوست؟...

ربّما استغرق منا الوصول الى بيت حمزة ماشيَين على القدم ساعة كاملة. وفي رطانتنا التي سأتفادى هنا استعادتها، والتي راحت تبدو لنا مألوفة حتى لكأنّ شفرةً ما كانت تجمعنا من قبل، فكأنّنا أعددناها في حياة سابقة، وحتى لقد خامرنا الانطباع بكوننا نفهم أحدنا الآخر بأفضل ممّا لو كنّا نفقه معنى المفردات المستخدمة، التي يبدو أنّها كانت متخلّلة بأخطاء. كانت الشوارع تقفر أكثر فأكثر. فلئن لم يكن الناس بصدد تناول الطعام فلابدّ أنّهم كانوا ينامون القيلولة في البيوت. علمت فيما بعد أنّهم كانوا يحرسون: عند النوافذ، وعلى السطوح، يعنون بالأسلحة، يدهنونها، ويتهيأون.

أشار إلينا رجلان، في حوالى الستين من العمر، من ضربٍ من مستودع للحصيد كانا جالسَين فيه القرفصاء، بالجلوس الى جانبهما. صافَحاناه ببالغ الدماثة. كان كلّ مهما يحمل بندقية، من طراز «لوبيل». وسالا حمزة، بلا خبث فيما يبدو، إن كان يعرف من أنا.

ـ صديق تلقّيت أمراً بحمايته.

لم يسأل أحد عن أصلي. سألت أحد الفلسطينيين إذا كان يمكن أن آخذ بيدي بندقيته. فمدّ لي كلا الاثنين سلاحهما بعفوية، ثمّ انتبه الاثنان في الأوان ذاته وسَحبا المشط. فطفقنا نقهقه نحن الأربعة في وتيرة واحدة. شرحتُ لحمزة أنّ اسم البندقية، «لوبيل» Lebel [يعني في الفرنسيّة: «الجميل»، ولاحظ أنّه يمكن قراءته طرداً وعسكاً] كان هو الاختيار الأفضل لتقريبنا بعضاً من بعض؛ وعندما كتبت له الاسم قرأه من اليمين الى اليسار، ثمّ من اليسار الى اليمين، ومدّ لي يده كما يفعل جميع العرب علامةً على الوفاق. سَددتُ، مستهدفاً غصن شجرة، ومن دون أن أضغط على الزناد أعدتُ البندقيّة إلى صاحبها. كان كلا الفلسطينيين فلاحين، إلاّ إنّ هذه البندقية البائدة كانت كافية لأن تنفح فيهما الشباب من جديد، ولأن تُبعدهما عن حصاد الحقول، وترجعهما الى النفَس، والدم، والموت. وماكانا في هذا ليُقلّدا أحداً. وذلك بالتضادّ مع المسؤولين الذين ينسخون الغرب، ففي اللحظات التي عليهم فيها أن يبتكروا، بقليل من العبقرية، دقائق الأعياد، فرحةً كانت أو جنائزية، لم يكن المسؤولون الفلسطينيون ليقوموا أغلب الأحايين بسوى النسْخ. ولقد بدا لي نصب الشهداء – أو الأموات – المصنوع من الخشب وقماش «الايتامين» الرقيق ومصباح دائم الاشتعال، مؤثّراً في فقره. على حين أرسلوا (أي المسؤولون الفلسطينيّون) الطبيب الكوبيّ الفريدو الى أوربا ليبحث لافحسب عن الأموال، بل كذلك عن المرمر أو الحجر الصلب المناسب، ربّما من الغرانيت، لنحت نصبٍ هو نسخة من نصب قتلى ١٤–١٩١٨ الفرنسيّين. بعدما ودّعنا الرجلَين، قلتُ لحمزة:

ـ أنا جائع، وأنت؟

ـ إنتظر قليلاً.

ـ أقدر أن أشتري معلّبات.

ـ إنتظرْ.

استعدنا مسيرتنا تحت الشمس. كان المخيّم الفلسطينيّ متدنيّاً بباعث من انحدار الشارع. ولدى وصولنا الى حائط صغير أبيض مثقوب بباب مطليّ بالأبيض نفسه، أخرج

حمزة من جيبه مفتاحاً وفتَح. دلفتُ الى حوشٍ ضيّق نوعاًما. اعاد إقفال الباب وراءنا بالمفتاح. وأمام ماساعرف بعد قليلٍ انّه حجرته، كانت فلسطينية باسمة ومسلّحة تقف باستقامة في فستانها الحيفاويّ. كان سلاحها، المعلّق الى كتفها في حمّالة، من طراز سلاح حمزة نفسه. حيّى أمّه بالعربية. وبقيت هي محتفظة بالابتسامة وببندقيها. قدّمني لها بالعربية:

ـ صديق.

لمستْ يدي بأطراف أصابعها.

ـ صديق، ولكنّه مسيحيّ.

كانت قد سحبت من قبلُ يدها، ولكنها بقيت محتفظة بالابتسامة، وبنظرة مستأنسة تتفرّس وجهي.

ـ لكنْ أنبهّك، إنّه صديق، مسيحيّ لكنْ لايؤمن باللّه.

كان حمزة يتحدث بصوت فخم ورقيق. تركت الأمّ ابتسامتها تتنقل بين وجهها ووجهي، إنّما في شبه حيويّة، ثمّ نظرت الى ابنها، ومن دون أن تتخلى عن ابتسامتها التي كان يبدو لي أنّها ماكانت سوى الصدى الخافت، شبه غير الملحوظ، لضحك شاسع يهزّها بكاملها من دون أن يظهر منه سوى الابتسامة، قالت:

ـ مادام لايؤمن باللّه، فينبغي أن أقدّم له الطعام.

دخلت الى حجرتها، فاقتادني حمزة الى حجرته. كانت هذه الأسرة، الهاربة من حيفا المقصوفة، قد عثرت، من هروب الى آخر، على ملجأ لها في إربد. وفي ١٩٤٩ كان المخيّم مايزال مصنوعاً من خيامٍ مرقّعة. ثمّ جاء زمن مدن الصفيح، زمن الحيطان وسقوف الألمنيوم والمَطيلة وقطع «المقوّى»، فكان، في بؤسه، شبيهاً بمخيّم «البقعة».

ماإن كتبتُ هذا المقطع وأعدتُ قراءته، حتى رأيتُ أنّه يتحدث فعلاً عن «مخيّم البقعة»، ولكنّ وجهاً من الحقيقة يظلّ محتجباً، إذ أين كان يتهيأ كلّ ذلك المرح الذي يتغمّد في الأيام الخالية من الضباب، على منحدرات الجبل الذي لايرحم، احتفالاً كان سيظلّ شبهَ صامتٍ لولا الصغار؟ عندما أنظر عن كثبٍ في الصباح إلى شقوق الخيَم كنت أراها أحياناً مرفوّة برقعة غير متوقّعة حقاً، ربّما بمزقة من قميص قد يكون آتياً من «ليموج» [في فرنسا] عن طريق بيروت فإربد أو عمّان؟ كانت تتنقّل بين الخيَم خيالات خرقاء أخمّن أنّها تنتعل

أحذية ماتزال محلولة النياط. نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة من العمل في المستوصف الذي أرسله «الاسعاف الشعبيّ الفرنسيّ» ويندفع الى الضحك المخيّم المستيقظ كلّه. بسطات الفواكه والخضار والأزهار الحقيقية، أقصد لا من المشمّع، إذْ لم يكن في الصباح سوى ماياتي: الأحمر والورديّ والأخضر والأصفر، هذه الألوان وحدها كانت ثرية وحقيقية، هي وجوهر الفاكهة والخضار. كانت الشمس تتعالى في السمت، وألعاب الصغار تبدأ، وكان شيء هيّن كافياً لأن يتعالى ضحكهم، كما في لشبونة.

ماقلتُ أعلاه عن كآبة المخيّمات ليس بالكاذب قطّ. وعليه، فلافلسطينيّ كان يرى فيما يرقد، وفيما ينام، شقاءه: قبل أن يطفيء النور يُعيد عدّ حبّات الليمون الأفنديّ والباذنجان. ولدى الاستيقاظ يتصوّر ترتيباً آخر للفاكهتين، لأنّ لونَيهما يتواءمان، فعليه أن يضعهما في صفوفٍ لا في أهرام. إنّ كلّ رزءٍ ينفي نفسه بشيء من السرعة في الجرْدة الابتكاريّة: فيكون في تلك اللحظة اختفى الملمح البائس لمخيّم «البقعة» وكآبة الوجوه. ورويداً رويداً، وبفضل اشتغال الأسَر في أيّ شيء وفي أيّ مكان، راح الاسمنت المسلّح يحلّ محلّ الخردة.

أشار لي حمزة الى فراشه الذي سأنام فيه الليلة: «لأنني ذاهب اليوم للقتال. أنا مسؤول صغير» (أعتقد أنّني أتذكّر: كان قائداً لمجموعة تضم عشرة فدائيّين أو أثني عشر).

ثم أشار الى حفرة في الأرض، مُقامة عند طرف فراشه: إذاما اقتربت مدافع حسين ورشاشاته، فنادِ على أمي وشقيقتي، واجعلهن ينزلن معك في الملجأ. لقد أخفينا فيه ثلاث بنادق.

دخلت أمه ووضعت طبقاً على المنضدة الصغيرة. بعض الفطائر في صحنين، وبعض أوراق الخس وقطع الطماطم، وأربع سردينات وثلاث بيضات مسلوقة كما أعتقد. شرع حمزة وأمه والمسيحيّ الذي لا إله له بالأكل نحو الساعة الثالثة بعد الظهر من شهر رمضان والشمس لمّا تنحدر في الأفق بعد.

ما تزال الزرقة السماويّة للمنضدة وأزهارها السوداء والصفراء مرتسمة في عينيّ، كما لا تزال تفاصيل الصخور والأشجار والحقول ونسيج الخيم المرئية عن قرب أو بُعدٍ وشجرة التنّوب والماء الجامد والأسود، أو الجاري، الميت أو الحيّ، الذي كان ينعكس في عينيّ وأعين الفدائيّين. من الكآبة الخفيفة التي سيخلّفها فيَّ حمزة إذاما غادرَني كنتُ أحدس أن هذه البلبلة لن تتوقف أبداً. لو أن طلقة أجهزت عليّ، فإنّ هذه البلبلة ستستمرّ في أعماق أحدِما سيكون هناك، ومن بعدهِ آخر، وهكذا دواليك.

إلاّ إذا أُغْرِقَ المشهد بكامله، طبعاً. آنذاك، ستستقرّ النظرات على بحيرة، أو سدّ، أو على صيادين اسرائيليين.

لا حمزة ولا أمه سيريان حيفا ثانيةً.

بعد الغداء، اقتادني حمزة الى ساحة المدرسة. لم يكن في الصفّ أيّ تلميذ. كان جميع التلامذة، أبناء الفلسطينيين، متجمّعين في الساحة، في حلقات، بلا هلع ولا تبجّح، يتحدثون عن اقتراب أصوات الاطلاقات الأردنية. كان كلّ صبيّ قد علّق على كتفه أو حزامه قنبلتين يدويتين أو أربعاً. زوجاً زوجاً أو زوجين زوجين في كلّ جانب. فهمتُ من معلّم جزائريّ يتكلم بالفرنسية أنه لا صبيّ سينام الليلة: سينتظرون لحظة سحب الفتائل وإلقاء القنابل على البدو.

غالباً ماتحدّثتُ، في هذا الكتاب وسواه، عن جسارة الفلسطينيين بلا تزويق. لا بد أنّه كان ثمة خوف وارتعاش، وركض أمام الموت ولحظات جبن، إذ غالباً ما ترتجف السيقان أمام قطع الذهب أو الأوراق النقدية الجديدة التي تحدث ضجة شبيهة بضجة خُفٍّ عائد الى ١٩٢٠. وإنّ مذاق السلطة لهو من القوة بحيث تلزم شجاعة كبيرة لنجدة من يريد الصمود. إلاّ إنّني لم أكن مع ذلك شاهداً إلاّ على تراجع واحد [من لدن الفدائيّين].

كتبت آنفاً كلمة الشجاعة بصدد القتال الجسمانيّ الذي يخوضه الفلسطينيّون، أنا الذي أحتفظ بها عادةً لوصف الجهد والعنفوان الذهنيّين. من هنا ربما كانت كلمة « جسارة » هي التي تليق بتحدي الموت أو المخاطر التي يواجهها الجسد. عندما يجابه الفلسطينيون الازدراء المتضمَّن في كلمة « الارهاب » أو « إرهابيّ »، ويقابلون بعدم الاكتراث – الذي كسبوه ضدّ أنفسهم قبل أي شيء آخر – كونَهم هم الشيطان، وكونَ مشروعهم يمثّل لبقية العالم نوعاً من التآمر الشيطانيّ، فإنّ هذا كلّه إنّما يصدر عن الشجاعة والجسارة.

أنْ نتّهم الفدائيّين بالخوف؟ خلا لحظة الذعر التي حاولت وصفها أعلاه، وكذلك تفسيرها (أقول: حاولت، فأنا لم أكن ساعتها هناك)، فإنّ كلّ شيء في تلك اللحظات المجرّدة من كلّ يقين، التي ترى فيها الى الموت (ذلك أنّه يكون وقتها مرئياً) وهو يتارجح فوق راسك ورأس العدوّ، لاهثاً، متردداً، لا يدري مَن سيختار، اقول إنّ كلّ شيء كان يبدو شبيهاً بلعبة. هنا، تتحوّل الثورة الى لعبة غاية في الغرابة. أتراك تقاتل حتى الموت، المعطى أو المتسلّم، من أجل قطعة أرض هنا أو هناك؟ لما كانت خسارة اللعبة تمتزج بفقدان الحياة فهل الأمر هو على

هذه الدرجة من الخطورة حقاً إذاما كان علينا أن ندفعَ مبتسمين ساعةَ نخسر؟

لكن هل يعرّض احد نفسه للقتل من أجل أرض، أم من أجل النصر فحسب؟

ثمة في غاليري ميلانو الكبير، فسيفساء تزيّن الأرضية عند تقاطع الممشيَين المبلّطين. إنّ جانباً جدّ صغير من هذه الفسيفساء ممحوّ. يصور هذا الجانب المحوّ خصيتَي حصان. حصان «كوليون» (لقب يعني تقريباً: «الرجل بديع الخِلْقة»). ومامن ميلانيّ، من الرائحين الغادين أزواجاً أزواجاً في الغاليري، لينسى أن يدور بكامل جسمه فوق الجانب الممحوّ من الفسيفساء، في أمل أن ينتقل اليه شيء من فحولة الفرس. عندما ترى الى ثلاثة رجال أو أربعة وهم يحتضن بعضهم أكتاف بعض، فأنتَ تتذكر هذه الرقصة الدائرية التي قام بها كلّ منهم حول خصيتَي الفرس، والتي لا يجوز لأية امرأة أن تقوم بها ولا أن تقلّدها. ولقد تحوّلت ساحة هذه المدرسة الفلسطينية الى أسواق عيد يعرض فيها كلّ صبيّ الخصية المسخيّة، المزدوجة أو الرباعية، التي كان يحملها على حزامه أو كتفيه، كما لو ليتباهى بمزاياها. وما كان بذيئاً، على براءته، هو العُري المعدنيّ لهذه الأعضاء.

كانت يداي مجتذبتين بالشكل المدوّر للقنابل المعلقة على أحزمة التلامذة أو أكتافهم. من الآن، هم مقاتلون صلبون، محاربون لا يتحدثون إلاّ عن الحرب، بمفردات أكثر فخامة من مفردات الفدائيّين الذين اختاروا القتال. أكان الفدائيّون يفكّرون في تلك الساعة بأشياء أخرى، محدّدة؟ بفخذَي امرأة، مثلاً؟ بالمواضع التي يتركز عليها التفضيل والتي يترنح أمامها العقل والقدرة على الاختيار: الشَّعر، العينين، النهدين، العضو الجنسيّ، الإليتين؟ أكانوا قريبين، كما يمكن أن يكون الانسان قريباً في الضباب، في رغبة مبهمة، حيث يظلّ كلّ فدائيّ، بالرغم من كونه مأسوراً هنا، [نائياً كمثْل] ملاك؟ أنْ تكون على هذا القرب من الموت وألا تمتلك أية رغبة في إعطاء الحياة، بالاستمتاع، ولا بإعطاء هذه الحياة التي ما تزال تملكها، والتي لن تعود هنا بعدَ ثانية؟ لقد بدا لي هذا المظهر المحرَّر من الرغبة الجنسية، غير كثير الصلة برواح ومجيء هؤلاء الفتية الفحول، معضّلي الأجسام، لكن غير المُشتَغلين برائحة الجنس بعدُ كما خُيِّلَ إليّ. تقرأ أحياناً (إنّما في النصوص الرومانتيكية) أنّ بطلاً كان خطيباً للموت: الانتعاظ، هذه الكلمة شديدة الذكورية في الفرنسية، لكن الملفوحة بالاحتضار والموت والمرأة والحرب، هذه المفردات المؤنثة في الفرنسية والتي تظل هي الحاملة كلمةَ الختام. بين عواميد حرف "H"، وبين الجدران المنحوتة في «قوس النصر»، وبين ساقَي الفدائيّ المنفرجتين، وبين القوائم العامودية لاسم حمزة (Hamza)، ينبغي أن تمرّ فصائل ظافرة ومن ورائها مدافعها والمدرّعات. لقد بقينا، أنا وحمزة، في منزل والدته. هذه الجملة الأخيرة تبدو وهي تشير الى أنّ أمه كانت هي ربّ المنزل. وفيما أراها الى جانب ولدها، وأتذكر علاقاتهما التي كانت

رواحاً ومجيئاً غير منقطعين بين الاثنين، فأنا أحدس اليوم هذا التبادل الذي خفيَ عليَّ ساعتئذ: أرملة جدّ قوية، مسلّحة، كابنها تماماً، وهي نفسها ربّة أسرة، تضع، في أدنى لحظة، وبابتسام، كامل سلطاتها القياديّة في يدي حمزة الذي كان، بتصرّفه بحسب مشيئة «فتح»، إنّما مقوداً من قبل امّه سرّاً، يدَع أمّه تَحكم. لنفكر بها، ولنتذكر عذراء «مونسيرات» السوداء، وهي تعرض ابنها، الأقوى منها، ابنها السابق إيّاها حتى تكون، والذي تعرضه ليبقى هوَ.

لم تكن الحركة، وهذا ماعرفته من الرصاصة الأولى التي احسستُ في يدي بثقلها وشكلها، كمثل أيّة حركة، حركة إملاء سلّة بالباذنجان مثلاً، بل إنّ تعبئة مُلقم بندقيّتَي كلٌّ من حمزة وصهره جعلتني اقف للمرّة الأولى على أسرار المقاومة. ستمرّ الرصاصات التي شحنتُها في المُلقمَين هذه الليلة في الفوّهات المصوّبة الى جنود بدو. كان الهلال المشير الى نهاية رمضان القريبة قد لاح. وكان الظلام مخيّماً في الفناء الأبيض. تركني حمزة وقريبه وحيداً مع المراتين، وماكان هذا القدر كلّه من الثقة ليصيبه بالقشعريرة، وربّما كان باعث ذاك هو ثقته العالية بخالد أبي خالد الذي قال له: «إنّه صديق»، إلاّ إذا كان نازعاً بكيانه كلّه الى صيرورته الوحيدة: الدفاع عن إربد؛ أو المخاطرة بحياته، وهذا ممّا يعني الشيء نفسه.

قيل لي هنا (في بيروت) أنّ «السي. آي. أي.» و«الموساد»، المتحالفتين تارةً والمتنافستين طوراً، تعرفان كيف تُطوّعان الفدائيّين الماسورين وتلطفّانهم، بل حتى كيف تغويانهم، ممّا يدفع الى الاعتقاد بأنّ ثمة حتى في «السي. آي. أي.» والموساد عملاء حسّاسين، وإذا بالفدائيّ، الصامت تحت التعذيب، والذي يقبل بسببه حتى بالموت، يصغي عندما تكون الحكاية مسرودة ببراعة، بل إنّه ليتأثر إذا مامستّه الحكاية شعرياً، فيخرج من صمته ويتكلّم. وذلك الى هذا الحدّ بحيث لزمَ التحذير من فخاخ الغواية والشّعر المنصوبَة من قبل اسرائيل.

مادام نظام تسلسل الأواصر البشرية مرتبطاً بالالهيّ، فإنّ لقب «أمّ اللّه» المعطى لمريم العذراء لَيدفع الى التساؤل بفعل أيّ خارق أو أيّة رياضيات جاءت الامّ بعد ابنها، إنّما سابقةً أباها. يبدو هذا اللقب وهذا الترتيب القيَميّ أقلّ غموضاً إذاما نحن تذكّرنا حمزة. ولاتدلّ

مفردة «التذكّر» على الحلول محلّ مفردة «التفكير».

كان هدير المدافع ومدافع الهاون يقترب، تردّ عليه صلْيات الرشاشات والمدافع الرشّاشة والاطلاقات الفرديّة من قبل فدائيي إربد.

كنت متمدداً بكامل ملابسي على سرير حمزة. كنت أصغي. وكان صخب المعركة، بالغ الدوّي، يبدو حاسماً؛ وإذا بدقّتين، ماهُما بالأكثر حسماً ولكنهما محتفظتان بحدّتهما وغير بعيدتين، وسطَ هذه الفوضى الرنّانة، كتومَين ومتجاورتين، تُرجعان بعيداً الى الوراء الفوضى المدمِّرة. دقّتان هادئتان إجمالاً، مطروقتان على باب حجرتي بخفوت. أدركت كلّ شيء في لحظته: كان الحديد والفولاذ يتفجّران في البعيد، والى جانبي مفاصل سبّابة تدقّ على الخشب. لم أردّ بشيء، لأنّي كنت مازال أجهل المفردة التي تعني «تفضّلوا» في العربية، وخصوصاً لأنّني، وكما قلتُ، «رأيتُ»، فجاةً «رأيتُ» مسارَ ماحدث. إنفتح الباب، مثلما لاحظت من الدقّتين. دلف نور السماء المشعشعة بالنجوم الى الحجرة ولمحتُ وراءه خيالاً ضخماً. أغمضت عينيّ نصفَ إغماضٍ بحيث أوحي بالنوم، ولكنّني كنت أرى خللَ رموش عينيّ كلّ شيء. هل انطلت عليها حيلتي؟ لقد دخلت الأمّ. أكانت آتية من الليل، الذي صارَ الآن مصمّاً للآذان، أم من ذلك الليل الجليديّ الذي أحمل معي أنّى رحت؟ كانت تحمل بيديها طبقاً، وضعته برقّة على المنضدة الصغيرة الزرقاء والمنقوشة عليها أزهار صفراء وسوداء، التي ذكرتُ. حركت المنضدة بحيث تكون عند مقدّمة السرير، في متناول يدي، وكان لحركاتها دقّة أعمى في واضحة النهار. ثمّ خرجت بلا أدنى ضجيج وأغلقت الباب. كانت السماء المشعشعة بالنجوم قد اختفت، وصار لي أن أفتح عينيّ. على الطبق: فنجان قهوة تركية وقدح ماء؛ شربتهما، وأغمضت عينيّ، ورحت أنتظر، آملاً ألاّ يكون صدرَ عنّي أيّ صخب. ومن جديد، دقّتان على الباب، كالسابقتين؛ ووسط نور النجوم والقمر المتناقص لاحَ الخيال المستطيل نفسه، اليفاً الآن، كما لوانّ هذا الخيال نفسه كان يدخل في كلّ ليلة، طوالَ حياتي، في الساعة نفسها، قبل أن أنام، بل لعلّه كان من الألفة بحيث كان فيَّ أكثر ممّا في الخارج، آتياً فيَّ منذ ولادتي حاملاً لي فنجان قهوة تركيّة. وعبر رموش عينيَّ، رأيت إليها وهي تسحب المنضدة الزرقاء، تعيدها الى مكانها بصمت، ثمّ، دائماً بدقّة أكمَه [أعمى منذ الولادة]، أخذت الطبق وخرجتْ موصدةً باب الحجرة. كان مصدر خشيتي الوحيدة الاّ أكون قابلتُ دماثتها بمثلها، اي ان تكون حركة ليديّ او ساقيّ قد فضحت نومي المصطنع. الحال، لقد حدث كلّ شيء ببراعة فهمتُ منها انّ الأمّ كانت تحمل لحمزة القهوة وقدح الماء كلّ ليلة. بلا صخب، خلا الدقّات الأربع على الباب، وفي البعيد، كما في لوحة لدوتاي Detaille، هدير المدافع على خلفيّة من النجوم.

مادام الابن في القتال هذه الليلة، فقد كنت أقوم مقامه في حجرته وفي سريره. لليلة واحدة، ولزمنٍ مبادرةٍ بسيطة ومع ذلك كثيرة، كان شيخ أكثر هرماً من هذه المرأة يصبح ابنها، لأنّني «كنتٌ قبلَ أن تكون». كانت، وهيَ الأكثر فتوةً منّي، وطوال هذا الفعل الأليف — العائليّ؟ — هي أمّي، في الأوان نفسه الذي تظلّ فيه أمّ حمزة. في تلك الليلة، التي كانت هيَ ليلتي الشخصية والمحمولة، إنفتح باب حجرتي وانغلق. نمتُ.

كانت الأردن في ١٩٧٠، وكذلك في ١٩٨٤، تعرب عن تفاوت طريف بين سكان المملكة. وكان الشطر الأكثر عدداً والأكثر رزوحاً تحت نير العناء يتمثّل، ومايزال، في السكان الفلسطينيّين؛ يليهم السكان البدو، وهم أكثر سطوة وإن كانوا أقلّ عدداً، قبائل وعائلات جنود مخلصين للملك حسين؛ وأخيراً، وفوقَ الجميع، الشركس، وأغلبيتهم الغالبة ضباط كبار وجنرالات وكبار موظفين ذوي سلطة، وسفراء، ومستشارون للملك. وهذه المراتب الثلاثة تتوجّها بالطبع العائلة الملكية التي يسهر ملكها، المنحدر مباشرةً من النبيّ كمايزعم، على زيجاتٍ كانت الحرَم الرسمية فيها مصرية مرّة، وأخرى إنجليزية، ففلسطينية، فأردنية—أمريكية، و«فقْسات» من الصغار يتيه فيها أبرع علماء الأنساب.

يبلغ الشركس حوالى خمسين ألفاً في هذه البلاد. يحكمون بأن يمتثلوا للملك: هم عصبة لايشكّل حسين رئيسها.

«لمَن نكون أكثر ولاءً إن لم يكن لسليل النبيّ المباشر، الملك حسين؟»، هكذا أجابني، ذات يومٍ، رئيس عائلة شركسية (أو «سركاسية» كما يدعى الشركس في الفرنسيّة، سواء من استقرّوا في الشرق الأوسط أو مكثوا في الاتحاد السوفياتيّ). أراني قريته في الأردن، التي تنبجس فيها ينابيع كثيرة، قرية مختارة بعَين البنيدكتيّين في الغرب القروسطيّ عندما اكتشفوا المواقع التي يبنون فيها الأديرة: صوامع وأراضٍ مزروعة.

ـ هربنا من القياصرة، الذين كانوا يريدون أن نعتنق الديانة المسيحية التي يدعونها بوقاحة بالأرثدوكسية. لما كنّا حظينا بحفاوة السلطان عبد الحميد، فنحن نقرّ له بالفضل إذ وفّر لنا أراضي كثيرة. ليس الفقر هو ماأخرجَنا من روسيا، ولاالمغامرة هي التي دفعت بأجدادنا خارج الجبال، فنحن نحتفظ بثرواتنا، الآتية كلّها من هناك. ثرواتنا الماديّة ولساننا. أقدر أن أريك صهوات خيولنا المطرّزة بأسلاك الفضّة المذهّبة والذهب، وحدواتها من الذهب والفضة، ومَناخسنا من الذهب، وجزماتنا المطرّزة بأسلاك الذهب هي أيضاً.

لم يرِني إياها، ولكنّه قدّم لي عنها أوصافاً «كاتالوغيّة». كان شعبه يعيش بلامشاكل.

ـ ولغتكم؟ إنّها بالغة البُعد عن العربية. يقال إنّكم تستخدمونها كلغة سريّة.

ـ سريّة؟

ـ الشركس هم الوحيدون الذين يتداولونها، وسطَ العربية واللغات الأوربية الحديثة، فهي تصنع منكم، وأنتم شعب، نوعاً من جماعةٍ مؤتَمَنين.

ـ نحن شعب، . شعب هادئ.

ـ أيّ شعب يقول اليوم إنّه هائج؟

ـ صحيح أنّ السلام هو صرعة هذه الأيّام.

ـ وكانت الصرعة في ١٨٦٠ هي المغامرة والرحلات الفروسية والرقص الشركسيّ الشهير...

ـ نعم، كنّا بالفعل في الصرعة نوعاًما.

بالرغم من اللوحة الهادئة التي كان يريد أن يقدّم لي عن شعبه: النيران، الأسلحة، الحرب، الخيول، الرقصات، ألوان الموسيقى، الأغاني، الحبّ العذريّ، والموقف المتحفّظ من النساء اللائي لايقدر أيّ رجل أن يلمس ثنية صدريّة إحداهنّ أو تسريحتها علناً، خصوصاً الحماة المصعّدة الى علوّ بدت لي معه أبعد المحبوبات عن المساس...، هذا الوصف كلّه كان على هذه الدرجة من الفصاحة والدقّة بحيث بدا خياليّاً. ولابدّ أنّ الوصف كان هو السائد. كان واجباً الايُعرَف عن الشركس الا هذه الأشياء، في يقين رسميّ، اليقين نفسه الذي نعرف فيه أنّ ريشْليو (٥٢) كان كردينالاً. ولقد كرّر رئيس العائلة الكلام عن ثرواتهم المزعومة والمزعوم أنّها تُركَت في القوقاز (ارتكبَ بالفعل زلّة اللسان هذه [بدلَ أن يذكر روسيا وسركاسيا])، بحيث تولّد لديّ الانطباع بانّ الشركس قد انضوا تحت لواء السلطان عبد الحميد طمعاً بالاراضي والغزوات غير المحفوفة بالمخاطر، وربّما عن حاجة الى الاستقرار وكذلك تربية القبائل البدوية أو ترويضها.

ـ كيف حدثَ أنْ هيمنتم في مثل هذا الوقت الوجيز على المنطقة وفرضتم سطوتكم وغنمتم جميع المناصب؟

إبتسمَ لي بدماثة، ولاحظت كم كان شارباه، المقصوصان ببراعةٍ، الدقيقان، والأبيضان،

ينسجمان وشعرَ رأسه الأبيضَ والسبْط.

ـ لأنّنا الأفضل، ياصاح.

ـ لم تعربوا عن هذا القدر من الطيبة بإزاء الفلسطينيين.

ـ متوحّشون! متوحّشون حقيقيون كانوا يريدون الاستيلاء على السلطة.

ـ السلطة في أيديكم وأنتم تحتفظون بها. جئتم من روسيا عن اختيارٍ حرّ على حين كان الفلسطينيون يُطردون من بيوتهم.

ـ ليذهبوا لمحاربة اسرائيل. تتكلم عنهم كفرنسيٍّ يساريّ. الأردن تريد العيش بهدوء.

إذا مانَطقنا بصددهم بمفردة «الخيانة»، فمن المؤكد أنّ هذا سيجرحهم الى حدّ أن يُميتوا بالضرب من يجرؤ على النطق بهذه الكلمة. ومع ذلك، فهذه هي المفردة التي ساستخدمها. منذ خروجهم من روسيا، انتقلَ الشركس الى صفوف العدوّ: الامبراطورية العثمانية. وعندما نُفيَ آخر السلاطين وتقلّصت الامبراطورية الى حدود تركيا، عرض الشركس خدماتهم على غلوب باشا، ثمّ على حسين. ولم تمسسْني هذه الخيانة: لأنّهم وضعوا أنفسهم في خدمة السلطة دوماً. وإنّ غياب اللياقة في أفعالهم المليّة جميعاً بالحاجة الى الهيمنة، بدلَ أن يقرّبني منهم، أبعدَني عنهم في نوعٍ من القرف. سأتحدث عن الشركس مرّةً أخرى.

ـ لكن ماتقول عن عائلة آل سرسق؟

ـ هم أصدقاء لنا. لاجميعهم طبعاً. ثمة في العائلة بعض الشياه الضالّة، ولكن، على كونهم مسيحيّين، هم أصدقاؤنا. وهم أثرياء.

ـ أثروا بشاكلة دنيئة بمافيه الكفاية.

ـ تقصد بيعهم قراهم الى الجالية اليهودية؟ أيّ ملاكٍ لم يفعل ذلك؟

عاد حمزة في الصباح، مغبرّ البشرة، متعب العينين، مع ابتسامة فرحة. أخفى بندقيته في المخبأ، عند رأس السرير.

«التهاني، ياأخي الصغير»، يقول [مُخاطباً سلاحه] وهو يلقي على فوهة المخبأ تحيّة عسكريّة. «هذه الليلة، احسنتِ الاطلاق: ساعيّنكِ بندقية من الطراز الأول». يضحك. بقيَ

رفيقاه اللذان صاحباه صارمَين. رقدَ، ولاشكّ أنّه غفا في الحال. دخلتُ الى حجرة الأمّ في نيّة إلقاء التحيّة وعدم إطالة المكوث. ابتسمت لي. كانت تجلس القرفصاء على الأرض، تعالج عجين خبز هذا المساء. نهضت وأعدّت لي شاياً. لم يقوموا بتقنين الماء في إربد في ليلة القتال هذه. دافعت المدينة عن نفسها جيّداً. وكان السكان فخورين بأنفسهم بجلاء. خلافاً لباريس في ١٩٤٠، صمدت إربد.

«الحدود السوريّة مفتوحة».

على الفور عرف بذلك جميع سكان إربد. قرّرتُ أنا السفرَ ماإن تكون سيارة الأجرة الجماعية جاهزة. تجوّلتُ في الشوارع التي كانت ماتزال سالمة، طوال ساعتين أو ثلاث. في دقائق قليلة، غيّرت المدينة إهابها: بدا لي أنّ الزهو قد زال ماإن أشرقت الشمس. وبقدرما كانت الشمس تعلو في السمت، كان يتعالى معها القلق على الوجوه، وكان كلّ واحد ينظر الى الآخرين بصمت، في شبه عداءٍ وارتياب؛ من مدينة مزهوّة بذاتها وفرحة، إنقلبتْ إربد إلى مدينة متجهّمة اتّخذ فيها المسؤولون إهابَ قادة. وسَرت الاشاعة أنّ جواسيس اسرائيليين يتجوّلون في المدينة طليقين. وجاسوسات. ولقد طلبت شابة، صحفية سويسرية، أن تؤخذ قرب مناطق القتال؛ واكتشف سائقها معها أو قربها ميدالية بهيأة نجمة داود. وبدلَ أن تسمح بإدانتها، أدانت السائق. ولكنّ الشرطة اكتشفت الحقيقة سرّاً: كانت الصحفية سويسريّة، مسيحيّة، والسائق مشاغباً. ضربوه قليلاً، ومرّروا الصحفية السويسرية عبر الحدود السورية بتكتّم، لكنْ أُشيرَ في مواضع أخرى الى جواسيس آخرين. ربّما نجمت هذه الحمّى عن محاصرة إربد، واقتراب البدو يقودهم الشركس، ولقد سرَتْ إشاعة راحت تتأكّد، تقول إنّ نقطة الجمارك باتت في أيدي الأردنيّين. كان المسؤولون الفلسطينيون كثيري الحركة. وسنحَ لي أنْ أرى المسؤولين العسكريين يخلون المجال لسياسيّين كانت أعمارهم وطرائقهم أعمار رجال السياسة الأوربيّين وطرائقهم. ذوو شأن، واثقون من الأوامر التي سيوجّهون، أي من ذهنهم، وموقنون بكونهم المفاوضين الأفضل، الأبرَع والأكثر رهافة، فكانوا يصلون الى المقرّ بالسيارة، الى يمين السائق، بربطة عنق مهملة الشدّ، لكن بربطة عنق مع ذلك، ويقفزون من مقعد السيارة ماإن يحاذوا الرصيف؛ فيتراجع الفدائيّون حتى يبلغ السياسيّون، بهذه الاندفاعة، العسكريّين الأعلى رتبة.

هل تحتفظ كلّ ثورة ياترى بمستودع من لحى وشعور بيض تعاود الخروج ماإن يطرأ موقف حرج؟ من وجناتهم البرّاقة خمّنتُ أنّ الشبيبة ستنال النجاة على أيدي الشيوخ الموافقين على المساومة فيما ترغب الشبيبة بالقتال.

هل بسببٍ من بُعد العالم الاسلاميّ أم من «غرابته»، رحتُ، عندما وجدتُني فيه، أثناءَ رمضان، أي في قلب الصحراء، عندما تكون السجائر اختفتْ من الأفواه ومعها الابتسامات، ممسوساً بكاملي وملفوحاً بالمزاج الاسلاميّ العَكِر والذي ينتظر حلول الليل، أقول رحتُ أستعيدُ ذكرى بعض قصص الأناجيل، ولكنْ أُفسّرها على شاكلتي؟ لمّا كانت الكنيسة الكاثوليكية هي السلطة وكذلك الأخلاقية العمومية، فأنا كنت أصنع من ممثّلي هاتين القوتين العُظمَيين أعدائي. ففي فصل القطعة النقدية التي يتركها المسيح لجنديّ، كانت الكنيسة ترى ماياتي: «أعط للّه مالله ولقيصر مالقيصر»، وفي هذه الشاكلة، المنافية لروح الأناجيل، كان ينبغي، إذن، ان نقرأ: «إعترفْ بالسلطة السياسيّة». كان هذا الصبيّ المازح (سيَسخر من شجرة التين المسكينة) – يقول للحواريّ: «لاتجعل الشرطة يرونك، ستكون هذه حماقة كبيرة، سنُصلّي، وأبي لاينتظر. إعطِ القطعة النقدية للجنديّ وامضِ». المهمّ هو خصوصاً عدم السماح بان يروني، نعم، ان أمنح هذه الرحلة الى الشرق المظهرَ العاديّ لنزهة طويلة نوعاً ما، وغير استثنائية. أتحدّث هنا عن الرحلة التي ساقوم بها في تموز/يوليو ١٩٨٤. أن أحاول معاودة العثور على الأمّ. ببالغ التكتّم. أو أن أغسل جسمي، وأشطف قدميّ على الأقلّ، وألبس قميصاً نظيفاً، وأحلق ذقني، وأضفي على هذه الرحلة شيئاً من الأبّهة، بدلَ الوصول ومعاودة الرحيل مقلّداً المسيح في قاموسه السوقيّ... «سآتي كلصّ...». لاعن تواضع ولاعن تهذيب، إنّما في أمل ترويض الفشل المروّع، ارتديتُ ملابس كهذه التي أرتدي كلّ يوم. كنت ميقاناً حقاً، فهل كنت ساجرؤ على المرور تحت سلّم [والمرور تحتَ سلّمٍ يجلب، في الاعتقاد الشعبيّ، النحسَ]؟ بيدَ أنّني كنت أؤمن بصرامة السلّم، لابصرامة اللّه.

كان شبّان يافعون، بلاعلامات فارقة، يسجلّون، قرب مكتب السفر، أسماءهم في قائمة للانطلاق الى درعة أوعمّان. كانوا يسدّدون الثمن للركوب في أوّل سيارة أجرة تنطلق. وكان الجنرال حافظ الأسد قد نجح للتوّ في القيام بانقلاب للحكم في سوريا. ومن دمشق الى الحدود الاردنية، كانت الدبابات الآتية، كما قيل، لنصرة الفلسطينيين، تحترس من اختراق الحدود، الفارغة مع ذلك. ولقد أعرب الجيش العراقيّ عن جرأة أكبر: عبرَ الحدود في الصباح وعاود عبورها في المساء من نقطة أخرى من غيرِ أن يعرف أحدٌ مَن كان المهدَّد: السوريّون أم الأردنيون، أم الفلسطينيون أم الاسرائيليون المتعذّرون على النفاذ؟ ألفى الفلسطينيون أنفسهم وحيدين. دفعةً واحدةً، تخلّت عنهم ثلاثة أقطار عربية. ولمّا كانت سيناء والغولان والضفة الغربية محتلة من قبل اسرائيل، فإنّ الأقطار الوحيدة التي أبانت عن شيء من الوفاء للفلسطينيين هي أقطار الخليج، وخصوصاً الملك فيصل. وماكان ليطمّنني ان أعلم انّ عناصر من المقاومة الفلسطينية كانت قابعة في السجون السورية، حيث كان حتّى الدكتور جورج حبش معتقَلاً.

كانت الرقعة الآمنة من الأردن تزداد انكماشاً ساعةً بعد ساعة، بل إنّ تعبير «من دقيقة الى أخرى» لَدَقيق. أحسستُ بذلك عندما سقطتْ «مفْرق». حيّاني حمزة، الذي كان مضطجعاً إنّما يقظاً، بابتسامة. أعتقد انّه في تلك اللحظة عرفتُ أنّ ابتسامته كانت على أسنانه أكثر ممّا في عينيه.

ـ ينبغي أن تنطلق هذا الصباح.

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة. ودّعتُ الأمّ والشقيقة. كانتا تهيئان، إحداهنّ لابنها والثانية لزوجها، طعام المساء والليلة القادمة. ولمّا كان هذا يشكل جزءاً من ذكرياتي للعام ١٩٧٠، فينبغي أن أكتبه: في مَرافق هذا البيت الفلسطينيّ الصحيّة تعلمّت الاستغناء عن الورق واستخدام قنينة الماء بنظافة. بما إنّني تناولت الطعام والشراب في هذا المنزل، فإنّ حميميّتي معه صارت كاملة.

ماكان حمزة ليحمل معه سوى بطاقة هويته الزرقاء-الخضراء ذات الزوايا المستديرة التي يملكها كلّ فدائيّ. كان ثمة مكان شاغر في المقدمة، لاالى جانب السائق وإنّما قرب الباب. حجزَ حمزة لي. كان يريد تسديد ثمن سفري حتى دمشق. توادَعنا. وإذا ماعددتُ الوقت بشيء من الدقة، فلقد رأينا أحدنا الآخر وتحادثنا طوال سبع ساعات. كان خالد أبو خالد قد أبقاني في عُهدته البارحة، حوالى منتصف الظهيرة، وهاأنا أغادره هذا الصباح نحو الحادية عشرة.

غادرت سيارة الأجرة إربد. كان أمامي سطح أبيض يمنعني من رؤية الطريق: قفا صورة ملوّنة للملك حسين مع أربعة أشرطة لاصقة على الدرّاءة. كان السائق قد أخرجها من علبة القفازات ووضعها على الزجاج المقبّب. وكانت الهيئة المتشاوفة للملك، المبتسم تحت شاربين خفيفين، التي كنت أراها شفافة [من قفا الصورة]، تثير حنقي.

«يَقبل الفلسطينيون بالانتصار الأمريكيّ بلا حراك». لمّا لم يُعرب أحد من الركاب عن اندهاشه، فلعلّ هذا هو ماكنتُ أحدّث به نفسي. كان وجه السائق غير مرئيّ، لكنّ شاربيه ونظارتيه وحواجبه كانت، بسبب من سوادها، تلمع تحت الكوفية السوداء والبيضاء. في تلك الفترة من عُمر المقاومة، كانت الناس تتحدّث عن التهديد الأمريكيّ بدعم حسين. ولقد تسبّبت لي عبارة عائدة إليه أو منسوبة، قرأتها في صحيفة ناطقة بالفرنسية، بضرب من السعار:

ـ «أنا من يخسر أكثر في هذه الحرب (١٩٦٧). ثلث مملكتي محتلّ من قبل اسرائيل،

وقد لايُرَدّ لي أبداً.»

هذه الجملة، التي ربّما قيلت كما لو كانت، هي وماتعنيه، شيئين طبيعيّين، ترينا الرجل ملاّكاً للمملكة الهاشمية، والكلمات تتموّقع بمثل هذه الطبيعية في الخطاب بحيث يصبح من البديهيّ لمن يقرأها انّ هذا العاهل البدويّ يملك جنينة شاسعة، تمتد من البحر الأحمر حتى الحدود السورية، جنينة جاء إليها بعض «السوقيّين»، أي الفلسطينيّون، متسلّلين: إجمالاً، إنّ عصابة من صغار لصوص الكرز والبرتقال قد تسلّلوا الى أرضه، وكان ينبغي طردهم أو صلْي مؤخراتهم بالرصاص.

من دون احتراس، وكمن يدندن بأغنية، كان الفلسطينيّون يَروون في كلّ مكان، وعلى مَسمع أيٍّ كان، أنّهم شاهدوا صورة تجمع الملك حسين الى غولدا مائير.

ـ أين؟

ـ على متن يخت غولدا.

ـ أسألك أين رأيت الصورة.

ـ سريّ للغاية.

ـ «الموساد» مولع بكبير المهازل. ولو كانت الصورة التُقِطَتْ حقّاً، لكانت دارتْ في العالم كلّه.

ماأضخم الدعاية التي قام بها الشريكان، شارون وبيغن، لبشير الجميّل الذي ارتكب زلّة إذ تناولَ العشاء معهما! وماكانت مغامرة الملك ستكون مفاجئة: كان جدّه الأعلى ملكاً لمكّة، يغمره الانجليز بالذهب، وتولّى جدّه حُكمَ شرقيّ الأردنّ، ثمّ الأردن، واغتاله فلسطينيّ من عائلة الحسينيّ وهو خارج من المسجد الأقصى في القدس. أمّا أبوه، طلال، عدوّ غلوب باشا والبريطانيين اللدود، فأُشيعَ أنّه ماتَ في عيادة طبيّة في سويسرا.

«وهكذا فانا عليّ أن أسافر صحبةَ هذا السائق، الجبان مادام يجري أو يبدو جارياً وراء الانتصار، ومع ذلك فهو من الوقاحة بحيث يعرض أمام الركّاب، بغطرسة، الصورة الملوّنة للرجل المغضوب عليه»، ربّما كان هذا هو ماكنت أفكرّ به، ناسياً أنّ هذه الصورة كانت أيضاً بمثابة حماية لجميع المسافرين، وانا منهم. كان المذياع يعلن عن سقوط إربد، مواصلاً بثّ الموسيقى الأمريكية، إنّما بخفوت. وصلنا الى نقطة الحدود المشرف عليها رجال الجَمارك والشرطة الأردنيون. كان الفدائيون وسكان إربد قد «دافعوا عن أنفسهم ببسالة»، و«بشجاعة

تفوق براعتهم التكتيكية». ترجم لي أحد الركّاب بالانجليزية هذا التقريظ الذي كان جنرال شركسيّ قد نطق به بدهاء. لايكمن الشرف في الموت، ولاالعار في الفرار، فالنبيّ غادرَ مكّة مدعياً الرحيل الى الجنوب ليخدع مطارديه، ثمّ انعطف فجأةً صوب المدينة المنوّرة. ناحيةَ الشمال. حيلة مقدّسة، مادامت وهبت اسمها لتاريخ يعدّ الآن حوالى ألف وخمسمائة سنة: التاريخ الهجريّ، نسبةً إلى الهجرة فراراً.

إنتقلَ بعض الفدائيين، بعدَ إخفاء أسلحتهم في إربد، الى سوريا، وآخرون صوب منطقة الجولان غير السورية وغير الاسرائيلية لسنوات أخرى. إنّ كلّ حالة فرار، إذاما فُحصتْ بالمجهر، لايمكن ان يكون لها تأثير على الحرب، مع أنّ مجموع حالات الفرار هذه يشكّل لطخة في جبين المقاومة. فصل مرير، فلقد تعرّض الفلسطينيون للهزء في الصحف الفرنسية والاسرائيلية، وعموم الصحافة الغربية. ومن إربد حتى الحدود، كان صمت مشوب بالحرَج يخيّم على جميع الركّاب. حتى لقد بدت السيّارة محمّلة بأفواه مكمّمة. ولم يُستبْقَ عند الجمارك أيّ من الركّاب، لا ولَم تُفَتّش أيّة حقيبة. بل بَدا لي أنّ الموظفين – رجال الجمارك والشرطة – كانوا مبالغي التهذيب، فلم يُبْدِ أيّ منهم اندهاشه لرؤية جواز سفري الفرنسيّ. أعاد السائق تشغيل محرّك سيّارته. ثّم توقّف في منطقة الحياد، الفاصلة بين البلدين، على امتداد مائة متر. مدّ يده الى صورة الملك حسين، الذي كان مايزال على ابتسامته، ونزعها من على الدرّاعة، وفتح علبة القفازات وأخرجَ منها صورة عرفات، الملوّنة هي الأخرى، وألصقها بالشريط اللاصق نفسه الذي كان يثبّت به صورة الملك التي أُعيدَت الى علبة القفّازات. إبتسمتُ. لم يبدُ أيّ ردّ فعل على قسمات أيّ من الركّاب، ولا على السائق نفسه. فكّرتُ:

ـ ثمّة لاريبَ بين الركّاب مُخبِر.

لستُ اختصاصياً بالفنّ القروسطيّ ولابفنّ عصر النهضة، ومع ذلك فأنا أعرف أنّ أولى تماثيل «المُنتحِبة» [العذراء باكيةً ابنها المصلوب] قد نُحتت على الخشب الأعْقد والصلب، المفترَض منيعَاً على التسوّس. وعندما اكتملت المجموعة، لوّنها النحّات كما يلوّنون في السجون الفرنسية، اليوم أيضاً، تماثيل الجنود الصغيرة من الرصاص. ولقد نقشَ المصوّرون هذه الصور نفسها في كتل الرخام: الجسم الهزيل والعاري لجدثٍ مثقوب اليدين والقدمين من أثر المسامير، والرأس مطروح على ركبتي امرأة لايُرى سوى إهليلج وجهها ويديها، أمّا باقي الجسم فمغطى كلّه بأنسجة موضوعة ببراعة أو جماليّة تزيد أو تقلّ بحسب الحقبة والفنّان.

يمكن القول إنّ هذه المجموعات، المرسومة أو المنحوتة، قد اجتاحت العالم المسيحيّ من

الكارولِيّين حتى مايكل انجلو. ولئن كان محيّا الجثّة هادئاً نوعاً ما ـ تمرّ عليه أحياناً ذكرى عذابات الصلب ـ ، فإنّ وجه المرأة يُعرب عن ألم كبير، بأجفانه المسبلة على الميت، والغضون الواسعة المحفورة على جانبَي الفم المشدوه. وتبدو المرأة ـ مريم العذراء ـ أكثر هرماً من جثّة الرجل الممدّد كلّه تقريباً على ركبتيها، وهذا طبيعيّ، لكنّ بعض المنحوتات ترينا المرأة أفتى من الابن الميت. وتبدو فتوّة هذا الوجه الأموميّ نتيجة للقُبَل المُلحفة، الطويلة والرقيقة، التي تقدّمت بها أجيال من الأتقياء للعذراء، ماسحةً التجاعيد، مُلمّعةً الوجه البرونز أو النحاس أو الفضّة، أو المرمر أو العاج، مُفلحة، منذ أربعمائة سنة، في تحقيق معجزة تجديد الشباب التي يعود بها التشريح الجماليّ في أيّامنا.

إنتهجت سيارة الإجرة الطريق في اتجاه « درعة ». لكن ها إنّ مذياع السيارة يتوقف عن بثّ موسيقى « البوب » من دون أن يمسّه أحد كما يبدو؛ وماحلّ محلّها كان إلى هذه الدرجة بعيداً عن الايقاع ومختلف وَتائر الآلات بحيث اضطررت للاصغاء. لم أميّز هذه الموسيقى للوهلة الأولى، ثمّ، فجاةً، وقبل ان اسمّيها تقريباً، فكّرتُ: ريمسكي-كارساكوف. وكان هوَ حقّاً.

تحوّلت الأردن التي تركتها ورائي الى بلد خاضع للمراقبة، وكذلك سوريا التي دخلتُ.

ما إن خرجنا من الأردن حتى أصبحت صورة حمزة وأمه لا تفارق خاطري أبداً. كانت هذه الصورة تفرض نفسها على نحو عجيب: أرى حمزة وحيداً حاملاً في يده بندقية، مبتسماً ومشعّث الشعر، كما بدا لي صحبةَ خالد أبو خالد. وما كان خياله يرتسم على السماء ولا على واجهات البيوت، وإنّما على ظلّ واسع، اقدر ان أصفه بالسميك، خانقٍ كغمامة من السخام ترسم أطُرُها، أو حركة أنوارها وظلالها، كما يقول الرّسامون، الشكلَ الثقيل والشاسع لأمّه.

أو عندما أستحضر الأم، وحيدة، مثلاً، في اللحظة التي فتحت فيها باب الغرفة، فإن ابنها يكون حاضراً أبداً، وهو الآخر كبير الهيئة، يحرسها ببندقيته التي يحملها بيده. اي انّني لم أكن أبداً أتخيّل أحدهما وحده: هما دائماً في زوجٍ أحد طرفيه ماخوذ في هيئته اليومية ومقاييسه الفعلية، والآخر عملاق، حاضر ببساطة، بقوام جسمٍ اسطوريّ وأبعاده. ولتلخيص ما كان عليه هذالتجلّي ، [ربّما كان يجب الكلام عن] زوج مسخيّ، أحد عنصريه بشريّ والآخر خرافيّ. لا تعبّر هذه الأسطر بالطبع عما حدثَ إلا برداءة، ذلك انّ الصورة لا تظل ساكنة أبداً. يظهر حمزة وحده في البداية، شعره يتحرّك لا بسبب الريح ولا بفعل اهتزاز

رأسه، بل لكي تظهر أمه بفضل هذه الحركة. أو بالأحرى لتظهر وراء حمزة، فجأة، كتلة جبلية لها ملامح أمّه، بدون أن تأتي لا من اليمين ولا من اليسار، لا من العمق ولا من أعلى ولا من أسفل.

في هذا العالم الذي كان السكان فيه واللغة والوجوه والحيوانات والأشجار والأرض، هذا كلّه يتنفس هواء الاسلام، كان الزوج الذي فرض نفسه عليَّ هو زوج «الأم الحزينة». الأم والابن، لا كما تَصوّرَهما الرسّامون المسيحيّون - مرسومين أو منحوتين في المرمر أو الخشب، الابن ميتاً، ممدّداً على ركبتي أمه الأكثر حداثة في السنّ من الجثّة المصلوبة - وإنّما أحدهما دائمَ السهر على الآخر.

وهذه الصورة، التي ما إن يظهر أحد طرفيها في الذهن حتى يستدعي المجيءَ الضروريّ للطرف الآخر، كانت دائمة السهَر على الصورة الأخرى المحتفظة بالأبعاد الانسانية. لقد رأيتُ حمزة ووالدته لزمنٍ جدّ وجيز - أتحدّث عن الزمن الفعليّ، القابل للقياس - وبالتالي فلا يمكن أن أكون واثقاً من أنّ وجهيهما هُما ماكنتُ أرى ثانيةً طيلة أربعة عشر عاماً، لكنني أعتقد أنني أتذكر، بدقةٍ، الهزّة العاطفية التي تسببت لي بها مشاهدة حمزة وأمّه حاملة السلاح. كان كلّ منهما درع الآخر، مفرط الضعف، مفرط الانسانية. لأية صورة سلفيّة أو أصليّة، امتثلَ، لزمنٍ طويلٍ، النحاتون والرسامون الذين وجدوا موضوعتهم الفنية في الأمومة المجروحة، بحسب الصورة التي يُعْتَقَد أن الأناجيل تقدّمها عنها؟ وخصوصاً، لماذا كانت صورة هذا الزوج هي التي طاردتْني طوال أربعة عشر عاماً، بإلحاحِ لُغزٍ؟ لماذا قمتُ، أخيراً، برحلة ثانية، للتحقق لا من دلالة اللغز وإنّما لأعرف إن كان مطروحاً حقاً، وبايّ مفردات؟ لكن من كان هو الأوّل: زوج العذراء وابنها السماويّ، المشار إليه غالباً، أم، أبعد في الزمن، وفي مكان آخر غير أوربا، «يهودا» و«فلسطين»؟ في الهند مثلاً؟ لكن ربما في داخل كلّ إنسان. ينبغي آنئذٍ الاحتراس من ارتكاب سفاح المحارم، إذا كان حدثَ حقاً، في غفلة من «الأب»، في امتزاج أحلام الأمّ والابن. مالهذا من أهمية، بيدَ أنّ السّر هنا لهوَ عظيم: لم يأتني خاتم الثورة الفلسطينية أبداً عبرَ بطل فلسطينيّ، ولا عبر انتصارٍ (معركة «الكرامة» مثلاً)، وإنّما في الظهور شبه «الناشز» لهذا الزوج: حمزة وأمّه. وهذا الزوج هو مَنْ كنت أريد، إذْ كان في مقدوري، بصورة من الصور، أن أقطعه كما أرغب، في تواصلية من الزمان-المكان-الانتماء القوميّ والعائليّ والعشائريّ، وأن أفصله، بمثل هذا الاتقان، عن العالم الذي كان يرتبط به طبيعياً، بحيث أقتطع منه العنصرين اللذين أقدر على جَمْعهما - الأم وأحد أبنائها - مُبعداً العناصر الأخرى كما لو عن سهوٍ: الأبناء الآخرين، البنت، الصهر، وربما أسرة بكاملها، والعشيرة، وأخيراً شعباً بأسره، ذلك أنني لست واثقاً من أنّني ماأزالُ اليومَ أتمّتع بالانصات نفسه لليل الثورة الذي

كنتُ اتمتّع به في ١٩٧٠. لكنْ أماكنتُ من قَبلُ باحثاً عن خاتم الثورة، كما يقول القرآن عن محمد إنّه خاتم الانبياء؟

ليس هذا كلّ شيء. فهذا الزوج، المكرّر غالباً، والمسيحيّ بعمق، والذي يرمز الى الألم الذي لا عزاء له لأمّ كان ابنها هو اللّه، كيف قيض له يا ترى أن يبدو لي، وبهذه السرعة، سرعة الرعد، لا كرمز للمقاومة الفلسطينية (هذا ما سيمكن تفسيره بسهولة)، وإنّما بالعكس: «أن تكون هذه الثورة قامت حتى يسكنني هذا الزوج، [حمزة وأمّه]؟».

ربّما بقيت درعة، التي لم أرَها ثانيةً منذ ١٩٧٣، ضيعة حدودية صغيرة، إنّما في التراب السوريّ. مررتُ بدرعة في ١٩٧٠، آتياً في المساء من دمشق، ذاهباً الى عمّان. واليدان اللتان تعزفان على لوحَين من الخشب إيقاعاً سرعان ماكان يأتي ليقطعه إيقاع آخر، مرتجل هو أيضاً، هذه هي خصوصاً الذكرى التي أحفظ من درعة التي كانت «فتح» قد اشترت فيها منزلاً وحوّلته الى مستشفى–مستوصف صغير بثمانية أسرّة. كان فدائيان يقفان، حاسرَي الرأس ولكن في بزّة الفهود، التي ساراهما فيها دائماً، متكئين إلى صندوقين من الخشب الأبيض موضوعين أحدهما فوق الآخر، في الدهليز، قرب الباب. وكانت اصابعهما، النحيفة والصلبة، تبتكر على الألواح إيقاعاً معقّداً وفرِحاً. كانا يتكلمان ضاحكَين. وعلى الرغم من العاصفة، فانا أتذكّر انّ شيئاً من الرقّة والحذَر كان يرْشح من صوتهما الحلْقيّ. كانت المقاطع، خصوصاً الحروف المصوّتة، تظلّ شبهَ عالقةٍ في الحلقوم، ولكن انثيالها خارج الفم وفي الظلام يطبعها بالخفوت. ناداني محمود الهمشري:

ـ الجيران يدعوننا الى تناول الشاي.

مررتُ، للالتحاق به، أمام الفدائيَّين اللذين رأيت وجههما الجانبيّ. كانا مايزالان يعزفان الايقاع، إيقاعات أكثر فأكثر صعوبة وأكثر فأكثر براعة، على تابوتين جديدين من الخشب الأبيض، حوّلتْهما الأصابع النحيفة والصلبة الى أدوات إيقاعية. وكان تابوت ثالث، ماكنت رأيتُه، قد طُرِحَ عمودياً، مفتوحاً نوعاً ما ومائلاً بإزاء الحائط. لاحظتُ خصوصاً عُقَد خشب الصنوبر، ربّما حتّى يثْبت في ذاكرتي عبرَ هذا التفصيل كاملُ المشهد الجنائزيّ الذي يصنعه حضور التوابيت الثلاثة والايقاعات المتزايدة مرحاً المعزوفة على الخشب. قال لي محمود ونحن نشرب الشاي في البيت المجاور:

ـ جئتُ بكَ الى هنا، لانّ الأجداث جُلبَت. سنُغلق التوابيت من أجل الدفن.

وطرحَ فنجان الصيني.

كان الفدائيّان الأوّلان من الجمال بحيث أدهش أنا نفسي كيف لم أشعر تجاههما بأيّة رغبة، [وهذا ماسيتأكّد] بقدرما رحتُ أعرف المقاتلين الفلسطينيين المسلّحين، الذين يزيّنهم السلاح، ويرتدون بزّة الفهود وبيريات حمراً نازلة حتى العين، هكذا بحيث يبدون لاباعتبارهم تحوّل استيهاماتي، وإنّما تجسّدها أمامي، في انتظاري، و« كما لوكانوا » مهديّين لي. ربّما كان هذا: في البدء المفردة « يزيّنهم »، « يزيّنهم السلاح »، المكتوبة والمفكَّر بها ولاشكّ؛ والحال، فالبنادق إنّما تُستَخدَم. هي أداة، لازينة. وماكان الفدائيون ليَمتثلوا إليّ، ماكانوا يظهرون ولايختفون كما أريد، وماكنتُ اعتبرتُه، لزمن طويل، ضرباً من الصفاء، ومن الغياب الكامل للايروسية، ربّما كان فرضَه استقلال كلّ مقاتل. وحتّى أقول ذلك بإيجاز – لكن ينبغي أن أعود إليه – فَعَليّ أن أستخدم المفردة « دعارة ». كانت الدعارة غائبة، وكذلك كلّ رغبة. الغواية الوحيدة التي كنت أشعر بها: أنّ هذا الغياب للرغبة كان ينسجم و« تجسيدَ » رغباتي العشقية، إلاّ إذا كان « ذلك الواقع »، كما أسفلت في القول، يطبع بالمجانية « واقعَ » استيهاماتي « في داخلي ». وهذا هو ماكانَ مع « الفهود السود » في الولايات المتحدة.

« بقدرما رحتُ أعرف المقاتلين... »، هذا المقطع من العبارة حلّ محلّ مقطع آخر كتبته في البداية: « بقدرما أتوغّل... » وإذا كنت أصررت على هذا التصحيح، فحتى لايضيع عن صوابي أنّ نوعاً من الرقابة الذاتية لايفتأ يراقبني ماإن أكتب عن الفلسطينيين.

تركني الظهور المفاجيء لمحاربين مشاة، ضاحكين، حيويين، مستقلين، على شفير النقاء: نزول ملائكة، سدّ من الملائكة يستوقفني على شفا هاوية: هاوية سأعرف على الفور أنّها سعادة كوني ذاهباً للعيش في ثكنة شاسعة.

إنّ الانصياع إلى أحلامي القديمة، المنبثقة فيَّ كما لو من أجل إكمالي، كان بالفعل انصياعاً وامتثالاً: كان أيفَع الفدائيين، وأكثرهم مرونة وانعدامَ تجربة سَيُقهقه أيّما قهقهة إذا ماعرف أنّه يمكن أن يكون مرغوباً فيه، أي أنّه اختير ليمثّل دور المحارب مجرّدَ تمثيل. ربّما في العزلة، لدى مقاربة الموت، عندما لايعود المرء يقامر بشيء لأنّه خسر كلّ شيء؟ ومع ذلك فماكان هذا بالمؤكدّ. أحسب أنّني وجدتُ وسطَ الفلسطينيين المسلّحين النقيضَ المطلق لمدينة الصفيح الموصوفة أعلاه.

هل قلتُ ماحدث هناك، في عجلون، وسطَ الفدائيين؟ كنّا نقاتل، من دون أن يكون القتال معروفاً، ولامسمّى. أنّما كان تزاحم الصيَغ بيننا، والأسئلة، والردود، وكلّ هذه الطرائق الجافية أو الدمثة، هذا كلّه أما كان شبيهاً بمتاريس تُرمى فيها الفرُش العتيقة مع بلاط

الشوارع ــ هذه الصورة أوحت بها مفردة «المتاريس»: ركام بلاط، وحجر، أشياء صلبة أخيراً، مع نقيضها، القادر على امتصاص الصدمة: حصُر، وفرُش، وصناديق هشّة ــ ، نعم، على النحو ذاته كنّا نُراكم أمامنا الكثير من العاديّات، حتى تبرز المتاريس والحيطان والموانع، وحتى لايظهر أبداً ماكنّا نحمل على طرف الذراع في طرف العالَم، عنيتُ الشيطان؟ في الوقت نفسه الذي كانت هشاشة المتاريس تفرض فيه نفسها كبديهية متعاظمة القوّة.

ينبغي أن نقبل أنّ من تدعونهم بالارهابيين يعرفون هم أنفسهم، من دون أن يكون من حاجة لتذكيرهم بذلك، أنّهم لن يكونوا، إنْ في كيانهم الجسمانيّ أو في أفكارهم، سوى بوارق خاطفة في عالَم غليظ الأناقة. بوارق: كان لسان-جوست طبيعته البارقة، وللفهود السود لمعانهم واختفاؤهم، و«بادر» ورفاقه بشّروا بموت شاه إيران؛ والفدائيون هم أيضاً رصاصات تخطّ أثراً، عارفة بأنّ أثرها يمّحي في ومضة عين. ولئن كنت أستحضر هذه المصائر المبتورة بسرعة، فلأنّني ألمح فيها مرحاً أودّ استعادته في التسارع النهائيّ لموكب دفن عبد الناصر، وفي الشطح متزايد التعقيد و«الحيوية» لِدَيّ الفدائيّين الضاربَين الايقاع على خشب التوابيت، وفي ذلك الشطر شبه الفرح من «الزغردة» في «جنّاز» موتسارت. كما لو كان ألم بمثل هذه الفداحة عصياً على التعبير؛ الاختفاء فيه مثلما في نقيضه: الضحك الأكثر فرحاً، والتهليل، القادرَين، باندفاعاتهما وحدها، على تقويض الألم ومعالجته بواعثه بالكيّ.

عندما يكون المرء في السادسة عشرة، وإذ يصبح بناء متراس نوعاً من حاجز يمنع السقوط، أفلا تنطبع صورة المتراس، لمجرّد المشاركة في بنائه، في الذاكرة، وعلى امّحائها أغلب الأحايين، فالصورة تعاود الانبثاق كلّما وجد المرء مايغويه لافي الدخول في سلك الشرطة فحسب، وإنّما كذلك في دعم نظامٍ، أيّ نظامٍ كان، مايُدعى بالنظام، أو القانون؟ ماإن كتبتُ هذه السطور حتى تذكّرتُ: إنّ شرطيّاً، فلسطينيّ الأصل، حالما تأكّد من اندحار الفدائيين أمام بدو حسين، عاود الانخراط في الشرطة الأردنية، وهو الذي لم يفرّ منها فحسب، بل قاتَلها بالسلاح. رأيتهُ ثانيةً، وأتذكّر يوم رجوعه الى سلك الشرطة كما أتذكر ماصارَ عليه بعدَ ذلك: الألم. ربّما كان، بمساعدة قدر أكبر من الذكاء والفتوّة، سيتحوّل الى شرطيّ عميق، وطيّب بعُمق؟

سأتحدث لاحقاً عن عليّ، الشاب الشيعيّ الذي كان يريد، في حالة وقوع مصيبة، أن يحوز عظامي، لتُدفَن ذاتَ يوم في فلسطين. قال لي في ١٩٧١ بصدد التهديدات الاسرائيلية:

ـ لاتنسَ خصوصاً أنّ الكثير من مشاتل التبغ قد اشتُريتْ خلسةً من قبل الاسرائيليين، وذلك حتى مصبّ الليطانيّ.

أكتب هذه الملحوظة في ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٥، اي في اللحظة التي اختارتها الحكومة الاسرائيلية: جيشها ينسحب من ضفاف «الأوّلي». ربّما من صيدا، من جنوب صيدا حتى الليطانيّ.

كنت حدّثتُ داود التلحميّ، من «الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين» التي يتزعّمها نايف حواتمة، عن فكرة عليّ هذه. ابتسم داود:

ـ ليست اسرائيل بحاجة لشراء أراضٍ عن طريق وسطاء متخفّين. إذا ماأرادت، فستعبر الحدود وتضمّ شطراً من لبنان وتقيم عليه مستوطنات اسرائيلية أو «كيبوتزات».

كان عليّ مصيباً: كانت المخاوف في المنطقة الحدوديّة قد كبرتْ بالفعل بحيث تمخّضت عن عمليّات بيع وشراء.

وكان داود على صواب: كان يكفي التصاهال أن ينسف بيروت، بتعلّة طرد الفلسطينيين. ثمّ، من انسحاب الى آخر، وفيما يتظاهر بتقديم دلائل على حسن النوايا بالقدر الذي ترغب فيه أوربا، ويبين عن تواضع ظاهريّ، يتوقف عند الليطانيّ ويحتفظ بهذه الرقعة، تاركاً فيها قوة عسكرية بين الحدود الرسمية لدولة اسرائيل والليطانيّ. ثمّ يكون تعديل سجلات المساحة لصالح إسرائيل مجرّد لعبة.

بالرغم من نقاط اختلافي مع الفدائيين ـ وكانت أهمّها تبدو لي متمثلة في تفاؤل الثوريّ الذي يخلط بين الحرية والاستقلال وإمكان ان يصير ذاتَه، وبين أكبر رفاهية ممكنة، في حين يلزم التمرّد والثورة بالذكاء والدقّة ـ ، أقول إنّني كنت بالرغم من ذلك أشعرُ بإزاء الفلسطينيين بصداقة لاتُحدّ، وبالاعجاب أيضاً (درعة. أتذكر اليوم أنّ العقيد لورنس قد اعتديَ عليه في درعة من قبل أحد باشوات الجيش العثمانيّ. ماكنت لأفكّر بذلك على كثر مروري بها). لكن انطلاقاً من درعة، لم يعد السوريون ليجدوا حرجاً في انتقاد الفدائيين،

وغالباً بصورة عدوانية وفظّة. أعرب سائق سيارة الأجرة الذي أوصلني وحدي الى دمشق عن انزعاجه الشديد من هؤلاء المشاغبين الذين كانوا، في ١٩٦٧، هم سبب خسارة الجولان، أي دنوّ الحدود الاسرائيليّة من دمشق. كنت سأفهم مخاوف السوريّين، لولم يكن يُملي مفرداتهم وحججهم جُبن أصحاب المغازات المستسلمين من قبلُ لتسلّط حافظ الأسد.

ـ هل تعرف المخيّمات؟

ـ ثمة مخيّمات في سوريا. ماكان ينقص حسين هو القبضة. تسامحَ أكثر من اللزوم مع دولة داخل دولته. هنا، في سوريا، ينتمي المقاتلون، الفدائيّون، الى «الصاعقة»، ويمتثلون لزهير محسن، الذي يمتثل بدوره للأركان العامّة السورية.

ماعاد مذياع السيارة يبثّ ريمسكي-كورساكوف وإنّما سكريابين.

ـ على أيّة حال، إنْ أنتَ أردتَ الأمانَ في دمشق، فَصُنْ لسانك. الفلسطينيون المتحضّرون، نحن نحبّهم.

إنّ تمرّداً، أو ثورة، أكثر منها أراضي تُغنَم أو تُستعاد، يمكن ألاّ تكون سوى تنفّسٍ بالغ السعة لشعبٍ يعرف طوال خمسين سنة أثرَ هذه الفكرة النمطيّة.

في تموز / يوليو ١٩٨٤، وأنا عائد الى عجلون لأرى الخمسين دونَماً (أقلّ من خمسين هكتاراً) العائدة الى أبي هشام، عرّجتُ ثانيةً على أحد الكثيبين اللذين أطلقَ الفدائيون بينهما غناءهم؛ ورحتُ أبحث عن الجدول أو المسيل الذي كان يتناهى إلينا هديره في الليل. كان مايزال هناك، ولكن مقنّناً في ثلاثة أنابيب، وساكناً تماماً. كان هذا الجدول يرسل مياهه قرب مزارع السلطة والقنّبيط. صار كلّ شيء أزلياً، وحدها الأطيار جديدة.

لم يعد الجدول ليقول شيئاً، ولاحتى في الليل.

دجاج عجلون يقوقيء ويغنّي.

وفي مخيّمات الفلسطينيين، الاسمنت المسلّح في الأرضية، وفي الجدران وكلّ شيء.

الطريق من درعة الى العقبة مطليّة بالقطران وواسعة.

عيناي تميّزان حقول الشعير من حقول القمح والشيلم والباقلاء. لم يعد المشهد رمادياً وذهبياً.

في الأعوام ١٩٧٠ و١٩٧١ و١٩٧٢، كان كلّ فدائيّ يتبيّن مايشبه أصداء تناحرات في اللجنة المركزية. ولِنسياني التعارضات بين مختلف العناصر المشكّلة لمنظمة التحرير الفلسطينية واخذي بعين الاعتبار الفدائيّين أنفسهم لانتماءاتهم، كان يحدث لي أن أُوقعَ في الحرج الجميعَ فيما احسب انّني كنتُ أزيل الفوارق. ولّما كانت صحيفة في دمشق قد أعلنت عن زيارتي سوريا لمدّة أسبوع، وعن اسم فندقي، فقد تلقّيت زيارة شابّين في حوالى سنّ العشرين. تغدّيا معي، ولاأتذكّر عبر أيّ شيء لاحظت حرصهما على البقاء غير مرئيين من قبل الزبائن الآخرين، وكانوا جميعاً بلغاريين، بلا أيّة امرأة، يتنقلّون في المطعم أربعةً أربعةً من دون أن ينبسوا ببنت شفة.

ـ الأفضل ألا يرانا أحد معك، فالمكتب التنفيذيّ لـ «فتح» في الفندق.

أريتهما رسالة عرفات التي تجيز لي مقابلة مَن أريد من الأركان العامّة لأية حركة.

ـ وإذن، فأنت في «فتح» عن طريق السهو.

كان الاثنان منخرطين في «الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين»، التي كان نايف حواتمة مسؤولها الكبير. وإنّ حضور الاخير في شخصه في عمّان أثناءَ القتالات، وشجاعة جميع أعضاء الحركة وتفانيهم، وكذلك براعتهم التكتيكية – في حين كان جورج حبش في كوريا الشمالية – ، هذا كلّه عادَ لهم بتقدير عرفات إن لم أقل بمودّته.

ـ نحن ننتمي الى حركة مغايرة لـ «فتح». ماتزال آيديولوجيتنا محصورة التأثير، ونحن نريد استقلال حركتنا داخل منظمة التحرير الفلسطينية. حتى إذا لم نكن نتمتع فيها بالأغلبية، فلحضورنا وزنه. كان يمكن أن تهتف لنا لتنبئنا بوصولك.

ماكان لوجودي في دمشق من أهمية، لافيها ولا في سواها، هذا ماقلته لهما. وأمام العدوّ الأردنيّ أو الاسرائيليّ، كان الوفاق يتحقق بهذا القدر من السرعة بحيث بدا لي، في تلك الفترة، أنّني ماكنتُ لأرى سوى لعبة شرقية سرعان ماتُخفي ماإن يُظَنّ بالخطَر مجرّد ظنّ. في فترات الهدوء، لم تكن الدبلوماسية والسياسة سوى لعبة «ضامّة»، بل حتى لعبة شطرنج، وكنت أرى إليهما، من بعيد طبعاً، كلعبة.

فيمابعد، عرفت أنّ التنافس بين حركات المنظمة الإحدى عشرة راح يتحوّل، بمساعدة

عدوانية الرجال، الى عداء. كان الصراع من أجل السلطة في حالتها المحض، والكلمة الأخيرة مستخدمة بالمعنى الكيمياويّ، يبزّ إرادة السلطة من أجل المال، ماياتي به المال. وبَدا لي أنّني كنت أميّز بين شكلين للقوّة: الأولى أمريكية، من أجل الثروة وعرضها، وهي تصطدم بالسلطة، السوڤياتية من قبل، سلطة من أجل السلطة وحدها، سلطة مصفّاة، قد تكون صوفيّة إنّما متباهية، مطلقة، يمكن أن يحوزها شخص هزيل البنية، دائم الانغماس في مغطس ذي مَقعد.

ذات يوم، حاول مسؤولون مايزالون شبّاناً، في الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين، أن يأخذوني الى الجولان.

ـ ولكنها كتلة جبلية تحتلّها اسرائيل.

ـ نريد أن نأخذك إليها.

ـ ينبغي اجتياز حواجز عديدة للجيش السوريّ، الذي يرفض ذلك عموماً بدون أمر من الأركان العامّة.

ـ لاتقلق على شيء. سنذهب غداً.

إنطلقنا في السيارة، من دمشق، نحو الثالثة بعد الظهر. كنّا تسعة، أنا وثمانية فدائيين. كان الفدائيون قد جاؤوا بكوفيات ونظارات سوداء للجميع. ربّما كانوا موقنين من حكاية أدغار آلان پو: «الرسالة المسروقة»: فالمرور في عزّ الضوء وسطَ هذا البريق الكرنفاليّ يحيلنا متعذرين على الرؤية، إلاّ إذاما جعل هذا الخرْق الوقح الجنودَ يتلوّونَ ضحكاً، بل حتى يغمر أعينهم بسيول من الدمع تضبّب في خاتمة المطاف نظرهم المشوّه من قبل بمناظير الدمع، وتحيله الى هذه الدرجة أخرقَ بحيث لايعود أكثر من مزحة، سراب، عرس سكران، أو أنّهم، إذ ينقسم جسم الواحد منهم نصفين بسبب من آلام الأمعاء التي تنجم عن نوبات الضحك، يدَعوننا نمرّ لفرط ماهم عاجزون، بسبب الضحك بجميع النبرات الممكنة، عن التفوّه بأمرٍ واحد.

«إنّه الملازم عليّ»، قال بالعربيّة أحد الفدائيين للجنديّ السوريّ الذي كان يتفحّص تصريحَ مرور مكتوباً بالعربيّة، مع ثلاثة أختامٍ أوأربعة.

«ياله من جيش مَساميّ»، هذا ماربّما حدثّت به نفسي. «إنّ أيّة غولدا مائير ستخترقه».

وصلنا الى مزرعة نمنا فيها، قبل أن نذهب سيراً على القدم الى منحدرات الجولان المحتلة من قبل إسرائيل. وكنّا نشرب الشاي عندما تناهى الى سمعي وقع خطوات في الحجرة المجاورة، وباب تفتح، وشجار بالعربية ميّزتُ فيه اللكنة السورية. فتح أحدهم الباب ورائي وقال بالفرنسية:

ـ مساء الخير، انا مرسل من قبل القائد لأعرف إذا كان السيّد الفرنسيّ بحاجة الى شيء للّيل.

قلت أنْ لا، وشكرتُ. قال العسكريّ السوريّ: أأنت متأكّد؟ أجبته: في تمام التأكّد. هو: «أقدرُ، إذن، أن انصرف». أنا: «نعم». هو: «أو.كَي. (حسناً).» وبعدما حيّاني تحية عسكرية، خرج من دون أن ينظر الى أحد. كان الانزعاج مخيّماً على الجميع، خلا المُزارع وابنته وزوجته.

ـ هيّا لننام، قرّر، فجأةً، فريد، المسؤول ابن ثلاثة وعشرين سنة.

كان الظهور، البسيط إجمالاً والفظّ، لنائب الضابط، يقيناً إضافيّاً وإجابة جدّ مرئيّة على العبور الهلاسيّ للجيش السوريّ، فلم يعد من المريب أنّي كنتُ لعبة تضليل لاأدري أين كان سيجد نهايته؟ ومع ذلك فلم يساورني أيّ قلق. كان كلّ شيء يبدو لي ظريفاً – لكن ربّما كان حرج الفدائيين المفاجيء مصطنَعاً، ونائب الضابط عضواً بارعَ التنكّر من فرقة مسرحيّة متخرّجة من معهد التمثيل في دمشق؟

نمتُ. انطلقنا سيراً على القدم، في صباح ثلجيّ ماكانت الشمس أشرقت فيه بعدُ، ووصلنا، عقب مسيرة دامت ساعتين، منحدرات الجولان، في قرية شركسية صغيرة ومهجورة. وفي ذروة أوّل قلعة من الجبَل، رأيت حُصَيناً مبنيّاً على أيدي الاسرائيليين بسرعة. كان، في الضباب المايزال كثيفاً، يخفي، جيّداً، البناء السوريّ سابقاً، المصنوع، شأنه شأن «سويداء» نفسها، من البازلت والمرمر الأبيض، وكسويداء نفسها، عاصمة دروز سوريا، من تناوب حجارة بيضاء من المرمر المنحوت بجودة وحجارة بالحجم والأبعاد نفسها ولكن سوداء. وبحسبِما قال لي المسؤول، فإنّ نظاماً من الرادارات شديد التعقيد يُنذر على الفور ثكنة الحصن. كان الصمت والجمود تامّين.

ـ سنصعد ثلاثمائة متر أو أربعمائة متر أخرى. رأيتُ أشجار بلوط الفلين الخمس أو الستّ في المنحدر. بمجرّد انْ نسمع محرّكَ طائرةٍ، يختار كلّ واحدٍ شجرته. نركض ونلتصق بالجذع.

بدأت حرارة الشمس تتصاعد.

ـ هل أنت َمتعب؟

ـ كلاّ.

ـ لنتوقّف أوّلاً لتناول شيء من الطعام. لقد تقدّمنا بصورة جيّدة، متباعدين. بلا مخاطر. لكن يجب أن نتناول غذاءاً.

لم يكن حولنا سوى حشائش مصفرّة، وبضع أشجار، وصخور البازلت بالطبع. تناولَ كلّ واحد شطيرة متقشّفة كمجموعة في عملية. وهي اللحظة التي سألني فيها ابن أحد أمراء الخليج، صبيّ في الثامنة عشرة، بفرنسية تعلّمها في معهد فخم في سويسرا:

ـ قل لنا بصراحة ماتفكّر به عنّا. هل نحن ثوريون حقيقيون أم مثقفون يتشبّهون بالثورة؟

ربّما لم يكن جميع أعضاء حركة نايف حواتمة أبناء عائلات كبيرة، لكن أغلب أعضاء مجموعتنا كانوا من الأشراف، أي من أحفاد عليّ، وبالتالي نبلاء: وكان معنا ابن أمير، وابن طبيب فلسطينيّ كبير، وآخر ابن محامي أعمال، بل حتى عضو غير مباشر من عائلة النشاشيبي، مهذارين جميعاً خلا ابن الأمير الذي كان أبوه يريد حرمانه من الأرث لكونه هجرَ معهده السويسريّ لباعثين: الرومنطيقية والحنين الى حوض المتوسّط. وكان من الصعب عدم التفكير أيضاً بأنّ هؤلاء الفتيان، مهما كان من سخائهم، حتّى إذا ماماتوا هنا فإنّ آباءهم لايمكن ألاّ يستمدّوا فائدة من يافعين يموتون في نضال ماركسيّ. أجبتُه:

ـ مادمتَ طرحتَ السؤال، فهو يمكن أن يُطرَح.

جاءت الترجمة العربية صاعقة الوقع. وبدا لي أنّني لمحتُ ظلاًّ يمرّ على الوجوه الثمانية، إلاّ إنّ قائد المجموعة اتّخذ القرار على الفور:

ـ لاداعي للصعود أكثر، لقد فهمَ الفرنسيّ.

لدى النزول من الجولان، التي لم أكن متيّقناً من أنّني كنتُ فيها حقّاً، ارتجلَ الجميع أغنية شبيهة بتلك التي تحدثت عنها أعلاه، نوعاً من لحن انموذجيّ يتلقفّ فيه كلّ مقطع جديد المقطع السابق قبل أن يكتمل الأوّل، ليختلط به في النهاية. ماعادوا يَصفون ميونيخ، بل يهزأون من غولدا.

توقفنا، قبل أن يغادروني، أي قبل العودة الى دمشق، عند المزرعة التي نمنا فيها البارحة. أعاد لي المزارع جواز سفري ونقودي، وكان الفدائيون نصحوني بتركها هنا.

ـ ينبغي أن نساعد الفلاحين على إنهاء الحصاد. إنتظرْنا مُتَناولاً الشاي.

عادوا إليّ قائلين:

ـ لقد رأيت. فمثلما يشرحه ماو في كتابه الأحمر، فمع كوننا مثقفين، علينا أن نساعد الفلاحين في أشغالهم.

ـ دامت مساعدتكم لهم نصف ساعة.

عاودْنا اجتياز الجيش السوريّ، بعد مرورنا الأوّل بأربع وعشرين ساعة، إنّما في الاتجاه المعاكس، من دون أن يسألنا أحدٌ شيئاً، وبلا أدنى صعوبة. عندما رجعتُ الى دمشق، ذهبت الى المعهد الفرنسيّ. كنتُ أعرف فيه باحثاً في الجغرافية، أوضحَ لي. أراني خرائط عديدة للأركان العامّة، وعليها الطريق التي اتبعناها أنا والفتيان من دمشق، والنهج بين صخور البازلت الذي يقود الى المزرعة، والمزرعة، والقرية الشركسية الصغيرة، والحصن. رسمَ على الخارطة البناء الاسرائيليّ الجديد:

ـ أخذوك حقاً الى الجولان، لكن لمَ؟

حسبتُ أنّني فهمتُ أنّهم أرادوا الابانة لي عن جرأتهم الحربية أوّلاً والمساعدة التي يقدّمها المثقفون، كماركسيين جيّدين، للشعب، وأكثر ممّا تفعل «فتح»، التي كنت ماأزال معها. كانوا لاريب يفكّرون بأنّني ساكتب ذلك، وهاهم يقدّمون لي الدليل عليه. لايعلمون أنّ جغرافيّ المعهد قد قال لي:

ـ كنتَ في الجولان فعلاً، لكن في المنطقة المحايدة نوعاًما التي يظلّ مرور الفلسطينيين فيها مرخّصاً طوال ساعتين أو ثلاث، لأنّه، في حالة إطلاق النار عليهم، يمكن المجازفة بجَرح الفلاحين السوريّين الذين يرعون هناك أبقارهم وخرافهم. وذلك سيّما وأنّ هذه المنطقة قريبة من جبل الدروز الذي يذهب إليه، غالباً، الدروز المستقرّون في اسرائيل، من دون إعلام أحد. يريدون تجنّب المشاكل. (يبتسم.) لقد قمتَ أمس بنزهة صباحية. مُتعِبة إنّما بلا خطورة.

بفضل علبة لفائف «هقانا» التي اشتريتها في دمشق وأهديتها الى رئيس نقطة جمارك أردنية، أفلحتُ في أن أُدخل معي الى الأردن الفدائيّ الذي يجيد الفرنسية. عثرَ في عمّان على عدد من أعضاء «الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين». جاء معي الى مقرّ

« فتح » . ماإن أعلموا أبا عمر، حتى جاء ليعانقني . عندما سألته، من أجل الفدائيّ، عن مقرّ « الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين » ، قال لي :

ـ لاأدري . ليبحثْ في عمّان .

بعد يومين من ذلك، كان ابن الأمير في دمشق . في ١٩٧١ . وتكشّف لي وجه آخر من شخصية أبي عمر: تغلّبت فيه الروح الحزبية على الرفاقيّة البسيطة، بل حتى على حُسن الأدب . فيما بعد، سيتراجع هو نفسه عن إجابته . عندما جعلَ عرفات يوقّع لي ترخيصاً بالمرور شديد الحرارة، فهو ربّما كان يتوقّع أنّني سأستخدمه لمقابلة حركات اخرى سوى « فتح »، لكنه ماكان يعتقد أنّني سأجرؤ على ذلك . ولّما كان لايريد أن يسلّط عليّ مزاجه العكر، فإنّ « الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين » بكاملها كانت هي ضحيّته .

بعد ذلك بأيّامٍ، اكتشفتُ نوعاً من القلق يُصيبه بالهياج أغلب الأحايين . ذات يوم، في أعالي الأشرفية، في عمّان، أراني أبو عمر مخزن الماء ومواضع القتال، والمنازل المبقورة، ومخابيء الأسلحة الفردية، لكنّه رفض أن يقول لي أين كان مخبأ الأسلحة نصف الثقيلة . درنا حول المعسكر، الذي كانت أسلحته مصوّبة الى مدخل القصر الملكيّ . إبتعدَ عنّي آنئذ، واقترب من حائط، ورفع غطاءاً رمادياً، ثمّ ناداني وأراني الكاتيوشا الأولى .

ـ كلّها مصوّبة الى القصر .

إبتسم وبَدا لي كمثْلِ مَن تحرّرَ من عبء .

ـ لكن كان ينبغي الاّ تريني إيّاها . . .

ـ كلاّ، بالفعل، ماكان عليّ . لننسَ هذا، قال لي، مهموماً بهذه الحاجة لأن يكون حقيقيّاً التي تكاد تعادل في تعذّرها على القهر الحاجة الى الكذب .

ربّما كان هذا الكتاب خرجَ منّي من دون أن أقدر على السيطرة عليه . مجراه مضطربٌ بإفراط، ولعلّ المرء يشعر بالارتياح لإزاحة الأختام فيه عن ذكريات معتقلة . بعد خمس عشرة سنة، وعلى الرغم من إحجامي كلّه ومن فمي المطبق، فإنّ شقوقاً تسمح لهذا المكبوت بالمرور . في أزمنة العشق الكبرى تلك، كنت أحفظ الأسرار في حين كان أبو عمر بالغ القلق .

لدى وصولي الى الأردنّ تقريباً، وبعدما قلتُ له لمَ اقتادني محمود الهمشري الى هناك، أدهشني قرار أوّل من لدن أبي عمر، بل أغاظني . كانت قد سرّتني جداً فكرته في

جعلني أجتاز الأردن من عمّان الى إربد، القائمة على مسافة خمسة كيلومترات من الحدود السورية، وتقديمي الى حركات أخرى سوى «فتح». وفي أثناء الرحلة في السيارة، سألته عن طبيعة العلاقات بين الفلاحين الفلسطينيين والبدو، أو، إذا شئتم، الأردنيين. قال إنّها رائعة. كنت أعرف أنّ هذه الرحلة كانت عملية دعائية، فالذهاب للتحدث الى منظمة للنسوة الفلسطينيات يعني أنّ فرنسياً (وعلاوةً عليَّ فرنسا نفسها) يعنى بفلسطين. ماالذي كان سيُملي عليّ أن أرفض الدخول في هذه اللعبة؟ وصلنا الى إربد. وحدثَ أنْ كان الشاعر خالد أبو خالد هناك هو أيضاً، ومالإن عرفَ بوصولنا حتى جاء لرؤيتنا، مُضطرباً نوعاًما. إنّه يتكلم الفرنسية. وعندما قلت له إنّنا ذاهبان لمقابلة اتحاد نسوة فلسطين وإنّ أبا عمر قال لي إنّ العلاقات حسنة بين الشعبين، استبدّ به غضب عارم.

الى أبي عمر:

ـ لمَ تأتي به الى هنا وتروي عليه أكاذيب؟

وإليّ:

ـ الأمور تسير من سيء الى أسوأ. الأردنيّون يكرهوننا. هي ولاشك نتيجة للدعاية الرسمية، ولكنّها ملحوظة. الشعب يرتاب من معلّمينا وموظفينا وأطبائنا. الشعب الأردنيّ يُعلن علينا الحرب، ويقولون لك إنّ كلّ شيء على مايُرام! أبو عمر يكذب عليك. والنساء الفلسطينيات يعرفن بذلك ولكنّهن لن يتحدثن عنه أمامك.

ماكان في مقدور أبي عمر، الذي أصابه الشحوب، أن يقاطع خالد أبو خالد. ولقد أصابَني بالبلبلة نبر خالد وحقيقة أنّ أبا عمر كان يخفي عليَّ الحقيقة، فقرّرت الرجوع الى عمّان وتهدئة نفسي ومحاولة الرؤية بوضوح أكثر.

كانت رحلة العودة كئيبة نوعاًما. ولدى تعرّضنا للتفتيش في الحواجز الأردنية، ولمّا كان أبو عمر لايحمل بطاقة هوية، لكونه فدائياً، مسؤولاً كبيراً إنّما فدائياً، فقد طلب إليّ أن أعرض جواز سفري الفرنسيّ، فسيحمينا نحن الاثنين. ومااصابني بالبلبلة ومايزال هو أنني علمت أنّ خالد أبو خالد قد عاد الى دمشق ومُنعتْ برامجه الاذاعيّة في إذاعتها. قال لي المسؤولون إنّه هو مَن رغب بذلك ليرتاح. لم ينطق أحد بمفردة الجنون أبداً، لكن، بلى، بكلمات أخرى أكثر وقاحة: وَهَن عصبيّ، نفسيّ، ذهنيّ، وهبوط عصبيّ. ولقد بدا لي الحياء في هذه المفردات أكثر تضمّناً على الشتيمة من مفردات أكثر فظاظة. لكن بدا لي مدهشاً أنّ هذا الجنون ـ فلابدّ أنّه كان ذلك اليوم في نوبة ـ كان يهبه وضوح البصيرة أو الشجاعة أو

الغَفلة الكافية ليُريني أنّهم يَطلون لي وحدي، أنا الوافد الساذج، بالوان كاذبة، واقعاً يصعب عرضه. كان خالد يريد شيئين: الاعلان لي عن المخاطر التي يتعرّض إليها شعبه، والكلام بمايكفي من القوّة حتى لاأكون ضحية تزييف.

هل يتذكر القاريء محاورتي مع ضابط جزائريّ، المرتبطة في ذكرياتي بربيع ١٩٧١ واندهاشي أمام الصفوف الطويلة من اليساريع الجرّارة؟ من هذه المحاورة أتذكر البداية:

ـ مَن انتَ في حقيقة الأمر؟

ـ صديق للفلسطينيين. للشعب وللفدائيين. وأنت؟

ـ ضابط جزائريّ. كم ستدوم في رأيك هذه الحرب بين إسرائيل والعرب؟

ـ لاأدري. ربّما خمس سنوات أخرى.

ـ يمكن أن تقول مائة وخمسين سنة.

لاريب أنّني لم يكن لديّ، لدى وصولي واستقبال الفدائيين إيّاي بمثل هذا التفخيم، الاستعداد الذهنيّ لأقدّر القوى المتصارعة ولالأميّز انقسامات العالم العربيّ. كان عليّ أن أرى مبكّراً أنّ الدعم المقدّم للفلسطينيين كان وهمياً. كانَ، سواء أتى من الخليج أم من أقطار المغرب، ظاهرياً، تصريحياً إنّما غير ذي قوام. رأيتُني أتغيّر، شيئاً فشيئاً، خصوصاً بعد حرب ١٩٧٣. كنت ماأزال مسحوراً، لامقتنعاً، مغوياً لا مَعمياً، أتصرّف بالأحرى كأسيرٍ عاشق. كنت أحسب أنّ ثلاث سنوات من العشق المجنون كانت زمناً ضرورياً، ربّما خمس سنوات، لكن بعد ذلك يأتيني هذا الخوَر المعتاد لدى العشاق، فبعد مائة وخمسين سنة في هذه المنطقة وفي العالم، سيجعل موتي والانقلابات جميعَ ضروب التفكير تخمد من تلقاء نفسها ولمّا تكد أن تُلمَح. ولقد أهيلت عليّ مائة وخمسين سنة عندما حسبتُ، بسذاجة، سنواتي الخمس القادمة، من انتصار الى آخر. ماكان لكلّ هذا الحبّ في البداية إلاّ أنّ يتضاءل. وكانت وجوه العجائز الفلسطينيات، وتجميل البيوت، والسّلَع الحديثة يابانية الأصل، مثلما نرى في بيوت هنود «الألتيبلانو» الحُمر، وسيول الاسمنت المتصلّب الموجّهة لإخفاء بؤس الأرضية، هذا كلّه كان يُثبت لي أنّ كلّ انتفاضة تنحدر على هذه الشاكلة: بالانهزام أمام غزوات الرفاهية التي تجرّ معها جميعَ ضروب الخوَر.

لدى التطلّع الى التلفاز، الذي تحدثت عنه في بداية هذا الكتاب، لم يرَ أحدٌ دفنَ عبد الناصر، إلاّ في حالة وفاقٍ «متواطيء». إنّ الترتيل القرآنيّ، واللقطات الكبيرة التي تُري القبضات والأعين، واللقطات الشاملة التي تتيحها الشاشة، هذا كلّه إنّما هو عرض لاتقدر ذاكرتنا أن تستخدمه لو لم يسبقه العنوان: «دفن الرئيس عبد الناصر». في غبار اشتباك الأذرع والسيقان وثياب الرجال – وحدهم الرجال، فهل هم الشعب كلّه؟ ولئن كان الجميع يبدون سابحين في العرق، فلاأحد كان يعْرق بباعثٍ من الثورة الفلسطينية. نبوءة عرفات: «إنهّم» (تدلّ «إنّهم» التي ينطق بها عرفات على اللامتعيِّن أو الهلاميّ الذي كان هو يصارعه)، «إنّهم» يصورّوننا ويكتبون عنّا، وبفضلهم نكون. يمكن أن يتوقفوا عن ذلك فجأة: وستكون المشكلة الفلسطينية في نظر الغرب وبقية العالم محلولة، لأنّه لن يعود أحد يرى صورتها.

كان في مقدور كلّ واحد في أوربا أن يضع حداً لهذا الدفن المُثير بأن يدير زرّ تلفازه الأسود والأبيض. ومع ذلك، فإنّ الأشجار كانت غاصّة بالصغار، وبشيوخ طرحتْهم قواهم الأخيرة بين الأغصان. وعندما استقلّ عرفات ورجاله الباخرة الى اليونان، في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢، رأينا الشيء نفسه: شعيرة مأتميّة في سفن أجنبية، وعلى الاغصان صغار يهتفون لها. بدا جميع العرب مدركين أنّ موت فرعون كان يشير الى موت الأمّة.

إنّ الشعب الذي كان يبدو لي الأقرب الى الأرض، وإلى الصلصال الذي كان هو يحمل لونه، الشعب الذي تلمس أصابعه الأشياء باكثر مايمكن حسيّةً، قد بدا لي في الأوان ذاته الأكثر ضبابيةً والأكثر انعدامَ وجود. أفعاله كانت بالأحرى بقايا أفعال. كذلك هي الايماءة الوحيدة، هذه الايماءة التي سيُحيلها «بابا» متّشح بالبياض عاديّةً، إذْ ينزل من طائرته المترفة ويستعيد لقاء الأرض الصلبة بعد مطبّات الهواء ومخاوفه هو، فيُقَبّلها، هذه الايماءة، إيماءة الفدائيّ الذي يقبّل على النحو ذاته تراب فلسطين، إيماءته الأولى لدى وصوله [خفْيةً] الى اسرائيل، في حين يكون حضوره معلوماً من قبلُ لدى أجهزة الانذار الكهربائية والكهرومغنطيسية، والفَسْفَرة (من الفسفور) المفاجئة، وماتحت الحمراء، التي تمكّن من التمييز في الظلام، وحمايات أخرى سريّة، وإذا به، بدلَ أن يحترس، ويصوّب بندقيته ويسدّد، ويموت قاتلاً، تُسمرّه صلْية اسرائيلية نهائياً، «بابا» مقرفصاً، لاثماً التراب. لكن أحياناً، عندما كان الأبطال يذهبون في المساء الى غور الأردنّ، كنت أراهم من قبل عائدين كمستشارين بلديّين، عُمْدات، أو نوّاب، خارجين بجرأة ليدشّنوا بطولتهم المصوّرة بموتهم قرب الشواطيء الصخريّة. هؤلاء لايلثمون التراب. بل يعاودون الارتفاع من غور الأردنّ، تماثيل تمتطي حصانها المعدنيّ.

لمّا كان الكتائبيّون يعرفون السير عسكرياً، كـ «الصبْرة»، فهم لديهم فخذ الأخيرين ونظرتهم. نحن في بيروت، في أيلول / سبتمبر ١٩٨٢.

الفدائيون تفرّقوا.

والنسوة يتصنّعن.

يُقال لي انّه أُعيد تشغيل خطّ سكك الحديد دمشق-الحجاز، ضيّق المسلك، المارّ بدرعة، والذي فجّره لورنس العرب مراراً عديدة. ويُقال انّ امرأة السفير البريطانيّ قامت برحلة التدشين بين عمّان ومكّة.

مهما كان من حيويّتي، أو مهما كان من الحيوية التي صارت تتمتع بها وسائل النقل، من طائرات وقطارات وبواخر وحوّامات، ومهما كان من سهولة العثور على النقود اللازمة للسفر، فمايزال يقبع فيَّ الميت الذي هو أنا منذ زمن طويل. ومايدهشني هو جمود هذا الميت فيَّ، الميت الذي هو أنا نفسي، بالرغم من المطبّات الهوائية والانطلاقات المباغتة والأمواج العالية والحُدَب الجويّة وعطل شفرات المرواح، كلّ شيء يتنقّل في ارتطامات ناقلاً إيّاي، كمالو كنتُ لاأكثر من طرد بريديّ، هو مع ذلك كائن إنسانيّ يحمل اسمي وقبري، طرد بريديّ وميت يتناولان الطعام، يحدّقان، يضحكان، يَصْفُران، ويُحبّان هنا وهناك. ويبدو لي أنّ العالم كان يعيش حولي صيرورته، وأنا هاجع فيَّ، موقناً من أنّني كنت. ولعلّ الذكريات التي أروي هي الزيَن التي مايزال يُزوَّق بها جثماني، فماأكتب لايمكن أن يفيد أحداً سوى جثماني أنا المغتال بصورة مؤكّدة على يد الكنيسة الكاثوليكية، والذي ستنطق الوثنية بتقريظه برقّة. «لمَ الكلام عن هذه الثورة؟» هي أيضاً شبيهة بدفنٍ طويل الأمد تبعتُ أنا موكبه من بعيد لبعيد. والمسيرات المتقاربة والطويلة إلى حدّما قمتُ بها في ١٩٧٠ و١٩٧١ وحتى في ١٩٧٢، في الأردنّ. في سنّ السّتين، استعادت يداي وقدماي خفّتهما، وصارت أصابعي قادرة من جديد على أن تتشبّث بضمّة عشبٍ في ردمٍ، وعلى أن تُوازن، بجسمي الذي كنت أريده مجرّداً من الجاذبية، انعدامَ الأمان في الحصباء التي كانت قدمي تستند إليها. كنت أرتفع بفضل هشاشة ضمّة العشب. وأتسلّق بمثْلِ سرعة الفدائيين الذين كنت أرفض يدهم الممدوة لي، لدى الوصول الى الهضبة منزوعة الأشجار التي نتطلّع مِن عليها الى أريحا.

ـ أسرعْ، إنّها أنوار أريحا.

كان أحدهم، وقد قفز أسرع منّي، يريني، في ماوراء الشّعب الذي يجري فيه نهر الأردنّ، أنواراً كان بعضها متحرّكاً.

ـ ولدتُ هناك.

كان انفعاله يستحقّ صمتي. فيما بعد عرفتُ أنّه، في مواجهة عجلون، لايمكن أن يُرى في الليل سوى هذه الأنوار، أنوار نابلس.

هل تتذكرون عُمَر، الفدائيّ الشابّ الذي كان يترجم لي بالفرنسية مايشبه المحاضرة المناصرة للفلسطينيين، التي كانت تلقيها المزارعة في عجلون؟ هو ابن الضابط العثمانيّ السابق، من عائلة النابلسيّ. التقيتُه ثانيةً في درعة. في عدم تهذيبٍ، لم أسأله عن أخبار أبيه وإنّما عن أخبار فرج؟

ـ أعتقد أنّه صارَ أقلّ ماركسيةً بعدَما تزوّج.

ـ هل زوجته فلسطينية؟

ـ بالطبع. كان، في مايتعلق بالنساء، أممياً، لكن عندما يتعلق الأمر باختيار زوجة تهبه أبناءاً، فهو مثلنا جميعاً وطنيّ بصورة مرَضيّة مادام عربياً.

لكن هل مابرحتم تتذكرون فرج، المسؤول عن الفدائيين، الذي كان محاوري المفضّل – الأثير – في ليلتي الأولى في عجلون؟

ومع ذلك، فلدى رؤيتي عمر، ماكنتُ أفكّر بفرج وإنّما بالعريف الأسود الذي أمر بأن يُحضروا لي عشاءاً قبل حلول الافطار في رمضان وأعطى فضلة طعامي لمقاتلَين. إنّ هذا الرجل وتصرّفه قد أحلاّ فيَّ ضِيقاً، غثياناً لاأستطيع منه فكاكاً. وصفتُ ماحدثَ لعمر:

ـ لقد مات أبو طالب، صرعتْه ولاشكّ رصاصة أردنية. ونحن إنّما نقوم بالثورة حتى لاتُتَوارَث عقلية أبي طالب.

ـ ماالعلاقة؟

ـ كان حفيداً أو ابناً لأحفاد عبيد سودانيين. صنعت منه «فتح» رئيس عرفاء. كان مسلماً، يؤدي الفرائض، ولاياكل قبل طلوع القمر. لكن بالنسبة إليه، وهو سليل عبدٍ، وبالرغم من رتبته، كنتَ أنتَ الضيف. كان ينبغي أن تكون أوّل من يُقدّم له الطعام، وبالتالي لكَ وحدك. بعدك، يتقاسم الفدائيون البسطاء فضلة طعامك.

ـ هل كان يرى في الفدائيين خدماً؟

ـ ثمة شيء من هذا. كانوا خدماً مادام يقودهم. ثمّ إنّ هذا الحادث الصغير كان له، وهذا مالم تعرفه أنت، أصداء رهيبة في القاعدة. فالفدائيّان اللذان تناولا الطعام بعدكَ أدركا حرجك. وقد ضايقا قليلاً أبا طالب، الذي رأى في ذلك شيئاً من العنصرية.

ـ هل التمييز العنصريّ قائم في «فتح»؟

ـ لابهذا الشكل. لايُقام، نظرياً، أيّ تمييز بحسب لون البشرة، أو الديانة، أو الأصل الاجتماعيّ، لكن أيّة تربية كان علينا ان نتلقّى حتى نبلغ هذا الطور؟ يعدّ والدي نفسه ارستقراطيّاً، وشقيقي في المانيا ايضاً...

وهي اللحظة التي أدركت فيها عدم دماثتي.

ـ كيف هي حال ابيك؟

ـ لاباس بالنسبة الى شيخ. يواصل العيش في عالمه الخاصّ.

ـ تقصد؟

ـ أدركتَ ولاريبَ في عيد ميلاده انّه يجهر بانتمائه الى فرنسا القديمة، ممثّلاً لدى السلطان التركيّ فرنسا مشعل العالَم. عالَمه هو.

ـ يحبّ پيير لوتي. لكن لم أعرف شيئاً عن نساء السيّد مصطفى مادمت أجهل وجودهنّ، ومع ذلك فقد كان يذكرهنّ بمثل هذا التكرار بحيث فهمت انّه يستخدمهنّ كدرعٍ، أو كواقية ضدّ الرصاص. ماكان بالطبع يخشى عملية اغتيال، وإنّما الابانة عن جرحٍ يكشف لي عنه من فرط مايُلحف في التستّر عليه.

ـ لأنّه كان يحمل عقلية جيله نوعاًما، وخصوصاً لأنّه كان ضابط بحرية. لقد عرف والدي أتاتورك وإينونو وهتلر وريبنتروب وفرانشيه ديسپيري وليوتي. وسيموت وسطَ صِيَغه. لاحظتَ بعضاً منها: «مراتب الشرق» و«الغرب المسيحيّ» و«فضيلة البسطاء» التي يستخدمها بمعنى فضيلة خفيفي العقل عندما يتحدث عن ندُل المقاهي، و«مدرسة الاسكندرية» و«سيف الاسلام» لتسمية نابُليون، و«طرق الحرير».

ـ إجمالاً، انت لاتعبأ بابيك.

ـ إطلاقاً. عندما رأيتَني، حدّثتَني عن فرج وأبي طالب، لاعن أبي. عن فرج، أعرف السبب، لكن لمَ عن أبي طالب؟

ـ ماتعرف عن فرج؟

ـ في المساء الأول، لم تتكلم الاّ معه، وله هو وحده، هوَ قال لي ذلك.

ـ للضحك، أكيداً؟

تردّد عمر، ثمّ، وعيناه في عينيّ مباشرةً:

ـ ربّما قليلاً. لكنْ بتأثر أيضاً. على المرء أن يتصرّف بسرعة عندما يكون الموت راكضاً في أعقابه. لقد أحبّ أحدكما الآخرَ طوال ليلة، بالنظرات والنكات وحدها، وسيتذكر هو ذلك الى الأبد.

أن تكون العنصرية مستمرّة في «فتح»، ولو مخفيّة بحذقٍ في رهافاتٍ بالغة الالحاح، فإنّ إيضاح عمر هذا، على بساطته، قد بدّد الضيق الذي كنت أشعر به عندما أتذكّر ذلك العشاء.

وسرعان ماتراءت لي مفردة «العنصرية» في ضوء جديد، تراءت لي حقّاً، عاديّة وفي الأوان ذاته قاتلة، وأكثر قدرة على القتل بقدرما تصبح عاديّة. ماتزال السيّدة «غ.» تقيم في جادّة «فوش» بباريس. كانت هذه السيّدة الموسرة تدافع عن الجزائريين، إبّان حرب الجزائر، عن كبيرِ قناعة. وكان الارهابيّون بالذات يوثّرون فيها.

ـ إنّ أكبر إجحاف نرتكبه بحقّهم، كانت تقول، هو أنْ نعتبرهم مختلفين عنّا لأنّ لديهم عاداتٍ مختلفة. يقود الانجليز سيّاراتهم في الاتجاه المعاكس، الاتجاه المعاكس بالنسبة إلينا، نحن الفرنسيين (أتذكّر أنّها كانت لاتنسى أبداً التذكير بانتمائها الى هذه البلاد).

وكانت سيّدة أخرى، أكثر ريفيّة من السابقة، تحسب أنّها تذهب أبعد...

ـ أنا يهودية. أعرف ماهي العنصرية. وعلى الرغم من قرارات الفاتيكان الثاني الرسميّة، فالمسيحيون مايزالون يعتبروننا قاتلي الربّ. ولن تغفر المسيحية للاسلام منافسته إيّاها، خصوصاً في أفريقيا. وفي آسيا. إنّ كلّ عنصرية لَمُدانة.

ولكنّ السيّدات الحقيقيّات ربّما كنّ أولاء اللواتي يُؤْثرنَ المفردة «آسيويّ» على كلّ مفردة أخرى... فالمفردة تبدو وهي تدلّ على أنّهن قرأنَ مونتسكيو، أي أنّ شيئاً من الأرستقراطية يحملهنّ، بفضل ذلك، إلى تلك الأصقاع الروحية التي ماعادت لتتمتّع بعُمرٍ، وفي الأوان ذاته فالمفردة «آسيويّ» ترنّ كغنيمة محقّقة على «الهون» و«الزمرة الذهبية» (٥٣) وأهل الشرق الأقصى أنفسهم. كانت الآنسة «ب...» تنطق حتى اسم الآسيويّ بتحقير (٥٤).

ـ ماالاسلام بشيء بالمقارنة بهم، فقد جاؤونا ببوذا قبل يسوع بخمسة قرون. فكيف نقبل، لتحديدهم، بمفردة «البربريّ»؟ وبالعنصرية؟ وبمفهوم العنصرية؟

الحال، إنّ السيّدة «غ.» متزوّجة من ملاّك كبير فرنسيّ، مطرود من الجزائر. وأبو هذه الريفيّة، وكان قائد فرقة، أمضى أعوامه القياديّة في المستعمرات. أما عائلة الآنسة «ب...»، فكانت تملك آلاف الهيكتارات في الهند الصينيّة [ڤيتنام الحاليّة] قبل استقلالها. وكانت هذه الأخيرة التي اتحدث عنها طيبة حقاً مع أبناء العالم الثالث، وتضع على قدم المساواة، وبصورة ديموقراطيّة، الخادمَ الهنديّ والمهراجا.

ماكانت هذه النساء الثلاث يعرفن بعضهنّ البعض، ولكنهنّ جميعاً كنّ ينسين، في تعريف العنصرية، مفردة: تلكم هي «الازدراء»، وماينجم عنه. قال لي عمر، الذي طرحت عليه هذه الأمثلة الثلاثة:

ـ كلامك لايدهشني. هنا (تقع درعة، حيث كنّا، في سوريا، وكان يقصد الأردن)، يستخدم جميع الأردنيين، فقراء أو موسرين، المفردة البرتغالية «كومپرادورس» [التجّار، وحرفياً: المشترون]. وإنّ الجميع يعزون مآسي العالم العربيّ لاإلى «الكومپرادورس» الذين كنّاهم نحن جميعاً، وإنّما إلى المفردة بالذات. صارت الكلمة مشينة، ونحن نُقصيها بان نحيلها الى الآخرين غير المحدّدين. وقد اجتمعت سيّداتك الفرنسيّات الثلاث ليهبنَ العنصرية تعريفاً بُترَ منه الازدراء. وإلاّ، فمانتيجة ذلك بالنسبة إليهنّ؟ إذا كانت العنصريّة تعني كلّ امريء يرى في الانسان المسخَّر إنساناً متدنياً يقدر هو أن يزدريه، فهو سيزدريه أكثر فأكثر ليستغلّه أكثر فأكثر ليزدريه ويستغلّه أكثر، وهكذا دواليك إلى مالانهاية له.

سقط عمر صريعَ رصاص السوريين في تلّ الزعتر. والجملة الأخيرة التي تركها لي هي تقريباً التالية:

ـ إجمالاً، من دون أن تعرف سيّداتك الفرنسيات الثلاث بعضهنّ البعض، فهنّ قد اجتمعنَ لينقّبنَ في الفكرة البسيطة مع ذلك، لكن التي تَعذر فيها الفوائدُ زلّةَ اللسان، وبهذه الآصرة التحمنَ إحداهنّ بالاخريَين: عبرَ ثلاثة أعمارٍ، الامتناع نفسه عن النطق بالمفردة المحرّمة.

لايمكن لإجابة عنجهيّة أن تخفي مانحسّ به من متعة. وعندما كنت التقي مبارك، فهو

كان، مهما أريتُه من الجفاء، يستغرق في افتتاني حتى وقوفاً. كان يضحك، ضحكاً حلْقياً يذكّرني بضحك [علياء] الصلح تجلب به الأنظار الى عقدها من طراز ڤينوس.

ـ أنا أيضاً أعرف الأدب الفرنسيّ. بل حتى السورياليّين: بودلير، ڤينيي، دو موسيه، وسواهم [كذا!].

ماكان لمثل هذه الوقاحة أن تزعجني. تحتَ إهاب الضابط، كنت أكتشف، بانسحار، الفتى السوقيّ. ومابرحت أتساءل إذا لم يكن يفوز في الامتحانات بفضل أخطائه. لكن لابدّ أنّه كان يعرف بضعة أسرار.

ـ هل يخالطك الانطباع بانّ العنصرية قائمة لدى الفلسطينيين؟ أنتَ زنجيّ...

ـ طبعاً.

ـ طبعاً، ماذا؟

ـ العنصرية هنا قائمة. أنا زنجيّ ولكنّني نظيف، فاظافري مثلاً ورديّة، وأظافرك، أنت، غير منظّفة أبداً، هي سوداء، كأنّك في حِداد، لكنّه سواد آخر سوى سواد بشرتي. وبالنسبة الى العنصرية، هوَذا مايحدث. أغلب الضباط الفلسطينيين بيض البشرة، وقد اكتشفوا علوم الحرب الجادّة عن عهد قريب. أمّا أنا، فمن البديهيّ [في نظرهم] أنّني تلقيتها في أوربا، مادامت أفريقيا تعني لهم قارة متوحّشة. وهم يحسبون أنّني أصارع اللحم الحيّ بأنيابي. إلاّ في أقطار المغرب.

ـ هل أنتَ مسلم منذ زمن بعيد؟

ـ أنا مسلم منذ ولادتي، ومختون، هل تريد إلقاء نظرة؟ كان أحد أجداد أبي إحيائيّاً. عائلتي ثلاثة أثلاث: مسلمون وإحيائيون ومسيحيّون. ثلاثة أثلاثٍ تتبادل الازدراء.

ـ وهل هم جميعاً بِمثل سوادك؟

ـ تقريباً.

رويتُ عليه حادث العشاء الذي أداره أبو طالب. بعد تفكير، بالكاد:

ـ هل تساءلتَ لمَ أسعى إلى ملاقاتك والكلام معك بهذه الكثرة؟

ـ كلاّ.

ـ لأنّني أفتنُك. أنت الوحيد. الضباط الآخرون يرون فيَّ مشبوهاً، والفدائيون زنجياً.

ـ لاأحد يزدريك؟

ـ أنا بالنسبة إليهم غير موجود. هل تريد ان أبوح لك بشيء: عبرَ الذكاء وحده، الوجود مرفوض عنّا. لانعرف وجوداً إلاّ بفضل الفتنة التي يمكن ان نمارس عليكم. وأنت من هؤلاء. امّا طبيعة هذا الفتنة، فتعرفها.

ـ لم أفتَتِن بأبي طالب أبداً.

ـ إذا كان سودانياً، فربّما كان حسّاساً. باستقباله إيّاكَ بامتيازٍ، كان بصورة من الصور ينتقم من الفظاظات الصغيرة التي يبادله إيّاها الفدائيون بيض البشرة، وكان يحسب انّه يشكرك. لكن لاتكلّمني عن لوني. به وبعضلاتي افتِنُ، وانا احبّ ذلك، لكنّني افضّل الاّ يُصرِّح بأيّ شيء. هل انت سعيد لوجودك بين الفلسطينيين؟

ـ جداً.

ـ الجنود الاسرائيليون فتيان. هل ستكون سعيداً مع «التصاهال»؟ إذاما ذهبتَ بينهم، فانا أعتقد انّهم سيكونون معكَ جدّ طيّبين.

ـ حتى إذا وجدتَني ابيض، فانا مثلك، أُفضّل الاّ يُصرِّح بأيّ شيء.

كنّا نقارب في الغالب حلولاً واكتشافاتٍ هي بمثل هذه البساطة، بديهية ومتفاداة مع ذلك في اللحظة الأخيرة، كمن يتفادى في الليلِ هاوية ويندهش لدى شروق الشمس. كما في عمّان، قرب مكتب الأبحاث الفلسطينية، عندما حمى فدائيٌ بيده زهرة كان فرنسيٌّ قد دسّها، على سبيل اللعب، بين بيريّته واذنه. ولقد تكشّفَ لي انّ نضال الفلسطينيين يترافق بحماية تخييلٍ، وانّ هذا سيؤذيهم، وماكنتُ لأرى فيه لا ضعفاً ولاقوّة؛ بل هُنا عرفتُ انّ كلّ شيء سيَغرق. من قبل، كان لفّ ثوب «الساري» في النيبال قد فتحَ عينيّ على حقيقة، ولكنني كنتُ مازال اراها عبر زجاج شفّاف، وصارت هذه الحقيقة جليّة عندما راح باكستانيٌّ، في حمّام بخاريّ، يفتح عصابةً طويلة وناصعة البيضاء من نسيج الكتّان، وأدركتُ البديهية التي كانت لامستْني: إنّه ثوب المسيح الذي طالما حدّثوني عنه، الثوب المجرّد من كلّ خياطة.

فيما كنتُ افكّر بعزلتي وحدها، وثبتْ عزلة مبارك الى حلقومي. فلئن كان يحمل هنا بزهوٍ لونه ووسمَه الشعائريّ، فلأنّ هذه كانت تشكّل هنا علامات على الفرادة، أي على

العزلة، عزلة ماكانت لتكفّ قليلاً الاّ بقُربي.

ـ لاتقدر أن تعرف الى ايّ حدّ يقرفونني بثورة ستعيد لهم البيت الصغير، والجُنَينة الصغيرة، وأصص الزهر الصغيرة، والمقبرة الصغيرة، هذا كلّه المحوَّل الى ذرور من قبل الرقّاشات والحفّارات الاسرائيلية.

لم أُعدْ تسجيل محاوراتي مع عمر ومبارك بأمانة حرفيّة، بل أحاول أن أعيد، بفضل بعض الملحوظات المدوّنة، وأكثر من ذلك بفضل الذكريات، قولَ نبر صوتهما والخطّ العامّ لإهابهما، لكن لاأدري إذا كان الرجال الذين أحاول وصفهم يستوقفونكم كما استوقفوني.

مجرّد ذكرى: ممرضة شابّة تُناوب في الاشراف على مستشفى مخيّم غزّة الصغير. في الحجرة الوحيدة للأطباء والمرضى، ثمانية أسرّة. كان الدكتور دييتر يرقد في سرير، وفي سرير ثانٍ ممرّض ألمانيّ، وكان سرير ثالث محجوزاً لمريض طارىء، أو مسافر مارّ، ولذا فغالباً ماكنتُ أنا أرقد فيه. وكانت نبيلة ترقد أحياناً في السرير المجاور لسريري. تفهمون طبعاً أنّها من نوع أسرّة مستشفى ميدان، شبيهة بالأحرى بمتاريس. وكانت الأسرّة الأخرى، التي يشغلها مصابون بجراح خطيرة، مصفوفة في المواجهة، وفي عمق الصالة كان نوع من مخدع ضخم، بل سرير ذو قبّة، محجوباً بأربعة اغطية، ثلاثة منها خيطَ بعضها ببعض لتشكل ثلاثة جدران ـ إذِ الرابع هو جدار الحجرة نفسه ـ ويشكل غطاءٌ أخيرٌ السقفَ أو، إذا شئتم، الظلّة. كان السائد هو المخاطبة بلاكلفة [بـ «أنت»، لا «أنتم» التفخيمية]، إلاّ إذا ماتحدثنا بالانجليزية طبعاً، لكن عندما أكون هنا، فإنّ نبيلة والدكتور دييتر والممرّض الألمانيّ والممرضة الألمانية والفريدو يتكلمون بالفرنسية. وبين الفينة والفينة، كان تشخيصٌ يُضاف بالالمانية أو الانجليزية أو العربية. وكانت ممرضة دييتر الألمانية تتعلم العربية. وصلتْ إلى الأردن نحو ١٩٦٩. وكانت هي المستيقظ الأول، تراها في كلّ صباح في صالة المراجعين، توزّع على جميع مرضى المخيّم مهدّئات هيّنة: أسبرين، مشروب ضدّ السعال، مَراهم... ثمّ يأتي الدكتور دييتر للفحص. ولقد أقنع الفدائيين وضباطهم، إنّما بمشقّة، بأن يمرّ المقاتلون المصابون بجراح بسيطة بعد المدنيّين المريضين جداً.

كنّا نرقد كما يأتي: ننزع الأحذية محتفظين بملابسنا علينا ونتمدّد على أسرّة الميدان مع غطاء أو اثنين. كان الرجال والنساء يرقدون على الشاكلة نفسها، إلاّ الممرضة الألمانية التي ماإن يحلّ المساء، وبعد تنظيف أوانيها وإغلاق كتاب تعلّم العربيّة، تقول لنا «مساء الخير» بالألمانية وتندسّ في ذلك المخدع، تحت الظلّة التي تكلّمتُ عنها. لاأحد كان يطرح أسئلة،

ربّما لأنّ الجميع، إلّايَ، خمّنوا الأمر. قلت لدييتر:

ـ لكن لم هذه التمثيلية، لمَ هذا الصرْح؟

أجابني بصوت خفيض:

ـ إنّها تصلّي. هي متديّنة لها الحقّ في عدم ارتداء ملابس ملّتها. وهي ترتديها لتنام وتصلّي.

كانت هذه الممارسات تبدو لي غريبة، فاروح أُقارنها بالقُبَل التي أعطاها رئيس القبيلة المزيّفة لأعيانها.

ـ إنّها تصلّي.

ـ أنتَ لم تكن هنا قبل عشرة أيّام. ففي عزّ الليل، أطلقتْ صرخة رهيبة. وسردتْ علينا ماحدثَ: لم تكن غافية بعد، وكانت يدها تتدلى خارج السرير، الواطيء كما تعرف، وإذا بأصابعها تلامس كرة من الشعر تتحرك. فصرخَتْ.

ـ أكانت تحلم؟

ـ كان ذلك رأس مريض يزحف في اتّجاهها على أربع، في عزّ الليل...

ـ ليغتصبها؟

ـ إنّها تحمل في كلّ مساء من المستوصف قنينتَي الكحول بتسعين درجة. كانت في البدء تقفل على القنّينتين بمفاتيح. ومع ذلك فقد كان الجرحى يفتحون الخزانة، فتجدهما في الصباح فارغتين والمقاتلين، المايزالون ثملِين، عصيّين على الايقاظ. فصارت تحملهما الى حجرتها، ماتدعوه هي بحُجرتها.

ـ وبعدَ ليلة الصراخ؟

ـ صار المسؤول السياسيّ عن المخيّم يأتي في كلّ مساء لأخذ القنّينتين. هو مسلم متشدّد. لايشرب.

ماكانت «الأخت» شديدة التفاني في العناية اليومية فحسب، بل كانت ترافق الدكتور دييتر عندما يذهب لمعالجة الفلسطينيين المتعرّضين للضرب من قبل الشرطة الأردنية في مخيّم «البقعة». ولقد تعرّضت للشتم والصفع لأنّها تعالج السكان الفلسطينيين، وأخيراً فَستُسجَن

في عمّان، ويفلح سفير المانيا الغربية في تحقيق عودتها الى ديرها في ميونيخ.

لاأحد كان يعتقد انّ المقاومة تعرّضت لجراح مميتة، إلاّ إنّ بعض العلامات كانت تُفهمنا أنّها نزفت الكثير من الدماء. كنّا ندرك ذلك من الطوابير الطويلة من المرضى بدون إصابات قابلة للتشخيص، يأتون الى المستشفى ليثبتوا لأنفسهم أنّهم ليسوا بحاجة إلاّ لقرصٍ بسيط ليعودوا فاتحين. أحياناً، كانت نصيحة بسيطة من الدكتور ديبتر تكفي:

ـ لاتبقَ ممدّداً لفترة طويلة. تَنزّهْ.

لاأحد كان يبين عن أعراض أخرى سوى ثبوط العزيمة.

ـ رأيت الشيء نفسه عندما غادرتُ بيافرا [نايجيريا]، يقول لي الدكتور ديبتر.

ذات صباح، قبل رحيلي، قالت لي الممرضة الألمانية وهي تقهقه:

ـ أنظر كيف تصرّفوا: أوّلاً قِمعي للخياطة، الذي سرقوه، يملؤونه بالكحول بتسعين درجة ويشرب كلّ واحد محتوى القِمع. دائماً بكامل المساواة. وفي الصباح هم جميعاً سكارى حتى الثمالة.

ومازال تضحك.

ـ هل تفرض عليك ملّتك أنسجة معيّنة، أو الواناً معيّنة؟

ـ دائماً الأسود، وتنصح بالغامق عموماً. وهي لاتفرض سوى شيء: كعب واطيء. والملّة على صواب، فمع كعاب واطئة، نكون خادماتٍ بحقّ.

ـ هل حدثَ أن حملتِ أحذية بكعبٍ عالٍ؟

ـ بالطبع.

ـ متى؟

ـ ! Ach Mein Gott [بالألمانيّة: «آه ياإلهي !»] في الدّير، أمام سيّدي. كنت، في مسرحية، ماجدلينا، وكعباي من العلوّ بحيث أصابني الدوار. ماكنت لأقدر لاعلى الكلام ولاعلى الحركة. ابصرَ يسوع اضطرابي، فاتاني بكرسيّ. حسبتُ، لحسن الحظّ، أنّني سأموت.

لم يُعرَف ايّ شيء ملموس عن موت أبي عمر، سوى ماياتي، والذي يظلّ مع ذلك غير

ذي يقين: كان يريد الذهاب الى طرابلس عبر البحر، فاستأجر هو وثمانية مقاتلين قارباً. في عرض البحر، وفي خطّ طولٍ غير معروف، أسرتهم سفينة سورية بحسب الرواية الأولى؛ اقتيدوا الى السجن في دمشق وهناك أبيدوا؛ الرواية الأخرى تفيد أنّ القارب أغرقتْه عبوة سورية، وأنّهم ماتوا في الليلة نفسها غرقاً. أو كذلك: إعتقلهم السوريّون وسلّموهم الى الكتائبيين الذين قتلوهم. إنّ أشياء عديدة تظلّ مفاجئة: تعدّد الروايات، وغياب الشهود، والصمت؛ وكذلك، وكما بدا لي، حرج المسؤولين. ثمانية مقاتلين وأبو عمر، هذا يعني تسعة. الاسم الحقيقيّ لأبي عمر معروف: «حنّا». ومثلما بقي اسم «السّيد» (٥٥) في الذاكرة، تعرّضَ اسم «الأبرص» للنسيان الأبديّ، وهو الذي يوهب مع ذلك في بدايته حرفاً كبيراً le Lépreux يبدو كافياً لتحقيق هويّته. وإنّ كونه وفّرَ لـ«السّيد» المناسبة لإبداء نبالة نفسه إذْ وهبه قبلة ظلّت رشفتها ترنّ واجتازت التاريخ والمسرح الكلاسيكيّ والشعر والرواية ووصلت حتى مدارس جيلنا، لايستحقّ أكثر. والثورة الفلسطينية زاخرة بالأشخاص الغفل الذين صنعوها، ولأنّنا ماعدنا نحظى بالمناسبة لمناداة هؤلاء، فنحن نكفّ عن التعليق على أفعالهم، ناسين وجوههم وأسماءهم المستبعَدة. تظلّ بعض الوقائع التي كانوا هم أبطالها. وليس من المتعذّر أن تُعزى هذه الأفعال ذات يومٍ الى آخرين. وإنّ القرار المتّخذ بالوصل في عزّ الحرب بين بيروت وطرابلس عبر البحر والليل الكالحين، والموت هناك تحت نيران الرشاشات، هذا كلّه قد يزيّن نهاية مُحارب عاش قبل عشرين سنة أو سيموت بعدَ ثلاثين. عرفتُ أبا عمر كما يأتي: بعدما هتفتُ له قائلاً له إنّني سآتي الى عمّان عن طريق درعة، رحّب بي وضربَ لي موعداً للغد في مدخل فندق عمّان. وصلت فيما كان نازلاً من غرفته.

ـ تعال لتشرب معي فنجان قهوة.

كان البار مغلقاً.

ـ نسيت، إنّ شهر رمضان يبدأ هذا الصباح. أين نذهب لشرب القهوة؟

أفهَمني اندهاشه أنّه كان مسيحيّاً. فلسطينيّ مسيحيّ. لايُبدلَن أحدٌ ترتيب هاتين المفردتين. والجملة الأخيرة التي سأحتفظ بها منه:

ـ عندما اجتاح السوريون لبنان، أعلنّا، نحن الفلسطينيّين، الحربَ عليهم.

في الاستيلاء العسير جداً على تلّ الزعتر، يبدو أنّ السوريين كانوا يعملون تحت إشراف اختصاصيين اسرائيليين، أو مراقبتهم بأيّة حال. ولقد تعرّض تقدّم القوات السورية الى لبنان للتأخير لكن لا للايقاف. وصلتُ الى صيدا. وهنا، ولأوّل مرّة، بانت للعيان شخصية أبي

عمر، وربّما كان، هو ومسؤولون آخرون، منهم عرفات، اكتشفوا اللعبة السوريّة.

هوذا ماقاله لي مبارك بعدما تحدّث معه طويلاً نوعاًما لأوّل مرّة:

ـ جميع نشاطاته [أي أبي عمر] الثورية تنحلّ الى تحليلات لدوافع أنْ يكون المرء ثوريّاً، وعندما يصبح ثورياً، فللمواقف الواجب اتّخاذها. معه، تملّكني الانطباع في انّني لستُ سوى الوعاء المؤقت لمشاغله الثورية. هذا واحد من وجوهه، وربّما كان مؤقتاً، اما الوجه الآخر فنشاطه الى جانب عرفات ومسؤولين آخرين في اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

قيلَ لي إنّه هوَ، أو أبو موسى وحده بحسب أصوات أخرى، مَن نصحَ باستقبال المدرّعات السوريّة في صيدا بدماثة، من مركز المدينة حتى الثكنة التي هُيّيء فناؤها من اجلها. هكذا اقتيد الجنود السوريّون ودبّاباتهم حتّى الثكنة، دَهشين إنّما مغويّين بالاستقبال شديد الحفاوة الذي خصّهم به الفدائيون. وعندما اصطفّت ستّ وثلاثون دبّابة وكان طاقم كلّ منها على أهبة صعود بُرَيج الدبابة، انفجرت الدبابات وطواقمها.

«عزلة رائعة»: إنّ هذا التعبير الذي يحدّد لوحده المملكة البريطانية المتّحدة ويَصفها بفذاذة لَيفرض نفسه عندما نتحدث عن الثورة الفلسطينية في الأعوام ٧٠-٧١-٧٢-١٩٧٣ ومايليها. ماعُرِفَ عنها في الصحف والاذاعات من قصص تفخيمية، طريفة، قينيّة ومؤثّرة، كان في خاتمة المطاف قصصاً موجّهة لدعم اسرائيل وحسين والديموقراطية الغربية، لامنظمة التحرير الفلسطينية. كان يُنشَغَلُ بها، أو بالأحرى أنّها شغلت بعض الشيء أعينَ نفرٍ من القرّاء، الاّ إنّ الثورة، هذا الجسم الحيّ، كانت تنمو لوحدها بالرغم من الدعم المعتدل من قبل الاتحاد السوڤياتيّ والصين وجزائر بومدين، والمساندة الظاهرية من لدن الدول العربية – استثناء الدعم الماليّ من الملك فيصل آل سعود، وكذلك باستثناء تفاني أطباء العالَم أجمع وممرضّيه، وقانونيّيه ومحاميه، عديمي الحيلة اغلب الأحايين، وانا افكّر بما كان يُرسَل من أدوية جدّ عتيقة، ذرور بلامفعول، أي بلا جدوى، بل خطير أحياناً، نافل، مُعيق، «أدوية» كان صيدلانيّون ساخرون يُلقون بها على الهلال الأحمر الفلسطينيّ. في وسط هذا الهرج، بقيت الثورة معزولة، جسماً كاملاً، مع أعضائه الداخلية شبه غير المرئية، جسماً ماكان نتاجَ تجميع أجسام الفلسطينيين وإنّما ثمرة أحداث. كانت حركة الدم فيه بطيئة، وكذلك حركة الجسم نفسه، من معركة الى أخرى، ومن هزيمة عسكرية الى سواها، هزائم تدعوها صحف أوربا بصورة ساخرة «انتصارات سياسية أو دبلوماسية»، هزائم فعلية للجسم الذاهب من الأردن الى الضفة الغربية أو العكس، مجتازاً سوريا صوبَ لبنان، مترنّحاً تحت الاجتياح السوريّ للبنان،

غيرَ مقضيّ عليه بعدُ رغم بيروت وشاتيلا، ولاهوَ بالمقبور في طرابلس الشرق. في وجه جميع هؤلاء الأعداء الذين يودّون تصفيته، كان الجسم مابرحَ ينهض. ثمّة آركيولوجيا (علم آثار) للمقاومة التي صارت ثورة في الثلاثينيّات. كانت فتيّة. ولئن كان من اليسير مساعدة الثوريين، فمن المتعذّر أن يصبح [غير الفلسطيني] فلسطينياً: إنّ العزلة لرائعة لأنّها طبيعة هذه الثورة بالذات. وبمساعدة الأقطار العربية، تريد أمريكا استئصالها.

أشرتُ في العبارات السابقة الى اجتياح سوريا للبنان في ١٩٧٦. مَن يتذكّر ذلك؟ وتلّ الزعتر؟ من دمشق، نزلت قوّات حافظ الأسد، المسلم العلويّ الذي توسّله المسيحيّ بيار الجميل، منحدرات سلسلة جبال لبنان الشرقيّة، وانزلقت حتى صيدا، التي كان عقيد فلسطينيّ يحامي عنها لحسن الحظّ. لقد عُرضَت خطّته على قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت طرق عديدة آتية من الشمال والشرق تلتقي عند صيدا. فأُغلقتْ جميع الطرق، ماعدا طريق واحدة انتهجتها مدرعات الهجوم السورية، التي انطلقت أماماً نحو الشكنة، وتوقّفت أمامها، ومع وصول الدبابة الأخيرة، انفجرت جميعاً في اللحظة ذاتها. يُقال إنّها كانت تتراوح بين اثنتين وثلاثين وستّ وثلاثين. وكان أبو عمر هو مَن عرضَ خطّة الدفاع عن صيدا على منظمة التحرير الفلسطينية. ويظلّ العقيد أبو موسى هو واضعها. وهو اليوم قائد المنشقّين عن «فتح»، وصديق حافظ الأسد. ضدّ عرفات.

حَسبْنا، أنا ومحمود الهمشري الذي كان عائداً من سوريا في يوم انقلاب حافظ الأسد، أنّ الدبابات [السوريّة] ستدخل في الأردن لإنجاد الفدائيين، مثلما اجتازت دبابات عراقية، كما عرفتُ فيما بعدُ، الحدودَ وأعادت في اليوم التالي اجتيازها في الاتجاه المعاكس بلا جدوى. اليوم، تفسّر دمشق وبغداد مظهرهما العدوانيّ ليوم واحد وتراجعهما في اليوم التالي بالامتثال للاتحاد السوفياتيّ، مثلما يفسّر الملك حسين في هذه الأيام مقاتلته الفدائيين بالقول إنّ اسرائيل كانت لولا ذاك ستحتلّ الأردنّ. قبل أيام، طرحتُ أيضاً السؤال على صديق للملك حسين:

ـ بالفعل، تلقّى الملك رسالة تهديد من غولدا مائير.

والسؤال نفسه كنتُ طرحتُه على دبلوماسيّ في عمّان يومذاك:

ـ إطلاقاً، بل جاءت الأوامر بمحاربة الفلسطينيين من واشنطن ولندن.

تستغرق الرحلة بالسيّارة من عمّان الى دمشق، مروراً بدرعة، ثلاث ساعات أو أربعاً. ذهبتُ الى المعهد الفرنسيّ في دمشق لمراجعة وثائق، ووصلتُ هناك بعدما استجوبتني

وتفرّست بي في العينين ببرودةٍ طوابير من الشرطة؛ لقد اجتزتُ مجموعاتٍ متراصّة من الخيّالة الملتحين كثّي الشوارب يمتطون جياداً صغيرة. هم جبليّون آتون من المناطق المحيطة بحلب، كلّهم مناصرون لحافظ الأسد منذ زمن طويل. رأيتُ ثانيةً الرّكابات الضخمة وبيارق الاسلام الخضراء. كان منزل رئيس الجمهورية الجديد مجاوراً للمعهد الفرنسيّ. وكان منتظراً أن يُلقي الأسد من هناك خطاباً. إستبقاني مدير المعهد للغداء، وبقينا نتحدث ونشرب القهوة طويلاً. غادرتُ. كان الخيّالة، سوى بعضهم، قد انصرفوا، لكن رأيت اثنين منهم قادا جواديهما بصورة غريبة حتى الرصيف الذي كنت سائراً عليه:

ـ ماتفعلان؟ أأنتما مجنونان؟

ـ تتكلّم الفرنسية؟ نحن أيضاً. إنّنا نزيح جوادَينا عن السيارات. لم ترَ الخيول مثلَ هذا العدد من السيارات أبداً. ولذا تستشيط.

ـ من أين أنتما؟

ـ من قرية بعيدة عن حلب، لكن في اتّجاهها.

ـ وتتكلّمان الفرنسية؟

ـ أنا كنت نائب ضابط فرنسياً. ساهمتُ في الانتفاضة ضدّ الدروز وضدّ سلطان الأطرش.

ـ وأنتما آتيان من الجبل لمساندة الأسد؟

ـ بالطبع. هو علويّ مثلنا. هو على الأقلّ سيريحنا من الثوريّين.

ـ ومَن هم؟

ـ الفلسطينيون.

وقعتُ في الفخّ. لكنّ شعوراً قريباً من الحنين كان يفرض عليّ التعاطف مع هذين الخيّالين اللذين كانا بعمري تقريباً، أو يُكبرانني بسنوات قليلة. كانت الركابات المكسورة والمستوية قريبة من كتفي، والجوادان صغيرين، وبنطالا الخيّالين سروالَين عثمانيين عريضَين. سألني أحدهما ماجئتُ أفعل في دمشق. اجبت بالعربية بماهو الحقيقة: أنّني كنتُ جندياً في سوريا عندما كنتُ في الثامنة عشرة وأنّني أعرفُ حلب. في اللحظة ذاتها وكأنّما في وثبة واحدة، هبطا الى الأرض وعانقاني. كان أنذرَني من قبلُ في درعة سائقُ سيّارة أجرة سوريّ

يكره الفلسطينيين، لكنّه لم يقفز من على جواده ليعانقني.

لم يكن جميع السوريّين على مثل هذه الكراهية المعلنة للفلسطينيين، لكن، سواء في دمشق أو اللاذقية أو حمص، لم يدافع عنهم أحد أمامي. وبالطبع، كانت «الصاعقة»، الخاضعة لأوامر الجنرالات السوريين مباشرةً، تفلت من الانتقادات.

كنتُ أشعر بالراحة في سوريا، أكثر ممّا في الأردن بكثير. حتى في ١٩٧١، كانت الدماثة العثمانية ملحوظة. كنت أقدر أن أتحادث لساعاتٍ مع صبّاغ أحذية عجوز لم ينسَ الفرنسية. عن طريقه، وفيما هو جالس على صندوقه الصغير، وأنا على كرسيّ أمامه، كنتُ أعرف تاريخ الأعوام السياسية السورية الثلاثين الأخيرة، أي تاريخ الانقلابات. كانت الأردن القاسية، على قربها، جدّ بعيدة، ويجتازها مع ذلك الفلسطينيون ويسكنونها.

كنتُ، فيما أتطلّع الى وجوه جميع الفلاحين المسلّحين، أخمّن على الفور أنّهم ربّما كانوا فلاحين لامتلاكهم قطعاناً من الخيول. جميع تصرّفاتهم توحي بأنّهم زعماء في جبالهم. طريقتهم في الامساك بيد واحدة باعنّة الخيل وبالبندقية المتأهّبة لرقصة الخيول، واللحى والشوارب، هذا كلّه ماكان ليضفي عليهم الرقّة. ولربّما كان قطّاع الطرق هؤلاء يتساءلون كيف كنت أفلح في العيش من دون جواد ولابندقية. النظرات، ربّما، عندما ينسون أنفسهم؟ لم أرَ فيهم محاربين، وإنّما نوّاب قادة عصابات، من نمط هؤلاء القادة الذين تجد منهم في «فتح» أيضاً: فتياناً يعيشون في الميل الى الشجارات والأسلحة والنهب. في سنّ العشرين، هم سوقيّون بقدرما هم أبطال. وعندما وقّع اللبنانيون على اتفاقية للبقاء في لبنان، كان الكثيرون منهم يأتون من جنوب لبنان لإمضاء بضعة أيّام في بيروت: بيريّات مزيّنة عموماً بشرائط، وسترٍ من الجلد الأسود، وبناطيل «جينز» و[الأحذية العسكريّة العالية] «رانجرز»، وشوارب جديدة وناعمة حتى لقد كنتُ أتساءل كيف لايحمل كلّ مقاتل معه عودَ كُحل. كانت أذرعهم، إذ يحيّونني، تظلّ مستقيمة، على امتداد الجسم، وحدها اليد اليمنى ترتفع كاشفةً عن راحتها. ولقد هجرَ بعضهم عرفات من أجل أبي موسى في ١٩٨٢.

هوذا كيفَ هيّأ أبو موسى وأبو عمر فناء الثكنة: ماإن عَلما باقتراب السوريين حتى دفَن أبو عمر، إنّما خفيفاً، أسلاكاً موصولة بأزارز تفجير موصولةً هي الأخرى بالغام غير مرئية بفضل رمل الفناء الذي حدّد شكلَه الهندسيّ وعدد الدبابات موضعَ كلّ دبابة حتى ينفجر الكلّ في آنٍ معاً، الفولاذ والسبائك وذهب أساور المعاصم والساعات والعضلات والغضاريف. كان يكفي الضغطُ على زرٍّ أو قطْعُ فاصل. ثمّ انتشرَ الفدائيون والمسؤولون في الجبل.

سردتُ هذه الحكاية كما رُويَت لي. كان البروفسور أبو عمر في ستانفورد، تلميذاً

لكيسنجر؛ ولقد كشفَ عن براعته التكتيكيّة. ولئن كان هو مَن فكّر بكلّ شيء، فالمنفّذ هو أبو موسى.

المفاصل الخارجية للأصابع، عندما تكون الأخيرة مثنيّة، هذه التي بها نضرب عندما تكون قبضتنا مكوّرة، هذه المفاصل تريك لدى مبارك شقوقاً أو تجاعيد صغيرة، أكثر شحوباً نوعاًما من الجلدة العليا لليد، وعبرَ هذه الشقوق البنفسجية قليلاً كانت تتبدّى لي إنسانية هيَ بمثل انحصارِ قلب خرْنق [صغير الأرنب] خائف، ولقد كانت تجتذبني أكثر ممّا تفعل مفاهيم كالإخاء والعداء للعنصرية والائتلاف في الاختلاف، الخ. وعندما رحتُ، عن غفلة أو طبيعة خرقاء أو حاجة سريّة لأقول مَن كنتُ، أكلّمه عن اصولي كطفلٍ مهجور، فإنّ قبضتيه المغلقتين انعصرَتا أكثر، فزالت شقوق المفاصل، كاشفةً عن جلد القصبات، أملسَ، أسودَ، وبلا أيّة مسحة بنسفجية. هل أثّرت فيه مفردتا «الرعاية الاجتماعيّة»؟ ماكنتُ أتطلّع الى وجهه بل الى اصابعه. كان مبارك يقول لي إنّني أشبه عضواً من عائلته منفيّاً في جيبوتي. هي ذي حكايته:

«عندنا، عندما تلد فتاة زنجية من قبائلنا ابناً لاأب له، تأخذه القبيلة على عاتقها. وكان جنودكم الڤيتناميّون والمدغشقريّون والفرنسيون، وخصوصاً المدغشقريون، ببشرتهم الفاتحة والنحاسية وشعرهم السابل والدهين، يغتصبون فتياتنا اللائي تهجرهنّ القبيلة بعد ذلك هنّ وأبناء الخطيئة، ولقد صنعتم أطفالاً بهذه الكثرة بحيث أنشات فرنسا هناك وإنجلترا هنا (يقصد في السودان) منظمة ممقوتة، ضرباً من مؤسّسة للرعاية الاجتماعية للقطاء مشينين أو يتعذّر الاعتراف بهم لباعثين أو ثلاثة بواعث: لأنّهم لقطاء، وزنوج، ومن فتيات حبلنَ من نوّاب ضبّاط، أي، من جميع الأطراف، أبناء موامس، إنّما تلامذة أذكياء. يتعلّمون الانجليزية والفرنسية والألمانية والعربية، ولقد عرفت انّ لي ابن عمٍّ حلّت عليه اللعنة، نُفِيَ صحبةَ امّه الى جيبوتي.»

لاحظت، من نادرة عرفتها لاحقاً، انّ مبارك ماكان يحدس أنّني كنتُ، فيما يحاول هو أن يروي عليَّ مصير قريبه ذاك، أُدرك انّه ينتقي امثلته وتفاصيله من حياته بالذات. كانت هذه اللعنة قد حلّتْ عليه وعلى امّه. ولئن كان يعتقد انّ أباه كان مدغشقريّاً، فبسبب من شعره الدهين، ثمّ إنّ بشرته كانت أحياناً أكثر نحاسيّة منها سوداء، وأخيراً فعبرَ شتيمة ماكانت تستهدف سوى «البتسيبوكا» [طائفة من سكّان مدغشقر]. أمّا عن نزوح ابن عمّه، فهو نزوحه إنّما في الاتجاه المعاكس: ومن هنا فرنسيته الممتازة. وبباعث من طيش امّه، ربّما كانت الخرطوم شقاءه الخاصّ، فانخرط في الجيش السودانيّ كمَن ينتحر. اروي هذا لأنّ قضية

الفلسطينيين، لاعبي الورق بلا ورق، كانت تحامي عنها أرهاط كانت تبدو في أوربا كتجمّعات هامشيّين، بلا هوية فعلية، ولاآصرة قضائية مثبتة جيداً مع دولة معترف بها، وخصوصاً بلا تراب يعود إليهم بالطبع ويعودون هم أنفسهم إليه، تراب تتوفّر فيه عادةً البراهين: المقابر، والأنصاب التذكارية، وأصول أسماء العائلات، والأساطير، بل حتى، وكما سأعرف لاحقاً: إستراتيجيّون وآيديولوجيّون.

ماجئتُ لأفعل هنا؟ لئن كان في العالَم مصادفات، فاللّه غائب بالتالي عنه، وأنا أدين للصدفة بفرحي على ضفة الأردن. جاءت بي إلى هنا رمية النرد الشهيرة، بالصدفة، تقودني سلسلة من الأمور الشاذّة، ولّما كنتُ فضوليّاً أيضاً، فقد قرّرتُ أنّ أصنع من ذلك ابتهاجي. هل سأرى حمزة ثانيةً؟ لكن هل من الضروريّ بالنسبة إليّ أن أراه ثانيةً؟ لابدّ أنّ أمّه صارت شفّافة، شبه غير مرئيّة، فهل عليّ أن أرى منها، لصالحي أنا، أكثر من أطلال حياة؟ أوَلم تقل لي هي وابنها، وحبّي لهما، كلّ شيء عنّي؟ كانا قد عاشا الثورة الفلسطينية، فمايلزم أكثر؟ لقد قادتْهما ولاشكّ الى التلَف. ولّما كان مؤلّف هذه الحكاية لم يعد بحاجة لهما، فإنّ موتهما لن يمسّني قطّ لو عرفتُ أنّهما ماتا. إنّ رحلة ابي عمر الخاسرة عبرَ البحر، بالرغم من نهايتها المأساويّة، لم تفجعني؛ كانت مفرطة البُعد، ومرويّة بإفراط، اي في النهاية مكتوبة بإفراط. وهكذا، فعن موت هذا أو ذاك، فرج أو محجوب أو مبارك ولاادري مَن أيضاً، هذا كلّه لن أعرف عنه شيئاً، أبداً، سوى أنّهم كانوا عندما رأيتهم، وطالَما كانوا يرونني، ويكلّمونني، والآن هم من البُعد بحيث لاأقدر ان اسمعهم؛ إنّهم بأيّة حالٍ مُقوَّضون.

الحاضر عسيرٌ دوماً. ويُفترَض أن يكون المستقبل أكثر عسراً. الماضي، بل الغائب، معبودٌ، ونحن في الحاضر نحيا. في هذا العالَم المعيش في الحاضر، حملت الثورة الفلسطينية رقّةً كانت تبدو منتمية الى الماضي، الى البعيد، وربّما الى الغياب، لأنّ النعوت التي تحاول وصفها هي التالية: فروسيّة، هشّة، شجاعة، بطولية، رومنسية، صارمة، داهية وماكرة. في أوربا، لايتحدثون الاّ عبر الأرقام. تضمّ صحيفة «لوموند»، في عدد ٣١ من أكتوبر/ تشرين الأوّل، ثلاث صفحاتٍ من الأخبار الماليّة. وماكان الفدائيوّن حتى ليعدوّا أمواتهم.

للمدّة التي تستغرقها ثورة أهميّتها. والفلسطينيّون، المحّملون بالقليل من الأمتعة والكثير من الأطفال، ابصروا الاستقبال البارد من لدن اللبنانيّين والسوريّين والأردنيّين وهو ينضاف الى الشقاء المتمثل في كونهم طُرِدوا من فلسطين في ١٩٤٨، وكذلك إحجام الأقطار العربية عن استخدام جميع الأسلحة الكفيلة بارجاع إسرائيل، أو على الأقلّ إتاحة تقسيم أقلّ

إجحافاً من هذا الذي اقترحته منظمة الأمم المتحدة في ١٩٤٧. كان لهذا الاحجام العربيّ بواعث عديدة: كان المتمرّدون يهدّدون من قبلُ ملْكية الثروات، ثمّ إنّ الأقطار العربية كالعربية السعودية والامارات ولبنان وسوريا كانت متواطئة مع أمريكا وأوربا. كما كانت اسرائيل تعرب عن دقّة عسكرية وسياسية فرضت بسرعة ضرورة التعامل معها كندّ، ولو تحت العباءة؛ ثمّ ماالذي يدعو إلى دعم سكّان بلادٍ كانت ولاية وليس دولة أبداً: ولاية رومانيّة، فسوريّة، فعثمانيّة، ثمّ واقعة تحت الانتداب البريطانيّ؟

ومع ذلك، فوحدها الأراضي الفلسطينية صارت، بفعل الضربة الصاعقة في ١٩٤٨، أراضي اسرائيلية، ووحدهم السكان الفلسطينيون صاروا يتلقون المعونة في مخيّمات مدعوّة في البدء بـ «المؤقتة»، ثمّ «مخيّمات اللاجئين» التي صارت تراقبها شرطة ثلاثة أقطار عربية كانت تقبل بهم.

لاأقدر على تفسير مايقيم في أصل المقاومة، وينبغي أن نلاحظ أنّ مئات السنوات لاتكفي لسحق شعبٍ سحقاً كاملاً: ربّما كان منبع التمرّد مخفيّاً، وبمثل جوفية منابع «الأمازون». أين تقبع منابع الثورة الفلسطينية؟ أيّ جغرافيّ سيبحث عنها؟ لكن هل الماء المنبجس منها جديد حقّاً، وربّما خصيب؟

ماتزال بعض القارئات الانجليزيات مغرمات بالرومنسيّة. يقرأن كثيراً. ويبدو أنّ الثورة الفلسطينية اضطلعت بهذه الوظيفة الاضافية: أن تقدّم للمعمورة بكاملها مثالاً مايزال حيّاً للنبالة الفروسية. ولئن كان البعض يأتون الى الأردنّ، فعلى أمل التقاء [الفارس] بارديان – Pardaillan هناك ثانيةً، أيضاً.

لمّا كانت المصادفات المختلفة التي تتألّف منها حياتي لاتسمح لي بتغيير العالَم الذي أبقتْ عليَّ فيه، فساكتفي بمعايَنته، ووصفه بعد استكناهه، ولن تكون أيّ نتفة من حياتي شيئاً آخر سوى عمل الكتابة الهيّن هذا، اختيار الكلمات، التشطيب، القراءة بالمقلوب، الذي أمارسه على كلّ واحدٍ من هذه الفصول، التي ليست حقيقيّة بحسب الوقائع كما تراها عين متعالية، وإنّما كما أختارها، أؤوّلها وأضمّن ترتيبها. ولمّا لم أكن مؤرشِفاً ولامؤرّخاً ولاأيّ شيء من هذا القبيل، فلعلّي لم أقصّ حياتي إلاّ لاتلو تاريخاً للفلسطينيّين.

تبدو لي غرابة وضعي الآن إمّا من ثلاثة أرباعٍ، أو من الوجه الجانبيّ، أو من الظّهر، لأنّني، مع سنّي وقامتي، لاأراني من الوجه أبداً، بل من الظّهر أو الجانب، وتتحدّد لي أبعادي

باتجاه إيماءاتي أو إيماءات الفدائيين، فالسيجارة آتية من علٍ الى سفلٍ، والولاّعة من سفلٍ الى علٍ، والسطور المكتوبة في اتّجاه الايماءات تعيد تسطير قامتي ووضعيتي وسطَ المجموعة.

مثلما يُقال في أفريقيا إنّ الصحراء تتقدّم، فإنّ نوعاً من صحراء للسكاكين الابتكاريّة كان يتقدّم نحوَ العالَم بأسْرِه ليُبعدَ، هذا ممكنٌ، اليدَ من المتفجّر الذي سيتسبّب بالموت، لكنْ تبقى هذه الشرارة، مثلث الضوء على الشفرة، المدْية ومسارها في تعرّقات غابات القضاء، شعائر الفجر الكافي للفتنة التي تمارسها عليكم المقصلة. قرأتُ في الروايات أنّ بعض الرجال ينقادون (لأنّهم ذاهبون الى الموت) إلى إغراء نظرةِ امرأة. وماتزال في «شاتلرو» واجهة المخزن التي رأيتُ فيها سكّيناً صغيرة بحيث يمكن تسميها مدْية، تنفتح بإظهار شفراتها المتعددّدة بطيئاً، واحدة تلو الأخرى، ثمّ، برقّة، وبعدَما تكون هدّدتْ جميع اتّجاهات المدينة، لأنّها تدور حول نفسها مُلقيةً تهديداً على الشمال والغرب والجنوب والشرق، تروح تهدّد الشارع نفسه الذي كنتُ فيه، وبسْطة الخبّاز، وبعدَ ثوانٍ، مخزنَ السكاكين نفسه. كان لكلّ شفرةٍ، أو مايقوم مقامها، وظيفة، من الشفرة القاتلة القادرة لدى الاستهداف على إصابة ظهرِ إنسانٍ راشد أو صدره أو قلبه، حتّى نازعة السدّادات، فاتحة قنينة النبيذ بُعيدَ الانتصار. وعندما تكون هذه المدية، التي مقبضها قرن مُبَرْنَق، مغلقة، فهي تبدو عديمة الايذاء، لكن ماإن تُفتَح حتى تنتفخ، مثَلها مثلُ قنفذ مهدَّد، وإنّ هذه المدية (جوهرة الترميق الماكر والريفيّ لأشياء صغيرة)، ذات الشفرات السبع والأربعين الخطيرة، لَتُذكّر بالثورة الفلسطينية: مصغّرة وتهدّد في جميع الاتجاهات – (الآفاق كما يكتب الصحفيّون): إسرائيل وأمريكا والممالك العربية؛ وكمدْية الواجهة، تدور هي على نفسها؛ ومثلها أيضاً ماكان أحد ليفكّر باشترائها؛ لكن يبدو اليومَ أنّ الشفرات، خلا منظّفة الأسنان، قد صدئت. أسلحة أخرى ستُهَيّأ.

طالما كانت الثورة الفلسطينية حيوية، دامية، مدية متعددة الشفرات جديدة وقاطعة، تُطلق الشفرةَ القاتلة أو نازعة السدّادات، فمن حيثُ انتزاعها إيّايَ من أوربا وفرنسا، كانت العملية ناجحة؛ وأنا أعتبرها نهائية. لكن ماستصبح عليه هذه الثورة؟ إنّها تفلتُ للّحظة الحاليّة من الاكتفاء الفاغر الذي عرفته جبهة التحرير الوطنيّ الجزائرية. ربّما كانت الجزائر تحلم بزعزعة العالَم الاسلاميّ، لكنهّا لم تنجح الاّ في تحقيق كيانٍ محليّ إضافيّ. يبدو القادة الفلسطينيون وقد تعبوا. بل: أُتعِبوا. وإذا مابقيَ في السنوات القليلة القادمة بعض طاقةٍ، فلمتابعة ثرواتهم الشخصية في البورصة.

كانت الزيارة التي قمتُ بها لإربد في يوليو/ تموز ١٩٨٤، واكتشاف المدينة والمخيّم

ومنزل حمزة وأمّه وماضيه المجيد كلّه، هذا كلّه كان هو الماضي بالفعل: لم يبقَ في صوت الأمّ ونظرتها لازهو ولامفاخرة ولااكتفاء. رحتُ أعاين بانتباهٍ بشرتها الذابلة المشقّقة بتجاعيد مجهرية إنّما مرئية؛ والعين محجوبة، إذا كان يمكن أن ندعو حجاباً مايجعل العين شبيهة بكرة زجاجية شفافة ومخدوشة دائماً بالرمال، كرة – بل كرتين – تنظران إليّ ولاترياني؛ بُقَع النخالة مختلطة ببَرْقَشة الجلد، وقشور الحنّاء لاصقة برقاق الشعر الأبيض؛ وتداعي الأدوات الحديثة، يابانية الأصل كما بدا لي، يجعل المنزل أكثرَ فقراً. وكانت السنوات الخمس عشرة الماضية تثبت غزو أسواق اليابان للأردن، ولقد ثبتت رداءة نوعية مصانعها عبرَ سرعة الانكسار ورادءة الفتات. مذياعات، وتلفاز، ومطبخ كهربائيّ وسمُط من الدنتيل خيطت بالماكنة، ومكيّف للهواء، الكلّ مستورد من طوكيو أو أوساكا، ولاشيء يعاود الاشتغال بعد ثلاثة أشهر من اشترائه، لكنّه يتضافر ليُحيل المكان مهجوراً وهو الذي كان بهيجاً في زينته الوحيدة، الحيطان المطليّة بالجصّ والمنضدة الصفراء–الزرقاء. لكلّ مخيّم فلسطينيّ فتيانه، ولم تعد الأعين لتبرق بفكرة استعادة القدس بل بالحكايات المملّة عن آباء يحيلهم الغياب أكثر قدَماً من مآثرهم، آباء خرجوا من عمّان، مارّين بأمستردام وأوسلو وبانكوك لإنقاذ القدس. ماإن يكون فلسطينيّ واحد مهدَّداً بالنسيان، حتى يخشى منه على الجميع. ولقد راحَ أعضاء «الجهاد الاسلامي»، من سنّة وشيعة، يتفوقون عليهم ويسرقون منهم العناوين الكبرى للصحف العربية والأوربية. كان وجود مفردة «الفلسطينيين» في عنوان يدفع الى شراء الصحيفة لأنّ القارىء كان يترقّب حكاية مآثر جديدة؛ اليوم، عندما تُقرأ المفردة ففي أمل العثور على مآسيهم. القرّاء مزهوّون بالأبطال، ولكنّهم يُسرّون بسقوطهم.

ولئن كان أحد الشعارات يتمثل في استعادة فلسطين، فإنّ الثاني، المكمّل للأول، كان هو ثورة شاملة في العالم العربيّ، تكنس الأنظمة الرجعية. ولقد عرف المسؤولون أن يُقنعوا شعب المخيّمات: الامتناع عن الطعام لشراء أسلحة من أجل حرب شاملة. أين هي الأسلحة؟ ومتى تقوم المعارك ضدّ الممالك، الرئاسيّة منها والملكيّة؟ أين صارت الأموال؟ إنّ هذه الأسئلة وسواها لَتنطرح في المخيّمات الفلسطينية بصوتٍ هو من العلوّ بحيث يطغى على جميع أنواع الصخب.

ـ كانت الثورة فتيّة، ونحن كنّا فتيان أيضاً، وبلا توجّس قلنا بسرعة مفرطة ووضوح مفرط أهدافنا، وإنّ بريخت لمحقّ إذ جعلَ من الدهاء فضيلة يمكن أن تساعد الثوريّين.

هذه هي الاجابة التي تَقدّم لي بها ذات يومٍ أبو مروان، ممثّل منظمة التحرير الفلسطينية في الرباط.

لاحمزة وحده، ولاأخته وزوجها وحدهما، ولا أمّه بمفردها، كان في مقدورهم أن يصبحوا رموز هذه الثورة: من البديهيّ في نظري أنّه كان يَلزم حمزة وأمّه وليلة المعركة تلك، والحفلة الخرافيّة للأسلحة القريبة... ولقد امّحى هذا كلّه.

عندما كان قريبٌ ينحني على باب القطار، كان من المألوف مرافقته والتلويح كما يبدو بمناديل، لكن من المحتمل أن تكون هذه العادة اختفت – ومعها قطعة النسيج تلك التي حلّت معها قطع مقصوصة بعناية من ورق حريريّ يُدعى بـ « الكلينيكس » . كانت الناس تعرف أنّ القطار سيَسهر على سلامة المسافر وتنتظر منه بطاقة بريدية. وإذا ماغادر قريبٌ مشياً على القدم، فإنّ رفاقه يمكثون حتى يتلاشى إهابه، بل ظلّه، ولكنّه يظلّ حاضراً، وعندما يعلمون بموته أو بمخاطر تكبّدها أو رزايا، فإنّهم يتألّمون.

هوذا ماقاله لي منشقّ عن « فتح » :

ـ كان الفلسطينيون يرون أنفسهم، تاريخياً، جغرافياً، وسياسياً، غير ممسوسين، في نظرهم فحسب، وبحسب إرادتهم في أن يتركوا عنهم هذه الصورة، وحتى عندما يكونون مشتّتين في الجهات الأربع فهم يشكلون كتلة غير مرئية ولاتقبل الفساد في دنيا الاسلام والدنيا أجمع. تاريخياً: يعدّون أنفسهم سليلي الفلسطينيين القدماء، « الشعب الآتي من البحر »، أي من لامكان. وجغرافياً: هم شعب محدّد بساحلين، ساحل البحر و« ساحل » الصحراء، فكان يمقت البداوة لزمن طويل. تمسّكَ بالأرض، وراحَ يعيش منها. مُنْقاد؟ كان مسيحياً في عهد الرومان، وقبلَ بالاسلام بلا كثير تمرّدٍ كما يبدو، وبعد ذلك بالغزو العثمانيّ. انتفضَ بوجه اسرائيل. وهوذا مأخوذ بين قوّتين كبرَيين وأخرَيين صغرَيين: أمريكا والاتحاد السوفياتيّ، وإسرائيل وسوريا. وسياسيّاً: يريد أن يكون هو ذاته على ترابه، مستقلاً. ولقد أخفقت الثورة التي قادها عرفات والمنظّمة؛ فإسرائيل تحميها أمريكا، بفضل اليهود الأمريكان وربّما أيضاً بسبب من وضع اسرائيل التي أحسّت بصورة ممتازة باستراتيجية أمريكا صوبَ الشرق. ولئن كان الفلسطينيّون، بعدما انغمسوا بخفّة في الماويّة الصينية، يتلقون اليوم دعم الاتحاد السوفياتيّ، فهم لايمثلون مع ذلك نقطة ارتكاز قويّة، وإنّما لحظة وحركة مغامرتَين يمكن استخدامهما. تبقى سوريا. وإذا كانت فلسطين، مثلها في هذا مثل منطقة « الباسك » في فرنسا واسبانيا، شكّلت على الدوام مقاطعة سورية دائمة الافتخار بنفسها وبأصالتها وتراثها وأسطورتها، وأخيراً، ودائماً، بتاريخها الخاصّ حتى لترفض الاندماج التامّ بسوريا، فاليومَ إنّما

يتمثل أملها الوحيد في سوريا، وسوريا وحدها، القادرة - وهنا تكمن بالطبع براعة حافظ الأسد، الطالع هو نفسه من أقليّة علويّة - على مواجهة اسرائيل، لإنّ رهان سوريا ظافرة يمكن أن يدفع الاتحاد السوڤياتيّ الى أن يحمل على محمل الجدّ هذا الدعم، الترابيّ والعسكريّ في آن.

ـ حافظ الأسد رجلاً للعناية الالهيّة؟

ـ لاالتعبير ولاالفكرة هما اليوم في الصرعة.

وواصلَ المنشقّ بتهذيب:

ـ مايمكن أن تنطوي عليه وتخفيه مفردتان: يمكن أن تغذّي المرارةُ الطموحَ، والطموحُ إرادةَ الظفر. الأخيرة تقود الغازي أغلب الأحايين الى خسارته، موته أو عاره، لكن الغزو يمكن أن يبقى. أوراق اللعب وقد أُعيدَ توزيعها، صيغة انترعها من كتّاب الحوليّات العرب مستشرقوكم، ومن هؤلاء انتزعها صحفيّوكم.

ـ تقصد أنّ لدى الأسد من الطموح مايكفي لقهر إسرائيل؟

ـ يمكن أن يميل الاتحاد السوڤياتيّ الى دعم الأسد إذا ماشكّل حليفاً فعليّاً. سيُجازف الأسد هنا بحياته، وليس الاتحاد السوڤياتيّ. إنّ جولة أخرى يمكن أن تبدأ من دونه...

ـ هي الحرب المستمرّة.

ـ أعرف. والفلسطينيون متعَبون. لكن هل ترى في الحياة سوى حرب بلا نهاية...

ـ إذا لم يكن لدى الفلسطينيين سوى تعبهم وسلبيّتهم لإنقاذ مايحبّون أكثر من أيّ شيء آخر، ذلكم هو أصالتهم، فإنّهم سيستخدمون التعب والسلبيّة.

ـ أسلحة يهوديّة!

بَدا لي أغلب المقاتلين الفلسطينيين محتفظين ببصيصٍ من وهج العائلات الكبرى. شعائريّون نوعاً ما في النصر، بل في التهاني حول مأثرة حربية، مادامت الانتصارات نادرة، وماتزال الجسارة في القتال تشكل مثلاً أعلى فروسياً، «لعبة بائدة» نوعاًما لكن معقودة لها الأولويّة، إسلاميّة مثلما هي مسيحيّة. كان كلّ واحد، سواء من العامّة أو النبلاء، يبدو منافساً سواه في التميّز في تلك الغابات التي ماكان أحدٌ فيها مبتذلاً. مُجاورة الموت؟ المقولة اليونانية: «لِيَكن التراب خفيف الوطأة عليك»؛ ويمكن القول إنّ الفدائيّ كان، قبل أن يموتَ، خفيف

الوطء على التراب. ومع المجازفة بالتحجّر أو الانكماش التعتيقيّ (لغة ميتة أو فضلة باقية من عبادة للشرَف)، فماكان هذا ليبدو لي شديد الخطورة: ففي صيانة هذه السيادة التي صارت طبيعية لدى العائلات الكبرى، وفي توقيرها شبه الدينيّ، لاأرى مجرّد كابحٍ يحدّ من جسارة فدائيّي الشعب في الأوان نفسه الذي يتيح فيه لأبنائهم ولهم أنفسهم جميع أنواع الجرأة. وماكان سيبدو في أوربا الحاليّة زائفاً، كان هنا، وفي هذا العهد، هو ماياتي: إنّ بضع عائلات فلسطينية كبرى كانت تشكّل عوامل للجراءة والجِدّة.

«إنّني أنظر بكثير من الخشية الى أبناء الشهداء وهم يتلقّون عناية خاصّة. لم يمت كلّ شهيدٍ بطلاً. وفضائل الأب الأصلية – وإن ماتَ بطلاً – لاتنتقل بالضرورة الى الابن عندما لاتكون التربية سوى محاباة، وامتياز بغير حقّ، وسهولة. وليست نبالة بالبنوّة، وإن تكن مُداجية، هي مايتهيّا الآن، وإنّما شرِكة للورَثة تفيد من الاسم، تُبذره، وتطبعه بالذبول.»

ومع ذلك فقد كان الفرح منتشراً حولي، بعيداً عنّي إنّما حولي؛ وإذا شئتم فقد كنتُ على شفا موجةٍ من السعادة قد يكون محورها تشكّلَ من احتشادٍ ضاحكٍ لطيّارين اسرائيليين، بشعرٍ أشقرَ جعْدٍ، نزلوا للتوّ من طائرتهم:

«فحول الفحول، نحن معشر اليهود، بِضْنا قبلَ لحظاتٍ بيوضنا على بيروت الغربية.»

ربّما كنت بين الأنقاض وحديَ القادر على فهم لارتياح الجيش وحده، وإنّما كذلك ارتياح سلاحٍ استُخدَم لتوّه. فكّروا بكآبة القنابل المطمورة في العنابر، القنابل التي لن تعمل أبداً، رهيبة وفي الأوان ذاته نافلة. إنّ سكّيناً ينبغي أن تَقطع. وعبوة يجب ان تُطلَق. وعلى الاثنين ان يشكّلا، في آنٍ واحدٍ، القاتل والقتيل. كان التصاهال قد مارس القتل. وربّما كانت علامة واحدة كافية ليفهم السكّان ويلزموا الصمت، كمن يفيء إلى نفسه أو يرهف سمعه ليسمع قبل الآخرين طنين الفرقة العبريّة: أخيراً كانت هنا، تُطلق قنابلها بارتياحٍ، وتواصل مسارها الذي كان بمثابة منحنى فوق البحر وفي السماء الزرقاوين، للالتحاق بقهقهة قواعد إسرائيل، المتلألئة.

ـ الأسلحة مفزعة، هذا صحيح. إنّها تقتل. عرباً. لوكانوا رفضوا الحياة منذ إنجابهم، لَما كان علينا أن نقتلهم عندما يبلغون العاشرة أو الخامسة عشرة.

ويضيف، بشيء من السوداوية:

ـ كم من الأسلحة غير المستخدَمة في العنابر!

ثمّ، حزيناً ومتحرّراً:

ـ ثمّ إنّها أمريكية. ذهب في الصخور، نفط في الرمل، ماس في غلافه، ومادمنا نحبّ الدوار، فلْنَجْرد المستقبل، ماينطوي عليه ممّا لم يُستَثمَر بعد، ولنزنْ أدمغتنا، مايلزم من الخلايا اليهودية لإتمام مالايتقدّم حتّى على هيأة معادلات، رموز ينبغي ابتكارها وهندساتٍ غير معروفة أبداً...

كان الاستيقاظ يبدأ قبل فتح الأجفان. بضع هنيهاتٍ من التعب ويكون النور في العتبة، مع نشاط العين التي تُعيد معرفة نفسها بخلطها آخرَ صورِ الحلم وصور السرخس في عجلون. كانت جميع أشياء العالَم تنتظر يقظتي في العالم، استيقاظي ههنا، حيث كان انسحاري يأتي دائماً لتلبيةِ انتظار. «ماكنتَ ستبحث عنّي لو لم تجدني من قبلُ.» مزحة ليسوع، إنّما ثمينة.

إنّ الصحف، وبالتالي الصحفيّين، بوصفهم الفلسطينيين لاكما كانوا، إنّما كانوا يستخدمون شعارات. وإذ عشتُ مع الفلسطينيّين، فإنّ اندهاشي دائمَ الضحك كان آتياً من تلاقي بديهيتين: أنّهم ماكانوا البتّةَ يشبهون «البورتريات» الصحافية، بل كانوا الى هذه الدرجة نقيضها بحيث إنّ إشعاعهم – أي وجودهم – كان ينبع من نقيض «البورتريتات» هذا. أي أنّ كلّ تفصيل محفور في الصحيفة كان له في الواقع مقابله البارز، وذلك من التفصيل الهيّن حتى الأكثر جراة. ممّا يستوجب الاعتراف بأنّني، إذْ كنتُ معهم، كنت أمكث، ولا اعرف كيف اقول ذلك، وبأية شاكلة اخرى، اقول كنتُ أمكث في ذكرايَ أنا نفسي. بهذه العبارة التي ربّما كانت طفولية، لاازعم أنّني عشتُ حيواتٍ سابقة وأنّني اتذكّرها، بل تقول عبارتي بكلّ مااقدر عليه من جلاءٍ إنّ الثورة الفلسطينية كانت بين أقدم ذكرياتي. «القرآن أزليّ، مشارِك للّه في الجوهر وقديم.» وخلا مفردة «اللّه»، كانت ثورتهم أزليّة، قديمة، ومشاركة لي جوهراً. أفيوضّح هذا بمافيه الكفاية الأهميّة التي أمحضُ للذكريات؟

كانت إيماءاته الآمِرة، العسيرة والفظّة، تؤنسني وتغيظني في آنٍ، فقرّرتُ، ذات مساءٍ في مخيّم «البقعة»، تقليده:

ـ « جـــااااان، come in ـ ! » (« جان، تعالَ إلى هنا! ») ذلك أنّه كان يؤْثر توجيه الأوامر بالانجليزية. رفعت إصبعي كما رأيتُه يفعل. لمّا لم يجرؤ أحد على الابتسام، خمّنتُ أنّني لم أكن طريفاً. بقي هو صامتاً لبرهة، ثمّ، وهو لايكاد يخرج من رقاده أو تأمّله الطويل المصطنع، قال:

ـ الآن سأقلّد جان مقلّداً إيّاي.

أن يرى المرء نفسه في مرآة فماهذا بذي بالٍ عندما نكون أدركنا أنّ اليسار في اليمين، لكن أن يرى نفسه هنا، تحت الأشجار وبلا مرآة، متحركاً، ناطقاً، وموصوفاً بمثل هذه الفظاظة عبرَ صوتٍ سودانيٍّ وإيماءات ذراعيه، وساقيه، وعنقه، وسائر جسمه ووضعية قدَميه، بحيث انفجر الجميع إلاّي ضحكاً! ومابدالي قاسياً هو أنّ الضحك كان متعاطفاً معه إلى حدٍّما. إلاّي، فقد أحسستُ بإعجابٍ كبير. كان يصوّرني وأنا أصعد وأنزل درجاً حجريّاً. بفضله، كنتُ أمام نفسيَ الشخصيةَ العملاقة المقطّعة في السماء شبه المحتلكة؛ نازلاً في البعيد ومع ذلك جدّ قريب، مقوّساً نوعاًما بباعث من تعب العُمر، والتسلّق، والنزول، من كثيب الى آخر، مشية على مقاسي وقد أُحيلَ خرافيّاً، كثبان بمثل علوّ الغيوم فوق نابلس، تعْرج نحو نهاية النهار وهذا العرَج كان مبالَغاً ومبسّطاً ومع ذلك وفياً لمشيتي المعتادة. أدركتُ أنّني كنتُ أراني لأوّل مرّة. لا في مرآة من الجام بالحجم الطبيعيّ، ولكن خللَ عين أو أعين اكتشفتْني، إكتشفتْني لا من كثيب الى آخر وإنّما من درجة الى أخرى، نازلاً الدرج المنحوت في الحجر وأنا أعْرج. وعليه، فقد رآني كلّ واحد وأعاد تصويري. فيما بعدُ لاحظتُ مافي هذه الكوميديا الاسبانية من فظاظة.

كان مبارك يستخدم غالباً سيارة « تويوتا » لنقل التموينات. وبالاضافة الى نائب الضابط ذاك الذي قدّم فضلة طعامي لفدائيين، كان هناك مصريٌّ مسنّ، ولد، كما قيل لي، في قبيلة قريبة من فزّان. لم تكن فرقة « الرولنغ ستون » نالت الشهرة العالمية بعدُ في تلك الفترة، في ١٩٧١، ومع ذلك فهي كانت معروفة بمافيه الكفاية، وكان في التويوتا، قرب لائحة القيادة، مذياع أتذكّر أنّه كان يعمل بـ « الكاسيتات » . كنت، حيث السيارة واقفة وموسيقى « البوب » على أعلاها، أرى ولا أُرى. وكان مبارك يرقص، حافي القدمين إذ لم يحتفظ الاّ ببنطاله، وماكان عليه أن يستحي من ذلك لأنّه يجيد الرقص، جامعاً حركات « الروك » بحركات الرقص السودانيّ، والشيخ الأسوَد، بشعر رأسه الأجعد والمبيضّ قليلاً، يسوط، من دون أن ينظر إلى مبارك، غيتاراً وهميّاً، مبقياً على يده اليمنى في الموضع الذي تُداعَب فيه

الأوتار، واليسرى في رواح ومجيء على مقبض متخيّل لغيتار.

ـ رائع!

وإذا بمبارك يرتدي ثيابه من دون أن ينبس ببنت شفة، ينتعل حذاءيه بنعليهما المَرنين، ويترنّح حتى لقد كاد يسقط أو يقتلني؛ ثمّ يعود الى التويوتا صحبةَ رفيقه لينطلقا قاذفين في وجهي دخنةً سوداء صفيقة وزعيقاً للمحرّك يتوخّى الاهانة. أعتقد أنّه لم يغفر لي أبداً كوني فاجأتُه وهو يرقص في أفريقيا. وأنا نفسي، مغتاظاً من هذا الابتعاد بالغ الفظاظة، ضمرتُ له شيئاً من الضغينة تجلّى في قولي: «ساقلّد مبارك».

كانت موسيقى الرولنغ ستون فعليّة، لكن ليس الغيتار، ولقد ذكّرني غيابه بلعب الورق بلاورق، وبَدا لي كلّ شيء مهلهلاً أكثر فأكثر.

السود في أمريكا البيضاء هم العلامات التي تكتب التاريخ؛ وبالتالي، فَهُم على الورقة البيضاء الحبر الذي يهبها معنى. فليختفوا، ولن تعود الولايات المتحدة بالنسبة إليّ سوى الولايات المتّحدة، وليس النضال المأساويّ الذي يزداد لهباً.

إنّ الورثة الهابطين والهابطين أعمقَ فأعمقَ كلّ يومٍ في النفي، منهارين ومتلاشين في مخدّرات لم يعرفوا السيطرة عليها أبداً، هؤلاء الورثة راحوا ينهارون، هم الذين كنّا نحسبهم مداميكَ أمريكا البيضاء. أمامَ رشاقتهم، تترنّح المباديء، والقوانين، والمباني التي كانت [لهذه القوانين] النتيجة والبرهان. وفي شيكاغو وفي سان فرانسيسكو، حيثُ، رغم النساء الحُبالى، كان ضعف فتيّ ينتظر – في اتّجاه بضع أزهارٍ ذابلة – ، وفي نيويورك حيث الوساخة علامة على الزهد بالعالَم المشتغَل بصورة حسنة أو رديئة على أيدى الروّاد الأسطوريّين وأبنائهم وأحفادهم، كانت حركة خشنة وسوداء، منعزلة عن هذه المجاميع الزاهرة ومختلطة بها، قاسية عندما يقتضي الأمر، تحاول أن تفهم هذا العالَم – الذي ترفضه هي أيضاً – لتقيم عالماً آخر، هوذا النفي مُحوّلاً ومنقوضاً بلذاذة الكيان؛ وفي مواجهة ذلك الاندفاع في العدم [الذي كانت تعيشه الشبيبة البيضاء المخدَّرة]، كان حزب الفهود السود يُثابر، وبجميع الوسائل، واهباً حياته عن طيبة خاطرٍ إذا اقتضى الأمر، ناهضاً من حوله إذاما دعت الضرورة ليهبَ الشعبَ الأسودَ شكلاً. فلئن كان «الهيبيّون»، المكلّلون بالزهر والزيَن غير المتيّقنة، ينغمسون ويتخلّعون ويغوصون، فإنّ الفهود السود كانوا يرفضون العالَم الأبيضَ ذاك.

وهم سيبنون الشعب الأسوَد على أنقاض أمريكا البيضاء التي كانت تتشقّق، مع

شرطتها وكنائسها وقوّاديها وقضاتها، ولكنّ الغزارة كانت من قبلُ تغطّي الهيبيّين، زروعاً تجزّع الكتلة الأمريكية. كان لدى الفهود السود بنادق، وفي نقطة ماتزال غير مشخّصة التحقوا بالهيبيّين: كرْه هذا الجحيم.

ماكان حزب الفهود السود منظّمة معزولة، بل أحد رؤوس رماح الثوريّين. ولئن كان يتميز في أمريكا البيضاء، فبالبشرة السوداء والشعر الأجعد وبشاكلة غريبة لكن أنيقة في الزيّ، بالرغم من ضربٍ من لباس موحّد يفرض سترة الجلد السوداء: يعتمرون طاقيّاتٍ مفصّلة من قطع نسيج متعددة الألوان ومطروحة، إنّما بالكاد، على شعرهم الشبيه بالزنْبركات، بشوارب وأحياناً لحى مهملة، والسيقان معصورة في بناطيل من المخمل أو الساتين الأزرق أو الورديّ أو الذهبيّ، مصمّمة بحيث تفرض على العين الأكثر حوَلاً فحولةً ثقيلة. الى الصورة الأولى التي ترينا الشعب الأسود ككتابة، أضيف أخرى: سيل من الفحم وفي وسطه، منزوعاً من غلافه ومؤتلقاً من قبلُ: الحزب.

أمّا نساء الفهود السود، اللائي هنّ في عمر الرجال نفسه، فيرتدين بنطالاً رجاليّاً ويحتذين في الغالب جزماتٍ، ويجهدن في إخفاء صرامتهنّ.

هيَ ذي، وقد قيلت على عجلٍ، بعض مظاهر مجموعة كانت تعرض نفسها بدلَ أن تخفيها: كان الفهود السود يهاجمون النظر أوّلاً. كانوا يُميِّزون فوراً، بمقتضى هذه الكتابة المرئية والمنفوشة التي تحدّثتُ عنها، وذلك لمعرفتهم بكونهم موصولين بكلّ ماكان مقموعاً، مخصيّاً، مضروباً، منهوباً منه تاريخه أوّلاً، وأساطيره، وبكلّ مايرفض، منذ عهدٍ ليسَ بالبعيد، الغربَ، أي يرفض المسيحية اللاهثة والكارثيّة دوماً. حولَهم، وحولنا، تختلج أخلاقية إنجيليّة تتبخّر وتتباطأ، لكنّها منتهية. وإنّما للتحرّر منها راح الشعب الأسوَد، ومدينته الأوثق المتمثلة في الحزب، يعمل باسرع مايمكن. فطفقَ يمزّق إرباً إرباً ملائكة وتعاليم مستنفدة، بمعونة المباديء نفسها التي كانت مفروضة عليه من قبل الكنائس المسيحية.

صحيحٌ أنّه كان ثمّة يومذاك ضربٌ من خصوبة جنونيّة، وأنّ هؤلاء السود، بهذه الشعور واللحي والايماءات والصرخات الشبيهة، جميعاً، بوفرة من السرخس، كانوا يذكّرون بالسرخس حقّاً، شجريّاً كان أم لم يكن، بلا أزهار ولا ثمار، يدوم ويتكاثر بانفجار الغُبَيرات؛ وصحيح أنّ الفوضى كانت تأتي بالفوضى؛ وأنّ لاشيء كان يبدو ذا يقين: لا الادارة ولاالاتجاهات، ولا التعليمات، لاشيء كان بالنسبة اليهم متيَّقناً منه، لابالنسبة إلى السود الهادئين أو المهدِّئين ولا البيض؛ وصحيح أنّ تلك الشّعَل وشراراتها كان يمكن أن تحرق من يُشعلونها؛ وصحيح أنّ الدوّامة كانت هي، لا الرجال، سيّدة الموقف؛ وصحيح أنّ اعترافاتهم

كانت اعترافات مجانين وحيلهم حيَل حيوانٍ خاتِل؛ وصحيح أنّه كانَ « ينبغي أن يكبرَ هوَ وأن أصغر» (كلام المعمدان في إنجيل يوحنا)، وأنا أكرّر لنفسي هذه الصيغة : « ينبغي أن يكبرَ هو حتّى أصغر». وصحيح أنّ عنفهم كان يبدو لمن لم يعشْه مطبوعاً بالفوضى، وأنّهم كانت تنبعث منهم رائحة العرق لأنهم لايغتسلون إلاّ لماماً ويتناولون أطعمة دهينة؛ وصحيح أنّ الفهود السود كانوا يقومون بطلْعاتٍ في مجالات البيض ثمّ يلتجئون الى المعزل ويبدون كمن يجد ملاذه في الكوخ المحميّ، لكنْ في الوقت نفسه كان كلّ شيء تحدّياً عليهم أن يردّوا عليه. لاشيء سيكون كما من قبل. حتى ١٩٧٣، كان الملك يساوي ملكاً؛ وبعد ٢١ يناير/ كانون الثاني، صار الملك يساوي مقصلة، وأميرة آل لامبال تساوي جمجمة على رأس رمح، والسيادة تساوي الطغيان، وهكذا دوليك، العلامات، والكلمات، قاموس بكامله يتغيّر.

إنّ حركة الفهود، التي كانت في البدء سلوكاً يبدو مجنوناً تماماً، ستصبح عبارة عن موطيء مشترك، حتى لدى البيض. الشعب يساوي نبيلاً، والأسودَ يساوي جميلاً.

باستثناء القواعد الفدائية في الأردن، أبداً لم أكن في ضيافة الأموات أكثر ممّا في أيّ مكانٍ آخر مثلما كنتُ هنا. وذلك شريطة أن أسمح لنفسي بالاعتقاد بالأساطير التي يقوم فيها الموتى بأنشطة سوى هذه. لاشكّ أنّ لون بشرة السود كان أحد البواعث، لكن ليس هو وحده. فلئن كانت الشرطة تطاردهم الى هذه الدرجة، فهذا يعني أنّهم كانوا ينتمون الى عالم حيوانيّ. وللافلات من المطاردة، ربّما كان على الحيَل أن تبلغ مصاف اللاّمنظورية المفاجئة والمؤقتة. حتى أثاث المكاتب كان جنائزياً. والأكلات أيضاً. ومن المحتمل أن يتمثل أحد الأسباب في خطرالموت الفعليّ – الجثمانيّ – ونوعٍ من التأليه للموتى والمعتقلين، وللجميع، عبرَ الصور الفوتوغرافية والمونتاجات والقصائد المحمّسة بنبر واحد : جنائزيّ إنّما غير مكفهرّ. وعليه، فقد كتبتُ ماتقدّم، وينبغي أن أصحّحه بماياتي : إنّ الشعب الأسوَد بكامله هو مَن يعود الى الموتى بشاكلته في البقاء التي هي نقيض شاكلة البيض. فبالرغم من موجات الضحك العنيفة والأغاني والرقصات، كان اليأس يلفّ الشعب الأسوَد بأكمله. ولمّا وجدتُني مؤتمَناً مميّزاً على سرٍّ، فأنا لم أعد أنتمي الى وضوح بشرة البيض. وعندما ابتسمَ لي داڤيد هيليارد للمرّة الأولى، ومدّ لي يده وسيجارة الحشيشة في السيّارة – المتبوعة بسيّارة شرطة – ، فإنّي نزلتُ في العالَم المُعتم بكامل الارتياح. إنّ حرارة الأجساد، والعرَق، ورائحة النَّفَس، هذا كلّه ماعادَ موجوداً. إنّ الفهود لَناشفون : يتنقّلون في مناخٍ لايقدر البيض أن يعمّروا فيه طويلاً.

لدى خروجنا من « ڤيلا » جدّ باذخة لأبيض، كان مؤتمر صحفيّ قد انعقد فيها، قال لي داڤيد إنّ هذه هي المرّة الأولى في حياته – كان في سنّ التاسعة والعشرين – التي يدخل فيها بيتاً مماثلاً.

ـ وانطباعك؟

ضحك وقال:

ـ كنتُ قلقاً جداً. الكثير من البيض دفعة واحدة. كنتُ أخشى أن يضعوني في قفص الاتّهام.

ـ بمَ؟

ـ بكوني بمثل هذا السواد.

وراح يضحك عالياً.

عندما تكلّم بوبي سيل Bobby Seale في التلفزيون، من زنزانته في سجن فرانسيسكو، فأنا لم أفهم. لم أفهم في البداية. كنتُ أشعر بغرابة ماياتي: متّهم بالقتل، يقدر أن يلقي خطاباً يُبَثّ هذا المساء. هوذا كيف حدث الأمر: كان بوبي معتقلاً في سان كنتان. ولقد سمح مدير السجن، بالاتفاق لاريب مع السلطات القضائية، بأن يسجّل مصوّر زنجيّ تصريحاته. كان المصوّر ـ المُحاور شاباً أسوَد أقرب الى مَن يُدعى الواحد منهم «توم» Tom [السود المشتغلين في المؤسّسات الأمريكيّة] منه الى الفهود السود، بثياب ملوّنة أيضاً ولحية وشاربين وشعر رأس فسفوريّ اللمعان، غبيّاً في الخطاب، بارعاً في عمله. قاد أحد حرّاس السجن بوبي سيل الى زنزانة كانت الكاميرا منصوبةً فيها، وظلّ يراقب التصوير لكن من دون تدخّل. راح بوبي يتكلّم، جالساً على كرسيّ. وقع بينه وبين المصوّر مبرقّش الألوان بشعره الأفريقيّ سوء تفاهم كاد أن يقود الى شجار. ثمّ تمّ التصوير، على عدّة دفعات. ووُضع الفيلم في عُلَب. ولعلّ آراء السلطات كانت منقسمة: أيجب عرضه على الشاشة الصغيرة أم لا؟ لم أعرف جيّداً. نُقلَ بوبي سيل من كاليفورنيا الى كونيكتيكوت (نيوهافن). كان مايزال مهدّداً بتلقّي حكمٍ بالاعدام، لكن لابالشاكلة نفسها: ففي كاليفورنيا الاعدام في غرفة الغاز، وفي نيوهافن بالكرسيّ الكهربائيّ. ومَن سيعرف مادفع السلطات في كاليفورنيا الى السماح بعرض الفيلم؟ لقد تكلّم بوبي ودافع عن نفسه أمام الكاميرا في زنزانة في سان كنتان، وهو الآن معتقل في نيوهافن، ورأيتُه أنا وسمعتُه في سان فرانسيسكو. لقد انصعقتُ. فعلى السؤال الأوّل من مبرقّش الألوان، حول الطعام، أجاب سيل بأن تذكّرَ طهوَ والدته، وزوجته، والطهو الذي كان هو يقوم به سابقاً، عندما كان طليقاً. وعني عناية بالغة بوصف طبخة ـ طبخته المفضلة ـ بالتفصيل. تكلّم عن اختيار الأفاويه، ومدّة الطهو، وطريقة تذوّقه: كان القائد

الثوريّ يتكلّم كرئيس طبّاخين. فجأةً – ينبغي أن أقول: فجأةً – أدركتُ: أنّ سيل ماكان يخاطبني، وإنّما يخاطب المعزل (الغيتو). ببالغ الألفة، والاسترخاء، تكلّم عن زوجته، وقال، بابتسام، إنّ عليه لسوء الحظّ أن يكتفي بالاستمناء – المُعزّي والمخيّب. وفجأةً – مرّة أخرى، فجأة – تصلّب وجهه وصوته: وجّه لجميع السود الذين كانوا يصغون إليه أوامر ثورية، باللغة الفظاظة والصراحة سيّما وأنّ أنواع الصلصة التي نصحَ بها في البداية كانت رقيقة. كانت رسالته السياسية جدّ وجيزة. كسب بوبي الجولة. والى هذه الدرجة بحيث كان على قناة التلفاز أن تبثّ كلامه مرّة ثانية.

لايكون السجين الذي يعدّ نفسه خارجاً عن القانون لانه وضعوه هناك، مستاءاً بقدرما هو مزهوّ. إن كان ينشد الحريّة، فهو يحبّ مع ذلك السجن لأنّه عرف أن يهيّيء حرّيته. حريّة في الحريّة وحريّة في الاكراه، الأولى معطاة، والثانية منتزَعة من الذات. لما كان المرء يذهب الى الأسهل – فالزُّهد مُضنٍ – ، فإننّا نرغب في الحرية المعطاة، ولكنّنا نحبّ، سرّاً أو علانيةً، الاستبعادَ الذي يتيح للمرء أن يكتشف في ذاته حريّة المعتقل. إطلاق السراح هو أيضاً اقتلاع. والمعْزل محبوب. محبوب–ممقوت يقيناً. ولقد عرفَ السود، المستبعَدون من العالَم الأبيض، لاأقول ترتيب بؤسهم، فهذا شيء قليل، وإنّما أن يكتشفوا ويُظهروا الى النور ويرفعوا عالياً حريّةً تختلط بالزهو.

إقتادني داڤيد وجيرونيمو الى محلّ حلاقة في المعزل، وكان الحلاّق امرأة سوداء في سنّ الخمسين، شعرها خبّازيّ. ولم تكن حَلقتْ بيضاً من قبل أبداً. كان الرجال – السود طبعاً – المنتظِرون دورهم، يكلّمونني عن بوبي سيل الذي كانوا شاهدوه البارحة على الشاشة الصغيرة. كانوا مسنّين جميعاً. خامرني الانطباع بأنّهم ماكانوا شديدي التحمّس لخطابه المصوَّر: كان بالضبط واحداً منهم قال ماكان ينبغي قوله للسود وإفهامه للبيض. ولقد أحسن الناطق بالكلام القيام بعمله: وإلاّ لَماكان قصّ الشعر سَيبدو قابلاً للاحتمال.

ـ هل جئتَ من فرنسا لتسمعه أو لتساعده؟

ـ إنّما يعود الى السود في جميع الأحوال أن يخرجوه من هناك.

ـ ينبغي ألاّ يخرج بفضل البيض: سيشكل هذا انتصاراً إضافيّاً علينا.

سألتهم إن كانوا متفّقين مع ماقاله البارحة.

ـ كان الحارس أبيض. والترخيص جاء من بيض. ماكان في مقدوره أن يقول من معتقله أكثر ممّا قال، ولقد فهمناه «بصورة عالية».

وعليه، فقد كان خطاب بوبي مرموزاً، ثمّ مفكوكةٌ رموزه.

كانت حيلة بوبي من ذات نمط حيَل رقّ المزارع: عبرَ موسيقى أفريقية تمخّضت فيما بعدُ عن الجاز، كانوا يمرّرون أوامر بالهرب والتمرّد. وعندما كانوا يغنّون، في المساء أو الصباح، في إيقاعات متنوّعة أو مَرنة عباراتٍ بالغة الوضوح بالنسبة إليهم، تدعو الى التجمّع عند نهرٍ لعبوره والهرب نحوَ الشمال، فمن المؤكّد انّهم كانوا يختارون أصواتاً، نسائية أو رجولية، شهوانية، ساخنة، ساخنة إيروسيّاً، قادرة على «الاستدعاء» بمثْل سيادة الفحول المغتلمين: كان الهدف هو الفرار، إنجاد عبيد فارّين، إشعال النار، الحرب، لكنّ النداء كان يُطلقه صوتٌ يميّز فيه السود وعودَ أعراس.

بدعابة وصرامة، وفيما يؤلّف للزنوج الأحرار طبخاتٍ حلمَ بها في معتقله، أو مربّياتٍ قديمة مابرحت تسكن ذاكرته، كان بوبي سيل، إذْ يتذكّر أيضاً زوجته ولياليه بلا نساء، «يَدعو»: ولقد سمع السود المصغون إليه البلاغ.

عندما زحفَ الفهود السود على مقرّ السلطة في «الساكارامنتو» [في كاليفورنيا] لاحتلاله، وعندما تحدّى الأبطال السود في دورة مكسيكو للألعاب الأولمبيّة النشيدَ الوطنيّ والعلَمَ الأمريكيّين، وعندما راح شعر رأسهم وشواربهم ولحاهم ينمو بعنفوان وقح، كان الرئيس جونسون يتربّع على سدّة الحكم، آمراً بقصف فيتنام، فيما كانت مجموعة من الرجال والنساء السود – الفهود – تنمّي في كاليفورنيا الأفعالَ والعمليات والعلامات التي ستجعل كلّ شيء لايعود كما كان.

الكلماتُ السوداء على الصفحة الأمريكية البيضاء مشطوبة أحياناً، وممحوّة. أجملها تختفي، إلا إنّ هذه الكلمات – المختفية – هي التي تصنع القصيدة، أو بالأحرى قصيدة القصيدة. ولئن كان البيض هم الصفحة، فالسود هم المكتوب الذي يهب معنى – لامعنى الصفحة أو اتّجاهها أو لالصفحة وحدها فحسب. يظلّ الفَيض الأبيض هو دعامة الصفحة أو حاشيتها، أمّا القصيدة فمؤلّفة من السود الغائبين – ستقولون الموتى: إذا شئتم – ، السود الغائبين، الغفل والذين يصنع تنضّدهم القصيدة التي يفلت منّي معناها لاحقيقتها.

ألا لتفهموا جيّداً غياب السود الذين ندعوهم بالموتى واحتجابهم عن الرؤية: يظلاّن (أي الغياب والاحتجاب) نشاطاً أو بالأحرى إشعاعاً.

عندما تلقّى البيض في عينهم وأذنهم ومنخرهم وعنقهم وتحت لسانهم وأصابعهم، شعرَ الفهود السود أفريقيّ التسريحة، فإنّهم قد استبدّ بهم الهلع. كيف يحمون أنفسهم في

المترو والباص والمكتب والمصعد من كلّ هذا التكاثر النباتيّ لشعرٍ للرأس شبيه بالزنبركات، هذا الامتداد لا لشعر الرأس وإنّما لشعر العانة، شعر مكهرب، ومطّاط كأصحابه أنفسهم؟ كان الفهود السود يحملون، على رؤوسهم، ضاحكين، ذكَراً مُشعراً ومضغوطاً. وماكان في مقدور البيض أن يجيبوا الاّ بمواثيق للّياقة غير موجودة. وماالسبيل لاكتشاف شتائم كافية الشراسة بحيث تردّ هذه الوجوهَ منفوشةَ الشعر، المنفوشةَ والسوداءَ، العرقةَ، تردّها ملطاء، مادامت أدنى شعرة تخرج من الذقن الأسود، في اللحية الملتفّة، تُتَعهَّد بالعناية والتربية والتدليل كلحية يعتمد عليها البقاء بالذات؟

موضوع تمثيليّ مشهور في معازل الباهاما: في ساحة مهجورة، ليلاً ونهاراً، يرى أسود الى أبيض وهو يغادر ظلّ جميّزة، وآخر ظلاً آخر، وثالثاً، ورابعاً. شعرهم أشقر وقصير، ولأكتافهم اهتزاز لايشبه اهتزاز وركَي السود. يقتربون - بإهمال؟ - ويشكّلون حول الأسوَد حلقة. يودّ لو استطاع الركض، ولكنّ ساقيه تخونانه، ولاصرخة تنطلق من فيه: يُقهقه البيض ويبتعدون؛ لقد أعادوا إلى مكانـ «ـه» الزنجيَّ الذي تجرأ على الخروج وحده. في جامعة «ييل»، عندما دخلت مجموعة من سبعة فهود سود للمشاركة في ندوة كان موضوعها اعتقال بوبي سيل، كان المتفرّجون البيض الثلاثةُ آلاف، ثلاثةَ آلاف مُهاجِم. ضيّقتْ حلقتهم الخناق حول الفهود، ولكن بدلَ اللكمات كانوا يسدّدون حججاً مشحوذة في أوربا ومُحَسّنة بفعل ألف عام من المسيحية. لم يقبل الفهود السود بقواعد اللعبة:

ـ لن نطرح في مواجهة حججكم حججاً مضادّة، وإنّما سخرياتٍ وشتائم. أنتم معاركون شرسون، ولقد حطّمَ رجال لاهوتكم الفولاذيّون أجساماً وعقولاً. من عندنا. الآن، سنهينكم، وبعد ذلك فحسب سنحدّثكم. عندما ستكونون تعرّضتهم للقتل والتحطيم، سنقول لكم حججنا. بهدوء وسيادة.

أسود آخر:

ـ وليس ذلك لانّ نظرية جديدة تكون «أصحّ» من سابقاتها، بل لأنّها، بمحوها إيّاها، أو بزحزحتها إيّاها فحسب، فإنّما تتيح النظريّةُ الجديدةُ الغبطةَ التي نحسّ بها عندما يموت إنسان عمّر طويلاً. عندما يترنّح كلّ شيء، عندما تترنّح الحقائق التي كانت حقائق ممحّصة، فإنّ هذا ليدفع الى الضحك: وعليه، فسنضحك! الثورة هي الفترة الأكثر فرحاً في الحياة!

الشعر الملتفّ كأعطاف الكرمة، الشعر الأفريقيّ، واللحى، والزغب، والشوارب، والضحك، والصراخ، ونظرات الفولاذ الأزرق، هذا البذخ الاستوائيّ كلّه الذي كانوا يستأنسون به، كان يؤكّدهم ويمنع إنكارَهم.

ـ قرّرنا أن نكون على هذه الشاكلة وسترونا كما نُري أنفسنا. ستسمعوننا كما نريد أن نُسمَع. العين قبل الأذن. في البدء كان اللون الأسوَد، وبعدَه زيّنّا، وبعد ذلك فحسبُ اللغة الأمريكية كما رتّبناها نحن، للّعب مثلما لإزعاجكم. لاشيء سيُقال مالم يمرّ بالأسوَد.

ـ سنحاول جعل حقائق جديدة تنزلق فوق الأولى. وستَرون كم الأمر غريب...

سيكون عديمَ الحيطة القول إنّ سانكته پاولي صارت جميلة حتى بعد إعادة بناء حارة عُلَب الليل. ماكنت أحسّ بقرفٍ فعليّ، إلاّ إذا كان غطّى عليه اندهاش بالغ: حول الحلبة والطاولات والكراسيّ والمستهلكين. كانت في الحلَبة خمسة حمُر يمتطيها فرسان، وأحياناً فارسة، خمسة حمُر مهيّجة وثملة كانوا يُسكرونها بالبيرة. تفصيل آخر: كانت الحلبة مغطاة بطبقة سميكة من الوحل. كانت كلّ واحدة من المطايا السكرى تحاول التخلّص من الفارس، التوتونيّ عموماً [نسبة الى «توتونيا»، من جرمانيا الشمالية]. ووسطَ لعلعة الضحك وسيول من نبيذ «الموسل» تتدفّق كبول الفتيان، كان الحمار يقذف بفارسه في الوحل. أعتقد أنّ القرف لم يفلح في التسلّل الى شعوري بالمفاجأة أبداً. وهذه الحارة هي ماكنت أريد تذكّره، وخصوصاً ذلك الشطر من هامبورغ (المانيا) الذي يظلّ، عندما تكون آتياً من سانكته پاولي، قريباً من تمثال بسمارك، أقرب الى المدينة ومقرّ الشرطة السابق. هناك تبدأ الأنقاض. بأيديهم الممدودة إلى السماء، لايسند الرجال العراة في الأعمدة المنحوتة بعلوّ عشرين متراً، من المرمر الورديّ كما أعتقد أو الغرانيت، لايسندون سوى السماء أو، إذا شئتم، لاشيء. كانت الرصاصات وشظايا القنابل قد انزلقت من دون أن تترك خدشاً واحداً على عضلات الأفخاذ والصدور. ولدى المقارنة في ذاكرتي، كانت مباني بيروت، بطوابقها العشرين، تبدو لي من الورق المقوّى أو الخشب المعاكَس. كنت أتذكّر غرانيت هامبورغ الورديّ عندما أرى رداءة نوعيّة الموادّ المستخدَمة في بيروت، التي ماكان يبقى من بيوتها سوى قضبان الحديد الخارجة من حيطان الاسمنت المسلّح بالغ الهشاشة يقيناً. ولقد أقنعتْني رؤية بيروت وذكريات برلين وهامبورغ (١٩٤٧) بشيئين: أنّ الطيّارين الاسرائيليّين هم بمثل جودة طيّاري «قوّات الجوّ الملكيّة» البريطانيّة، وأنّ اللبنانيين يبنون بحيثُ تُدَكّ الأنقاض بسهولة. لم تكن أنقاض مدن ثلاث متماثلة، ولاحتى متشابهة، ولكنّ ماكان يبقى هو الدليل على أنّ حضارتين متعارضتين قد فنيَتا، ومع ذلك فإنّ ارتباطاً بالدم كان يبدو وهو يجمع جنود «قوّات الجوّ الملكيّة» البريطانيّة وجنود إسرائيل: الدقّة ذاتها، بالمليمتر، وربّما من هنا نبعت طرق للتجسّس متماثلة.

سبقَ أن قلتُ أو سأقولُ لاحقاً إنّ التعبير: "entre chien et loup" [«أوان الغروب»، وحرفيّاً: «بين [لونَي] الكلب والذئب»] يشير إلى الوقت والى شيء آخر. إنّ اللون الرماديّ (مثلما كانت هناك الاغنية الرمادية)، الساعة التي يقترب فيها الليل بصورة لاارادّ لها، كالنعاس، الدوريّ والأزليّ، الساعة التي تضاء فيها المصابيح في المدينة، والتي يودّ الأطفال إطالتها أو جعلها تتجرجر فحسب ليلعبوا أكثر في حين تنطبق أعينهم الناشطة فجأةً، الساعة التي يصبح فيها (وهنا حرف جرّ دالّ على المكان، فهذه الساعة تدلّ في نظري على المجال أكثر مما على الزمن) أقول يصبح فيها كلّ كيانٍ ظلَّ نفسه، اي شيئاً آخر سوى نفسه، الساعة التي لاتعود تسمح بالتمييز بين الكلب والذئب، ساعة التحوّلات، التي يصبح فيها الكلب ذئباً، مثلما نخشى آملينَ ذلك في آنٍ معاً، الساعة التي تعود، إذا جاز القول، من بعيد، من أقاصي العصر الوسيطَ المتقدّم على الأقلّ، عندما كانت الذئاب في الأرياف بصدد الحلول محلّ الكلاب، هذه اللحظة التي ربّما كانت سقيمة كان عليّ أن اكتبها كمثْل مَن يتراجع، لاستعادة شيء من الاندفاع من أجل وصف شيء بسيط لكنّ مجرّد فكرته، المنطوق بها مروراً، وكما لو سهواً، قد دفعت الى الجعير، بل ربّما إلى الزئير، المسؤولين الذي سَمعوني. هذه الفكرة؟ كنتُ أخشى، أكثر من أيّ شيء آخر، التفكيرات المنطقية، تَحوّل الفدائيين غير المرئيّ مثلاً الى مقاتلين شيعة أو إلى «أخوان مسلمين». فلا أحد حولي كان يرى في مثل هذه العملية شيئاً طبيعياً، ولربّما كانوا على صواب إذا كان التحوّل مفاجئاً، مرئيّاً، برّانيّاً، لكن لمّا كان كلّ امرىء يولد مع مرافعاته ومخاوفه الداخليّة والخفيّة ويكبر معها، فماكان سيتعذّر أن يجتاح أحد «الأخوان المسلمين» في السرّ فدائياً. وخلافاً لساعة الغروب، فإنّ تعبير «بين الذئب والكلب» إنّما يعني لديّ – هنا وبالنسبة إليّ – أيّة لحظة كانت، بل ربّما جميع لحظات عُمر الفدائيّ التي يعيشها الأخير، متموقعاً بذلك دائماً في هذه الساعة المدعوّة، في الأرياف الفرنسية على الأقلّ، بـ[الساعة المتراوحة] «بين الذئب والكلب».

ربّما كان التعبير يتمتّع عندنا [نحن الفرنسيّين] بسحرٍ ذابل، مادمنا نعرف أنّ جميع الذئاب قد أبيدت في أريافنا، واقعةً في كلاّبات الفخاخ الشهيرة المدعوّة بـ«مصائد الذئاب»، او مغتالةً في مايُدعى بـ«مطاردات الذئاب»، وانّ المفردة «ذئب» loup، غير كثيرة الشيوع من ناحية أخرى، لاترد الاّ في مفردتين أو ثلاث، تدلّ إحداها في أيّامنا على «ذآآب» louvetier، أي حارس في عملية صيد بسيط أو متعاقد مع جماعة ملاّكي ذئاب، والمفردة العاميّة louper التي تدلّ على «تفويت» الشيء [قطار مثلاً، تدعه يفلت منك كالذئب]، وlouveteau، وتدلّ على «الجزموز» وهو الذكر من أبناء الذئب [ومجازاً على «كشّاف صغير»]؛ بإيجاز، لم نعد لنعرف عن الذئب أيّ شيء، ولاأحد عاد يؤمن بتحوّل الكلب الى ذئب. وفي الشرق الأوسط، كان الخطر هو أن يكون فدائيّ مرصوداً من قبل شقيق له، كما كان الكلب مرصوداً

من قبل الذئب. لكن مادام مسؤول قال لي اليوم أيضاً (٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٥) إنّه لاخطر من هذه الناحية، فلنعتبر أنّ هذا الاستطراد ماكُتِبَ ولاقُرِيء.

في الولايات المتحدة، حدثت الظاهرة لدى «الفهود السود». لابمعنى أنّ الحزب كلّه تعرّض لعدوى شرطة نيكسون، بل إنّ تناحرات الرجال السود (الذكور) والنساء (النجوم) صارت تخضع أكثر فأكثر لاستعمال الـ «أف. بي. إي» [«مكتب الاستخبارات الفيدراليّ» الأمريكيّ]، لتحيل، في نوع من الهضامة (٥٦)، زوال «الفهود السود» أمراً متعذّراً على الايقاف، وهذا مايبدو أنّه قد حصل.

كان يجتاز شوارع بيروت، وخصوصاً أزقّتها، في تللك الساعة التي تكلّمتُ عنها، في ١٩٨٢، فتْيةٌ سُمرٌ يلوح ذلك الجزء من الوجه الذي يعلو الشفة العليا أبيضَ لديهم، وبهذ البياض يُميَّز الفلسطينيّ. كان، بحَلقه شاربَيه، يحسب أنْ سيمرّ غفلاً، إلاّ إنّ شحوب البشرة كان يدلّ على الشارب المحلوق حديثاً. وفي الولايات المتّحدة، كان السود، فوق البياض الأمريكيّ، هم العلامات التي تهب هذه القارّة الكابية معنى. في الأردنّ، كان كلّ شيء يحدث كما لو لم تكن الانتفاضات والثورات سوى عيد، طويل أو قصير، دامٍ بصورة تزيد أو تقلّ، ولكنّه يخمد عندما يكون العمل مفرط الإرهاق.

كان يمكن أن أختفي من موقع عجلون رباعيّ الأضلاع ذاك من دون أن يفطن أحد. كانت الثغرات في هذا الجيش في جميع الأرجاء، لاأحد يلاحظها؛ نروح ونأتي بلا إكراه، ظاهر على الأقلّ، ولتمييز محارب من آخر كان الحرّاس يثقون بملمح عائليّ – الوجه أو السلوك – أكثر ممّا بالزيّ الموحّد الذي كان أيّ بدويّ عدوّ يمكن أن يشتريه في المخلّفات الأمريكية، مادام ليس سوى البذلة المبرقشة المشهورة، التي تسمّى أيضاً بذلة التمويه. وعليه، فباستثنائي، أنا الذي كنت هناك بشعري الأبيض وسنّي وبنطالي المخمليّ وخصوصاً يقيني غير القابل للنقاش في الانتماء الى تلك القشور وتلك الأوراق، كان جميع الفدائيين، وبالتالي الناس أجمعين، يرتدون بزّة التمويه.

في المرّتين أو المرّات الثلاث التي غادرت فيها القواعد الى دمشق أو بيروت أو باريس، أحيط المسؤولون علماً. لكنّي اعرف أنّ اختفائي ذاتَ يومٍ ماكان سيُقلق ولا يُفاجيء أحداً.

لاأحد، ولاشيء، ولا أيّة تقنية سرديّة ستقول ماكانته الشهور الستّة المفروضة على الفدائيين في جبال جرش وعجلون، خصوصاً منذ الأسابيع الأولى، قبل أن تبدأ الرياح العاتية

وموجات البرد القارس. إنّ تقديم ملخّص للأحداث ووضع تسلسل زمنيّ لنجاحات الفدائيين وأخطائهم، ووصف ملمح الوقت ولون السماء والأرض والأشجار، هذا كلّه أقدر أن أقوله لكن أبداً لن أتمكّن من الإشعار بذلك السكْر الخفيف والسير على الغبار والأوراق الميتة وائتلاق الأعين وشفافية العلاقات لابين الفدائيين وحدهم وإنّما بينهم وبين القادة أيضاً. كانوا سجناء رباعيّ الأضلاع هذا الممتدّ على ستين كيلومتراً من الطول وأربعين عرضاً، وكانوا يتشبّثون فيه حتى ليُذكّروا بالسادة الفتيان المرسومين على النُّجود. كان يمكن، إذ نرى ذلك، أن نَحسبهم سجناء في حريّة مشروطة (٥٧). كان الجميع وكلّ شيء تحت الأشجار مختلجاً، ضاحكاً، مسحوراً بحياة جديدة في نظر الجميع، وفي نظري أيضاً، وكان في ذلك الاختلاج شيء ثابت بغرابة، يترقّب، في تحفّظ، محتمياً كمن يرصد من دون قول شيء. كان الجميع للجميع. كلّ في ذاته، لاثملاً، بل وحيداً. وربّما لا. باسمين إجمالاً وزائغي النظر. في تلك المنطقة من الأردن التي تراجعوا إليها – أقدر أن أستخدم مفردة «هربوا» ومفردة «تراجعوا» [تكتيكيّاً] بحسب التواريخ – ، كانت السعادة تحت الأشجار عظيمة حتّى لتبدو الثورة الفلسطينية لمحظيّي العالم العربيّ كمثلِ مقلاع بسيط. كان ذلك المجال يضمّ غاباتٍ وقرى أردنية صغيرة لايُرى فيها سوى بضع فلاحات سرعان مايختبئن، وزروع هزيلة نوعاًما أقدر أن أقول إنّها مزروعة بصورة سيئة لأنّني، إذ تفحّصت الأرض جيّداً، وجدتُها خصبة، طيّبة، لكن مقلوبة على نحو رديء وسطحيّ، مبذورة بلامهارة، لأنّ سنابل الهرطمان أو الشيلم كانت متناثرة هنا ومتراصّة بإفراط أبعد بمترين. وكان المحاربون الفتيان يصونون أسلحتهم بعشق تقريباً، بدهان هو من الشفّافيّة بحيث يصعب ألاّ تفكّر أمامه بدهان العشّاق. كان كلّ شيء يدلّ على كونهم عاشقين لبنادقهم. كان حضورها هو علامة الفحولة الظافرة، وبفضلها، وبصورة مثيرة للغرابة، كانت العدوانية تتلاشى. في ساعة الشاي، أو في المساء، كانوا يسالونني أن أحكي لهم عن أمريكا وناطحات سحابها. ولابدّ أنّهم كانوا يتوقّعون جميع الغرابات ماداموا لايندهشون إذ أقول لهم إنّ المدن ذات المنازل العمودية تستفرغ واقفة. لا في ساعات محدّدة، كالمُعافين، بل دائماً، في النهار والليل، ومن مؤخّرات عديدة في آنٍ معاً. تخرج منهم دفعات من الغائط تسيل في الشوارع. في نيويورك، تستفرغ ناطحات السحاب قياماً، النهارَ والليل، شعب متزاحم في الأمعاء، بقدرما تتعدّد الطوابق، دائم الانقباض بشدّة، كما لو أنّ الافراغ، بعد انقباضٍ، يتحقق بمثل هذا العنف بحيث يبدو المبنى بأسره شاعراً بالانفراج بعد انطلاق أولى كميات الغائط. في انتظار مغص جديد، أزليّ.

ـ والعفونة؟

ـ إطلاقاً. للأمريكان غائط شاحب وبلا رائحة.

ـ لكنّك قلت لي، يسأل خالد أبو خالد، إنّ امريكا كانت في الماضي مكسوّة بالغابات. وإنّ لديهم أدوات قويّة، فلمَ لم يقيموا، بدلَ جميع ناطحات السحاب بالغة الارتفاع والمُطلقة فضلاتها قياماً كما تفعل آلات العصيدة، آباراً قابلة للسكنى، بسعة ناطحات السحاب ولكن تحت الأرض؟ كانوا سيَدعون أشجار السنديان على الأرض ويهبطون بمَهابط؟

ـ اي كعمّال المناجم، لكن مع ابهاء وحجرات من المرمر الورديّ؟

ـ مثلاً.

ـ والكرسيّ الكهربائيّ، هل هو كرسيّ حقيقيّ؟

ـ بل هو عرش. يجلس المحكوم عليه، مُرخياً ذراعَيه ويديه على المساند.

ـ ولمَ لا يجعلونه يموت ممدّداً؟ او واقفاً؟ هو جالس على عرش، بمواجهة مَن؟

يموت الثوّار فتياناً في الغالب، ولاسبيل لديهم لابتكار نيويورك. يجتازون البحر، والسماء، والحدائق. يدخلون، الليلَ، في الحجرات، يَقتلون أو يختبئون مصطدمين بالأثاث، وأهدأ حركاتهم هي أيضاً ومضة. والعالَم السفليّ، عالمنا نحن، الذي سيدَعون أنفسهم يُقتَلون من أجله، يحيا كلّ يوم. يهيىء طعامه وينام: يسهر عليه رجال متفوّقون (سوبرمانات) يأكلون لفافةً في أيّة ساعة كانت. وما جدّ الثائرين سوى لعب، أي مضاعفة للمعادلات التي سيحلّونها فيما بعد. كلّ شيء هنا هو مسألة أسلوب.

كان مبارك يظهر ويختفي، مرتدياً بزّة التمويه. عندما لايكون في عجلون، أفَيَكون في قاعدةٍما، أو مخيّم؟، لكن أيّ مخيّم، وماكان يفعل هناك؟

لم أرَ في حياتي سوى قطعة من «الراديوم»: أبو قاسم. سرعان ماخضعتُ لإشعاعه الذي لاأستطيع أن أصفه إلاّ كما يأتي: قذف بالجزيئات متواصل. كان هذا نوعاً من الايروسيّة أيضاً، لكنّها إيروسيّة ملغاة، ربّما غياب القذف محسوساً به كقذف أو انفجار. لزمن طويل، اعتقدتُ، أو تظاهرتُ بالاعتقاد بأنّه كان هديّة المسؤولين أو بالأحرى أنّ مجرّد حضوره كان يُقنعني، قبل حُجَجه، بخطورة المقاومة. (كنّا في تلك الفترة التي يتردّد فيها الجميع بين تعابير: التحرير، والمقاومة، والثورة الفلسطينية.) وكان هو أوّل مَن جاء ليحيّيني صحبةَ فدائيّ آخَر يتكلّم الفرنسيّة. لم يُثرني جماله الجسديّ بحُسن الوجه والجسد الممكن تخمينه وإنّما بالتناغم الذي كان كلّ واحد من أجزاء جسده ــ الناقصة مأخوذةً على حِدة ــ ينجح أخيراً في

تحقيق ماكان هو يبدو عليه: اندفاعاً مكتوماً.

ـ سلام الله عليكم!

ـ وعليكم السلام!

ـ أنتَ آتٍ من فرنسا؟ من أين؟

كان ذلك مفاجئاً. احسستُ بنفسي أسيرَ فخّ من المخمل. أوّلاً، هذه هي المرّة الأولى التي يخاطبني فيها أحدٌ بهذه الشاكلة. فبدلَ «السلام عليكم» العاديّة، قال لي هو، باحتفاليّة: «سلام الله عليكم».

ـ من باريس.

ـ رأيتُك تمشي، أنتَ تعرج قليلاً.

ـ جرح هيّن في العَقب. بقيَ من سقطة في إنجلترا.

ـ هل الطقس بارد في إنجلترا؟

فيما أعلّق سترتي على مسمار، إختفى أبو قاسم. وبدا رفيقه الفدائيّ مندهشاً مثلي.

ـ أين رفيقك؟

ـ لقد خرجَ. لقضاء حاجة.

نظرنا نحو الأحراج.

ـ ماالذي يريد؟

ـ لاأعرفه. إلتقيته على طريق الاسفلت. أشار إليك بيده: «هذا هو الفرنسيّ»، وجاء إليك.

عاودَ إبو قاسم الظهور الى جانبنا، بصمتٍ، مبتسماً قليلاً.

ـ هذا يساعدك على السير.

ـ شكراً.

وأخذتُ غصن الشجرة الذي كان قد رفع عنه بسكيّنهِ الأوراق والعُقَد وحتى اللحاء.

قال للفدائيّ الآخر:

ـ ترجمْ. ماعُمرك، هل انت بعُمر أبي أم بعمر أبي أبي. لم يعد لديك من العُمر مايكفي للقيام بالثورة في فرنسا.

ماكان ابو قاسم ليُطاق. راح يعلّمني اللينينية ببالغ الرصانة، مع تفضيل للجدّ. كان، في سنّ السابعة عشرة، يعرف عن ظهر قلب، إنّما بالعربية، فقرات كاملةً من عمل لينين. راح يتلوه عليّ في المساء بورعِ مقرئٍ للقرآن. وكان رفيقه، الذي يجيد الفرنسية، يترجم، وفي لحظات الهدأة التي يدَعها له أبو قاسم، يفكّر بشيئين: العثور في ذاكرته على عبارة لينين أو بالأحرى إيعازه، وفي جيبه المخصّص للمسدّس على مشط يُسوّي به خصلات شعره. في كلّ فدائيّ مزهوّ إلى هذه الدرجة بكونه كتلةً من الفولاذ، كان عليّ أن أكتشف ارتجافَ رجل لايخشى الغياهب بقدرما يخشى النور.

ـ وقادتك؟

ـ أيّ قادة؟

ـ قادتك. أنتَ تمتثل للقادة، فَلِمَ؟

ـ يلزم دائماً أحد ليقود. أوَلا يمتثلون في الاتحاد السوفياتيّ لكوسيغين؟ أنتَ لاتفهم لأنّك فرنسيّ. لمَ خانَ الفرنسيّون ديغول؟

ـ خانوه؟

ـ بإبداله بپومپيدو. وكان على ديغول ان يعود الى داره.

ـ إسمي رشيد، يقول لي الفدائيّ الترجمان. باتراً جوابي. لاتقسُ على أبي قاسم، إنّه يافع. في عمره، يعتقد المرء بالوفاء الى رجل، ويواصل البُلَهاء الاعتقاد بذلك حتى سنّ الأربعين أو الخمسين. سأشرح له بهدوء وبالعربية. أنا لديّ ثلاث وعشرون سنة. نَمْ.

ـ سردين، سردين، دائماً سردين!

كان الفدائيّ المكلّف يومذاكَ بالطبخ يأتي بعلب «التونة» ويفتحها. كانت جميع أنواع السمك تحمل، في نظر جميع المقاتلين، وخصوصاً أبي قاسم، إسم «السردين». ولم يكن أبو قاسم، الذي ولد قرب «مفرق»، رأى البحر ابداً. فجاء كلّ واحد منّا بقطرته من الماء، ورحنا

نحاول وصفه له، قائلين له في البدء إنّه أزرق.

ـ ماء أزرق!

كما رسمنا على الرمل شكل الأسماك التي لاتشبه الأسماك المعلّبة، وضخامتها.

ـ وصراخها، مايشبه؟

لاأحد تجرأ على تقليد صراخ السمك، فقلت:

ـ ينبغي الاحتفاظ بالقليل لمبارك.

وهي اللحظة التي انتبهت فيها المجموعة لغيابه. قال لي أبو قاسم، نصف ساخر، نصف حائر:

ـ حدّثتَنا عن تجليّات مريم العذراء، زوجة يسوع...

ـ لازوجته، بل أمّه.

ـ أمّه؟ يتبيّن ممّا قلتَه عنها أنّها كانت فتاة. بأيّة لغة كانت تقول ماتقول؟ بلغة السردين؟

ـ عندما تتجلّى، يعرفون أين هيَ، لكن أين تكون عندما تغيب؟ الديك فكرة؟ أين هو مبارك مثلاً؟

كانت هذه هي كلمات أبي قاسم الأخيرة.

لمّا كانت المحادثة مطبوعة بالخفّة، فقد كان كلّ رجل يفكّر باختفائه وراء نهر الأردنّ.

لم أكن الوحيد الذي يعرف خواصّ هذه الكتلة الشعاعيّة التي كان أبو قاسم يشكّلها إلى جانبي. كان جسده المعضّل يبتسم للجميع، إلاّ إنّ إيماءه واحدة، عبارة واحدة تؤكّد على مفاتنه، كانت كافية لان يكشّر جسده عن انيابه. إختير، كالكثير من الفدائيّين، إلى الرحلة وراء نهر الأردنّ. ولقد ذهب رابط الجاش كمايبدو، عارفاً جَماله والمجد الذي كان يكتنفه، وذلك الذي سيكتنف موته. أساعدَه جَماله على الموت؟ حتّى يكون سؤالي تامّاً، فهوذا وجهه الآخر: أيّ فدائيّ بلافتنة (لكنّي أتساءل إن كان هناك فدائيّ بلافتنة؟)، وبلاأيّة جاذبيّة، كان، إذ يتلقّى الأمر بالنزول في غور الأردنّ، وبالتالي إلى الموت، سيقدر أن يفكّر بكونه شيئاً آخر

سوى ضحيّة، أو كان، إذْ يريد تحدّي مهانة حياته التي كانت بلا التماع، سيجرؤ على القيام في اسرائيل بفعلٍ بطوليّ يصنع منه رعب اليهود؟

عندما كنتُ في سوريا، قريباً من الحدود اللبنانية، خرجت كوفيّة تعلو وجهاً سيء الحلاقة من منزل كان على مقربة من سيّارة الأجرة التي تحملني، والتي كان أوقفها بعض الجنود السوريّين؛ حسبتُ أنّني ميّزت عرفات. مرّ وسطَ الفدائيّين من دون أن ينهض أحد منهم. لم يكن هوَ. لكن عندما مرّت سيّارته قريباً من سيّارة الأجرة التي كنتُ فيها، ورأيت جانب وجهه الآخرَ، كان هو، على حين كانت الصحيفة تحت عينيّ تريني إيّاه في الجزائر العاصمة، فقلت لنفسي إنه يمضي وقته في الابانة هنا وهناك عن هذا الجانب من وجهه أو ذاك. تعمل بعض الملكات بالشاكلة نفسها، يجتزن بلادهنّ على ظهر حمارٍ، بالبطء الكافي ليسجّلِ المصوّرون الفوتوغرافيّون هتافات «تحيا» التي ينطق بها الفلاّحون الذين يشترون ملابسهم عادةً في المغازات وإذا بهم يرتدون لدى مجيئها ثياب الماضي. كانت العملية تحدث كما يأتي: تتوقّف سيّارة «الرولز» قرب حمار، فتخرج الملكة، إلخ. إختفى عرفات قبل أن يستقلّ السيّارة، غرِقاً في الحشد. ولمّا بدا لي كلّ هؤلاء الناس مصابين بالتهاب العُقَد، فأنا كنت سأرتكب جريمة لواحتللتُ مكانَ محاربٍ واحدٍ ربّما كان سيحالفه الحظّ في الشفاء.

كان عرفات يبدو وهو ينزلق من ائتلاق استقباله في منظمة الأمم المتحدة إلى التلاشي والاختفاء. صار الفلسطينيّون عصبيّين. وبدا التجهّم على الوجوه وفي الأجساد والكلمات. إنّ ماأبقى على الفدائيين والعالَم الفلسطينيّ يقظين، من ١٩٦٥ حتى ١٩٧٤، كان هو الخوف من أن يُنسوا ويتعرّضوا للانكار. فهل حان الوقت الذي يتحقّق فيه ماكان يُقلق عرفات — قلق كان يدفعه إلى التنهّد: «إنّ أوربا والعالم بأسره يتحدّثان عنّا، ويصوّراننا، وبذلك يمكّناننا من الوجود، لكن إذاماكفّ المصوّرون والاذاعات والتلفازات عن المجيء إلينا، والصحف عن الكلام علينا، فسيفكّر العالَم وأوربّا بانّ الثورة الفلسطينيّة قد انتهت. وبانّ المشكلة قد حُلّتْ على يدي اسرائيل وأمريكا ولصالحهما.» —، وعليه فقد كان هذا القلق بمثابة سابقِ علمٍ؟ أعتقد أنّ أغلبيّة منظمة التحرير الفلسطينيّة كانت تريد أن تقدّم عن نفسها صورة محترَمة.

«في ٧٠–١٩٧١، في الأردن، رأيت أيضاً فدائيين سعداء لتمكنّهم من الاستيلاء بلا كثير مجازفة على سيّارات وأجهزة تصوير واسطوانات وكتب وبناطيل. وللاحتماء من الأحكام الأخلاقيّة، كان الواحد منهم يقول لنفسه وللآخرين: "أنا ثوريّ." كانوا يحلّقون ويسرقون بالمعنيَين الاثنين للمفردة Vol (الطيران والسرقة)، بحُريّة، مادامت سلطة أو هيأة

أعلى من جميع الأخريات (الثورة) تحميهم، بل تشجّعهم على الاختلاس، السرقة إذا شئتم، وربّما كان عدم النهب سيُظهر الخجولَ في نظر رفاقه بمظهر "غير الثوريّ"؛ كانت الثورة تبدأ بسلب أملاك الأثرياء ومُصادرتها. تذكّرْ أنّ شعارات التمرّد الثلاثة كانت تشير بوضوحٍ إلى الأعداء الثلاثة: اسرائيل، وأمريكا، والحكومات العربيّة ذات الأنظمة البوليسيّة.»

وعبرَ مادُعيَ هنا بالشعار الثالث، تنقّلَ الفدائيّون في هالة الضوء التي اكتشفتهم فيها الشبيبة العالميّة. إنّ الفدائيّين، حتّى إذا لم يجرأوا على التحلّي ببطولة ليلى خالد، التي نزعت شكّة قنبلة يدويّة في إحدى طائرات «العال»، قد قبلوا بالاحتفاظ بصورة غير مقبولة.

أودّ الاعتقاد بالفعل بأنّه كان دائماً بين المسؤولين أسماك قرْش ماكانت تختطف الطائرات بل أموال المقاومة والفلسطينيين، وكان أبسط الناس يقدّمون لي أسماء وبراهين ويُبدون احتقارهم للعناصر المحيطة بعرفات.

وطابَ للمسؤولين، كما للفدائيين «العاديّين»، الامتثال للهيأة العليا «من أجل انتصار الثورة...»، ليحموا انفسهم في نظر أنفسهم، وربّما أمام ضميرهم. «رأى الفدائيّون أكثرَ منّي مبالغ ضخمة تمرّ في أيدي المسؤولين ونسائهم وأبنائهم...»

لقد دُلّل ابناء «الشهداء الشهيرين». وراحت تقوم أجيال من الورَثة، حبلى منذ طفولتها بخصومات جديدة: بشيَع، ومدن، وقرى، وأسَر، وزبانية، وتحالفات. وذلك إلى هذا الحدّ بحيث أتساءل إذا لم تكن المبالغ التي أعطتها بلدان الخليج ومساعدات الدول الأعضاء في «الجامعة العربيّة» قد ألقُيَ بها إلى المسؤولين لإغوائهم، أي في خاتمة المطاف لإفسادهم؟

كانت هذه العائلات التي تتمتّع بأصلٍ تاريخيّ، بل ربّما كان أسطوريّاً، في مكّة أو المدينة أو دمشق أو في المقاومة التي خاضها أوّل الأمويّين، أو في القدس في عهد [الامبراطور الرومانيّ] تيطُس [٧٩–٨١ بعد الميلاد]، أو في قرية في الجليل قبل ولادة المسيح، والتي كانت، أي العائلات، ذاهبة من الأسطورة حتى لورنس، تعرض أمام عرفات ضرباً من تاريخٍ بلا تحقيباتٍ دقيقة. أمّا عن أفضل مافيها، فقد وهبت هذه العائلات الكبيرة للثورة أولاء اللائي أدعوهنّ بـ «اللاهبات»: نبيلة النشاشيبيّ وليلى شهيد والكثير من المجهولات.

أمّا «الدعاميص» التي لن أسميّها باسم آخر، فقد كانت تسافر بالكونكورد من لندن إلى ريو دوجانيرو، ومن لوس انجلس إلى روما، وتقيم في جادّة «فوش» [للموسرين بباريس] و«المونته باريولي» [في روما].

لم يعتَرِ الغضب أباعمر أمامي إلاّ مرّةً واحدة؛ إلاّ إنّني أتذكّر غضبه المسعور. فجأةً انقلب وجهه ورديّ السحنة إلى البياض؛ صار صارماً، هو الضحوك، مستطيلاً، هو المدوّر. وفي العجلة التي رفع فيها نظّارتَيه، بَدا وهو يلتقطهما أكثر ممّا يسحبهما من على أنفه. كنتُ قد قلتُ:

ـ أنْ يشكّل اللّه لديك مقولة...

إنّ تصاعد غضبه، الصامت لهنيهاتٍ، قد تواثب باستعجال عمود من الزئبق في سائل مغليّ حتى مائة درجة.

ـ ليس اللّه مقولة! إنّه...

ـ إنّه؟

ـ إنّه الواقعة الأولى، القديمة (غير المخلوقة).

ـ والثانية؟

ـ الثورة.

وعليه، فاللّه الفاطر الواحد الأحد الباقي والقديم هو في نظره بديهيّة. وإنّ الرفض الغاضب للمفردة «مقولة»، التي ربّما كانت باهتة لكن بريئة، والتأكيد على هذا الإله وخواصّه، والغضب، هذا كلّه كان قريباً ممّا يجيزه الاسلام لنفسه. كان أبوعمر يعرف منذ زمنٍ طويلٍ عدم إيماني وقلّة اعتباري للكيان. أفكان غضبه واحتداده نابعين من رعونة مفردة ربّما كانت ستورّطه لولم يحتجّ عليها؟ لكنّي أعتقد أنّه لم يكن هذا وحده في نظرته، وفي شحوبه وارتعاش صوته. ماذا؟ أبعدَ من الغضب، الهَول. إذا كان يمكن أن يكون اللّه معطى، أو مقتطَعاً، أي بالتالي متحرّكاً...

يحدث أن يتذكّر تلميذٌ، جيّداً، أنّه أطاع الاستاذ. كان قد مرّ بالاسفنجة المشدودة بخيطٍ مراراً عديدة على الحروف المكتوبة بالطباشير على السبّورة. محى حقّاً ماكان مكتوباً؛ وبإيماءةٍ مماثلة تذهب من اليمين إلى اليسار وبالعكس، وتنفّذها اليد طويلاً، كانت إيماءة وداعٍ وامّحاء ناجعة بحيث تكون وجوه الأصحاب، المُعَيَّنين للنزول في غور الأردنّ، قد اختفتْ تماماً.

ومثلما يلاحظ التلميذ النصّ المكتوب بالطباشير الذي هو واثق من كونه محاه مراراً

عديدة وهو يعاود الظهور، فالفدائيّ يرفض في البدء إعادة التعرّف على وجه «الشهيد» الذي هو موقن من كونه محاه بإيماءاته المودّعة والذي يتكيء الآنَ على الشجرة مبتسماً. بمعونة شيء من الفطنة والبراعة يقدر ان يدّعي الفرح ليخفي انصعاقه، لانّ احداً لايعاود بلاأضرارٍ الصعود من مجال الشيطان، إن لم يكن أمضى مع الشيطان على الميثاق الذي يجيز معاودة الصعود. لاأحد يعود من اسرائيل. لاحظتُ مراراً إيماءة الوداع التي تمحو جسداً ووجهاً. وفي اليوم التالي يعاود الوجه والجسد الظهور. ولاأدري لمَ، يتّخذ المخيّم آنئذٍ هياة ماكرة. أبداً لم يعد أبوقاسم من غور الأردنّ. كان في سنّ العشرين.

كنّا، أنا أو أبو عمر، نتفادى دائماً في محادثاتنا أدنى إشارة الى تأثّري الوجيز.

ولئن كان يترجم، في الأردن وسواها، بابتسامٍ ودقّة، مشاكساتي اللاهوتيّة التي يفرضها عليّ مسلمون مؤمنون، فلأنّه كان يُدخل على كلّ شيء الكثير من الذكاء، وبالتالي من الشجاعة. وعن طريقه، فهمتُ، بسرعة، حياة الفلسطينيّين في المخيّمات في أدقّ تفاصيلها. إنّ ذاكرة الفلسطينيّات، العريقة، والمؤلّفة من نقاط التطريز ذاتها في عتيق الثياب، إنّما هي تجميع ذاكراتٍ جزئيّة وفوريّة يلحمْنَ أطرافها لمعرفة ماإذا كان ينبغي شراء خيطٍ، وضع ثلاثة أزرارٍ، رفو سروالٍ، العودة الى الحانوتيّ من أجل حفنة من الملح، ومعرفة الزمن اللازم للامساك جيّداً، في سماكة الذاكرة، بزمام الشقاءات الماضية أو ليضفنَ الى الذكريات التي لاغنى عنها، للملح، والخيط، والأزرار، ذاكرةَ الموتى والمقاتلين، والبيضَ والشايَ، يالها حياةً غير منقطعة! والى هذا كلّه، الاحتفاظ ببالغ النُبل في الترمّل وسطَ ثلاثة عشر ابناً. ولقد كان شجن أبي عمر صادقاً عندما قال لي ذات يوم:

- إنّني، ياجان، لأرتجف في بعض اللحظات، أرتجف بحقّ، يدي اليمنى بخاصّة، منذ أن علمت بقرار عرفات في القيام بزيارة لفرنجيّة. أرتجفُ من فكرة مصافحة هذا الرجل الذي يقول إنّه مسيحيّ، ومسيحيّ خصوصاً في ذلك اليوم، عندما اغتال سبعة عشر فلاحاً في كنيسة، كنيسته وكنيستهم.

أعرف انّ هذه كلماتُ غرقى، وبدقّة أكثر كلماتي أنا نفسي دافعاً الى الكلام غريقاً. إنّ الفكرة، التي كان أبو عمر يفكّر بها بحيث تبدو له هي الحلّ المناسب لمعادلة صعبة، كانت هي الفنّ المطلق، غير القائم على الحلم في اليقظة وإنّما على نشاطات ذهنيّة - يقينات، تردّدات، ونوبات يأس - يقوم بها رجل وهبَ ذاته للثورة الفلسطينيّة. وكان عليه أن يُجبر نفسه كلّ يومٍ، ومرّاتٍ عدّة في اليوم الواحد، ليُعرب عن فرحه لدى سماع فدائيّ طائش أو منحرف يسرد

عليه وهو يضحك انتصاراً على البدو بفضل أفعال كان هو (أي أبو عمر) سيدعوها بالحيوانية أو الاجراميّة:

ـ كم عدد القتلى؟

ـ خمسة على الأقلّ. كان رأس البدويّ مفصولاً تماماً عن الجذع، ولقد راح يتدحرج، درجةً درجةً، من أعلى درج الأشرفيّة حتى أسفله.

كان الفدائيون مسيطرين بالفعل في تلك الفترة على أعالي عمّان، قرب خزّان الماء، وفي خطّ تسديدهم المدخلُ الرئيسيّ للقصر الملكيّ.

ـ تدحرج الرأس على الدرجات؟

تظاهر بالانشراح، لأنّه كان يعتقد بانّ عليه، هو المثقف، أن يزداد صلابة. لاشكّ أنّ رأس عدوّ، يثب من درجة الى أخرى، يظلّ أكثر إضحاكاً في حكاية من بطيّخة حمراء تتواثب على النحو ذاته، وفي المكان عينه، لأنّه لابطيّخة يمكن أن تكون دامية، بدم حقيقيّ. من دون أن يحزنني حقّاً مرحه الوقتيّ هذا، سالتُهُ إنْ كان سيرضى عن طيبة خاطر مماثلة برؤية يديّ أنا داميتَين بعدما أكون قطعتُ، بضربة سيفٍ، رأسَ بدويّ نرى إليه وهو يتدحرج ونسمعه وهو يتواثب من درجة الى أخرى.

ـ ياللهول!

والحقّ، فإنّ وجهه، وخصوصاً نظرته وفاه، كانوا يعبّرون عن القرف.

ـ ولكنّ الأمر يؤنسكَ عندما يرويه فدائيّ.

ـ لستَ معتاداً على القتل ولاعلى روايات القتل. لقد حان الوقت لأزداد صلابة.

كنّا نعرف، أنا وهو، قائداً صار أعورَ بسبب من انفجار طرد بريديّ مفخّخ.

ـ لكن قل لي، من أيّة عين صار أعور؟

بَدا ابو عمر باحثاً في ذكرياته وقالَ لي:

ـ ماعدتُ لاتذكّر. من العين اليسرى، أعتقد.

ـ متى رأيتَه؟

ـ أمس صباحاً.

ـ وهاقد نسيت؟

ـ نسيت حقّاً. لاأملك موهبة المعاينة. لكن هل لهذا التفصيل من أهميّة؟

ـ وأيّة عينٍ بقيت لدايان؟

ـ أتريد أن تضعهما جنباً الى جنب؟ إذا كان الفلسطينيّ احتفظ بعينه اليسرى والاسرائيليّ باليمنى؟ لن تتكلّم عن هذا في كتابك؟ سيكون ذلك مثيراً، ولكن...

ـ عرفات؟

ـ إنّ عرفات سيمنعني...

ـ إنّه لن يفهم سوى شيء واحد: أنّ اهتماماتكَ مُحيّرة.

ـ وهل تراك تأسى للمسؤول؟

ـ طبعاً.

ـ ودايان؟

ـ كلاّ بالطبع.

ضحك مرّة أخرى، من الرأس. ثمّ، توقّف فجاةً عن القهقهة، ليفاجئني بالقول:

ـ علينا قبل أيّ شيء آخر أن ننتظر اجتماع الـ «سالت».

ـ لماذا «السلط»؟

«السلط» هي، في الأردن، المدينة المسيحيّة الصغيرة، التي ماتزال تحتفظ بمرآها العثمانيّ، والتي وصفتها أعلاه، وكانت عاصمة إمارة شرقيّ الأردنّ. وفي السلط قبوٌ ذو قباب رومانية وأعمدة مدوّرة من صخور مرئيّة، ومسلاّت صغيرة من المرمر الأبيض وتسقيفات تدهورٍ نحتها، أي رقّ، على مرّ الزمن وبفعل الرطوبة، وهي أكثر أناقة إذ تحميها هذه الأعمدة القويّة التي تحاول أن تصغر بإزائها. عن اليمين، تلال من البطيّخ الأحمر، وعن اليسار أكوام باذنجان. وفي العمق، برتقال. ولقد التمعت في ذهني، وبسرعة، فكرة مفادها أنّ الخضار والفواكه تستحقّ معماراً بيزنطيّاً. وكان أبو عمر يجيب في الواقع على السؤال الذي كنت طرحته عليه

قبل ذلك بقليل: «لمَ عرفات مدعوّ الى موسكو، ومتى يسافر؟»

كان أبو عمر يشير الى اجتماعات السوفيات والأميركان حول «السالت» S.A.L.T. (محادثات الحدّ الاستراتيجيّ من الأسلحة). وعندما أدرك الالتباس الذي كنّا نحاول، جاهدَين، الخروج منه، استأنف الضحك الى درجة اضطرّ معها الى نزع نظارتيه ليجفّف دمع ضحكه بكمّيه؛ والآن، وقد مات، فلن أعرف إذا كان رأس البدويّ المتدحرج في السلّم أم التباسنا المشترك هوَ ماكان باعث فرحه. بل أحسب حتّى أنّني ميّزتُ في ضحكه بضع نبراتٍ حادّة لرجل آيلٍ الى الهستيريّة. كيف أعرف إذا لم يكن أبو عمر افاد من ضحك الالتباس في أمل ان يمحو ويدفع الى النسيان ذلك الضحك المقصود، المصطنع، والذي كنت سائعته بضحك الرأس لولم تكن تعلّته متمثلة في رأس مقطوع يثب من درجة الى أخرى، رأس قابل للإيداع في قبو بناءٍ رومانيّ، كان ينتزع منه فواقاتٍ تتعذّر على التفسير؟

تحت النصب المتهافت والمنظور، ووراء القهقهة الأليمة التي كانت مابرحت تثيرها صورة الرجل مقطوع الرأس، وتحت الفظاظة، المصطنعة، إنّما بمواظبة، في الضحك الطفوليّ والصاخب أحياناً (تطلق الانجليزيّات الشملات مثل هذا الضحك في البارات في المساء)، كانَ يُقيم، ويسهر، ذكاءٌ على أهبة الانذار، وفكرٌ محترس يتساءل بلا انتهاءٍ عن الانقلابات الراهنة، وكذلك، إذاما نحن أمعنّا النظر، تفنانٌ كبير أيضاً. قبل موته في البحر بخمس سنوات، كان أبو عمر غريقاً في الثورة. هل قلتُ لكم إنّه كان طيّباً؟

مثلَ الآخرين، لكنْ لاأقلّ ولاأكثر من أيّ مسؤول آخر، كان أبو عمر ينهض ماإن يدخل فدائيّ الى مكتب عرفات. كان هذا التهذيب الملحوظ جداً، التفخيميّ والجنائزيّ، يبدو له بمثل فائدة غطاء زهريّة أو بزّة لاتراعي الحشمة فتُزرّر على حين غرّة، لأنّ المقاتل الذي يأتي ببرقيّة أو قدحِ شاي أو علبة سجائر، ماكان له أن يفهم الاّ مايلي: أنتَ بطل، وإذن فانت ميت ونحن جميعاً نقدّم لك التشريفات اللائقة بشهيد، ونرتدي ثياب الحِداد عليك. إنّ نابضاً قد وُضِعَ تحت مقاعدنا التي نطرح عليها مؤخراتنا، ومإإن يدخل بطل حتى يجبرنا مقعدنا القابل للانقذاف الى اتخاذ هيأة الحِداد.

من أين جاءت هذه الصرعة؟ وكم دامَت؟ بصورة محمومة، ومع دخول أبسط فدائيّ، كان المسؤولون، رجالاً أم نساءاً، ينهضون، وكان الميت الآتي حاملاً جريدةً يرى الى قبره فاغراً،

ومن حول القبر المسؤولين، الفخورين بالبطل وبانفسهم، مُشيرين الى الشاطيء الآخر. وكان أبو عمر يضحك من هذه الشعيرة التي قبل بها في البداية بسذاجة، وعن إرهاق في خاتمة المطاف.

لاريب أنّ الشعيرة كانت عسكريّة، وعليه فماكان يؤدّيها هو أناقة الإصبع الصغيرة على خيوط البنطال، ولكنّ الفدائيّ الذي يتلقّى التشريفات كان مثلنا، صاحب جلالة لثانيتين، سوى أنّها جلالة في القبر. وعليَّ أن أضيف هذا التفصيل: كانت «الشاهدة» مكتوبةً أوّلاً، فمشطوبة، إذْ علاوةً على أنّ حجر الشاهدة كان بارزاً - من الغرانيت أو المرمر - ، فهو كان منقوشاً أيضاً، والحفرة التي أتحدّث عنها غميقة وبالتالي عديمة، ولاتحمل اسماً، ولاتاريخاً.

مثلما نفعل عندما نسمع نكتة جيّدة، سدّد أبو عمر لأحد فخذيه ضربة مديدة. بل حتى قال لي، بمزيج من السخرية والجدّ:

ـ صرتُ برجوازيّاً هذا الصباح.

ـ كيف؟

ـ مررتُ عند عمّتي، وهي فلسطينيّة لكن ملَكيّة، وتحمّمتُ.

ـ ليس الاستحمام بالدشّ بالشيء البرجوازيّ، ولاهو بالثوريّ. ثمّة أكثر من دشّ في أيّ ملعب لكرة القدم. الحمّام ربّما...

ـ لم أجرأ على إخبارك، كان حمّاماً ساخناً. وأضاف ضاحكاً: إنّ لمن المشين أن «أتبرجز» الى هذه الدرجة.

ـ لكن لمَ «متبرجز»؟

ـ منذ أربعة أشهر، ماعدتُ لأطيق رائحتي. كان هذا هو استحمامي الأوّل [منذ شهور]. وخلا المطر، فلم يعرف الفدائيّون حمّاماً أبداً.

شأنها شأن المفردة «فرنسا»، تكتسي كلمة «فلسطين» واقعاً مختلفاً لدى الفلاحين والارستقراطيين ورجال المال والفدائيين والعائلات الكبرى والبرجوازية الجديدة، وكلّ واحدة من هذه الفئات لاتخمّن شيئاً من أنماط الواقع المحجوبة على الفئات الاخرى، فلاأحد يبدو وهو يفكّر بانّ الفروق التي يجهلها هو إنّما هي فعّالة. أنّها لديها ديناميّتها المنتقاة والمهّدة لصراعات وقتالات، وأنّ هذه المفردة: فلسطين، ستصير ذات يومٍ الكلمة التي تشير لا الى

الوفاق الذي تبدو وهي تنطوي عليه، وإنّما الى قتالٍ شرسٍ بين ماينبغي دعوته بالطبقات.

«لكنْ ماأجمل الجبل!»... قبلَ التعبير الداعي الى التفكير بالشخير الجيولوجيّ القابل للتفسير، يتقدّم الجبل إلى متسلّق المرتفعات كاختبارٍ يعنيه، وللجبليّ يهب نبرة صوته، ولسيزان شيئاً آخر، ولآخرين لاأدري ايّ شيء. ولكنّ الجبل هو دفعةً واحدةً شخص يخدمه كلّ امرىء بحسب العلاقات المقامة من قبل هذا الجبل والمرء نفسه، وكلّ مَن يتحدث عن الجبل إنّما عن نفسه وحدها يتحدث. وكانت عمّة ابي عمر تنتمي إلى المجتمع المسيحيّ الطيّب الذي لايشكل فيه مغطس الحمّام ترفاً، ولاأداة نظافة، وإنّما علامة، بديهيّة في نظرها، على كونه يؤكد المفردة «فلسطين». كانت تحتقر الفدائيين – بعُمق. ربّما كانت، لولا الوزن الذهبيّ لتعبير "Your Majesty" («صاحب أو صاحبة الجلالة»)، لأنّها ماكانت تستخدم الا الانجليزية، وعلى سبيل النفاجة بضع تعابير، مقرفة حقّاً، من مختلف اللهجات العربية وشتيمتين أو ثلاثاً من معجم دافعي العربات الفلسطينيين، أقول ربّما كانت ستقبل بالفدائيين، ولكنّ توقيرها لملكة الأردنّ كان أكثر إثمالاً من الثورات، خصوصاً حينما تخرج هذه الأخيرة من جوف الأرض على هياة انتفاضاتِ «حرافيش» (صبيان أزقّة). وهي كانت تعير ابن اخيها، منذ دخوله في منظمة التحرير الفلسطينية حتى مصرعه، مغطسها مرّةً كلّ ستة أشهر.

كان أبو عمر دائم الاستنجاد بثقافته الجامعية، ولكن بدل أن يستمدّ منها مايهدىء من روعه، كان قلق جديد يأتي ليبلبله، ويحيل له هذه الحياة والثورة شيئين خياليّين.

بعض حشرات الفاسياء لاتُرى على أغصان الأشجار. ولقد حدث لي، في صغري، أن وضعت يدي سهواً على حشرة، خضراء أو كالحة، بلون الشجرة. ووحدها الرائحة كشفت لي عن كوني هرستُ فاسياء تتمثل وسيلتها الوحيدة للاحتماء في الجمود المفاجيء، والتامّ، والاختلاط المدهش بلون الغصن، وأخيراً، وربّما كانتقام نهائيّ، رائحة فساءٍ تنبعث من يدي.

للمرّة الثانية، سردَ علينا فدائيّ شابّ الواقعة التالية: عندما خرجت المدرّعات الأردنية من ثكنتها، اختبأ هو في المستشفى، بين المرضى، مفكّراً بالاختلاط بهم، والتظاهر بالاصابة بجرح خطير حتى لايُأسَر، لانّ المدرّعات كانت تتجه الى المستشفى. ولدى مرورها، أطلق الجند النار على الجميع. يقال إنّهم صرعوا بين ثلاثين أو أربعين: بين المرضى والجرحى والممرّضين والأطبّاء؛ سقط الجميع قتلى في الممرّ الذي اختبأوا فيه. وكما في المرّة الأولى، يقول لنا الفدائيّ الذي سردَ علينا الحكاية للمرّة الثانية إنّه اضطجع منذ أوّل رشقة، مع بندقيته ممدّة الى جانبه. تصنّعَ الموت الى حدّ الخدَر، وربّما الى حدّ نومة وجيزة وسطَ رائحة الدم الطازج والموتى. أكانَ ياترى صادقاً؟

قالت لي عجوز فلسطينيّة: «إفترضْ أنّكَ كنتَ خطيراً لواحد من ألف جزء من الثانية، أو جميلاً لواحد من ألف ألف جزء من الثانية، أو سعيداً، أو أيّ شيء آخر، ثمّ ماذا؟ هل مكثْنا بضع دقائق في أوسلو؟ ربّما؟ لو احتللنا النرويج ستّ عشرة سنة لكنّا جعلنا العالم كلّه يَجْمَد. كنّا عاقلين. وخطيرين لبضع ثوانٍ فحسب.»

عندما استيقظ الفدائيّ، كان الليل قد حلّ، كما في سرده الأوّل لحكايته. لانامةَ في الردهة. ومن الثقل الرازح فوقه أدرك أنّه نامَ للحظاتٍ تحت ركامٍ من الموتى. تجرأ على فتح عينيه. كان جنود بدو يدخّنون هادئين، ولايكادون يتطلعون الى نتائج التسديد في المرمى. أكان لديه من المكر مايكفي ليتماهى والفاسياءَ التي تكلّمتُ عنها؟ أكان الفدائيّ قادراً على الجمود المفاجيء والتامّ بالرغم من حكّة لعينة أو من التنمّل المفرط في القدم غير المتوازنة، مثلما تُوهم الفاسياء بأنّها ورقة صغيرة أو لحاء، وهل كان لديه البراعة، الحماية الوحيدة الممكنة، في أن يهب جسمه مظهرَ الجدث، وصلابة الخشب، هذا كلّه الذي ينبغي الابتعاد عنه لأنّ العفونة سرعان ماستَشيع؟ أوكان الفدائيّ يحسّ بامتناعه على العطب بفضل جميع هذه الوقايات التي هي أكثر نجوعاً من معسكر متمترس؟

صوّبَ الفدائيّ، الذي كانت بندقيّته الى جانبه، الى بدويّ وأرداه قتيلاً. لم يفهم رفاق الأخير من أين جاءت الاطلاقة. محمياً بالجثث، أسقط الفدائيّ أربعة قتلى آخرين بين البدو، الفزعين، والمحترسين مع ذلك.

ـ خمسة قتلى بالعدّ والتمام.

نظر أبو عمر إليّ، وحاجباه يقطبّهما التفكير:

ـ خمسة؟ أمس قال لنا أربعة.

لقد انقضّ الخطأ الحسابيّ على التلميذ السابق لكيسنجر. أجبتُ بالفرنسيّة:

ـ هو يافع. وهي مغامرته الأولى، وغالباً مايرويها. ومن الطبيعيّ أن يضيف الى لائحة صيده تفاصيل جديدة وجنوداً جدداً، ويسلّط أضواء أكثر سطوعاً حتى لايغفو في الحكاية نفسها. إنّه شيء شائع لدى الصيّادين، حتى الفرنسيّين. فَتَحْتَ هذه التفاصيل يتمترس الفدائيّ مثلما يقول إنّه تمترسَ تحت ركام القتلى.

لاحظت جيّداً أنّ أبا عمر كان يرتاب على مايبدو من تفسيري أكثر ممّا من حكاية الفدائيّ الغافي لكن الذي ربّما كانت عينه مفتوحة ليُحسن التسديد في الليل. ويقول لنا هذا

الفدائيّ إنّه غادر المستشفى من دون أن يزعجه أحد. بفضل تلكَ الليلة التي أسردُها اليوم. وكما في شأن حكايات أخرى، كان أبو عمر يتظاهر بالتصديق ويغتبط. ماكان الفدائيون افظاظاً أبداً؛ كان ضرب من صفاء البصيرة الباسم ومن الأناقة يمنعهم من ذلك. وماكان أبو عمر هو الآخر فظّاً للحظة واحدة، ومع ذلك فأنا أتساءل عمّا إذا كان رجل جدّ مرهف الحسّاسيّة، مثّقف خصوصاً، لايسعى الى التمويه بقناع من الفظاظة على الحسّاسيّة التي يخشى ألاّ تكون عائدة الاّ للنساء. ولاستخدام تعبير لن تسنح الفرصة لاستخدامه، سأقول، كما يردّد الممثّلون عن زميلٍ يُبالغ تعابيره: «إنّه يكذب بالأطنان!».

مايبقى في ذاكرة الرجال، ومايمحونه، ومايكون امّحى من تلقاء ذاته هو هذا: موضوع، تعلّة، مناسبة، ظرف، ذلك انّ من الصعب أن نسمّي مَن أو ما أتاح المجد أو ذيوع النبأ ودويّه،هوباية حال ضرب من ارتجاج الذاكرة عندما نستحضر، جهاراً أو في السريرة، «القبلة المعطاة الى الأبرص» (٥٨). ثمّة، من قبل، أبرص يهرب ملثّماً أمام «السّيْد». وبالشاكلة نفسها، وعن تهذيبٍ، يتلاشى ميتٌ أمام انتيغونا، والمجروح أمام مُنقذه، واليائس أمام مدرّب السباحة، والعسبور أمام هتلر، بل أمام يد هتلر أو خنصره وحده الذي لامسَ وبرَ الحيوان ولم يبقَ سوى المداعبة المرئيّة الى الأبد (٥٩)، اي، بلا دعامة تقريباً، عظمة الروح، والبرهان الذي بفضله ستحيا عظمة الروح هذه أزليّاً. وفي ما يتعلّق بالثورة الفلسطينيّة، صفوف الجثث المطمورة أو أعضاؤها المفرّقة لتبقى، لزمنٍ بالغ الوجازة، بعض تفاصيل مجنّحة، عبثيّة، بطوليّة، لكن يواصل تسميتها جيلان أو ثلاثة أجيال. من الشحّاذ الذي دسستُ في يده درهمين، لن تعرفوا شيئاً، لااسمه، ولاماضيه، ولامستقبله. ومن «السّيْد» لانعرف سوى القبلة التي أعطاها للأبرص، وباستثناء ملحمة ستظلّ خالدة لبضعة قرون، نعم، باستثناء (هذه هي المفردة) باستثناء هذا، ماهناك؟ لقد استُثنيَ هتلر [أي سلمَ من النسيان] لحرقه اليهود ومداعبته كلبَ راعٍ المانياً. ولقد نسيتُ كلّ شيء من شحّاذ هذا الصباح سوى درهمين، وماالذي يأتي ليفعل هنا كلب المانيّ يعضّ ربلتَي ساقَي راعٍ يونانيّ؟ إنّ حكاية أخرى تنمو بالطبع تحت حكايتي وتريد الولادة. مايزال البُرص يُعالَجون في مستشفيَين أو اثنين، لكن هل يُعالَجون حقّاً؟ ربّما كان اختصاصيّون يبثّون الجرثوم حتّى يُكرَّسَ «سيد» قادم ولكي نعرفَ كم لزمَ ذلك العربيّ (٦٠) من البطولة والرأفة المسيحيّة: بفضل البرَص الذي تمخّض عن أبرَص آخر، راح هو يتحدّى النسيان.

ذكريات (٢)

كانَ عليَّ من قبلُ القبولُ بأنّ الثورة الفلسطينيّة ستُلخَّص في صيغة ملفّقة: «أنّها كانت خطيرة لواحدٍ من ألف جزء من الثانية».

وأنا داخلٌ الى عمّان للمرّة الأولى، آتياً من طريق درعة، رأيتُني، في الضباب الصباحيّ الورديّ، داخلاً الى بغداد نحوَ ٨٠٠، في عهد هارون الرشيد، في الوقت نفسه الذي كانت مستيقظة فيه، في داخلي، ببالغ الدأب، هذه الحقيقة، أنّني كنت أتنزّة في [الحارة الباريسية] «سانت وان» أو أشباهها نحو العشرينيّات من هذا القرن. كان الفلسطينيون في الأشرفية، النقطة الأعلى في عمّان، يتكلّمون بظرافة عن هذه النقطة العالية والعصيّ عليهم بلوغها، كما لوكانت أظافرهم وأطراف أصابعهم متجمّدة، وكما لو كانوا سقطوا في صقيع أعالي «إيفرست» تلك. الحال، إنّ حيطان البيوت، حول الأشرفية، مبنيّة من الدّبش (٦١)، المكسّر أحياناً، والمحروق قليلاً، لكن غير دامي المرأى أبداً، والمبتذّل أخيراً، كما في ضواحي عاصمة أوربية. والجامع الكبير، بطرازه العربيّ-الاستعماريّ الكونيّ والأزليّ، مبنيّ من ثلاثمائة حجارة مرمر مختلفة.

بعدما عشت في أحد المخيّمات بضعة أيّام، رأيت ماهو العيش فيها. أكانت احتفالاتٌ تتعالى؟ أغانٍ، ورقصات، وإطلاقات ناريّة حقيقية لتمجيد المرصّصين الآتين مع أنابيبهم لأسابيع عديدة لجلب الماء الى جميع مستويات مخيّم «البقعة». عندما كانت أسرة تريد الماء في شتاء ١٩٧٠، فإنّ النساء والفتيات والصغيرات كنّ يقفن في الطابور أمام صنبور الماء الوحيد، تملأ كلّ واحدة، بدورها، سطلين من المطاط الأخضر أو الأصفر أو الأحمر رُسِم عليه إهابٌ – رمختلف كلّ مرّة – لميكي ماوس.

في جميع الأقطار الاسلامية الأخرى، وفي قرى فقيرة متعدّدة، يجري الماء من صنبور وحيد، وتروح النساء، متزوّجات كنّ أم لم يكنّ، ببالغ السرور، الى تلك النافورة النحاسيّة، لأنّه هناك يقدرن أن تشتم إحداهنّ الأخرى، تطلق عليها عبارة متهكّمة، أشياء فظيعة كما يقول المنفيّون من «سيرك» مهرّجين. تطرح كلّ امرأة الى جانبها سطلها الذي يظل يحرس مكان صاحبته التي تُتمّ شكوى طويلة موضوعها الزوج المقصّر من أوّل الليلة حتى آخرها، ثمّ تروح الراوية، وقد وضعت كفّيها على الوركين، تنتظر ضحك النساء الأخريات أو صرخاتهنّ المتظلّمة. أمّا الفلسطينيّات فأبداً صامتاتٌ، لايسمح لهنّ تعبهنّ البالغ باكتشاف كلامٍ في داخلهنّ أو حتى رغبة في الكلام. وإنّ إيماءة الامساك بالعروة وحمْل السطل لَعالية الدقّة لديهنّ، والتشخيص، لأنّها مكرّرة كلّ يومٍ ثلاثاً أو أربعاً طوال ثلاثمائة وخمسة وستّين يوماً

في السنة. وضعية الذراع هي الملائمة، لأنّهنّ يعرفن وزن كلّ قطرة من الماء. تسلية واحدة كانت مباحة مرّة كلّ شهر: عندما ياتي بائع الأواني البلاستيكيّة، وهو أردنيّ من عمّان يتنقّل على «كريولة» [عربة بعجلتين] يجرّها حصان، ترى لدى النساء، وأحياناً الرجال — وياللسعادة التي تدفعهم! — تريّثاً بالغ التردّد في اختيار الأخضر الفاتح والأخضر المشبه بلون القناني والأحمر البنيّ أو الرمّانيّ والأسود الفاحم أو القريب من الأحمر، شبه الجنسيّ، ودرجة أو اثنتين أو ثلاث، أربع، خمس، عشر، من الأزرق المختلف كلّ مرّة، وعلى كلّ سطل، دائماً، رسم ميكي بالألوان. والى جانب السطول المصفوفة، رقرقة الماء. وهذا هو كلّ شيء. وكان المخيّم يعيش من هذا أيضاً.

بالعبارة السابقة: «كلّ امرأة تطرح الى جانبها سطلها...»، لاأقصد أنّ كلّ امرأة تذهب الى صنبور الماء، كما الى النبع في الماضي، لتسخر من زوجها، بل كتبتُ ذلك لأوكد رصانة الفلسطينيّات، لأنّ الزوج سيعود. ربّما.

الاحظ، وأنا أعيد قراءتي، أنّني نسيت الكلام عن اللثام على الشعر، الذي يخفي الأخير أو يسمح برؤية بعض مَنابته. أسف آخر: إنّ كلّ امرأة في المخيّمات ليس لديها لا الوقت ولا الرغبة في تطريز الثياب الفلسطينية المشهورة أو الوسائد التي صارت ندرتها تُيئس سيّدات العائلات الكبرى أكثر فأكثر كلّ يوم. إذا مامات الرجل، فستحمل المرأة البندقية لاالإبرة. وداعاً أيّتها الوسائد، التي أصبحت تُطرّز بالآلات.

كانت الطريق القصيرة، المعبّدة الآن بالأسفلت، التي تصل «السلط» بقاعدة الفدائيين تمرّ بكثيب شيدت عليه، في الذروة، «ڤيلا» بيضاء. وكان الكثيب، ذو شكل القمع الناقص، يمتاز، انطلاقاً حتى من الطريق، بكونه مغطّى بحشيش محفوف، شبيه بالحشيش الانجليزيّ، وعلى هذا الامتداد الأخضر كلّه، اي على كلّ سفح الكثيب، من «الڤيلا» حتى الطريق، كانت لفائف من الأسلاك الشائكة، في عُقَد مفضّضة طويلة، منشورة دائماً. ومن الطريق الى الجدار الحامي، كانت قد كُدِّسَتْ لفائف أخرى من الأسلاك الشائكة. وكان جنود بدو، حرّاس بلا مرصد، يظلون واقفين، مع أسلحتهم المصوّبة الى الطريق، والمعباة ولاريب، بإطلاقات هي على أهبة الانطلاق. ووراءهم، كان للأسلاك الشائكة نعومة لفائف الشعر المدعوّة بالانجليزية عندما تتداعى على الكتف كما وصفتُها عند مقاتلي «الصاعقة» في إربد؛ وكان جند آخرون يظلّون في وضعية إنذار، ويشرئبّون كلّما مرّت عربة يقودها حصان أوسيّارة أو فلاح أو فلاّحة. والسور المحيط بالڤيلا من ناحية الطريق يبدو كمثل معقل له منافذ أو مَرامٍ تتيح لسلاح نصف

ثقيل أو لرشّاشة أو للكاتيوشا الشهيرة أن تتمتع بزاوية للرمي بالغة الجسارة على الطريق وسائر المشهد. و« الڤيلا » نفسها، وراء هذا الركام، تظلّ غير مرئيّة. لعلّها مضيافة؟ كانت تصون، في نهايات الأسابيع، حياة رئيس الشرطة الأردنية. أفكان هذا الحضور القريب من قاعدة الفدائيين هو الباعث على الاحتياطيّات التي اتّخذها رئيس القاعدة، الدكتور محجوب؟ لقد وصلنا الى قاعدة محجوب الصغيرة مع هبوط الليل. ومإإن أبصر الدكتور محجوب نبيلة، حتى بدا كمن تلقّى ضربة حجارة على الجبين. أعتقد أنّه احمرّ. ولربّما كانت هذه هي المرّة الأولى في حياته التي يحمرّ فيها هذا الرجل، ابن سبع وثلاثين سنة، شديد السمرة، مفتول الذراعين والمحنيّ قليلاً على عصا مصفّحة شبيهة بمعوَل. كانت نبيلة بالغة الجَمال. ولعلّها الآن، في سنيّها الخمسين، أكثر جَمالاً ممّا كانت عليه يومذاك. وفي أثناء حصار بيروت، طوال شهور صيف ١٩٨٢ الثلاثة، كانت، تحت القنابل، رئيسة الطبّ الوقائيّ في لبنان. صافَحْنا يَد محجوب الممدودة إلينا، إلاّ نبيلة، لكنّ الأخيرة كانت قد نبّهتني، بنوع من الرقّة، إلى أنّ الأشياء التي سنراها ينبغي ألاّ تفاجئني. كانت تريد تطميني. كنّا جالسَين جنباً الى جنب:

- إسمعني جيّداً، أنت فرنسيّ ولايمكن أن تعرف.

والآن، بعد مرور أربع عشرة سنة، لم أفهم بعدُ هذا الخوف من المرأة، ولا سلوك محجوب. لقد اتّخذ القرار. ماإن نكون تناولنا شيئاً من الطعام حتى تُعاد نبيلة الى السلط، التي كنّا آتيَين منها. كان ظلام جدّ حالك قد أرخى سدوله. وأنا أنظر إليها وهي تغادر، كنت أرى الى إيفيجينيا أو إلى ماتا-هاري (٦٢)، واحدة ممّن يذهبن الى العذاب عندما يكون رجل رقيق، ممتثل للنظام أكثر ممّا الى الفتنة، قد قرّر العذاب كجزاء وحيد، أي الفعل الأخير الواجب إتمامه. غادرتْ نبيلة وهي تتوسّط فدائيّين مسلّحين.

لمّا كانت هي نفسها طبيبة إنّما مُسلمة، أي، بحسب اشتقاق الكلمة، مُستسلمة أو مفوَّضة أمرَها، فلعلّها كانت تدرك أكثر منّي لافظاظة محجوب وإنّما ذلك العرف القائل بأنّ امرأة وحيدة (لكن ماتعني المفردة « وحيدة » في حالتنا نحن؟) ينبغي ألاّ ترقد محاطة بمُحاربين، وماكان الخطر ليمسّها هي، وإنّما المحاربين الذي كانوا، الى جانبها، سيرقدون على شفا هاوية.

أكانت نبيلة أقلّ وحدة بين الفدائيّين المسلّحَين؟ إنّها ماكانت سجينة بين هذين، بل كان الثلاثة سجناء الليل الذي ماكانَ أحد فيه غيرَ مرئيّ، مادام حرس، من فدائيين وبدو، يجتازونه رائحين غادين. وكان ذلك الشريط من الطريق، المارّ بأسفل « الڤيلا »-المعقل، مُناراً بشدّة، يحرسه رجال إذا كانوا ينتمون نحوياً الى المؤنث (٦٣)، فإنّهم عائدون الى الجنس

المعاكس المميَّز بسرعة. وعلى هذه الطريق التي كانت السيّارات فيها محروسة من قبل جند مسلّحين، يراقبهم هم أنفسهم ويلاحقهم بالنظر حرّاس فلسطينيّون غير مرئيين، كانت نبيلة وحيدة.

- ينبغي الاّ يعرف أحد انّ امرأة أمضت الليل في قاعدة، قال محجوب بالفرنسية، وعالياً حتى أسمعه.

عاد الفدائيان بعد ساعتين. وستقضي نبيلة الليلة عند امرأة، طبيبة أسنان في السلط.

- في بيت فلسطينيّة؟

- ماهمّ؟، إنّها امرأة، وسنذهب لإعادة نبيلة غداً صباحاً.

جاءت نبيلة، بلاابتسامة، إنّما من دون ضغينة بائنة، وحرصتْ على الذهاب مباشرةً الى محجوب الذي مدّ لها يده بكثير من الرقّة. رقّة لم أرَها في المساء السابق على الوجه القاسي والملوَّح بالشمس، ولكنّني سأراها عليه فوراً وعلى الدوام كلّما رأيت محجوباً، وحتى عندما اتذكّره وأنا أكتب هذه العبارة.

- هل من العسير إذن إفهام فدائيّين شبّان انّ طبيبة فلسطينيّة كان عليها، بسبب الليل الخطير على طرق السلط، أن ترقد هنا؟

- كانوا سيفهمون. وكان الشعب والبرجوازية الفلسطينية سيُوافقان. لكن لو عرف البدو، لكانت المفردة «بيت دعارة» ستُلفَظ، ونبيلة تعرف ذلك.

ماتزال بعض قبائل الأردنّ، قرب الصحراء، تتذكره الآن (١٩٨٤) بالرغم من دلالة إسمه (المحجوب). كان طبيباً. وكان آتياً من معتقلات مصر. طويل القامة، جميل، ويبدو قويّاً مع انّ بنيته كانت معطوبة، ويجرّ وراءه أسطورته. فمع بضعة رجالٍ في الصحراء، وتحت يافطة مُداوٍ للمرضى، شرعَ بتمزيق التحالفات التي كانت قبائل كبيرة قد علّقتها على أعناق قبائل صغيرة، وقاد الأخيرة الى أن تنبذ، خفْيةً، سيادة حسين، بإبرام اتفاقيات سريّة مع الفلسطينيين. نجاح غير مضمون. فإلى الكلام المعطى الى سليل النبيّ، ينضاف احتقار الفلسطينّيين، المطرودين من أراضيهم، المُسالمين اكثر ممّا ينبغي ومفرطي العشق للحدائق. ولطالما ضُيِّق الحصار على محجوب، لكنْ خدَمه الحظّ. إذ أصيب ابن رئيس قبيلة بمرض. وقام محجوب بتشخيصه بروعة وعالج الصبيّ وأنقذَه. فخلّصه الأب على سبيل العرفان، هو ومساعديه الذين كانت شرطة الصحراء تبحث عنهم. خبّأ الشيخ محجوباً الذي تمكّن من

الالتحاق بقاعدة سريّة. هذه هي الخطوط العريضة للأسطورة، وربّما نقطة انطلاقها. وعليها غُرسَت بعدَ ذلك أساطير أخرى، ومعجزات أخرى، بعدَما حقّقت بعض حبّات «الأنتي-بيوتيك» المعجزةَ الأولى. في الوقت المناسب. وكان أطبّاء عسكريّون، مَهرَة ومخلصون للملكية، قد حقّقوا في وسط القبائل شفاءات معجزة، عاديّة. كانت الصحراء تغتذي من «البنيسلين».

غادرنا السلط الى عجلون حيث مكثتُ من تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٧٠ حتى نوّار/ مايو ١٩٧١. كنّا، أنا ومحجوب وفلسطينيّ آخر، نرقد تحت الأرض، في نوع من حفرة-ملجأ أقيمت تحت الأشجار. وعلى ثوريّة المحيط، كان قانون، مرعيّ وإن لم يكن مقروءاً، يقضي بخفض الأجفان، وبأن يسود ضرب من الأدب بإزاء جسد الآخرين وجسد المرء نفسه، فكلّ واحد ينبغي أن يظلّ غير مرئيّ في نظر الآخرين. ربّما هو مايُدعى بالحَياء؟ وفي نزهة ليلية، من مرْقب الى آخر حول عجلون، حدّثني محجوب عن منع اللعب بالورق، الذي كان هو يذكره كمَن يعزّم داءاً لن يقع أبداً. وكما جعلَ نبيلة تواجه خطرَ ليلٍ مسكونٍ بالأعداء أكثر ممّا بالفحول، فهو قد فقدَ رشده بخصوص اللعب بالورق.

- سيشيع العدوّ أنّ كلّ قاعدة تتحوّل مع حلول الظلام الى مَقْمرة. ثمّ إنّ اللعب بالورق، لاأدري لمَ، يثير الشجارات، بالسكّين أحياناً والى حدّ إسالة الدماء.

بقدرما ماكانت تسحرني طرائق أغلب الفلسطينيين والفلسطينيات، فإنّ المسؤولين كانوا مزعجين. ولقد عرف الأكثر حنكة بينهم أن يختطّوا لأنفسهم أبّهة ماكانت بحاجة لا للمرمر ولا للثريّات، الهدف منها إطالة الطريق المفضية الى المسؤول، بلا انتهاء، قبل ملاقاة هذا الذي كان في مقدوره أنّ يحلّ بعشر كلمات وفي دقيقتين من التفكير مشكلة بالغة البساطة، وكان يجب أن تقول كلّ شيء للحرّاس المُلزِمين بإطلاعهم على المشكل أوّلاً بأوّل.

- إنتظر، سارى.

ويذهب الحارس بلا استعجال. ويعود ببطء أكثر.

- إتبعني.

هكذا تكون نلتَ المناسبة في معرفة ماصارَ إليه فدائيّ فاتن، بسّام، ومازح، أقول ماصارَ إليه في غضون بضع ساعات وماسيظلّ عليه لبضع ساعاتٍ أخرى. أمس، كان هو الصبيّ الذي

يحاول أن يُسقط بالحصباء العصافيرَ الأسرع منه، بل أن يقطف زهرة لالشيء إلاّ ليشمّها، وأخيراً، ليهبني إيّاها، وهاهوَ، لأنّ الدور في المناوبة هو دوره، يسير أمامي كما ينبغي أن تسير جثّة، ربّما بمشية الاعلان المعروف بـ « الرجل الخشبيّ » .

ثمّ كنت أرى مسؤولاً يريد، قبل أيّ شيء آخر، أن يعرف كامل حكاية المشكل الذي لم يكن هو مؤهلاً لحلّه قطّ. ويجعلهم يقودونني الى ثالث، فرابع، وبحسب مسارٍ ذي خانات، ضرب من لعبة البطّ، أجدني، في خاتمة المطاف، أمام المسؤول المنشود الذي يهتف في جهاز اتّصال عسكريّ. مايقول ياترى لمخاطبه غير المرئيّ؟

ـ إن شاء اللّه . . . لكن أؤكد لك انّه سيشفى غداً من ألم اسنانه تماماً. إن شاء اللّه . . . لا، لاتخفْ، ليس مُعدياً إطلاقاً . . . أعتقد انّه ليس . . . طبعاً. إن شاء اللّه .

ويطرح المسؤول السمّاعة .

ـ آه، لم أكن لأحسب انّني سأراك . هل انت بخير؟ والأخبار من فرنسا، هل هي طيّبة؟ هل يتكلّمون عنّا في صحيفة « الفيغارو » ؟

ـ أودّ لو . . .

ـ قهوة أم شاياً؟

(وللمقاتل : « هات قهوتين . لديّ أشياء كثيرة لأقولها لجان ») .

ـ إسمع، إنّ الصبْيان، ربّما عن عبث، يسرقون العلب من الصيدليّة . وبعضها خطير. ينبغي تعيين حارس لمنعهم . . .

ـ من الصعب منع الصبيان من العبث .

ـ إنّ الاقراص، إذاما تناولوها بكميّات كبيرة، قاتلة احياناً . وأنا أوصد الصيدلية بالمفتاح، ولكنّهم يفتحونها في الليل، وحتى في النهار . عيِّن فدائيّاً .

يأخذ المسؤول ورقة، ويدوّن الأوامر. ويعطيها للحارس. عندما أصل الى الصيدلية، أجد بابها محروساً من قبل فدائيّ . لقد أنفقت ثلاثة أرباع الساعة للوصول الى المسؤول الذي استبقاني دقيقتين .

ولم يكن الأخطر هم هؤلاء، الذين كانوا يقيمون مساراً عسيراً، مزروعاً بالفخاخ غير المتوقّعة، وإنّما أولئك الذين يحتفظون في رأسهم بتعاليم تنهمر عباراتها الناصعة والفظّة على

قدمَي المُقابل. ومَن كان يبعث على الخشية أكثر هو داود التلحميّ، الذي أعتقد أنّه كان عازماً على أن يصنع منّي ماركسيّاً-لينينيّاً حقيقيّاً. للقرآن سوَره وآياته المناسبة لكلّ مقامٍ، وكان لدى داود القبسة الجاهزة من لينين في كلّ لحظة. وماكان وحيداً في ذلك. كنت في بدايات وصولي أقول لنفسي إنّ الثوريّين هم، بعد كلّ شيء، شبّان. ببالغ الكبَر، يستشهد صبيّ، من دون تنبيهٍ، بعبارة بالألمانية.

ـ ماهذا؟

ـ لوكاش. بمَ تقدر أن تجيبني؟

مَن كانوا مزعجين، كانوا كذلك بإفراط. حقّاً. بالقياس إليهم كان محجوب يبدو لي كمثْل فتاةٍ إنّما أقلّ فساداً.

بعدَ مجزرتَي صبرا وشاتيلا في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢، طلب إليّ بعض الفلسطينيّين أن أكتب مذكّراتي. ولقد شغلني مشكل طوال ستّة أشهر، وجعلني أتردّد: وضْع عرفات في طرابلس، وفي قلب منظمة التحرير الفلسطينية. وفي أثناء إقامتي في ڤيينا، رأيت أيضاً فلسطينيّين يأملون أن أكتب.

ـ قلْ بدقّةٍ مارأيتَ وماسمعتَ. حاولْ أن تقول لمَ بقيتَ هذه الفترة الطويلة معنا. لمَ جئت، بصورة عرضية إذا جاز القول. جئتَ لثمانية أيّام، فلمَ مكثتَ عامين؟

بدأتُ تحرير هذا الكتاب في آب/ أغسطس ١٩٨٣، عائداً بكاملي الى السبعينيّات، وإذا بي أرى الى ذكرياتي وهي تتصاعد حتى ١٩٨٣. رحت أغوص في الذاكرة، يساعدني هؤلاء المشاركون العديدون، أو الشهود على الوقائع التي أروي. آنئذٍ عرفتُ عذوبةَ الاّ أعود مقيماً في فرنسا. كانت بعيدة وضامرة جداً. وكان خنصر أصغر فدائيّ يشغل حيّزاً أكبر من أوروبا بكاملها، وفرنسا ذكرى بعيدة من صباي.

لئن وافقَ مؤتمر «بال» الصهيونيّ أخيراً على الاستقرار في فلسطين، بعدما كان فكّر بالأرجنتين وأوغندا، فأنا لست بالمتيقّن من أنّ الاختيار أملته دواعٍ سماويّة. وبعدَ كلّ شيء، فإنّ مايدعوه اليهود بـ«أرض الميعاد» إنّما كان أوّلاً لجوّابٍ جاء من بلاد «أكد» ماشياً على القدم ولآخر جاء من مصر، أمّا البلاد المدعوّة بـ«الأرض المقدّسة» فمشهورة بفعل الأحداث

المرويّة في «العهد الجديد» [لا «القديم»]. وبدلَ أن يحبوّا هذا البلد، كان على اليهود أن يمقتوه. لقد تمخّض عمّن كانوا أعداءهم اللدودين، وعن القديس بولص أوّلاً. مَن كان، لولاه ولولا عيسى المسيح، سيتذكّر القدس والناصرة والنجّار وبيت لحم وبحيرة طبرية، والحال فلاتتكلّم الأناجيل جيمعاً الاّ عن هذه المواضع.

ـ هذه البلاد نفسها، يعرفها الانجليز البروتستانت عبرَ «العهد القديم».

ـ هل رأيتَ حيوانات محنّطة؟ الجغرافية محنّطة في «العهد القديم». نعرف التاريخ، والحكايات اليهودية، ولكنّ التاريخ نادراً مايلعب فيها دوراً. إلاّ في التهجيرات، فهنا تُذكَر نينوى وأور ومصر وسيناء، التي لاتتمتّع أبداً بالقدر نفسه من الحياة الذي تتمتّع به بحيرة طبريّة وحتى تلّة الجلجلة.

كان السيّد مصطفى، الذي التقيتُه في المقهى، يحدّثني عن كرهه لانجلترا بفصاحة أتساءل إزاءها إذا لم يكن يتذكّر خيبة أمله كشاب منعته صرامته من لمس قطع الذهب في خزانات كانت مغالقها مفتوحة. كلّ هذه الثروات أفلتت من جميع أولئك الضباط في الجيش التركيّ ا ولاشكّ أنّ مصدر رفضهم الوحيد كان آتياً من أخلاقية جدّ رفيعة. وكلّما رآني السيّد مصطفى، راح يحدّثني مستخدماً كلمات عتيقة حتّى لَتتراجع الامبراطورية العثمانية الى أصقاعٍ خرافيّة، مذهبّة ومغطّاة بالمنيّ والدم، اي، إجمالاً، مايرويه عنها الروائيون، مع هذا التفصيل، مع ذلك، الذي كان يبدو لي عصيّاً على التصديق، وهو أنّ الإماء الجميلات أناث ضخمات بأفخاذ ونهود يعبدها الخلفاء ولكنّ امتداد الجسد الواجب تغطيته بالمجوهرات هو من الضخامة بحيث كان يجب استعادة زينة محظيّة الليلة السابقة لتزيين جسد الجديدة.

ـ كانت تلك مسألة جلاجل، يقول لي السيّد مصطفى.

وعندما سردتُ على ابنه عمر التعليق الأخير، قال لي ضاحكاً:

ـ أمارأيت؟، لقد بقي ذهب الخزائن الانجليزية عالقاً في أذنيه، ولن يتخلّص منه إلاّ بثقب صماخهما.

عندما رأيت الى السوريّين وهم يلعبون بالورق سرّاً، فإنّ «الدولاب»، وخصوصاً «السيوف»، وجميع الأوراق، سحرتْني. وكما تحت الخميلة في عجلون، على الطريقة العربية أو الاسبانية، كان لأهل دمشق طريقة في تقطيع الأوراق في اتّجاه الطول، بحيث تظلّ الورقة المرميّة على الحدبة التي تشكّلها الثنية [على سماط المائدة] قلقة نوعاًما، مستلقية على أحد الجانبين، قارباً فاغراً على شاطيء، وبحيث أنّ الأوراق، ماإن تُرمَى، حتى تكون تارةً أنثى مُهداة

ـ حتّى إذا كانت الورقة تمثّل « الشابّ » ـ وطوراً فحلاً يقطعها ـ مع صورة « سيّدة النفل » .
وكانت هذه الشاكلة في تقطيع الأوراق تبدو لي، حتى وأنا أصفها، لعبة إيروسيّة، مايشبه غلاماً محلول الأزرار، بالتضادّ مع لعب الورق النزيه والجديد الذي جاء به « البريدج » .

إنّ عبارة « لا أدري لمَ » ، المطروحة كمثّل سبب، لتجبرني على التساؤل عمّا إذا لم يكن محجوب خشيَ من جانبه حضورَ نبيلة (منعتْه من التفكير فجاةً بلاهةٌ كبيرةٌ وقد زَعزعَه وجهُ امرأة) ؛ ذلك الحضور الذي فاقمَه لعب الورق . ولئن كان هذا صحيحاً، فانا لاأرى العلاقة المحتملة بين هذه المرأة الجميلة جداً ولعب الورق، كلاّ، مامن صلة سوى هذه التي، لمّا كانت تخصّني شخصيّاً، فعليَّ أن أقولها في نصف غموض : عندما انطلقت مانون ليسكو الى « الهاڤر » لتلتحق بفارس « الغريو » ، فهي قد تركت في باريس شقيقاً تحبّه كان يكسب عيشه بالغشّ في لعب الورق (٦٤) .

إنّ كلّ شيء : المكان، ومانون، ومحجوب المحجوب [كما يدلّ عليه اسمه] ، والغشّاش، والسيّدة، والملوك، والخدَم، وخصوصاً السيوف، كلّهم مايزالون يتنقّلون فيَّ وفيَّ وحدي، ووحده محجوب يفلت من العدوى . كلّ واحد يولد من الآخرين، أو كلّ واحد هو قرين ذاته وفي الأوان ذاته قرين الصوَر الأخرى أو بطانتها، ووحدها نبيلة تظلّ نيّرة، بلا اعتكار . وإنّ اصطراعاً قد يفسّره علماء اللاهوت المسلمون مابرحَ يطاردني : أيمكن أن يتعايش والصدفةَ إله هو الى هذه الدرجة واحدٌ أحد؟ إلاّ إذا كان ماندعوه بالصدفة مشيئاً من الله، ونتيجة ورق اللعب إمضاءاً إلهيّاً؟

ذاتَ مساءٍ، وكنّا وحيدَين، ابتسمَ محجوب كما يفعل دائماً، برقّة كبيرة تقارب الحنان . قدّم لي سيجارة « جيتان » . وكان يحتقر التبغ الأشقر الذي تهديه الأمارات .

ـ كنتُ عاشقاً، إنّما من نوع ذلك العشق المجنون، لفتاةٍ في سنّ الثامنة .

لاأعتقد أنّه اختارَ اللحظة ليقول ذلك . بل لعلّه انتهزَ اللحظة .

ـ كنتُ أقطع مسافة كيلومتراتٍ عديدة لأراها . لم أتسبب لها بأيّ أذى، ولكنّها تسبّبت لي بأذى كثير .

ـ كيف؟

ـ برفضها هداياي مثلاً . وبتهرّبها منّي . أعتقد أنّها كانت تدرك سلطانها . وكانت تتسلّى بإيذائي .

ـ في الثامنة من العمر؟

ـ كانت تتصرّف أحياناً كامرأة في سنّ الاربعين. كانت قريتها بعيدة الى حدّ ما عن القاهرة، وكانت تعرف أنّني أقوم بالرحلة لأنظر إليها، لأنظر إليها فحسب.

ـ وهل دامَ ذلك؟

ـ بلغتِ التاسعة، فالعاشرة، فالحادية عشرة؛ في الثانية عشرة صارت امرأة. وماعادت لتهمّني.

ـ لقد نجوتَ.

ـ كلاّ، عندما كنتُ أحبّها، كنت أتعذّب وأشعر ببالغ السعادة.

سادَ بيننا صمتٌ كما لو كان يفصل بيننا مدى أكبر. او أصغر، ولكن لاأحسب أنّ ذلك كان سيزعجني، ولقد لاحظت فجوةً بيننا.

ـ لاتحزنْ، قال لي فيما يبتعد عن الربوة التي كنّا جالسيَن عليها.

بقيتُ لأدخّن سيجارتي حتى آخِرها. وكنت أتساءل لمَ سردَ عليَّ حكايته، وفي ذلك اليوم؟

ـ ياجان، نسيتُ اسم تلك الكنيسة، ولكنّني لاأعتقد أنّها «نوتردام ديه فلور».

كانت الصحيفة اللبنانية الناطقة بالفرنسيّة «لوريون لوجور» قد تهكّمت من وجودي مع «فتح» وعلى ضفاف الأردن حيث كان قد عاش يوحنّا المعمدان (٦٥)، إلاّ إنّ التعليق المباشر الوحيد هو هذا الذي قاله لي فرج ذات يوم:

ـ الأساسيّ هو أن تكون معنا.

فكرّتُ بانّ شيئاً واحداً يشغل ذهن الفدائيّين: كيف سينتهي العيد؟ ذلك أنّ هذه الانتفاضة الفلسطينية، على الضفاف الشرقيّة من الأردنّ، إنّما كانت عيداً.

عيد دام تسعة شهور. وإذا كان أحد قد عرف حريّة باريس في شهرَ نوّار/مايو ١٩٦٨،

فليُضفْ رشاقة الجسم، وتهذيب الجميع بإزاء كلّ واحد، وخصوصاً فليُقارنْ، لأنّ الفدائيّين كانوا مسلّحين. كان محجوب هنا في شهر مارس/آذار من دون أن أسمع مجيأه. ومايزال يبدو لي أنّني كنتُ، من فرط جلال الموقف، أخفض صوتي الى جانبه، فحضوره صمت داخليّ. ولعلّ هذه الأخلاقية من نمط سان–جوست هي التي وهبته كلّ هذا الألق بحيث أنّني، إذ أتكلّم عنه، يخالطني الانطباع بكتابة صفحة إضافيّة لـ «الأسطورة الذهبية» (٦٦).

ـ أرأيتَ البراعم؟

ـ أبطأتْ في المجيء، لكنّها هنا. ماتزال دبقة، وعندما أهزّ الأغصان يغطّيني اللقاح. وستتفتح أزهار اللوز وتنفتح الأوراق.

ـ الشمس أكثر سخونة، والفدائيّون أكثر فرحاً؛ وإنّ مارس/آذار وأبريل/نيسان لشهران هيّنان. وإذا مااجتزناهما وصَمدنا حتى نهايتهما، فالثورة ظافرة.

ـ بدتْ لي تجهيزات القواعد الصغيرة، على امتداد الطرق الكائنة في الأحراج، والمفضية الى عجلون، هشّة.

ـ لاأعتقد. إنّها ستصمد. لاتعنيني التكتيكات، ولكنّ ثقة الرفاق المسؤولين عالية.

ـ أنتَ كنايف حواتمة.

ـ فيمَ؟

ـ لايتكلّم الأ عن العلميّ، التكتيكات العلميّة والاشتراكية العلميّة...

وجعلَ يضحك. ولكنّ مسؤولاً آخر دنا منه وكلّمه بالعربيّة بسرعة. وكانت يده تشير إليّ أحياناً. ثمّ غادر من دون أن يودّعنا، بادياً عليه الاستعجال.

ـ يريد أن أقول لك إنّه المسؤول العسكريّ الجديد عن القطّاع. وإنّك مررتَ أمامه مرّتين من دون أن تبدي له اعتباراً.

ـ ثمّ ماذا؟

يبتسم محجوب.

ـ هو متخرّج من «ساندهورست». ويريد أن يعرف الجميع، بمن فيهم أنت، أنّه هو القائد العسكريّ في هذه المواضع. يعرف أنّ لك ترخيصاً من عرفات بالذهاب والمجيء، ولكن

يريد ان يكون التصريح صادراً عنه أيضاً. لكن لاتعبأ به وتصرّفْ كما تريد. لقد بدأ الفدائيون يستعيدون النضارة، والمرونة، وشيئاً من الشحم، بل يغنّون أيضاً ويصفرون.

طوال عامين من اللقاءات المتكرّرة، ابان محجوب عن هذه الأنماط من النفور تأتي في أعقاب امتثالاتٍ هي من أكثر مايمكن صمتاً، وعن تحوّطات هي من اكثر مايمكن وحشيّة بعدَ مشاريع غريبة الجسارة، لكن ماإن يكون قد حدّد بساقيه الطويلتين مجالاً ومسحَه (من المساحة)، حتى يغدو كلّ حضور أنثويّ في هذا المجال ضرباً من المعصية. كان، مع بضعة آخرين، القائد المحبوب أكثر. وإذاما نحن فكّرنا بالأمر، فإنّ ملاحظاته الطفوليّة، التي تشي بأخلاقية تقليدية، كان لها مضاء احكام سليمان المفجوع لرؤية طفل مقطوع من أعلاه إلى أسفله. كان يدخل، فنُسحَر برؤيته، ويخرج فنفزع، وكان هذا الرجل المرهف وغير المتيقّن يبعث طمأنينة كبيرة. إنّ رهباناً في أمريكا الجنوبية، تربّوا على الأخلاقية التقليدية، يجدون أنفسهم، من دون أن يسعوا الى ذلك، في وفاقٍ مع محاربي العصابات، ولو لم يكن محجوب مسلماً لكان واحداً من هؤلاء.

ولقد تجرّأ على تنضيد هذه الحجج، ليُقنعني بأنّ لعب الورق يجرّ معه سمعة بيتٍ مشبوه، يشمّها الملاّكون القدامى الباقون في المنزل أو تحت الخيَم. ولو كنتُ عاندتُه أكثر لَسعى الى إقناعي بأنّ لعب الورق مضرّ للصحّة. كان يعرف النظافة لأنّه طبيب.

ومع ذلك فقد أكّد لي ذات يومٍ أنّ جميع المسؤولين العسكريّين يلعبون بالورق.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ لقد اعتدتُ ذلك.

ينبغي أن نأخذ اليد كصورة أولى. الذراع مرفوعة عالياً تحمل اليدَ، راحتها في اتّجاه السماء، تنقلب اليد، وبأصابع ماتزال مشلولة، شبه ضامرة لكونها كوّرَت القبضة، تنفتح الأصابع فجأةً فتتذكّر اليدُ بطائر يدَع العاصفة تحمله مضطجعاً على الظهر، ثمّ ينقلب تماماً لينفتح ويُسقط على طاولة المرمر، قُطَعَ النرد. تجدون في الأدب قطعاً عديدة تصف النسر المحوِّم، حائماً على الحمَل الذي يجهله ويلوك العشب؛ أو أنْ يطير النسر، ويدور حول دلفي، ومن منقاره تسقط السرّة؛ أو يخطف النسر بمخالبه [الأميرَ الأسطوريّ] غينامِيديس، الذاهلَ والسكران، حتى الأولمب ويُطلقه على لحافٍ من الغيم. عليَّ، وأنا أكتب التداعيات السابقة، أن افكّر بأنّ الأخيرة منها قد أملاها ربّ الأرباب؛ يد لاعب النرد ترتفع عالياً (على حين تظل

يد عازف البيان متأهبة لإطلاق نغم صعب)، عالياً ترتفع، تحوم للحظة، تنقلب وتُلقي على طاولة المقهى بقراءة الحظّ، وعلى المرمر تقذف الأرقام. وبسقوطها، تبعث الأخيرة صخباً رهيباً، كمثل طبلٍ يُقرَع. ترتخي أصابع اللاعب وتعود الى الطاولة، الآن وقد نطقَ الحظّ. وربّما كان لورق اللعب وظيفة النرد. نعرف براعة اللاعبين، يخفي كلّ واحد منهم على الآخرين ورقته، واللعبة يقرّرها « زفس». « لايلعب اللّه النردَ مع العالَم»، هذه عبارة لاتعني بالفرنسيّة شيئاً، فإذا ماكان اللّه، فهو، تحديداً، الكلّ، لعبة النرد وبقيّة العالَم. آنئذ تحمل الصدفة إسم العناية الإلهيّة، ولقد « نجحنا» (٦٧). ولئن كان القرآن قد حرّم اللعب بالميسر، فالتحريم يبدو هنا مُخفّفاً فحسب، شاكلة في إبعاد اللاعبين عن السؤال الذي يؤرّقهم: هل يقرّر اللّه نتيجة اللعبة؟ لقد اختارني، فلمَ أنا؟ ولئن سيطر عليَّ القلق فهذا أمرٌ يُفهَم. وإذا كانت الصدفة قد قرّرت بدلاً عنه، فهل الصدفة أسرع من اللّه؟ وهل كان اللّه بمحض صدفة؟

لم يقل محجوب شيئاً عن المبالغ المُقامَر بها، ولكنني عرفت انّ بعضها كان يعادل ضعف مرتّب اللاعبين ثلاثين مرّة. ولربّما كان الضبّاط، الماكرون والمرتابون من سذاجته الظاهريّة، لايعرضون أمامه سوى حبّات فاصولياء.

كان يتنقّل في حالة تبدو بين القلق والبراءة. كأنه لم يكن لينقصه، ليبدوَ هو قدّيس المكان والمرحلة، سوى الندوب (آثار الصلب) والانبعاث. ولكنّه مابرح على قيد الحياة. ويقيم في القاهرة.

كانَ غياباً فعليّاً للايمان، وبالتالي انسحاراً، ربّما كان علمانيّاً، أمام جمال العالم وطيبوبته. ماكانت هذه البراءة لتهبه أيّة سعادة بائنة، ولكنّها تمكّنه من التعبير عنها (أي عن السعادة) بحيويّة تجعلها تبدو عفويّة.

- أنظرْ الى صفرة هذه البراعم، ماأعذَبها. وكم من العافية تشي بها هذه الأوراق!

لكنّ هذه العبارات، عن الأمل بطبيعةٍ ذات عنفوان، كانت تبدو لي بمثابة التمويه الذي كان يريد ممارسته أمامي، إذْ حَولَه، وفي واضحة النهار، كانت الظلمة سميكة.

قيل لي إنّ أبناء الرعاع يجهدون في التخفّي على أصلهم بمعجم باهر، وعلى النحو ذاته يفتضح طيش الأولاد الذين تربّوا في النعماء، وذلك بالرغم من نشاطاتهم الثوريّة.

لاأحد كان يبدو مخمّناً انّ أكثر المناورات ابتذالاً قد أتاحت الاثراء العائث فساداً اليوم أيضاً، لفرط ما يجعل الذهبُ فظاظة الطرائق تبدو فاتنة، والشيء ذاته يفعله الطيش العميق في

النضالات والمعترف به كتسلية. وبقدرما نمعن في الرجوع صعداً، نقابل التحالفات والصليبيّين، والملوك الجدد، وصغار العتاة في طبقات النبالة الصغيرة، والاستحواذ على المواريث، والسلب المباغت المصادَق عليه بأختام مزيّفة من الشمع المذهّب أو الأرجوانيّ كدم الثيران؛ أمّا الصليبيون أنفسهم، فاختراع السيادات، والسلطنات، والامتيازات، والاقتران ببنات أحفاد النبيّ، واستيراث مباذل بيزنطة، والاسترقاق في عهد العثمانيّين، وأنا أغفل ذكر تفاصيل معتبرة، وكذلك تسلسل الصغَر والعجرفة، وأنماط الجسارة والزحف الضروريّة الذاهبة من كلوڤيس [ملك فرنسا وباسط بقاعها في القرن السادس الميلاديّ] الى ويغاند [وزير الدفاع في حكومة بيتان الفرنسيّة المتعاونة والألمان]، ومن النبيّ إلى حسين. وإنّ العُمر، وخصوصاً الثبات في النجاح الاجتماعيّ بباعث من المهامّ المشغولة طوال قرونٍ، هذا كلّه زادَ من رونق العائلات الكبرى، ومابرح الأبناء، المخلصون لهذا التقليد، يواصلون التصاهر والعائلات الاقطاعيّة اللبنانيّة والسوريّة والأردنيّة والكويتيّة، أو، إذا شئتم، مايزالون يحتفلون بمُصاهَرة الثروات الكبيرة. ماهي المفردة الأجمل التي نخصّهم بها ممّا يأتي: التكبيت أم الحسرة، أم الندامة التي تدوم أطول؟

بما انّ هذا الكتاب لن يُترجَم الى العربيّة ابداً، ولن يقرأه فرنسيّ ولاأوربيّ، وبماأنّني أكتبه على معرفتي بذلك، فلمَن تراه يتوجّه؟

لهذا السبب تُبقي البناية الأنيقة العائدة الى القرن الثامن عشر والتي صارت خزانة للكتب في سراي إسطنبول، تُبقي على أبوابها ونوافذها مفتوحة، وإنّ أرفَع وجهاء جميع الأقطار التي كانت تشكل الامبراطورية العثمانية، يجهدون، من دون أن يعرفوا ذلك بوضوح، في الإقفال على المدّاخل. إنّ وثائق بجميع اللغات تقبع في السرّ. وهي تظلّ، حتى وهي موصدة، تخيف العائلات الكبرى اليونانية والإيليريّة (٦٨) والبلغارية واليهودية والسورية والمونتنغريّة [نسبة إلى المونتنغرو أو «الجبل الأسود» في يوغسلافيا سابقاً] وحتى الفرنسية. والفلسطينية أيضاً. ينبغي أن نفهم من عبارة: «ساد الظلامُ العالَمَ» انّ كلّ شيء قد دخل ذاتَ لحظةٍ في تواصل بالغ الوشاجة مع جميع الأشياء الأخرى بحيث عرفتُ طوالَ هنيهاتٍ مايمكن أن يُدّعى وحدة العالَم؛ لكن سرعان ما تبدّى لي الانفصام بين الأشياء بفظاظة. فَبفعل دفعة هيّنة وفي ذلك النوع من السخافة الذي يأتي بالراحة، ذابت الامبراطورية العثمانية. ومابقي منها، تلك الصرخة شبه غير المسموعة لامرأة عجوز، تُطمّن وتلتقط حطامَ آخر السلاطين،

محمّد الرابع، والمناحة بالغة الحدّة لذلك الدمّل (الخصيّ) مُعزّياً ظلَّ اللّه على الأرض، أمير المؤمنين الواقف على متن الباخرة البريطانية التي تحمله [الى منفاه]، هذه الصرخة ربّما كانت صرختي أنا، والتي كان الفلسطينيّون يحسبون، ولمّا اميّزْها انا نفسي، أنّهم يسمعونها لا فحسبُ من فمي، بل من كياني كلّه طيلة إقامتي بينهم لسنة ونيّف. الابقاء على مكتبة السراي مغلقة: فلئن تُركَت الأرشيفات مفتوحةً بمواربة، لانتشرَتْ على إسطنبول روائح طاعونٍ تسمّم تركيا. وماهو مودَع في هذه الكتب المخطوطة بحروف القرآن القديم نفسه، هو ظلام العائلات الكبرى، فسادها، وشاياتها، ودعارتها. كان «الصدر الأعظم» [يُقابل رئيس الوزراء حاليّاً] هو السلطة الكليّة التي تُسدَّد لها أحياناً ضريبة بمقدار خصيتَين: من هنا كلّ تلك الاوامر المهموس بها في الاذن حتى لايُلتَقط جيّداً نغم «السوپرانو» أو «النديّ» الكاشف عن المخبوء؛ ومن هنا، وفي أيّامنا ايضاً، صوت «الخفيض» أو «الجهير» المعتبَر اداةً جميلة، وحاسمة، ودليلاً على فحولة غير مصطنعة؛ ومن هنا اخيراً وقاحة بعض الموظفين الاتراك، الذين يخاطبون في المذياع المخبرين الذين تستأجرهم الدولة: «ياجواسيسنا الأعزّاء». فأيّة عائلة، عثمانية أو سواها، لم يكن لها مخصيّ، واحد على الاقلّ، عشير أميرٍ أو «سلطانٍ أحمر»؟ لكنّ كلّ شيء مختومٌ عليه والطاعون يقبع تحت الرتاج.

انْ يُبالغ شعبٌ باكمله الصورة الاجراميّة، غير الانسانيّة، لشعب آخر يلاحقه، فهذا مايقدر عليه الجميع، لكن ان يُمعن هذا الشعب الملاحَق في الشبَه مع المُلاحِق، فانا أرى في هذا تحدّياً، شبه غير إنسانيّ، لبقيّة العالَم. هيَ إمّا بطولة عسيرة على البلوغ، أو ترخيص من الطبيعة، بالغة الانسانيّة هذه المرّة.

وعليه، فهل هو تحدٍّ رائع أم خرَع؟

أمسِ قالت لي فلسطينيّة، ربّما كانت حانقة، إنّ أقدم العائلات الفلسطينيّة، المتمتّعة جميعاً بالبراهين على انحدارها من عائلة النبيّ، تظلّ تتمتّع داخلَ الثورة بتأثير.

هل كان الانتماء الى عائلة وجهاء فلسطينية منافسة لعائلة الحسيني التي تمخّض احد فروعها البعيدة عن ياسر عرفات، يؤثّر على الخلَف؟ إنّ «شظايا» الوجاهة تجرح في الغرب وفي المغرب، لكن ليس هنا. وبتعلّة الولاء للسليل المباشر للنبيّ (الملك حسين) كان شطر من أسرة نبيلة النشاشيبيّ يمدّ بموظفين ملكيّين. لكن ماذا عنها هي؟ كانت ولاشكّ الفتاة الأجمل في

المملكة، قبل الحرب المعلنة ضدّ حسين، عندما كانت القواعد الفدائية لاتهدّد سوى إسرائيل. وكما في ألعاب أُمَراء، كانت هذه العائلات الكبرى تتحارب بعضها مع بعض، وتتنازع أو تتقاسم السلطة، وبالتالي ثروات البلاد، على مرأى من العثمانيين يتطلّعون إليها ببرود. ولقد خلّفت أبناء متمرّدين، لكن نادراً ضدّ الامتيازات – وأُسجّل أنّه ما من أسرة «شريفة» أي منحدرة من النبيّ كانت تسدّد الضريبة. اي خلافاً لعائلات العموم الثريّة، [التي كانت تسدّد ضرائب على] الأراضي والألقاب والأموال (ولاحظوا أيضاً أنه لاوريث رفضَ المواريث مهما كان من وقاحة أصلها وحتى إذا كانت ولدت من احتيال بديهيّ)؛ ولقد انفعلت العائلات عندما تعرّض فلاحو«ها»، وقد صاروا ثوّاراً، للقتل على أيدي رجال ماكان هؤلاء ليتبعوا إليهم، اي اليهود وبدو حسين. لكن ينبغي التمييز، في انفعال أبناء العائلات هؤلاء، بين الانفعال النابع من سخاء محض وبين ذلك الذي تجلّى عندما فرض التمرّد والمقاومة نبالةً جديدة، تلكم هي نبالة السلاح. ولقد أتاحت لي الظروف، الهازلة دوماً، أن ألتقي عربياً، غيرَ ثريّ ولكنّه، كما كان هو يفهم الأمر، مالِكُ حارسِ بيته، يوبّخ عربيّاً آخر بهذه الكلمات:

_ الا تستحي من مخاطبة حارسي بهذه اللهجة؟ أنا سيّده، وإذا كان أساء إليك، فأنا مَن يوبّخه، لاأنتَ، فلستَ بسيّده.

ولقد شعرَت العائلات الكبرى التي أصاب اليهود فلاحيها بجراحٍ، بالاهانة، وربّما كان ذاك عن وطنيّة، أو رأفة، وتنبؤ بما سيحصل، وخصوصاً بباعثٍ من رؤية غريبٍ وهو يمسّ مايملكون.

لمّا كانت هذه العائلات تشكّل، بقدر سَليلين آخرين للنبيّ وأحياناً أكثر منهم، مصدرَ كلّ وجاهة (رأيتُ في المغرب شجرتَي أنساب لرئيس عائلة؛ كانت إحدى الشجرتين النبيلتين ترقى حتى محمّد، الذي كان إسمه مكتوباً أعلى الرقّ بحروف من الذهب أو مرشوشة بالذهب؛ والثانية حتى إبراهيم الذي كان اسمه، البنفسجيّ، مرشوشاً بالذهب هو أيضاً)، فإنّ هذه العائلات كانت منذ عهد بعيد مسلمة ومستقرّة في فلسطين عندما جاء، وبأيّة فظاظة!، الصليبيون الإفرنج. وماكان أشراف فلسطين ليروا في آل لوسنيان (٦٩) سوى عصابة بائسة من العتاة الآتين من پواتييه [في فرنسا]، من دون نساء سوى تينك المومس الملتحقات بهذه المغامرة واللائي كانت الأميرات العربيّات يملن الى مقارنتهنّ بفتيات جميع المَباغي، الذاهبات زرافاتٍ تحت خيمة واحدة، مع أواني الطبخ والشاي والملاعق معلّقة الى احزمتهنّ، يقتفين أثرَ

أمراء الصحراء.

كانت نبيلة تجهل إسم آل لوسنيان وبالطبع اختفاءهم العجيب على هيأة ثعبان مجنّح. أتتكلّم «الأطياف Les Chimères» (٧٠) عن امرأة غي دولوسينيان؟ عصابة الأشرار هذه التي صارت طوال قرنين سلالة ملكية لماوراء البحار، من القدس حتى قبرص، وجمعتها علاقات مصلحةٍ وحبّ بوجهاء مسلمين وبناتهم. يعلن الفلسطينيون، بحسب سمرتهم أو شقرتهم، وبابتسامة، عن انحدارهم من عليّ أو فاطمة أو من [الألمانيّ] فريديريك الثاني هوهونستاوفن أو من غي دو لوسينيان، ويمتثل هذا الى ترتيب الأسطورة، أي التاريخ، بحيث يكون من الحماقة حرمان النفس منه. تذهب السلالات في فلسطين ولبنان من النورمنديّين الى أبناء صلاح الدين، ممزوجةً بدمٍ يهوديّ وفارسيّ متواصل. ولدت نبيلة في أسرة مسلمة. لم أذهب في تموز/يوليو ١٩٨٤ لرؤيتها في عمّان وآمل أنْ تكون مابرحت صامدة. كان منزل أبويها عتيقاً، وبالغ الجمال، في حديقة واسعة في قلب المدينة. هناك تعرّفت على نبيلة، في بيت والدتها، في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠.

كانت طبيبة في واشنطن، لكن ماإن سمعت في الاذاعة الأمريكية عن المجزرة حتى استقلّت الطائرة. إنخرطت في الهلال الأحمر، ومازالت فيه.

كنتُ، وأنا أبدأ هذه الفقرة من كتابي، أريد أن أعرف إن كانت هذه العائلات ستصمد بعد احتلالها مناصب عليا في المقاومة الفلسطينيّة. هوذا ماقالته لي ليلى، ابنة السيّدة شهيد:

ـ لم يعد لديها لاغطرسة الزعامات الكبرى القديمة ولاألقها. وعندما يعهد إليها عرفات بمنصب، فهو يختار أعضاء عائلات معروفة، بل شهيرة، ليُري استمرار النضال ضدّ المحتلّ، بموازاة الاستمرارية التاريخية المؤكّدة بمآثر حربيّة للعائلات المشهورة والعريقة. ولايريد عرفات منها شيئاً آخر. ولن يتيح لها أن تنال شيئاً آخر.

كانت نمرة من مسرح المنوّعات، شهيرة كما أعتقد، تقوم على مايأتي: راقصة ترتدي تنّورة مُسَلّكة تتجرجر على الأرض حتى لتغطّي كاحليها، بل قدميها، ولاترفع ركبتها الفستان أبداً، بل هي تبدو منزلقة بصورة مَرنة، زيتيّة، متواصلة، بحيث يتساءل النظّارة إذا لم تكن الراقصة تتنقّل على مزلج ذي بكرات يخفيه الفستان الذي يكنس الأرضيّة. وإذ تأتي للتحيّة الختاميّة، فهي تبتسم تحت صيحات الاستحسان، تنحني وترفع فستانها لتكشف عن المزلجَين غير المرئيّين اللذين كان النظّارة يستحضرونهما ذهنيّاً ويخشيانهما. ولقد أرانا التلفزيون

الألمانيّ هذه الصورة لميتران في تشييع السادات: كان أفراد حمايته يحيطون به الى هذه الدرجة من القرب، في أربع مجموعات متراصّة، وهو نفسه من الجمود في بذلته الزرَديّة [المضادّة للرصاص] بحيث كان يبدو محمولاً من قبلهم اكثر منه محميّاً، وبحيث بدا وهو يتنقّل من دون أن يمشي، إمّا يدعمه الحرس أو أنّه يتقدّم منزلقاً، منتعلاً مزلجَين ذوَي بكرات أو لوحاً ذا عجلات متحركة، لعبة أتقنها الصغار، وربّما كان رئيس الجمهورية الفرنسيّة يلعبها، على أنّها لعبة راقية نوعاًما، لأنّ سرعة الصغار، ومسارهم الذي يغيّرونه فجاة، ورشاقتهم (أعتقد أنّ المفردة الأخيرة تفرض نفسها عليّ)، هذا كلّه استبدله الرجل المهيب ببطء احتفاليّ وهازل. في احتفالات الدفن من الطبقة الأولى ترى أحياناً خيولاً أُلبِسَتْ رداءاً من نسيج أسود هابط حتى الأرض، تسحب التابوت المحمّل برفات ملكية. أمّا رئيس الفرنسيّين فكان فلْوة متعبة تتقدّم الى اللقطة الكبيرة على مزلجَين. إلاّ إنّ هذه الصورة الكرنفاليّة، الموسوم فستانها الأسود بالشعارات أم لا، كانت تدفعني أكثر ممّا تندفع فيَّ الى الصورة التالية: الكُمَيمات الحريرية التي تكمّل العرائس أو الدمى، والتي يُدخل فيها مرقّص العرائس كفّيه ليحرّك كما يشاء الكائنات الصغيرة على خشبة صغيرة مقلّداً هزيم الرعد؛ هكذا بدا لي الرئيس هو الدمية التي كان جزؤها الأسفل، غير محدّد الجنس، محجوباً بكُفَيف واسع من الحرير، وبحيث أنّ ميتران، في جموده، كان يعلو بقدر رأسٍ على أفراد حمايته الذين كانوا يحملونه؛ والرئيس، الذي ترقّصه الشرطة، يستمدّ منها سلطته؛ ولابدّ أنّ صوت الشرطة الغليظ كانت تطغى عليه أصوات الطبول لأنّني لم أسمعه، ولكنّني كنت أعرف أنّ هذه الصورة لرئيس يتقدّم على مزالج، تدفعه الشرطة، تقدر، أكثر ممّا تفعل نظريّة، أن تُثبت أنّ القوّة تسبق القانون، وإذْ عرفتُ هذا لأنّ التلفزيون كان يريني إيّاه، تطامنتُ. تسبق القوّة القانونَ الذي ينبع منها بفضل أكمام حريريّة. وعبرَ أبي عمر الميت مشنوقاً أو مرمياً بالرصاص أومدفوعاً إلى الغرق، والذي مايزال يتحرّك بفضل كُمَيماتي الحريريّة ويتكلّم عبرَ صوتي، أجعلُ كلمات تُلفَظُ، كلمات لعلّه ماكان سيقبل بها، وأنا أقوم بذلك بمنتهى الهدوء، عارفاً أنّ رياء القارىء يلتقي وريائي. عبرَ ماأُنطقه إيّاه، يحيا أبو عمر ثانيةً.

كان داود التلحمي يعمل في «مركز الأبحاث الفلسطينيّة» ببيروت. عرفت، من رسالة بعث بها لي الى باريس، أنّ حمزة كان، في ١٩٧٢، معتقلاً في الزرقاء، قريباً من المكان الذي أُجبرَت ثلاث طائرات من الخطوط الجويّة السويسرية على الهبوط فيه. كتبَ لي أنّه عرف بذلك من الشاعر خالد أبي خالد. كانت القوات الأردنية، بعد مجازر عجلون وإربد، قد أخضعت حمزة للتعذيب ليعترف بكونه مسؤولاً عن فدائيين عديدين. أصيبَ بجراحٍ في

ساقيه. ولئن كانت معرفتي بأساليب التعذيب غامضة بحيث لاأقدر أن أتخيّلها حقّاً، فإنّ الفلسطينيين كانوا قد وصفوا لي ضغينة البدو والشركس، وحقدهم، وطبيعة السلطة الملتوية.

مَنْ كان سجّانو حمزة؟ ومانوع التعذيب الذي تعرّض له؟ يكفي أن أتذكر حمزة واسرته، والعلاقات التي ربّما كانت من صنع خيالي، بين الامّ وابنها، فهذا يكفي لإدامة هذه الحياة المزدوجة التي صارت في استحالة الاستغناء عنها كمثل عضوٍ من الجسم لاأقدر أن أقبل باستئصاله ولابموته؛ ولئن كنت غير كامل الوثوق من انّ هذا الحضور فيّ كان ضرورياً ليستمرّ وفائي للمقاومة فأنا ماكنتُ بالمقابل عديم اليقين تماماً من ذلك؛ وانْ يتواصل فيّ هذا الوجود لحمزة وأمّه، أو، بتعبير أدقّ، للعلاقة بين الامّ والابن، وبين الابن والمسؤول، أقول أن يتواصل فيّ هذا الوجود الى حدّ أن يعيش حياة مستقلّة وحرّة حريّة عضوٍ غازٍ، أو ورمٍ ليفيّ يضاعف جساراته واستطالاته كلّ يوم، فقد كان هذا يبدو لي من طبيعة الحياة الحيوانية وحياة النباتات الاستوائية؛ ولم يُفزعني قطّ أن يواصل هذا الزوج (حمزة وأمّه) مصيره فيّ مادامَ يرمز الى المقاومة، على الاقلّ تلك المقاومة التي اتّخذتْ شكلاً في خطابي وافكاري عنها.

ثمّ إنّني ماعدتُ أعرف لأيّ شيء هو الرمز، فالزوج الذي رأيتُ ذاتَ مساءٍ ونصف نهارٍ كانَ يجمع ويكثّف في ذاته، وفيه وحده تقريباً، كاملَ المقاومة، مع بقائه ذلك الزوج الفريد، حمزة—و—أمّه. وفي اللحظة التي قرأتُ فيها رسالة داود، كان كلا طرَفي هذا الزوج يتعرّض من ناحيته للتعذيب، بوسائل مختلفة. كانت الملكيّة تتدعّم بالأسلحة الأمريكيّة الى الحدّ الذي بدا لي معه انّ رسوم التيجان الملكيّة وتشابيهها التي تعتلي الشوارع والساحات في عمّان، والمصمّمة أوّلاً في صفائح من الألمنيوم النحيف جداً بحيث تبدو في بُعدين إثنَين، بدا لي أنّها تنقلب الآن الى معدن مفضّض، مذهّب أحياناً، وتتحوّل الى قبابٍ تعتليها النجمة الخماسيّة، والملك، النحيف والمفروش كصفحة غير مكتوبة، يكتسب بالتدريج وزناً وكثافة، وبُعداً ثالثاً، بل ورابعاً، ويصبح في خاتمة المطاف كتابةً ومعنى.

سيكون القوسان اللذان سأفتح مقبولين بسرعة، وبسرعة مُغلَقين. لقد ذكّرتْني تصرّفات بعض الفلسطينيين الراشدين أحياناً بالعنصر الامومىّ أكثر ممّا بعنصر المحارب الحقيقيّ. هكذا، كان مسؤول عن عشرين فدائياً، متزوّج في سوريا، يذهب لينام الأخيرَ بعدما يكون أشرفَ على توزيع الأغطية وتحقّق من أن كلّ واحدٍ نال حصتّه لينعم بالدفء في الليل؛ وكان آخر يذهب من مجموعة الى أخرى، وحتى مهاوي غور الأردنّ، يوزّع رسائل الفدائيين. هي ممارسات أموميّة، لاأجرؤ على نعتها بالأنثوية، كانت تجبر المسؤولين على اعتبار المحاربين الفتيان، الحامل كلّ منهم على الشفتين شيئاً من الزغب يرسم الشاربَين أو خطّاً من الرماد بالغ الرقّة بين الأنف والفم، اعتبارهم أبناء ومدلّلين أكثر منهم مرؤوسين كما يواصل الغرب

اعتبارهم. وأنْ نُطلق على الأمّ صفة الفحوليّة، فستكون هذه هي الدلالة لا الكلمة التي تستحقّها هي. لقد تربّى حمزة على يديها، ويمكن أن نتّفق على أنّ الرجل، والرجل وحده، يعرف مايناسب الرجل الوحيد؛ وأنّ النساء وحدهنّ كنّ يُعربنَ في المخيّمات عن قدرات استراتيجيّين هي من الضخامة بحيث تجعل هذه المفردة (« الاستراتيجيّ ») تستحقّ التأنيث. وعندما كان الشباب الفحل يقصف هانوي وفيتنام الشمالية، يقال إنّ مخيّلة النساء مكّنت من تفادي الأسوأ. وكان حنان مفرط أو مفرط الوضوح يبدو وهو يُصادق على وفاق عشقيّ بين صبيّين في تلك الجبال المحرمّة على النساء، وهل يمكن أن تسير الأمور بخلاف أنْ تثير بشرة ملساء بشرةً خشنةً نوعاًما، حيثما كان المجال، في الشمال كما في سائر الجَنوب، مزروعاً بأسلحة فولاذية على أهبة الانطلاق؟ فكأنّ الموت، المترصِّد، كان يُحيل نافلةً كلّ هياة للقرار أخرى غيره. وأيّة إدانة نطلق على رغبة مفاجئة، مقبولة كمَسْحة تبريك أخيرة؟ ماالذي حدث في « الزرقاء »؟ وكيف كان حمزة يعيش هناك إذا كان مايزال على قيد الحياة؟ مهما تكن براعة المخيّلة في تصوّر التعذيب، فهي لاتكفي لتمثّل رقص شعوذة الجلاّدين والمجلودين. هل لآلات التعذيب، عبرَ شكلها بالذات، حصّة في الاكتشافات التي بها سيتعرّض الجسم والروح للاهانة، بل ربّما للتمزيق، كليهما، وذلك إلى حدود الفرح؟ وهل كان فكر الانسان وحده قادراً على ابتكار الأشكال؟ بفضل حروب التحرير، نتخيّل أين كانت المتعة، الجنسيّة غالباً، وأين كان العذاب العاري. نتخيّل ذلك، ولكنّنا لانعرف شيئاً، ويحدث أن نخطيء. ينبغي ألاّ نقول شيئاً، لأننّا لانعرف هذه الأشياء، عن التواطيء أو التعقّد المحيط بالجلاّدين، بالغي الرقّة أحياناً، والمعذَّبين–الضحايا الذين تكون شكاواهم مغنّاة ببالغ التفنّن أحياناً.

كثرت في أوربا، في العقد الثمانينيّ، الدعايات التلفزيونية، ومن دون أن تجرأ على السخرية المفضوحة من الشرق أو من العالم العربيّ، راحت صوَر كثيرة تهزأ من الأساطير الاسلامية والفارسية والمصريّة؛ هكذا ترى الى قافلة من الجمال كلّ منها بأربعة سنامات أو خمسة، وهي تنقص سناماً كلّما راثَ الأخير منها: وينفتح الروث على علبة من سجائر « كمل » (« الجمل »)؛ كما ترى الى أربعة شيوخ وهم يحلّقون من أجل تشييع جنازة على بسُط ريح تجتاز بهم المدن والمنائر، ويصل الأكثر خرَقاً بينهم فائزاً في اليانصيب بالبساط الذي كان سافرَ عليه. إنّ هذا الاسترفاع، اليسير على التنفيذ في السينما، يمكن أن يكون ممتعاً، ومتهكّماً؛ وعندما شاهدته في التلفاز، أصابني الى هذا الحدّ بالبلبلة بحيث رحتُ أبحث عن أسبابها. وإذا كانت جميع تخاريف الحكايات انعكاساً (مفردة تفرض نفسها) لماالانجرؤ على رؤيته في داخلنا؟ إنّ ماكان يزعجني أكثر هو قوّة الزوج « الأمّ–حمزة » المتراكب مع الزوج

«المنتحبة–إبنها المصلوب». وإنّ إرادة إيضاح هذا العُسر، وتلك التشطيبات أو القروح اللذيذة التي يأتي بها داء أبيض (٧١)، قد دفعتاني الى القيام برحلتي الأخيرة باريس–عمّان، رحلة كنت أفترض أنّها ستكون صحراويّة، أي، في آن معاً، صحراء خالية من كلّ حياة، غير متناهية، باعثة للسرابات والأطياف الذاهبة من الجنّ حتى الأب دو فوكو (٧٢)، وتُيبس البلعوم والفكر، لكنْ أبعدَ أيضاً من هذه الرحلة الأخيرة، التي قمت بها للامتثال الى واقعٍ كنتُ أحسبه خارجاً عنّي في حين كنت مشغولاً بحلم يقظةٍ كان قد ولدَ فيَّ عندما كنت في الخامسة من العمر؛ إلاّ إذا كنت، لدى الاقتراب من الموت، رغبتُ في وضع قصّة رحلات أخيرة. خلافاً لهذه الرحلة، كنتُ قمتُ بالرحلة الأولى مدفوعاً بشعاع نظرة فدائيَّين يطقطقان على تابوتين خشبيّين كانا مهيّأين لميتين طازجَين سائرَين الى الحفيرة النهائية؛ وكنت أواصل رحلتي محمولاً على تلك الإشعّة، كلّ فدائيّ باهر يتناوب وفدائيّاً آخر وهكذا دواليك حتى التعب، لاتعبهم هم بل تعبي أنا؛ وهكذا، فقد سافرتُ شأني شأن الشيوخ، على بسُطٍ للريح، تحملني نظرات وأسنان وسيقان. وكمثْل الشيخ الجالس القرفصاء على البساط، كنت أصل مرهقاً، واليوم فحسب أتساءل عن تلك الاقامة بين الفلسطينيين: أتراني قمتُ برحلة ثابتة؟ إذ يبدو لي أنّه لم يحدث في رحلتي الأولى بالطائرة من باريس الى بيروت أيّ شيء ممّا هو مدهش خلا الشعور، شبه المتعذّر على التشخيص، بالاندهاش عندما رافقني محمود الهمشريّ الى درعة. ولقد أحسست بالاستياء عندما استقبلني أحد الأشبال بفخامة (تحية عسكرية على الطريقة الانجليزية، اليد ممدودة أفقياً على مستوى الحاجبين) ليقدّم لي النصب الأول للشهداء، في مخيّم شاتيلا الذي كان مايزال مجهولاً، ولايتوقّع، يقيناً، أنّه سينجح في تحقيق هذه الشهرة التي تنافس اليوم «أورادور» (٧٣): تتّخذ كلّ من القريتين وقفة للتصوير، أيّهما ستكون هي الأشهَر؟ لكنّ إقامتي كلّها، التي دامت سنة ونصف السنة، كانت، إذا أمكن القول، محمولة بضرب من الشعاع، هذا الذي كان ينبعث من عيني فدائيّين ينقران إيقاعاتٍ دائمة التجدّد على تابوتَين: ولايبدو لي متعذّراً أنّه، طوالَ رحلتي، وكلّما أحسستُ بالتعب، كان فدائيٌ في سنّ العشرين ينشر الغسيل؛ أو يريد عظامي [بعد موتي]؛ أو يسمعني وأسمعه ليلةً بكاملها؛ أو ينهض أمامي أعلى من منارة؛ أو يبتسم فيما يتناول معي سردينة؛ ودائماً كان شعاع الأعين الأخرى يتناوب وشعاعَ عينَي الفدائيّين الناقرَين في درعة على التابوتَين ضاحكَين؛ كانت هذه الشعاعات تحملني، ومابرحتُ أتساءل إذا لم يكن شطر كبير من سعادتي آتياً من أنّني كنت محمولاً في ثكنةٍ متحرّكة؟

الحاشية القلقة: كانت الشبيبة السوداء يتردّد الواحد منها بين التمرّد والتحوّل إلى «تـــوم» Tom [أسوَد عامل في إدارة البيض]. بسرعة أصبحوا كثيرين ومُسرفين في جميع المظاهر: بشعرٍ أطول من المعتاد وأكثر عموديّة؛ وبناطيل مخمليّة تتراوح بين ألوان التوت والقدّة

والليلك والكرز؛ وجزمات من الجلد المذهّب؛ وشوارب ولحى معالَجة بالأسلوب الوحشيّ؛ وستَر مطرّزة باللّماعات؛ وخوَذ حريرية مطروحة على أربع شعرات أو خمس تتجاوز بقيّة الكتلة؛ والعضو الجنسيّ مصبوباً بعناية بين الفخذين؛ وكلمات وعبارات متهكّمة ومصمّمة لتجرح البيض وتبهرهم بالقدر ذاته، هكذا كانت الشبيبة هي الحاشية القلقة أو المتذبذبة للفهود السود الذين كانت هيَ تنسخ لغتهم ووقاحتهم من دون أن تتحلّى بشجاعتهم ولا بالتفاني المتقشّف الذي يميّز الشعب الأسوَد. وكان بين الفكرة التي أكوّنها لنفسي عن الفهود السود، غير المعروفين إلاّ من قبل الصحافة التي كنت آتيها ببعض التصحيحات، وواقعهم المعيش، فارق أعلمتْني سعته بسرعة أنّ هذا الاضطرام الفتيّ ماكان إلاّ هدُباً. صرت أعرف التمييز بين الفهود وهذه الطرائد: كانت الأخيرة مستخدَمة في الدوائر وسواها وتتحوّل إلى حواةٍ بعد العمل. لكن يكفي أن يغامر أحد هؤلاء الشبّان، عن خطأ أو إقدام، بالسير وحيداً في حارات البيض، أو يرى إلى بعض خيالات البشر وهي تخرج من أشجار الجمّيز في الساحة، حتى تعرف نظرته وساقاه وبقية جسده ذلك الرعب الذي كانت تشير إليه عبارة دافيد: «مايزال ثمّة أكثر ممّا يلزم من الأشجار». ومهما يكن من بُعدهم عن الفهود، فهم كانوا أقرب إليهم منّي بكثير، لأنّهم مسكونون بهواجسَ واستيهاماتٍ لن أعرف أبداً سوى ترجمتها المتهكّمة.

لو لم يكن الفهود السود سوى عصابة من شبّانٍ سود يخرّبون مجال البيض، ولصوص لايحلمون «إلاّ» بالسيّارات والنساء والبارات والمخدّرات، فهل كنتُ سابرح مكاني لأكون معهم؟ إنّهم، بقراءتهم ماركس وتهديدهم بإطلاق فكره على المشاريع الحرّة، لم يتحرّروا من الظمأ للاستبعاد، فكانوا لا-اجتماعيّين ولا-مسيّسين إنّما صادقين في غواياتهم ومحاولاتهم تشكيلَ مجتمعٍ كانوا يلمحون مثاليّته وواقعه الخالي من الفرح، وكانوا «مشتغَلين» بقوى «لا-» [الدالّة على نفي كلّ انتماء]، وطوال الفترة التي عشتُها معهم حسبتُ أنني ميّزتُ نوعاً من التوتّر المُذهِب للعقل: شجب لكلّ هامشيّة هو بمثل فخامة الدعوة الى الهامشيّة وضروب جذلها الفريدة.

يغامر الثوريّون بالضياع في وفرة من المرايا. ومع ذلك فتلزم لحظات تخريبيّة ونهبيّة تقارب الفاشيّة، تسقط فيها أحياناً للحظاتٍ وتتحرّر منها لتعود إليها في سكْرٍ متعاظم. ليست هذه اللحظات طليعية بالضرورة، ولكنّها كانت سبّاقة، ومن صنع شبيبة سوداء مشتغلَة بحياة جنسيّة مجنونة أكثر ممّا بالأفكار التي كانوا يعلنون. وربّما لم يكونوا مسكونين بالجنس بقدرما بفكرة عن الموت تلقى ترجمتها لديهم بعمليّات النهب والسلب. وكان الفهود السود الحقيقيّون شبيهين بهم للحظة. كان عنفهم عنفاً في حالته الخام تقريباً، لكن لمّا كان يردّ على

فظاظة البيض فهو يتمتّع بدلالة سوى ذاته. ضروب العنف: مسيرات يحملون فيها السلاح الأبيض، اغتيال لأفراد الشرطة، وسطو على المصارف؛ كان على الفهود أن ينفتحوا على العالَم عبرَ ثغورٍ وحزوزٍ، عبرَ الدم. جاؤوا الى العالم مثيرين الذعر والاعجاب. وحتى في بداية ١٩٧٠، كان الحزب يتمتّع بالمرونة والصلابة اللتين تذكّران بعضو ذكريّ - أكثرَ من الانتخابات كانوا يؤثْرون انتعاظه. ولئن كانت الصورَ الجنسيّة متواترة، فلأنّها تفرض نفسها ولانّ الدلالة الجنسيّة - الانتعاظيّة - للحزب تبدو بديهيّة الى حدّماً. وذلك لالانّ الحزب كان مؤلّفاً من رجالٍ فتيان، مضاجعين ينالون وطرهم مع نسائهم في النهار والليل، بل لانّ الأفكار، وإن بدَت إجماليّة، كانت كمثْل عمليّات اغتصابٍ مرحة تعرّي أخلاقية « ڤكتوريّة » عتيقة، مهترئة وممحوّة إنّما عنيدة، وماهي إلاّ انعكاس، هنا في أمريكا، بتأخّر مائة عام، لتلك المتمتّعة بمنبعها في إنجلترا، في لندن، في بلاط السان-جيمس. وبمعنى من المعاني، فقد كان الحزب هو أيضاً [نوعاً من الجرم الانجليزيّ ذائع الصيت] جاك الذبّاح Jack L'Eventreur.

أليس صحيحاً؟ كلاّ، لانّ الاخير كان يُخصب. كلّ واحدة من اغتلاماته كانت تثير موجة من الضحك. و« الأسوَد جميل » لأنّه ياتي بالحَريّة. وحتى إذاما نُفّذتْ في النهار، كانت عمليّات الفهود السود تحيطهم بهالة غيهبيّة في نظر البيض.

لكنْ هذا: إنّ ظهورهم في المعزل (الغيتو) قد حمل نوراً يمزّق قليلاً ظلام المخدّرات. وتحت بضع شتائم سمجة، اغتصابيّة، تجَلد البيض، كان الفتْية السود يرسمون ابتسامة نحيفة تُنسيهم « الافتقاد » إلى المخدّر لهنيهات.

وسيضحكون لاحقاً عندما ساقول لداڤيد، الذي كان يلحّ في ان ينادوا على طبيب لمعالجة زكامي:

- انتَ لي بمثابة أُمّ.

وسيأنسون غالباً بخلط الجنسين، وبالقبض على النحو بجُرم التمييز الجنسيّ المشهود، لكنّهم يكشفون تحت السروال عن أعضاء منحوتة بروعة.

وجاء إبراز الجسد متأخّراً. أتكلّم عن إبراز الجسد بماهو سلطة. لقد بدَت فحولة السود الطبيعية - والمفرطة في نظر البيض - كنزعة استعرائيّة إنْ هي إلاّ ردّ على استعرائية النهود البيض في الحفلات المقامة على شرف الفهود. وكانت فترة احتشاميّة، ڤكتورية أكثر منها اشتراكية، قد سبقَتْ. وحتى تلك النظرية الشهيرة، الداعية الى أزمنة إيروسيّة وغائطيّة

وتهتّكيّة، والمشجّعة على مُجامعات غريبة الأطوار حافلة بالنتوءات، كانت تظلّ عفيفة لفرط تنميطها واستخدامها ضدّ الشيطان والشيطان وحده: نيكسون أو الامبرالية البيضاء. هل يمكن أن تساعد الأعضاء الجنسية في التصنيف مختصّاً في الحيوان، شأنها شأن التعبير «أفعى شهوانيّة»؟ وأخيراً، فقد كانت البناطيل مفصّلة وفقَ طراز شبْه فلورنسيّ، وصار عرض المذهب تفاخرياً. وكما هو مفترض، وطبيعيّ، فقد انتقل السود من الحفر على النحاس الى النقش البارز.

كانت المرّة الأولى التي عرفتُ فيها داڤيد هيليارد في أعقاب محاضرة أمام طلبة جامعة كونيكتيكوت. بعد هذه المحاضرة، دعانا التلامذة السود الى «شاليههم» [دراتهم الخشبيّة] في الحيّ الجامعيّ. وصلتُ بعدَ داڤيد. كان جالساً، يتحدّث وسط تلامذة، فتيان وفتيات سود. وماأسرَني هو التساؤل الصامت على جميع الوجوه السوداء. وجوه زبانية البراجوازيّين السود وبناتهم، يصغون الى سائقٍ شاحنةٍ سابقٍ يكبرهم في السنّ قليلاً. كان هو «البطريرك» يتحدث الى سلالته عن أسباب النضال ومعنى التكتيك. كانت هذه العلاقات سياسيّة، ومع ذلك فلم يكن السياسيّ هو الصانع الوحيد لهذا التلاحم، وإنّما كذلك إيروسيّة حاذقة وقويّة. إيروسيّة قوية وفي الأوان ذاته بديهيّة والى هذا الحدّ متكتّمة بحيث لم أرغب أبداً في شخص معيّن: ماكنت سوى رغبة في هذه المجموعة وكانت رغبتي مُشبَعة بكون هذه المجموعة قائمة.

ياترى ماالذي كان يعنيه حضوري الأبيض والورديّ بينهم؟ وهذا أيضاً: أنّني كنتُ طوال شهرين طفلَ داڤيد. كان أبي أسوَد ويصغرني بثلاثين سنة. وكان جهلي للمشاكل الأمريكية وربّما أيضاً هشاشتي وسذاجتي، هذا كلّه كان يدفعني الى البحث في داڤيد عن مرجع، ولكنّه هو نفسه كان يتصرّف معي بكثير من التحوّط، فكأنّ بلاهتي جعلتْني ثميناً.

لئن كان من العسير الكلام عن الجاذبية الجسدية وعن الايروسية العاملة في المجموعة الثوريّة، فإنّه لأكثر عسراً أن نتذكّر القرف والنفور الجسديّ اللذين يمكن أن نحسّ بهما أمام فتّية أو فتيات يبدون بلا جاذبيّة. هذا قائم، وهو عصيّ على التحمّل أحياناً. بين الفدائيين، كان عدنان (صرعه الاسرائيليّون) يتسبّب لي بهذا القرف. لاشكّ أنّ مثْليّتي الجنسية كانت تنفره.

ربّما كان الجنس، حتى قبل أن يطال الوعي، هو الظاهرة الأكثر انتشاراً في العالم الحيّ. وربّما كان مايزال ينتظر الاثبات أن يكون الجنس هو الباعث المباشر والأوحد لارادة القوّة،

ولكن تجلّي القوّة، إذا لم يكن إرادةً دائماً، فهو يبدو قائماً حتى في العالَم النباتيّ. وثمة وظيفة أخرى، ربّما كانت أقلّ كونيّة: الانهمام، الذي يقلّ وعياً أو يزيد، الذي يعرفه كلّ فرد، في اقتراح صورة عن ذاته، ونشْرها، بعيداً وبعدَ موته، بحيث تمارس سلطاناً، أو بالأحرى إشعاعاً بلا قوّة أخرى سوى هذه، القويّة والرخوة وبالغة الرقّة في آن: هذه الصورة المنبعثة من الفرد، أو المجموعة، أو الفعل، والتي تجعلنا نقول إنّهم أنموذجيّون. وأكثر من أيّ شيء آخر، تدلّ «أنموذجيّ» هنا على أنّنا أمام أنموذج واحد، نسخة وحيدة، لن تخدم كأنموذج. هو ضرب من إيعاز ساخر: «مهما فعلتم، فلن تُنقصوا فرادتي أبداً». وهذه الوظيفة جدّ منتشرة وربّما كانت مرتبطة بالموت بحيث تنشد التحقّق في أثناء حياة الراغب فيها: والأخير يرغب فيها مادام يُجمّد نفسه في صورة عن ذاته، ولكنّه يُبعدها إذ يرغب في هذه الصورة في أثناء حياته. والفتى الذي يجعل نفسه يُصوَّر يرتّب بذلته قليلاً، أو يشوّشها، أي في جميع الحال يزحزحها، ويفرض على نفسه وضعيّة تصوير (بوز)، فقد تكون هذه الصورة في العيد الشعبيّ هي الأخيرة.

لايتعلّق الأمر بنادرة أو اثنتين ينبغي روايتهما، بل إنّ هذا الانبعاث والتكاثر لصورة أو ألف صورة هو ماآنَ الأوان لتفحّصه. الأسطَرة أو الولع بالأكاذيب، أحلام اليقظة، والشعور بالعظمة، هذه هي الكلمات التي تُستخدَم عادةً بحقّ رجلٍ لاينجح في أن يعكس بصورةٍ صحيحةٍ الصورة التي يكوّن عن نفسه، صورة ينبغي أن تحيا حياتها الخاصّة، المغتذية دائماً، وبلاشكّ، من أفعال هذا الرجل في أثناء حياته، أو من خوارقه ومعجزاته عندما يكون ميتاً؛ لكن لاأحد يفسّر لنا مع ذلك الوظيفة الاجتماعية لهذه الصوَر وهذه المحاولات في صناعة صوَر هي من القوّة بحيث تصبح أنموذجيّة، فريدة، معزولة بعضها عن بعض بالمسافة غير القابلة للاختراق بين عرض وآخر، ومع ذلك فهي في وفاق بعضها مع بعض، مادامت تشكّل الذاكرة والتاريخ. ربّما لم يكن من رجل لايرغب في أن يكون أسطوريّاً، على مستوى يصغر أو يكبر. أن يصبح بطلاً يتسمّى به الآخرون، مطروحاً في العالم، أي أنموذجياً، وبالتالي فريداً، قويّاً لأنّه يصدر عن البداهة لا عن السلطة.

من بلاد الأغريق حتى «الفهود السود»، يظلّ التاريخ مصنوعاً من إرادة المرء في أن يُطلق من ذاته، أو، إذا شئتم، يفوّض عنها في المستقبل، صوَراً أسطوريّة، فاعلة على مدى، مدى جدّ بعيد، بعدَ موته: لن تنال الهيلينيّة من سلطان حقيقيّ إلاّ بعد موت أثينا؛ ويسوع يوبّخ بطرس الذي يبدو مانعاً إيّاه — أو يريد منعه — من تحقيق صورته، ومنذ مطلع حياته يبدو يسوع وهو يبذل كلّ مافي وسعه حتى يلاحظه الآخرون؛ ولعّل سان-جوست، بعدَما حكمَ عليه فوكييه-تانفيل، كان قادراً على الهرب، ولكن... «إنّني لأزدري هذا الغبار الذي منه

اتألّف والذي يخاطبكم، لكن لا لأحدٍ أن ينتزع منّي هذه الحياة المستقلّة التي وهبتُ لنفسي في الأعصر والسموات...»

وعندما يكوّن المرء صورة يريد إذاعتها، بل إحلالها محلّه، فهو يبحث، يخطيء، يرسم ضلالاتٍ وعدداً من المسوخ غير القابلة للحياة، صوَراً عن نفسه عليه أن يمزّقها إذا لم تتساقط من تلقاء ذاتها: ذلك أنّ الصورة الذي ستبقى بعد الاعتزال أو الموت ينبغي أن تكون قويّة وفاعلة: صورة سقراط، أو المسيح، أو صلاح الدين، أو سان-جوست... لقد أفلحَ هؤلاء في تحقيق المأثرة المتمثلة في أن يعسكوا حولهم وفي المستقبل صورةً، قد تكون متطابقة مع ماكانوا وقد لاتكون، فَماهذا بذي بالٍ مادامو عرفوا كيف ينتزعون هذه الصورة الظافرة، صورة أنموذجيّة، أي فريدة، فاعلة لالأنّها ستكون منبع مبادراتٍ تمكّن من محاكاتها وإنّما منبع أفعالٍ يُقام بها ضدّها في الوقت الذي نحسب فيه أنّها يُقام بها بفضلها ومن اجلها؛ وخصوصاً فهي، أي الصورة، الرسالة الوحيدة من الماضي التي تفلح في الانقذاف حتى حاضرنا. ولن تغيّر مصادر المؤرّخين وتآويلهم المختلفة شيئاً من ذلك: فمحلُّ الصورة المدعوّة بالسلفيّة-الأصليّة، يريدون إحلال صوَر أخرى. أكثر حقيقيّة؟ إنّها لن تكون لاأكثر حقيقيّة ولاأقلّ مادامت ستكون صوراً آتيةً من الماضي. والبطل المتوحّد والاسطوريّ الذي وصلتنا صورته، صحيحة كانت أم لم تكن، وراحت تفتننا، إنّما يسعى المؤرّخون الى تدميره ومحوه وإبداله بتفاسير، ووقائع، تجتذبنا – أو نهضمها – بالقدر الذي تتحوّل فيه الى صوَر سهلة، تسّهل ثرثرتنا.

قد يختفي المسرح في شكله الاجتماعيّ النفّاج الحاليّ، بل يبدو منذ الآن مهدّداً، لكنّ المسرَحة ستبقى إذا كانت هي هذه الحاجة لاقتراح لاعلاماتٍ وإنّما صوَر مكتملة، صلدة، تتخفّى على واقع ربّما كان غياباً للكينونة. الفراغ. ولكلّ امريء، حتى يحقّق الصورة النهائية التي يريد عكسها في مستقبل غائب بقدر حاضره نفسه، أن يقوم بأفعال نهائيّة تتيح له الارتماء في العدَم.

كان فرج يتمتّع بجميع مظاهر الرجل أو المحارب الذي يُدعى بالمُعافى. عندما عرفتُه كان في الثالثة والعشرين. وهو مَن أغراني جسده ووجهه وفكره، بالغو الحيويّة، في الليلة الأولى التي أمضيتها مع الفدائيين حتى الفجر، ومن أجل رؤيته ثانيةً جئتُ تحت الأشجار. كان خارجاً من ملجأ، صحبةَ فدائيّ يصغره في العمر. شعرَ بالضيق لدى رؤيتي، إذ عرفَ أنّ حركتين قد أحرَجتاه للتوّ: نسيَ أن يخفي حركة تصعيد بنطاله قليلاً وحركة إنزال كنزته، هاتين الحركتين اللتين تدلاّن لوحدهما في نظر الآخرين على ترتيب ملابسه نوعاًما، لكنّ الوجهَين كانا شديدَي الفصاحة، وجه فرج محمرّاً، ووجه الفدائيّ الشابّ المحمرّ هو أيضاً إنّما انتصاراً. ماالذي انقضّ ياترى، كمثْل بازٍ، على فرج، القائد الفكه والسخيّ، ليحوّله الى

محض رغبة امام الفتى؟ أين كان الانحراف؟ في فرج فجأة، أم في نظرة الفتى الماكرة نوعاًما، أم في السماء بالغة الصفاء والتي كانت الرغبة تحوّم فيها وهيَ على اهبة الانقضاض؟ أم فيَّ أنا الذي رأيت ذلك أو حسبتُ أنّني أراه؟

وماستكون وظيفتي تحت هذه الأوراق المذهّبة؟

إنّ مصدر أهمّيتي الوحيد والكبير جداً هو هذا: كنتُ، في المساء عموماً، الباعثَ على تجمّع فدائيّين متعَبين وضاحكين. وأعتقد انّ التجمّع الأوّل قد نظّمه فرج الذي قلتُ له إنّ شعري الأبيض بدأ يتداعى على علبائي.

ـ مادام الفدائيّ يعرف القيام بكلّ شيء، فتعال واجلسْ على صخرة لأحوّلك الى «هيبيّ».

قال لي هذا في جملة بارعة كانت المفردتان «صخرة» و«اجلس» منطوقتين فيها بالفرنسية، تحيط بهما مفردات إنجليزية ومن العربية الفصحى.

وسرعان ماصرنا أنا هو مركز الجاذبية لمجموعة من عشرة فدائيين أو اثني عشر. كانوا يدخّنون السجائر الشقر بلاانقطاع ويتابعون أصابع فرج وهي تتلاعب بالمقصّ على رأسي. وكان بادياً استحسانهم لعمله. إستخدمتُ اللغة نفسها لأسأل فرج:

ـ لكن لمَ قلتَ لي إنّك ستحوّلني الى «هيبيّ»؟

ـ يسقط شعرك على كتفيك مرّة واحدة في الشهر.

ضحك الجميع. وبالفعل، كانت خصَل بيضاء تغطّي كتفَيّ وركبتَيّ. كانت أولى النجوم، خجلى في البدء، تصل ضمّاتٍ ضمّاتٍ في سماء ماتزال خبازيّة اللون، وكان كلّ شيء جميلاً، جمالاً لاأستطيع وصفه. وليست الأردنّ سوى الشرق الأوسط! وخصَل شعري وهي تسقط حتى حذاءَيّ.

هل كانت العلاقة بين حمزة وأمّه هي فرادة هذين الكيانَين، وهل كانا يستجيبان، هي وهو، الى ناموس عامّ لدى الفلسطينيّين لايشكّل فيه الابن المحبوب والأمّ الأرملة سوى واحد؟ واليوم، وبعدَما حملتُ في داخلي هذا الزوجَ وغذّيتُه، فإنّ ضرباً من سفاح المحارم يُعشّش فيه.

كان الفلسطينيون، الفدائيون المُبادون، يحتفظون بشطر يزداد تراصّاً من كرهي لحسين

وشركسه وبدوه. وإنّ ساقَي حمزة اللتين سوّدهما التعذيب، والجراح التي صارتها ساقاه اللتان لم أرَهما أبداً، هذا كلّه كان يكفيني، على علمي بأنّ ساقين تعرّضتا للتعذيب إنّما تعودان الى الشعب الفلسطينيّ أكثر ممّا إليّ.

تأزف اللحظة دائماً عندما نقرّر ذلك، وأنا لم تحن الساعة التي ينبغي أن أتساءل فيها عن حضور المقاومة الفلسطينية في العالَم، وعن أصدائها فيّ، أو عن هذه الثورات التي نحن متفرّجوها الغائصون حتى العنق في مخملِ مقصورةِ مسرحٍ على الطريقة الايطالية. من أين نتفرّج، إن لم يكن من مقصورة، على هذه الثورات، إذا كانت هي حروبَ تحرير، أوّلاً؟ وممّن سيتحرّر البشر هناك؟

هل قال لي محجوب كلّ شيء عن ابنة ثماني سنين التي كان مغرماً بها؟ أعتقد أنه حدّثني عن «الموصليّ» وعن نسيج الأثواب ولونها، وكيف أنّها ماكانت تسمح إلاّ برؤية أصابع قدميها. ماحلّ بها؟ إنّه يتذكر الطفلة. هل ماتت؟ هل عاش مع ميتة، مُخفياً الجثّة؟ ربّما كان اتّباع محجوب هو اتّباع دفن. كانت العاشقة الصغيرة باردة، لكن المرأة؟ أكان يكلّمني عنها مجازاً؟

لئن بات «تلّ الزعتر» شبيهاً اليوم بمرج يمكن أن تهب فيه أبقار نورمنديّة الحليبَ، فهو كان أكثر المخيّمات الفلسطينية ازدحاماً بالسكّان. كان عليّ يعيش فيه مع أعضاء من «فتح» آخرين. لم يركب الطائرة أبداً. وعندما تحدث كوارث جويّة، كان يغنّي ويضحك ويرقص كثيراً.

التراب قائم، وسَلبه المعيش كانخساف للأرض يولّد الانحصار. فلسطين بكاملها، وكلّ فلسطينيّ يحمل «هاويته المتنقّلة وإيّاه». كان ينبغي استرداد الوطن والعافية.

ـ تغادر بعدَ ساعة؟

ـ نعم.

ـ بالطائرة؟

ـ نعم.

ـ وإذا سقطت طائرتك؟

كانت مقالات الصحف تتكلّم غالباً عن طائرات تصطدم بجبل، أو بالبحر، وتختفي في القطب الشمالي حيث يغتذي الركّاب الجرحى من لحم الأموات. كان عليّ في سنّ العشرين ويجيد الفرنسيّة.

ـ لانفكّرن بهذا الآن. إذا كان لامفرّ من الحدث...

ـ لكننّا نريد عظامك.

لاأحد كان يعرف مسبقاً أين سيدفن موتاه، فالمقابر، شأنها شأن الأراضي القابلة للزرع، شحيحة على الفلسطينيّين.

ـ ماسمك؟

ـ عليّ.

ـ كلاّ! الاسم الذي وهبك إيّاه جدّك؟

يقول لي مسؤول في «فتح» اليوم:

ـ عليّ بين قتلى «تلّ الزعتر». القبور الفرديّة نادرة. ولقد طمرنا هناك حجرات ملأى. فلامحارب يقدر أن يشغل حفيرةً لوحده، حتى إذا كانت محفورةً بأقرب مايمكن من الأديم. دسْنا على الموتى حتى نقدر أن ندفنهم، أربعة أربعة على الأقلّ، رؤوسهم مُدارة جميعاً في اتّجاه مكّة. لكن لم تسألني عنه؟ الحِداد على ميتٍ واحد؟ ولمَ تتحدّث عنه في كتابك؟ هل رأيته كثيراً؟

ـ ثلاث مرّات.

ـ فقط! لايمكنّ أن تعلن الحِداد على فدائيّ واحد. أقدر أن آتيك بسجلاّت حافلة بآلاف الأسماء، وستطلب كيلومتراتٍ من الشفّ.

لم تعد فلسطين تراباً وإنّما عُمراً، مادام الشباب وفلسطين مترادفَين.

عن عليّ، في ١٩٧٠:

ـ لمَ تقبل بمحادثتي؟ عادةً، يتكلّم الرجال المسنّون ـ عفواً ـ فيما بينهم. ولنا، يوجّهون أوامر. وهم يعرفون الأشياء التي ينبغي ألاّ تعرفها الشبيبة الاّ مع وصول آلام الروماتيزم. وفي الماضي، عندما يبلغ الشيوخ الحكمة، كانوا يعتمرون العمامة، فأحد الشيئين

يدلّ على انّ الآخر مستحَقّ. انعم النظر حولك.

ـ ألا يستنطقك المسؤولون؟

ـ أبداً. يعرفون كلّ شيء. دائماً.

إنّ القبول بأرضٍ، مهما كان من صغرها، يكون فيها للفلسطينيّين حكومة، وعاصمة، وجوامع، وكنائس، ومقابر، وبلديّات، ونصب للشهداء، وميادين للسباق، ومدرج للطيران يعرض فيه جنود، مرّتين في اليوم، أسلحتهم على رؤساء الدول الأجنبية، هذا كلّه كان هرطقةً خطيرة يشكّل مجرّد التفكير بها كفرضيّة خطيئةً قاتلة وخيانة للثورة. وعليّ، مثله مثل جميع الفدائيين، ماكان ليقبل إلاّ بثورة فخمة في شكل إضمامة من الألعاب الناريّة، حريق يتواثب من مصرف الى آخر، ومن دار أوپرا الى أخرى، ومن سجن إلى محكمة عليا، موفّراً آبار البترول العائدة الى الشعب العربيّ.

ـ أنت في سنّ الستّين، لستَ مهدّماً بالكامل، إنّما هشّ. وكلّ مسلم يحبس أمام الشيوخ أنفاسه وفظاظته. وعليه، فلاأحد سيجرؤ هنا على اغتيالك. أنا، لديّ عشرون سنة، ويمكن ان أُقتل وأتعرّض للقتل. ولو كنتَ في سنّ العشرين، فهل كنتَ ستأتي معنا؟ جسديّاً؟ مع بندقيّة؟ أتعرفُ إن كنتُ قَتلتُ؟ انا نفسي لاأعلم، ولكّنني صوّبتُ وأطلقتُ بهدف القتل. وعلى ضعفك وعجزك عن التصويب، تقدر أن تضغط على الزناد، فهل ستقوم بذلك؟ جئتَ الى هنا، إنّما محميّاً بسنّك، فهل تقدر أن تتجرّد منها للحظة؟

إنّ انعدام الأهميّة في ردّي يجبرني على كتمانه. فلقد عادت لي الأعوام وضعفي بهذه الحصانة التي كان عليّ يذكّرني بها.

ـ أقول لك هذا لأنّني لن أعرّض نفسي للقتل من أجل الفتيان وإنّما من أجل المصابين بالروماتيزم. أو من أجل رضّعٍ أبناء ثلاثة شهور لن يعرفوا عن حياتي وموتي أيّ شيء.

إنّ استعادة كلام فتى قتيل (إذا كان صُرِع في «تلّ الزعتر» فقد حدثَ هذا في ١٩٧٦، ممّا يعني أنّه كان في سنّ السادسة والعشرين)، استعادته الآنَ وقد تعفّن بدنه وعظامه وامتزج هذا كلّه بأبدان ثلاثة فدائيين آخرين على الأقلّ وعظامهم، فهذا لايتسبّب لي بأيّ اضطراب. ماكان عليٌّ حتّى صوتاً، او هو صوت جِدّ شاحب يتخفّى تحتَ صوتي.

ـ في تلّ الزعتر، يتكلّم القادة (يقول « القادة » لا « المسؤولون ») دائماً فيما بينهم، خفيضاً جداً، وأحياناً بجهوريّة، كما لوكنّا لانقدر أن نفهمهم. ويتناولون تخمينات بالغة العلوّ يحتلّ فيها سپينوزا بالرغم من أصله مكانة كبيرة. وكذلك لينين. وشريعة حامورابي. أمّا نحن، الفدائيّين البسطاء، فنلزم الصمت حتى نسمع أوامر القادة: تحضير الشاي بالنعنع أو القهوة التركيّة.

ـ ماالذي ستصنع بعظامي؟ أين ترميها؟ ليس لديكم من مقبرة.

ـ سيكون تنظيفها من اللحم والغضاريف سريعاً جداً، فانتَ بلا عضلات ولاشحم، وسنتقاسمها في كُتَلٍ صغيرة، ونحملها في أكياسنا ونرميها في مياه الأردنّ (يضحك بلا ابتهاج).

ثمّ يواصل الابتسام، وكانت هذه الابتسامة تخفي ولاشكّ، وبجَمالٍ، النكتة التي كانت تخطر على بال كلّ منّا.

ـ مع انتهاء الحرب، ومع قليل من الحظّ، سنعيد التقاطها من البحر الميت.

كان محرّماً عَلَيَّ أن أهيم بعلِيّ. كان يفتنني جمال جسده، ومحيّاه، وخصوصاً بشرته، لكن مانفعل بالآيديولوجية يارفيق؟

كان يعلم أنّني أحبّه، ولاغطرسة من جانبه؛ بل لطف يقظ وبلا استسلام كاذب. مع أنّه كان يعلم أنّني أحبّ الغلمان.

ذاتَ ليلة، وأنا في الخيمة، أيقظني ضحك وأصوات مرتفعة في الثانية صباحاً: كان الفدائيون يتناولون الطعام بشراهة في الملجأ الذي كنت راقداً فيه، ويشربون ويدخّنون لأنّهم كانوا في النهار صائمين. طلبتُ طعاماً وشراباً. طرح أبو حسن عليَّ، وهو يضحك لرؤيتي وأنا ماأزال أجرجر أذيال النعاس، السؤال الذي جعلَ الأصوات تعلو:

ـ مايقولون عن الحريّة الجنسية في باريس؟

ـ لاأدري.

ـ وبريجيت باردو؟

ـ لاأعرف.

لابدّ أنّني قلت ذلك وأنا أتثاءب.

ـ وأنت ماتفكّر في ذلك؟

ـ أنا لواطيّ.

ترجمَ. ضحك الجميع. قال لي أبو حسن، بهدوء:

ـ وإذن، فلامشكل لديك.

عاودتُ النوم. لمّا كان الفدائيون ينتظرون اختيارهم للذهاب الى غور الأردن بين لحظة وأخرى، فقد كان يمكن أن يستوقفهم السؤال لحظة لااثنتين. هل كنت مغرماً بعليّ؟ أو بفرج؟ لاأعتقد، لأنّني لن يكن لديّ أبداً الوقت لأحلم بهما. وكان حضور كلّ فدائيّ قويّاً بما فيه الكفاية ليمحو ظلّ الغائبين الأثيرين.

كلّ حلاّق يعرف مايُدعى [في رطانة الحلاّقين] بالسنبلة: نتفة شعرٍ متمرّدة. تذهب في جميع الاتّجاهات خلا اتّجاه المشط. تخيّلوا رأساً شعره مكّون بكامله من سنابل، نتَف متمرّدة، وافترِضوا أنّه الى هذا تنضاف، في الأسفل، لحية مماثلة، مؤلّفة من سنابل، لامتموّجة ولاجعداء وإنّما مشعّة. سيكون ترتيب مثل هذا الشعر ضاحكاً، وإذا ماأضفتم فروقاً للشّعر ذاهبة في جميع الاتّجاهات في أوانٍ بذاته، فسترون وجهاً ضحوكاً، عارفين بأنّ اللّه هو مَنْ أراده كذلك، أي على صورته، وأنّه ينبغي الضحك تكريماً للّه، ولفرط مانتعجّل الكلام عن إنسان–قرد عندما نرى رجلاً مشعراً. كان يذكّر بالجليزية جدّ مميّزة، خصوصاً عندما يتناول الطعام. بأصابعه طبعاً. ولئن كان يقصّ أحياناً شاربَيه اللذين كانا لولاذاك سيلتفّان داخلَين في فمه، فهو لايتخلّص من شعرة واحدة من حاجبيه، شعر رأسه أو لحيته، لكنّ القصّ الخفيف لشاربيه يخفي مفاجاة أيضاً: الابتسامة. في كلّ هذه الكتلة الضاحكة من الشعر، والعينين السوداوَين، بنظرتهما الصارمة التي يتعالى ضحكها أغلب الأحايين، والشفتين الورديّتين، المفلوعتَين من أجل ابتسامة يليها ضحك يفضح الأسنان، ويكشف عن لسان ورديّ يحاول الاختباء، كان جسده يقبع سرّاً مطويّاً. وربّما كان اللّه الذي صورّ البشر قد استأنس مع هذا، بأنْ فرضَ عليه تحت الثياب جسداً أملط. أعتقد أنّه لاأحد عرف ماكان عليه جسده.

ـ مَن هو هذا المقاتل الذي ياكل ويبدو وهو يلاحقني؟

كنتُ أمام مائدة، صحبةَ فدائيين، مائدة منصوبة في الخارج، مع ثلاثة صحون ضخمة أو أربعة كان كلّ واحدٍ « يصطاد » فيها.

ماإن طرحت السؤال والتمعت في عينيّ ولاشكّ ذكرياتي، حتى كان ذلك الشَّعر وتلك اللحية فاحمة السواد والمتمرّدة يَدنوان منّي. كان ذارعان يعصرانني: إنّه السوريّ المسلم الذي كان عانقني في الخيمة وتجادل معي في اللاهوت. روى لي كيف راح يجري من عجلون إلى إربد، تلاحقه رشّاشة كانت تخطئه دائماً. اقتَسمنا بضع قطع من الدجاج وبعض الفاكهة. وغادَر.

أقبلت النار من السماء.

شطران. كان كلّ شطر من بيروت يعمل بانتظام: أحدهما يريد تناول الطعام، والآخر يلوي بطنه وردفيه على البلاط الملمَّع. ويلتحم الاثنان دائماً في لاأدري أيّ مكان يصنع بيروت، إنّما في محلّ آخر؛ بين مدن الصفيح والقصر، كانت الوشيجة العضوية مرئيّة: مخبرين ومومامس. بهذه الجيرة، جيرة تلقائية بين البؤس والمال، كانت الآلهة راضية مرضيّة. كانت الأعراس تعرف عن البؤس، والبؤس عن الرقص، كلّ شيء. لاأحد ينسى أحداً، مثلما لاينسى القصر مدينة الصفيح أو العكس. هنا حتى السعادة ليست بالقائمة، بل وحدها الذروة الجنسيّة، يولد تمزّقها من رؤية سبائك الذهب التي تولد بدورها من ألم الآخرين. فكيف ندهش إذا مارأينا سمكةً–ربّاناً وهي ترشد القرش، أو طائراً يخلّص الجاموس من قراده، أو زنجوراً تحتوي بطنه زنجوراً لايكاد يكون أصغر، وهكذا دواليك، تتناقص الأبعاد، لاالشهيّة ولاالبِطنة المجرّدة من كلّ ضراوة، بل التي هيَ تهمّس سرمديّ. هل هذه البديهيّة هي ماااكتشفه أبو عمر، ممّا كان يجعله يضحك بملء فيه حتى يخفي دموعه وغثيانه أمامَ فدائيّ يصف له وثبات رأس مقطوعٍ مفتوح العينين، والتي كان يرى منحدرها كرسم منقّط، من درجة الى أخرى، ومن سلّم الى آخر؟ أفكان أبو عمر يحسب أنّ المرء يدخل الثورة على ظهر جوادٍ، من تحت بوّابة مصفّحة ومذهّبة تفضي الى أرضٍ أسياد؟

رأيت في البتراء، في الهواء الطلق، في السلسلة الواسعة من البوّابات الرومانية المنحوتة في البازلت، فارسَين، متزوّجين البارحة، أو أعلَنا خطوبتهما في الصباح. لم يرَياني، كنت بالغ الهرَم على ظهر جواد متعَب، وببالغ الكياسة دفع حبّهما البريء الى التلاشي كلاًّ من الكون، والصخور، والمنحوتات المعمّرة الفَين، ودنّس بيروت، والثورات، وتفاني رجلٍ من أجل طفل. وعندما تردّد الظلّ والنور، قبل أن يلتحما، للحظة، ثابتَين في الخطّ المستقيم والمنحني في آنٍ

للأفق، خطّ الشفق المُعادل للقبلة على الجفنين المسبلَين، نزل الشابّ والأمريكيّة من على ظهر الجواد. ربّما أحسستُ بما عاشه الفلسطينيّون عندما سمعوا أوّل الهنغاريّين والبولونيّين في فلسطين نحوَ ١٩١٠، ذلك أنّ إشارات الطرق بين بيروت وبعبدا كانت بالعبريّة.

لعلّ لغة محليّة تجد مقابلها في كتابة شَعيريّة (٧٤)، وستكون الأخيرة هي الكتابة العربيّة، ذات المنحنيات والعُقَد. يستخدم اللبنانيون تعبير «قطع غيار» لوصف حروف الأبجدية العبريّة. وعندما كنت أصل الى بيروت آتياً من دمشق، كانت لوائح الطرق في المَفارق تتسبّب لي بالضيق نفسه الذي كانت تبعثه الحروف القوطيّة في باريس المحتلّة من قبل الجيش الألمانيّ. كانت إشارات المرور تذكّر بـ«حجَر رشيد» [المكتوب عليه مرسومٌ لبطليموس بالهيروغليفيّة والديموطيّة واليونانيّة]، فهي، أي الإشارات، مكتوبة بثلاث لغات، الانجليزيّة والعربيّة والعبريّة هذه المرّة. بالرموز تُعرَف الدلالات: اليسار، اليمين، مركز المدينة، المحطّة، الشمال، الأركان العامّة. وماكانت الإشارات الموضوعة باللغات الثلاث لتُقرَأ. واللغة العبريّة، المرسومة أكثر منها مكتوبة، والمنحوتة أكثر منها مرسومة، تتسبّب بالعسر نفسه الذي ينجم عن رؤية قطيع من الدّناصير هادىء. لم تكن هذه اللغة عائدة الى العدوّ فحسب، بل كانت، بين آخرين، حرساً مسلّحاً يهدّد شعب لبنان؛ أتذكّر أنّني رأيت في طفولتي هذه الحروف، دون أن أعرف معناها، منقوشة على قطع حجر مستطيلة ملتصقة إحداها بالأخرى من الجوانب وتُدعى بـ«لوائح النامـوس». حروف منحوتة، لأنّ بواطن هذه الحروف كانت ملوّنة بنور وعتمة، إيهاماً بالبروز. أغلب الحروف مربّع، بزوايا مستقيمة، تُقرأ من اليمين الى اليسار وترسم جميعاً خطّاً أفقياً ومتقطّعاً. حرف أو اثنان تعتليهما قنزعة، شبيهة بقنزعة الكركيّ؛ وثلاث مدقّات تدعم ثلاث سمات معلّقة على المدقّات الثلاث تنتظر النحلات التي ترشّ العالَم بطلع عمره بضع آلاف السنوات، بل هو أصليّ؛ وقنزعات الحرف الذي يقترب من الـ ch الفرنسيّة (الشين)، إذا لاتضيف الى الكلمات ولا الى الايعاز بعض الخفّة، فهي إنّما تصرّح بالانتصار الكلبيّ للتصاهال، وكان لأسنّة القنزعة الثلاثة المهابة الحمقاء نوعاًما لرأس الطاووس أو لامرأة بلهاء تنتظر هطول المنيّ. وإذ كتبتُ «الخفّة»، فإنّما كنتُ أفكّر بـ«مهدّدة بصورة خفيفة».

توفّر أعالي بعض أعواد الخيزران السامقة الانطباع بكونها تتحرّك، لأنّها تتحرّك حقّاً، وإنّ برج «إيفل» ليتحرّك هو أيضاً؛ وكانت «أغصان» هذه الحروف العبريّة توجع القلب على النحو ذاته لأنّ أيّاً منها ماكان يتحرّك. ماكانت هذه الكتابة تصّاعد من الطفولة وحدها فحسب، بل، وبالرغم من كونها تقدّمت للعالَم في ذروة جبلٍ، تصّاعد من مغارة، غميقة ومظلمة، كان معتقلاً فيها اللّه وداود وموسى وابراهيم والألواح والتوراة والفُرَق، العائدين الى

هنا، عند هذا المفْرق لماقبل تاريخ ممّا قبلِ ماقبل التاريخ؛ ومن دون أن نعرف شيئاً مشخّصاً حول فرويد، فقد أحسَسنا جميعاً بشساعة الضغط الذي أفلح، بعد ألفَي عامٍ، في تحقيق «عودة المكبوت» هذه. ولكنّ إحساسنا بالمفاجأة والقرف بقيا مطبوعين بهذا التقطّع المفزع، فالحروف تُضاعف بين بعضها والبعض الآخر فضاءاً غير قابل للقياس وزمناً مزحوماً الى هذه الدرجة بحيث ينتج كلّ فضاء من تكدّس أزمنة عديدة؛ فضاء متباعد بين كلّ حرف وحرف آخر بحيث يستحقّ تسمية «زمن ميت»، لأنّ من المتعذّر قياسه مثله مثل ذلك «الفضاء» — لكن هل هو فضاء؟ — الفاصل بين جثّة والعين الحيّة التي تعاينها. في هذا الفضاء غير القابل للقياس، والفاصل بين الحروف العبريّة، ولدت أجيال، وتفرّقتْ. وفي هذا الفضاء، كان السكون يحطّمنا أكثر ممّا تفعل شظايا الرصاص والعبوات.

كانت عجلون، ذلك المجال الأثير، السلام المستعاد، تعود إليّ. كان أدنى عابرٍ يعرف هناك اسمي، ومن تلقاء ذاتها تقودني الطرُق؛ والعوسج، النزق مع الآخرين، مهذّب وإيّاي. السطور الأخيرة مبالغة، ولكنّها تقول الى أيّ حدّ تولّهَ، أحدهما بالآخر، رجلٌ ومكان. حول عجلون، وفي جوارها، كنت أسمع صخب الحرب، وخيانات السياسة، كما أخمّن الغيوم الأكثر فأكثر سماكةً، وسواداً، واكتنازاً بالنار، وبالرغم من هذه التهديدات أو بسببها، كان منحدر الكثيب منخفضاً يبعث على التطامن. وبالرغم من الهزيمة، كنت أرى في إيماءات الفدائيين وطرائقهم وسيادتهم الغبطةَ التي ترفع قليلاً الفنّانين—النجوم المنتزَعين من نجاحاتهم الأولى وتحيلهم لطفاء. وبقدرٍ من اليقين أقلّ كنتُ أحسب أنّ هذا الفقدان لوضوح الفكر، الذي يتصاعد في موجاتٍ في داخلِ رجل غاضب أو شعب، إنّما هو وضوح للفكر أصعب، سيّد أخيراً، وأنّ المتمرّدين جديرون بالعار وليس العكس.

وإذا ماتكلّمت عن سحْر المحاربين المسلّحين كمسرح في الخضرة، فأنا أحسب أنّني أجعل بذلك قابلاً للقراءة ماكان يعتمل في داخل كلّ فدائيّ. ولربّما كان كلّ فدائيّ، من دون أن يعرف على وجه الدقّة طبيعة هذا الاشعاع للثورة، تطلّع الى نفسه ورآها. ومن جدّ بعيد، مشوّهاً ربّما، إذا كان الابتعاد يشوّش العادات البصَريّة. كان ألق الفدائيّ يحميه، ولكنّه يخيف الأنظمة العربيّة.

يمكن طرح السؤال نفسه بخصوص أيّة أمّة تظهر في التاريخ، وأيّة حركة دينية أو سياسيّة: ماالذي كان ينقص الشرق الأوسط، والعالم العربيّ، والأمم، والانتفاضات، وماالذي

كان العالـم العربيّ يشعر بالحاجة الماسّة إليه حتى تظهر المقاومة الفلسطينيّة؟ منذ ١٩٦٧، مرّت عشرون سنة، ممّا يعني أنّها ماتزال فتيّة جداً كحركة تتوخّى العمق، وأبعد ماتكون عن استقطاب للارهابيّين بسيط. تبرعمت الثورة ومدّت اغصانها لأنّها عثرت على الأوكسجين. وإذا ماعرفنا الأهمية المعقودة للمقاومة في صفحات الجرائد اليومية أدركنا ممّ سنُحرَم لو توقّفتْ. اوّلاً، بدا انّ استياءاً سريّاً وجدّ خبيءٍ من اسرائيل قد تجلّى في الاهتمام المحوض للمقاومة. لاشيء قيل ضدّ اسرائيل، فقد تعلّم الاوربيّون الصمت منذ أربعين سنة، لعلمهم بأنّ البشرة اليهوديّة حسّاسة وسريعة ردّة الفعل؛ فإذا كان الشيهَم [نوع من القنافذ] هو الحيوان–الشعار لدى لويس الثاني عشر، فلابد أن يكون كذلك لدى بيغن. وكما هيّأت فرنسا، بين ١٨٥٤ و١٨٧٢، رجلاً رفعَ حرارة النشر الفرنسيّ حتّى ليَبيضّ، فمن الممكن أنْ يكون العالَم، حتّى يتنفّسَ بصورة أفضل، قد أرادَ انتفاضات الفلسطينيين الفتيّة، أو، وكما يعبّر صاحبنا (٧٥)، «الانتفاضات المنطقيّة» التي لاتحترم شيئاً ممّا يقف أمامها عائقاً بوجه الشّعر. إنّ فتاة في السادسة عشرة، نمساويّة كما ينبغي، قد سرقت بمرأى منّي النعتَ الذي يصف عنف الفهود السود أفضل وصفٍ، إذ قالت أمامهم وأمامي، بلاابتسام: «إنّ الفهود السود لَحنونون».

فيما أتذكّرها، وجهها المصمّم ونبر صوتها، أقول: «إنّ الفلسطينيين لَحنونون». وإذا ماتجرأت على استخدام المفردة، فربّما لأكتب في كلمة واحدة مااستبقاني بينهم. لمَ جئتُ؟ تلك حكاية أخرى، أكثر غموضاً، وانحباساً فيَّ، ولكنّني ساحاول اكتشافها بالرغم من اللغز، بالغ الصلابة والهوائيّة في آنٍ، الذي يلعب لعبة الظهور والخفاء.

مَن لـم يعرف لذّة الخيانة، ماعرفَ عن اللذّة شيئاً.

يعاودني مرح حمزة إذْ أتذكّره. أوَماكان يدين بهذا المرح للنضال؟ والى هذا المرح، لاحظتُ سخاءاً جسمانيّاً. ماكان لايماءاته امتداد إيماءات أبناء الجنوب الفرنسيّ، ولااللبنانين، او فخامتها أو مبالغتها، لكنْ عندما تكون ابعادها محدّدة، فهي واسعة وسخيّة. وماكانت إطلاقات المدافع في البعيد، أو عن قرب، لتضيف الى سخائه، ولكنّها تضاعف مرَحه. كان صبيّاً، أكثر منه بطلاً.

اعتقد انّني كنت، في عهود أخرى، ساتراجع أمام كلمات من أمثال الابطال، أو

الشهداء، أو النضال، أو الثورة، أو التحرير، أو المقاومة، أو الشجاعة، وسواها. وقد أكون تراجعت أمام مفردَتي الوطن والأخوّة اللتين تتسبّبان لي بالقرف نفسه. لكن من المؤكد أنّ الفلسطينيين يقفون وراء انهيارِ لُمعجَمي. وإذ أقبل بذلك، فأنا أجري وراء ماهو أكثر مساساً، بيد أنّني أعرف أنّ بعض الكلمات لاتتخفّى على شيء، وأنّ بعضاً آخر منها يظلّ بلاجوهر.

رحتُ أعتاد الفدائيّين، موقناً من أنّهم ينشدون حياةً أكثر عدلاً، كما كانوا يردّدون، ذلك الظمأ للعدالة، وكانت بواعث التمرّد هذه موجودة، لكنْ تحتها، وأكثر من هذه الآمال الزائفة أو الحقيقية، كانت أوامر موجّهة لهم، من دون أن يُعبّروا عنها أبداً، خصوصاً لأنفسهم، أوامر أكثر إمْرةً بكثير، تسكت عنها أدبيّاتهم: الشغف بالمعارك، ومجابهة عدوّ حاضر جسمانيّاً، ووراء ذلك، الميل الانتحاريّ بالذات، الموت الذي يتقنه المرء عندما يتعذّر الانتصار. وماكانت تعبّر عنه مفردة الانتصار كان بالطبع مايمكن التعبير عنه بدون اشمئزاز: سيتحقّق النصر عندما يُهزَم العدوّ، امّا نظام عدالةٍ أسمى فيأتي بعد ذلك، وفي التصريحات الرسميّة فحسب. وراء هذه اللعبة: «[ثورة] حتّى النصر»، التعبير الذي يختتم جميع رسائل عرفات، الشخصية منها وغير الشخصية (٧٦).

الثورة كهبوط في المغارات أو تسلّق لُمنقلَبٍ غير موطوء بعدُ من جبل «اليونغفراو».

ـ إنّني أتردّد.

ـ فيمَ؟

يجيبني الدكتور الفريدو، هذا الابن المايزال متوحّداً وربّما جاهلاً للثورة الكوبيّة:

ـ مواصلة هذه الثورة أو مُمارسة تسلّق الجبال.

وجدت دقّته مثمّنة. منذ خمسة عشر يوماً وأنا أراه حائراً، ربّما يائساً، من صمت عرفات. عندما سأله رئيس منظمة التحرير الفلسطينية جنسيّته، لم ينطق الفريدو إلاّ بكلمة واحدة:

ـ فلسطينيّ.

لم يُثِر الجواب الارتياح. ومن الصمت المفاجيء في قاعة استقبال عرفات، عرفت أنا أيضاً أنّ الرئيس كان يشجب أن يستولي أحدٌ على المفردة. كان الفلسطينيّ فخوراً الى هذه الدرجة بشعبه بحيث لايمكن أن يقبل بأن يزعم صديق أنّه منه، وإن يكن أفضل الأصدقاء.

ـ أمارأيت؟ إنّهم لايقبلونني فلسطينياً. إمّا أن أذهب للتدخين، أو أقاتل هنا حتى موتي.

كان الفدائيون رجالاً متفوّقين (سوبرمانات) بهذا المعنى فحسب: أنّهم يهبون الأولوية للضرورة الجماعية على رغباتهم الفرديّة، ذاهبين على هذه الشاكلة الى النصر أو الموت، ويظلّ كلّ رجل وحيداً مع احتداماته ورغباته الفريدة، وربّما كانت غواية الخيانة تترصّد المرء في تلك اللحظات ـ مقهورةً أغلب الأحايين كما أحسب.

عندما كنت أذكر الثروات التي راكمها العديد من المسؤولين الفلسطينيين، فهل يمثّل تكدّس الأثاث والسجّاد والثياب شيئاً آخر سوى نوع من مجلّة تريك صوَراً عن القصور، وأرائك الشخصيّن، والمَثاوي [جمع «مثْواة»، كرسيّ واسع مُنَجّد المساند والظهر]، التي تحبّذ أحلام اليقظة؟ وهل توريق مثل هذه المجلات ضرب من الخيانة؟ أن نورّقها، ذارعين في الأبعاد الثلاثة شقّةً، وهو شيء أصعب على الورق الصقيل، لكنّ مجهود التوريق أخفّ. واجتيازها بضعة أيّام في السنة؟ فيمَ يكون ذلك أكثر إثماً من أن يحسب المرء نفسه فدائياً عندما يكون قام بذلك عن اختيار، لبضع ساعاتٍ في العُمر، وعندما يتبختر في بزّة الفدائيّ وكوفيّته، بل حتى روحه الفرديّة، نعم، فيمَ يختلف تروّح الغربيّ هذا عن تروّح المحارب في قصر يظلّ، في خاتمة المطاف، على ورق صقيل؟ أن تكون فدائياً للحظة ولِمّا تتكبّد لعنةَ ذلك، إنّما هو تحويل هذه اللعنة الى تصنّع ممارَس على الذات.

ان يمتلك المرء كلّ هذه الثروات، وأن يختلس المال ليُبعد عن نفسه غواية الخيانة ببقائه في الثورة، مع المخاطر والمسؤوليّات؟ أنقول تبّاً لمن اختلس المال ليُبعدَ غواية الخيانة أم لمن اختارَ الاثراء؟

تتذكّرون أبا عمر، وإحساسه بالحرج عندما كان يضحك إذ يتذكّر رأس الجنديّ الأردنيّ المفصول عن الجذع، وضحكه الخشن والمسرف حتى لم يعد هذا الضحك عائداً الى أبي عمر، عندما خلطتُ أنا بين محادثات «السالت» ومدينة «السلط»، وعندما فسّر لي الانتفاخ المفاجيء والذي لم يتوقّعه أحد لـ «فتح».

ـ ماكانت «فتح» في ١٩٦٤ أكثر من جدول صغير. ثمّ قرّر المهندس عرفات أن يصبح ثوريّاً كاملَ الوقت. إستقال من عمله. وسُميّتْ معركة «الكرامة» انتصاراً من لدن الفلسطينيين مثلما من لدن العالم العربيّ بأسره. وجعلت تعهّدات «فتح» عدد أعضائها يرتفع

خمس مرّات أو ستّاً. وقامت منظمات أخرى، منافسة، ومناوئة أحياناً. ولم تعد المخيّمات مخيّمات لاجئين، وإنّما ميادين تدريب. وتنامت «فتح» خصوصاً في الأردن حيث كان الكثير من موظّفي المملكة مناصرين لها وكنّا (ومايزال الكلام لأبي عمر) نتلقّى دعم جميع سكّان الأراضي المحتلّة والطلبة والأساتذة الفلسطينيين في أوربا وأمريكا واستراليا. تعرف أنّه كان لدينا طلبة في ملبورن. وكان الملك الحاليّ يدعو نفسه الفدائيّ الأوّل. وحتى في تلك الفترة، كان هو الفدائيّ الأخير. وإنّ «فتح»، التي هي اليوم بحر عالميّ، كانت في ١٩٦٤ لاأكثر من جدولٍ صغير.

«لكنّ الجدول الصغير كان حرّاً، أمّا البحر فيجتازه أسطول أمريكيّ وآخر سوڤياتيّ. كنا نضرب أنّى شاءت الظروف. ووحدها المنظمة كانت تتحمّل المسؤولية. لاأحد، لامن الفدائيين ولا من القادة، كان يعبأ بالدول الكبرى، لا الولايات المتحدة، ولاالاتحاد السوڤياتيّ، ولا بريطانيا العظمى، ولافرنسا. كدت أن أضيف الصين، لكنّ الصين، التي راحت تُرهف الاصغاء إلى العالم منذ ١٩٤٨، أدركت حركات التاريخ: عوْدتنا الى الأراضي التي طُرِدنا منها.

«لاأحد سوى عرفات وعدد من المسؤولين كان قادراً على أن يقود برهافة وقوّة ماصار عليه شعب في فوَران. فوَران ربّما كان سيخمد، لأنّ العالَم نسيَ حركات استقلالٍ عديدة. ولقد حالفنا الحظّ في اكتشاف أعدائنا الرئيسيين الثلاثة، وهم، بحسب ترتيب الأهميّة: الأنظمة الرجعيّة العربيّة، وأمريكا، واسرائيل.

ـ تضع اسرائيل في المرتبة الأخيرة.

ـ أعرف أنّك تسجّل ماأقول حتى إذا لم تكن تدوّن ملاحظات. وإذن فأنا أخاطب رجلاً سيضع كتاباً، وإنّني لأفضّل قول الحقيقة. أنت تؤْثر أن تقارن ماأقول لك وماترى هنا مع التعليقات التي ستقرأها في الصحف في فرنسا أو في المعهد الفرنسيّ بدمشق. إنّ الأقطار العربية الرجعية، وخصوصاً أقطار الخليج، تفخّم صوتها لادانة اسرائيل، بسبب من هذا العدوان على أرض عربية، وأكثر من ذلك بسبب الدواعي الطائشة نوعاًما المتعلّقة بالشعائر المتباينة في عبادة اللّه، ولكنّ كلاًّ منها حليف مخلص لأمريكا. وأمريكا؟ أتراها تدعم إسرائيل أم تستخدمها للتقدّم في المنطقة ولحماية آبار نفط الخليج بعدَ شرقيّ عدن؟ ولقد وفّرت علينا اسرائيل بصورة من الصور الاختناق. أنت تعرف الوقائع: فاليهود، المشتّتون في العالم، والذين كانوا بلا أرض منذ أن طردهم الروم من أرض وعدَ اللّه بها إبراهيم، أرض موعودة لكنْ فتَحها يهشع [بن نون] بقوّة السلاح، أقول إنّ اليهود، بعدَ ألفي سنة من التيه، والعذابات المتكبَّدَة في أوربا، طالبوا بأرض الميعاد هذه — فلسطيننا —، ومن دون أن ينتظروا أن يفي اللّه بوعده،

طردوا منها سكّانها لأنّهم مسلمون ومسيحيّون. هذا هو إجمالاً ماحدث، أمّا التفاصيل فتُرينا مايظلّ يشكّل واقعة إنجليزية. »

سادَ بيني وبينه صمت طويل نوعاًما، رحتُ أعالج طواله هذا السؤال: «مَن سكن فلسطين، من احتلّها بشرياً بعدَ تهديم المعبد وقرار تيطُس، ومَن حكمَ على اليهود بالتيه؟ هل كانوا بقيّة باقية من شعوب كنعانيّة؟ يهوداً بقوا هناك، وتحوّلوا الى المسيحيّة، ثمّ، نحوَ عام ٦٥٠، الى الاسلام؟»

إذا كنت أمنح هذا المكان لرواية أبي عمر والسيّد مصطفى، فلأنّ الفلسطينيين، عندما كنت في الشرق الأوسط، في الأردن وسوريا، أو لبنان، كانوا يبحثون دائماً لاعن حقوقهم على هذه الأرض فحسب، وإنّما كذلك عن أصلهم، وذلك الى هذا الحدّ بحيث قالت لي فلسطينيّة:

ـ اليهود الحقيقيّون هم نحن. نحن الذين بقينا بعدَ العام ٧٠ وأسلَمنا فيما بعد. والملاحقات التي نتكبّد إنّما يفرضها علينا أبناء عمومة بلا وطن.

ويستأنف أبو عمر:

ـ إنّ نفسيّة اليهود، التي ربّما تشكّلت في تيههم عبر العالم الغربيّ حيث عرفوا، في الأوان ذاته، الثروةَ والسلطةَ وازدراءَ المسيحيّين، وكذلك العلم والذكاء العلميّ الى حدّ أنّني غالباًما عددتُ إنشتاين عالماً المانيّاً إنّما من بني إسرائيل (٧٧)، ومع هذا كلّه الخوف بشتّى أنماطه ومايُدعى بضغينة المعزل ونوستالجياه (الاحساس بالحنين)، هذه النفسيّة دفعتهم الى الشكوى من الفلسطينيين حتى قبل الانتفاضات اليهوديّة المعلنة. ولمّا كانت اسرائيل قد قرّرت أن تصبح موظّف دعاية للاعلاء من شأننا كما تقول أنت، فماكان يمكن أن نجد من هو أفضل. يالها صندوقاً للرنين ـ [بالمعنى الموسيقيّ للعبارة]! ـ لو كان لدى «التامول» صندوق مماثل، فأين كان سيصبح «الباتاثيّون»؟ وإنّ لدى اسرائيل هذا الشغف بالدعاوة بحيث تراها واثقة، منذ الأزل، بأنّها ستتشكّل مدير دعايتها الخاصّة. بعد فرنسا بالطبع. وبعد الكنيسة أيضاً. وكان هذا مجدياً لنا. وذلك مع المجازفة، إذا لم نتحوّط، بتحطيم حركتنا بأنْ نجعلها غير قابلة للتحقّق ـ l'irréalisant إذا لم يكن التعبير قائماً بالفرنسيّة، فلنبتكره، ولابدّ أنّه مبتكَر من قبل. كان أحد مخاوف عرفات، ومايزال، وقد قاله لي ذات مساء، هو التالي: «تشكّل ثورتنا صرعة منذ شهور. ونحن ندين بهذا لإسرائيل. تاتي صحف العالم أجمع وتلفازاته ومصوّروه ليقدّموا عنّا صوَراً وحكايات رومنسيّة. لنفترض أنّهم ينفخوننا بكثرة الصوَر. لكن لن تعود الثورة الفلسطينية قائمة طالما لم تعدْ تثير الحكايات ولاالصوَر.»

ـ وعليه، فإنّ هدف عرفات، بين أهداف أخرى بالطبع، هو أن يفجّر دائماً أحداثاً مثيرة، ليجلب إليه زُمَراً من المصوّرين والندّابات والمغنّين. من الشعراء ـ الرواة.

ـ انت تمزح دائماً، وانا لااشكو من ذلك. فهذا يتيح لي الابتسام قليلاً، حتى إذا كانت الثورة هي مانتحدّث عنه ساخرين.

ـ فنّ رفيع!

ـ نعم. فنّ رفيع. لنستعدْ جدّيتنا. قلت إنّ الثورة كانت تجازف، من فرط التفخيم البلاغيّ ـ بالصوَر المعروضة على الشاشات، والمجازات والمبالغات في اللغة اليوميّة ـ ، تجازف بأن تصبح غير قابلة للتحقّق. وإنّ نضالاتنا لقريبة من أن تتحوّل الى وقفات تصويريّة [بوزات]، بطولية في الظاهر، وممثَّلة بكامل البراعة. ومالإن تنقطع لعبتنا وتُنسى...

توقّف لبرهة، وابتسم، ثمّ انتهى الى قول ماكان منتظَراً:

ـ... حتى نسقط في مزبلة التاريخ.

ـ لكن هل تقومون بالثورة لتستعيدوا أراضيكم؟

ـ التي ربّما لن أعيش فيها أبداً. أريد أن أقول لك كيف أنّ الثورة، إذا كانت تمرّ باستعادة الأراضي، فهي لاتتوقّف عند هذا الحدّ. إسمح لي أن اقول بضع كلمات أخرى حول إسرائيل. إنّها تبالغ ولاشكّ الآلام والتهديدات التي تزعم أنّها تتكبّدها لمجرّد وجودنا بجوارها وبفعل مرارتنا نحن، وذلك عبرَ مناحات وصرخات مرتفعة، محشّدة في مكبّرات للصوت، ومنصوبة في جميع أرجاء مايُدعى بـ« الدياسبورا » (أراضي الشتات). سنستأنف الحديث لاحقاً، وسأقول لك لمَ نحن محظوظون لكوننا أعداء أمريكا. بعدَ غد، إذا أردتَ العودة الى عجلون. وأضاف مبتسماً: هل ستعود، وماعاد فرج موجوداً؟ ستحملك سيّارة لمنظمة التحرير الفلسطينية الى جرش. لكن اعرضْ جيّداً جواز سفرك الفرنسيّ عندما ترى حاجزاً أردنياً.

لم يكن شارع « الحمراء »، ولاحتى شارعاً أنيقاً في بيروت، وإنّما شارع تجاريّ عاديّ، مع صفّين من السيّارات مصفوفة أمام كلّ مخزن، وفجاة أصبح الشارع مزحوماً. اوّلاً، بسيّارة جدّ غالية ومن « موديل » قديم، وفيها رجلان بشاربين في المقدّمة وثلاثة في الخارج. اصطفّت الى اليمين، وبقي الرجال فيها، صامتين كما يبدو. وجاءت سيّارة أخرى، آخر صيحة من « الكاديلاك »، بسعة الشارع تقريباً، ولم تصطفّ لاالى اليمين ولا الى اليسار، وإنّما في

منتصف الشارع. وخرجت منها ثلاث نساء، اثنتان في زيّ عربيّ، غير محجّبتَين، وثالثة أوربية؛ بقي السائق في السيّارة، لكن نزل منها شابّ في حوالى الأربعين، بشاربين ولحية بسواد فاحم، قويّ البنية يقيناً وربّما كان مسلّحاً. وأخيراً، امرأة مسنّة جدّ جميلة، ترتدي ثوباً أسود طويلاً يلامس القدمين، وجهها ملثّم بحجاب كامل أو ينزل من الجبين حتى العينين. كانت تبتسم، لأنّ جميع الأميرات يبتسمن للحشد، وكان في الشارع حشد يقبل هذه الصدَقة. دخلت في مخزن رأيت في واجهته آيات قرآنية محفورة بالأسوَد على الذهب أو بالذهب على برنيق أسود. سدّ الرجل ذو الشاربين واللحية الباب بضخامة جثّته وحدها. لم أرَ ماتفعل الأميرة. ثمّ سرعان ماخرجت، وشكّلت لها حاشيتها مايشبه سياجاً حتى وصلت الكاديلاك ودخلت فيها هي الأولى. وكانت امرأة عجوز تجد، كما هو معتاد، صعوبة في الاصطفاف بسرعة، وإذا بالرجل القويّ يأخذها من ذراعها ويرميها بعيداً حتى لقد اصطدمت بمجموعة من الفضوليّين. لم يحتجّ أحد، لكن لاأحد ابتسم لشعور المرأة بالعار. وتلقّت السيّارة الأولى، التي لابدّ أنّها كانت تضمّ رجال شرطة أو حرّاساً مستأجرين، أمراً بالتوجّه الى السفارة. قال: السفارة، فتبعته الكاديلاك. واستعاد الشارع حركة الرواح والمجيء.

ـ مَن كان هذا؟

لاشيء سوى مايأتي: حركة، تلكم هي حركة الحارس رامياً المرأة العجوز على مجموعة من الفضوليّين، جاءت من أبي ظبي لتقع هنا، في شارع عاديّ في بيروت بلبنان.

هوَذا مابقي من حكاية السيّد مصطفى:

ـ تريد عائلتنا بالطبع أن ترجع صعداً الى ماقبل إسلامها، الذي تحقّق نحوَ ٦٧٠ـ٧٠٠ من تاريخم الميلاديّ. كان السكان فلاحين وتجّاراً.

ـ أيّة تجارة؟

ـ أقصى مانقدر الرجوع اليه في التاريخ يرينا تجارة الأصباغ للصوف، والحنّاء، والعدس... كان السكان يقتاتون من التربة والبحر. لاأعرف الكثير عن الحقبة الممتدة بين ٧٠٠ و ١٤٥٠. بعد ذلك، لم يسعَ العثمانيون الى تنْميط الامبراطورية أكثر من اللزوم. ولو لم تتحارب بعض العائلات الكبيرة، لكان السلام عمّ فلسطين.

ـ كيف تنشأ عائلة كبيرة؟

ـ بأن تنحدر من عليّ مباشرةً، أو تمتلك مايكفي من الدهاء لجعل الآخرين يعتقدون بذلك. اتحسب انّ اشجار الانساب الكاذبة غير موجودة إلاّ في أوربا؟ إنّ مُعادلي الدوقات «لفيس» عندكم، سَليلي مريم العذراء، قد عاثوا فساداً في تاريخ الاسلام كلّه. وكانت عائلاتنا الكبيرة تتحارب على سبيل اللعب، وفلاّحونا...

ـ عبيداً.

ـ بل تخطيء. فلئن اختار اللّه النبيّ («وماهو إلاّ بشر مثلكم...») فذلك، بين دوافع أخرى، ليُدين الرقَّ صوتٌ إنسانيّ. وهذا ماقام به محمّد. وعليه، فقد شكّل لوحده [مايشبه] مؤتمر ڤيينا. لكن بالفعل، وسواء كانوا عبيداً أم لم يكونوا، فإنّ الفلاحين كانوا يعملون لصالح الاقطاعيين الذين كانوا أجدادي أو مايفترض أنّهم...

ـ لستَ واثقاً، إذَنْ، من شرعيّتك؟

ـ أوه! ياسيّد جينيه، أأنتَ من يحدّثني عن الشرعيّة! مَن يجرؤ هنا على القول إنّ الأمّ كانت وفيّة للزوج؟ بعد ١٤٥٣، صنعَ الأتراك من فلسطين، التي كانت مقاطعة تابعة لسوريا، مستعمرة تركية، مثلما فعلوا بكامل سوريا والجزيرة العربية وجزء من أوربا، خلا المغرب. ولقد تحقّق هذا الفتح بعد...

ـ ممالك الافرنج؟

ـ دعْ جانباً آل ميلوزين وبويّون وآل لوسنيان وفولك نيرا الذين يشغلون بالك كثيراً. مغامرون. تذكّر مع ذلك انّ حكاية ميلوزين ربّما ولدت من هذه الحكاية من «ألف ليلة وليلة» التي تتساءل فيها افعى لها صوت بشريّ عن النبيّ، في حين لن يبشّر النبيّ بالاسلام الاّ بعد قرنين من الزمان. أفعى ناطقة بالعربية – عربيّة جدّ جميلة – قبل ولادة [أمرائكم] آل لوسينيان.

«كان الموظفّون العثمانيّون بالغي التكتّم (جباية الضرائب مرّتين في العام كما أعتقد)، وماكانوا ليزعجونا حقّاً بجنودهم المسيحيّين. كان الأتراك يبتزّوننا، لكن كان لديهم من الشجاعة مايكفي ليتركونا أحراراً. وكانت لنا، نحن العائلات الكبيرة، بيوت في القدس والخليل وعكّة، وقصور في البوسفور ومتولّون للبيوت لصوص كنّا نشنقهم لنديمَ هذا العُرف. أحياءً، كانوا يديرون مزارعنا، وخصوصاً التوت ودود القزّ.»

ماكان منزله يضمّ سوى طابق أرضيّ مرتفع ببضع درجات؛ وكان مايزال يبدو لي أنّ الداخل،

المبلّط بالمرمر الأبيض، لم يكن سوى قطعة واحدة إنّما شاسعة: صالون ومقصف لتناول الطعام ومطبخ في آنٍ واحد. وكان السيّد مصطفى يعيش، وربّما مايزال، على الطراز العثمانيّ، يدخّن النارجيلة، ويزدري ماهو عربيّ فيه، وخصوصاً ابنه عمر، الفدائيّ العلْميّ. وماكان ليقرأ سوى الشعراء الأتراك، أي جلال الدين الروميّ وحده.

ـ ثمّ، بعد كلّ هذه الحقَب، هاإنّ هذا الشعب الذي بات في مقدوره الاعتقاد بانّ هذه الأرض التي يقيم عليها ويعمل منذ ألف ومائتي سنة هي أرضه، يرى الى الأخيرة وهي تُسحَب من تحت قدميه كمن يسحب سجّادة من دون إسقاط الأرائك الموضوعة عليها. أعذرْ فرنسيّتي، آمل أن تكون عربيّتي أفضل. أكان في مقدوره أن يعرف أنّه في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، قرونكم دائماً، مادمتم استعمرتم الزمن بعد استعمار الفضاء، ومادمت تقول لي إنّك تضع كتاباً يخاطب المسيحيّين، نعم، أكان في مقدور شعبنا الفلسطينيّ أن يعرف أنّ رجالاً ناطقين بالروسية والألمانية والبولونية والكرواتية ولغات البلطيق والصربية والهنغارية، سيقيمون على هذه الشاكلة جمعيّة «عشّاق صهيون»؛ وأنّ جبل صهيون كان يشكّل المركزّ الروحانيّ وكذلك الجغرافيّ لبلد أحلام رجالٍ من كييف وموسكو وكولونيا وباريس وأوديسا وبودا [بست] وكراكوڤيا ووارشو ولندن؟ لم يكن الفلاحون بيننا ولا الأسياد ليعلموا بأنّ مشروعاً قد تشكّل رويداً رويداً، في أحلامٍ بالغة البُعد عن ليالينا، نحن الذين كنّا نحلم بأشياء مغايرة. إنّ غضاريف صارت عظاماً، وتسارعَ كلّ شيء من دون أن نخمّنه، في اتّجاه تلاشينا. وفي ١٩١٧، وبالكاد، أدركنا أنّ المشروع كان يتجسّد وسطَ هذه القذارة: غرق الامبراطورية.

«لقد أدهشَنا في البدء الوصول النزِق، أو الذي يبدو كذلك، لرجال ونساء مبرقَشي الوجوه، مفجوعين لاضطرارهم الى مغادرة جبال «الكارپات» [رومانيا] والثلوج والأمطار. كان يهود أوربا يحلمون بصهيون، ولاأحد قال لنا إنّ القدس تُدعى هناك «صهيون»! ـ تلال الزيتون، وهيكل سليمان، ونشيد الأناشيد، وحقول القمح، والأعناب، عناقيد طوال العام، يزن الواحد منها خمسة كيلوات، وإذا بهذا كلّه يشكّل حلم عازفي كمنجة ومشاريعِ صيارفة. ماكان الفلسطينيون، في معاصر الزيت وأعمال الحرث، ليعلموا أنّهم كانوا محلوماً بهم، ولا أنّ آلاف النياط كانت تُشدّ حولهم وحول بلادهم. وعندما يقول لك الفتى عليّ، الذي كلمّتَني عنه، إنّ الصهاينة قد اشتروا، تحت العباءة، مشاتل التبغ من حدود إسرائيل الحاليّة حتى الليطانيّ، فهو ليس بالمخطيء نظريّاً. كانت السجلاّت المساحيّة لأراضينا مرتّبة في فرصوفيا بأفضل ممّا في القدس. وصار عازفو الكمنجة اليهود قنّاصين أكثر شروداً ودقّة في آنٍ معاً: الكمنجة تسغانيّة (غجريّة)، والبندقية إسرائيلية. وكان أبناء بلدي مايزالون يجهلون

أنّهم كانوا مرصودين منذ ألفَي سنة، إذ مايعني التهديد: «لو نسيتُكِ ياأورشليم...»؟، وأنّ حياتهم، التي كانوا يحسبون أنّهم لايدينون بها إلاّ لوفائهم للأرض التي غذّوها هم أنفسهم، كانت، أي حياتهم، ومنذ ألفَي سنة، مُعارة من قبل حائشي طرائدَ سلافيّين لاينتظرون سوى اللحظة المناسبة للشروع بالصيد مع أبواقٍ وصراخٍ وجلبة. أبداً، لم يحلم الفلسطينيون بيهود أوربا المتعرّضين للبوغرومات [ملاحقات اليهود]، عندما جاء المتضرّرون الأوائل في هيئة فلاحين مصمّمين على الظهور كاشتراكيّين، أكثر معرفةً باللاهوت لاريب ممّا بزراعة الحبوب؛ كلاّ، لم يكن الفلسطينيون يحلمون بأرض الميعاد هذه. فيمابعد، ورويداً رويداً، سيعرفون أنّهم لم يكونوا سوى شخصيّاتٍ محلومٍ بها وماتزال تجهل أنّ استيقاظاً مباغتاً سيَحرمها من الوجود والكينونة في آنٍ معاً.

«كان هذا الرجوع، الشبيه بسقوطٍ في الأجيال بالغة القدَم من اليهود البولنديين والأوكرانيين والمجَر، يمنع الفسطينيين من أن يكونوا فعليّين تماماً، ويصنع منهم شعباً من الأحلام، وبالتالي من الظلال، أكثر ممّا من اللحم والدم، وربّما كان كلّ إسرائيليّ يعتقد، إذ يقاتلهم، أنّه كان يُبعد عن طريقه جمهرة من الفلاحين أوّلاً، ومن ثمّ جيشاً لاوجود له. الحال، كان الفدائيون على هذه الدرجة من الوجود بحيث حسبتُ أنّ ثورتهم قامت ليقدّموا لأنفسهم ولليهود الصهاينة الدليل على أنّهم، بالرغم من فلسطينيّتهم، كانوا يصبحون كائناتٍ من العظام والروح لن تتبدّد لدى استيقاظ الإشكناز الحالمين. ولقد بدا لي أنّ المسافة التي تفصل هؤلاء الرجال المُنتفضين عن سواهم كانت غير متناهية، أي أنّها تتعاظم بقدرما نريد، نحن الفلسطينيين، أن نكون أحراراً، مستقلّين عن الرّقْدات أو الاستيقاظات الصهيوينة، وكانت هذه المسافة بين شعب من الأحلام والفدائيين الفعليّين دليلاً على مجيء عنصر بالغ الجدّة الى العالم، قادر على تغيير الشرق الأوسط، وجميع الشعوب المسلمة، وخصوصاً الحكومات المُقامة بمقتضى ضرورات الغرب الذي يريد أنّ يظلّ العالم العربيّ شعباً من الظلال. ولقد تعاظمت حريّتنا عندما كبرت المسافة بين الظلال التي كنّا والمزعجين الذي بدأنا نُصبح. وكانت الحريّة وثروات حريّتنا كامنة في هذه المسافة بالذات، التي لم نكفّ عن توسيعها. كانت هذه المسافة تبدو هي خزّان هذه الثروات. وعليه، فقد كان الخطر الفعليّ، الذي كنّا نجهله، حلماً عتيداً وموجّهاً.

ـ هل قدّمت عائلتك خدماتها لسلاطين القسطنطينيّة، في الماضي؟

ـ طبعاً.

دخل صهره. كان السيّد مصطفى، وهو المسلم، قد تزوّج من ألمانية، ثمّ من شركسيّة.

أمّا الصهر، الموظّف العالي، الذي يتقن الفرنسيّة، فكان شديد بياض البشرة، أشقر الشعر. ومهما كانت بشرة مصطفى قليلة السمرة، فبفعلها عرفتُ شحوب البشرة السلافية، ولم أندهش كثيراً لرؤية الأوربيين وهم يدافعون عن المنشقين السوفيات بأكثر ممّا يدافعون عن السود الأمريكان، إلاّ إذا كانوا آتين من أطراف المجتمع: راقصين ومغنّين وقفّازين وعازفي جاز. ولعلّ حضور الصهر خفّف من حدّة ملاحظات السيّد مصطفى عن الغربيين.

ـ نحن بالطبع مسلمون أوّلاً، وهم كذلك؛ سوريّا خصوصاً، ولاتنسَ أنّني سوريّ أيضاً، مادمتُ مواطناً تركيّاً، ولم تُنكر الامبراطورية لاسوريا ولافلسطين. على النحو ذاته كانت «البروفنس» و«ناربونيا» الفرنسيّتان قد اصبحتا مقاطعتين تابعتين لروما. ولقد احتُرِمَتْ فرادة فلسطين. العثمانيون؟ إنّ الامبراطورية، هذا الثقل البالغ وزنه خمسين طنّاً والذي كان يمثل صعوبة تحريكه في طريق جبليّة، قد ترك مع ذلك لليونانيين والسلوفيين والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين والالبانيين، فرادتهم. وإنّ الجُرم الأكبر للامبراطورية العثمانية هو أنّها لم تفرض على العرب مطبخها. ويُعاب عليها خصوصاً هذا الجيش من مرتزقة مسيحيّين...

هنا، لم يجرؤ على التقدّم أكثر. كان الشركس الروس أوّلاً قد جاءوا للاستقرار في الامبراطورية، على شاكلة المرتزقة المسيحيّين الذين كان يتحدث عنهم، نوعاًما. وكان صهره ذو العينين الخزفيّتين يصغي.

ـ وإسرائيل؟

ـ كنّا، حتى نهاية القرن الماضي، قد نسينا مَن نحن. وأعادت لنا الغزوات الاسرائيلية روحنا. يبدو من ردّة فعلك على هذه المفردة أنّك تشكّ بوجود الروح، ولكنّ روحنا انهالت علينا بمثل هذه الشراسة بحيث كان على ظهورنا ان تتقوّس تحتها أكثر ممّا تحت الغزاة. كنت أريد ان أعبّر لك عن انتمائنا الى شعب فلسطين. فهل يصدمك ان أطرحَ مثال مُرضعة؟ كنّا، لدى الطفولة، نفيد من ثدييها الزاخرَين بالحليب، ونحبّها كما تحبّون أنتم بقرة هولنديّة وكنّا لانقدر ان نبيعها ولاان نؤجّرها. وعندما ينتزعها منّا أحد، لانعود نتذكّر حليبها وإنّما اسمها، والبقع السوداء على جلدها، وقرنيها. كنّا نحامي عنها. وقد عرف الفلاحون الفلسطينيون صلابتنا، فلقد غذّونا. وتريد إسرائيل إنكار فلسطين، وإلغاء حتى اسم هذه البلاد...

وأضفتُ مُلحّاً:

ـ ولكن إسرائيل؟ كيف كان يهود بولندا يتخيّلون الفلسطينيين؟ عندما كانت الأرض مستوية، ايّ اسم كان يُمنَح لفلسطين في «القِرَم»؟ وكيف كانت أزياء سكّانها؟ أكانوا

يعلمون انّهم كانوا يبدأون مسيرتهم، بداية غزو؟

ـ لو كانت اسرائيل، بدلاً من المجيء الى فلسطين، وهبت نفسها دولةً في صقلية أو في بروتاني [الفرنسية]، لكنّا ضحكنا كثيراً، واعتقد انّ اسرائيل كانت ستصبحُ صديقة لنا. ولَماكانت ستحمل في داخلها ازدراء العرب، الخاصّ بها والذي ربّما كان أقوى من انتمائها الى اليهوديّة. تَصوّر البروتاني وكمبير وبريست محتلّة من قبل الكيبوتزات، وبلادكم بكاملها تنطق بالعبريّة. والبروتانيّين لاجئين في بلاد الغال وإيرلندا وغاليثيا [الاسبانية] والجليل. انتم أيضاً كنتم ستضحكون بامتعاض. ولئن لم يكن مؤكّداً انّ الفلسطينيين هم الذريّة النقيّة للكنعانيّين والفلسطينّيين القدماء، فلايقلّ انعداماً لليقين ان تكون السيّدة غولدا مائير الحفيدة المتأخرة لموسى وداود وسليمان.

بدت لي حكاية السيّد مصطفى هذه متردّدة ومرويّة بميوعة في آنٍ معاً. وعندما تقابَلنا مرّة اخرى، وحيدَين، سألتُه ان يعود إلى حلم اسرائيليّي النرويج ذاك.

ـ ماقلتهُ عنه لايشكّل وصفه ابداً. انا لم احلم حلمهم، كنت أجهل أنّني كنتُ محلوماً بي. وهذا ممّا يعني أنّني كنت ملموحاً بعين الرغبة. بعيداً في الفضاء وفي الزمن. ولاشكّ انّ صور الحلم كانت غائمة. وهكذا اعتقدنا، نحن الأسَر الفلسطينية، انّ المدّ كان يصلنا عبر طرق الحلم. ماكان يروي عن القدس مَن كانوا يغادرونها ليرجعوا الى أوپسالا، بودا، كييف، ووارشو؟ وبأيّة لسانٍ تخاطبوا في القدس، مادام لاأحد منهم يعرف العربية؟ ربّما اليونانية واللاتينية؟

ـ كان كوبرنيك يكتب باللاتينية.

ـ لم يكن يهودياً. أيّة حكايات راحت تتنقّل على ضفاف البلطيق؟ فكّرْ بخرائط السواحل في القرن الرابع عشر، التي كانت ماتزال مأهولة بالمسوخ والبشر والحيوانات غير القابلة للمعاشرة. كان الحجّاج والتجّار الكاذبون يخترعون شعوباً، وممالك للنبات والزهر خياليّة.

ـ أكانوا يحلمون بالغزوات؟

ـ فيمَ تفيد الأحلام وأحلام اليقظة؟

ـ غزوات عسكرية؟

ـ عندما يكون شعبٌ صغيراً وضعيفاً، لاتشكل الغزوات سوى احلام. إعتبرْ أنّني لم

اقل شيئاً؛ منذ ألفي عام وأنا، وترابي أيضاً، نُلمَح بعين الرغبة ولمّا نعلمْ، كانت العين في الجليد. وكان إستراتيجيّون أباً عن جدٍّ يعْقدون خيوطاً، بل فخاخاً، تستهدفني بأناة.

ـ هذه هي وضعية الشعوب الضعيفة. تجهل كواسرَ ماوراء البحار.

ـ لاتؤاسي ملاحظتك أحداً. ولاتتوقف الأحلام لحظة. وإنّني لأتساءل أحياناً إذا لم يكن دماغنا عضواً وظيفته الوحيدة هي الحلم بحياتنا. حدّثتَني ياصاح، وحدّثني آخرون، عن سعادة العيش بين الفدائيين، وأنا لاأعرف شيئاً عن التصاهال الذي يكثر الكلام عنه، ولاعن روح هذا الجيش وطرائقه الديموقراطية، جنوده وقادته، فهل ستكون سعادتك هي نفسها لدى وجودك مع التصاهال.

ـ لو كنتُ يهودياً...

كانت أربع عجائز فلسطينيات، ثمّ خامسة، جالساتٍ القرفصاء في خلاء جديدٍ، في جبل الحسين. جديد، أقصد حديث الحيازة، ربّما البارحة، أو أمس الأوّل على أبعد تقدير؛ كان جديداً كرقعة خلاء ناتجة عن الحرق بالنابالم. رجونّني ضاحكاتٍ أن أجلس وإيّاهنّ.

يجلس الهنود الحُمر القرفصاء، العجيزة على الكاحلَين، واليدان على الأرض للمحافظة على التوازن واليقظة، تاهباً للفرار؛ ومَن ساروا نهاراتٍ وليالي، مع عصا باليد، يترقّبون من قبلُ لحظة الجلوس، المغاربة، البربر منهم والعرب؛ ومن ثمّ العثمانيّون. كانت عائلة من «أمراء الصحراء» – وحدهم الفحول – قد جاءت لتقدّم التحيّة لحسين، الذي كان قد لامسَ الموت عن قرب (آب / اغسطس ١٩٧٢). كنت في فندق «عمّان»، بعمّان، جالساً في مواجهتهم. وكانت العائلة كما يأتي: الجدّ الأكبر، الجدّ، الأب، الابن، وسبعة أحفاد. جلسوا على أرائك سوداء. ظلّوا، لهنيهاتٍ، جامدين صامتين. وبعد خمس دقائق، لم يعد الأب سوى ساق واحدة ممتدة من الأريكة الى الأرض، والساق الثانية مثنيّة تحت إليته. رويداً رويداً، صارت العائلة كلّها بلا سيقان، مقرفصة على الأرائك، كما على شفير هاوية في الرسوم اليابانية. وكانوا يدخّنون ويبصقون على السجّاد؛ عرفنا من الخميني أنّ الايرانيين يجلسون على الشاكلة ذاتها، وأهل الهند هم أيضاً يقعدون على إلية واحدة، ومثلهم اليابانيون. والحقّ، فإنّ وضعيّات الاستراحة هذه، القريبة تارةً من الفرار، والمعبّرة طوراً عن تعب سحيق، إنّما تريك مايشبه باقة من البشر مصعوقين في مدار الزلازل. ولشدّ مايسلّيني هذا التوافق. أسجّله، لأنّه يذكّرني بهذا الفتى الأمريكيّ:

ـ لِمَ تقوم برحلة حول العالَم؟

ـ أريد تصميم الكرسيّ الذي لم يصمّمه احد، وبالتالي مشاهدة جميع الكراسيّ الموجودة لأتصوّر الكرسيّ الغائب.

كانت أكثر العجائز عُمراً ـ عميدتهنّ؟ ـ هي الأكثر أبّهة بإيماءاتها، بالرغم من ابتسامتها.

ـ نحن في منزلي.

إبتسمت الباقيات مؤيّدات.

ـ أيّ منزل؟

ـ ألا تراه؟

بأصبعها المدبّبة والمحاطة بالخواتيم، أرتْني أربع كوماتٍ من الرماد البارد محاطاً كلّ منها بأربعة أحجارمسودّة. ولم يتوقّف إصبعها عند الكومة المشيرة الى منزلها هيَ.

مَن كان ياترى وجّه الأمر الى فدائيَّين يجيدان الفرنسية باقتيادي، قبل ذلك بثلاث ساعاتٍ، الى «ڤيلا» صغيرة بقيت سالمة في قلب جنينة، قريباً من جبل حسين؟

ـ ستقابل شخصية رسميّة، رئيسة اتّحاد النساء الفلسطينيات في عمّان. كنْ مهذّباً، فهي برجوازية، وعلينا أن نراعي جانبها.

ـ هل هي هشّة؟

ـ إنّها تقدّم مساعدات.

«الوحدات» و«جبل حسين» هما في عمّان المخيّمان اللذان تعرّضا لأكبر قدر من التدمير على أيدي الجنود البدو. على طاولة واطئة، في قاعة الاستقبال، كانت مجموعة من أوراق اللعب تنتظر، ربّما، أن «أقطع» الأوراق وأوزّعها. دخلت الرئيسة، وصافحت الجميع وجلستْ، ودَعتْنا للجلوس، ثمّ أخذت أوراق اللعب بيديها وابتسمت، ولقد خرّبت هذه الابتسامة الوجه المتورّد في العادة. وجوه «دورا مار» مستخدمة للأسف بإفراط، ولذا فلن أقدر أن أقارن بها وجه الرئيسة. لقد انسحب دمها كلّه الى ساقيها وقدميها، وصار وجهها شاحباً على حين غرّة. وسرعان ماراح صوتها، فيما تتفرّسني، يعلك أمامي، بفظاظة، أوبنيوءة، نصّاً غير مرئيّ، تتهجّاه كمن يمزّق شيئاً، فارضةً عليَّ أسباب المقاومة الفلسطينية.

ـ فنحن لدينا حقوق. إنّ قرار الأمم المتّحدة ٢٤٢ لجازم، ولن أسمح أبداً لاسرائيل ولا للأردن بإملاء قرارات منظمة الأمم المتحدة ولإعاقتها.

نهضتُ.

ـ حماقاتكِ معروفة. إحتفظي بها.

لما كانت الرئيسة تعرف الفرنسيّة الى حدّما، فهي ماكانت، خلافاً للفدائيين، لتجهل مفردة « حماقات » هذه.

ـ أنا أقول الحقيقة.

ـ إذا كان مسؤولو « فتح » قد اختاروك، فهم بمثل بلاهتك.

راح الفدائيان يؤاسيان الرئيسة الباكية. خرجا معي، ثمّ تركاني منزعجَين.

ولما تخلّصتُ منهما، شعرت ببالغ الانفراج إذ اكتشفتُ العجائز المبتسمات وسطَ النحس، أمام قطع الفحم الخامدة. لما كانت المفردة « موقد » foyer تدلّ [في الفرنسيّة] على منزل أيضاً، فإنّ هذه المواقد الخمسة التي كنت أراها كانت ترمز الى المنازل التي احترقت كما في هذه المواقد الخمسة: أربع قطع من الحجارة سودّها الدخان. وماكانت واحدة منهنّ محجّبة، حتّى إذا كانت خماراتهنّ تخفي خصلاً من الشعر الأبيض مصبوغة بالحنّاء. كنّ يضحكن، يائسات بأناقة. وماقلنه لي ترجمَه مسؤول فلسطينيّ مرح الى حدّما، في مثل سنّهنّ، لكن خامرني الانطباع بفهمهنّ قبل وصول الترجمة. كنّ يعرّين عزلتهنّ حتى العظم.

ـ أنتَ من أين؟

ـ ينبغي أن نسخّن له الشاي.

ـ هل فرنسا بعيدة؟

ـ هل هناك تيّارات هوائية؟

بتفخيم مخفّف وبالغ الرشاقة، روينَ لي كيف احترق كلّ شيء مع مرور الجنود البدو ومع قنابل النابالم.

ـ الموقد هنا، هل ترى الموقد؟

وأشارت بسبّابة نحيفة وسمراء الى أربع قطع من الحجارة مسودّة وبعض الرماد. وأرتني

فنجاناً من الصينيّ الأزرق، جدّ رهيف.

ـ قيل لي إنّه آتٍ من الصين. أنظر إليه. ولاخدْش. لقد سقطَ على الرماد، أزرق على رماديّ، لاباس.

عند هذا الحدّ من الأناقة والظرافة، يتلاءم الشقاء والعجائز جيّداً. وكانت السماء زرقاء أيضاً. كانت الشمس تبعث سخونتها، والموقد يشتعل حتى في انطفائه. والى الفنجان السليم، بعدَ صلْي الرشّاشات والحريق، بقيَ إبريق الشاي، المسودّ والمتفحّم تماماً، لكن لا أكثر ممّا كان عليه قبل الحريق. الححن لتحضير الشاي من أجلي.

ـ سيكون الليل بارداً.

ـ لكنّنا لسنا وحيدات. لدينا جميعاً أهل. أهل كثار. في الليل، نذهب إلى بيت هذا أو ذاك. والنهارات نمضيها هنا، في بيتنا. في مثل عُمرنا هذا، نحبّ نحن الرجوع الى ركن الموقد.

كان لكلّ عجوز منزلها.

ـ هل سيبقى حسين؟

ـ هل أنت أهبل؟

وسالنني ضاحكات إذا لم أكن أريد أن آخذه معي لأريه للفرنسيين.

ـ لاشكّ أنّهم لم يروا رجلاً مثله!

ـ هل كنتَ، قبل أن تأتي الى هنا، تعرف أنّ الثورة هي هكذا؟

وردت المفردة للمرّة الأولى. أكانت الرئيسة، التي ربّما كانت الآن وحيدة وماتزال تجهش بالبكاء، تهدي نفسها «نجّاحةً» (٧٨)؟ أوكانت تعرف أنّ النساء الفلسطينيات، على مبعدة خمسين متراً من حديقتها، كنّ يعرضن هذا النجاح البسيط، الا وهو المرَح الذي ماعاد ليأمل شيئاً؟ واصلت الشمس منحناها. وكانت ذراع ممدودة أو إصبع ممدود يعكسان على الأرض ظلاً أكثر نحافة، لكن أيّة أرض؟ أردنيّة بفعل تخييل سياسيّ قرّرته انجلترا وفرنسا وتركيا وامريكا.

ـ لقد اطلقوا قنابل حارقة. وكان زوجي بين أوّل المُصابين.

ـ أين هو؟

ـ هنا!

وتمدّ ذراعها ولكنْ، عن توفيرٍ أو تعبٍ لكونها تكرّر الايماءة نفسها منذ ثلاثة أيّام، لم تُكملها.

ـ إنّه هنا. وراء الحائط. حَفرنا جميعاً قليلاً لنهيء له قبراً أعمق، ولكنّها الصخور. وعدوا بالعثور له على قبر أثناء الأسبوع، وَعَدتْنا «فتح» بذلك. لقد اشتعل مع النابالم، زوجي العجوز. الشعر والعينان في البداية. وتوقّف الحريق في الوقت المناسب. فزوجي هو الآن بمثل نظافة عظام سمكة.

كان للجميع وجوه مَرداء. أكنّ يَحففن وجوههنّ؟ مثلما لاتزال النساء العربيّات الشابّات يحففن شعر العانة؟ تحت فساتينهنّ السوداء، فساتين سوداء أخرى، وفساتين أخرى وحده الزوج يعرف أو كان يعرف عددها، آتية، كالوشاح، من أيّة هديّة أو أيّ إرث؟ لم أقدر سوى ان أتخيّل اجساداً هزيلة، لايغسلنَها ابداً، فمجاري الماء كانت معطلّة. إنّ تلك الأجساد المجرّدة من الرغبة والمتناهبة في هموم زيجاتٍ مفتّتة وفي الحرب وتحوّطاتها المؤقتة، كان لها، من الآن، لون التراب. وماكانت حيَل الطلاء لدى عجائز العائلات الكبيرة لتهمّ هنا أحداً.

أمّا المقبرة التي حدّثتني عنها، فماكنت لأقدر أن أتخيّل سوى مقبرة متجوّلة، ربّما كانت شبيهة بهذه التي كان يفكّر بها عليّ الذي كان يريد اقتسام عظامي، إذاما متّ، مع فدائيين عديدين، حتّى يصار الى اكتشاف مقبرة يمكن طمرها فيها أمام البحر الميت. وستكون ولاشكّ مقبرة قابلة للفكّ، صورة فريدة واحتفالية لقبور لم تُحفَر في الرمال أبداً، تاركةً الأجسام لبنات آوى، وشبيهة الى حدّما بنصب الأموات الذي تعيّن فكّه بسرعةٍ، تحت الريح والمطر أو الشمس، وأحياناً تحت القمر، لنَقل عناصره المكوِّنة: قاعدة عليها أكاليل من الورق المذهّب، تكريم للموتى مكتوب بحروف مذهّبة، مع آيٍ من القرآن وقصائد ساذجة ومصباحٍ كهربائيّ أو اثنين. القبور والأضرحة والمقابر والأنصاب، هذا كلّه كان ينبغي ان يكون قابلاً للفكّ، مكيَّفاً وحياة الترحّل.

ـ يعرف البدو التسديد. لقد أطلقوا النابالم بالبازوكا.

قبل سبعين سنة، نحوَ ١٩١٠، وعلى افتراض أنّني كنت يومذاك في سنّ الرشد، كانت تعابير [عاميّة] من قبيل: «هل لديك قمح؟» [كناية عن النقود] و«آخر قيراط» وسواها يتعذّر سماعها من فم امرأة صالونات. لكنّ المفردة «بازوكا» انبثقت بهدوء ودقّة من الفم

الأدرد لعجوز فلسطينية، والمفردة «نابالم» ثلاث مرّات من فم عجوز أخرى في ذات السنّ. كان المعجم الحربيّ، الأحدث، يليق بهذه العجائز. ولقد دُهشتُ لأنّهنّ لم يذكرن «الأسلحة المعقّدة الآتية من البنتاغون».

تتمثّل إحدى امتيازات الهرم والهجرة في أنّ في مقدور المرء أن يكذب بلا مخاطر تقريباً، لأنّ الشهود موتى أو بعيدون عن المنال. ولئن باتت عواصم أوربا مغزوّة منذ ١٩١٨ بأمراء روسيّين سوّاق لسيّارات الأجرة، فمخيّمات اللاجئين ملأى بعوائل تركت في فلسطين سَعادات لاندري ماحلّ بها.

كان لهؤلاء العجائز الخمس، اللائي لم أعرف أسماءهن، أرضيّة، لافوق ولاتحت، وكنّ يُقمنَ في محلّ بلا فضاء، تشكّل أدنى حركة فيه حركة خاطئة أو عثرة. أكانت الأرض، تحت راحات أقدامهنّ الحافية، صلبة؟ لئن كانت صلابتها تقلّ [بقدرما نتّجه] صوبَ «الخليل» البعيدة، حيث بقيَ أهل وأخلاّء، فهي كانت هنا صلبة، يُحيل كلّ واحدٍ نفسه خفيفاً عليها، ويتحرّك في اللغة العربيّة بشبقيّة.

أصبح الفلسطينيون لايُطاقون. إكتشفوا الحركيّة، والمسير، والجري، ولعبَ الأفكار المُعاد توزيعها كلّ يومٍ تقريباً من أجل لعبة جديدة، طورٍ آخر من اللعب ذاته.

عندما كان فرج بشوشاً، كان يحبّ الأسلوب الضحوك، المراح، وحتّى يُحسن مخاطبتي، كان يضع أوّلاً يديه في جيبيه، تاركاً الإبهامين في الخارج، مقوّساً الى الوراء صدره، واقفاً على قدميه المتباعدتين على طريقة جيمس دين الذي كان هو قد شاهدَ أحد أفلامه. سألته مادفعه الى الالحاد:

ـ حتى أجيب، فعليّ أن أستعيد وقفة جسمي. إنتظر قليلاً. هوَذا. ملحد؟ أنا مجبر أن أكون كذلك إذا ماأردت أن يعود نفط الخليج الى الشعب. لقد فهمتَ، إنّني أرى ذلك من عينيك.

ـ لم أفهم شيئاً البتّة.

ـ هذا لايدهشني. الفرنسيّون متأخّرون مادام بومبيدو في الحُكم. إسمعْ، لقد حقّق محمّد «ضربة» ناجحة قبل ألف وخمسمائة سنة. ويدين الأمراء والملوك وأصغر الأشراف وأكثرهم بؤساً بائتلاقهم الحاليّ الى أصلهم. هم، كما يقولون، ويقدرون أن يثبتوا ذلك بفضل

المزيّفين، من ذريّة عليّ وفاطمة والنبيّ عليهم الصلاة والسلام. وإذا ما استطعنا، نحن الفلسطينيّين، أن نقنع العرب بأنّ محمّداً كان هو الغشّاش المنتظَر، فسينهار النبيّ. ولن يعود من الّتي لذريّته من ملوك وأمراء وأشراف.

ـ القرآن مطبوع بملايين النسخ، ويُرتَّل في جميع محطّات التلفزيون في العالم الاسلاميّ. يلزم الف عامٍ ليتحقّق مشروعك في تقويض الاسلام.

ـ وإذن، فلاوقت لدينا لنُضيّعه.

ثمّ أعاد يديه الى جيبَيه، وباعد ساقيه، وأشعلَ سيجارة أمريكيّة كما يفعل سوقيّ لطيف يهدي نفسه سيجارة:

ـ هل لديك سؤال آخر توجّهه لي؟

وصلتُ الى مكتب أبي عمر في منظمة التحرير الفلسطينية بالدقّة، ورويتُ له «جلستي» في قاعة استقبال رئيسة اتّحاد النساء الفلسطينيّات، ورق اللعب على الطاولة، وقرارات الأمم المتّحدة، ومؤاساة الفدائيِّين لها، وخروجي المباغت أخيراً.

ـ وماكنتُ باللأسف معكم! والمناسبات للتسلّي هنا ماأندرها! كنّا نتساءل في اللجنة كيف نتخلّص من هذه المرأة البرجوازية الثرثارة والكسلى.

توقّف عن الضحك ليمسح نظّارتَيه اللتين كان أدنى انفعالٍ يضبّبهما بحيث كنت أتساءل، مادام العالم يبدو له محجباً، إذا كانت الثورة تمثّل لديه شيئاً ماسّاً أم تعادل عمليّة بصريّة: مسحَ عدستَي نظارتيه، وراودتني فكرة سيئة بخصوصه: «لاشكّ أنّه، بضحكه على هذه الشاكلة، يعبّر عن سروره لعدم وجوده في قاعة استقبال الرئيسة.»

تُميِّز عمليات القصف من رقّتها. بعد اثنتي عشرة سنة، وصف لي صديق فلسطينيّ منزله ببيروت، الذي احترقت فيه جميع الكتب الثمينة وقوائم الملحوظات، على الرفوف. إنّ جميع هذه الكتب التي كانت بقيت عمودية على الألواح تكوّمت رماداً على الأرض لالشيء إلاّ لأنّ جسمه، لدى دخوله، صدمَ هواء الحجرة، وعلى هذا الفراش بالغ الرقّة [من الرماد] كان فنجان رائع من الصينيّ، شبيه بالفنجان الآخر [فنجان العجوز] في «جبل حسين»، محفوظاً بعناية. غمزة يقوم بها مَن، ولِمن؟

ـ دعنا نتحدّث قليلاً عن إساءات أمريكان نيكسون الرائعة إلى شعبنا. كنّا نعرف أنّنا يمكن أن نهزَم وأن نُغلَب. ولقد شجّعَنا انتصار ڤيتنام. ذلك أنّ رؤية السفير الأمريكيّ في سايغون على شاشة التلفاز وهو يطوي علم سفارته ثماني طيّات، ويجري الى حوّامة «البحريّة» المستعجلة، الرابضة على حشيش الجنينة، ويركبها ويلوذ بأذيال الفرار على متن حاملة للطائرات في البحر، هذا كلّه أتاح للفدائيين نوباتٍ من الضحك عاتية. وربّما كانت سعادة شعوب العالم الثالث، التي علمت بركوع الولايات المتحدة أمام سايغون، هو الذي وهبها الأمل المجنون بمطالبة الفلسطينيين بأن يصبحوا هم الطليعة الثوريّة في أمدٍ قصير.

لكنْ كنّا نعرف عناد الحكومة، بل النظام الحاكم الذي يستخدم تارةً هذا الحزب وطوراً ذاك عندما ينشد الهيمنة. الولايات المتّحدة هي، بهذا المعنى، نيكسونيّة. لانقدر أن نطبّق حيلها. كلاّ، لانقدر أن نقصف نيويورك...

ـ الأمريكان هم أيضاً لن يجرؤوا على المجيء الى هنا مع قنابل.

ـ مَن يعلم؟ بل أحسب أنّك على خطأ. إذا كنّا قريبين من السوڤيات أكثر من اللزوم (٧٩)...

ـ فسيَحمونَنا.

ـ أقدر هذه المرّة أن أردّ عليك بكامل التطامن بأنْ لا. السوڤيات حلفاء لنا، وسيستخدمونا هم، بدل أن نستخدمهم نحن.

ـ بدأت المحادثة بتعبير: «الاساءات الرائعة».

ـ بيننا وإسرائيل صراع من أجل بقاء شعب، وهو صراع جِدّ محليّ. والخسارات معيشة كما لو كانت خسارات مطلقة. وكانت الحرب بيننا وبين البدو تهدّد بأن تبدو كمثْل نكوص. قبيلتان، بل ربّما فَرْعا قبيلة، يتجابهان، وإذا برئيس قبيلة، عبد الناصر، يأمرنا، بسيادة، بإعطاء قُبلة السلام وتلقّيها. وهذا مافعله عرفات وحسين. إعترفْ، أنت المناوىء للقادة دائماً، أنّهم يعرفون على الأقلّ تبادل العناقات أمام الجمهور. لاأعتقد أنّ أمريكا تحبّ كثيراً الملوك الذي يبدون لها، في واشنطن، سحَرةً من «الخانة الكبرى»، لذا يحاول حسين امتلاكَ بساطة رئيس. كانت اسرائيل تخشى أن يظلّ الكثير من الأردنيّين الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية. وأحسّت اسرائيل بخطر قيام جمهورية أردنية–فلسطينية أو فلسطينية–أردنية، وأنت تتذكّر المناظرات حول الاسم الذي كنّا سنمنح لهذه الجمهوريّة المعمّدة وغير القائمة أبداً. وبمساعدة إنجلترا، نجحت إسرائيل في إقناع الأمريكان بمساعدة حسين، ومن هنا انتصار الملك. اتفاقيّات

القاهرة، والتفاهم السريّ بين حسينْ وغولدا، وخصوصاً التسللات الصهيونية في لبنان وهنا، في عمّان بالذات. ولاتنسَ انّنا كنّا، في بداية الألف الأوّل، بيزنطيّين، وكان أغلبنا انفصاليّين [عن الكنيسة الرومانيّة].

ـ أسلافك؟

ـ ربّما كانوا مسيحيّين واحديّين. لسنا، في عائلتي، على يقين من أيّ شيء، خصوصاً في ما يتعلّق بمختلف الديانات التي مرّت هي بها. أستأنف، إنّ تدخّل الأمريكان قد صنع منّا محاربين، على مستوى الشرق الأوسط أوّلاً. وقد ننال عمّا قريب المنزلة السياسية، إن لم تكن الترابيّة، للفيليبين وفورموزا وإسرائيل وفيتنام الجنوبيّة وكوريا الجنوبية وغواتيمالا والهندوراس وجمهوريّة الدومينيكان والبقيّة. إنّ الثورات التي هي في سباتٍ لتهدّد باستيقاظٍ مباغت. وإذا ما اتّخذت منظمة الأمم المتحدة موقفاً، فهي ستكرّسنا ويكتسب المتمرّد اسم خصم الولايات المتّحدة. والسوفيات يتلعون برؤوسهم مادامو هنا.

لقد أخرَجَنا الدعم الأمريكيّ لحسين من ظلام الحروب القبليّة [التي تُخاض] بالأقواس والغواديف أو مايشبه. وإنّ مدّ الأسلحة المنهمر على عمّان، من أجل حسين، في شتاء ١٩٧٠ ذاك، قد أدخلَنا في العائلة الكبرى لأعداء الرأسمالية الدوليّة. وأنتَ ترى النتيجة منذ وصولك بيننا. ولقد أسكرَنا هذا وعرّضنا للخطر. كانت الأنوار مسلّطة على أوجهنا أغلب الاحايين. والآن، نحن نخشى جرعة النجوميّة المضاعفة. إنّ الظهور، وخصوصاً الظهور في زيّ الفرْجة، سيحوّلنا الى ممثّلين مسرحيّين للثورة.

(إحتفظتُ بهذه الفقرة من محادثتنا منذ ١٩٧٢. وكان أبو عمر مايزال يصرّ على أن يحدّثني عن الثورة بوجه الأمراء والملوك.)

كان في مقدور أبي عمر أن يحدّثني عن أمجاد قائده، عرفات، كما كان يفعل، وعن منظمة التحرير الفلسطينيّة، لكنّني كنت مراراً كثيرة شاهداً على التزامات تتوهّج وتنطفيء قبل أن يعرف الفدائيّون أهداف هجوماتهم بالدقّة. كانت رشّاشة، أو بندقية، أو عشرون بندقية، تنطلق من هنا اليوم، في هذه الساعة، نحوَ موقعٍ كان مستهدَفاً منذ ثلاثة أيّام، والرمي مقرّراً منذ أمس الأوّل على مبعدة مائتي كيلومتر. وكانت الاطلاقات تسقط في حين يكون الأمر بجعلها تنهمر [على العدوّ] قد تُركَ هناك، ونُسيَتْ صورة الأمر في رزمة من الأرشيفات، وسيظلّ الرجال الذين أطلقوا منذ وهلة النارَ على أشباحٍ جاهلين حتّى يوم موتهم المخاطرَ التي جابهوها قبلَ ذلك بثلاثة أيّام. بل لعلّي أقدر أن أقول إنّ بنادق القواعد كانت مُسنَدة على الأكتاف منذ ثلاثة أيّامٍ على مسافة مائتي كيلومتر من هنا. ولدى الأصغاء الى بعض القادة،

كان في مقدور بعض الفدائيين أن يعرفوا سعر «أجنحة» مختلف كبار فنادق أوربا وأفريقيا، من أمثال «الهلتون»، أقلّ ممّا يحدث اليوم، لكنّهم كانوا قد بدأوا يتكلّمون في القواعد. وكان الفدائيون يجهرون بغضبهم من بعض المسؤولين «خادمي سيّدَين اثنين». أفلا تتحوّل السلطة، أيّاً كانت، ودائماً، الى تبرٍ، والتبر الى قوّة؟

أكانت قوّات الحملة على إيطاليا (٨٠) مؤلّفة، الى جانب المتطوّعين طبعاً، من محاربين من العام الثاني [في تقويم الثورة]؟ مرّت خمس سنوات بين الاستنفار الشامل وتعيين بونابرت جنرالاً. ويمكن افتراض أنّ جنود «فلوروس» و«جيماپ» كانوا هم أنفسهم جنود «أركول». والحماسة نفسها، التي كانت في البدء ذوداً عن الأمّة، صنعت منهم غزاةً باسم حريّة الشعوب. كانوا مشاةً، إلاّ الضباط. ولأرشيفات العائلة مورا Murat أن تتكلّم عمّا كان عليه السلب والنهب اللذين تكبّدتهما إيطاليا. ماكان النصر، إذْ يأتي مُغنّياً، ليفتح المسالك للجنرالات وحدهم، بل كان الجنود أيضاً يجدون مايشفي غليل المحتال الذي يسكن دائماً البطلَ، لكنّ الهراوة كانت على المجع مايكون في صلابتها عندما كان يحملها «لان» Lannes. وكانت الثورة الفرنسية، خصوصاً قوّاتها في الران، زاخرة بأفراد من نبالة الامبراطوريّة. أفَماكان أصل أمير موسكوڤا جرحاً في لبان جوادٍ كان يحمل الماريشالَ الطامحَ الى لقب الأمير؟ ولِمَ لايكون جواد «نَي» Ney؟ لقد تحقّقت الأحلام بالمباذل والمخمل في عهد نابليون الثالث الذي ولد، هو وحاشيته، من الثورة غير الخطيرة حقّاً في شباط/ فبراير ١٨٤٨. وتظلّ [ولادة] المغازات الكبرى هي مجد ذلك العهد الامبراطوريّ. ومنذ ١٩٦٢ وحتى الآن (١٩٨٥)، مايزال الحُكم والادارة والشرطة والقضاء في الجزائر بين يدي جبهة التحرير الوطنيّ. ومن الأقدام الحافية، والبيوت المشتعلة، ورهيب المخاطر، صنعت النجاحات (أفكّر بدبلوماسيّي الجزائر)، أقول صنعت النجاحات البرجوازيّة هذيانها الأصليّ، ربّما بفعل هذه الأواليّة التي أفلحت في استيلاد ملوك أورشليم وقبرص من أفعى، ذاتَ ليلةٍ خرقاء.

كان الفدائيون يحلمون، ولأنّهم لايقدرون ان يحيطوا أنفسهم بعالَم زاخر بالترف والألق اللذين كانوا يجهلون، فهم كانوا يحلمون به أيضاً. هكذا قال لي فدائيّ، فيما يريني صورة فوتوغرافية لجناح من القصر الملكيّ:

ـ هذا كلّه لرجلٍ واحد.

كانت جملته تقول: «أنا لاأملك سوى واحد من ثمانية أشطار منزل من الصفيح، وهذا الملك ...»

تعقيب آخر، لفدائيّ آخر، مشيراً بإصبعه الى صورة الملكة:

ـ هيَ مَن أريد ...

وفدائيّ آخر يستشهد بآية من القرآن: «وماهو إلاّ بشر مثلكم».

ـ وإذن، يقول لي، لقد اختار محمّداً نبيّاً، فلمَ لم يخترْني أنا؟

أكان الفدائيّ يرى نفسه بطلاً وسطَ هذه الأحلام البرجوازية؟ وإذ يكون للتعب والغبار والسأم عليه مايشبه مفعول الحشيشة أحياناً، أو الأفيون، أفَكان يرى نفسه مساهماً في عمليّات السلب، وفي خزينة أمارةٍ، مرتقياً من رتبة الى أخرى، حتى تأبينه الوطنيّ وإزاحة الستار عن تمثاله؟

أيّة أحلام تدفع الى التضحية بالنفس؟ هذه الأحلام منمّطة دائماً.

ـ هل تريد أن يهديك القصر؟

ـ سعادة وحيدة مقبولة: هذه التي تُعطى. وسيكون لديه الكثير من السعادة ليهبَني. ولن أقبل.

ـ أنتَ تقوم بالثورة من أجل الآخرين.

ضحك وقال لي:

ـ لاأحد يقبل بذلك. وأقلّ فأقلّ كلّ يوم. أما ترى؟

كان في سنّ الثالثة والعشرين، فهل نفسّر كلّ هذه الفوضى بهذه السنّ في حين لم يهبني عمري، الأكبر من عمره ثلاثاً، أيَّ نسق؟ كان يحلم بتدمير الأرائك المذهّبة، وكذلك بالكلام الذي يقوله عندما يحدّثونه عنها.

كنت، قبل أيّام، أتطلّع باستئناس وكآبة، الى شاعر فلسطينيّ نسيت بالطبع إسمه، يتحدّث الى ممثّل لمنظمة التحرير الفلسطينية في الرباط. وعلى حين كان لجميع الفدائيين والمسؤولين في ١٩٧١ سيقان طويلة وخدود مجوّفة وبطون مقعّرة، فالبطنان هنا محدّبان: أزرار البنطالَين تبدو وهي يشمّ بعضها البعض، أنفاً لصقَ أنفٍ، على شاكلة الكلاب التي يلمس بعضها خطمَ البعض. جرت المحادثة الفعليّة هنا من الكرش الى الكرش، أما الوجهان فقد بقيا

متباعدَين.

يتألّف طعام الفلاحين الأردنيين من الشعير والشيلَم والزيتون والفول. خرجتُ ذات يوم، والنعاس مايزال يغالبني، من الخيمة التي كنّا نرقد فيها أنا وثلاثين فدائياً، وإذا بي أرى الى الفدائيين، وقد طرحوا أسلحتهم نصف الثقيلة جانباً، وهم يضحكون من المشهد الذي اكتشفوه لدى الخروج من أكياس النوم التي كانت ماتزال ساخنة بآخِر أحلامهم الايروسيّة. كان هؤلاء المقاتلون بين سنّ الرابعة عشرة والعشرينْ. وأمامهم حقل نصفه مزروع بالشعير والشيلَم الناضجين، وبين السنابل معزى تدوسه أو تعلكه، مختبلة أو جذلى بشراء اللقْية. وكان الراعي الصغير، ابن حوالى عشر سنوات، يضرب بالعصا كيفما اتفّق على ظهور الماشية محاولاً إخراجها من الحقل. لم يكن معه كلب، وليست المعزى خرافاً. ولّما كانت العصا بالغة الحيويّة، فقد كانت المعزى تهرب الى الناحية الاخرى، كاللحاف عندما تنهال العصا على جانب منه، ينفخه الريش من الجانب الآخر، وماكانت الماشية، غير القابلة [حركتها] للتكهّن، لتخرج من الفردوس الأخضر والأصفر. كان هذان هما لونا الحقل، ولكنّني قابلتُهما غالباً في هذا الموقع من الأردنّ. وما كانت السماء، إذ تتطلّع إليها في الأخضر الغامق لنخلتين، أو بين شجرتين طبّعهما الخريف بالصفرة، أو في الخضرة الخفيفة لمنشفتين منشورتَين على حبلٍ، زرقاءَ بالزرقة نفسها أبداً، وكنت قد اكتسبتُ في عجلون هذه العادة في التطلّع إليها، قراءتها تقريباً، في ضوء هذه الألوان الثلاثة التي كان اثنان منها قاعديَّين، والثالث مؤلّفاً من الأصفر والأزرق. كنتُ بالطبع أمتثل الى رمزيّة تبسيطيّة ولكن مستحوذة. كان المقاتلون، وهم بعُمر الراعي تقريباً، كثيري الاستئناس بانتصار المعزى. ومن الجائز أن يكونوا انحازوا للماشية لأنّها ماكانت لتتبع سوى نزوتها، وكذلك لرؤية السنابل خللَ الأشداق، والفكوك ماضيةً من اليمين الى اليسار. وتحت لحى الماعز، صعود الحلقوم ونزوله مع كلّ مضغة شَعير. أكانت المعزى، خلافاً للحملان، هي الصورة الحيويّة والوقحة للحريّة والتمرّد والفوضى، كما كان المقاتلون يعدّون أنفسهم، ويحسبونها، مع أنّ المعزى والجداء لم تبادر أبداً للتجشؤ بين باقتين، أم، ببساطة، لأنّ المسليّات كانت نادرة في هذا الريف حتى لقد ضرب المقاتلون عرض الحائط بسخط الراعي، المرئيّ على وجهه القريب من الانحصار – وماأفدح انحصار راعٍ للشعوب حقيقيّ عليه أن يوجّه المجموع صوبَ هدفٍ أو أكثر من دون أن يستأصل النزوات الفرديّة! – الحال، كان أولئك الفدائيون هم أنفسهم من قادوني قبل ذلك بأيّامٍ الى الفلاّحة الأردنية، واستمعوا إليها ببالغ اللطف، والحقل المخرّب كان حقلها، والراعي أحد أصدقاء الفلسطينيين، النادرين. بالنسبة الى الصبيّ، كان الحصاد قد أُتلِفَ، بسبب الماشية، وبباعث من غشامته خصوصاً. وماكانت

سخرية الفدائيين لتفعل فعلها في الماشية، بل تتبّط من عزيمة الصبيّ الفلاّح. ماكان الفدائيون، المولود بعضهم في الصحراء، في مدينة أو أخرى من الخليج، ليعرفوا سوى الأسلحة، وهم يحفظون عن ظهر قلبٍ، بالعربية، بضعة شعارات لماركس ولينين، ونادراً لماو، لكنّهم لم يلاحظوا أيّة صلة بين فطائر الشعير أو الشيلَم التي كانوا يتناولونها مع الشاي ثلاث مرّاتٍ في اليوم والسنابل المكسّرة، المهدورة، والمدمّرة أكثر ممّا بمفعول بردٍ يدوم سبع ساعات. وعندما سألتُ المسؤول أن يساعد الصبيّ الراعي، راح يضحك أعلى من جميع المحاربين الصغار. فرأيتُ المسافة الفاصلة بين المتسكّع الذي كنتُ ماأزال وحارس النظام الذي كنت أجازف بالتحوّل إليه إذاما سمحتُ لنفسي بالانقياد الى إغراء النظام ومايعود به من رفاهية. كان عليّ أن أمنع نفسي بين الفينة والفينة من النضال لاضدّ التماساتِ نظامٍ ما في فرنسا، فالاجابة هنا مفرطة الوضوح إذاما فكّرنا بابتذال هذه الأمّة، وإنّما ضدّ الالتماسات التي تبدو آتية من انتفاضاتٍ يبدو الشّعر المرئيّ جداً فيها وهو يتخفّى على دعوات الى الامتثاليّة مابرحَتْ شبه خفيّة.

ولعلّ هذه الفوضى المحدَّدة جيّداً بالسياجات الأربعة، في حقل للشيلَم وجمهرة من المعز، ترينا ماكانه النشل الذي يمارسه الفلسطينيون في حدود لبنان الجنوبيّ. من البديهيّ أنّ لغضب الشيعة أسباباً أخرى غير رعونة الفدائيين. لمَ قلتُ «غضب الشيعة»؟ لأنّ الصحف تتحدّث عنه، ولكنّها لاتذكر أبداً غضب ملاّكي مزارع الحمضيّات والتبغ في جنوب لبنان. سأتحدّث عن هذا بالتفصيل في جزء قادم.

لاشكّ أنّ جاذبية مفرطة تُحيل النساء الحسناوات، الرقيقات مثلاً، عصيّات على الاحتمال. والرجال، إذْ يقفون على مبعدة منهنّ، يتلقّون منهنّ بين الفينة والفينة بعض البوارق، ويتحمّلون هذه الجاذبيّة زمناً أطول. ولكنّ عملهنّ بمرأى منّا – قيامهنّ بشحذ مفاتنهنّ الاغرائيّة – يحوّلنا الى خادمة موليير تلك، التي يروى أنّ الشاعر كان يجرّب عليها الرقّية الخبيثة لملهاواته الجديدة. كانت تعرف أنّ اللقايا ستكون رائعة لأنّها موجّهة الى جمهورٍ غائبٍ سيأتي تحت الانوار، مبهرَجاً بالمباذل والبرانس، في حين تظلّ هي خادمة تحمل صدريّاتٍ لإزالة «مكياج» المعلّم. كان يلزمه استحمام وتهيئة.

ـ أرجعوها ثلاثة أمتار على الأقلّ. ستكون على الرّدْم أيضاً، ولكنّ انحدار الأرضيّة سيحميها ويمكّن سدَنةَ الرشّاش [مُلقميه] من الاضطجاع وإكمال عملهم بلامخاطر. في الأمان، سيقاتل الفدائيّون بدقّةٍ أكبر، وتعبٍ أقلّ. أمّا الرشّاش، الذي لن تعود الشجرة تُضايق مدفعه، فسيردّ بصورة أفضل على الاطلاقات الآتية من الجهة المواجهة. هذا عن الرشّاش الأول. أمّا الثاني، فسيَحشّ في رميٍ ضامٍّ، عن اليمين، الوادي كلّه بل حتى السياج المحاذي للطريق إذْ يمكن أن يختفي بدوٌ وراءه.

كان الملازم السودانيّ مبارك الى جانبي، وسطَ الفدائيين، كما لو في جولة تفتيش رسميّة. أحسب أنّ الغاوي الذي كنت أبحث عنه فيه، والذي كان حضوره بالنسبة إليّ باهظاً ومريحاً في آنٍ معاً، قد شخّص عيوب الجهاز بلمحة عين: لمّا لم يكن أيّ مَصفّ [للرشّاشات] مستوياً، فإنّ سدَنة الرشّاش سيردّون لاعلى التعيين. فكّرتُ بأنّ هذا الرجل الذي ولدَ محارباً قد عدّل التحصينات، وأدركتُ أنّه يعود، ببشرته طبعاً، وبدهائه الحربيّ خصوصاً، الى أفريقيا اليقظة. قلتُ له ذلك.

ـ ماتراه الآن هو «ساندهارست» [مدرسة للعلوم الحربيّة في بريطانيا]. إنّني أطبّق دروس مدرسة المدفعيّة الكلاسيكيّة. لقد درستُ بونابرت أمام كنيسة السان-روك.

قال ذات يوم، ضاحكاً، ربّما لإيناسي:

ـ أنظر إليّ. إنّني أُخيف. بقدرما يفعل إنجليزيّ. أنا افريقيّ، ولقد صارت افريقيا جزيرة، شأنها شأن إنجلترا، منذ أن فصلَنا ابن جلدتك لوسّبْس Lesseps، الذي يشكّل اسمه قافية مع forceps (ملقط الجنين)، عن شقيقتنا السياميّة آسيا. بفضل هذا الماكر، صارت أفريقيا تفلت منكم وتعوم. انظر إليّ، ألا تراني مُقلعاً، رافعاً الأشرعة، في الخارج، تماماً؟

كان، هو الضابط، يفهم دفعةً واحدةً الجانب الاستعراضيّ في موقفٍ معيّن.

ـ إنّها الحرب، وعليه فنحن نقاتل، وإنّنا لظافرون. هنا يكمن الانسان كلّه.

كان هنا، امامي، بالغ النظافة فجأة، ناصعاً، مجرّداً من ثيابه المضحكة؛ لا لأنّ الأخيرة كانت أنثويّة، بل كانت بالعكس فحوليّة الى حدّ الصبيانيّة، فحوليّة ومع ذلك فهي كمثْل قطعٍ مجلوبة للّعب وتبدو طالعة من حقيبة يدويّة. بغتةً صارَ فيه لارجل غنجٍ ولا امرأة غنجاء، وإنّما صيّاد أو طريدة. ولم تكن حتى عينه بل شكل أنفه وعضلات رقبته هي التي تدلّه على الوجهة التي سيأتي منها الخطر. أدرك الفدائيّون ذلك بسرعة. ولقد كفّ هؤلاء عن التصرّف كصبْية مأخوذين ببراعٍ ومعزى وامتثلوا كمحاربين. سطعَ الذكاء في التحصين الجديد. وحتّى أنا،

الجاهل في وسائل الدفاع، أحسست بسعادة ربّما كان باعثها الانشراح لرؤية نقاط الضعف وهي تُمحى. ممّا يعني أنّني كنتُ لمحتُ الهشاشة، بإبهام، من قبل. وكان التحصين الجديد يتمتّع بالامتياز المتمثّل في إعطاء الأسلحة الرئيسيّة، أي الرشّاشات، عملها الكامل. منذ ذلك اليوم، صرتُ أرى مبارك على نحو آخر. كان الفدائيون جالسين في العشب، الى جانب الرشّاش الأول، وعندما أتذكّر مبارك فانا أراه هناك. دلّ رئيسَ المجموعة على الهدف، حتّى نصف الدائرة الذي يمكن ان يمطر عليه إطلاقاته عندما يكون العدوّ في المواجهة. ثمّ إنقلب على ظهره، دخّن قليلاً وأطبق أجفانه. كان أفريقيّ متمدّداً الى جانبي. ولقد خامرني الانطباع بأنّ لونه، وجزءاً من جسمه العاري، وعضلاته، ومنحنيات وجهه بالرغم من الحزوز القبَليّة، هذا كلّه، الآتي من أفريقيا، كان قد هُيّيء هناك للقتال، والصراع وجهاً لوجه، والمكْر أو الفرار.

مرّ زوج الفلاّحة التي كان الحقل عائداً إليها على بغله، أمامنا.

ـ لم يجد الحصاد ممتازاً. وسيطالب بتعويضات ستدفعها له «فتح». لوكنتُ مُنصِفاً لذهبت لأنصحه بمضاعفة مجموع الأضرار عشر مرّات. يمكن ان تدفع الكويت.

ـ أتفكّر بهذا حقّاً؟

ـ أجَل، وهو أيضاً، ولذا فانا لاأتحرّك.

يبدو لي ممّا لاغنى عنه تقديم وصفٍ جسمانيّ لمبارك «الأجعد» ذي الشعر السبْط. كان في سنّ الخامسة والعشرين أحد أبطال الرياضة في مدرسته السودانيّة لضباط الجيش العامل. الأحلام متعدّدة الألوان في ذاكرتي أحياناً، وأنا أراه بنفسجيّاً يهيمن عليه الأزرق البروسيّ. كانت العضلات بارزة في يديه ورقبته وذراعيه؛ وكان قصّاب في «لاڤيليت» [بباريس] سيعلبّه وهو يقول لك: «يبدو أكثر من وزنه». غير أجعد بالطبع، شارباه فقيران ويحمل سالفَين كملك المغرب. مَرِن ومعضّل، ومن كتلة عظامه ولحمه تنبثق أفكار كان صفاؤها المتناغِم يُهدهدني.

ـ إنّ بلاداً هي، مع كلّ شيء، تلاع من الأرض ينبغي تنظيفها من العشب؛ وأنْ ينظّف المرء من العشب وطنه أو جُنينته أو ساحته أو جُثْمة سكّة الحديد الضيّقة لهو كمثْل القيام بعمل مرمّم أو ناظر للطرق بأجرٍ سيء. ولايخمّن الفلسطينيّون ماينتظرهم وأيّ عمل ينبغي عليهم القيام به لإزالة العكرش الذي بذرتّه إسرائيل. والفدائيون سادة العالم لأنّهم يمارسون لعبة قاتلة.

سمعتُ بضعة أصواتٍ حادّة: في ضحكه الواطيء يعشّش طائرُ «طنّان».

ـ هل يشعر الفدائيّون بالانحصار؟

ـ بل هم سعداء. قلتَ لي هذا. أم هل كنتَ مجنوناً؟ هم سعداء لأنّهم أساتذة في التخريب. فلئن كان التمرّد يقتل الآخرين، فهو يمكّن المتمرّدين من العيش. يحيون بامتلاء ماداموا يحطّمون كلّ شيء. يحلّقون. أوّلاً بالحماسة التي تخدّرهم؛ وبالبطولة والوطنيّة التي تُسكِر؛ ولأنّ التألّق يحدث أغلب الأحايين في طائرات محلّقة. أوَتحسب أنّني أكلّمكَ كزنجيّ جاهلٍ؟ لكن ياللقرف عندما يكون عليهم ذات يومٍ أن يحرثوا كما يُقال الأرض المستعادة! ـ الآن، هم يعيشون حلماً، الحلم الفلسطينيّ، لكن حتّام؟ ربّما حتى اليوم الذي... الذي... ماالذي ينبغي أن أقول ياجان حتى تصبح جملتي أصحّ، اليوم الذي...، أم اليوم حيث...؟

ـ واصلْ. تشجّعْ.

سمعتُ أصواتَ طائر «الطنّان» مرّة أخرى.

ـ إنّهم يعيشون الحلم الفلسطينيّ حتى اليوم الذي يشير فيه الاتحاد السوفياتيّ الى جبلٍ في المعمورة ويخلع عليه النجوميّة. سيظلّ التمرّد فلسطينياً دوماً لكنّه سَيُدعى تمرّد الهنود الحُمر. وإنّ تشكيل حركة متمرّدة، حركة تمرّد شامل في مقاطعة جدّ صغيرة، لهو أفضل من زراعة جُنينة.

ـ لمَ؟

ـ أوّلاً لأنّ حركة متمرّدة تظلّ أزليّة وينبغي أن نعْقد الأمل على العَود الأزليّ. والانخراط في الحركة الفلسطينية هو الانتماء الى الشيطان غير الفاني الذي شنّ منذ الأزل وسيشنّ أبداً الحرب على اللّه. ولئن كانت الحركة الفلسطينيّة مرتبطة بالزمن، مادامت حركة، فهي ينبغي ألاّ ترسم لنفسها كهدفٍ استعادةَ مجال ترابيّ مضحك.

ـ ربّما صحّ هذا على فدائيين إذا كانوا يغامرون من أجل أنفسهم، لكن ماذا عن فلسطينيّي المخيّمات الذين مابرحوا يتذكّرون قرى فلسطين؟

ـ جنون الآيديولوجيّين، وطموح مَن يُدعون بالمسؤولين.

ـ أنتَ جئتَ مع الفلسطينيين. تشاجرتَ وإيّاي في جرش. كنتَ تعذر لي دعمَ سياسة پومپيدو، واليوم تلعب دور الفنّان.

يبتسم برقّة:

ـ وإذن، فانتَ تعترف!

ـ بمَ؟

ـ بأنّني (يتمّهل، ويتلفظ «بأنّني» ثانيةً) زنجيّ عاشق للرخيص. لاحظ أيضاً، مادمتَ لستَ كامل الحماقة كبقيّة البيض، انّ ماينكّد العالَم، العربيّ خصوصاً، هو أنّ حلم الفلسطينيين بمثل قوّة وجودهم. جَعلهم التمرّد أكثر مشقّة على الاحتمال بالنسبة الى الملوك والأمراء من تشبّع العالم بطبقة من الغاز الكربونيّ. إنّ هذا الغاز الكربونيّ الذي يتنفّسه الطامحون [الى العروش] والملوك والأمراء وبيض أوربا، هو بالنسبة الى الفلسطينيين أوكسجين. هم قائمون. لو كانوا بقوا حوراً في شرانقهم لاحتملهم الآخرون. ولكنّهم نَقَبوا الشرنقة وهاهم يطيرون. ويبيضون قنابل.

كان مبارك يهْزل. راح يجذب نَفَساً فيما يقطف عند السياج بندقاً حليبيّاً نوعاًما.

ـ لاأحبّ العرب.

ـ وتتكلّم لغتهم جيّداً.

ـ لما كنت زنجيّاً فقد أجبروني، ولكنّني إحيائيّ. والمعلّم الوحيد الذي أعترف به هو يهوديّ: سبينوزا. والشيء الأوّل الذي أعيبه على العرب هو السّكْر: بالنبيذ، بالتبغ («الكيف»)، بالرقص، باللّه، وبالغرام، ولكنّهم يستيقظون من هذا كلّه ويتلاشى السكْر. وإذا بهم دائخون. الفلسطينيّون لم يستيقظوا بعد. سكْرتهم كاملة. هم شعراء.

ثمّ، منتقلاً، كما حسبتُ، من موضوع الى آخر بلا تمهيد:

ـ عندما نُقدم على اختيار سياسيّ، فهو ينبغي أن يكون جليّاً؛ أو على اختيار أو بالأحرى دوار ثوريّ فينبغي أن يكون ذلك في شيء من العتمة دوماً. لاتحاولْ، خصوصاً، أنْ تفهم؛ الزنج لايفكّرون، بل يرقصون.

ـ أنتَ كثير التفكير...

ـ ماالذي أمثّل في نظرك؟ لقد تزيّنتُ بالرذائل. فإذا كنتَ مطالباً، تحت التعذيب، بالاعتراف بمَن تكون، ولايعود لديك من حيَلٍ أخرى، فَحريّ بكَ أن تتزيّن بالرذائل حتى يخطيء الجلاّد، فإذْ تعترف بها فانت لاتعترف في الواقع بشيء، بل تقول مالاتكون. وإنّ

موهبتك في الملاحظة (قال هذا فيما يصبح صوته أكثر فأكثر تناغماً، لاعسليّاً أو سكّريّاً، بل بالعكس صافياً ومُداعِباً، وعليه فقد انتظرت منه البذاءة، بِحَزم)، أقول موهبتك في الملاحظة ليست بهذا الائتلاق مادمتَ لم تمنحني سوى لقب ينطبق على أكثر من بليون رجل وامرأة في العالم: «مبارك الأجعد»، في حين قد يكون شعريّ دهيناً ولكنّه سبْط.

ـ سيهيمن الجُعد على العالَم.

ـ أوّلاً، ليس هذا بالمؤكّد. ثمّ ياللقدَر! الهيمنة على العالَم لأنّ لدينا شعر لحية ورأس في شكل «زنْبَركات» ساعة. إنّ تلوينكم الشاحب إذ يلوّننا ليجرّدنا من بعض فتنتنا.

ـ إسمعْ، لقد قمت بالرحلة من برازيليا الى كارولينا، عند تلاقي التوكانتان والأمازون، من الحادية عشرة صباحاً حتى الثانية ليلاً، في طائرة ذات عشرين مقعداً أو خمسة وعشرين. كنّا نحلّق فوق جبالٍ وسقطت الطائرة في مطبّاتٍ هوائيّة شاقوليّاً. لم يكن في الطائرة سوى بيض، مزارعين خصوصاً؛ تاجر لصغار النمِرة، نَمِرة بحجم القطط وفهود ضئيلة لها من العمر بضعة شهور، ويقيناً بعض الشرطة في أزياء مدنيّة، وطبيب.

لمّا كنتُ عاجزاً عن استعادة الحدث في ما يُدعى باللغة المحكيّة، فمن الأفضل أن أدوّن حكايته. وعليه: كانت الشمس تلفح الزنك بقوّة، وكنّا نسقط في مطبّ هوائيّ، من ارتفاع ألف مترٍ أو ألفين أو ثلاثة وعشرين فحسب، لاأدري. الخوف، لاخوف الدماغ التخيّليّ، بل الخوف الأخرس لكلّ عضو: الكبد، الكليتين، القولون، القلب، الرئتين، الدم، الغدّة النخاميّة، المعدة، كلّ هذه الكائنات الصامتة معلّقة فوق الأرضيّة، تنتظر الوقفة القادمة لتعاود العيش، والخوف لايغادر جسدي. قال لي المزارعون، الذين كان كلّ واحد منهم يملك مالايقلّ عن خمسة آلاف هكتارٍ بضع كلمات، من دون ابتسامٍ، لفرط ما كانوا مصرّين على الشبه باجدادهم، برتغاليّي أوربا الذين ظلّوا شاحبي البشرة، مستفزّين بذلك المدارَين والاستواء. كان لكلّ واحدٍ شاربان نحيفان، وماقالوه لي، بوجهٍ جامدٍ ومستطيل، كوجه [الكاتب الفرنسيّ] ميشيل ليريس، كان كبير الابتذال.

ـ مَن هو؟

هززتُ كتفيّ وقلتُ:

ـ مَن يعلم؟

ذلك أنّني كنتُ ماأزال أخاطب مبارك.

ـ كنتُ، من دون أدنى اهتمامٍ بشخصي ولابهدف رحلتي، أخشى عليهم [أي على المزارعين] كلّما سقطنا في مطبّ هوائيّ. إفهَمْ جيّداً، كانت هتكاراتهم على الأرض، المشتغلة من قبل عمّالٍ سودٍ، ستُقصيني عنهم؛ لكنْ في السماء، تحت صفيحٍ تلفحه الشمس، كانوا لاأكثر من أكياسٍ أعضاء، متكوّمة في ليل الجسد، وهي المرّة الوحيدة التي بَدا لي فيها البشر إخائيّين. لوكان وقعَ حادث للطائرة، وعلى افتراضِ أنّني كنت سأنجو، لكنت سأصلّي من أجل سلام أرواحهم. هوذا ماقاله لي أكثر المزارعين بياضاً وقسوةً وثراءً:

ـ الأوربيّون... ذلك أنّني أشعر بنفسي أمريكيّاً من أعلى الرأس حتى أخمص القدم، أمريكيّاً من أعلى رأس أمريكا حتى أخمص قدميها: قدميها، قامتها اليعسوبيّة، كتفيها ورأسها (٨١). لسنا ضدّ الزنوجِ البتّة، وأنا، شأني شأن الآخرين، أكرع الشمبانيا الكاليفورنيّة كلّما سجّل «الملك» پيليه هدفاً، وأقيم حفلاً عندما تفوز البرازيل بفضل تسديداته بكأس العالم. أتفهمني يا«سنيور»؟ ليست فرنسيّتي بالرائعة، ولكنّك تفهمني؛ لقد تعلّمتها في الصين.

ـ في فورموزا؟

ـ في الصين الحمراء. يومذاك. إنّني أقدّر پيليه، وأنت تفهمني ولاشكّ؛ الرفاق الثلاثة في الخلف لايفهمون. هم ألمان، وربّما كانوا يهوداً؛ لكن علينا الاحتراس من الزنوج. لقد غَزونا.

ـ السود غزوا البِيض؟

ـ نعم يا«سينيور». بدأ الغزو منذ زمن طويل. إذهب الى كاروليـنا الشماليّة، لقد بقي السود على ضفاف النهر، والبيض على الكثيب. لكن إذا ماذهبتَ الى «باهيّا» [في البرازيل]، فستجد أفريقيا.

كان هبوط الطائرة مباغتاً، كما هو معتاد في البرازيل. ولم تتوقّف الطائرة الا برهة من الوقت لإنزال الألمان الثلاثة وكيس البريد. عاوَدنا الرحلة

واستأنف البرازيليّ:

ـ سأقول لك، إنّ الآخرين يتكلّمون بإفراطٍ عن ثرواتنا الطبيعيّة: وحوش الغاب المقتنصَة لحدائق الحيوان، والأخشاب الثمينة المنشورة وقوفاً، ومطّاطنا، وصخرة «ريو»، وساحل

كـوباكـابانا، وأفـاعـينا؛ الحقّ، إنّ الأمـريكان القـلائل الذين يفـيـدون منهـا ويعـيـشـون، إنّما يعتاشون. ولسوف يخنقنا السود والخلاسّيون.

وصلنا، محوّمين، فوقَ مربّع مزروع بالكرنب؛ وبقدرما كانت الطائرة تهبط حول تلك الجُنينة حلزونيّاً، كنت أرى الى الكرنب وهو يكبر وسيقانه وهي تتعانق وتشكّل غابة من النخيل المدعوّ بالملكيّ.

قـيل لي إنّ حـقـول هذه المنطقـة من البـرازيل كـانت مـزروعـة لحصْدات عـديدة من «الماريجوانا». لمّا كنت منتبهاً للنخيل الملكيّ وطيور البغاث وحدها فأنا لم الاحظ شيئاً. وعندما كنت تلك الطيور السوداء الضخمة تحطّ على ورقة موز، فبمثل هذه الخفة بحيث لاترتجف الورقة قطّ؛ وعندما تستأنف طيرانها، فارشةً أجنحتها بكاملها، فهي تبذل مجهوداً هو بمثل هذه الضخامة بحيث تنحني الشجرة بكاملها. وأكاد أحسب أنّ القاذفة «ب ٥٢» لاتزعج بإقلاعها البيئة أكثر. ولكوني مجبراً على الرجوع الى برازيليا، فكّر الأصحاب باقتيادي إلى ضفاف التوكانتنس، لنحيّي صديقاً لهم، هنديّاً أحمر في سنّ السابعة والعشرين، جدّ وسيم، بعينَين للواحدة منهما شكل لوزة ووجنتين عاليتَين وشعر سبط. حيّانا ببالغ اللطف وقدّم لنا عائلته: امرأته، وكانت زنجيّة، وأربع أبناء ذكور جُعدٍ جميعاً. لاأقدر أن أقول كآبته إلاّ باستعادة كلماته الشبيهة بشهادة وفاة:

ـ أنظروا الى لونهم وإلى شعرهم. إنّني أعيش بين غرباء، عائلتي كلّها هنا. ولتغذيتها أذهب الى صيد السمك. عندما ولدتُ كانت قبيلتي تضمّ حوالى خمسمائة نسمة. واليوم، خمسين. وأنا لاأشعر بالشيخوخة، بل أراني أموت في الحياة، لاأموت من الشيخوخة، مع تجاعيد وشعر أبيض، وإنّما بإشغالي مكاناً أقلّ فأقلّ كلّ يوم بين الأسْرة التي أسّستُ، وبالتضاؤل، بالامّحاء، لأنّ الهنود الحُمر حولي يخلّفون زنجاً. إنّني، ومازلت واقفاً، لأسهرُ على «احتضار قبيلتي».

إستيقظ رفّ طيور «الطنّان» في ضحك مباركَ، الأجشّ.

ـ هل تقصد أنّ أمّي كانت تغتذي من لحم هنود حمر؟ كان شعر رأسي سيكون كسدّادات القناني، وشارباي رقيقين. أوه! ماأفضلَ ما تعرفني! إنّ طيور الطنّان التي في ضحكي لاتغنّي. ولوكانت لك أذن جيّدة، لسمعتَها تتأوّه. وعندما حدّثتَني عن رئيس العرفاء الفلسطينيّ، الأسود، الذي طلبَ عشاءاً لك وحدك، ثمّ سمح للفدائيين بقضم العظام ولحس فضلة المرقة في ماعونك، أفتحسب انّني لم أميّز الخطر الاكبر الذي يتهدّدنا؟ إذا كنّا مانزال نحتفظ بشيء من الاعتبار لتاجر الرقّ، فإنّ رئيس العرفاء ذاك، من دون أن يشاء ذلك، قد

باعكَ جزافاً، انت المدّاح المُحسَنة تغذيته، لا من البقايا وإنّما من المساواة.

ـ أوجزْ.

ـ إذا كنّا نقوم بماينبغي القيام به ليدوم الرقّ، فلأنّنا نعرف بصورة تزيد سريّةً أو تقل، بل هي بالاحرى سرّية، انّه لا الحقبة ولا المكان عادا يلائمان القينيّة أو الوقاحة الاجراميّة. الزنج! إنّك لاتعرف الى ايّ درجة يُبجلّون النوتة الموسيقيّة التي تتمتّع فيها البيضاء المشدّدة بقيمة مطلقة (٨٢).

ـ إنّك لُمبتذل.

ـ وبذيء. اعرفُني. أراني وأسمعُني. هل أريتُكَ وصيّتي؟

ـ أبداً. لاأحد يخطّ وصيّة في مثل سنّك.

ـ أتريد أن تراها؟

ووضع يده في جيبه.

ـ كلاّ.

ـ الق نظرة.

وأخرجَ من بطانة بنطاله الكاكيّ شيئاً بحجم ظفْر. إستبقاه لهنيهة في راحة يده الورديّة ثم فتَحه.

ـ أتقدر أن تقرأ العربيّة؟

ـ برداءة. أرى أنّها مؤرّخة وموقّعة.

ـ أُترجم: الكفن يكفي. لاداعي لألواح التابوت الأربعة. إذامامتُّ، فلأتعفّنْ بسرعة.

وطوى وصيّته الصغيرة من جديد.

ـ أين تخبئها؟

ـ الى جانب خصيتي اليسرى: وصيّة ـ خصْية. إسمعْ، هل أحببتَ البرتغاليّين حقّاً في الطائرة البرازيليّة؟

ـ للمفردة «يحبّ» في الفرنسيّة وقع قويّ. كانت الطائرة في المطبّ الهوائيّ ذاك هي كوننا الوحيد. أنتم، في الأسفل، كنتم بالنسبة إلينا ناجين أو موتى. أقلّ وجوداً بكثيرٍ من مروحة الطائرة. فكان علينا الاكتفاء بكوننا. تلاشى كلّ ماكان في مقدوره أن يُبعدني عن ملاّكي الهكتارات المشتغلة من قبل زنوجهم: صاروا في داخل الطائرة الفولاذيّ ذاك بمثْل البساطة التي انتهيتُ إليها أنا نفسي.

ـ وفكرتك في الصلاة من أجلهم؟

ـ الخدمة الوحيدة الممكن إسداؤها لهم. وكنتَ ستفكّر بالشيء نفسه.

لم أسمع بمَ أجاب. كانت الكتلة الضخمة، البنفسجيّة والمعضّلة، ماتزال مرئيّة ولكن متعذّرة على السماع. وهي تخاطبني الآن بصوت النّمال المتنائي.

االالتفهموا أنّني أريد أن أعيدَ قول ماكانه رجل في سنّ الخامسة والعشرين، ميت منذ زمن بعيد: إثني عشر عاماً كما أعتقد. قد يقول القرّاء أنّني أستخدم لغةً خرقاء، ربّما كانت عتيقة، صدئة ورديئة التَمَفْصُل؛ لكنّ كلّ ذكرى صحيحة. وإنّ نسمة من الغضارة لَتنفخ في الهنيهة الماضية، الماضية نهائيّاً، حياةً جديدةً هاربة. وكلّ ذكرى تقوم، ربّما بأقلّ ممّا تفعل قطرة من العطر، بإعادة الهنيهة الراحلة الى الحياة لاوفقاً للغضارة الحيّة لتلك الفترة، وإنّما على نحوٍ آخر، أقصد أنّها تحيا حياة أخرى. لكنّ كتاب ذكرياتٍ إنّما يُعادل روايةً في انعدام حقيقيّته. وأنا لن أردّ الحياة إلى مبارك. ولن يُستعاد ماقاله لي في ذلك اليوم وفي أيّامٍ أخرى، أبداً. ومن البديهيّ أنّني كتبتُ وصفَ كارولينا البرازيليّة، لكن كيف نردّ على ميتٍ إن لم يكن بالبلاغة أو الصمت؟

ربّما صحّ هذا على جميع الكلمات، لكن بالتأكيد على كلمات التضحية وخصوصاً التضحية بالنفس، الايثار، هبة الذات. وإنّ كتابتها تكريماً لِمَنْ تجرّأ على عيشها حتى لَيموت منها، ليظلّ فعلاً بلالياقة. والأنصاب لقتلى الحروب ملأى بهذه القرابين التي هي بلا ألم.

يُقال إنّ المظليّين يرون الى الكرة الأرضية وهي تقبل إليهم بسرعة تتزايد بقدر التسارع الناجم عن سقوطهم، وأنا، فيما أتهيأ لكتابة هذه المفردات التي تكلّمتُ عنها، عليّ أن أنتبه، فلا أخفي لاسذاجة مفردة «الصلاة» ولا رياءها، فهي أسوأ أنواع التكريم. وإنّ كتابة مفردة «التضحية» لشيء بالغ الاختلاف، عن التضحية بها أوّلاً، وأكثر من ذلك عن التضحية بالذات أي رؤية العالم وهو يمّحي بسرعة الكرة الأرضية الراكضة الى المظليّ الذي ستمحوه هيَ. ومن ضحّى، وهو حيّ، بحياته الوحيدة وجبَ أن ينال مايشبه شاهدة من الصمت والغياب في آنٍ

واحدٍ، تخفيه بأن تدمغَ باللاّوجود كلّ من نطق باسمه أو ذكرَ الفعل البطوليّ باعث الصمت المبرَم.

يعاودني هذا السؤال، وهو لمبارك:

ـ ياجان، كان مَن يقود جواداً مُسرَجاً يُدعى [في الفرنسيّة] postillon (حـوذيّاً)، فماعلاقته بالكلمة نفسها [بصيغة الجمع] postillons التي تدلّ على رشاش اللعاب، أتعرف؟

بعدَ الترتيب الجديد للأسلحة الذي أعدّه مبارك باسبوعين، لم يات العدوّ، أي جيش البدو والشركس، لا من المواجهة ولا من اليمين المستهدَف بالرمي الضامّ، وإنّما من الخلف.

صُرِعَ العديد من الفدائيين، والباقون أسرهم البدو ثمّ أُرسِلوا الى معسكر الزرقاء، في الصحراء، فيما نجا السوريّ المسلم، طويل الشعر وذو اللحية السوداء الشبيهة بسنابل، راكضاً في الليل. إكتشفتُ هذا لدى عودتي من بيروت. .

في تموز / يوليو ١٩٨٤، بعدَ اثني عشر عاماً، عدت الى عجلون. كان حقل الفلاّحة مايزال هنا، ولكن علمتُ أنّ المقيمين فيه جدُد. كان من الصعوبة بمكانٍ أن أفسّر للمزارعين كيف جئتُ الى هنا في ١٩٧١. أتصوّر أنّ المزارعَين السابقَين، الرجل والمرأة، المسنّين وصديقَي الفلسطينيين، هجرا كلّ شيء للهرب مع الفدائيين، أو قُتلا وربّما تعرّضا للتعذيب على أيدي جيرانهم. هل هما مدفونان قربَ حقلهما؟ بعيداً عنه؟ إلاّ إذا كانا، عندما عرفتُهما، مُخبرَين لهما براعة الاسرائيليّ مُدّعي الجنون في بيروت التي عاد إليها فيمابعد في بزّة عقيدٍ في التصاهال.

كان مبارك يحتفل في بيروت، جاهلاً، ربّما، ماساة عجلون.

في الشتاء، في فرنسا، يسحر ظهور الضباب المتجمّد على النوافذ الطفلَ الذي يتطلّع الى السرخس الأبيض، مثلما يسحره اختفاء البخارِ ولهاثه هو نفسه، بباعثٍ من حرارة الحجرة، ببطء إنّما بصورة واثقة؛ ولقد أذهلتْني سرعة الفدائيين المختفين فجاةً، في واضحة النهار، في دغلٍ، وراء أنقاض منهارة، مثلها مثل سخرية السنجاب الجالس على الطحلب، عيناه تتفرّسان عينيّ وتدوران في الأوان ذاته حول المكان كلّه، وهو الذي كان يستفزّني قبلَ ذاكَ من على الغصن الأكثر قلقاً من الشجرة، حيث كان يواصل جلوسه، مرتاحاً. كان كلّ شيء يضحك.

الحيوان، سرعته، ذيله، الشجرة، الحجارة، وكنتُ أنا متواطئاً. ألَعبَ عليَّ الفدائيّون؟ الآن فحسب أتمنّى لوكنتُ شجرة لأرى جيّداً ماكانوه وإيّاي. مَن كنتُ ياترى في محفلهم؟

ماإن يعود البُعد الرابع للمشهد حتى تعود الشخوص أشخاصاً؛ وإذ يكون ممثّل أمامي فأنا لاأرى سوى ظهره. وعلى الشاشة، تحمل الممثّلة حقيبة، فما تحتوي؟ وماتحتَ المنديل أو وراءه؟ كلّ استعراض تظلّ مُقتَطعة منه جميع الاستعراضات الأخرى. ولقد كان الفدائيّون والمسؤولون والعمليّات والثورة الفلسطينية، هذا كلّه كان استعراضاً، أي أنّني رأيت الفدائيين عندما رأيتُهم، وبمجرّد أن خرجوا ممّا يُدعى بزاوية الرؤية، فهم ماعادوا هنا. ربّما كانت المفردة الأفضل للقبض عليهم هي: تبخّروا. أين راحوا؟ متى يعودون؟ من أين؟ ومايفعلون هناك؟ إنّ كونهم كذلك، أطيافاً تظهر وتختفي، ليهبهم هذه القوّة المُقنعة لوجودٍ هو أقوى من الأشياء التي تمكث صورتها، والتي لاتتبخّر أبداً، أو بالأحرى فإنّ وجود الفدائيين كان الى هذا الحدّ قويّاً بحيث يسمح لنفسه باختفاءات مباشرة، شبه مهذّبة حتى لايُرهقني بحضورٍ ملحاح. كانت ذبذبات أولئك المقاتلين بالغة السرعة والوفرة فلايقدر أن يصمد أمامها نظام عصبيّ عمره ستّون سنة. وعندما يُلفظ تعبير «الثورة الفلسطينيّة» فإنّه مايزال يفرض عليَّ عتامةً جدّ سريعة وسميكة من الصور المضيئة والملوّنة جداً تتنقّل وتطرد الواحدة الأخرى على نحوٍ أكاد أنعته بالشرّير. فمثلاً جاء فرج إلى العالَم في سنّ الثالثة والعشرين، جالساً على العشب، يسألني، كما ذكرتُ، إن كنتُ ماركسيّاً، ولقد حملتُ وجوده طوال أمسية، وعلى هذا النحو من الوضوح، وبهذه القوّة، بحيث أنّ أحد رفاقه، أبا ناصر، همسَ مشيراً إليّ، وقد أغاضه هذا السريان شبه الدمويّ بيني وبين فرج:

ـ رأيت بسرعة أنّ هذين الاثنين سيتفاهمان!

لم يكن الوفاق الذي لم نتفوّه به أنا وفرج، لا أحدنا للآخر، ولا للآخرين، ولا كلّ منّا لنفسه، أقول لم يكنّ سرّاً إلاّ بالنسبة إلينا.

كان ساطعاً في نظر الجميع، وخصوصاً فهو كان يغيظ أبا ناصر الذي أقصاه هذا الوفاق. كنت، في ذلك المساء، إذ أخاطب الجميع، لاأخاطب إلاّ فرج، الذي كان مستأنساً حيثما حسبتُه متّفقاً وإيّاي، وحسبتُ أنّه ماكان يتكلّم إلاّ لي، في حين كان مسروراً بمعاينة غيظ رفاقه. الحال، لقد اختفى فرج لأنّني غادرت القاعدة. كان ذلك هو اختفاء فرج الأوّل، والشخص الذي يظهر بالقدر الأكبر من الوضوح مكانَه هو أبو ناصر، مُحاجِجه.

يتملكّني اليومَ الانطباع بأنّني العلبة السوداء التي تُري شُفافاتٍ [صوَراً على زجاجٍ أو فيلمٍ] غير مترجمة في حاشيتها. لن أكذب إذا قلتُ إنّ إقامتي بين هؤلاء المقاتلين كانت مؤلّفة

من اختفاءات مفاجئة أكثر من اللزوم، لكن أريد أن أضيف لهذه الاختفاءات، مثلما للتجليّات، نعتاً واحداً: مُحتدمة.

بالنسبة إليكم، وإليّ، لم تكن اسرائيل، التي لم أجتَزها أبداً، سوى نوع من ميدان للرمي، مع مصارف هنا وهناك، وحاسوبات، وفنادق كبيرة ياكلون فيها «الكاشير» [اللحم المذبوح على الطريقة اليهوديّة]، وفخاخ في كلّ مكان، وباصات حافلة بصغار محصودين بالرشّاشات، وحركة للدبّابات يشرف عليها فلاسفة شبّان حُول العيون، ملْط الوجوه، بقزحيّات عيون كأزهار أذن الفار ونظّارات مزدوجة العدسة، وقمصان بأزهار خبّازية اللون وأكمام قصيرة عائمة على أذرع نحيفة ومُشعِرة، فعلى هذا النحو بَدا لي مشاة التصاهال في مدخل بيروت، تماماً عند مفرق الطريق المؤديّة الى قصر بعبدا، في الخامس عشر من سبتمبر/أيلول ١٩٨٢.

إنّ الملصقات والاعلانات الدعائية في الصحف التي تحثّ السيّاح على زيارة اسرائيل تطري خصوصاً على مزارع الأشجار في الصحراء. وإنّ «إيرتس اسرائيل» [«أرض اسرائيل» بالعبْريّة]، التي هي بمثل دهاء شكسبير، قد دفعت الغابات الى التقدّم. توقّفت إحداها عند قرية «معلول» قرب الناصرة. ولقد فُجّرت منازل الفلسطينيين، بعدَما أُلغمَتْ، كما كان سائداً في تلك الفترة. وواصلت غابةٌ نموّها هناك. ولو حَكَكْنا بالأظافر قليلاً في أسفلَ الأشجار، لَلاحتْ مداميك البيوت والأقبية عند أديم الأرض. في كلّ احتفال بذكرى مايدعونه بالتحرير، يأتي الاسرائيليّون للنظر الى أشجارهم وهي تنمو، كلّ واحدة تحمل إسم غارسها. كما يأتي سكّان القرية السابقون، الفلسطينيّون، أو ذريّتهم، وهم جميعاً عرب مسلمون، للتنزّه وتناول الطعام في الهواء الطلق. الأوائل [في ترتيب العبارة]، الذين كانوا هم الأخيرون، يضحكون ثملين. والأخيرون، الذين كانوا هم الأوائل، يَروون مَن كانوا. يجعلون، مااستطاعوا الى ذلك سبيلاً، ولبضع ساعات، أقلّ بكثير من الوقت المتاح لموتى «الأوبون» في اليابان، أقول يجعلون القرية المتوفّاة تحيا من جديد. يشخّصون للصغار تفصيلاً أو آخر؛ وفيما يعتقدون أنّهم يتذكّرون، يروحون يُجَمّلون، وبالتالي يبتكرون قرية هي الى هذا الحدّ ضاحكة، مرحة، وبعيدة عن حزنهم بحيث يزدادون جميعاً حزناً، ثمّ، رويداً رويداً، وبقدرما تكتسب هذه القرية الخياليّة حياةً، يتلاشى حزنهم. وإذا بالجميع، كهولاً وشبّاناً، يرقصون، بصورة خرقاء، رقصاتهم القديمة. جلبوا معهم عدّة الرسم المائيّ؛ يرسمون، على قماش مفروش على الأرض والأشجار ويلوّنون واقع الأمس، خيالَ اليوم. إنّ هذا اليوم، الذي هو احتفال بميلاد جديد لفسلطينيّي «معلول»، إنّما هو عيد للموتى. طوالَ نهار، تواصل الظهورَ القريةُ التي ليست

سوى نسخة غير قائمة ولكن جدّ حيّة من تلك التي كانت (الراحلة قرية «معلول»)، فلعدم اكتفائها بألاّ تكون سوى صيغة الماضي في فعل الكينونة، مرّت القرية بالنار (٨٣)، ربّما على شاكلة نيويورك التي تزعم أنّها نسخة من مدينة «يورك». فإذا ماأراد الواحد أن يدخل الى منزل، كان عليه أن يلتفّ حول شجرة كان الباب مرسوماً عندها، ليرينا في الطابق الأعلى الفتّية الفسلطينيّين في بناطيل الجينز يتسلّقون أغصانها، أي، بإيجاز، إنّ كلمتين تفرضان نفسهما: الانبعاث، الذي يكتسب معنى ليوم واحد، والحنين، مرض العودة هذا، الذي لايهيىء للنضال من أجل العودة الحقيقيّة، لكن الم تولد على هذه الشاكلة، في البروتاني وجميع المواقع السلتيّة، قرب الينابيع، وفي الأدغال اليابسة، شعوب الجنّ التي طردها الرومان، ومن بعدهم الرهبان المسيحيّون؟ يعود الجنّ كلّ عامٍ من أجل عيدٍ، وتُفزع بعضَ الأحياء أغانيهم وضحكهم والنكات التي يفهمون بعض مفرداتها، بل حتّى عباراتٍ كاملةً، وسطَ ضربٍ من قرية مشكّلة من هنا ومن هناك. هكذا تعرف دولة اسرائيل، القائمة فعلاً، أنّها مبطّنة ببقاءٍ شبحيّ. هذه الحكاية روتْها عليٌّ ليلى شهيد ذات يوم. ولقد وضع شابّ فلسطينيّ فيلماً سينمائيّاً عن هذه القرية وهذا العيد. إسمه ميشيل خليفي.

ان نقارن دفن القادة المسلمين بمباراة لكرة القدم تكون الكرة فيها تابوتاً ربّما كان فارغاً، فهذا لن يكفي لإغاظة الفدائيين الشبّان، وأنّى لي أن أتفادى القول إنّ نضالهم نفسه كان احتفالاً قاتلاً جعلَ متفرّجي الغرب يرتجفون؟

ـ سَيُشعل هؤلاء الحمقى النارَ في المعمورة.

إنّ اللعبة القائمة على التنكرّ في هيئة مُشعلي حرائقَ على مستوى المعمورة لهي لعبة هؤلاء الفتّية الذين حُرّمتْ عليهم جميع الألعاب. وأنْ يحطّم المرء ضاحكاً مدمّرة من التنك طولها عشرة سنتمترات، ويسحقها بضربة من عقبه، ويجعل أنقاضها تتواثب على سطح ماء جنينة للأطفال، فهذا لايعادل في الامتاع إخراجَ قطارٍ سريعٍ من سكّته، أو تفجير طائرة رحلاتٍ فعليّة، والقيام أخيراً بكلّ مايقوم به الصغار حاملو النّظارات المصفّحة بالحديد وضاحكو الوجه مع ذلك، مُقرّين بأنّ من الظريف إطلاق النار من جوف دبّابة «مركابا» [اسرائيليّة] على مبانٍ بسبعة وعشرين طابق ببيروت، والنظر الى هذه المباني وهي تنثني نصفين كمن يختنق في نوبة من الضحك، والانتباه أخيراً الى أنّ الاسمنت والعوارض الحديدية والشرفات والمرمر، هذا كلّه الذي كان يشكّل البناء ويصنع أبّهته كان من أردأ نوعيّة. يصبح المبنى غمامة بيضاء، ملوّنة بالرماديّ قليلاً لدى مقاربة الأسس، وآنئذٍ تتنوّر الوجوه الحولاء.

« ماإن اخترقت فكرة اطلاق النار الدماغ، وفيما كان الصاروخ مايزال قابعاً في أنبوبته، حتى كفّ المبنى عن الرسوخ، هوذا ينحني، يشعر بالمغْص، في حين بقيت بآبئ أعيننا لزمن بالغ الطول شاحبةً أمام تأويل علامة أو نقطة إعرابيّة اكتشفناها بالمنظار في الكتاب المقدّس. »

إنّ النظر الى المقاومة الفلسطينية على هذا النحو كلعبة واحتفال لايعني الاستخفاف بها إطلاقاً. يَحرمون الفلسطينيين من البيوت والأرض وجواز السفر والبلاد والأمّة، وكلّ شيء! لكن الضحك وألق العيون؟

وإذا كانت هذه الملاحظة صائبة وقابلة للصواب: « تُعرب الشبيبة الفدائيّة عن امتلاكها الدعابةَ عندما تفكّك قطَعاً من الغرب »؟

ربّما كانت العرائس، التي يوجّهها الخيط أو تحرّكها أصابع المُرقِّص تحت ملابس حريريّة، هي وحدها القادرة على تحقيق استعراضٍ مغيبٍ فعليّ، جنائزيّ، ومقابريّ أخيراً. وإنّ اسم هذا الاستعراض لهو تحذير: مسرح خَيال الظلّ. فَعبرَ شخوصٍ من الورق المقوّى، أو الخشب، وعبرَ عرائس خرساء من أنسجة تسكنها عشر أصابع متنكّرة في ثيابِ أميرات أو جنّيات (ففي الحالة الأخيرة، تظلّ تومىء عشرة شخوص تتخفّى على عشر أصابع من اللحم والدم لم يعد غطاء راسها ليتمثّل في قمع خيّاطٍ وإنّما في تنكّر آخرَ)، [عبرَ هذه الشخوص] يكون قد استُدعيَ الموت، الموت وخصوصاً الموتى أنفسهم، امبراطوريّة الموتى بكاملها، وسيكون هذا شبْه طبيعيّ، مادام السكوت يُقاوم كلّ شيء، وهذا هوَ مايجعل أنّ كلّ ميتٍ، ماإن يُستَدعى بتسميتنا إيّاه، حتّى يتحوّل. وهذه الشخوص الورقيّة أو التي هي من أصابع مكسوّة، والتي تظلّ وضعيّاتها المكسرّة هي وضعيّات العظام (وهل يمكن التجرؤ هنا على التحدّث عن رقصٍ؟) — على جدران مقبرة « بيزة »، هذه الشخوص التي هي بضآلة العرائس المكتشَفة في النواويس الفرعونيّة هي ولاشكّ على مسافة يتعذّر اختراقها عن ذلك الصوت الذي يروي حكاية أو يعتقد أنّه يُعيرها صوتاً إذ يزعم أنّ كلاًّ من الصوت والحكاية هما للعرائس.

من عدم اكتراثها بالأصوات والحكايات نفهم مايأتي: أنّ هذه الأخيرة ليست لها، أو أنّنا، عندما نموت، فكلّ مايُقال عنّا لايكون فحسب زائفاً بالمعنى الحرفيّ للكلمة بل إنّه ليرنّ بزيفٍ ونَشاز. وبين جميع الأحداث التي ترينا عبث الموت، ربّما كانت العرائس هي أوضح علامة. لن يكون من وفاقٍ أبداً بين الصوت الأصمّ أو الهادر لمرقّص العرائس والايماءات الحادّة

للدمى نفسها، وذلك على الرغم من المؤثّرات الموجّهة لإقناعنا عبرَ نوعٍ من «الحقائقيّة» الفنيّة. وإنّ أصابعي، حتى وهي عارية، بلا زركشة، لتظلّ تتمتّع بمعيشٍ – برَقصٍ – كامل الاستقلال عنّي. ماسيكون ذلك لدى لفظي نفَسي الأخير؟ إنّني أكتب السطور السابقة لاقول إنّني حسبتُ المسافة، وماهذه الأ شاكلة في الكلام، فكيف يمكن بالفعل قياس مسافة إنْ هي الأ انفعال؟، اقول المسافة بين ماكانه أبو عمر وماانقله عنه، هو الغريق.

قال لي في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٢:

ـ ينبغي التمييز أيضاً بين الاقطاعيّين العرب. فهناك الأمراء، ملاّكو آبار النفط، وهم جميعاً أصدقاء أمريكا واغلبهم أصدقاء اسرائيل. إنّ موقفنا لَصعب. فأن تبدو وأنت تضع تحت طائلة السؤال كلاً من الدين والملْكيّة، وتبتكر أخلاقاً جديدة، فهذا ممّا يعود عليك بغضب الشعب بديهيّاً. إنّ الدين الاسلاميّ والملْكيّة، الزراعية أوّلاً والجوفيّة من بعد، قد أعارا اسميهما لنتحرّر: من الانجليز والفرنسيين والاسبان والهولنديين والأمريكان انفسهم. إننّا، وضمير الجمع إنّما يشير الى العرب، فبالرغم من اعتكار مزاجك عندما نتكلّم أمامك عن العروبة والعروبويّة...

ـ لاتعني هاتان المفردتان الشيء عينه. وانا لاأنفي العروبة، التي هي الانتماء الى مجموعة دينية ولغوية. لكن بمَ أجيبك عندما تحدّثني عن العروبويّة؟ [هل ساتحدّث عن] اللاتينَويّة، أو الفرنسَويّة؟ وبالنسبة الى اسرائيل، اليهودويّة؟

ـ سيكون هذا موضوع نقاش آخر بيننا. وضمير الجمع هذا يشملنا نحن الاثنين، انا وأنت؛ لكنّنا، وضمير الجمع هذا يستثنيك، اقول لكنّنا، نحن العرب، مَنَحنا، بدلَ مَن طرَدناهم، السيادةَ أو تركناها لأمراء راحوا يخدمون الامبريالية من دون استشارة الشعب ولا القرآن. ومنذ زمن طويل، وسيول النفط تُحوَّل الى نقودٍ بفئات آلاف الدولارات أو الى سبائك ذهبية – والاثنان يُسمَّيان: سيولة – ، ترقد بأمانٍ في خزائن جوفيّة في الولايات المتّحدة. ولايتمثل تكتيكنا في مهاجمة الأمراء لأنّهم مسلمون، بل لأنّهم ليسوا كذلك. وماكانوا كذلك أبداً. لايشكّل الله بالنسبة إليهم حتّى كلمة. ولا، بالطبع، اسماً. يعرف أمراؤنا الذهب، ولايعرفون سواه.

ـ وإذن، فكيف يجب التصرّف؟

ـ بحذر. لديهم أسلحة وحرس متفانون لانهّم يتقاضون مرتّبات عالية. ولقد وقّعوا

بأسمائهم السيّدة على اتفاقيات مع مستعمرينا السابقين.

لن أتعوّدَ [غيابَه]. إنّ صورته الذهنيّة مابرحت هنا، لامرئيّة لكنْ حاضرة، في كلّ مرّة أستعيد فيها أو أحسب أنّني أستعيد كلمات أبي عمر. أهوَ خَيالٌ ناطق؟ لست بالواثق من أنّني لم أصنع منه دمية أحرّك شفتيها الرخوتين بواسطة مرقّصي عرائسي، كذابيٌّ أيضاً (٨٤). إنّ من الصعب ألاّ يكون المرء مقماقاً [متحدّثاً من بطنه] عندما يدفع الى الكلام غريقاً أو مرمياً بالرصاص. هذا الصباح، رُويَت عليّ الرواية الأخيرة لموته. كانوا تسعةً، آتين عن طريق البحر من بيروت الى طرابلس، في زورق صغيرٍ شاهده زورق عسكريّ سوريّ. فأسرَ السوريّون أبا عمر والمسؤولين الثمانية الآخرين الذين أجهل أسماءهم وسلّموهم الى «الكتائب» التي قامت باغتيالهم. إنّ لاسم «الكتائب» هذا رنيناً غريباً: هي كتائب بيار الجميّل. وقد يشكّل إظهار أبي عمر أمامكم كدميةٍ فكرةً مسرحيّة، هذا هو ماتحوّل اليه الأموات الذين نحكي عنهم، وهذا الذي يحكي إنّما هومُرقّص خَيالات. هذا ماكانته تقريباً آخِر أفكار أبي عمر عن الأمراء: «بمجرّد ان تذكر ثرواتهم فإنّ حياتهم السريّة هي ماتَفتَضّ، وعندما لاتتكلّم عنهم فأنت تُنقص من قدرهم، وإنّهم لعلى صواب إذ يعتقدون بأنّهم لايدينون بوجودهم الاّ لثروتهم. "أنا مسلم، وأنتَ أيضاً، فهل يقدر مسلم أن يسيء الى مسلم آخر؟"، هذه هي الحجّة الأنموذجيّة وفي كامل تناميها، بين أمير وفدائيّ.»

والمسلمون الذين يعيشون في الشقاء متغمّدون في الرأفة وخشية هذه الاله الصارم الذي يحمي الأمراء.

ـ هل رأيتَ، ياجان، ما «يستهلكه» الأمراء من عمّال؟ أكثر من [الصناعيّ الفرنسيّ] داسو. لاوجبة طعام من دون بضعة شيعيّين مَحَمّصين.

في المرّة الأخيرة التي رأيته فيها، أخذني لتناول الغداء في «ڤيلا» من الحجر المقصوب في جبل عمّان.

ـ الرجل الذي يدعونا اسمه زهرو. هو فلسطينيّ. عمدة سابق لرام اللّه (٨٥). وهو يشعر بالفخر عندما يُقال له إنّه لاجيء.

كان أبو عمر قد دُعي لأنّه قريب من عرفات، وخصوصاً لأنّه أستاذ سابق تتلمذَ على كيسنجر. ولمّا كان سويسريّ يشرف على المطبخ، فقد تناولنا أشياء شهيّة كثيرة.

ـ مَن هم المدعوّون الذين يملؤون قاعة استقبالك؟، سألتُه.

ـ مبعوثو الملك حسين. يريد ان أدخل في حكومته الجيدة. لكن أبداً. بل سأفضّل حمل البندقيّة وإسقاط بضعة أردنيّين.

بعد ذلك بثلاثة أشهر، صارَ وزير النقل لدى الملك حسين. وبقي في منصبه هذا ثلاث سنوات. هل صار وزيراً بموافقة منظمة التحرير الفلسطينيّة؟ أكان يخدم كوسيط بين المنظمة والملك حسين، وعبرَ الأخير، بينها وبين أمريكا؟

هؤلاء الأشخاص الذين أحاول أن أجعلهم يحيون أو يعاودون الحياة بأن أرهف أذني لأسمع مايقولون لي، يظلّون موتى. ليس الايهام الأدبيّ بالشيء المجانيّ، أو ليس كذلك بالكامل، وحتّى إذا كان القاريء يعرف هذه الأشياء أفضل منّي، فإنّ طموح كتاب إنّما يتمثّل أيضاً في الابانة، تحت تنكّر الكلمات، والبواعث، والثياب، بمافيها ثياب الحِداد، عن الهيكل العظميّ وذرور الهيكل الذي يتهيأ. والمؤلّف، شأنه شأن مَن يتحدّث هو عنه، ميت هو أيضاً.

ربّما كان تحقّق نبوءة، أو بالأحرى التصريح النبوئيّ المفاجيء، وتحقّقه المفاجيء، واللاحق بالطبع، هما المعادل البارز لماكانَ يشكّل، في التجويف، استعراضَ عرائس. وممّا لامفرّ منه أن يظلّ في الحياة، خلافاً لرؤية الوفاة بالذات، إيهامُ إيماءِ أخرس سيّما وأنّ صوت المرقّص يزعم الشبَه، وهذا ممّا يمنعني من الكلام عن حمزة أو دفعه الى الكلام، مادام مسؤولون عديدون يقولون إنّه ميت في الصحراء، أخرسُ في عناده، عناد الميت. ماكان متاحاً لي فحسب، بل موعَزاً إليّ ان أتكلّم عنه بالماضي المستمرّ، وإنّ صيغة الاحتمال لهيَ لِثامٌ من الحرير يليق به. لون الحِداد الرسميّ في الاسلام أبيض. لكنْ أنْ أُعيره صوتي؟

أيّ شكل من شكل التعذيب مورسَ على ساقيه حتى أحالهما سوداوين؟ كانت عناصر مجهولة كثيرة تجبرني على أن أوقفَ، مااستطعت الى ذلك سبيلاً، كلّ اختلاق. كانوا حدّثوني عن فظاعة شرطة المملكة والبدو، وهذا لايدهشني قطّ، لأنّني – وبالغضب الفلسطينيين إذ أقول ذلك! – كنت أعرف رقّة المواطنين الأردنيّين الكبيرة، وعليه فلابدّ أن تكون شرطتها «كحولاً» من الفظاظة بالغ الحذْق. وما هنا من مفارقة قطّ.

كان مجتمع آخر قد تقطّر من المجتمع الأوّل من تلقاء ذاته بعدما استولى على الحُكم: الشرطة. إلاّ إذا كان أكثر يُسراً وحقيقيّة ان تتعايش الرقّة والقسوة لدى رجلٍ بذاته؛ وإلاّ إذا كانت القسوة تتعب من ذاتها في هذا الشكل فتهدأ الى حدّ الرقّة، بل الطيبة، لتكشّر عن أنيابها بعدَ قليل.

لاأعرف شيئاً عن التعذيبات التي تكبّدها حمزة خلا ساقيه المسودّتين. لم يكتب لي

داود سوى ماياتي: «لم يعترفْ أبداً. كان البدو يريدون دفعه الى القول إنّه خاضَ معارك ضدّهم. ولقد أنكر.»

لاأعرف عن دفنه، ولا عن قبره، ولا عن الصلوات من اجله، المنطوق بها او الصامتة، شيئاً. لايمكن القبول بتحويل حمزة الى دمية خرساء، ومن غير المقبول نسيانه حيّاً او ميتاً. أأخفيه في اعماقي؟ بايّ شكل؟

عندما تحدّثت عن عليّ، وجعلته ينطق بكلمات فرنسيّة ربّما كان يجهلها، او ربّما كنت أنا نفسي عاجزاً عن استعادة نبره، تركتُه يتحوّل الى دمية؛ فبأيّة مسافة كنت اريد ان افصل عليّاً عن حمزة، ولماذا؟

إنّ تحوّلات واقعة الى كلمات، علامات، سلسلة من الكلمات، سلاسل من الكلمات والعلامات، هي وقائع اخرى لاتعيد أبداً الواقعة الأولى التي انطلاقاً منها أدوّن. هذه الحقيقة الأولى عليّ ان أقولها لاحذّرني أنا نفسي. وإذا لم يكن الأمر ليتعلّق الاّ بالاخلاق العامّة، فسواء لديّ الكذب وعدَمه، ومع ذلك فعليّ ان اقول إنّ عينيّ، ونظرتي، هي التي رأتْ ماحسبتُ أنّني اصف، واذُنيّ هما اللتان سَمعتا. وإنّ الشكل الذي منحتُ للحكاية منذ البداية لم يتمثّل هدفه أبداً في إعلام القارىء حقّاً بماكانته الثورة الفلسطينيّة. ومن دون ان اكون أردتُ عن قصد خيانة ماكانته الوقائع، فإنّ بناء الحكاية نفسه، تنظيمها، ترتيبها، ليوظّب السرد بهذه الشاكلة بحيث قد يبدو أنّني ربّما كنتُ الشاهدَ المميّز – أم المُرتِّب؟ ربّما كان ماأنقله هو ايضاً ماعشتُه، ومع ذلك فهو مختلف لانّ تواصليّةً قد اذابت شتات وجودي في تواصليّة الحياة الفلسطينيّة، لكن لامن دون ان تترك لي لمحات، آثاراً، وبعضَ الانقطاعات مع حياتي السابقة، وكانت احداث حياتي الجديدة إلى هذا الحدّ قويّة بحيث كان عليّ في بعض اللحظات ان استيقظ منها: كنت أعيش حلماً أصبحُ اليومَ سيّدَه، بإعادة بناء الصوَر التي تقرؤون، وتجميعها. وذلك إلى هذه الدرجة بحيث أتساءل احياناً إذا لم أكن عشت هذه الحياة بصورة تجعلني أرتّب فصولها بحسب الفوضى الظاهرة لصوَر حلم.

لكنْ كلّ هذه الكلمات لأقول: هذه هي ثورتي الفلسطينيّة وقد أعيدت كتابتها بالترتيب الذي اخترتُ. والى جانب هذه العائدة إليّ، هناك الثورة الأخرى، وربّما الأخريات.

قد تعادل الرغبة في التفكير بالثورة الرغبةَ لدى الاستيقاظ في رؤية المنطق الذي ينتظم تفكّكَ صوَر الحلم. إنّ من العبث ان نبتكر، والوقت نشافٌ، الحركاتِ الضرورية لعبور النهر على أفضل نحوٍ عندما سيجرف المدُّ الجسرَ. وإذْ أفكرّ بالثورة في نصف إغفاءةٍ، فهي تبدو لي،

على هذه الشاكلة، كمثْلِ ذيلِ نمرٍ في قفصٍ يروح يخطّ [في الفضاء] إمضاءاً مبالَغاً به يَثني مُنحَناه المُنهكَ على خاصرة الحيوان الذي مايزال في القفص.

ـ وأخيراً، فهل يفكّر الفلسطينيّون بأن يسترجعوا من اليهود الأرضَ التي تحمل اليوم اسم اسرائيل أم تراهم مازالوا يقاتلون ليصونوا مايجعلهم مختلفين، فريدين، بين بقيّة الشعوب العربيّة.

ـ فرضيّتك الثانيةِ هي التي تبدو لي صائبة. لن يرى هذا الجيل الاستقرار في فلسطين. ولن تنال اسرائيل السلام، لكنّ فلسطين ستظلّ هي الشعار المحفوظ في الأرشيفات العائلية التي يُعاد لها ألقها في الأعراس والوفيات. وإنّ القول: «نحن فلسطينيّون» لأحلى على اللّسان من القول: «نحن أردنيّون».

ـ لمَ؟

ـ كفلسطينيّ، أصولي أسطوريّة. إنّني انحدر من الفلسطينّيين القدماء. وكأردنيّ، أنا المخلوق المحسوب بالمسطرة من قبل الادارة البريطانيّة.

ـ قلتَ لي «هذا» الجيل. والأجيال التالية؟

ـ يؤكّد المؤرخون أنّ نابُليون، الذي قامت الثورة بدونه، قد حقّق مع ذلك أوربا. ولعلّ الشعوب العربيّة تتمنّى رجلاً...

ـ تبعثه العناية الالهيّة؟

ـ رجلاً يوحّد الشعب العربيّ عنوةً أو عن طيبة خاطر.

ـ وهل تؤمن بذلك؟

ـ نعم.

ـ وأنت تنتظر هذا المسيح؟

ـ لاتحدّثني عن مسيح. أنا ملحد، وأنت تعلم بذلك جيّداً. وأبداً لم يكن القذافيّ بمستوى طموحه، المعلن أو السرّيّ.

ـ أتعرفه؟

ـ نعم. رجل شجاع. ولكنّ تربيته، من الطفولة حتى انتزاع السلطة من السنوسيّين، كانت تقليديّة. ولم يتغيّر. وبعد وفاة عبد الناصر، الذي كان يعرف ان يخُفّف من جماحه، حسبَ نفسَه وريثَه. لم يعرف منذ البداية انّ السادات سيكون هو ازدهار برجوازية النيل.

ـ وهل عرفتَ عبد الناصر أيضاً؟

ـ كان أكثر ضراوة بكثير. وريث لا أحد. أقلّ احتداماً من القذافي، فلم تكن لديه عصبيّته شبه الأنثويّة. ولقد اصطدم بحزيران/يونيو ١٩٦٧. حرب ١٩٦٧ التي – وهذا سيجعلك تهزّ كتفيك – أنهاها ديغول. سنستعيد ذات يومٍ حكاية «حالة الحرب» (٨٦).

ـ ماتعني بتربية تقليديّة؟

ـ الاعتقاد بالخير والشرّ؛ الكلمتان بالحرف الكبير. القذافيّ ساذج. ومن هنا إخفاقاته. وياله من ساذج! لقد أراد التحالف مع السادات!

هذا النقاش الذي انقله، خضته مع برجوازيّ كبير، أحد العريقين في المقاومة. كنّا في بيروت في ١٩٨٢. كان قابَل الأسد قبل ذلك باسبوع. أعتقد انّه رآه باعتباره موحِّد الشعوب العربيّة. ممّا يعني أنّه كان منشقّاً عن منظمة التحرير الفلسطينيّة.

ـ لدينا جنّ طيّبون في المخيّمات.

ـ جنّ طيّبون؟ ماالجنّي الطيّب؟ وكيف يصير المرء جنّياً طيّباً؟

ـ هو شخص يقوم بخير كثير. شخص يأتي إلى الديار المقدّسة (هولي–لاند) ويريد فعلَ الخير.

ـ لاافهم شيئاً ممّا تقول.

ـ لأنّك فرنسيّ.

كنت، لدى وصولي الى مطار عمّان في ١٩٨٤، قد استُقبلتُ من قبل مدير «البنك العالميّ» وزوجته، وكانت أمريكيّة، أو بالاحرى أردنيّة. استدركتْ هي مراراً عديدة. مصحِّحةً نفسها.

ـ نحن خارجان من حفل توديع سفيرة الجزائر. هل قرأتَ كتابها؟

ـ كلاّ .

ـ ماأكثر ما تحدّثوا عنه!

ـ كيف تعرفان؟

ـ لقد أرتنا ملفّها الصحفيّ .

ـ وماالعلاقة مع الجنّ الطيّبين؟

ـ هي منهم . لقد أهدت جزءاً من ريع الكتاب لفقراء المملكة . هل تريد التعرّف على الملك؟

ـ كلاّ .

ـ لدينا جنّيّة طيّبة أخرى . قدّيسة ـ الجميع يتحدّثون عنها في أمريكا ويدعونها بالقدّيسة .

ـ ماتعمل لتصبح قدّيسة؟، يهمّني هذا كثيراً .

ـ تساعد سكّان مخيّم «البقعة» . تُشرف كلّ صباحٍ على البنّائين والنجّارين الذين يبنون البيوت .

ـ وهل تُشيّد بيوت في مخيّم «البقعة»؟

ـ نعم . إنّ البنك العالميّ ، الذي يمثّله هنا زوجي ، يُقرض الدولة أموالاً . والدولة تُقرض متزوّجين شبّاناً .

ـ وماالبنك العالميّ؟

ـ منظمّة للأعمال الخيريّة . ندعوها «وورلد بانك» (البنك العالميّ) . ألم يحدّثكَ أحدٌ عنها؟

ـ تُقرض أموالاً؟ وماقدر الفائدة؟

ـ تسعة ونصف بالمائة . تُقرض مايعادل خمسين ألف فرنك فرنسيّ . نادراً أكثر . قابلة للردّ في ثماني عشر سنوات . وبهذا المبلغ ينبغي شراء الأرض وبناء طابق أرضيّ وطابق أعلى على الأقلّ .

ـ وكيف يُردّ مبلغ كهذا؟

ـ يعثر البنك للمستدين على عمل.

ـ ويأخذ من مرّتبه الجزء الذي يعود إليه؟

ـ بديهيّاً. وعلى الأقلّ، فلدى ربّ العائلة عمل مضمون طوال ثماني عشر سنة، ومسكنه.

ـ وإذا أراد مغادرته قبل ذلك؟

ـ يقدر. لكن لن يعود المنزل ملْكه، إلاّ إذاماشتراه نقداً وعداً.

ـ وإذا كان عضواً في نقابة أو حزب سياسيّ؟

ـ ينبغي أن تفهمني جيّداً، إنّ السلطات الأردنيّة العليا، التي أعرفُ جيّداً، لاتطيق مَن يناهضها، خصوصاً إذا ماأعارته مالاً.

ـ لاحظتُ ياسيّدة. والقدّيسة، ماتفعل؟

ـ الخير. ولقد استقبلنا قبل خمسة عشر يوماً كاتباً أمريكيّاً يضع عنها كتاباً.

ـ وإذَنْ، فقد عرفتُ. هنا تكمن قداستها.

ـ لاأفهم شيئاً ممّا تقول.

مؤكّد أنّه من هذا أيضاً، من غوايةِ أنْ يجعل المرء نفسه يُشترى، بل يُستاجَر طيلة ثمانية عشر عاماً، تأتي، ولاريب، الكآبة التي رأيتُ إليها وهي ترتسم على وجوه الفدائيّين السابقين. وبهذه الوسيلة أيضاً، كانت أمريكا تأسر الأردنّ.

ـ يُقرض البنك العالميّ بكذا نسبة بالمائة، ونُقرضك نحن بكذا نسبة بالمائة. بهذا المبلغ تقدر أن تشتري قطعة أرض بين مائة متر مربّع ومائة وخمسين، على مسافة عشرين كيلومتراً من عمّان. ينبغي ألاّ يتجاوز المنزل طابقين. لقد وضع فريق من المهندسين المعماريّين تصميمات تقدر أن تختار منها هذا الذي تفضّل. شيء آخر: تردّ المبلغ في ثماني عشر سنوات، لكن نشغّلك نحن لمدّة ثماني عشر سنوات.

ـ وهل سأكون ملاّكاً؟

ـ بالطبع. بعد ثماني عشرة سنة. عندما تكون رددتَ المبلغ.

ـ وهل يمكنني الانخراط...

ـ في منظمة التحرير الفلسطينيّة؟ كلاّ. لن تقبل اسرائيل بذلك. ولاالبنك العالميّ (كان هذا في ١٩٨٤).

منذ ١٩٧٠، وخصوصاً بعد أيلول/سبتمبر من ذلك العام، انهالَ على فلسطين، كمالو ليطمرَها، أدب عربيّ عجيب. صيرَ أوّلاً الى طبع مجلاّت يسيرة التداول بنسخٍ محدودة. بعضها كان مطبوعاً على ورق ثمين، أبيض أو صَدَفيّ، وتحت غنائيّة الكلمات والصور يتلاشى كلّ من فلسطين والشعب والفدائيّين، فلاتراهم. إنّ ضرباً من العتمة الباهتة، ليلاً من الثلج مثلاً، راح يحجب كلّ شيء، وماكان الثلج ليكفّ عن الانهمار؛ إذذاك صار كلّ شيء، كلّ شيء حقّاً، من سياج الحقل، والفدائيّ السابح في العرَق أو الدم، حتّى المرأة التي تلد، وغاب الصنوبر، والمخيّمات، والمأكولات المعلّبة، صار كلّ شيء مغطّى بطبقة من الكلمات، هي نفسها دائماً، كلمات تخفي في خاتمة المطاف كلّ ماكان يتعلّق بفلسطين: الخطيبة، المهرة الوحشيّة، الأرمل، الحامل، العذراء التي لم تُمسّ، مليكة العالَم العربيّ، حرف الألف، حرف الباء الذي يفتتح سورة الفاتحة [البَسمَلة]، وجمهرة من كلمات أخرى، وصوَر أخرى، وقصائد أخرى تكون فلسطين فيها أنثى دائماً. كانت المبالغة في الصوَر تخدم النضال لاريب، لكنّي أتساءل إذا لم تكن النتيجة هي دمغ هذا النضال بعدم الوجود، وذلك الى هذه الدرجة بحيث صار يشكّل تعلّة لقصيدة. ثمّ إنّ هذا الشيء الغريب قد حدث: فهذه القصائد المكتوبة والمنشورة في المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا، والتي كان ينبغي أن تحملها الرياح الى فلسطين، كانت تعاود السقوط على البلد الذي كُتبَت فيه. وخلا المتطوّعين الذين كانوا ينطلقون بـ «الأوتوستوب»، زرافاتٍ أو وحداناً، والذين كانوا نادرين جداً بالقياس الى عدد الشعراء، فأنا أتساءل إذا لم يكن العالَم العربيّ قد قبلَ بهذا الترف الشائق المتمثّل في تمجيز (من المجاز) النضال في قصيدة. امتيازات متعدّدة: يوفّر المرء على نفسه عناء الذهاب الى ميدان المعركة، ويتفادى الجراح أو الموت، ويُثبت للآخرين ولنفسه أنّه بارع في معالجة الكلمات، ويدمغ النضالَ الفلسطينيّ بعدم الوجود ويُبرّر بقاءه في جامعة تونس: فلاأحد يبرح مكانه من أجل نضال غير موجود.

كان الكثير من هذه المنشورات مطبوعاً على ورق هو إلى هذا الحدّ فاخر بحيث أتساءل أيضاً إذا لم تكن تقدّمت به منظمة التحرير الفلسطينية بالذات. أو، بوضوح أكثر: أما كان

كلّ شاعر ينال معاشاً على موهبته؟ إنّ داود التلحميّ هو مَن قال لي هذا في ١٩٧٢ :

ـ يريد الكثير من العرب نشر نصوصهم في مجلّة «شؤون فلسطينيّة». والمبالغ التي يطالبون بها جنونيّة. (وحتّى الآن، في ١٩٨٢).

وينبغي ان نلاحظ أيضاً انّ القصائد راحت تتكاثر عندما تعرّضت المقاومة للهزيمة أمام البدو. وكانت تلقي بالعار على حسين أكثر ممّا تمجّد صمود المقاومة. وإنّ الشعراء العرب الذين اتحدّث عنهم لأسرَع في البكاء ممّا في الحثّ على القتال. ثمّ تباطأ الانتاج الشعريّ. قد أعزو ذلك الى شحّة في الورق من الطراز اليابانيّ المدعوّ بالامبراطوريّ.

ان نكتب أو نقول إنّ العالَم قد مُسِخَ وكيف حدث ذلك، فليس هذا بعمل مساحة. وان نكتب انّ الفلسطينيّين اكتشفوا الجغرافيّة بالذهاب من مطار الى آخر، ليس فعلاً إرهابياً. ولمّا لم تكن الثورة اكتملت بعدُ، فهل لديّ الحقّ، بل حتى الامكان في أن أصف شوطاً منها؟ لئن قاربت أنفاسها الأخيرة، فهي قادرة على استعادة عنفوانها في كلّ لحظة. ربّما كان راعٍ رحّال في مصر، أو في السباسب المغوليّة، هو حفيد السلالة الفرعونيّة الثامنة عشرة. يرعى حملانه ويحفظ سرّ ملَكيّته لايبوح به لأحد. وقد يطالب ذات يوم بعرشه ويطلب يدَ أخته.

ـ هل لك أن تذكر لي، ياجان، من وفاة النبيّ حتّى الآن، فترة عيشت فيها الوحدة العربيّة التي ماأكثر مايتحدّثون عنها، اقول عيشت بحقّ، كوحدة. في العصر الأمويّ؟ تعرف الصراع بين عليّ ومعاوية وأنّ التنافسات بدأت مع وفاة محمّد. أم العباسيّ؟ كانت الخلافة الأمويّة قويّة في اسبانيا. ولطالما تقاتلت الممالك العربيّة والبربريّة مع كون الطرف والطرف الآخر مسلمين. أم إبّان حكم العثمانيّين؟ الدول العربيّة الواحدة وعشرون الحاليّة؟ الوحدة العربيّة طُموح. وهي تذكّر بدول العالم الهنديّ-الاوربيّ الثلاث، التي لم تقمْ ابداً، والتي بقيت كطموحٍ حتى الانفجار في ١٧٨٩.

«خذ مثلاً فرنسا، انت الذي طالما حدّثتني عن وحدة العالم العربيّ اللغويّة؛ الوحدة اللغويّة متحقّقة فيها منذ زمن طويل وبحسب الاجراء الذي سبق ان وصفتُه لك، لكنْ تحت هذه الوحدة، أو تحت هذا البرنيق الرتيب نوعاًما، الا تلمح اكثر من حركة انبعاث وهي تريد الانبثاق الى السطح؟ بلجيكا وكورسيكا والألزاس والفلاندر... انا السيّد هوميه Homais (٨٧)، أليس كذلك؟

هذا أيضاً قاله لي الملازم مبارك، في ١٩٧٢، في بيروت، في قاعة استقبال فندق

الستراند. ذلك انّني رأيته ثانيةً، هذا الأسود الفاجر، مرتدياً بزّة الفهود المصممّة علي يد پيير كاردان. كان الملازم وحيداً. حيّاني وسألني عن الحال. لابدّ انّ يكون نسيَ عجلون. رأيت كمال ناصر وحيّيتُه بمودّة، من دون التفكير بأنّه سيغتاله بعد ذلك بأسابيع اسرائيليّون طويلو الشعر قيل لي إنّهم جاؤوا من حيفا الى بيروت عن طريق البحر.

ـ أضفْ الى كتابك ماياتي: سواء كان الأمر قابلاً للتصديق أم لا، فثمة في بلادي قبائل تعرف — أُكتبْ فعل «تعرف» لافعلَ «تعتقد» — أقول تعرف انّ اسرائيل تخفي موتاها بأن تاكلهم. وهذا هو مايفسّر الضخامة العملاقة للثمار الثقيلة حتى لتتكسّر منها الأغصان.

ـ ماالعلاقة؟

ـ نوعيّة السّماد. محروز بفضل غذاء هو بمثل هذا الثراء... بروتينات بلانهاية.

كان شقيقه، وهو عقيد، معارضاً للنميري، ولابدّ أنّه صار قويّاً في الخرطوم اليوم (١٩٨٥).

كان مبارك، الذي لايشعر، كما قالَ لي، بالوجود، لكونه اسود، الاّ بالفتنة التي يسلّطها عليّ، شبيهاً بتلك المواضع المؤثّرة لأنّها ليس لديها ماتخشاه؛ ثمّ، بعد مائة سنة على ابعد تقدير، تمارس التاثير نفسه على رجلٍ يترصّد. ولأنّني كتبتُ أعلاه: «لومتُّ، لما مات شيء»، فأنا ملزم بالايضاح. الاندهاش أمام زهرة ترنجان، او صخرة، أومداعبة يد جاسية، وملايين الانفعالات التي تكوّنني، ساختفي انا لكنْ لاهي: إنّ رجالاً آخرين سيعيشونها، وستكون هي بفضلهم. وإنّني لأزداد كلّ يوم اعتقاداً بأنّني أعيش لأكون، بين آخرين، الدعامة والبرهان على انّ الانفعالات غير المنقطعة التي تجتاز الخليقة هي وحدها التي تحيا. ستعرف يد أخرى سعادة يدي إذْ تداعب شعرَ صبيّ، بل هي تعرفها من قبل، وإذاما متّ فإنّ هذه السعادة ستدوم. أقدر «أنا» أن أموت، وإنّ ماجعل «أنا» هذه ممكنة، وكذلك سعادة الكينونة، سيُديم سعادة الكينونة بدوني.

نحوَ ١٩٧٢، اصطحبني محمود الهمشري الى منزل الكاتب الايطاليّ ألبرتو موراڤيا لنقابل هناك وائل زعيتر، الذي اغتيل في ١٩٧٣.

بصورة غريبة، بدت لي ايطاليا، هي التي كانت بالغة الخفّة، جدّ ثقيلة بالقياس الى حياة الفدائيّين الجوّابة. وهكذا عدتُ بين الأخيرين في مايو/نوّار ١٩٧٢، ماراً بتركيا الأوربية،

فالآسيويّة. وسوريا والأردن. الصفحات القليلة التالية تتحدّث قليلاً عن تركيا.

كان « انفصال عجيب »، بل بالأحرى استياء صقيعيّ يمنع عليّ مقاربة الآخرين. كنت، على مدى خمس سنوات على الأقلّ، بعيداً عنهم، كما لوكنت، أشبه ماأكون بامرأة مسلمة موشّحة بموصليّ من الغرانيت، بنظرة عارية، حيويّة أكثر ممّا هي عميقة، ابحث في نظرة الآخرين عن الخيط الحريريّ النحيف الذي ينبغي أن يجمعنا كلّنا، مشيراً الى تواصليّة للكيان يمكن الاستدلال عليها بنظرتَين مستسلمتَين إحداهما في الأخرى إنّما بلا رغبة. كنت طوال خمس سنوات أسكن في كوخ غير مرئيّ يمكن فيه تكليم أيّ كانَ ورؤيته، وأنا نفسي أو أيّ أحد لم نكنْ بأكثر من نتفة منفصلة عن بقيّة العالم. كنت قد صرتُ عاجزاً عن الضياع في أيّ أحد. وكان لأهرام مصر قيمة الصحراء، قوّتها وأبعادها وعمقها، والصحراء لها عمق حفنة من الرمل؛ وماكان حذاء أو نوط حذاء ليشيرا الى شيء مختلف سوى أنّ عادة مكتسبة منذ الطفولة كانت تمنعني من احتذاء الأهرام أو الصحراء وإبداء إعجابي بهالة الصباح الورديّة حول حذاءَيّ. وكان لأجمل الصبيان قيمة الآخرين وسلطانهم، لكن لاأحد كان يتمتّع لديّ بشيء من هذا القبيل. أو أنّني كنتُ لاألاحظ ذلك. ولمّا كنتُ غارقاً تماماً في نَوعي وملكوتي، فإنّ وجوديّ الفرديّ كان ينقص سطحاً وسماكةً يوماً بعد يوم. هذا مع أنّي كنتُ، منذ زمنٍ، أقرّ بكوني واحداً. أنا لاأيّ واحدٍ أو أيّ شيء. حولي، كان العالم قد بدأ يغصّ بأفراد individus – كدتُ أكتبُ « يغصّ بغير مُباعين » invendus – مفصولين أو مُخالَف بينهم، مفصولين أي بالتالي قابلين للدخول في علاقة.

كانت الدنيا ظلاماً وأنا كنت مضطجعاً. كنت أفكّر بتلك السنوات الخمس – والى خمس سنوات، فانّى لي أن أحسب على وجه الدقّة زمناً ربّما كان له بداية ونهاية، لكنّ مجراه ماعادَ يدمغه أيّ حدث، مثله مثل المدى الذي كنت اجتاز والذي كان بلاتضاريس؟ اضفْ أنّ ولادة تلك الأعوام لم يُحدَّد ميقاتها ابداً، بل، بتعبير أكثر رهافة، لم تتحقّق تلك الولادة أبداً، مادامت لم تحدث انطلاقاً من حدث قابل للتشخيص وإنّما في مايتعذّر–على–السيطرة، مع أنّ مايتعذّر–على–السيطرة ذاك كان فيّ مؤكداً حتى ليغدو حاسماً. كنت أفكّر بتلك السنوات الخمس آسفاً عليها بكآبة جعلتني فداحتها أعقد العزم على البحث عن تلك الحالة المقضّاة في اللاّ–تميّز والعثور عليها، والحال، فماإن اتّخذتُ ذلك القرار حتى ساد في حجرتي نورٌ حادّ ومنتشر حولي، نور هو الى هذه الدرجة بديهيّ بحيث رفعت الغطاء لأرى إذا لم يكن النور يتسلّل من كوّة في الحجرة أعلى الباب. وضعت رأسي تحت الأغطية، وإذا بالنور هناك أيضاً. ثمّ انطفأ، إنّما بطيئاً، وكما يبدو لي حتى الآن، برقّة. لعلّ مفردة « النورانيّة » أدقّ من « النور». عرفت أنّه، خلال بضع هنيهات، صار شيءٌما فيّ فسفوريّاً، بل حتى فكّرتُ بأنّ جلدي كان

كذلك، منيراً كالورق المحيط بمصباحٍ عندما يكون المصباح مشتعلاً. مَن لن يشعر [في هذه الحالة] بشيء من العار والزهو، ثمّ يضحك من ذلك؟، بيدَ أنّني رحت أطمّنني: «اليمابيس البيزنطيّة للّوزة–الهالة...»: أكانت المفردة «هالة»، هنا، منّي؟ كانت اسطنبول مغطّاة بالصقيع. ومن غفلة السلطات المدنيّة كان بعض الهيبيّين يتجوّلون حول الجوامع، قبالةَ الجامع الأزرق. كانوا حفاة الأقدام، حاسري الرأس ايضاً، إلاّ إذا اعتبرنا نُدَف الثلج المتبقيّة على الشعر الأشقر، الطويل والجميل، طاقيّاتٍ كافية. تحت الصقيع أو في أماكن أخرى، فرادى أو أزواجاً، كانوا وحيدين، ومنعطفين كلاًّ الى داخله بهذه القصديّة بحيث كنت واثقاً من أنّهم كانوا يتمرّنون على السير على الماء ذاتَ يوم، ولكنّهم مازالوا غائصين حتى الحنك. ولئن نجح التمرين ذات يومٍ فإنّ الارتياب سيعود صحبةَ الابتسامة لأنّ الاسلام، بالرغم من كلّ مافيه من حكايات الجنّ، يظلّ، هو واليهوديّة، ديناً شديد القتامة. كانت نسمة هواء تجتاز السجون في أوربا وامريكا الشمالية وتعرّض للخطر النشاط الليليّ الذي يُمارَس فيها منذ زمنٍ طويل، والذي يستدعي مفردات الاقعاء والتنهّد والأنين والصراخ والتحسّر والحشرجة والعطاس والحلم فردانيّاً إنّما بإباء. فجأةً، سيرفض السجناء، شبّانَ وشيوخاً، الحساءَ ويتمترسون في الورشات التي كانت المشغلة الأكثر رشداً فيها تتمثّل في صنع تيجان شوكٍ من الحديد وصنوبرات لعيد الميلاد من المطّاط الأخضر الغامق أو الذي هو بخضرة المغيب؛ وسيشعلون النار في الأشياء القابلة للاشتعال أو الاحتراق في جمر أحمر، وسطَ دخان كثير؛ وستخرج النيران من الكوى التي سيكون زجاجها قد تفجّر في الحريق. كان الرجال المحبوسون يحسبون أنّهم يساهمون في العربدة الجماعيّة باندفاقٍ كنت لاأفلح في تحويله الى تفكير سياسيّ مثلما كانوا سيودّون، لأنّني ماكنت لأقدر أن أضع حدّاً لتجوابي، وماكانت إقامتي بين الفسلطينيّين الاّ مرحلة، استراحة، حديقة يسترخي فيها المرء قبل أن يعاود الانطلاق، كنت أتعلّم فيها أنّ الأرض ربّما كانت كرويّة. ماكنت لأؤمن باللّه. وإنّ فكرة الصدفة، التي هي تجميع اتّفاقيّ للوقائع، تجمع حتّى أحداثاً وكواكب وكائنات تدين لنفسها بماتكون، هذه الفكرة كانت تبدو لي أكثر أناقة وطرافةً من فكرة الإله الواحد الأحد. ثقل الايمان يَسحق، على حين تُخفّف الصدفة وتَضحك. تُحيل المرء فرِحاً ومستطلعاً، وبالتالي بسّاماً. ولئن لم يقبل أكثر الشعراء الفرنسيّين إيماناً (كلوديل) بمعرفة ذلك بجلاء، فهو قد عبّر عنه أفضلَ تعبير: «تهاليل الصدفة». ياللتجديف لدى [مؤمن] هو بمثل هذه الضخامة! – لولا الصدفة، ولولا ضرطات البراكين غير المحصيّة، أكانت اليابان، البسّامة والضّحوك، ستصبح حيثما هيَ، وكماهيَ؟

[بعتباتها] المثبّتة ألف مرّة من قبل رحّالة شهيرين أو حالمين شهيرين، من «القرن الذهبيّ» الى بيرا فغالاته فجامع آيت صوفيا فآيت إيرينيا، فالجامع الأزرق فالسلطان الأحمر، تظلّ اسطنبول موّارة ومشتعلة. إنّ مايُدعى «أعماق» المدن [أو حاراتها البائسة] لايمثّل

كذلك، منيراً كالورق المحيط بمصباحٍ عندما يكون المصباح مشتعلاً. مَن لن يشعر [في هذه الحالة] بشيء من العار والزهو، ثمّ يضحك من ذلك؟، بيدَ أنّني رحت أطمّنني: «اليمابيس البيزنطيّة للّوزة-الهالة...»: أكانت المفردة «هالة»، هنا، منّي؟ كانت اسطنبول مغطّاة بالصقيع. ومن غفلة السلطات المدنيّة كان بعض الهيبيّين يتجولّون حول الجوامع، قبالةَ الجامع الأزرق. كانوا حفاة الأقدام، حاسري الرأس ايضاً، إلاّ إذا اعتبرنا نُدَف الثلج المتبقيّة على الشعر الأشقر، الطويل والجميل، طاقيّاتٍ كافية. تحت الصقيع أو في أماكن أخرى، فرادى أو أزواجاً، كانوا وحيدين، ومنعطفين كلاًّ الى داخله بهذه القصديّة بحيث كنت واثقاً من أنّهم كانوا يتمرّنون على السير على الماء ذاتَ يوم، ولكنّهم مازالوا غائصين حتى الحنك. ولئن نجح التمرين ذات يومٍ فإنّ الارتياب سيعود صحبةَ الابتسامة لأنّ الاسلام، بالرغم من كلّ مافيه من حكايات الجنّ، يظلّ، هو واليهوديّة، ديناً شديد القتامة. كانت نسمة هواء تجتاز السجون في أوربا وامريكا الشمالية وتعرّض للخطر النشاط الليليّ الذي يُمارَس فيها منذ زمنٍ طويل، والذي يستدعي مفردات الاقعاء والتنهّد والأنين والصراخ والتحسّر والحشرجة والعطاس والحلم فردانياً إنّما بإباء. فجأةً، سيرفض السجناء، شبّانَ وشيوخاً، الحساءَ ويتمترسون في الورشات التي كانت المشغلة الأكثر رشداً فيها تتمثّل في صنع تيجان شوكٍ من الحديد وصنوبرات لعيد الميلاد من المطّاط الأخضر الغامق أو الذي هو بخضرة المغيب؛ وسيشعلون النار في الأشياء القابلة للاشتعال أو الاحتراق في جمر أحمر، وسطَ دخان كثير؛ وستخرج النيران من الكوى التي سيكون زجاجها قد تفجّر في الحريق. كان الرجال المحبوسون يحسبون أنّهم يساهمون في العربدة الجماعيّة باندفاقٍ كنت لاأفلح في تحويله الى تفكير سياسيّ مثلما كانوا سيودّون، لأنّني ماكنت لأقدر ان أضع حدّاً لتجوابي، وماكانت إقامتي بين الفسلطينيّين الاّ مرحلة، استراحة، حديقة يسترخي فيها المرء قبل ان يعاود الانطلاق، كنت أتعلّم فيها انّ الأرض ربّما كانت كرويّة. ماكنت لأؤمن باللّه. وإنّ فكرة الصدفة، التي هي تجميع اتّفاقيّ للوقائع، تجمع حتّى أحداثاً وكواكب وكائنات تدين لنفسها بماتكون، هذه الفكرة كانت تبدو لي أكثر أناقة وطرافةً من فكرة الإله الواحد الأحد. ثقل الايمان يَسحق، على حين تُخفّف الصدفة وتُضحك. تُحيل المرء فرِحاً ومستطلعاً، وبالتالي بسّاماً. ولئن لم يقبل أكثر الشعراء الفرنسيّين إيماناً (كلوديل) بمعرفة ذلك بجلاء، فهو قد عبّر عنه أفضلَ تعبير: «تهاليل الصدفة». ياللتجديف لدى [مؤمن] هو بمثل هذه الضخامة! - لولا الصدفة، ولولا ضرطات البراكين غير المحصيّة، أكانت اليابان، البسّامة والضّحوك، ستصبح حيثما هيَ، وكماهيَ؟

[بعتباتها] المثبّتة الف مرّة من قبل رحّالة شهيرين أو حالمين شهيرين، من «القرن الذهبيّ» الى پيرا فغالاته فجامع آيت صوفيا فآيت إيرينيا، فالجامع الأزرق فالسلطان الأحمر، تظلّ اسطنبول موّارة ومشتعلة. إنّ مايُدعى «أعماق» المدن [أو حاراتها البائسة] لايمثّل

هذه البلاد، لكن هل كانت مشغلة مريحة لفكر غربيّ، حتى إذا كان ينتمي الى جسد أنارته فجاةً البارحةَ جمرات داخليّة، أن تعصي برتقالة عثمانيّة نيوتن وترفض السقوط؟ ثمّ إنّها ربّما كانت بصدد السقوط وتوقّفت في الطريق بفعلٍ حيرة؟ لابدّ أنّ اندهاشي كان مكتوباً على وجهي ومقروءاً. إذ راح البائع الفتى يريني أسناناً إضافيّة ونَقرَ، خفيفاً، على البرتقالة التي كانت تتبع سقوطها الحرّ أو ارتقاءها. فراحت تتمايل ذات اليمين وذات الشمال. تبودلت ابتسامتان. وتعالى حولنا ضحك فريق من الأتراك. كانت البرتقالة معلّقة بسلكٍ من «النيلون» غير مرئيّ، مشدود الى الظلّة التي تغطّي البسْطة.

ـ هذا جميل.

ابتسم لي البائع الفتى كمَن يوجّه صفعة.

ـ امريكانو؟

ـ كلاّ.

ـ دويْتش (ألمانيّ)؟

ـ فرنسـ...

ـ ...سيّ، نعم.

قال لي برطانةٍ إنه لفّقَ لنفسه معجزةً صغيرة. يظلّ الصوفيّ المحبوب أكثر هو الحلاّج، «المهرّج» [كذا] الباذخ الحسين بن منصور الحلاّج، المحترق عن آخره بمحبّته للحبيب، والصوفيّ الذي أوّقره أنا أكثر هو البسطاميّ. كان برج «غالاته» يظلّل نور القمر. أوَيحسب هؤلاء الفتْية الأتراك انّ الشيوخ يُخصَبون من الفم؟

لمّا كانت أحلام بالسلطة تتعالى في الحكايات والخرافات والأساطير، فإنّ مفردات كالملك والأمير والأميرة والقائد-البطل أو الشهيد، والظافر، وكلماتٍ كالطاغية والدكتاتور، تنبثق، وممّالاشكّ فيه أنّها مستدعاة لتردم بؤس الحالم، الراوية، وإنّ كلَّ مستمع أو قارىء إنّما «يحتلّ» المفردات بسرعة تثبتِ انّه كان يترقّبها: ينتظرها بقلق الرجل الذي يأمل، في دغله، أن تمرّ أجمل الفتيات وأكثرهنّ عرياً، بل بقلقٍ أعمق، لأنّه إذا كان عليه أن يختار بين ملاحقة

الفتاة الجميلة العارية وجادّة السلطة، فإنّه سيهجر الفتاة العارية تحت المطر أوالثلج، وسيخدمه الظرف تعلّةً سانحةً تماماً، مادام لايُجدي في شيءٍ ملاحقة ميتة. فمن الأفضل بالتالي أن ألحق أمّي وأتزوّجها لأصبح [كأوديب] ملكاً في طيبة. ولن يُكذّبني الغرام المشاكس الذي جمعَ دوق وندسور والسيّدة سمپسون (٨٨).

إختيار الالهام الجيّد والمغنّي طويل النَّفَس. إنّ عودَي ثقاب موضوعين احدهما فوق الآخر يلتحمان عندما نشعلهما، حتى لنعجز عن فصل الفحمة الوحيدة التي صاراها، خُلودَين في واحد؛ كذلك لايشكّل المغنّي والسلطان المغنّى له سوى واحد، مالم يفكّر أحدٌ بمسّ مايظلّ من هذه المَجْمرة المختلطة والرائعة.

الشيخ الذي يتنقّل من بلاد الى أخرى، مطروداً من هذه التي هو فيها بقدرما هو مجتذَب بالبلدان التالية (كان موتسارت الطفل، عندما يدخل الى مملكة جديدة، يقول [عن السابقة]: «المملكة التي صارت وراءنا»)، رافضاً الراحة التي تهبها المُلكيّة، وإنْ تكن متواضعة، هذا الشيخ عرفَ اندهاش سقوطه في ذاته، وراح يصغي الى نفسه وينظر إليها وهي تعيش. بالمُلكيّة ينبغي أن نفهم، بحسب القضاء شبه الكونيّ، عدداً من الأشياء أو المباني أو الأراضي أو الناس، وهذا كلّه، مع أنّه يقبع خارج المرء، فإنّ ملاكاً سيظلّ يتمتّع بالقابليّة لاستخدامه أو الاستمتاع به أو إساءة استعماله. وإنّ منزلاً هو مبنى يُقيم المرء فيه أو يتنقّل أو يتحرّك. كان همّ التحرّر من الشيء البرانيّ هو مبدأ المسافر، ولذا فينبغي الايمان بالشيطان، بالشيطان ومن ثَمَّ بالله، عندما نرى، بعد فترة جدّ طويلة، وفيما كان المسافر يحسب أنّه تحرّر من الأشياء ومن كلّ حيازة، أقول نرى الى رغبة في منزل، مكان مسوّر ومغلق، جُنينة مسوّرة، وهي تتغوّر فيه، لاندري من أيّة فوهة، ولقد حدث هذا فيه في أقلّ من ليلة، فوجد نفسه مالكاً لمساحة من الأراضي. كان ذلك في البدء منزلاً يحمله هو في داخله، هنا، كما يقول آباء الكنيسة متحدّثين عن العذراء والطفل في حضنها، في حين كان ذلك في محلّ آخر، موضع من الجسد غير موجود، محلّ غير فضائيّ إذاما تجرّأتُ على القول. في داخله وحوله في آنٍ معاً. ولمّا كان بيته الولاديّ لم يُبْنَ أبداً، فهو لم يكن هذا المنزل، وإنّما منزلاً آخر يسكنه هو، هو العجوز، أنّى راحَ، ومنه كان يرى، خللَ نافذةٍ مشرعةٍ، البحرَ، وفي البحر، بعيداً نوعاًما، جزيرةَ قبرص. ولقد دفعه ضربٌ من الجنون الى أن يتمتم بهذه الكلمات التي ماكانت كذلكَ أبداً: «من هنا، وبمنأى عن الخطر، سأتفرّج على معركة بَحريّة في وضح النهار».

نشبت هذه المعركة، إنّما لاحقاً، وبعدما تبخّرَ كاملُ هذا المشهد السحْريّ: البيت،

والنافذة، والحديقة، والبحر، وشواطيء قبرص؛ كانت تلك هي الحرب التركيّة–اليونانيّة.

إنّ اللّه، الذي خلق السماء والأرض من العدم، قد حقّق خارقاً آخر. أهدى القدّيسة اليزابيث، ملكة المجر، بفعل مقامها السيّد الذي يجبرها على التنقّل في ترف بلاط ملكيّ، أهداها حُجَيرة رهبانيّة غير مرئيّة، على حجمها، وبمقاسها، لايراها بعلها ولاحاشيتها، ولاوزراؤها ولاالخدم، حُجَيرة شخصيّة وسريّة تتنقّل ماإن تتنقّل مهابة الملكة–القدّيسة، حُجَيرة لاتراها سوى أربع أعين، عينَي الملكة وعينَي اللّه، ولاتشكّل الأربع سوى واحدة. كان على هذا «السيكلوب» أن يخفض، لاريبَ، عينه الواحدة. والشيطان وحده بنى لي بيتي في موضع عدْنيّ [نسبة الى جنّة عدْن]، بحرٍ ناءٍ إنّما مرئيّ وأزرق، وجزيرة تنتظر معركتها البحريّة، وجُنينة مزهرة ومثمرة، وسكون. وضع شفيف وظريف. كنت مازلت أرفض الملْكيّة الفعليّة، لكن كان عليّ أن اقوّض هذه التي كانت فيَّ، هناك حيث كانت تمدّ دهاليزها، حجراتها، مراياها واثاثها. وماكان هذا كلّ شيء، فَحولَ المنزل كانت تلك الجُنينة، الخوخ على أشجار الخوخ، وماكان في مقدوري أن أحمله الى فمي مادام كلّ شيء كانَ فيَّ منذ زمنٍ بعيد. كنتُ في خطرٍ، قابلاً للموت من عسر الهضم، ولأن أبتلع النوى من دون أن أكون تناولتُ أيّ شيء، بل حتّى لأن أسمن في ذلك الاضراب عن الطعام. كنت أنتظر المعركة البحريّة التي كانت ستقع قبالتي، والتي كان عنفها سيبلغ حدوداً أُصابُ معها بالانخطاف منذ الثواني الأولى وأزول. فأين كانَت تلك الصحراء بلاماءٍ في صحراءَ بلاماءٍ التي يتحدّث عنها الشاعر المتصوّف؟

دفعتني هذه الوضعيّة الى الضحك، وجعلني ضحكي غير المُسيطَر عليه أضحك أكثر. رحتُ أشعر بالانشراح. كان حَمْل المرء في داخله منزله وأثاثه مُهيناً الى حدّما لرجلٍ راحَ يشعّ بفجره الداخليّ طوالَ ليلة.

هذه المعجزة المتواضعة، هذه الوضعيّة لرجلٍ يلمع، حباحب [دُوَيبة الحقول المضيئة] بأبعاد جسمٍ بشريّ لكنّ نورانيّته بوجازة نور حباحب، قد جعلتني افكّر، لأنّني كانت أتمتّع بالقدرة على التفكير، بمعجزة البرتقالة التي كانت بصدد الارتفاع، والتي كان سلك من «النيلون» يعيدها الى المنطق بلا أيّ لغز، وحسبتُ أنّني أخمّن دنوّ اللحظة التي سينبثق فيها التفسير المنطقيّ لذلك الاشتعال غير المفسّر، وذلك الحبَل بمنزلٍ وجُنينة، بسماءٍ وبَحر.

ذلك إنّ المهانة كانت تدلّني على منزلـ«ي» وأثاثـ«ي» ونور«ي» ودواخلـ«ي». أكان التعبير الأخير يعني داخلَ منزلي، أم ذلك المحلّ غير المتعيّن، المبهم، والموضوع هنا أخيراً للتمويه على عدمٍ مُطبق: حياتي الداخليّة، المدعوّة أحياناً بالقدر نفسه من الدقّة: حديقتي السريّة؟

هذا المنزل في داخلي جعلَ منّي ماهو أقلّ من حلزون يختبيء حقّاً تحت قوقعة حقيقيّة، خارجاً عنه. ولّما كنتُ أقلّ من حلزون يمتلك لوحده كلا الجنسين الضروريّين لتجدّد نسله، فكم من جنس كان ياترى لديّ؟

ومادام هذا حدثَ في تركيا، ومادمت أقدر هناك أن أنقل مجالي العقاريّ الذي كان فيَّ، وكذلك فمادمت غيرَ بعيدٍ عن «إفس» حيث كانت مريم العذراء، الأمّ وبنت الثمانين حولاً، قد سكنت بيتاً صغيراً حملته الملائكة الى السماء، وحملوها هي ميتةً في منزلها من منقوش الحجر، فماكنتُ ياترى أختشي؟

ـ لم تعرف شيئاً كهذا، قلتُ لفرج ذات يومٍ، وقد رويت له خارقي، الذي ماكان في نظري بالأقلّ إدهاشاً من المعراج في نظر محمّد.

ـ في شهر حزيران / يونيو، في السادس والعشرين منه في ١٩٧٠، وعلى أولى درجات السلّم الآليّ في مطار الكويت، ارتفعتُ عالياً من دون أن أحرّك ساقاً ولاقدماً.

ـ لمْ تصعدْ الى السماء.

ـ للذهاب الى السماء لاينطلق أحدٌ من الكويت.

وفي تركيا أيضاً، وجدتُني مسكوناً. كنت، منذ زمن طويل، جاهدتُ ضدّ نفسي وضدّ الميل الى الامتلاك، حتى لقد اختزلتُ متاعي الى الملابس وحدها التي أرتدي، ملابس بنسخة واحدة، أمّا الأقلام والدفاتر فكنتُ كسرتُها ومزّقتُها ورميتُها: إكتشفَ عالمُ الأشياء الفراغَ فاندفعَ فيه. أعلن ذلك عن نفسه في صخب عظيم للقدور، لأنّ المنزل والجُنينة لم يأتيا فيَّ مع مطبخ جاهز وإنّما قدْراً قدْراً، وحنفيّةً حنفيّةً، مسدودة كما يُلزم به التقليد الكلموكيّ والحطّيّ والتركيّ. وعندما أذعنتُ لاحقاً للشيطان، أي قمتُ بتشييد منزلٍ لشابّ عربيّ، فإنّ الأشياء، التي كانت ولاشكّ مغويّةً ومتطامنةً، كفّت عن تعذيبي. من أنطاكية جئتُ الى حلب، ومن هذه الى دمشق، ثمّ الى درعة فعمّان. وأخيراً الى عجلون.

ربّما كان مشهد المنزل فيَّ، وعلى أرضيَ الداخليّة، قد انبثق من اقتراح محجوب الذي أريتُه منزلاً في السّلط تحت الشمس.

ـ أُنظر إلى المنزل على الصخرة، كم هو جميل!

ـ إذا أردتَ، أمكنَ استئجاره لك عن طريق منظمة التحرير الفلسطينيّة لمدّة ستّة أشهر.

وإذا بالمنزل يصير رمادياً ووسخاً على الفور.

كانَ الظهور بالغ الابهام للمنزل التركيّ تحت الشمس قد بدأ فيَّ أوّلاً عملَ استملاك سريعاً. صرتُ سيّده في اللحظة نفسها التي رأيته فيها، تقريباً، وصار ترتيب الحجرات عائداً إليَّ؛ وتمكنّتُ من تأثيثها بحسب ذوقي، وتوظيب الجنينة التي سأجعل عرازيل تُبنى فيها وكروماً ولبلابات زرقاء وبيضاء تتسلّق. وأخيراً، وخصوصاً، فسأراني ذاهباً من حجرة الى اخرى، أو ماكثاً في كرسيّي ذي المسندين أتطلّع الى البحر، مترقّباً المعركة البحريّة التي طال انتظارها، والتي ستصبح مالكها أيضاً مادامت ستشكّل جزءاً من «الديكور»، منظراً لايُحجَب، قطعةً ملحقةً بالمنزل. ماكان الفدائيّون، الذين ولدوا في الرمال، رأوا شيئاً بمثْل هذا السلْم. هذا السلام الذي وحدهم الأثرياء يعرفونه، هوذا الآن في أيديهم. وكان عليهم أن يلتذّوا به بسرعة، في الثانية نفسها تقريباً، عارفين انّ ذلك السلام، الذي هو امتياز العدوّ، كان أيضاً صادراً عنه، وأنّ عليهم بسبب من ذلك أن يقارعوه. ثمّ أنّ يتلذّذوا به ليعرفوه، وليعرفوا عيوبه، ومهاجمتها على نحو أفضل. كانوا، كالأثرياء، يمرعون في الفرُش العثمانية والمقاعد من طراز الامبراطورية الثانية، ومثلهم يعلمون انّ الترف والسلام سيكونان سرمديَّين، إلاّ إذا هيمن ثوّار، بالرغم من الجند والشرطة، على المنازل (مع هذه المطلاّت الرائعة التي تتيح التفرّج على معركة بحريّة وقتلاها ممدّدين على البحر المستعيد هدأته أو على العمل في حقول الأقنان زهيدي الأجر والذين يتمتّعون مع ذلك بتعب ورضوض بالغة الجماليّة حتى لَيُريحوا أيضاً المضيّفين المستندين الى دربزون المنزل، هناك حيث، طوال هنيهات، يكون الفدائيون، الجالسون في المقاعد أو الدائسون بأقدامهم السجّادَ، سادةَ هذه الأماكن، مع هذه المتعة المتمثلة في التعرّض للطرد منها على أيدي الثوّار الذين كانوهم، هم أنفسهم).

أنّى لي، وكنت ماأزال في تركيا، أن أكون بمثل هذا القرب من طرسوس وأغادر من دون رؤية المدينة؟ ماكنت كثير الأمل في العثور من جديد على أسرة تُدعى آل ساؤولوفيتش أو ليڤي ساؤول. أهناك حارة يهوديّة قديمة؟ إنّني لم أرَ سوى كتل متوازية الأضلاع شبيهة بـ[الضاحية الباريسيّة] «سان–دني–سور–سَين». عبّرتُ عن خيبتي للفتى التركيّ، رفيقي في الرحلة.

ـ جاءت كيلوباترة الى جميع هذه الأماكن، قال لي بالألمانيّة.

ـ متى؟

ـ منذ عامين. لقد صوّروا «أنطوان وكيلوباترة» مع أليزابيث تايلور.

كانت جميع الفنادق في أنطاكية مشغولة. وفي الأخير الذي رأيته، والأغلى، جلستُ في صالة الاستقبال منتظراً قهوة تركية. والى جانبي، كان عربيّ بالجلابية يجرّب الكلام بلغات عديدة: الانجليزية والاسبانية واليونانية والتركية... أجبتُ بإنجليزية جدّ رديئة بأنّني لاأعرف الكلام بأيّ منها، فقال هو مخاطباً مدير الفندق، بالعربية، إنّني فرنسيّ لايجيد سوى لغته.

ـ إذا لم تكن المحادثة بالغة الوعورة فأنا أقدر أن افهم العربيّة وأن أُفهِمَ فيها قصدي.

كنّا في ذلك الشطر من تركيا القريب جداً من سوريا، في ولاية أنطاكية التي ينطق فيها الناس بكلا التركية والعربية. كان السعوديّ تاجراً للبذور والزبيب. قال لي إنّ في غرفته سريرين وأنّه لايشغل سوى واحد منهما. وإذاما أردتُ ففي مقدوري النوم في السرير الآخر. ولمّا كان متاعي ضئيلاً، عرضتُ أن اسدّد على الفور إيجار الحجرة ليومين. بدا السعوديّ مستاءاً. كان مسروراً للتمكّن من التحدّث مع فرنسيّ قادر على النطق ببضع كلمات عربيّة. ودعاني الى زيارة الرياض.

ـ لكن ماجئتَ لتفعل في أنطاكية؟

أضحكه سؤالي في البدء ثمّ أجاب:

ـ إذا ذهبتَ الى الجزائر، فهل تفعل ذلك لترى ثانيةً مستعمرة فرنسيّة سابقة؟ لقد تعلّمت القليل من التركية وأنا صغير، عندما كانت الامبراطورية العثمانية تحتّل مايُدعى اليوم بالمملكة السعودية. وحصل أيضاً أن لديّ هنا أبناء عمومة عرباً ينتمون الى قبيلتي. وأنا سعيد لملاقاتهم من جديد.

ـ هل هم مهاجرون؟

ضحك أعلى من ذي قبل.

ـ أوه، كلاّ! نحن ننتمي الى قبيلة انقسمت خمسة أشطار. كانت مترحّلة، كما كنّا جميعاً. بقي عدد غفير منهم في السعودية، وبعض في شرقيّ الأردن ـ لم تكن الأردن قائمة بعد ـ، وشطر ثالث في العراق، ورابع في سوريا، وبعض أقربائي استقرّوا في سنجاق الاسكندرونة. ولقد رُدّ السنجاق في ١٩٣٧ الى تركيا. وحتى يحتفظ أقربائي بمزارع الكرز الواسعة التي يمتلكونها، كان عليهم أن يتعلّموا التركيّة.

لاأتذكر من اسقفيّة القديس بطرس في الانطاكية شيئاً ملفتاً للنظر، خلا مغارتها.

أمضيت جلّ الوقت مع التاجر السعوديّ. روى عليٌّ ذات صباحٍ، باكتئابٍ مصطنع، استقبال شو إن-لاي البارد لنيكسون. عرفَ ذلك من قريبٍ هتف له من الرياض. كنت في حجرته، غير مرتدٍ ملابسي بالكامل، عندما جاءته المكالمة، التي تلقّاها بعدم اكتراث، كطلَبيّة جوز. لم يعبأ بها في العمق.

ـ حتى إذا احتلّ الاتحاد السوفياتيّ مكان الصين [في دعم الفلسطينيّين]، فالفلسطينيّون يُدركون من قبل أنّ القوى العظمى ستعمل على استخدامهم، هديّةً لاقيمة لها، عقداً من اللؤلؤ الثقافيّ يُضاف مجّاناً إلى صفقة ضخمة دامت المزايدة عليها سنينَ عديدة.

من طرائقه المزيّنة، والتجاعيد في الصدغين والجبين، والعسر الذي يعانيه في النهوض من سجّادة الصلاة، رأيت فيه رجلاً في الستّين من العمر وفكّرتُ بأنّ له من التجربة مايكفي ليعرف ماهي التنازلات السياسيّة.

ـ ماعمرك؟

ـ سبع وثلاثون سنة، قال لي.

لاأجرؤ على تمزيق بطاقته للزيارة التي يعلوها اسمه البارز والمذهّب مرّتين، بالعربية والانجليزية.

فيما بعد، في بيروت، روى لي أبو عمر استقبال نيسكون وكيسنجر. على جميع أنواع البذخ، أو غيابه الذي يظلّ أكثر زينة من زيَن الغرب التي تبين دائماً عن «بروز» مفرط، «بلاجات» الصمت هذه البالية حتى لتشفّ عن الفراغ، كان أبو عمر يفضّل الترجمة السياسيّة والمتعلّقة بالفلسطينيين.

ـ مررنا منذ وهلة بعدَ «أفكار ماو». طالما اعتبرتُها شعّالات ناريّة تتخفى على شيءٍما، اليوم أعرف.

ـ وماهو؟

ـ إنكار الاتحاد السوفياتيّ. هذا أوّلاً. وبعد ذلك؟

معرفة هذه التفاصيل: لم يتسبّب لي تخلّي بكّين الفعليّ [عن الفلسطينيين] وحلول موسكو محلّها بايّ قلق، بل بالعكس، اكتشفتُ فيّ ماكان قابعاً هناك منذ زمن طويل، هزيمة هي من الفداحة بحيث أؤرّخ بدءاً بتلك اللحظة يقيناً بالغرق، غرَق في ماءٍ سيكون أسوَد.

آنذاك سيبدو لي كلّ شيء وهو يحدث تحت الماء، تحت الأمواج. وبيأسٍ مشابهٍ ليأس رجل ساقط في البحر من دون أن يعرف السباحة، ستقوم الثورة الفلسطينيّة بإيماءاتٍ لأنجوع فيها، كتلك التي ربّما كان أبو عمر قام بها وهو يغرق. بقَدر بكين وواشنطن، تعرف موسكو أن تسحب ظلّها الحامي. لقد هُجِرَت اسبانيا الحمراء، واليونان المنتفضة أيضاً. وعليه، فكلّ ماسيَلي إنّما يصف غرقاً أكثر ممّا يصف انتفاضة. وإنْ بقيَ الأمل بمَخرج وضّاء عصيّاً على التدمير.

حوالي ١٩٧٠ و١٩٧١ وبدايات ١٩٧٢، كان الفدائيون، الخاضعون بعدُ لسحر عبد الناصر الذي لم يكن رحيله محاه بالكامل، واثقين من أنّهم يفعلون فعلهم في العالم العربيّ وعليه، بل حتى في القرآن ماإن يُصار الى تفسيره (كان في داخل المقاومة بعض «الأخوان المسلمين»)، وربّما كان آخرون يراقبونها من الخارج). وماكان الفلسطينيّون ليحدسوا أنّ العالم بأسره ستصيبه كلّ هذه الغرابة بالبلبلة. في البدء ارتدّ ضدّهم شطر كبير ممّن كانوا محبّذين لنضال الفدائيين العازمين على العودة الى أراضيهم، وذلك حتى عندما اعتبر بيغن يهودا والسامرة جزءاً لايتجزأ (كما يعبّر صحفيّو بيغن ودبلوماسيّوه) من «إيرتس اسرائيل».

لقد صنعَ اختطاف الطائرات مجدَهم والشجبَ الذي تعرّضوا له. كنت في بيروت عندما أجبرَ رجال جورج حبش ثلاث طائرات على الهبوط في صحراء «الزرقاء». مازلت أرى الوجوه المنهكة لمسؤولي «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» (حبش) وهي تصبح مشعّة عندما قلت لهم انّ الاستيلاء، ببالغ الهدوء، على الطائرات الثلاث، الواحدة بعد الأخرى، وجَعْلها تتمدّد ساكنةً في الصحراء، قد حاز إعجاب الشبيبة الأوربية. في جميع الأحوال، فكرّت، إعجاب الشبيبة المغذّاة من القصص المصوّرة.

كان الفدائيون في القواعد، التي ينبغي عدم الخلط بينها وبين المخيّمات حول عمّان وفي المركز وفي سائر الأردنّ، يشرفون على غور نهر الأردن وضفافه، وعلى اسرائيل، وكامل منطقة عجلون، بل على الأردن بكاملها. ولمّا كان الجميع يحلمون بهزّات كبيرة في البلدان العربية، فلاأحد كان يحسب انّ الفلسطينيين سيذهبون من الأردن الى سوريا، ومن سوريا الى لبنان، والى تونس، فاليمن، فالسودان، فالجزائر، مروراً بقبرص واليونان. لاأحد كان يعرف أنّهم، وقد كانت مطبّات كبيرة تهدّد بابتلاعهم، سيعاودون الانبثاق منها، ربّما ليُعاودوا العثور على أنفسهم.

ابو عمر هو من يحدّثني ايضاً:

ـ إنّ العالم العربيّ، الذي ترونه من باريس، لم يبقَ، منذ عهد محمّد علي في مصر، محنيّاً ولاجامداً. لقد انتفض محمّد علي ضدّ الامبراطورية العثمانية والانجليز. تلته انتفاضة دروز سوريا في ١٩٢٥، التي سحقها جنرالكم غورو؛ فحرب الجزائر؛ فالانتفضات المغربيّة؛ وانتفاضة التونسيّين التي أجْلَتْ كلاً من الفرنسيّين والطليان الذين كانوا يتقاسمون خارطة الأمطار الشهيرة؛ فنهوض الجنرال قاسم بوجه الانجليز وشركة «نفط العراق» في ١٩٥٨؛ ولم يَدَعْ عبد الناصر ولاحتى القذافيّ المملكةَ السنوسيّة سالمة. إنّ عالَمنا كلّه قد انتفض ليتخلّص من قمله، لكن لاحرب، ولافعل، كان لهما مدى الثورة الفلسطينيّة.

«إنّ ثروة مفرطة لَتقتل، خصوصاً مَن لم يَحزْها بنفسه. وإنّ خليطاً من الأعين المتحرّكة، الكستنائيّة والرماديّة الزرقاء، والخضراء الفاتحة أو الغامقة، أو عنبيّة اللون، ومزيجاً من اللكنات وفوضى من التحايا، ولهجات متفرّعة من اللغة العربيّة، هذا كلّه قد فرض على العالم الغربيّ الطاقة الخبيئة تحت الرمال. السكّان الذين يذكّرون بُمجامَعات [تزدحم] حتى اختناق المَضايق، والبؤس في أن تكون شقاءاً مرفوّاً بالذهب، وصعود القوميّة العربيّة حتّى العروبة فالوحدة العربيّة غير المسلّحة لكن المُنادى بها بصخب لنسيان الفلسطينيين أنفسهم، نسيان الفلسطينيين خصوصاً، إلاّ إذا تقدّموا في هيأة ذرورٍ من المجد، الذهبيّ أيضاً، فوق العالم العربيّ، وفوق النفط، والأمراء الذين يباركونهم هم [أي الفلسطينيّون] ويبرّرونهم. فلو كان مجد الفلسطينيين، أي موتهم، يشكّل فوق الأمراء ذروراً من النحاس، أفَتحسب أنّ الأخيرين كانوا سيهبونهم درهماً واحداً؟»

سجّلت هذا في نيسان / أبريل ١٩٨٤ من كلام رشيد، الذي كان جالساً على كرسيّه الخشبيّ أمام بوّابة فندق صلاح الدين في عمّان.

إنّ ثروة مفرطة لتقتل، خصوصاً مَن لم يحزها بنفسه: كانت العبارة تتهكّم من الأمراء الذين لا يتكبّدون إلاّ غزاة النفط.

كما كانت تستهدف العرب البائسين الذين ينشف مُخيخهم كلّما تذكّروا هذه الثروة الصانعة شقاءهم.

ولأنّني رأيتُ مثال ذلك لدى سكّان موريتانيا الفقراء، فقد شئت أن أعرف من الفلسطينيّين إذا كانت الدعارة موجودة هنا في المخيّمات، مخفيّة ربّما ولكن نشيطة. كانت الاجابات، بالرغم من تفاوتها، مُجمِعة. وهيَ مابرحت تفاجؤني.

ـ كلاً. لافي ميخّمات الاردن. كان هذا ممكناً في لبنان، قبل المجازر. لااحسب انّه كان هناك شبكات او حتى شبكة واحدة في بيروت. كانت ستُكشَف بسرعة. حدثت حالات معزولة، إنّما خارج المخيّمات.

ـ هذا مدهش.

ـ كلاّ. ليست الفلسطينيّات معروفات بجمالهنّ. امّا الفلسطينيّون، فبَلى.

أماكانت هذه الملاحظة لتتوجّه إلاّ إليّ؟

ـ مع انّه كان ثمّة في الماضي الارهاب الأبيض، فإنّ مفردة «الارهاب» لم تكن أصبحت بعدُ جدّ شريرة في لغتكم، الفرنسيّة. إنّ [المجرمين] اللطيفين الى حدّما، جاك الذبّاح في لندن وبونو بباريس، قد بذرا الرهبة، إلاّ إنّ مفردة «الارهاب» تكشف عن أسنان معدنيّة، فكّي المسخ ولسانه القاني. تقول صحف هذا الصباح إنّ للشيعة هذا الفكّ غير الانسانيّ الذي يتحتّم على اسرائيل تحطيمه بضربات ذيلٍ سامّ، ذيل جيشها الذي لاذ باذيال الفرار من لبنان. ولاتعني مطاردة اسرائيل انّ مَن يقوم بذلك هو خصمٌ او عدوّ، وإنّما إرهابيّ، فتدلّ المفردة آنئذ على انّ الارهاب يُوزّع الموت بلاتمييز وانّه يتعيّن تدميره انّى وُجد. وماأروعَ إسرائيل إذ تدفع بالحرب الى قلب القاموس بالذات لتستلحقَ بدءاً – «جولان» مؤقّتة – مفردة «الهولوكوست» («المحرَقة») ومفردة «الابادة»، مطلعاً وخاتمة لفصلٍ سنعرفه. لم يصنع اجتياح لبنان من اسرائيل متسلّلة ولانشّالة، ولم يكن تدمير بيروت ولاالمجازر فيها صنيع إرهابيّين سلّحتهم أمريكا، يمطرون، ليلَ نهارَ، طوال ثلاثة أشهر، أطناناً من القنابل على عاصمة تضمّ مليوني نسمة، بل فعلة سيّد مغتاض قادر على ان يفرض عقوبة شريرة على جارٍ جامح. وإنّ الكلمات لرهيبة من حيث تُشكّل إسرائيلُ متلاعباً مُرعباً بالعلامات. لاتسبق الإدانةُ التنفيذَ بالضرورة، بل عندما يقع التنفيذ اوّلاً فهو يلقى تبريره بالادانة رويداً رويداً. وبقتل شيعيّ وفلسطينيّ، تزعم إسرائيل انّها نظّفت الكون من إرهابيّين.

إنّ شيعة جنوب لبنان، الذين اغاضهم ماكانوا يسمّونه وقاحة الفلسطينيّين الجالبين عليهم ردود اسرائيل، قد استقبلوا بمطرٍ من الرزّ المعطّر والحلوى الملبّسة وتيجان الورد وأزهار الياسمين قادة الدبّابات الاسرائيليّة. واليوم، في ٢٤ شباط/ فبراير ١٩٨٥، فالشيعة أنفسهم، الذين استلموا دور الفلسطينيّين المتعَبين قليلاً والمهزومين، هم الذين يلاحقون جنود اسرائيل

حتّى الحدود.

لعلّكم تتذكّرون أبا جمال السوريّ، المسلم التقيّ جداً الذي جاء لمعانقتي تحت الخيمة في عجلون، والذي رفض النطق بعبارة: «أنا أحترمك لأنّك لاتؤمن باللّه». اليوم أعرف أنّه كان على صواب. عبرَ حيَل تكتيكيّة، غير مفكّر بها بالطبع كحيَل حربيّة، ولكن بفعل هذا السبْق بالذات لجميع البواعث، أقول كان مصيباً بالرجوع الى الاسلام، لاللعثور على حليف في الايمان القديم، وإنّما في استعادة العثور عليه في الوفاء الى ناموس الأرض التي حملت الناموس طوالَ كلّ هذه القرون وفكّرتْ به. وإنّ الرجوع بمثل هذا البُعد صعُداً في العصور إنّما يعادل النزول في الذات حتى أعماق مجنونة، وحتى الموت، لاكتشاف قوّة النضال ههناك.

وبعدَ ذلك... لكن لمَ ينبغي أن يكون هناك «مابعدُ» مفكّرٌ به، والوقت وقت نضال؟

صور عديدة ترتمي تحت عينيّ ولاأدري لمَ أختار منها هذه التي ساصف مرّة أخيرة: ينطرح بخار الغسيل على زجاج نافذة، وشيئاً فشيئاً تتقدّم هذه البخْرة وتتراجع، ومالٍن تدع النافذة شفّافة حتى يصبح المشهد، فجأةً، مرئياً وربّما استطالت الغرفة الى مالانهاية له. صورة أخرى: اليد والممحاة تمرّان وتعاودان المرور على السبّورة السوداء لمحو كتابة الطباشير. امكثُ هناك. وتبدو توديعات الفدائيين المتأهبين للانطلاق لمن سينطلقون لاحقاً وهي تتمتّع بالنجوع نفسه؛ يتعانق البعض والبعض الآخر في البدء. مَن سَيبقون كانوا يظلّون ساكنين على الجادّة، والفدائيون الذي وقعَ عليهم الاختيار من أجل النزول في غور الأردنّ يسيرون القهقرى مبتسمين، والطرَفان يحرّكان اليدين أمام الوجه علامةَ وداعٍ، أي امّحاء. كما تمّحي الكتابة من على السبّورة، والبخار من على النافذة، تمّحي وجوه البعض والبعض الآخر ويُعاد المشهد المنظّف من الدمع كلّه الى ذاته. كان الفدائيون المضحّى بهم هُم الأكثر صلابة. أتعبَهم التلويح بعلامة التوديع الطفوليّة «باي باي»، فاداروا إلى رفاقهم ظهرهم، بحَسْم.

أعتقد أنّه لم يكن لدى أبي جمال أيّ انهمام حربيّ، بل سابق إدراكٍ ربّما كان ملحوظاً في تردّده في الاجابة عليٌّ بنَعمْ أوْ لا، ثمّ، أخيراً، ردَّ بأنْ كلاّ، إنّه سينتصر لابالتخلّي عن إيمانه قطّ وإنّما، بالعكس، بالبحث عنه في أعمق أعماق نفسه وفي العصور التي صنعتْه. انعطافة رائعة عبر اللّه بالذات، أي عبر ذاته هوَ.

«الكسْف» كلمة ثريّة. وإلى الشمس، التي تكون مرئيّة أكثر عندما يكسفها القمر،

فإنّ كلّ حدث أو فرد أو صورة يكسفهم آخرون أو أشياء أخرى، يعودون معافين أكثر، وإنّ الاحتجاب، مهما كان من قصر أمده، يكون فعلَ فعله الذي هو جلوٌ وتنقية. كسفتْ ڤيتنام اليابانَ التي كانت قبلَ ذلك كسفَتْ أوربا وأمريكا والجميع. ولايكسف كلُّ شيء أيَّ شيء. والآثار الخبيثة لفعلِ « كسفَ يكسْفُ » إنّما تدفع الى الظهور الصورة القديمة، الصينيّة، أو الهنديّة أو العربيّة أو الايرانيّة أو اليابانيّة، لخرتيت يبتلع الشمسَ، الشمسَ التي يكسفها القمر. وحتى تعبير « إنّني انْكسفُ » [بمعنى « أحتجبُ »]، إنّما يتجلّى فيه التردّد بين معاني « أفلتُ » و« أسمحُ باختفائي تحتَ ائتلاقات شخصٍ آخر ». وإنّ فكرة ثابتة لن تقدر أبداً أن تُثبّت هذا الفعل الفارّ بلا انقطاع. لننطلقْ من الشرق، وسنرى الى انتفاضات الشبيبة وانتفاخاتها المكسوفة بلاانقطاعٍ بالآتي، ماينكسف أو يحتجب للحظةٍ عن التاريخ حتى يعاود الظهور غفلاً وجديداً. في ١٩٦٦، الزنغاكورن في اليابان، والحرس الأحمر في الصين، وانتفاضات الطلبة في بيركلي، والفهود السود [في أمريكا]، ومايو/ نوّار ١٩٦٨ في باريس، والفلسطينيّون؛ كانت هذه الحلقات الحيويّة حولَ الأرض مضادّ الجولات الأخرى حولَ العالم، وباتّباع خطوط تواز أخرى: الاقعاءات وخطّ التصدّعات الجوفيّة. وقد يهب الخرتيت مُلتهِم الشمس فكرة عن القانون المتحكّم بالكواكب، ذلكم هو قانون الجاذبية. مالايكاد يكفي من الوقت للتفكير بانّ السجن أجوف، أو إذا شئتم فهو مليء بالثغرات والنخاريب، وفي كلّ واحد منها رجل يبتكر لنفسه زمناً وإيقاعاً يفلتان من زمن الكواكب وإيقاعها. وفي مركز كلّ نخروب، غناءٌ بنغمة واحدة أو غيابٌ لأدنى صرخة. إنّ السجون لَجوفاء. وإنّ « الكسْف »، هذا الفعل الماكر، والهيّاب نوعاًما، ليُتيح لكلّ شيء أن يصبح هو الكوكب الذي يكسف كوكباً آخر.

والكذب يتعدّد أيضاً ويتصادى [من الصدى] الى مالانهاية له، ووراء كلّ أكذوبة يختفي كاذب أو يحسب الاختفاء، يتخفّى وينكسف تحت أكذوبة جديدة، يغوص في لانهائيّة الهرب، ولئن بقيَ الإمام [الغائب] محتجباً فمَن كانَ ياترى، ومايخشى أن نرى؟

ـ إنّك تخفي انتماءك الى الايمان والمعتقد العلويّين، تخفيهما خوفَ أن يكتشف الآخرون فيمَ أنتَ آخر، لاعلويّ وإنّما شيء آخر ربّما كان هو انتماؤك الحقيقيّ، أو ربّما اليهوديّ؟

في الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢، غادرت السفن الفرنسيّة والأمريكيّة والايطاليّة بيروت حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً. كنت أراها في زرقة الماء والسماء وهي تهرب، وعلى متونها جنودها. كانوا يشكّلون قوّة الردع التي كانت قبل ذلك بعشرة أيّام قد مكّنت عرفات والفدائيّين من مغادرة عرفات بالرغم من حضور الاسرائيليّين.

قامَ الفرنسيّون بحراسة ميناء بيروت لضمان ركوب الفلسطينيّين السفنَ، الذي حدث في شعيرة عجيبة، عجيبة أقصد أنّ الركوب كان دفناً حقيقيّاً، وأكثر من رجلٍ ورجاله، كان رمزه المهشّم هو الجدير بهذا القدّاس الجنائزيّ يتعالى في نغمٍ هادرٍ؛ لكنّ الجنود الفرنسيّين حرسوا أيضاً الدوريّات الاسرائيليّة والكتائبيّة، وأزالوا الالغام من طريق المتحف، الشارع الوحيد الذي يتيح انهمار سيل دبّابات «مركابا» [الاسرائيليّة] من بيروت الشرقيّة الى الغربيّة. الحال، بعد ذلك بأيّام، بين الحادية عشرة صباحاً والواحدة ظهراً، كانت السفن الفرنسيّة والايطاليّة والأمريكيّة تعاود المغادرة مع جنودها.

ـ لمَ يغادرون بمثل هذه السرعة؟

ـ كنّا نتساءل جميعاً، على شرفة منزل السيّدة شهيد، فيما نتبادل المناظير، لانصدّق اعيننا طبعاً. في يوم الثلاثاء ١٤ أيلول/ سبتمبر، حملت السفن، بعيداً عن السواحل اللبنانيّة، قوّة الردع، وفي اليوم ذاته، في الرابعة والنصف عصراً، «كسفَ» اغتيال بشير الجميّل في بيروت الشرقية رحيلَ السفن [غطّى عليه]؛ وفي الحادية عشرة مساءاً دخلت الدبّابات الاسرائيليّة والمشاة الاسرائيليّون بيروت كاسفين بذلك موتَ بشير؛ وفي اليوم التالي، الأربعاء، تعرّضت المخيّمات الفلسطينيّة في صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة الى القصف، والمدنيّون الى التعذيب والمجازر، كسوف كان من الفظاعة بحيث لطّخ صورة اسرائيل. وإنّنا لَننتظر ان يُعاود الحدَث الأوّل الظهورَ، إنّما أكثر نصاعةً: خيانة السكّان المدنيّين من قبل فرنسا التي انكسفَ جنودها [أو اختفوا] بمجرّد أنْ أزالوا الألغام في طريق المتحف ببيروت الشرقيّة.

ينبغي أن نموقع في هذه الأماكن، بين الفين وثلاثة آلاف، القتلى من فلسطينيّين ولبنانيّين وبعض السوريّين وبضع يهوديّات متزوّجات من لبنانيّين، لقي الجميع مصرعهم في مخيّمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة.

ماتوا بعيون مفتوحة على سعتها، وعرفوا فزَعَ رؤية جميع الأشياء المخلوقة، البشر والكراسي والنجوم والشموس وميليشيا «الكتائب»، وهي ترتجف، تتشنّج، تغيم، عارفين أنّهم سيختفون بالفعل مادام مَنْ كانوا هم يحسبونهم ضحاياهم كانوا يدفعونهم الى هذا الاختفاء. كان المحتضرون يرون ويحسّون ويعلمون انّ موتهم كان هو موت العالَم. تظلّ عبارة «وليأتِ بعديَ الطوفان» عبثيّة، مادام «ماياتي بَعدي» ليس بشيءٍ آخر سوى موت الخليقة. وإنّ الموت، المفهوم على هذه الشاكلة، لهو الظاهرة التي تدمّر العالَم. وأمام الأجفان التي تمتنع على الانسدال، يفقد العالم ألقه رويداً رويداً، يغيم، يذوب، يزول أخيراً، ويموت أمام البؤبؤ المعاند

في تثبيت صورة عالَم يتلاشى. مايعني ذلك؟ إنّ الحدقة الخارجة من محجرها ماتزال تميّز بين لمعان كلٍّ من المدية والحرْبة، وألق الضوء الذي يقترب وينكسف ببطء، يغيم، يختفي، والسكين، ويد الكتائبيّ، كمّه، بزّته، نظرته، قهقهته، ووجهه، هذا كلّه كفّ عن أن يكون.

عندما أنزلَ الدفّانون التابوتَ بالحبال، عموديّاً أوّلاً، ثمّ مدّدوه، تعالى فوقي غناء الجوقة، مترنّماً بوداع الرفاق: «بالروح، بالدم...» كانت الأصوات في ١٩٧٣ تهتزّ كأبواق. سبقَ أن شهدتُ عمليّات دفنٍ مشابهة، لكنّني، إذاما سمعتُ اليومَ المفردة «فلسطينيّ»، فإنّ ارتعاشة خفيفة تُنذرني، وأنا لاأقدر أن اعبّر عنها إلاّ بالكلام عن صورة قبرٍ في شكل ظلٍّ يُقيم، بلطفٍ، عند قدَمي المحارب. هذه الصورة الذهنيّة موجّهة إذَن للقارىء وحده، مادمتُ بفضلها وحدها أقدر أن أقول طبيعة الارتعاشة الجنائزيّة التي تولد من لفظ المقاطع فلسطيـ... كان الفدائيّ الذاهب في اتّجاه غور الأردنّ يمضي ملتهماً قطعةً أخيرة من الجبْنة الصفراء المُثقّبة.

مكتب عاديّ الطراز، ومصباح على أربع شموع زائفة، وبضع وريقاتٍ على طاولة المكتب، ومدخنة من المرمر، وساعة دقّاقة صغيرة على عواميد، ومرآة يمكن إعلاؤها حتى سقف قاعة الاستقبال التي هي من طراز مورا: هذا يكفي الفرنسيّين. ودليل هذا الشعب نفسه يقول لاأدري أيّ شيء.

التراجع أمام كلمات العوامّ تهذيب عاديّ، هذا مايعرفه النبلاء. الكلمات النبيلة والبرجوازيّة تمّحي بيُسرٍ أمام الفظاظات السوقيّة. لكن في جوف الليل، في جوف السرير، وبين الأغطية، تتهيّا بين عاشقَين لغة كأنّها بلا مفردات أو تجعل الكلمات تقول ضدّ معناها. كلمتان أو غالباً ثلاث كلمات، لكنّ شيئاً من الألعبانيّة يتسلّل إليها في هذه الحالة. وإنّ هذه اللغة الليليّة بين عاشقَين لتبتكر، أنّى وجدناها، ليلاً: يلتجئان إليه، حتى إذا كانا بين ألف شخص أو مائة ألفٍ، وقد يكون عرَق تلاقيهما قَرَصَ كلّ أنف. لالأنّهما يبتكران كلماتٍ جديدة، بل لأنّهما يهبان الأشياء والصوَر وحتى أعضاءَهما الجنسيّة – وأيّ شيء لايشكّل للعاشقَين عضواً جنسيّاً؟ – يهبانها معنى لانفهمه نحن ماداما يُضيئانه على نحوٍ آخر. إنّ مائة فدائيّ أو مائتين ليظلّون مهذّبين. وسواء كانوا ظافرين أم مقهورين، فهُم فَصيل. والحشد، بنظرة هي أسرع من غمزة، يصنع من فدائيَّين عاشقَين. إنّ تلاقيهما السريع وغير المرئيّ، وشاكلتهما في الكلام، يجعلان هذين العاشقَين لايشكّلان تحت أبصارنا سوى واحد. ولاتحسبوا أنّني لاأتكلّم عن الرغبة في اللحظة التي أبتعد فيها عنها، فالمفردة «عاشقان» تتمتّع

هنا بضدّ معناها في فقرتين سابقتين. وأن نرى معاً ب. الأوّل وب. الثاني (هما فدائيّان يذهبان، بلا كثير همٍّ، من الحدود التي هي هنا الى الحدود هناك، أحدهما سنّيّ والآخر شيعيّ، وكلاهما فلسطينيّان)، هو أن نرى ونسمع عاشقَين رصينَين وعفيفَين. كلّ واحدة من مفرداتهما تحيلهما الى متفجّرات ومستودعات وتوجيهات من على بُعد، وأشخاص تشير إليهم أسماء عُمْلات: «ستيرلنغ آ»، «فلوران إي»، «إيكو إكس»، «مارك بي»، أسماء لايعرفها إلّاهما، وهما وحدهما. هما بالطبع عفيفان ولكن تواطؤهما هو بهذا القدر بحيث يردم ضحكُ أحدهما على الفور فراغَ الآخر المكتئب.

كنت أتساءل معهما عن «أمل»:

ـ أنتَ على صواب، يقول لي ب. الثاني، فلافحسبُ ينظر الكثير من الشيعة و«أمل» نفسها الى الدين من منظار يزداد أصوليّة كلّ يوم (والقرآن، إذ تقرأه شيعيّة، خصوصاً سوَره المتعلّقة بالتشريع والعدل، يكتسب صرامة لايمكن احتمالها عندما يكون المرء مشغولاً بصدر اليزابيث تايلور)، بل إنّنا نستخدم البنادق والقنابل والمتفجّرات البلاستكيّة والصّهائر ونُسدّد وقوفاً أو جثواً على الركَب أو اضطجاعاً، بالضبط كما يُسدّد مسيحيّ.

يقول لي ب. الأوّل، موشوشاً بأذني ولكنْ عالياً:

ـ جميع الشيعة يخدمون الموساد.

فيتعالى ضحك ب. الثاني:

ـ هذا صحيح. ولكنّ الموساد الذي خدمه الشيعيّ الذي هو أنا إنّما هو بالغ القوّة مادامت المعلومات التي أعطيه إيّاها آتية من السنيّ الذي هو أنت.

ـ نتشاجر الوقت كلّه ولاأحد يلاحظ ذلك. لن يوحّدنا أنا وهو إلاّ الموت.

في صباي، كان الممثّلون الذي يؤدّون في الأفلام أدوار المنخرطين في «الفرقة الأجنبيّة» يتكلّمون على هذه الشاكلة.

لمّا كان مطار بيروت قد أُعيد فتحه، فلن أسافر الى عدن.

هوذا ماكان ينبغي أن تكون عليه رحلتي الأخيرة نظريّاً: باريس، القاهرة، دمشق، بيروت، عمّان، عدن، باريس؛ وماكانت عليه رحلتي الفعليّة: باريس، الرباط، عمّان، بيروت،

اثينا، الرور [المانيا]، باريس.

عندما هتفت الى حمزة فإنّ مافاجاني أوّلاً هو رقّة صوته ويأس حقيقيّ كان يتخلّله.

ـ هل ستعود الى بلادكَ ذات يوم؟

ـ أيّ بلاد؟

ـ الأردنّ.

ـ ليست بلادي. أنا «انتهيت» ياجان. صار سالفايَ رماديّين. وغالباً ماتؤلمني جراحي.

ـ هي قديمة...

ـ كلاّ ياجان. كلّما عاودَ ت الايلامَ فهو الم المرّة الأولى في سجن عمّان، ومفاجاَتها.

ـ وابنك؟

ـ نعم، ياجان.

ـ هل سيعود الى بلاده؟

ـ نعم، ياجان.

وإذا بصوته يجتاحه اليأس أكثر.

ـ أيّ بلاد؟

مرّ الفرح في إجابته لأوّل مرّة:

ـ فلسطين.

اشاعت هذه المفردة الأخيرة فيَّ الهدوء. دارت محاورتنا كلّها بالعربيّة، بصورة حسنة أو رديئة، وبالعربية نطقَ حمزة بالمفردة الأخيرة «فَلَسطين»، وبدا لي أنّني عثرت في ابتلاع الفتحة على الفاء ضرباً من ألفة شبه عاميّة: «فَلَسطين».

هل الحبّ شيء آخر سوى مايوقظ المرءَ ويُذهله؟ يُقلقه؟ مالذي حلّ به؟ بِها، بِهِم؟ يتقدّم السؤال كما لوكان يختار لحظته: إمّا تعب بالغ لاتعود لدى المرء فيه من طاقة على

التفكير، فتجتذبه أحلام اليقظة؛ أو هي هنيهة متعة. وَهُم [الأحبّاء]، أيّ شقاء يتكبّدون؟ وهكذا فإنّ ماشغلني لزمن طويل كان يبحث من قبل عمّا يُحقّق: بضع برقشاتٍ على وجه نحيف ومرتاب، بضع شعرات بيضاء، ولُطَخ من الحنّاء على بشرة ذابلة.

إسرائيل في قفطان، مع تزاويقَ في الياقة، أكان ذلك سُوراً تاتي الأمواج الفلسطينيّة لتصطرع وتُصارع إزاءه؟ وإذا لم يكن هذا الكتاب أكثر من مذكّراتٍ-مرآةٍ لي أنا وحدي، تتيح رجوعَ خيالي بين خيالات أخرى، في زمنٍ ما، لاهذا الذي تريد هي بل الذي أهب أنا نفسي؟ ربّما كانت تلزمني هذه الحكاية بصيغة الماضي حتى أفهم المكان والزمن المعقودَين للظلال اللابدة في ذكرياتي وحتى أرى بصورة أفضل، بفضل المرور بالكتابة، مجموعَ النضال، في حركاتِ تقدّمٍ وتقهقر، إرادة ونزوات، جشع وهبة للنفس، ذلك أنّني نادراً مارأيتُ الآليّة، وجانباً منها فحسب، وليس «عقاربها» أبداً. لستُ لأفهمَ أفضل. إنّني أرى شيئاً آخر، لابدّ أنّه لم يكن لينبغي أن يُخَطّ بمعونة المفردات الطالعة من الأحداث مباشرةً. لقد وقعت هذه الأحداث، وإنّه لعديم الخطورة أن يجرأ المرء على اجتراح نبرٍإن لم يكن عاقّاً فلعلّه طائش نوعاًما. أدَعُ على الماء الآثارَ الغائمة من قبلُ، والتي يودّ المحاربون أنْ تُحفَر في المرمر. ألا ليَزِنِ الكتاب الذي قرّرتُ في أواسط ١٩٨٣ كتابته بأقلّ ممّا يزن الاحمرار الخاطف للفدائيّ الهارب من عجلون. مانفهم من الاعصار عندما نكون في قلبه، ومانفهم عندما نرى على الماء ريشَ وسادةٍ ولاشيء غيرَه؟

لاأحد على حوافّ الحفيرة كان يعرف أنّ حذاءيَّ كان يتسرّب إليهما الماء وأنّني سأخرج من المقبرة مصاباً بنزلة رئويّة.

من المتعذر أن نجهل أنّ الصراع الميتافيزيقيّ مابرح يتواصل بين الأخلاق اليهوديّة وقيَم «فتح» (والمفردة «قيم» مفهومة بمعناها الماليّ أيضاً، مادام صحيحاً أنّ بعض الفلسطينيّين قد أثْروا)، أقول قيَم «فتح» أو العناصر الأخرى التي تتألف منها منظمة التحرير الفلسطينيّة التي تنبعث من أكثرها وثوقاً رائحة الأرقام؛ أو بين القيَم اليهوديّة والانتفاضات الحيّة.

وإذَن، فَهُنا، وأنا أغادر هذا الجزء، أريد وصف إحدى الرؤى الأكثر دقّة التي ظللتُ أحتفظ بها من الملازم مبارك. في «السلط» أيضاً، وفي المساء هذه المرّة، فوجئتُ برؤية العالم مشطوراً الى نصفين. لقد بدا لي في هيأة شخصٍ في اللحظة التي يُشطَر فيها نصفَين، وهذه

اللحظة التي تبدو موجزة عندما تكون موسى السكّين ذرية، بدت لي طويلة هذه المرّة، لأنّ الملازم مبارك كان يمشي أمامي تحت الشمس الغاربة؛ هكذا كان هو السكّين، بل، بدقّة أكثر، مقبض السكّين الشاطرة العالَمَ نصفَين؛ على يساره النور مادام يمشي من الجنوب الى الشمال، وعن يمينه الظلّ. لمّا كانت الشمس قد انحدرت وراء جبال الأردنّ، فإنّ التماعات السماء، الحمراء والبرتقاليّة، آثار الغروب هذه التي مابرحت مرئيّة، كانت تضيء الجانب الأيسر من وجه الملازم وجسده، على حين كان الجانب الأيمن مايزال في الظلّ، وبدا لي انّ ذلك الخطّ الغامق، بانتشاره، كان يُعتّم المَناظر – وبالتالي الصحراء – ناحيةَ الشرق. كان الملازم، السائر أمامي، فاصلاً بين النور والغياهب، هو الانعكاس في حقبتنا لذلك «البابا» الذي كان يحسب نفسه المدْية الشاطرة العالَم نصفين، الأوّل هو البرتغال، والثاني إسبانيا. وإنّ مبارك، مهما كان من سواد وجهه وربّما سائر جسمه فوق العضَل والغضاريف، كان، مع حلول الليل، قد أصبح شخصاً أكثر ملائكيّة منه بشراً. ومع صعوده ذلك النهج، اختفت مشيته العرجاء كأنّما تماماً.

أتحسبون انّ الجسارة تشكّل قياسَ صوابِ معكسرما؟ لمّا كان طَعمٌ لايكاد يكون مستوراً من النهب بل ومن ارتكاب المجازر، آتياً من أقرب مايكون، من فرح الفكر عندما يعرف انّ الجسم في خطر، مضافةً إليه الدوافع المعقّدة، التنافس مثلاً بين عصابة من الفحول في عزّ الشباب، أو الروح الوطنيّة التي تدغدغ المرء كالغيرة العشقيّة، أوميراث غزوات الأسلاف، أقول لمّا كان طعمٌ للنهب لايكاد يكون مستوراً، طعم رهيب وهائل حتى ليَكونَ النهّاب معرّضاً لخطر الموت قبل النهب، وحتّى ليقبلَ الجلاّد بالجحيم والعيد اللذين سيكونان كليهما له، فسيكون من غير العدل في هذه الحالة ان نُنكرَ على اسرائيل دوارَ الجسارة والتعذيب والنهب.

مادامت المفردة «ذكرى» مكتوبة في عنوان قسمَي هذا الكتاب، فينبغي القبول، على سبيل المرح، بلعبة أدب المذكرّات وإظهار بعض الوقائع الى النور. كنت، في سنّ الثامنة عشرة، في دمشق، بُعَيد انتفاضة الدروز. ولئن كانت المدينة مخرّبة، فعلى أيدي القوّات الفرنسيّة، وماكنت لأندهش من ذلك، مادام هذا الجيش، الذي كنت أنتمي اليه منذ أسابيع، كان يسيطر عليها ويُزنّرها، تاركاً لها مع ذلك غرائبيّتها، بل ربّما كان يُفاقمها لأنّني رأيتُ للمرّة الأولى في حياتي مدينة يأسرها جنودٌ شبّان. الغرائبيّة، الحريّة، الجيش، هذا ماكان يشكّل تعريف دمشق. الحريّة، لأنّني كنت خارجاً للتوّ من بيت تاديبيّ بالغ القسوة أمضيت فيه زهاء أربع سنوات. كان النظام هناك شظفاً – وبالرغم من التسمية التي تُعيّننا في حين تنطبق المفردة هنا على الظافرين، فأنا ماكنتُ في دمشق مستعمراً، بل لعلّي كنتُ، من غير علميَ، إنكشاريَّ المستعمِر. ماكنتُ بالطبع اعرف من البناء شيئاً، وإذا بي أُكلَّفُ بالعمل على بناء حُصَين من

الاسمنت المسلّح. كانت الأسس، عندما وصلت، محفورة على كثيب يشرف على دمشق، وبالتالي يهدّدها. وكان جنود المدفعيّة التونسيّون بمثل جهلي للأمر، لكنّني كنت، في نظر نقيبٍ غير مرئيّ، أدين لفرنسا بكوني المسؤول عن الحُصَين وعن عمل الجنود الناجح، وكانوا يكبرونني في السنّ جميعاً. مايهمّ؟؛ إذا كانوا يطيعونني فماكنتُ أنا المُطاع وإنّما فكرةما عن فرنسا. عندما تأتي من بيروت بالقطار، قبل دخول دمشق بقليل، حيثما توقّف النبيّ كما يُروى وقال مامعناه إنّه لن يدخل دمشق لأنّ الجنّة لاتُدخَل مرّتين، فأنتَ ترى الى نهر بردى، الذي قنّنه الرومان، وهو يسقي الجنّة على أربعة مستويات، وأحياناً خمسة، متباينة، أشجار مشمشها الى اليمين، ومن البوّابة اليسرى رأيتُ في مشارف الصحراء كثيباً، وعليه بدايات بناء كان الضبّاط الفرنسيّون يدعونه بـ « حصن أندريا ». وكان فرعان من بردى، أعلى من الفروع اليمنى الثلاثة، يصنعان عند هذا الكثيب مايشبه حلقة مزدوجة بطابقين، قبل بلوغ دمشق تماماً. وكما في القرى البُحيريّة، كانت منازل خضراء منشأة على أوتاد، وعلى ضفاف مختلف فروع النهر فتْية من الشركس يَسْقون كؤوساً من العرَق.

كنت، لدى عودتي من مركز دمشق، من الجامع الأمويّ أو من سوق الحميديّة، أجتاز الحارة الكرديّة. في حُصين « أندريا »، كان الجنود التونسيّون، رفاقي في البناء، يقومون بعملهم: كانت بشرة الواحد منّا وباطن الجلد إلى حدٍّما متآكّلين بالاسمنت. وكان ينبغي أن يضمّ الحُصَين في مركزه برجاً سداسيّاً موجّهاً لاستقبال قطعة بحريّة، مدفع نسيتُ عياره. بقدرما كان حُصين أندريا يعلو، كانت تتحقّق تربيتي كبنّاء. وفي الجوامع الصغيرة، في أثناء لعب الورق وبعده، كان الجنرال غورو، المسؤول عن خرائب المدينة وعمّا كان يُدعى بـ « السلام المستعاد »، يوصَف لي كما تُصف الجنرالَ شارون اليوم. وراح البرج يكتمل، ويبدو لي اليوم أنّه كان، منذ أولى القوالب، ينتظر الزواج بمدفع بحريّ. وببالغ عدم الاكتراث بتلهّفه هذا، وزفافه، كنت أزجي لياليَّ باللعب بالورق وتعلّم شيء من العربيّة المشرقيّة. اليوم أفهم دوري في تلك الألعاب الليليّة. وكما حصل فيما بعد في عجلون على يد محجوب، كان اللعب بالورق ممنوعاً من قبل الجيش الفرنسيّ، فكان على السوريّين الاختباء، ولكنهّم سمحوا لي بالمشاركة في اللعب؛ ولمّا كنت لاأملك سوى مرتّبي كمجنّد، فماكان يمكنني احتمال جولة كبيرة يُقامَر فيها بالمال، المرئيّ في ركن من السجّادة. وحوالى الساعة الثانية أو الثالثة فجراً، كان كلّ مقامر ينظّف مكانه من قشور الفستق. كنت أصل الى الحُصَين متأخّراً، أو بالأحرى مبكّراً. القَصوف [محبّ السهر والأعياد] الذي يعود من « كازينو » في الفجر وهو يكاد يقتله النعاس، هذاما كنتُ في ١٩٢٩، طوال أحد عشر شهراً. وعلى افتراض أن تلمح دوريّة شديدة الفضول وهجَ الشموع فتأتي الى المقامرين السوريّين، الذين كانوا بشهرة اليونانيّين، فإنّ وجود جنديّ فرنسيّ ربّما كان سيُبعد الخطر.

جاء نقيب البناء لرؤية البُرج وقد جُرِّدَ من قوالبه، وكما استحسنَ اللّه صنيعَه، استحسنَ هو البرج. قدّم لي ربعَ ربعِ قنينّة من «الروم» من مطرة معلّقة الى حزامه. كان الكحول ساخناً بفعل الشمس ووَرك ضابط البناء، العَرق. شربَ بدوره وتركَ بعض «الروم» واللعاب يسيل على بزتّه، بزّة الضابط الزرقاء الفاتحة، والقى إلى الوراء بكبيّته المطرّزة بالذهب ثلاثاً، واعاد السدّاد الى المطرة، وتمتم ببضع كلمات حارّة لابدّ أنّني ترجمتها كما يأتي: «عمل رائع، وإنّك لتستحقّ الوسام الرفيع أو صليب الحرب مع سعفات.»

ماتزال هذه السعفات هي مايحتفظ لوسام صليب الحرب بكلّ لغزه. ولقد تلطّف النقيب وقال لي إنّ رماة البحريّة سيأتون بالمدفع البحريّ بعد أسبوع. ومن أجل هذه الأعراس، ينبغي ان يكون الجميع على سطح السفينة، بأحذية وأسلحة وأقدام ملمّعة جيّداً. ولقد حلّ ذلك اليوم. وبُشّرْنا بأنّ البغال كانت ترتقي الكثيب وعلى ظهرها وخاصرتيها ركيزة المدفع، وكذلك، وهذا ممّا أثار حيرتنا أنا والنقّابين التونسيّين، جوف المدفع (٨٩). وجاء النقيب هو الأوّل ليقول لي:

ـ جوف المدفع في الطريق.

كانَ سلاح البحريّة، وإن جيء به محمولاً على ظهور البغال وخواصرها، قد بقي نبيلاً ونحن لم نكن سوى نقّابين، يحفرون الأنقاب عندما تسوء الأمور بالنسبة الى المدفعيّة؛ فهل كنّا أكثر من شغيلة؟:

ـ السلاح... إرفعْ!

على إيقاع النفير، المتقَن طوال مايقرب من ثمانية قرون، رفعنا بنادقنا من علامة «لوبيل». وهكذا دخلَ المدفع الى الحُصَين، بأنبوبه وجوفه المفكّكين، على ظهر بغلين، بين صفّين من الجنود المسالمين والمسلّحين. وأحسب أنّني ماازال أميّز ارتعاشة اللذّة في خرسانة البرج المضياف. رُكّبَ فيه المدفع. ولمّا لم يكن احد ليعرف مايخطر في مُخَيخ ضابط للبحريّة على الأرض، ولاكيف يخطر عليه ذلك، فإنّنا مابرحنا نجهل لمَ هنّاني نقيب البحريّة على العمل الرائع. ولولم أكن أستخدم يُمنايَ لإسناد أخمص بندقّيتي التي كنت رافعاً إيّاها، لكان شدَّ عليها بيده ذات القفّاز الأبيض. أمّا يده الأخرى فكانت منزوعة القفّاز، والأخير، وهو أبيض، بين أصابعها. سمعتُ:

ـ تمجيداً للعقيد أندريا، العقيد الفرنسيّ الذي سقط في ميدان الشرف، وتمجيداً لعملكم الرائع ياحضرة النقيب، وعمل النقّاب الفرنسيّ الشاب وهؤلاء الأهليّين الميامين،

سنطلق إطلاقة مدفعٍ واحدة، واحدة.

أهناك كتب، أو كتاب واحد، أو صفحة واحدة، في نشوء نسيج العناكب في الليل. لست بالمتأكّد من أنّ مراقبين قد اختفوا في الظلام ليروا جيّداً كيف ينسج العنكبوت. بل بالأحرى بلى. ثمّة كتاب إيطاليّ يصف الجنوب الإيطاليّ وصقلية ويصوّر آريان أو أريادنة معلّقة الى طرَف خيط للعذراء. لكن في الظهيرة، في عزّ شمس سوريا، من كان سينال الحظّ في مراقبة كيف يتحوّل خيط من اللعاب الى دنتيل التجاعيد هذا، وكيف يصبح نسيج العنكبوت قارّة، وخصوصاً، خصوصاً، أين ولدَ ذلك الخيط غير المقطوع؟ (٩٠)

ماكانت الفكرة لدى ضابط البحريّة بالعفويّة. ولعلّها نزوة منفّذة مع سبق الاصرار، إذْ حملت البغال صندوقاً من العبوات.

كان في مقدور هذه الكلمة بمفردها أن تُجنّننا: عبوة. وهي ذي! على مقربة منّا؟ أفكانت الحرب بمثل هذا القرب، والجد في متناول اليد؟

ـ أيّها الرماة، إطلاقةً واحدة.

ولقد زال سكْرنا عندما أضاف، ببساطة، بل بعاديّة، ولو بشيء من الهندَمة:

ـ خلّباً بالطبع.

وفي نهاية العبارة، بعدَ الكلمة «بالطبع»، تخفّى على الحماسة ضحكٌ فَرِحٍ وعالٍ. إنّ هؤلاء البحّارة لَصِبْيان.

ـ خلّب.

وهذا مانُفِّذَ في صخبٍ قطنيّ إنّما وسطَ رائحة البارود. أعدتُ فتحَ عينيّ. وببطءٍ، وفي رقّة شبه مفرطة، لحمايتي، وحتّى لاأصدّق عينيَّ، ظهرَ نسيج عنكبوت. إنْفَطرَ البرج بهدوء، بل أحسب أنّه ارتعشَ، وانهارَ، هذا ماأنا متأكّد منه، استحالَ حصى، وترنّح مدفع البحريّة النبيل، مستعيداً على ذلك الكثيب الرمليّ، وبمنتهى الطبيعيّة، الحركة التي كانت له فوق قاذفه في البحر الهائج؛ شيء من هذا الترنّح الذي مايزال يعرفه بعض مفتّشي التذاكر التيروليّين (٩١) في منعطفات السكّة، وهذا وحده يذكّر بأنّ النمسا كان لها ميناء، هو «تريست»، وبحارٌ، جميع البحار.

غاص المدفع في الاسمنت المسلّح. كان المستشفى العسكريّ الذي رأيتُه هذه الأيّام ثانيةً، والذي عدّله السوريّون قليلاً، مكاناً يحفل بالسلم. ولقد شفاني الأطبّاء من اليرَقان

الناجم عن إحساسي بالعار. وأعادوني الى فرنسا، متمتّعاً بشهر نقاهة، إنّما وقد تحطّم مسلكيّ العسكريّ. ابداً لن يُنحتَ لي بعد موتي تمثال على صهوة جوادٍ من البرونز، أنا أو صورتي البرونزيّة، ترتسم في الظلّ تحت ضوء القمر. ومع ذلك فإنّ هذا الغرَق الضئيل، الأخرق والضخم، قد هيّأني لأصبح صديق الفلسطينيّين. سأوضّح عمّا قريب.

وحدها الواقعة الفلسطينيّة جعلتني أكتب هذا الكتاب، لكن لِمَ انتميت الى المنطق المجنون ظاهرياً لهذه الحرب، هذا مالاأجده إلاّ في مایاتي، والذي يذكّر بماهو مثمّن لديّ، أي هذا السجن أو ذاك الذي أقمتُ فيه، شيء من الطحلب، بعض أعواد العلف، ربّما أزهار حقولٍ ترفع طلْيةً من الاسمنت أو حجراً من الغرانيت، أو – ولكنّ هذا هو الترف الوحيد الذي أسمح لنفسي به – زهرتَي نسرين أو ثلاث في دغلٍ شوكيٍّ ويابس.

أن يكون السجن قوياً، وكتَل الغرانيت مجمّعة بأقوى أنواع الاسمنت وبسبائك من الحديد، ثمّ أن تكون بضعة شقوق غير منتظرة تسبّب بها ماء الأمطار، أو بذرة، أو شعاع شمسٍ وحيد، أو ضمّة من العشب، أقول أن تكون قد صدّعت كتل الغرانيت، وهوذا الخير يتحقّق، أقصد أنّ السجن قد صارَ الى خراب.

لعبارة «فلسطين ستنتصر» من البُعد عن «إسرائيل ستحيا»، مالضربة السيف من البُعد عن بُرعمٍ، وإنّ «خبطة» الحظّ هذه التي ليست إلاّ شيئاً خطابياً لتُخيفني أيضاً بقدر هزيمةٍ عسكريّة.

كانت فرنسا، التي أحسستُ فيها بين سنّ السادسة والثامنة بالغربة، وذلك حتّى إذا كانت «الرعاية الاجتماعيّة» قد قامت بماهو مرعيّ في مستشفيات المصابين بالسرطان في العالَم كلّه، أقول إنّ فرنسا هذه كانت تحيا حولي. كانت تحسب أنّها تحتويني، أنا الذي كنت بعيداً عن فرنسا حتّى وأنا فيها. كانت تدور حولي أيضاً كما كانت امبراطوريّتها المرسومة بالورديّ في جميع الخرائط تدور حول الكرة الأرضية، وعلى ورديّتها فهي كانت مدعوّة بامبراطورية ماوراء البحار، هناك حيث كنت أقدر أن أقوم بجولة حول العالم لابجواز سفرٍ وإنّما بصَندلي [صندلِ فلاّح]. ولقد تعرّضت فرنسا، هذه الامبراطورية المزهوّة بجنونٍ، والتي ماكان يُقلقها سوى امبراطورية الهند [المستعمَرة البريطانيّة]، أقول تعرّضت، «من دون أن تطلق رصاصة واحدة» – (والتعبير الأخير بقية إقطاعيّة تفرض نفسها ههنا) إلى غزو بضعة فصائل من محاربين شقرٍ جميلين. أكان ذلك جمالاً وشقرة وفتوّة مفرطين؟؛ لقد انبطحت فرنسا أمامهم. على بطنها. كنتُ هناك. وفي خاتمة المطاف لاذت بأذيال الهرب، فزعة، أمامي، أنا الذي رأيت مایاتي: شعباً من الظّهور، ظهور تجري، متناهَبة بين جميع هذه الشموس: شمس يونيو/

حزيران، وشمس الجنوب، والكوكب الألمانيّ. أين تحسبون أنّه كان يتّجه هذا القطيع من ظُهورٍ وشموس؟ في اتّجاه الشمس. في ذلك الهيكل المهجور ظَهرَ طحلبٌ وحزازٌ، والطيبة أحياناً، وأشياء أكثر غرابة أيضاً، شيء من الاختلاط شبه السعيد، بسيط وبلا طبقات اجتماعيّة. وأنا ظللتُ بعيداً. وفي إبائي الذي ورثتُه من أسياد العالم السابقين، كنت أنظر الى هذا التحوّل بتهليلٍ إنّما بكآبة خفيّة أيضاً لكوني مستبعَداً منه. حدثت مشاهد كهذه: سيّدة حاملة لمجوهراتٍ في الأصابع والمعصمين والأذنين والعنق تعنى بطفلين فقيرين وشرّيرين؛ وفي عربة الدرجة الثانية نفسها من القطار كان سيّد يحمّل ميداليّات عديدة ويعتمر قبعة من طراز «إيدن»، يعالج بعنايةٍ شيخاً معدماً، منهوكاً، جريحاً، ووسخاً؛ سيّدة شابّة مطليّة الأظافر بالأخضر تساعد فقيرةً تجرجر اربع حقائب كرتونيّة، ثمّ، بلا نفاذ صبرٍ وبلامهارة، تحلّ الخيوط عقدةً عقدةً، لتُخرج من إحدى الحقائب جوارب مرفوّة ورماديّة؛ لكن كم كان هذا الشعب المرهف يعنى بلغته التي يتساوى فيها [بباعثٍ من تشابه الألفاظ أو بفعل إسقاطاتٍ عنصريّة] البربر والبرابرة، الحشّاش والقاتل، الأندلسيّ والوندالي [الهمجيّ]، [الهنديّ الأحمر] الأباشيّ وقاطع الطرق، الانجليزيّ والمغربيّ والقذر، الڤيتش والبوش [إسم تحقيريّ للألمان] والأخ و«كرويا» [تسمية تحقيريّة للأفارقة الشماليّين، مستوحاة من العربيّة المحكيّة «خويا»]! ولقد أصبَح الفرنسيّون المزهوّون، الفخورون بمستعمَراتهم، العمّال المهاجرين في بلادهم نفسها. كان لهم اكتئاب العمّال المهاجرين، ورشاقتهم احياناً. كانت الطحالب والحزاز والعشب وبعض أزهار النسرين القادرة على رفع الأحجار الغرانيتيّة الحمراء هي صورة الشعب الفلسطينيّ الخارج قليلاً من الشقوق... لأنّني، إذا كان عليَّ أن أقول لمَ ذهبتُ مع الفدائيّين، فعليَّ أن أصلٍ الى هذا الباعث الأخير: عن لعب. ساعدتْني الصدفة كثيراً. وأعتقد أنّني كنتُ من قبلُ ميتاً بالنسبة الى العالَم. وببطءٍ، وكما لو عن هزالٍ، متُّ نهائيّاً لأبدو انيقاً.

تطول فترات حضانة مرضٍ حمويّ احياناً، وتكون متعدّدة وبعيدة بحيث يتعذّر تشخيص تاريخ لاولادته بل تكوُّنه الأوّل؛ لحظة الانزياح بالغ الخفّة، النسيجيّ أو سواه؛ وكبدايات الثورة، تكون بدايات ثروة عائلةٍ ومصيرها السلاليّ قد ضاعت في أثناء تغيّراتٍ للوجهة طفيفة، وانا لم أعد قادراً على تاريخ بدايات هذا الكتاب. بعدَ شاتيلا؟ لقد لزَم أوّلَ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٥٤ حتى تفهم فرنسا في ١٩٦٢ أنّ عليها أن تستسلم في مدينة صغيرة ذات مياهٍ معدنيّة شافية (٩٢). ولم تقل الصحف عن الفلسطينيّين أشياء ذات بالٍ بين ١٩٢٠ و١٩٦٤ (قيام «فتح»)، إذْ كانت أوربا وأمريكا تخشى أن تكون فلسطين شرعتْ

بالنضال.

يمكن أن تضعني مفردة «الغرائبيّة» exotisme على سكّة، لن تكون جيّدة، الغرائبيّة، هذا الاندهاش الناجم من الرؤية أخيراً، عندما نكون اجتزنا خطّ السمت الذي لايفتأ يتراجع. وراءه، إذْ ماله من «وراء» سوى خطّ السمت الذي يتغيّر وهو بالطبع البلاد الأجنبيّة. وبهذه الرحلات الطويلة مع الألفة المدعّمة هناك بالذات والتي كان يخفيها عليَّ خطّ السمت المجتاز دائماً، اقول بفعل الفة طويلة مع الرحلات، بل أكاد أقول بفعل مساسٍ، حسبتُ أنني أمّيز وأنا أؤّلف هذا الكتاب لافرنسا وحدها وإنّما الغرب [كلّه]، إنّما أميّزهما في الضباب. بَدَوا لي نائيَين، وصارا يُشكّلان لي أعلى غرائبيّة ممكنة حتى صرتُ أذهب الى فرنسا كما يذهب فرنسيّ الى بيرمانيا. بدا تاليف هذا الكتاب نحو اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٣. ولقد صرتُ عن فرنسا غريباً.

منذ الفترة بين ١٢ يونيو/حزيران و٨ سبتمبر/أيلول ١٩٨٢ تعرّضت بيروت لقصف الطائرات الاسرائيليّة، ومابقي من المدينة واقفاً رغم الغارات، طرحه الكتائبيّون أرضاً، خرائب تبعث غباراً. إنّ مدينة من ذرورٍ لهي مشهد نادر: رأيت كولونيا وهمبورغ وبرلين وبيروت. ماالذي كان سيبقى من صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة؟ لقد اجتزتُ الجادّة الرئيسيّة في شاتيلا كمن يلعب على قفز الحملان، متفادياً القتلى الذين كانوا يسدّون الشوارع. قفزعوارض في مسيرتي. وكانت رائحة العفن الى هذا الحدّ كثيفة بحيث كانت شبه مرئيّة ومتعذّرة على العبور كمثْل حائط. و[إذ عدتُ الى هناك] في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٤، فلم أتعرّف على شيء. كانت تلك الجادّة الرئيسيّة أضيَقَ ممّا في ذلك اليوم. كانت السيّارت تتقدّم على البلاط ببطء وعسر. ولقد ذكّرني صخب الزمّارات والمحرّكات والصراخ بصمتِ مشرحةٍ ومقبرةٍ، فَجدّفتُ: اسفتُ على ذلك الصمت. كانت بسْطات متحرّكة ومحمّلة بالفواكه والخضار محاطة بزبائن عصبيّين. كانوا فلسطينيّين، بمثلِ تلوّن المعروضات.

«صار هواء اسرائيل متعذّراً على التنفّس»، هذا هو ماكتبه الرابي كاهانه، متّهماً عرب اسرائيل بتسميم هواء الدولة العبريّة وإفساده. وإنّ مساس العيش، والنموّ، والاستهلاك بأقصى سرعة للتعرّض للفناء في العالم بعد ابتلاعه، هذا هو ماأحسستُ به بعدَ مجازر الشارع الرئيسيّ في شاتيلا بعامَين.

مَن لم يعرف عمّان يلقَ، وهو، آتٍ من المطار، الأردنَ مفعمة بالسحْر، خصوصاً في المساء؛ ولذا أتركُ لمخيّلة كلّ قارىءٍ اختيارَ الألوان التي تُسرّ كثيراً وكالات السفر؛ فالينابيع،

المحاطة غالباً بالشجر، إذا لم تكن طبيعيّة فهي نتيجة الحفر وسط مضايق جبلية مُحصبة، وسرعان ماتكون المعترشات قد تسلّقت حتّى حول هياكل الآبار الارتوازية العتيقة، الصدئة. وبعد إقامتي الأولى هنا بأربع عشرة سنة، لم أعد لأعرف شيئاً، بيدَ أنّني أدركتُ دفعةً واحدةً أنّ سحر التلال ذاك، والجبال الأبعد والأكثر عتامة، والوديان الصغيرة والحدائق و« الفيلات » لم تكن سوى الشفّ المرسوم لاخفاء شظف المخيّمات الفلسطينيّة.

سيكون ملائماً أن يسأل العارفون بشجاعة الفدائيّين ودقّتهم في ابتكار التكتيكات، يسألوا الاختصاصيّين الذي عكفوا بكامل قواهم على الاختصاصات الحربيّة: بايار، كريّون، تورين، نابليون، وفوش عندنا [نحن الفرنسيّين]، وكذلك، وكما يُقال بين أفراد المسرح، ليوتي.

في مايتعلّق بي، رأيتهم [أي الفدائيّين] شديدي التحرّر في الجسارة وفي الشجاعة، ولكنّهم، وهنا انسحاري وزواله في آنٍ معاً، ماكانوا يخشون القتل والتعرّض إلى القتل؛ التسبّب بالأذى، منفّذين ذلك جيّداً، وتلقّيه. كانوا منتبهين الى حيَل الحرب، لكن بدا لي، وبسرعة، أنّهم كانوا يتسبّبون بالموت طوال أبديّة تدوم ولاشكّ حتى انتصارهم. لو ظفروا، لاقتدروا أن يعرضوا على الاسرائيليّين، بلا إحساس بالانتصار ولا وضاعة، بعض الأراضي – لكنّهم يرفضون أن يكونوا مطرودين منها نهائيّاً. وبخساسة، لأنّهم طُرِدوا باسم أخلاقية مكتوبة في قانون الغزاة.

ومابدا لي أكثر إثارةً للبلبلة، والحيرة أحياناً، هو القطع الذي كانوا يمارسون على أنفسهم: إنّهم محاربون بالكامل، وهذا ممّا يمكّن من القتال: مقت العدوّ، والنعوت المشينة التي تُعطى له، والمتعة الفحوليّة في مقاتلته رجلاً في مواجهة رجل، والتطامن لرفع لواء العشيرة عالياً، وأخيراً جميع هذه « التشبيكات » التي ينبغي أن تقود الى المجابهة الجسميّة بالغة القرب بحيث يكون الخنجر هو السلاح الأخير، ثمّ، إذ ينتهي القتال، كيف ياترى لاينهض أيّ قتيل، صديق أو عدوّ، ليذهب لِغسل وجهه؟

رأيتُ الفدائيين ومافتئتُ أراهم بهذه الشاكلة بحيث يظلّون قادرين على إبداء غضبهم من القتلى الاسرائيليّين الذين لايريدون الاستيقاظ من بين الموتى، يهود عاجزين عن فهم أنّ الموت ينبغي الاّ يدوم أكثر من ليلة على الأكثر، وإلاّ لهدّدَ بتحويل المقاتلين الى قتَلة.

ـ لايشكّل قتلُ رجلٍ سبباً كافياً ليظلّ ميتاً بصورة نهائية. وأنا لم أفهم أبداً بصورة تامّة فظاظة الجنود البدو، هؤلاء الذين كان رقصهم ذاتَ يومٍ جدّ جميل. ولاحتى مايفقأ عينَي الغريب: الأناقة في الشحّة. إنّ جنديّاً بدويّاً، بحضوره وحده، وإن يكن ساكناً، ليدمّر الترتيب

الرائع للأثاث الفقير، الملتقَط في مزابل عمّان.

وماذا إذا صحّت ملاحظة أبي عمر، من انّ عشرين سنة كانت كافية لتخلق لدى البدو والشركس شعوراً قومياً بالانتماء الى المملكة الهاشميّة، مادامت هذه المملكة لم تنشأ إلاّ في ١٩٥٩ وبحسب حيَل مرئيّة بصورة تجعلني أندهش من هذا الشعور الجديد لدى البدو!

لنُذكّرْ بأنّ هذا البلد يتألّف ممّا كان يُدعى شرقيّ الأردن، والذي وهبه الانجليز الى الملك عبد الله، جدّ حسين وهو نفسه نجل أمير الحجاز. ولقد بدت لي هذه المملكة (الأردنيّة) سيئة التكوين إلى هذا الحدّ، مع سكّان بغالبيّة فلسطينيّة، تجهر بكونها مهاجرة من فلسطين أيّاً كان مصدرها، وأردنيّي المدن (عمّان والزرقاء وإربد والسلط)، والبدو دائمي الافلات والشركس أخيراً، بحيث لايمكن التفكير الاّ باستعمار يخدم الانجليز أوّلاً، والمصالح الأمريكيّة من بعد. بلد فقير إلاّ على ضفاف الأردنّ، بأرض جوفيّة بائسة ومسبورة الغور مع ذلك، ويبدو أنّه لم يُنشَأ الاّ لهذه الوظيفة: انْ يشكّل سدّاً فاصلاً بين سوريا واسرائيل من جهة والممكلة السعوديّة في الجنوب. لكن لئن كان الأردنيّون يشعرون بأنهّم في الأردن في بلادهم، فإنّ محاولة الاستيلاء على السلطة من قبل الفلسطينيّين كانت تشكّل في نظرهم مَعْصية لافحسب بسبب من ابتزازاتهم [أي الفلسطينيّين]، بل بسبب من الانقلاب نفسه. وحده سليل النبيّ، المباشر، كان هو الملك الشرعيّ. وفي المساحة التي عقدتْها الاتفاقيّات الموقّعة في السفارة التونسيّة للفدائيين، لفترة، كان الأخيرون يتصرّفون كمحتلّين. وفي قطّاع عجلون، حيث كنت أقيم، كنت أرى الى غيظ الفلاحين العاجزين عن كتم الحقد الذي كان يصّاعد حتى أعينهم.

وقد ارتكب الفلسطينيون خطأ آخر، ذلكم هو خطأ استقبالهم بعداوةٍ بعضَ الموظفّين الذين كانوا بالطبع بلاكثير أهميّة، ولكنّهم موظفون شبّان، في الجمارك أو الشرطة، في مكاتب البريد أو المستشفيات، وكانوا مستعدّين لشيء من التواطؤ مع الفدائيين. لقد راحَ الفلسطينيّون، الذي صاروا منذ تموز/ يوليو ١٩٧١ مقطوعين عن السكّان الفلاحين على ضفاف الأردن، يعيشون وحيدين، في وسطٍ مُعادٍ.

ـ اعتقد انّه تعرَّض للاعتقال والتعذيب لدى البدو. سأستعلم من جديد.

وبصوتٍ خفيضٍ أجاب بالعربيّة، حتى لاافهمه ولاشكّ:

ـ حمزة، من إربد، أعتقد انّه مات.

هاني الحسن هو مَن قال لي هذا.

كانت المخيّمات قد تغيّرتْ هي أيضاً. أُبدل الجوخ والتراب المنشّف بسيولٍ من الاسمنت كانت تهطل من برازيليا على المخيّمات، ومن لاباث على المخيّمات، ومن أوساكا على المخيّمات، ومن نيودلهي على المخيّمات، بعدما تكون غطّت الهند، سيول إسمنت تخرج منها دعاميص. وكالطحلب في البداية، فإنّ أزهارَ الحزاز، بداية الحياة هذه، راحت تظهر بين شقوق جدارٍ بقي عمودياً، وفي تعرّقاتٍ لاتكاد تكون مرئيّة لبلاطَين من الجبس، تجيليّات، وصبْيان قرب الرجال، وفي النساء كانت الشقوق نشاتْ. هذا كلّه ولد من صدوع الاسمنت. ولقد جلب هذا كلّه ماكنت أحسب أنّ البدو وطيّاري دايان وتحوّطات البنك العالميّ أو الـ «وورلد بانك» قد انتزَعوه إلى الأبد: ألق الأسنان والأعين، ورَجفتها. أينبغي أن أعتاد ذلكَ، ومعه كونَ الواقع أكثر ابتكاراً من كوابيسي وذكرياتي؟

كيف تولد رحلة؟ وما هيَ التعلاّت التي يهبها المرء نفسَه؟ مثلما لم أذهب الى عمّان للاعلام في فرنسا عن البطش الذي تعرّض له الفدائيّون، فأنا لم أقم بجولتي في حزيران/ يونيو ١٩٨٤ للكلام عن وضع الفدائيين المفرّقين بين الجزائر العاصمة وعدن. كانت النقطة الثابتة، هذا الضرب من نجمة قطبيّة أهتدي بها، هي دائماً حمزة وأمّه، اختفاء حمزة، التعذيب الذي تعرّض له، وموته شبه الأكيد. لكن ماالسبيل في هذه الحالة إلى التعرّف على قبره والبقاء المحتمل لأمّه، وشيخوختها؟ ربّما كان اسم هذه النقطة الثابتة هو الحبّ، لكنْ أيّ ضربٍ من الحبّ تبرعمَ وتنامى وانتشرَ فيّ طوال أربعة عشر عاماً لصبيّ وعجوز لم أرَهما، بالعدّ والكمال، أكثر من اثنتين وعشرين ساعة؟ مادام هذا الحبّ مايزال يبثّ شعاعه، فهل تهيّات قوّته الشعاعيّة طوال آلاف السنوات؟ طيلةَ أربعة عشر عاماً، وعلى امتداد أسفاري التي قادتني عبرَ ستّة عشر بلداً، وأيّاً كانت السماء التي تعلوني، فأنا ماكنتُ منهمكاً إلاّ بقياس سطح الكرة الأرضيّة الذي كان قد مسّه ذلك الشعاع.

كنت أعرف أنّ عجلون قد تلاشت. وأفترض أنّه لم يُبْنَ فيها أيّ بناءٍ جديد، وأنّ أيّ شجرة مقطوعة وأيّ فأس وأيّ وركٍ مكسورٍ لن يقولوا لي بعد الآن أيّ شيء. وحقول القمح الشقراء في الماضي سَتكون صارت خضراء واستحالت مراعيَ للبقر بدل الماعز. لكنّ شبْهَ أملٍ كان في خواطري ينبثق: الذهاب الى أطراف درعة، ثمّ، قبلَ عبور الحدود السوريّة، الانعطاف يساراً على تلك الطريق التي تجتاز جرش وتقود الى إربد، حيث سأتناول الغداء بلاصخب، مجهولاً من لدن الجميع، واثقاً من عدم العثور على ماكنتُ أحتفظ أو أتوهّم الاحتفاظ به في

ذاكرتي.

ـ إذا كنتَ تريد زيارة المخيّمات، لزمَكَ ترخيص من وزير الاعلام. وهو لديك، مادمتُ هتفتُ له.

كان لهذا التصريح الذي انهال على وجهي مفعولُ حفنة من التراب. كان داود التلحمي قد نصحني في ١٩٧٢ بالذهاب الى الأردن لزيارة «البتراء»، وإذا بي أكتشف أنّ شطرَي السكّان، الفلسطينيّين والأردنيّين، كانا مايزالان يتبادلان العداء.

ـ نحاول التقريب بين الطرفين، في كلّ مكان نوعاًما.

بالرغم من تكتّم رحلتي، احتفظَ موظّفو الاعلام بجواز سفري لوقت جدّ طويل قبل أن يمنحوني تأشيرة المرور الى «البتراء». لكنْ في السفارة الأردنيّة ببيروت أعطيتُ تأشيرة المرور ببضع دقائق. ولقد أريتُها مزهوّاً لبوّاب الفندق، وكان فلسطينياً.

ـ نلتَها بأسرع من اللزوم. لوكنتُ في محلّك لماذهبتُ.

ذهبتُ. وبعد ذلك بأربعة أيّام، رجوني – كلمة واهية – أن اغادر الأردن وأرجعوني الى الحدود السوريّة. وهوَذا أنا هنا من جديد، بعد أربع عشرة سنة. كان مدير «البنك العالميّ» وزوجته ينتظرانني في المطار. كانوا أُنبِئوا من الرباط حيث كان أصدقائي يخشون إيقافي لدى وصولي الى عمّان.

ـ سنذهب أنا وجان الى إربد وحيدَين. فإذا لم نتمكّن من دخول المخيّم، أو أوقفونا، إذهبوا واخبروا الوزير.

وهكذا انطلقنا الى إربد، أنا ونضال وإحدى صديقاتها الفلسطينيّات. إعلموا أنّ «نضال» هو اسم امرأة، شقراء وفاتنة، لبنانيّة، تتكلّم بالعربية والفرنسيّة. ويمكن أن يحمل رجالٌ اسمَ المرأة هذا، فابو نضالٍ رجلٌ كما أعتقد (٩٣).

تكلّمتُ كثيراً عن حمزة، عن فترة اعتقاله، والتعذيب المفترض أنّه تعرّض له، وعن صحراء «الزرقاء»، وموته المحتمل، كما قال بالعربيّة مسؤول منظمة التحرير الفلسطينيّة. وأشرت الى إقامته الممكنة في ألمانيا، أقول «الممكنة» لأنّني، بالرغم من رسالة داود، ماكنت لأفهم كيف استطاع حمزة أن يذهب الى ألمانيا، وخصوصاً لمَ. ومن أجل مَن؟

لم تكن المقاومة الفلسطينيّة واحدة أبداً، بل عديدة. وكان ينبغي الانخراط في واحدة من منظّماتها والتظاهر بالانتماء إليها جميعاً سواء بسواء؛ لكن كان ينبغي الانخراط في واحدة

منها تتلاءم واختيارَ المرء، والاستقرار فيها. أنا، كان اختياري قد استقرّ على «فتح».

بقيت «فتح» منظمة جماهيريّة، لكن في مركزها الذي تحوّل الى مركز للقيادة، بقيت المقاومة البيروقراطيّة حبيسة هذه المقاومة الأخرى (ربّما من دون أن تكون متواطئة معها): عنيتُ الغوغاء المُتاجِرة.

الطريق ممتازة من نامور الى ليبج، ومن ليبج الى بروكسيل، فالمانش. وشبيه بها هو «الأوتوستراد» الذي يصل خليج عقبة بالحدود السوريّة. ومن عمّان الى إربد، طوال ساعتين، على يمين الطريق ويسارها، تمتدّ الأراضي المزروعة بروعة. ولقد أبصرتُ في قاعِ وادٍ مخيّم «البقعة» الذي كنتُ أمضيتُ فيه فترة طويلة، وفوجئتُ لرؤيته في تجويفٍ وهو الذي كان يحتلّ في ذاكرتي منحدرات عديدة من كثيبٍ بارز. ولئن بدا لي وهو يشكّل في المشهد جوهرةً فلأنّني رأيتُه من بعيد. وخصوصاً بسرعة ومن سيّارة مكيّفة الهواء: أي، إجمالاً، مايجعلنا نلقى ساحراً كلَّ بؤس لانتكبّده نحن أنفسنا. ولم أحدسْ من السيّارة وفي تلك السرعة أنّ الطحلب الأخضر إنْ هو إلاّ أسيجة من الصبّار تعلوها نفايات: فرَش للشعر أو للأسنان عتيقة، شَعر، ولوبياء محروقة. ودائماً كانت خرائب «جرش» الرومانيّة بمثل هذه اللاّ–إنسانيّة، متعاظمة، وعارفة بأنّ اختصاصيّين باللاتينيّة يأتون من شارع «أولم» [حيث «معهد المعلّمين العالي» بباريس] لاستكناه كتاباتها العائدة الى ألفَي سنة. لم يُوقف سيّارتنا أحد، وعن طريق السهو تقريباً وجدنا أنفسنا في المخيّم الفلسطينيّ الذي ماكان ليميّزه شيء عن مركز إربد خلا انخفاض البيوت، بيوت بطابق أرضيّ واحد، وطابق أعلى واحد أيضاً، أمّا الشوارع، الهابطة في منحنى شبه جماليّ، فكانت بالنظافة نفسها إنّما أكثر فقراً. ولقد بدت لي ضاحية إربد مؤلفة من منازل فاخرة محاطة بجِنان. في المخيّم، تفضي جميع الأبواب الى الشارع مباشرةً.

دخلت نضال الى أوّل البيوت لتستَعْلِم، وكنّا أوقفنا أمامه سيّارتنا. دَعتنا امرأة، لتدلّنا على الاتجاه المطلوب، الى الدخول وشرب الشاي. إبتسمتْ: «نحن من الناصرة»، وكانت هذه هي عبارتها الثانية. لم أجد هذا الارتياب الذي كان الجميع يحاولون تحذيري منه في عمّان وبقيّة البلاد العربيّة. ماكان الفلسطينيّون ليخفوا أصولهم. ولقد أكّدَ لي الشيخ الذي خاطبني، مبتسماً دائماً، أنّنا كنّا في المخيّم حقّاً، وأنّ جميع البيوت حولنا فلسطينيّة. لاأحد كان يشكو من المنفى والحرب والمصاعب الماليّة والعمل النادر. وكان المنزل الذي دخلنا إليه مؤلّفاً من أسْرة معقّدة نوعاًما: ربّ أسْرةٍ مايزال فتى، وصهْر شابّ تماماً، هو جنديّ في الجيش الأردنيّ، وثلاث نساء وأطفال كثار. وأنا أُقدّم هذه المعلومات لكي تعرفوا أنّ الزوّار قد أحيطوا عِلماً بها منذ دخولهم ومن قبل مضيّفيهم أنفسهم؛ وكانت هذه دعوةً أيضاً: مَن أنتم؟ فقلنا

مَن نحن، بلا تخفٍّ ولاتزويق. وماكان حضور فرنسيٍّ يقتعد السجّادة ويتكيء الى الوسائد ليزعج احداً. وبدا لهم طبيعيّاً أن تترجم نضال الى الفرنسيّة كلّ مايقولون والى العربيّة كلّ مااقول. ولقد استعدتُ في هذا كاملَ الثقة العفويّة لدى الفلسطينيّين. بالتصريح التالي أؤكّد أنّني لم احسب نفسي فلسطينيّاً، ومع ذلك: فقد كنتُ في بيتي. ولم احسّ بهذا في عمّان. حدّثوني في الشرق الأوسط وأماكن أخرى عن مخيّمات ملأى بالشرطة والمخبرين، وتوقّعتُ ان اقابل وجوهاً مراوغة تطرح أسئلة طويلة لكن في عبارات قصيرة، تفتيشيّة، رافضةً هي نفسها ان تتكلّم.

« الناس [في المخيّمات] متكتّمون جداً. إذاما استجوبتَهم، امتنعوا عن الاجابة، وإذاما قاموا بذلك فليروا إن كنتَ تكذب. »

وإذا بهم يحبّون الكلام عن أنفسهم، ويفصحون عن وضعهم بجلاء. كان كلّ قلقٍ سيزول عنّي لو كان ظهرَ مجرّدَ ظهورٍ، لكنّ الارتياب كلّه الذي أثاره الاعلان عن رحلتي، حتى لدى مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينيّة في الغرب (الاحظ الآن كم كانوا يعيشون بالغي البُعد عن الشعب)، أقول إنّ الارتياب ذاك كلّه لم يعكّر، البتّة، وعلى الرغم من بعض الصوَر المتلاشية حال ظهورها، ذلك السلام فيَّ الذي كان كمثْل سريرٍ من الثقة بإزاء الفلسطينيّين. لقد كذبَ عليّ أوربيّون بالطبع، وعربٌ أيضاً. كنت هنا متحرّراً. وكان رَجُلا هذه الأسرة، الأكثر شباباً، على قاب قوسين وأدنى من أن يُفصحا لي عن العهد الذي كانا فيه فدائيَّين. كنت اضحك كما يضحكان، وأنتظر كما ينتظران، بعدَ الشاي الساخن، المشروبات المرطّبةَ التي كانت النساء سيأتين بها.

بدا ليَ المنزل، وخصوصاً الحجرة التي كنّا جالسين فيها جميعاً على السجّادة، في منتهى النظافة، لكنّي أعتقد أنّني كنت اقرأ في الابتسامات والكلام الصريح، في ١٩٨٤، علامات الاستسلام. كان الاستسلام منبثّاً بالذات في ما يحاولُ إخفاءه، أي في تغييرٍ مراوغٍ يريد التظاهر بكونه شيئاً أفضل؛ وهذا رزءٌ إضافيّ. كان الشارع الصغير وشوارع اخرى رأيناها معبّدة بالخرسانة، وفي وسَطها أحياناً ساقية تجري فيها مياه نقيّة أو مستعملة. ولم تكن البيوت جديدة، بل مدعّمة بطبقة أقوى من الخرسانة أو الاسمنت الخالص، فكانت الحارة بكاملها تبدو أسيرة ضربٍ من الأبديّة لن يسيرَ فيها كلّ شيء الى تدهورٍ مادام الكلّ مقبوضاً عليه في هذا الشقاء: التدهور المُستَوْقَف، مُزنّراً بالاسمنت إنّما تامّاً. هو، إجمالاً، تدهور مثبَّت، « في مكانه » وسطَ الاسمنت. وكان في الحجرة مكنسة كهربائية بدلَ اليدويّة. والمروحة تُدير شفراتها من دون أن تؤنس الصغار، والكوكا-كولا مثلّجة، خارجة من برّاد في الحجرة مرئيّ. كان البرّاد يطنّ. وكانت الحياة تمرّ لافي الرفاهية بقدرما في الاذعان لمعرفتها. وكان كلّ مأأراه

نظيفاً، وفقيراً، وممتثلاً لهذه الأناقة المتقشّفة العائدة الى الترتيب الموفّق وشديد الثقة لبضع قطع أثاث زهيدة الثمن مشتراة لدى بائع الخردة أحياناً. كان سطل بلاستيكيّ يقدر أن يصبح، بفضلِ مكانه، أثراً فنيّاً. إسمحوا لي باستخدام هذه «الكليشيّة»: كانت تلك الحجرة، كمثْل محيّا فلسطينيّ، تبتسم، إنّما باكتئاب.

ولقد كان يخامرني الانطباع بانّ النضال ماكان إلاّ معلّقاً في وسَطه، لبرهة. لقد توقّفت هذه الأسْرة من عشرة أنفارٍ هنا لتجتذبَ نفَساً. وكان هذا الظاهر النهائيّ يؤكّد لي بأفضل ممّا فعل بؤس ١٩٧٠:

«حتّى تكون الحياة قابلة للاحتمال، علينا الاحتماء بهذا المؤقّت ذي المظهر الأزليّ.»

كذلك، فلاأحد أبدى اندهاشه من أنّنا لن نبقى سوى لحظات. كنّا في ضيافة شعبٍ يحبّ الوجازة، يُقال لديه الأساسيّ وقوفاً. يسمّون «مزّة» هذه المقبّلات، الحيوية والسريعة على تمهّلها، التي تسبق في الشرق الوجبات الطويلة. كانت الدقائق القليلة مع هذه الأسرة الفلسطينيّة في إربدَ «مزّة» (٩٤). لاأحد بدا عارفاً حمزة شبيهاً بالوصف الذي قدّمتُ. ولدى مغادرتنا، نهض الصهر الشابّ، الجنديّ، الذي كان صامتاً، ليصافحنا وابتسمَ لنا لأوّل مرّة. خطرَ لي أنّه راقَبنا طوال الجلسة بارتياب، لكن عندما شفّت إحدى حركاتي، على السجّادة، عن تعب الكهل فيَّ، كان هو الوحيد الذي انتبه الى ذلك، وسرعان مادسّ وسادة تحت ذراعيَ المنهكة. في الشارع، تحت الشمس، كان ينبغي أن ننطق باسم حمزة. كان الوقت ظهراً، ودلفت نضال الى دكّان بائع للخضار. كانت تحمل نظارتين سوداوَين لتخفي شهرتها. سالتْ نضال مَن يحمل، في الحارة، اسم حمزة، وله أمّ أرملة.

- إنّه هنا، مع زوجته. كانت أمّه أرملة وتزوّجت ثانيةً.

لم أنبس بأيّ تعليق، فكانت هذه الاجابة وحدها تدلّني على أنّه لم يكن حمزة الذي أبحث عنه.

«هذا حمزة زائف، قلت لنفسي. وعليه، فهناك حمزاوات حقيقيّون وآخرون زائفون. وبأيّة حال، فإنّ واحداً هو الحقيقيّ. وجميع الآخرين زائفون.» ولئن فكّرتُ بهذا، فلأنّ صورة امرأة متزوّجة ثانيةً لاتتواءم وتلك التي فرضتْها عليّ التحيّة الأخيرة للأمّ، ولاساعات زيارتي القليلة لها ولابنها. عندما يكون لأمٍّ ابنٌ كهذا فهي لاتُعيد التزوّج. كان هذا هو انطباعي الأوّل، ثمّ التالي، المبتذل إنّما شاكّاً ومقرَوناً بالحِداد:

«ربّما كانت هذه المرأة، الخمسينيّة يومذاك والوحيدة، قد تزوّجت ثانيةً لتفلت قليلاً

من بؤس بلادها ومن الأسى الناجم عن تعذيب حمزة ومصرعه. ومع ذلك، فهي كانت ربّ الأسْرة الحقيقيّ، وهل يحتاج ربّ أسْرة فلسطينيّ الى رفاهيةِ زواجٍ ثانٍ؟»

ـ أتقدر ان تدلّنا على المنزل؟

ـ طبعاً، إنّه في الجوار، وأنا أعرف أنّ حمزة في داره.

هكذا انهارت أمامي كلّ تلك القلعة المثاليّة التي يعتقل فيها الغربيّون وحتّى العرب، خائفين، متعاظمين، مختشين، صامتين، أقول يعتقلون فيها الفلسطينيّين. وبالاسترخاء نفسه الذي يدلّك فيه عطّار في [قرية فرنسيّة من أمثال] «بُوي-دو-دوم» على بيت طبيب الأسنان المجاور لبيته، قادَنا بائع الكرنب الى شارع مجاور. وتوقّف أمام الباب الحديديّ الذي لم أتعرّف عليه، لأنّ باب بيت حمزة كان في ذاكرتي من الخشب ومطليّاً بالأبيض. وبين هذا الباب الحديديّ والبيت تدلّ بعض أغصان شجريّة خارجة من السياج على وجود جُنينة صغيرة بدل الحوش. ذلك أنّني كنت أصدّق ذكرياتي، وأكثر منها دوامَ الأشياء التي أثارت هذه الذكرى، أي ما يمكن قوله كما يأتي: «مادامت ذكرياتي وفيّة، فالعالَم كذلك.»

طرقَ البائع الباب مرّاتٍ عدّة.

ـ مَن؟

ـ أنا.

بدا لي هذا التبادل لصوتين مختلفين شفرةً أو مزحة. كيف يحدث أنْ يكون حمزة هنا، وأنّ يجيب بصوت مهتزّ بهذه البساطة وبهذا الهدوء؟ هل غيّروه؟ ولِمَ؟ كيف؟

ماأنقله هنا، والذي هو منتظم أو يبدو كذلك بسهولة في القراءة، إنّما كان مختلفاً تماماً: انطباعات سريعة تتراكب فيَّ، مُحْدِثةً ضرباً من الارتجاف للزمان وحتّى للمكان، أو ضرباً من سلّم إسمنتيّ وباب من الحديد كنّا نقف أمامهما، أنا ونضال والبقّال. يااللاجراء الأدبيّ البائس! عندما أكتب: «فكّرتُ بأنّ...»، فأنا بالعكس لم أفكّر بشيء قطّ، أو بالأحرى بسيلٍ من الأفكار تنزلق الواحدة فوق الأخرى، وكلّ واحدة هي من الشفافيّة بحيث تسمح بتخمين مايشبه تناسلاتٍ بين بعضها والبعض الآخر. هكذا كانت هذه الصوَر، أكثر منها أفكاراً، تتوالى وتبدو مع ذلك متزامنة: «وإذا كان هذا فخّاً؟ والبقّال أحدَ المُخبرين؟ هل باب الحديد مقفلٌ بالمفتاح، من داخل؟ وطائرتي في اتّجاه صنعاء؟ هل قادتني نضال الى مصيدة؟» كانت صدمة يتلقاها كلّ مأأتألّف منه ترشدني. هذه الصدمة التي صارت واحداً من الأعضاء هي

التي أخطرَتْني، وآنئذٍ عاد التفكير الى دماغي بطيئاً كمالو كان ينطلق من باطن قدميّ. كان فتى وسيم، شعره منفوش وفاحم السواد، بلحيةٍ بنت يومين أو ثلاثة، بلا شاربَين، وكمَنْ استيقظَ عكرَ المزاج، يقف عند فتحة الباب. بدا مندهشاً ولكنْ مدّ لنا يده. سألته نضال عن إسمه.

ـ حمزة.

رحتُ أحدّق به، كان له من الوسامة مايكفي ليكون حمزة نفسه أو شبيهاً به، نسخة أو بديلاً لحمزة؛ كنت واثقاً من انّ هذا الفتى لم يكن هو صديقي ليومٍ واحد، الذي كان مقيماً في بيت أمّه، لكنّ هذا الشابّ كان جذّاباً بالرغم من فجائيّة ظهوره وفوضى ملابسه. وإذا كان حمزة الآخر في القبر، فإنّ هذا، بعد يومين من التبكيت والأسى، يمكن أن يحلّ محلّه في عاطفتي. كان واقفاً في فتحة الباب. ما يريدون منه؟

لاصورة أخرى خطرت لي سوى صورة الفدائيّ أو الفدائيّين الذاهبين الى المجال الاسرائيليّ في مهمّة، ولكن انفعالي في تلك اللحظة يمكن أن يجد ترجمته كما يأتي: «إنّ حفيرة مفاجئة، بأبعاد جسمٍ بشريّ، تتنقّل في الأوان ذاته معهم إنّما وراءهم، كمثْل ظلّ متأهّب لاستقبالهم»، وإلى اليوم ماأزال أشعر دائماً بكآبة مماثلة نوعاًما لمجرّد سماع اسم الفلسطينيّ. ماإن أسمع المفردة حتى تكون الحفيرة ماثلة، بل بأكثر دقّةً فإنّ اضطرابي يكون مقارباً لهذا الذي أشعر به دائماً أمام قبر جديد، ولعلّ هذا هو ماكان يُفزع، بغموضٍ، المسؤولين الذين كانوا ينهضون فجاةً، وبصورة طقوسيّة، لدى دخول شهيدٍ [قادم] (٩٥).

«كمثْل ظلٍّ»، كتبتُ، ولكنّه ظلّ غميق، ظلّ مستطيل نيلَ برفع التراب والصخر برفشٍ ومَعاول. بفضل هذه الصورة أحسب انّني أكتشفُ أحدَ مصادر فرادة الفلسطينيين وأمسكُ به أمامي. انْ يكون جميع البشر زائلين، فإنّ البلاهة الظاهريّة للعبارة لاتصدمني، ولكن إذا كانوا كذلك فإنّ قليلين يجرؤون على معرفة ذلك، ونادرون هم من يصنعون من هذه المعرفة زينة. لم يكن لدى الفدائيين هذه العادة، الشائعة في أوربا، في تثبيت سيجارة بين القحف والأذن اليمنى أو اليسرى، ولكنّهم جميعاً كانوا يعرفون الابتسام ابتسامة جانبيّة مع سيجارة ماثلة بين الشفتين؛ وكان يبدو لي انّني أرى، في الشكل المستطيل الذي يتبعهم كظلٍّ، علامة معادلة لغمزةٍ ماكرة. يتقدّم العالَم الأبيض بلا ظلّ. وهذا الفتى الفلسطينيّ رأيتُ في البدء حفيرته المستطيلة؛ لكنّي كنتُ أعرف انّ المسؤولين كانوا قد كفّوا عن إبداء الحِداد لدى النهوض.

ـ هل تعرّفتَ عليه؟ سألتني نضال بالفرنسيّة.

وهي اللحظة التي خفتُ فيها من أن أقول أنْ كلاّ خشيةَ أن يتحوّل حمزة هذا الى دبّ من المخمل لايلائم ذوقي ويُرمى على رفّ مغبرّ.

« وإذَن، فأنا حمزة من الدرجة الثانية »، قد يفكّر هوَ.

ـ إسأليه عن عمره.

ـ ثلاثون عاماً.

ـ هو شابّ أكثر من اللزوم. فلابدّ أنْ يكون حمزة الآن في الخامسة والثلاثين.

كان لنا ولاريب طرائق زارعين للقطن هبّوا للبحث عن عبدٍ آبق، أو حتّى، لي أنا بأيّة حال، هيأة نخّاسٍ سُرِقَ منه جواده الذي لم يعد هو ليميّز وَبره ولاأسنانه. وليس حتّى بالواثق من اسمه. أيّ قلقٍ قطّبَ أنفَ حمزة هذا؟ أوضحتُ له نضال عمّن كنّا نبحث في المخيّم الفلسطينيّ.

ـ أنتم في المخيّم الفلسطينيّ.

ثمّ، وقد استيقظ فجأة، ميّز نضالاً ووجدها جدّ جميلة. قال:

ـ كان في هذه الحارة ثلاثة حمزاوات: أنا، وآخر رحلَ شهيداً وحمزة ثالث، يكْبرني قليلاً في السنّ — كانت هذه هي الصدمة الثانية — وهو يعمل في ألمانيا. بيت أمّه في الشارع المجاور.

ـ مارأيكَ؟ سألتني نضال؛ ثمّ قالت لهذا الذي سادعوه من الآن فصاعداً في هذه الحكاية « حمزة الثاني »: إرشدْنا.

شرحت له نضال، حتى تبرّر له وجودَ فرنسيٍّ، أنْ هذه المرأة وابنها قد آوَياني طوالَ ليلةٍ قبل أربعة عشر عاماً. ولكوني ماراً بإربد، أردتُ رؤيتها ثانيةً إذا كانت ماتزال حيّة. وكان سنّي وتعبي المرئيّان يدلأن على أنّني لم أكن موظّفاً أردنياً يمكن الارتياب منه.

ـ إذا كنتم تتكلّمون عن حمزة وأمّه، فهي حيّة ترزق. وكما سترون، فهي حيّة بصورة جيّدة.

كان ذلك كما لو قال، مبدياً إعجابه: إنّها حيّة أكثر من اللزوم.

نزل معنا الشارع المنحدرِ بشقة ظاهريّة، ولكن زيارتنا رواحاً ومجيئاً، ولكنة نضال،

اللبنانيّة، وفرنسيّتي انا، ومظهرنا عموماً، هذا كلّه أثار بداية فضول ربّما كان قريباً من العصبيّة، وكنتُ أخشى ان يطالبنا مسؤول رسميّ عن المخيّم بإيضاحات. وكانت رؤوس، بل أجسام، تلتفت لدى مرورنا. واحسستُ بشيء من القلق: فلِمَ حسمَ هذا الفتى قراره بمثل هذه السرعة؟ ربّما كان يقودنا الى المسؤول السياسيّ عن المخيّم.

على انّ هذا القلق الذي أصفُ الآن بعبارة، كان في تلك اللحظة، في إربد، شبهَ تزيينيّ، لانّني كنت موقناً من انّ الفتى كان صديقاً. وحتى لاأبدو، بصورةٍ من الصوَر، وانا اثِبُ وَثباً، ألصقتُ [بقدَميَّ] نَعلين من الرصاص يُعيقان مرَحي.

لم يَتَجمهر حولنا السكّان. هذا مع انّ هاتين المرأتين الغريبتين عن المخيّم (ألاحظ انّني لم أقل شيئاً عن هذه المرأة الثانية، المنطفئة نوعاً ما، والتي سيُعمّق حضورها الثقة المتبادلة، لاحقاً)، وهذا الفرنسيّ، يقودهم شابّ أشعث يبدو بجلاءٍ انّه اقتُطفَ ظُهراً لدى الوثوب من سريره، اقول معَ إنّ مجموعتنا هذه كان ينبغي ان تبدو غير مألوفة. ولدى المشي في الشارع، النازل بالكاد، كنت أحسّ، من دون تشخيصٍ في تلك اللحظة، بالنفاذ الى عالَم اليف. كان صديق يقودني من اليد. لم أميّز بالطبع أحداً: مَن رأيتُ في ١٩٧٠؟ لكن لاوجهَ كان غريباً عليّ. لم أميز بصورةٍ مباغتةٍ منزلاً كنت أعرفه من قبلُ، وعندما وجدتُني قبالةَ أحد البيوت، بيت جديد نوعاًما، مع ثلاث درجاتٍ ومن دون الحوش الذي كان يتقدّم بيت حمزة، كنت واثقاً من كوني أمام البيت الذي ظللتُ أحلم به في اليقظة طوال أربعة عشر عاماً.

في أثناء النزول في ذلك الشارع، بدا لي كلّ شيء جليّاً بفضل انحدار الأرض، والزاوية التي يصنعها نعلاي والمجالَ، لابصورة فجائيّة، بل رويداً رويداً، ببداهة، وبصَبر. عندما يعود العُمي الى مكانٍ كانوا رأوه مرّةً واحدةً، فلربّما أرشدهم توازنهم على الأرض وعلاماتٌ تذهب من النعل الى كامل الجسد الذي يقرّ بكونه في حيّزٍ سكنَه هو من قبل. اشار حمزة الثاني الى المنزل:

ـ هذا هو بيت حمزة. أمّه هنا وأعتقد انّكم تقدرون ان تروها.

عندما كتبتُ: «عالَم اليف... عرفتُ انّني في داخله»، فقد كان يمكن ان اخطيء، ولكنّني لم اخطيء. إنّ الشعور، بل الانذار فيَّ، وهذه الاشارة التي هي بمثل جهوريّة هذه الكلمات: «هنا بيت حمزة، وهنا أمّه»، هذا كلّه، لمّا كان يتواصل والحكايةَ التي وصفتُ أعلاه عن لقائي بحمزة وأمّه، جعلَ كلّ شيءٍ أكيداً. كان هذا هو البيت، وبالرغم من التغيّر الحاصل فقد كان هو هذا. وفي أسوأ الاحتمالات، يمكن ان يكون هو أحد المنزلين اللذين يحيطان به، لكن لاالمنزل المقابل، لانّ بيت حمزة، إذامانزلتُ الشارع، فهو ينبغي ان يكون في اليسار.

وجاءت من محلّ آخر إشارة أخرى جدّ مغايرة. من ألمانيا. فمن رسالة داود، التي دعمتْها عبارة حمزة الثاني، كنت اعرف أنّ حمزة كان يعمل او كان عملَ في ألمانيا، وكان هذا المنزل الفلسطينيّ، في مخيّم إربد، لاأدري فيمَ، ألمانيّاً أيضاً. ولئن كنت اكتب هذا، فهو لم يخطر على بالي بالتفكير، بل احسستُ به دفعةً واحدةً كمن يحسّ بعدم نضجِ تفّاحةٍ قبل اقتطافها، عندما يرى خضرتها، بل حتى قبل أن يراها. ماكان البيت مبنيّاً بعناصر آتية من «الغابة السوداء» [في ألمانيا]، لكنّني كنتُ احدسُ بينه، بل بالأحرى بين رؤيته ورنين المفردة «ألمانيا»، بالوفاق الذي كان يعمل بأعمق ممّا قلتُ؛ كنت أحدسُ مايحدث الآن عندما نتكلّم عن ألمانيا ومفتي القدس الكبير (٩٦). كان باب البيت مفتوحاً، ودخلتْ نضال هي الأولى، وارتقيتُ أنا بعدها الدرجات الثلاث. وهي ذي نضال تخاطب امرأة مسنّة، هشّة، ذات شعر أبيض مرئيّ، مفرّق في الوسط الى شطرَين متعادلَين، مجذوبَين الى الوراء ليشكّلا، تحت الوشاح، عقيصةً لاشكّ انّها ضامرة. وهوذا مااحسستُ به:

إذا كانت هذه هي أمّ حمزة، فهي الآن في ملكوت الظلال. ولوانّي طرحتُ عليها سؤالاً مشخّصاً نوعاًما، قد تجرحها زاويته، فستذوب أمام عينيّ، وتكون امامي الفقيدةُ أمّ حمزة.

مددتُ لها يدي بحذرٍ، فلمستْها كما تبلّل قطّة أحدَ اطرافها. قالت أيضاً:

ـ إستريحوا.

وأشارت الى حجرة، قاعة استقبال صغيرة كان فيها، بدل السجّادة، اغطية ووسائد تشكّل ركناً حميميّاً نوعاًما ومريحاً. وبالمرونة التي تحتفظ بها النساء العربيّات في جميع الأقطار مهما كان من شيخوختهنّ، جلست القرفصاء أمام مجموعتنا، على الواح الأرضيّة، مستقيمة الجزء الأعلى من الجسم، تماماً، عموديّة، بقدرما تنثني ساقاها تحتها. قالت نضال:

ـ هل تميّزين هذا الفرنسيّ؟

ـ بَصري ضعيف.

ـ كان قد جاء هنا، عندكِ، مع حمزة، في ١٩٧٠.

ـ هل كان لديه آلة تصوير؟

ـ لم أملك في حياتي آلة تصويرٍ، أجبتُ.

بقي محيّاها جامداً. ثمّة احتمال كبير في ان تكون نسيَتْني. لقد تكبّدَ الفلسطينيّون وحشيّة الجنود البدو والقلق عندما كان حمزة في معكسر تاديبيّ في «الزرقاء». وأنا نفسي لم

أكن واثقاً من أنّ هذه المرأة كانت هي. ثمّ، شيئاً فشيئاً، راح ترتيب حجرات المنزل الجديد يكرّر مخطّط القديم. كانت قاعة الاستقبال التي نتحدّث فيها الآن هي حجرة الأمّ، هذه التي استقبلتْني فيها ذلك الصباح لتُعدّ لي الشاي الذي كانت هي ترفض شربَه. وأمامنا، وراء باب، كان بيت الراحة، الذي تعلّمتُ فيها استخدام قنينة الماء لأوّل مرّة، مغلقاً ومُعاداً طليه بالأبيض. وكان حمزة الثاني، الجالس هو الآخر القرفصاء، والمستيقظ أخيراً، يتطلّع إلى هذه المقابلة الغريبة كطفلٍ يُبدي إعجابه. كانت ملاحظاتنا تدّعي الحذق: أن نجعل المرأة المسكينة تنكسر، وكان كلّ واحدٍ يفكّر: «هذا من أجل راحتها، هي».

في أثناء كلّ سؤال تعيد نضال طرحه بالعربيّة، وردّ العجوز على نضال، وترجمة الردّ الى الفرنسيّة، كان لديّ الوقت الكافي للعودة الى ذاتي واكتشاف زوايا هجومٍ أخرى والبحث عن تفاصيل جديدة من المنزل القديم، والعثور عليها، وتأويلها. كان محيّا المرأة في ارتفاع محيّاي، شديد البياض، كشعرها تقريباً، الذي لاحظتُ فيه بقعاً ورديّةً عديدة، جلد القحف المُتَقشّر وبعض لُطَخ الحنّاء التي توضع في راحة يد العروس وشعرها في صباح الزفاف. قالت خفيضاً:

ـ أتذكّر أنّ ابني جاء، في فترة الصيام، يصطحب غريباً. ربّما كان فرنسيّاً. ماعدتُ أعلم.

ـ ماسم ابنكِ؟

ـ حمزة.

ـ وفي أيّ عامٍ حدث ذلك؟

ـ منذ زمن طويل. جدّ طويل. لاأعرف العام.

ـ أنتِ تتذكّرين الشهر، رمضان، لكن لاالعام.

ـ نعم، رمضان.

ـ وإذن، فلابدّ أنّك تتذكرّين مايأتي: قدّم لك ابنك، حمزة، فرنسيّاً، وكنتِ تحملين على كتفك بندقيّة...

ـ كلاّ، كلاّ، لم أملك بندقيّة أبداً.

كنتُ أخاطبها، بل كنّا نخاطبها، بحذرٍ أكثر ممّا برقّة حقيقيّة، كما يكون على الشرطة

أو قضاة التحقيق أن يتصرّفوا ببطءٍ رغم الامتعاض، عبرَ تفاصيلَ وفروق، ويعملوا على التهدئة، ويتقدّموا كما على نسيجٍ من اللِّبد، وأعتقدُ أننا قاربنا الهدفَ ذاتَ لحظة. اصبحنا، أنا ونضال وصديقتها، ثلاثة أفراد شرطة حقيقيّين. كنتُ أستعذب متعة التظاهر، وأعتقد الآن انّ كبار قضاة التفتيش كانوا يتمتّعون، كما يتمتّع الشرطة وقضاة التحقيق، بلَطافات قنّاصِ طيور. كان واضحاً من ردّة فعلها أنّ السلطات البوليسيّة اتّهمتها بأنها كانت مسلّحة.

ـ لاسلاح، متّفقون. قدّم لكِ ابنكِ فرنسيّاً. قال لكِ إنّ هذا الفرنسيّ مسيحيّ ولكنّه لايؤمن بالله.

تعالى ضحك حمزة الثاني:

ـ حمزة هو الآخر ماكان ليؤمن بالله.

ـ وقلتِ لابنكِ: إذا كان لايؤمن بالله، فينبغي أن أقدّم له الطعام.

ـ أوه، لقد أكلَ القليل. سردينة...

ـ إثنتين. سردينتين، وطماطتين وشيئاً من العجّة. وماهذا بالشيء الكثير.

ضحك الجميع، إلاّ هي. فقالت نضال، بالعربيّة:

ـ ولكنّ هذه السيّدة ترسم بورتريت جان بدقّة. إنّه في المنزل، في عمّان، منذ أسبوع، ولاياكل شيئاً.

ـ أدخلني حمزة، ابنكِ، الى حجرته. أراني حفرةً عند مقدّمة سريره، حتّى نختفي، أنا وأنتِ وابنتكِ، إذاما صارَ الجنودُ البدو قريبين جداً...

اعتباراً من المفردة «حفرة» أوقفت نضال ترجمتها. أهي حرفتُها كممثّلة وبراعتها في اقتناص اللحظة الدراميّة؟، لقد توقّفت، لكنّ صمتها راح يتواصل بنقطةِ إطالة، والحقّ، فإنّ الشطر الأوّل من العبارة قد اهتزّ، كما لوكان معلّقاً، ويبدو لي أنّه هنا بالذات كان يقبع خيطٌ بالغ الرهافة لن ينفصم أبداً. واصلت نضال من «مقدّمة سريره» حتى «قريبين جداً». وماإن اكتملت ترجمة العبارة حتّى نهضت الأمّ ومدّت لي يدها.

ـ تعالَ، ماتزال الحفرة هنا، سأُريكَها.

كان من العبث القيام بالترجمة. باقتيادها إيّاي باليد، ومن دون أن تدعو الآخرين الى اتّباعنا، وهوَ ماقد لاتجرؤ على القيام به عادةً، بيدَ أنّ حماستها كانت مرئيّة، اقتادتْني الى

الحجرة المجاورة، أنا وحدي. رأيتُ باباً أرضيّاً مربّعاً رفعتْه هي. كان صبيّان أنذرهما لغط الشارع قد دخلا الى المنزل فيما كنت مازال في حجرة حمزة السابقة، منحنياً فوق تلك الفرجة لذلك الملجأ نفسه الذي كنت أعرفُ منذ أربع عشرة سنة، والذي كان رمزاً لثقة الفلسطينيّين بي، عنيتُ ثقة خالد أبي خالد وحمزة وشقيقته وأمّه. نهضتُ متطلّعاً حولي، وقلتُ بالعربية:

ـ كانت هذه حجرة حمزة.

ـ نعم، قالت أمّه بالعربيّة.

إبتسمتْ لي قليلاً لأوّل مرّة.

أغلق الصبيّان الباب الأرضيّ بحيث اختلط وأرضيّةَ الحجرة. كان الصبيّان حفيدَي الأمّ وابنَي أخت حمزة. وكانا يخشيان أن نكون جئنا بأخبار سيئة من المانيا.

عاودتني عبارة حمزة الثاني: «حمزة هو الآخر ماكان كثير الايمان باللّه». أحسب أنّ حمزة طالما تجادلَ وأمّه في موضوع هذا الايمان، فهل كانت ياترى مجروحة في إيمانها الاسلاميّ؟ كان إلحاد الابن، المعروف، يقيناً، من قبل الجيران الفلسطينيين، والذي ربّما نجمَ عن معاشرة خالد أبي خالد، قد قُبِلَ من لدن الأمّ أخيراً. بإذعان؟، لاادري. وانْ تكون الامّ قد نطقت بتلك الاجابة، «ينبغي ان اقدّم له الطعام»، بخصوصي أنا في شهر رمضان، فهذا ممّا يعني أنّها كانت تعرف طبائع «الرّوم» [أي الغربيّين كما تدعوهم الامّ] الذين يتناولون الطعام في الشهر الحرام. لقد تجرأتْ على النطق بذلك الردّ، الذي يبدو للوهلة الأولى رائعاً بذكائه الحرّ، على حين كان ثمرة منطقية للسلوك الطائش نوعاًما لابن في سنيّه العشرين، يكتشف نوعاً من الالحاد في الأوان نفسه مع التمرّد وإهمال الأعراف الاسلاميّة. وبأيّة حال، فإنّ تلك العبارات الأولى التي وجّهتها لي الأمّ، ذلك الردّ القديم، هذا كلّه كان أقلّ ائتلاقاً ممّا حسبتُ في البدء، أنا الذي احتفلتُ به كتفهّم سخيّ، فلسطينيّ بصورة مخصوصة. لقد كفّ عن تشكيل رمز للتسامح، أو اكتشاف مفاجيء أو بطيء في نضال يقود الى الذكاء العمليّ. وهو لم يبهتْ في خاطري، بل بتّ افهم أفضل من ذي قبل المسيرةَ التي قادتْ هذه المرأة الى هذه الاجابة باهرة البساطة. كانت ماتزال فلسطينيّة، لكن كان يمكن ان تكون هي الامّ المُحبّة والمسيحيّة لابنٍ يفقد الايمان مع بلوغه المراهقة، بل ربّما سنّ الرشد، ويرغب في تناول اللحم في الجمعة المقدّسة.

ـ إنّه يعمل في المانيا.

كانت تتكلّم بصوتٍ عالٍ، ملتفتةً تارةً إلى نضال، وطوراً الى الفتى الفلسطينيّ الذي رافَقنا، ولكن جميع كلماتها، منذ تلك اللحظة، صارت موجّهةً إليه.

ـ في ألمانيا، قالت ثانيةً، كما لو كانت، بتذكيرها بالمسافة التي تفصلنا عنه، ماتزال تحميه، وتبدو كمَن يقول إنّه الى هذا الحدّ بعيدٌ بحيث لايقدر احد على إيذائه. كانت تحميه بمفعولِ سِحر.

ـ تتكلّمين أكثر من اللزوم.

صدرت الملاحظة عن أصغر حفيدَيها، صاحب الذهن الأكثر توقّداً كما يبدو.

ـ لكنّكِ لم تنسي هذا، أنّه، عندما حلّ الليل، خرج حمزة للقتال، وكان دويّ المدافع قريباً، فدخلتِ الى حجرته بهدوءٍ وحملتِ لي، أنا النائم، طبقاً عليه فنجان قهوة وكأس ماء.

ـ قدّمتُ للفرنسيّ كوبَ شاي.

ـ كلاّ، بل كانت قهوة تركيّة. هل كان معها كاس ماء ام لا؟

ـ بلى.

ـ يُقدّم الماء مع القهوة التركيّة لا مَعَ الشاي.

ـ تتكلّمين أكثر من اللزوم، عاودَ الحفيد الصغير القول.

كانت الذكريات الليليّة والقديمة لهذين الهرمَين [أنا وأمّ حمزة]، والتي ربّما كان الصبيّ يستشفّ فيها تواطؤاً لايمكن البوح به، تزعج فتوّته وكذلك احترامه لحمزة. ولقد ازداد لمعان عينَي الأمّ، وكنتُ أعرف، عبْرَ الجسد والمحيّا اللذين كانا سائرَين صوب الغياب النهائيّ، أنّني كنت بإزاء قوّة تتاكّد في كلّ ثانية وتسعى الى وضعي على مسافة؛ ماكنّا نتبادل عباراتٍ متكلّفة. كنت مصراً على النجاح في اكتشافي، وهي تريد أن تسدل على الماضي ستارَ النسيان.

ـ لاتُقدَّم القهوة لنائم.

ـ كنتِ تريدين أن أبقى يقظاً.

ـ كان البدو يقتربون.

ـ تتكلّمين أكثر من اللزوم.

الحنّاء هي هذا الخضاب الذي تُكثر من استخدامه الخطيبات العربيّات، وكذلك العرائس. وهو يزول على الجلد اكثر ممّا على الشعر. وكما قلتُ، فإنّ شعر أمّ حمزة كان أبيض وضئيلاً. وماكانت عيناي لتقويا على التحرّر من أساره. لو التفتُّ الى نضال، لَبقيَ الشَّعر حاضراً. كان رأسها فيَّ. وكانت التقشّرات الصغيرة في البشرة الورديّة مصبوغة بحنّاء لن تزول؛ فتاةٌ عروسٌ وعجوزٌ ميتة. كنتُ لاحظتُ هذا من قبل، ولكنّني كنت أتشبّث به، كمَن يتشبّث بهزيمةٍ أكثر ممّا بانتصار. إنّ انتصار الفلسطينيّين على إسرائيل في « الكرامة » لم يُنْسَ، ولكنّه أقلّ فتنةً من [مجزرة] « دير ياسين » التي يسُتعاد كلّ تفصيلٍ منها في ذاكرة كلّ واحد، ويُصار الى اكتشاف كلّ تفصيل جديد وفحصه بالمجهر، ولايتأثّر من يقوم بالفحص بحقيقة كونه انهزمَ بقدرما باكتشاف ماليسَ له من مَردّ، وبالتقاط العلامة أو العلامات الأولى للانهيار. يُعاد عَيش الهزيمة كلمةً كلمةً لأنّها تظلّ تُعاش، على حين يكون النصر معطى [مرّةً وإلى الأبد]، بلا أدنى ثرثرة ممكنة. أمام هذه الكوكبة من الأفكار العبثيّة، والمطرودة بسرعة، كانت أفكار أخرى تتداعى:

« لو [هيّأ لها] الدكتور بوغوموليتس...؟ »

« ربّما كان غاسلٌ للشّعر جديد، مصنوع من مزيج من البيض والعسل، أو مستحضَر آخر، عصريّ...؟ »

« معالجة في ماء البحر...؟ »

بقدرما كنت أتطلّع الى التجاعيد حول فمها وعلى الجبين، بتّ أقلّ معرفةً لهذه المرأة التي عرفتُها قديماً، مرحة وقويّة، حتّى أنّني، بقدرما كانت تقدّم هي لي البراهينَ على مجيئي هنا وعلى لقائنا، كنت أشكّ في أنّ هذا قد حدثَ قبل أربعة عشر عاماً. ربّما لم يكن الشكّ هو الكلمة. ولعلّ الأصحّ والأصدق هو العبارة التي ننطق بها عندما يَفسح الشكّ المجال للاندهاش: « غير ممكن! ».

إنّ قطعة من الصابون، بعد استحمامٍ طويلٍ استُخدِمَتْ فيه كثيراً بحيث فقدتْ نصف حجمها ومادّتها، يمكن ان تندهش من أبعادها الجديدة وتجرؤ على النطق بهذه الشكوى: « غير ممكن! ».

كانت ذاكرتي في الماضي ثابتة ومدموغة بصورة هذه المرأة القويّة حتى لَتحمل بندقيّة وتُلقمها وتسدّد وترمي. ماكانت شفتاها بمثل هذا الضمور ولاهذا الزوال للّون اللذين يجعلانها اليوم شبيهة بآثار الحنّاء على تقشّرات بشرتها. لم أكن شهدتُ الهزيمة بعدُ؛ كنتُ

اقيس مداها. كانت امّ حمزة قد صارت ضامرة ومسّطحة كمثْل كلّ مايُلاحَظ في الأردنّ، تلكم الوجوه ذات البُعدَين. تحت ردائها فاقد اللون كنتُ أرى التمثال الكرتونيّ المسطّح المعروض في واجهات محلاّت الأزياء بعمّان، والموجّه لإضفاء شيء من الحياة على فستانٍ كان، لكونه معلّقاً على هذه الشاكلة، يموت من دون ان يمدّ لسانه: مفاجئاً. كانت امّ حمزة بمثل تسطّح تاج الزنك الذي يعلو صورة حسين في الساحات والشوارع؛ مسطّحة كأوّل فدائيّ يموت وقد سحقته دبّابة؛ مسطّحة كالبزّة الفارغة حول تابوت جنديّ قتيل؛ مسطّحة كالاعلان...؛ مسطّحة كرغيف من خبز الشعير؛ مسطّحة كصحنٍ مسطّح.

لكنْ انْ تتذكّر بمثل هذه الجودة ذكرياتٍ عتيقة، فهذا يعني انّها تكلّمت عنها ضاحكةً مع ابنها. وفي هذه الحالة، لمَ؟ وبايّ نبر؟

ـ يعمل في ألمانيا. وهو متزوّج من ألمانيّة.

ـ تتكلّمين أكثر من اللزوم.

كان حفيدها يعدّها خَرِفة، وربّما المخيّم كلّه، للتخلّص منها ومن هذيانها. تحذيرها من نَفْسها هو الالقاء بها في الشيخوخة المعتقلة في قفص. نهضتْ، تعبى. كان يبدو عليها السام من الذكرياتِ العتيقة ومن الحفيد المشاكس، المحمّل بالشكوك، إلاّ إذا كان يريد تمثيل دور الرجل أمام ابنة الثمانين التي كانت هي تبدو عليها (٩٧). كان حمزة الثاني مايزال يتطلّع الى نضال. اكان يلقاها جميلة لأنّها جميلة؟ ام لشهرتها؟ كانت تتكلّم بالعربيّة بروعة مع لكنة لبنانية؛ العربيّة ثمّ، فجاةً، بلغة أخرى ربّما كانت بربريّة، هي الفرنسيّة. وكالكثير من النساء، كانت تحسبُ، كلّما تكلّمتْ، انّها تفكّر.

نطقت صديقة نضال ببضع كلماتٍ بالعربيّة لأوّل مرّة. بدا الاندهاش على حمزة الثاني. كانا، هي وهو، منتميَين الى المنظمة نفسها، بل اكثر من هذا الى الشبكة ذاتها، وقاما بنفس العمليّات ضدّ الخصم ذاته. وكانَ كلّ واحد قد تقدّم في العمر وغيّر وجهَه واسمَه ونمطَ عيشه، وهاهما يتلاقيان ههنا ثانيةً. وأمامنا، نحن المندهشين الآن، راحا يتناديان باسمَيهما الحركيّين ويتذكّران عمليّاتٍ عديدة. ماعادا صديقَين حديثَي العهد بل رفيقين قديمين. وباستخدامهما كلماتٍ أخرى للكلام، اصبح اندغام الزمن محسوساً في هذه الحجرة. عادت الأمّ في حين كان الحفيد الذي يكرّر اكثر من اللزوم: «تتكلّمين أكثر من اللزوم»، قد ذهبَ للبحث عنها. لكنّها كانت هنا. كانت يدها اليمنى مغلقة كقبضة، وكانت تحمل باليسرى ظرفاً مفتوحاً سلّمتني إيّاه.

ـ حمزة!

قلتُ هذا وأنا أميِّز الصورة التي لابدّ أنّها كانت ترينا إيّاه في سنّ العشرين. نظرت إليها نضال. وكذلك صديقتها وحمزة الثاني.

ـ كان ضحوكاً على الدوام، قال حمزة الثاني.

بمَ يشعر في هذه اللحظة؟ كان يحمل اسم البطل البعيد والذي ياتي الآخرون لرؤيته من بعيد، أمّا هو فماكان ذلك البطل، بل إنّ هذا الرقم «الثاني» كان يُقصيه بعيداً عنه، أبعدَ ممّا ستفعل غفليّة تامّة. ماعادَ ليشكّ في ليلتي المقضّاة في هذا المنزل، قبل زمنٍ جدّ بعيد. تعالى صوت آخر، أكثر قسوة من ذي قبل، ذلكم هو صوت الحفيد:

ـ لكن بأيّة لغة كنتما تتخاطبان وتتفاهمان؟

كنت شبه واثقٍ من أنّه كان يرى الى دنوّ اللحظة التي سيكون عليه هو أيضاً أن يقرّ فيها بأنّني كنتُ جئتُ الى هنا ولمّا يكد هو ان يولَد. ولم تنفع إيعازاته المتنطّسة جدّتَه في شيء، ولن يصبح شرطيّاً جيّداً، إلاّ إذا كان هذا السؤال الأخير-الفخّ...

نسيَ الجميع صورة حمزة وراحوا يتطلّعون إليّ بانتباه. إتّخذتُ نبراً خفيفاً:

ـ كان حمزة، كما أخبرني بنفسه ـ ترجمتْ نضال هذا ـ قد أمضى في الجزائر نحوَ عشرة شهور، من أجل تدريبه على القتال. وتعلّم هناك بضع كلمات فرنسيّة وشيئاً من العربيّة المغاربيّة. هوذا كيف كنّا نتخاطب.

ـ أمضى هناك ثمانية شهور، قالت أمّه.

ـ بل عشرة شهور.

ـ لم أعد قادرة على التذكّر، هذا كلّه جدّ بعيد.

إنتظرتْ أن تترجم نضال إجابتها، وأضافتْ:

ـ لاأقدر أن أعطيك عنوانه، ليس لديّ.

وامتدّت ذراعها اليمنى، شبه المستقلّة [عن بقيّة الجسد] في اتّجاهي، وانفتحت قبضتها. ولم يكن على قصاصة الجريدة التي اخذتُها الأ أرقام تُدعى بالأرقام العربيّة ولكن يستخدمها الجميع. وراحت تفسّر لنضال، بلاابتسام، ومن دون أن يبدو على محيّاها أيّ

شيء، لاهزيمة ولانصر:

ـ هذا رقم هاتف حمزة. تقدرون أن تهتفوا له هذا المساء. «بالأوتوماتيكيّ».

كانت تذكرة الطائرة الى عدن مهياة. لن أذهب الى هناك. كانت عدن وصنعاء، كلا اليمَنَين، مكانَين جدّ نائيين، وكانت هذه الرحلة ستبدو لي الذنْب الاكثر عدمَ انتهاء. وحالَ عودتي الى عمّان، في المساء، أدرتُ على قرص الهاتف رقم مدينة المانيّة ثمّ رقم هاتف حمزة. رُفِعت السمّاعة في ألمانيا.

ـ حمزة؟

ـ نعم (بالعربيّة).

حتى إذا كنت لم أنسَ صوته، فإنّني فوجئت برقّته، ومرّت الى جانبي هذه الفكرة مرّةً اخرى: «ليست عدالة هذه القضيّة هي التي أثّرتْ فيّ وإنّما صوابها.» لم يندهش من رحلتي الى إربد. وماكان حمزة ميتاً كما جازف البعض بدفعي الى الاعتقاد به. تَبادلنا بِضعَ كلمات بالعربيّة وبالألمانيّة التي بَدا لي أنّه يُجيد الكلام بها. وأملى عليّ عنوانه الدقيق.

لكن لمّا كان الأسوأ هو الموت، وحيداً تحت التعذيب، فليس الأسوأ بالأمر المؤكّد دائماً، إذَنْ؛ أم لعلّ الأسوأ حصلَ لأنّ حمزة لم يكن ميتاً؟

كانت فرضيّات عديدة قابلة للتفكير، وكانت هنا. مرعبة.

لكنْ دعونا نعود الى بيت إربد.

لابدّ أنّ شيئاًما قد أثرّ بالأمّ كثيراً، لأنّها أعطتنا القصاصة الوحيدة من الجريدة التي كان رقم هاتف حمزة مكتوباً عليها. كانت قصاصة تركت عليها الأصابع بصمات عديدة؛ وإذاما اخذناها فسنقطع الخيط الموصل بينها وبين ابنها. ذكّرتُها بذلك، ولكنّها كانتْ مرّةً اخرى من التعب بحيث لاتقدر أن تفصحَ عن اضطرابها أكثر؛ ولقد بدا لي أنّ كونها قد تجرّأت على هذه الهبة قد أنهكها نهائيّاً. سجّلتُ رقم هاتف حمزة على دفتر نضال وأعدت الى الأمّ القصاصة المتّسخة.

ينبغي أن أعود الى ذلك النزول للشارع المنحدر الذي بَدا لي فيه أنّني كنتُ أدخلُ الى عالَمِ أليف. طويلاً فكّرتُ بذلك الشارع، بالباب الأبيض في الحوش الصغير، وماكان ذلك الشارع في ذكرياتي منحدراً بل مستوياً. هكذا وصفتُه للمدير الفلسطينيّ لفندق «أبي بكر»، في إربد أيضاً، إنّما قريباً من الجمارك، في ١٩٧٢. ولقد نصحني بعدم الرجوع هناك.

ـ اريد أخباراً عن حمزة وأمّه.

ـ كان عبور الحدود عليك شاقّاً. لم تكن الشرطة راغبة في حضورك. وفي هذه اللحظة يحسبونك في عمّان أو في الطريق المؤدية إليها. فإذاما وجدوك في المخيّم الفلسطينيّ في إربد أعادوك الى سوريا، وسيكون هذا كلّ مافي الأمر بالنسبة إليك، لكن بدخولك الى منزل يراقبه الجيش الأردنيّ ولاشكّ، ستُعرّض للخطر اشخاصاً متّهمين من قبل بالانخراط في الحركة الفدائيّة، وتُعرّض للخطر فدائيين جازفوا بتمريرك، وتُعرّضني أنا للخطر مادمتُ وَعدتُ الشرطة بمراقبتك حتّى مغادرتكَ عمّان.

وعليه، فلم أقترب من المنزل، لكنْ وصفتُه للفدائيّ في الفندق، فوَعدني بأن يحاول أن يعرف. لم يعرف شيئاً. أو نسيَ. كان الكثير من الفلسطينيّين قد تعرّضوا للتعذيب.

«بقي طويلاً في معكسر الزرقاء. كان جريحاً وتعرّض للتعذيب. في الساقين والركبتين.»

وإذَن، فإنّ شطراً من رسالة داود كان مصيباً.

الأمّ، ضاحكةً فجأةً، درداء تماماً، وفيما تشير إليّ:

ـ لقد أضحَكنا الفرنسيّ، فقد اقترح عليه حمزة استخدام مشطه، فقال له إنّه يمشّط شعره كلّ صباحٍ باستخدام منشفة مبلّلة.

ـ هذه بالفعل إجابة حمقاء لايمكن أن تصدر إلاّ عنّي.

لكن في أيّة لحظة فكّرتُ بذلك؟ ماعدتُ لأعلم: «إذا كانت تتذكّر هذه العبارة بمثل هذه الدقّة، فلابدّ أنّها تتذكّر أيضاً أنّني لم تكن لديّ آلة تصوير. والصورة التي رأيتها منذ وهلة ترينا حمزة في سنّ العشرين لافي سنّ الثانية والعشرين. وهي تعرف أنّني ماكان في مقدوري أن أصوّر حمزة قبل دخولي الى بيتها».

ـ مَن التقط هذه الصورة؟

ـ خالد ابو خالد.

تيّقنتُ آنئذٍ من أن كلامها عن آلة التصوير كان طُعْماً. عبرَه، كنت ساسقط في الفخّ، ويُكتشَف الكذّابُ وتمتنع هي عن قول أيّ شيء. للكذب أحياناً امتيازات وفتَن مابرحتُ

أحبّ اللعب معها، ربّما هنا أيضاً وأنا أؤلف هذا الكتاب؛ لكن في إربد كان الكذب سيتسبّب بضياعي. إنّ تردّداً، تردّداً واحداً، كان سيدفع الأمّ الى الارتياب. وهي اللحظة التي رأيتُ فيها على أفضل نحوٍ ذلك الوجه الصغير الشاحب، منزوع اللّون كمالو كانوا غسلوه بماء مُطهّر، والمدموغ ببُقع الشيخوخة البنيّة، بتقشّرات، وبقايا حنّاء؛ وماكان ذلك الوجه النحيف الضيّق والواسع في آنٍ سوى الشكّ والدهاء والخشية والتحدّي مجتمعين. وبتذكّري، بحدّة، استقبالها بالغ الثقة في الماضي، كنت أقيس الزمن المنصرم بين ١٩٧٠ و١٩٨٤، والذي كانَ زمنَ عذاباتٍ ونَهَك، حتّى لقد حوّلَ هذا الذكاء الجميل الى ضدّه: الارتياب المتحوّط. أفتَراها ستنال، وقد طوّح بها الشقاء لكن لم يطفئها، الزمنَ الكافي لتعودَ كما كانتْ؟

لكنْ هل ماصارتْ عليه هزيمةٌ، أخيراً؟ لاشكّ انّ آلاماً عصبيّة كانت تعذّبها، فطالما كانت تحكّ وركيها. لكن، مرّة أخرى، لمَ أحسستُ، لدى نزول ذلك الشارع، بأنّ المكان كانَ مألوفاً عندي؟ ساغامر بتفسير. كنتُ، في ١٩٧٠، عشتُ نصف النهار ذاكَ والليلة الكاملة تلك في تحمّس داخليّ كبير، أقصد غير مرئيّ من قبل مَن كانوا ينظرون إليّ، ولابدّ أن يكون المكان انطبعَ فيَّ. وكما يحدث، عندما نحكّ على بطاقة اليانصيب الحاليّة «تاك أو تاك» رقعةً بيضاء، أن يظهر مبلغ يُفازُ به، فإنّ المكان والشارع قد عاودا الظهور لاتحتَ عينيّ اللتين ماكانتا تميّزان التفاصيل، وإنّما في تلك التشكيلات التي لم أكن حتّى قد انتبهتُ إليها في أثناء إقامتي، والتي احتفظَ بها مخيّم إربد. ولدى نزولي الشارعَ بعد أربعة عشر عاماً، عرفتُ أنّني كنتُ ارتقيتُه قبل أربعة عشر عاماً. وكلّ ماأكتب هنا يبدو لي زائفاً. ربّما كان ماياتي هو الأصوَب:

في ١٩٧٠، في كانون الأوّل/ديسمبر كما أعتقد، خرجتُ بعدَما شربتُ الشاي في حجرة الأمّ التي كانت بصدد تهيئة طعام العشاء. رحت صاعداً الشارع وسطَ سعادة نعاسي وعودة حمزة متعباً لكن غير جريح، وماكان الانذار الثاني قد أُطلقَ بعد. قلتُ، قربَ حنفيّة عموميّة، صباح الخير لعجوز فلسطينيّة كانت تملأ سطلاً بالماء. لم أعد أعرف بمَ ردّتْ عليّ، لكن بعدَ دخولها الى منزلها خرج شابّ مايزال في منامته وردّ على تحيّتي وسألني أوراقي. فتّشتُ في جيوبي بشيء من الاستياء، ومددتُ له الترخيص بالمرور الذي كان كتبه لي عرفات. إنّ هذا الحادث الذي لاأهمية له (لاأهميّة له في أماكن أخرى) قد جعلني، بعدَ حرارة منزل حمزة، أرتاب من السكّان الذين صاروا متوجّسين. ولدى عودتي في ١٩٨٤، تذكّرتُ في هذا الموضع الحنفيّة العموميّة قبل أيّ شيء آخر. لست بالواثق من أنّ الأمر كان ذلك، لكنّ كلّ شيء سيزداد بفضله وضوحاً بالنسبة إليّ. كانت صورة تلك الحنفيّة ماتزال هنا؛ وفي كلّ مرّة

أفكرّ فيها بحمزة كانت هذه الحنفيّة حاضرة، في مايُدعى في السينما بتراكب الصوَر، وإنّ آثار المهانة، ماأهانَنا أو آذانا، لَتعود بأسرع من آثار اللطف. من النادر أن تُستَحضَر ذكريات الاهانة إرادياً، بل بالعكس نعمل نحن على إبعادها. ومإإن نستحضر لحظات السعادة حتّى تبرز آثار شقاءما، وإنْ يكن عابراً، أو متخيَّلاً، تذكارات ملحّة وثابتة إجمالاً. ماكانت كلّ حنفيّة عموميّة تذكّرني بالأذى القديم، ولكنّ كلّ تذكار سعادة يعيدني الى الحنفيّة العموميّة. الحال، كانت ماتزال هنا، في إربد، ولقد رأيتُها. كانت ماتزال في تفرّع شارعَين، هذا الذي يقود الى الطريق، والآخر الذي يقود الى شارع حمزة. واليوم، إذ أكتب هذا، فإنّني لاندهش لأنّي لم أهتفْ كما فعلتُ لدى رؤية صورة حمزة: «الصوى! الحنفيّة!»

قلنا، كأنّما بصوتٍ واحدٍ:

أنا: في صباح اليوم التالي، ذهبتُ الى دمشق.

هي: عندما عاد حمزة بعدَما صاحبَ الفرنسيّ، قال لي إنّه أركبَه في الباص الذاهب الى دمشق.

قرّرتْ مخاطبتي مباشرةً بعربيّة كانت نضال تترجمها بصوتٍ خفيض:

ـ أنتَ ترى مانحن عليه. كنّا في اسبانيا، وهولندا، وفرنسا، ولندن (ليلى خالد)، والسويد، والنرويج، وتايلاند، وألمانيا، والنمسا.

وأنا أسمع هذه الكلمات [كما تنطقها]: «سبانيا»، «لنديا»، «فرنسيا»، «غيلتيرا»، «تيلاند»، «مانيا»، رأيتُ بكامل الدقّة الرمزَ الشعبيّ لكلّ بلدٍ تذكره الأمّ. أكانت، لدى سماع هذه الأسماء في المذياع، سألَتْ عن الفضاء الجغرافيّ الذي ينشط فيه الفدائيّون والذي فكرّت بانّ ابنها كان يفجّر فيه قنابل؟

سباقات الثيران، قنوات أمستردام، برج إيفل، التايمز، الجليد («الثلج» بالعربيّة، أو «التلج» كما كانت الأمّ تردّد بانسحار)، مَجالد القُطب، بوذا الذهبيّ، فرانكو، هتلر، رقصات الفالس... كانت هي قد غزت العالم انطلاقاً من منزلها، جاعلةً حمزة يتنقّل فيه، وكنابُليون في جزيرته، كانت تتذكّر، من أجل «لاس كاز» [أو راويةٍ] (٩٨) على مقاسها، هذا العالَم المغزوّ ثمّ المفقود. واستأنفت القول:

ـ في إيطاليا، والمغرب، والبرتغال، والآن أين نحن؟ في دوسلدورف. ولقد جاء يابانيّون

من طوكيو ليقتلوا، بدلاً عنّا، اسرائيليّين في تلّ أبيب.

ـ هل اشترى لك حمزة هذا التلفاز الملوّن؟

ـ هو صغير وعيناي معطوبتان. أستمع إليه ونادراً ماأشاهده. إلاّ أمس، بالرغم من الغيمومة في عينيّ، لأرى [ذلك الرجل] جاثياً على ركبتيه يصلّي من أجل الشيخ.

ـ أيّ شيخ؟

ـ جدّه الذي اغتيل لدى خروجه من جامع في القدس. هل تسمعني يافرنسيّ؟ طويلاً بعد موته، مايزالون يصلّون لاستدرار عطف الخالق، وليُنجيّه مع ذلك.

كنت، لدى خروجي من هذا المنزل، أعلم أنّني عرفتُ، منذ السبعينيّات، الشّعرَ إلى جانب الفدائيّين: ثقة كاملة يسهر في داخلها تحوطّهم. ولقد شعرتُ بالخوف عندما احسستُ بالهواء الساخن للخارج وهو يلفح وجهي. بَدا لي أنّ كلّ شيء في هذا المنزل قد عيشَ في الحلم. خفتُ على الأمّ، وعلى حفيدَيها، وعلى حمزة الثاني، وعلى حمزة نفسه. لايمكن أن يكون دخولنا المخيّمَ ورواحنا ومجيؤنا قد مرّوا من دون أن يلحظهم أحد. قالت لي نضال:

ـ ظهور رجلٍ آتٍ من الشمال، بالغ الهرَم، في هذا المكان المنسيّ، وهذه الحكاية المرويّة على هذه العجوز البادية عليها السعادة لأنّها أفلحت في تفادي الفخّ المنصوب من قِبَل الأجنبيّ الآتي ليقول إنّه تمّ إيواؤه هنا قبل اربعة عشر عاماً، والى يمينه امرأة شابّة جميلة وشقراء تبدو من الشمال وتتكلّم بعربيّة جدّ جميلة مع اللكنة اللبنانيّة...

هل خفتُ؟ غطّاني بالفعل عرَقٌ من التخوّف جدّ خفيف. ماكان بقيَ شيء من الارتياب كلّه الذي حدّثوني عنه في بيروت والرباط وعمّان. وحدها الصورة، لكن أين كانت هذه البوتقة قائمةً فيَّ؟: كانَ شيء من الطحلب قد نَما في شقّ حجرٍ من الغرانيت أو الخرسانة. إنّ بعض الغُبَيرات، وجذور شجرة تين ناشئة، لَقمينة بأن ترفع الحجر، برقّة أو بشراسة، وتشطره؛ كانت هذه الصورة تواجهني، لابنصاعة، إنّما بالغيمومة نفسها التي كانت تتجلّى لي فيها، بالأمس، الحنفيّة العموميّة، ذهنياً.

إجتزنا ثانيةً المخيّم، شبه الفارغ لأنّ جميع الناس كانوا بصدد تناول الغداء، يرافقنا الحفيدان وحمزة الثاني الذي باحَ لنا هذه المرّة، ضاحكاً، بل ربّما بشيء من النفاجة أيضاً، بأنّه كان فدائيّاً. ألقى بعض الفتّية الفلسطينيّين التحيّة على حمزة الثاني الذي كان يردّ بابتسامة

نائية، ابتسامة حمزة الحقيقيّ قبل أربعة عشر عاماً، إنّما، إن أمكنني القول، وأنا أتكلّم عن ابتسامة حمزة الأوّل، مع ابتسامة الثاني.

عندما وصلنا الى سيّارة نضال، أهملَ حمزة الثاني يدي الممدودة له وعانقني باحتفاليّة وقبّلني مرّتين. وقام الحفيدان، مبتسمَين، بالشيء نفسه، ربّما بحرارةٍ أكثر. ثمّ صافحا نضالاً وصديقتها.

من أين أمكن أن يأتي للأمّ كلّ هذا النشاف والارتياب؟ لّما كان النشاف يدفع، بغموضٍ، الى التفكير به كجدولٍ ناشفٍ، ففي أيّ نبعٍ ناشفٍ اتّخذتْ هي ياترى مجراها؟ ماكانت الاستعارة لتساوي شيئاً. لاصورة ستقدر أن تهب انطباعاً أفضل ولاحتّى مُعادلاً للمفردتين: «ناشف» و«نشاف». ثمّة فيهما غياب لكلّ مايذكّر بالتيّار، بسائلٍ في حركة، ماء يجري، ينطلق من نقطةما ليسقي محيطاً؛ بل بالعكس، إنّ كلّ مافيهما، كما في الأمّ، ثابتٌ، ساكنٌ، ناشف أخيراً. لم تأتلق نظرتها أبداً، وكان الألق سيوحي بأنّ حركةً في داخلها قد أشعلتِ العين. إنّ أيّ صبيّ سيقول عن مصباح منطفيء إنّه لم يعد فيه من ضوء (٩٩)، إلاّ إنّ المفردتينِ «ناشف» و«نشاف» تُذكّران بالمَحْل، وبأرضٍ عقيم. لعلّ تمطيط المفردات والاختيار والاستعمال والاستنزاف الذي مارستُه أنا عليها، يعبّر عن العُسر الذي لم أكن لأجرؤ على الاقرار به في قرارة نفسي: بأيّة شاكلة مرّت تلك السنوات الأربع عشرة حتى تصنع من امرأة جدّ جميلة وفخمة هذه التي لم تكن أمامنا سوى توجّسٍ ومكْرٍ؟ سوى مكرٍ...، ذلك أنّ إهداءها إيّانا القصاصة الحاملة رقم هاتف حمزة بدا لي، خصوصاً، نتيجةَ أتعابٍ مفرطة. وإنّ صيغة الجمع الأخيرة لمهمّة. كانت بالأمس فرحة في ممارستها الدفاع بالبندقيّة مثلما في اعتزازها بابنها؛ أمّا اليومَ فإنّها ناضبة.

حتى إذا كان النسرين زهرَ الرومانطيقيّين وربّما رمزَهم، فإنّه ليَكاد أن يكون من الطبيعيّ أن أؤْثرَ الثمارَ على التويجات؛ يهَب النسرين الورديّ ثماراً حمراء متوهّجة، حارّة، تُدعى بـ«الورد البريّ»، ويدعوها الفرنسيّون حرفيّاً بـ«حكّاكة الاست»، لأنّ غلافها المطّاطيّ نوعاًما يضمّ بذوراً هدباء: يكفي أن آكل منها واحدة أو اثنتين حتى أشعر بالحكّة في مؤخّرتي. وعندما تسقط تويجات النسرين فهي تدَع الثمرة تظهر، صغيرة في البدء لكن جدّ مرئيّة لأنّها حمراء حمرة ذكَر الكلب المغتلم، قَزم يبحث عن كلبته. تنفصل عن النسرينة خمسة تويجات، واحداً بعد الآخر، واحداً كلّ يومٍ تقريباً، وتسقط: فيظلّ شوك. هكذا تعرّت الكنيسة ببطءٍ أمامي، لتعلمني أنّه لامن نهر الأردنّ بل من الحنفيّة يأتي ماء العماد الآسن؛ وأنّ

ولادة عيسى المسيح لاتعود الى العام الأوّل؛ وأنّ خبز القربان يمكن ان يعلكه فم ملتاث من دون أن تحدث معجزة جهنّمية؛ وهكذا دواليك. وكذلك بالنسبة الى الامّ. ماكان ابنها ميتاً. وماكان وحيداً. كان لديه هو نفسه ابن. وماحسبتُه هفوةً للذاكرة إنّما كان حيلة، بقْيا حيلة. كان لحمزة شقيقان، يكبرانه سنّاً؛ ولجهلي ذلكَ كنتُ أجهل الحنان الذي كانت الامّ تمحضهما، والذي ربّما كان يعادل حُنوّها على حمزة. من أين ينبع إلحاد حمزة؟

«حمزة نفسه ماكان كثير الايمان باللّه»، كان قد قال حمزة الثاني.

لمَ لايكون ذلك نابعاً من شقيقَيه؟ ماكان، بعدَ طويلِ تأمّلٍ، قد بقيَ من الامّ شيء كثير: بعض التقشّرات الملطّخة بالحنّاء، وكومة عظام، ووجه شاحب يشي بجنس امرأة، وكنزة رماديّة، أي أشواك النسرين من دون التويجات، أو الكنيسة منزوعاً عنها ذهبها.

كان الجَرْي وراء الذهب يحدث في كلّ ثانية. هذا ماااكتشفته في كنيسة قرية فرنسيّة صغيرة. كانت الشمعدانات من الذهب، ذهب عتيق مادامت تُرى عليه بقع الصدأ البنيّة. أشياء مقدّسة لأنّها عناصر عبادةٍ، جدّ مفيدة للمجازات. ولقد سخرَ منّي بنّاء في القرية، فلّما كانت الشمعدانات مذهّبة، فقد عرفتُ في ذلك العام الفارقَ بين المصفّح بالذهب والمطعّم بورق الذهب والفضّة المذهّبة والذهب الخالص، إلخ.، ولكنّ الخوريّ نفسه سخرَ من البنّاء إذ باحَ لنا بأنّ الشمعدانات كانت من التنك المغطّى بطبقة رقيقة من أحمر النحاس. هذا النزول في جحيم التبر، وفي شحّة اللّه، أحالني حذراً في البدء، قرفاً فيما بعد. إنّ جميع قطع الأثاث هذه، من طراز عصر النهضة ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر وعهد الوصاية ولويس الخامس عشر ولويس السادس عشر والامبراطورية ولوي-فيليب والامبراطوريّة الثانية، المصنوعة في كاراشي، كانت كلّها من الخشب والفضّة والصدف، ولكن مذهّبة جميعاً من علٍ الى سفل. كانت هذه هي شقّة ممثّل الأمم المتّحدة في بيروت. كان أمرَ بجلبها من داره، من القصر الباكستانيّ، داخلاً وخارجاً، مذهّبة من قبل كما افترضُ وشبيهة بمعبد السيخ المدعوّ بالمعبد الذهبيّ. كان يسكن في الطابق الحادي عشر من البناية، في بيروت، وأنا في الثامن. دعاني لتناول القهوة، فدُهشتُ بهذا الذهب يكسو أثاثاً بالغ القبح وبالدعوة. أثاث من الذهب، ولمَ الدهشة وأنا العائد من كاراشي المزحومة بباصات يبدو فيها كلّ شيء، إذْ تنظر إليه، مشدوداً بحبال من الحديد، باصات وعربات بثلاث عجلاتٍ منزوعة الغطاء، مصفّحة بالذهب أو بورق الذهب، بورق الفضّة أو الألمنيوم الذي يهيمن فيه اللون الأخضر، والأحمر، والاصفر، كلّ لونٍ يتسلّق الألوان الأخرى والذهب يهيمن على الكلّ؟ في بيروت، كانت قطع الأثاث المذهّبة تلك، بالغة السعادة لعرضها نفسها عليٌّ، تتطلّع الى البحر.

ولئن كان الرجل يخشى، كجميع سكّان بيروت، سقوط قنبلةٍ، فإنّ الفته لكبيرة. أبداً لاينبغي ان يدعوني سفير للأمم المتّحدة.

كانت فتاة فلسطينيّة جميلة نوعاًما تقيم معه. عندما رأتني في المكتبة العربيّة بباريس خشيتُ ان اتذكّر وجهها، فقد كانت الدعوة آتية منها. امّا الباكستانيّ، وكان يجهل العربيّة تماماً، فماكان يتكلّم الاّ بالانجليزيّة او الفرنسيّة. كانت هذه هي المومس الفلسطينيّة الأولى وربّما الوحيدة التي رأيتُ. قالَ لي: «كلاّ، لم أرَ الجنرال شارون. ربّما كان قريباً من العائلة، لكن لم أدنُ منه. لايدخل في عداد وظيفتي أن اصافحَه».

عدتُ في ١٩٨٤ الى شاتيلا، وكان المنزل الذي اقتادوني إليه مدمّراً، ومعاداً بناؤه وطليُه. قدّمت لي النساء الشاي. عرفتُ منهنّ اربعاً، ربّة المنزل وامّها وابنتيها الصغيرتين. كان الجميع، الاّ الصبيّ ابن عشر سنواتٍ، قد جُرِحَ في ١٩٨٢.

ـ مايزال الرصاص وشظايا القنابل في أجسامنا.

عرفتُ منهنّ انّ شعور النساء بالعار لاياتي من كونهنّ جُرحنَ بقدرما من إيواء شظايا إسرائيليّة في أجسامهنّ، فيشعرن على هذا النحو بأنّهن مهدّدات بولاداتٍ ممسوخة. أكثر منهنّ جريحاتٍ، كنّ مغتصَباتٍ بلا أمل.

ـ تُواصل الشظايا مسيرتها. تحيا حياتّها في اجسادنا، وكذلك، وهذا هو الأسوأ، مع اجسادنا.

بضع قطع اثاثٍ اوّلية، كرسيّان بمَسندَين، آتيان لاادري من اين، وأريكتان من الأصل نفسه، وطاولة منخفضة، وعلى الحيطان صوَر الراحلين او بورتريتاتهم المخطّطة او المرسومة بسذاجة؛ ماكان المنزل، في عُريه هذا، نظيفاً فحسب، بل كان كلّ مافيه مرّتباً برهافة، وباناقة ينبغي أن يغار منها المرء لأنّ ذلك المنزل، الذي هو ثمرة مجازر وانقاض، والمؤثث بالحطام، كان يوفّر الطمأنينة وسلام القلب؛ ولقد بَدا حمزة وعامّة الفلسطينيّين وهم يحملون معهم هذا السلام الذي رأيت فيه الى مابقيَ من اناقةٍ في نبر الأصوات، وفي الطرائق، والهندام، هذا كلّه الذي يتمخّض عنه ميراث أرستوقراطيّة للشعب عريقة، ومنسيّة. ولقد رأيت الكثير من أمثال هذا المنزل، وهذه العائلة، في صبرا، وفي شاتيلا الخربة، وفي مخيّمات اللاجئين في الأردنّ. تقشّف الفلسطينيّين، وأناقتهم، بُحَيرات نرويجيّة.

قبلَ طردي من عمّان في ١٩٧٢ بيومين، شاهدتُ مع ذلك استعراضاً لوكنتُ عرفتُ كتابته لكانَ أتاحَ لي صفحةً ساخرة. فبعدَ وصولي الى «فندق الأردنّ»، ومع أنّي كان لديّ الوقت الكافي للذهاب الى البتراء والعودة منها، انتظرتُ طويلاً عودة الفلسطينيّ الذي كنتُ اتّصلتُ به. كانت قاعة استقبال الفندق لي وحدي، فالجميع تقريباً، إلاّي، كانوا مدعوّين الى حفلتَي «الكوكتيل» في قاعتَي الطابق تحت-الأرضيّ، اللتين لم أذهب إليهما قطّ. هنا تبدأ غرابة الواقعة والمكان، مع لافتتين موضوعتَين في بداية سلّم مزدوجٍ نازلٍ الى قبوين شاسعين، ربّما كانا مترعين بالزخارف والخطوط، واللافتتان محرّرتان إحداهما بالانجليزيّة والڤيتناميّة: «العيد الوطنيّ لڤيتنام الجنوبيّة»، والثانية بالانجليزيّة، بهذا الخطّ «المُتَناعس» شبْه الفارسيّ، وبالعربيّة: «العيد الوطنيّ لأمارة أبي ظبي»؛ لافتة مخطوطة على شرف بلدٍ لن يعود قائماً بعد بضعة شهور، وأخرى على شرف بلدٍ لم أرَه أبداً ولايشكّل بالنسبة إليّ أكثر من صحراء رمليّة تتخلّلها بضعة آبار. ومن ركنٍ في الأريكة السوداء التي كنت أترصّد منها، لاتفارق عيناي الباب الضخم لقاعة الاستقبال حيث كنت أنتظر رجوع الفلسطينيّ، رأيتُ بداية هذين الحفلين، بصورة شبه متزامنة.

كان سفيران يبدو أحدهما جاهلاً الآخرَ (وكم آسف على الثوبَين: الڤيتناميّ بلون سماء مذهّبة، و[دشداشة] العربيّ، البيضاء المطرّزة) ينتظران المدعوّين لمصافحتهم قبل نزول السلّم المزدوج المفروش بسجّادة حمراء مزدوجة، وكان بديهيّاً أنّ هؤلاء المدعوّين، المكوكَبين بميداليّات وأشرطة، والشبيهين بسوائل أوعية مستطرقة، سينتقلون من أحد الحفلين الى الآخر، من القبو العربيّ المذهّب الى القبو الڤيتناميّ المُسَمَّر [من «السّمرة»]، ولكنْ بين باب قاعة الاستقبال والسلّم المزدوج المفضي الى القبو المزدوج حدثت شعيرة غير مخطّط لها ومنعت سفيرَي البلدين المحتفلين من اجتياز قاعة الاستقبال. كان أمناء السفارات، في زيّهم الرسميّ متعدّد الألوان ونسائهم في الثياب الحريريّة، والقناصل مع نسائهم بثيابهنّ الدنتيليّة، والعزّاب في سترٍ أو ملابس تضفي عليهم مسحةً من البلاهة، يتعرّضون، كجميع الدبلوماسيّين الآتين للحفلين، للتفتيش من قبل ستّة أفراد شرطة لايسمحون بالدخول الاّ لزوجين اثنين كلّ مرّة. كان سفير إيطاليا أوّل الداخلين، وكمن يودّ أن يُدغدَغ إبطاه، جاءَ مادّاً أمامه ذراعيه. جسّه شرطيّ أردنيّ من ياقته حتّى جوربَيه؛ ثمّ تقدّم سفير إسبانيا، الذي لم يطرح عليه الشرطيّ يديه أبداً، متظاهراً بنفض ثيابه لاأكثر، تكريماً لحكومة فرانكو التي رفضت الاعتراف بدولة اسرائيل؛ ثمّ سفير اليابان، ففتّشوه؛ وسفير ساحل العاج وعقيلته، ففتّشوهما بالرغم من فستان الأخيرة الأفريقيّ ذي الطيّات؛ وسفير هولندا، ففتّشوه؛ وسفير البرازيل، ففتّشوه؛ وسفراء

آخرون، موجات من سفراء آخرين، فتّشوهم؛ وآخرونِ أكثر ازدياناً ولمعاناً بأربطة العنق والميداليّات؛ أمّا أنا فلم يقل لي أفراد الشرطة شيئاً. كنت، من على أريكتي، لاتفارق نظراتي الباب الاّ لرؤية التكريم الصامت يقدّمه السفيران، الڤيتنامي الجنوبيّ وسفير الرمال العربيّ، لأعضاء السلك الدبلوماسيّ الذين كانوا يتكبّدون من اعلى الراس حتى اخمص القدم مداهمة رعيلٍ من الشرطة كان هنا منذ ساعات. على أنّ شيئاً من التعب انهال على استعراضي، وماكان نابعاً من حركات الدبلوماسيّين، التي كانت دائماً رشيقة ومشيقة، ولا من نسائهم، اللائي كنّ يدخلن، مثلهم تماماً، بمنتهى الطبيعيّة، كما لوكان طبيعيّاً أن يتعرّض دبلوماسيّ، لالشيء إلاّ لإمتاع فرنسيّ غير مرئيّ في عمق قاعة الاستقبال، الى تدليكٍ لمابين فخذيه وإبطيه وحتى باطن القدم تقريباً؛ بل كان التعب ملحوظاً في حركات افراد الشرطة الرياضيّين وأصحاب الشوارب الذين أرهقهم الانحناء والاستقامة بلا انقطاع، لجسّ النّعال أو السيقان أو الجيوب أو الأكتاف. وفي مايشبه وفاقاً غير مرئيّ، انقسم هؤلاء الشرطيّون الستّة الى ثلاث فرق، اثنين اثنين، زوج يظلّ قائماً، فيما يتموضع الثاني أمام السفير، والثالث وراءه. كان الشرطيّون، وقد وجدوا أنفسهم طلقاء، قد ابتكروا الستاخانوفيّة (١٠٠). إذا ماأردتَ أن يكون غرْقَد البيضة [بياضها المحيط بالمحّ] طيّباً ولائقاً خصوصاً، فعليك أن تكسر القشرة على صحن مدهون بالزبدة مسخّن من قبل، فيتجرّد الغرقد من شفافيته ولزوجته ويتحوّل الى ضرب من ميناء [الحجر الكريم] جدّ بيضاء حوافّها محدّدة بهدبٍ أسود خفيف، وهي اللحظة التي ينبغي فيها تقديم البيض. وإذا كان البيض طازجاً، فغالباً مايتراوح غرقده بين الأبيض المصفرّ والعاج. وهو لايدين بعذوبة لونه شبه الدهنيّة لنفسه بل لمجاورته ميناء أخرى خضراء اللون، حمراء أحياناً، لكن خضراء خصوصاً. والميناء، كمثْلِ غرقد البيض في الصحن، تبدو منفوشة قليلاً، إنّما من دون أن يبلغ ذلك حدود الانتفاخ. وكانت ميناء بيضاء أيضاً، تنطوي على الميناء الخضراء لصليب شارل الثاني، هي التي كان يحملها السفير الاسبانيّ. كما رأيتُ، إنّما لاحقاً، في آب / اغسطس ١٩٧٢، بياضاً أقسى على صليب وسام جوقة الشرف يعرضه صدر سفير فرنسا في عمّان. وكان الملحق العسكريّ قد علّق على صدره ميدالية المقاومة الفرنسيّة. ولاحظت أنّ رهافة الميناء، أيّاً كان لونها، آتية من تفصيلَين. أوّلاً، من الانتفاخ الخفيف للميناء المنحدرة صوبَ حوافّها، ثمّ من شبكة رهيفة، شبه غير ملموحة، من التصدّعات التي ربّما كانت ناجمة عن «طبخ» الميناء، ممّا يجعل كلَّ قشْعٍ لؤلويّ، إذاما نحن فحصناه بالعدسة المكبّرة، يغنم مانكتشف لدى [الرسّامَين] شاردان وڤيرمير بالعين المجرّدة. كنت أدوّن الحساب في رأسي كما استطيع، من بلدان أوربا الشرقيّة التي كانت ترفض الاعتراف بڤيتنام الجنوبيّة الى سفير المغرب الذي راحت تتجوّل على جسمه أيادٍ ضخمة؛ أو على جسم سفير ألمانيا الاتحادية؛ أو سفير السويد. وَفَرتِ الأيدي القاصدَ الرسوليّ، لكن ربّما بفضل صليبه الصدريّ

أكثر ممّا بفعل ذهول تلك اللحية البيضاء على نسيج المخيَّر القرمزيّ؛ ولم ينعم القاصد الرسوليّ حتّى بنفض الغبار المزعوم الذي حظي به سفير اسبانيا. ثُم لاح سفير فرنسا، ممثّلاً، كما أفترض، فرنسا الأزليّة. ولقد قبلَ سعادته، الحامل وسامَ جوقة الشرف في عنقه، بجثو الشرطيّ امامه، وبصعود اليدين القويّتين على امتداد ساقيه وفخذيه، ومناوبة الشرطيّ على الظّهر المقدّس مع ذلك، فيما كانت حرَمُه تتشبّث بحقيبتها اليدويّة منتظرةً، في فستانها الطويل، أن يتمّ تفتيش الزوج من عاليه الى أسفله والاعتراف بعدم خطورته للحفلين. وظهر عند المدخل السيّد الملحق العسكريّ الفرنسيّ، في بزتّه العسكريّة، أكثر اكتنازاً بالميداليّات من مسلّة نابليونيّة، وتردّد طوالَ ثانيةٍ كان تورين قد خلّدها من قبل: «ترتجف باهيكلاً من عظامٍ، لكنْ لوتدري إلى أين أنا أقودك...»، وشأنه شأن الماريشال [المذكور] قذفَ الملحق في ميدان المعركة بارتجافه وتركهم يجسّونه بمرآى منّي. ثمّ سفير الباكستان، فسفير تونس. وأن تكون جميع نساء السفراء جئنَ مغموراتٍ بالدنتيل والزمرّد والياقوت فماكان هذا ليدهشني قطّ، لكن من أين جاء الأزواج بالأوسمة التي تزيّن صدورهم كلّها، كلّ صدر يبدو أكثر انتفاخاً من جبين ڤيكتور هوغو، كما لو كان مصير كلّ سفير يتمثّل في ماياتي: حيازة صدرٍ ينشر عليه الأوسمةَ وقشع اللآلىء؟

بل حتى تساءلتُ إذا لم يكن الصدر يبدأ، منذ الوسام الأوّل، بالانبساط حتى يصبح هذا المعرض الجريء ضرباً من رأسٍ جبليّ، وذلك على حساب الساقين والرأس، المزدادَين نحافة، والصدر ثقيل إنّما مجوّف. هل ضخامة الصدور محضُ انتفاخ؟

وتوقّفتْ، ربّما لاجتذابِ نفَسٍ، هذه الشعيرة التي ينبغي ان أقول إنّها كانت قفا ميداليّة شاسعة بلا وجه، تكريماً لاندري لأيّة خدماتٍ مسداة. ثمّ، ماإن انتهى التفتيش، ووجدَ الدبلوماسيّون النازلون الى القاعتين المحجوزتين أنفسَهم في مركز الارض ليعاودوا الخروج في الأقصَيَين، حتى سادَ ضربٌ من السلام غمَرني أنا نفسي: كان شرطيّان يدلّك أحدهما العمودَ الفقريّ للآخر، ويمسّده بالمتعة التي كانت نساء ١٩٠٠ يرخين فيها، كما قرأتُ، مخصّراتهنّ. وانتشر على قاعة استقبال الفندق وعلى الشرطيّين ضباب، وبخار حمّام تركيّ. كان كلّ واحد يمطّط جسمه، ويفتح فاه ليتثاءب، لكنْ عاود الصعود من القبوين لا أوّل الدبلوماسيّين وإنّما آخرهم، مع نسائهم، وملحقيهم العسكريّين والثقافيّين، بل الثقافيّين والعسكريّين، لأنّ الفصاحة لها هنا الأولويّة، وإنّ مصنّف «غريفيس» [للنحو الفرنسيّ] ليسبق القانون العسكريّ، وهاإنّ الشرطيّين يتهيّآن لتفتيش جديد. كانت أوراكهما منهكة. والأيدي متعَبة، وكذلك القبضات، لكن متاهّبة لاستعادة حُميّاها للتفتيش مرّة أخرى بدءاً بالأحذية وارتقاء سيقان البناطيل. ولقد قرأتُ في عينيّ سفير فرنسا ثبوط العزم والجُبن، الجُبن نفسه الذي كنت

أشعر به غالباً في السجن عندما يفتّشني الحرس: كان السفير معرّى. أمّا زوجته فأكثر أنفة، إذ أشارت الى زوجها ومُلحقيه وقالت بالانجليزية بصوتٍ ناشف:

ـ كفى لعباً هذه الليلة. سَبَقَ أنْ فُتّشتُ.

فاستقامَ الشرطيّان من جديد، شاعرَين بالارتياح.

وأنا أنظر الى الجميع، الأعيان والشرطة، عرفتُ أنْ لاشيء يمكن أن يتجاوز بهاءَ الشرطة الشرقيّة وهي تأمر، بإيماءاتٍ عنيفة غالباً، كبارَ رجال أوربا والعالَم بالانحناء وبَسْط الإليتين ورفع الذراعين جانبيّاً. وكان ثبات تاليران (١٠١) وابتسامته الخفيّة يهَبان درساً.

عاود الدبلوماسيّون زوجين زوجين الصعود من القبوين المذهّبين والمزخرَفين؛ وأمام أفراد الشرطة ذوي الظهور المتعبة لكن المستقيمة مرّوا مزهوّين ليدخلوا، كأنّما وقوفاً، في سيّاراتهم. ميّزوا هذه المرّة مُنحنَيات الظهور الأليفة: سترة هذا السائق إنجيلزيّة، وقميص ذاك بلجيكيّ، أو ألمانيّ، أو فرنسيّ. وركبَ الجميع، رجالاً ونساءاً، سيّاراتهم برصانةِ أناس يخلّفون وراءهم رائحةً وحدها قسوة القناع تسمح بتخمينها.

شعيرةٌ بالفعل، هوَ العيد...

لئن كان يزعجني أن يحدّثني محارب قديم للمرّة الألف عن معركة «الأرغون»، أو أنْ يتذكّر ڤيكتور هوغو في روايته «ثلاث وتسعون» الغابات البروتانيّة [نسبة إلى «البروتاني» الفرنسيّة، وهي مسقط رأسه]، فهذا لايمنعني من أن أكتب مراراً وتكراراً أنّ الأيّام والليالي المقضّاة في غابات عجلون، بين السلط وإربد، وعلى ضفاف نهر الأردنّ، كانت عيداً بالمعنى الذي يكون فيه تعريف المفردة «عيد» هو التالي: النار التي تُسخّن وجناتنا لكوننا مجتمعين بالرغم من القوانين التي تأمل أن ترانا محرومين من كلّ عون؛ أو التالي: الافلات من المجتمع للالتحاق بمكانٍ نجد فيه متواطئين معنا، ضدّه. وقد تكون حماسة العيد خامدةً في حين تدوم ألف شعلة، أو مائة، أو خمسون، أو عشرون، أو اثنتان، طيلةَ الوقت الذي يشتعل فيه عود ثقابٍ أُشعِلَ من أجل ذروة الاحتفال، وحيث يكون الغناء الوحيد المسموع هو الصخب المسرحيّ الذي يُحدثه التواء عود الثقاب المتفحّم والذي ينطفيء. تجعل الصورة الأخيرة العيدَ يختلط بالسهرة الجنائزيّة؛ والحقّ، فكلّ عيدٍ هو في الأوان ذاته حماسةٌ ويأس. لنتصوّرْ يهودياً في فرنسا يموت إبّان الاحتلال الألمانيّ: يُدفَن في مقبرة ريفيّة، ومن سبعة اتّجاهات مختلفة يأتي سبعة من أسوأ العازفين المنفردين اليهود مع سبعة صناديق سوداء في الأيدي. يعزف هذا

السباعيّ السريّ حول القبر برداءة لكن بروعة، لحناً لاوفنباخ، ثمّ يمضي، كلّ عازف من ناحيته، من دون تبادل كلمة. كانت تلك، بالنسبة الى إله أشعيا، الذي ليس سوى نفحة على ضمّة من العشب، ليلةَ عيد. ولدى التطلّع الى شعر الامّ ووجهها الابيضين، لم يكن هناك سوى القلق من المخابرات، قلق جدّ طفيف أو حاذق، ولم يكن عن ذلك القلق المُضمَر من غنى للاحتفال بالسرّ؛ إنّه هو ماмكّن ذلك اللقاء الغريب من ان يكون هو العيد.

هذا بالاتّفاق على انّ مفردات الليالي والغابات والسباعيّ والحماسة والتخلّي الربّانيّ واليأس هي الكلمات نفسها التي ينبغي أن أستخدم للتعبير عن الفوضى التي تشيع في غابة بولونيا بباريس في الصباح حيثُما وعندَما يغادرها المستخنثون بعدما يكونون احتفلوا بسرّهم، ويروحون يعدوّن نقودهم، مجعّدين وسطَ الندى أوراقَ المال. لكنّ كلّ تنظيم ذي مقاصد تتراوح في الطيبة يصبح مكفهراً – لا جنائزيّاً بل مكفهراً، شانه شان وضع باثّات الموسيقى في معملٍ حتى يزداد العمل الجماعيّ المُسلسَل بتروّحه بالانغام. يزعم مدراء العمل انّ الموسيقى جيّدة ليبيضَ الديكة. إنّ جميع الاحتفالات بالاسرار لَخطيرة؛ ممنوعة، لكنْ فلتَحدثْ ويكون العيد.

لم يعاود صديقي الفلسطينيّ الظهور.

ومعَ حلول الليل قرّرتُ الذهاب الى بيته، وعثرتُ بالغريزة تقريباً على الشارع الذي كان حانوت أبيه فيه مايزال مفتوحاً. «سأقودك الى داره»، قال لي الأب بالعربيّة. وماكان يبدو في حضوري مايثير استياء هذا الشيخ الذي كان يبتسم لي.

كان الابن ممدّداً، تعالجه زوجتاه. وكان جسمه شبهَ أزرق من جرّاء الضرب الذي تعرّض له على أيدي الشرطة الذين كانوا يريدون معرفة لمَ كنتُ في عمّان.

ـ سافرْ بسرعة، غادرِ المملكة.

ـ غداً.

ـ بل هذه الليلة

كان حفل القبويَن قد انتهى. ونسيتُ أن أقول إنّه، بعد مغادرة الدبلوماسيّين المسرنمين بدقائق، عثر كنّاس كان ينظّف السجّاد تحت مراقبة الشرطة على أوسمة عديدة مزيّنة بأحجار كريمة زائفة. ماكان لأيّ منها قيمة، لكن استطاع الشرطيّون ان يؤنسوا صغارهم، كما روى لي

عامل المصْعد الذي كان مكلّفاً بمراقبتي وتفتيش حقيبتي.

لمْ تحدث انفجارات في حدائق «فندق الأردنّ» في تلك الليلة، وكان سوّاق السيّارات يقرّبون اليافطات القوميّة من المدخل. وبدلاً من النوم في سريري في الغرفة، نمتُ في الحمّام على بطانيّة، تحوّط له من النجوع مالدرع من الخشب المعاكَس. وبلا اضرار تُذكَر، غادرتُ الأردنّ بالتاكسيّ في صباح اليوم التالي، إنّما كثير الارتياح لأنّني رأيتُ السلك الدبلوماسيّ. كانت الحدود مغلقة بين سوريا والأردن، وفُتِحَتْ لأمُرّ. [قال لي أحد حرّاس الحدود بإنجليزية ركيكية]:

ـ إنتهتْ بالنسبة إليك.

ومع ذلك فسآتي مرّة أخرى، بلا صخب، بعد أربعة عشر عاماً.

ـ هم أذكياء؟ طبعاً. إنّ تقدّم الفلسطينيّين على بقيّة العرب ناجم عن هزيمتهم. بطردهم إيّاهم من مواقدهم وحدائقهم وكرّاثهم وأورادهم وكرنبهم الساقيّ وخرافهم، صنع منهم الاسرائيليّون هؤلاء المردَة الذي يقاتلون، راضين بالموت ومتسبّبين به، لابهدف تدمير الشعب الذي شرّدهم فحسب، وإنّما معه جميع الشعوب. لقد أعلن الفدائيّون الحرب على العالم أجمع. ووهبوا أنفسهم هذا الاسم الجميل: «ثوّار»...

ـ أوَلا تعجبك الكلمة؟

ـ تعرف انْ لا. لكنّنا قمنا في الجزائر بالثورة الجزائرية.

ـ كانت قواعدكم في المغرب وتونس.

ـ كانت في جميع أرجاء العالم العربيّ، وفي الصين والاتحاد السوفياتيّ. يمكن ان يتمتّعوا بالقواعد نفسها.

ـ تعرف جيّداً انْ لا. لم يخشَ العالم العربيّ أبداً تحرّركم ولا افكاركم. والفلسطينيّون يخيفون العالم العربيّ، كبار العواهل وصغارهم.

ـ هذا ماقالوه لك. وهذا مايقولون لأمثالك. ويقولون للمسلمين شيئاً آخر. لقد خنّثهم الاسرائيليّون. ولئن لم يكن الاسلام ليغمض سوى عينٍ واحدة، فلأنّه لاينام الاّ بعينٍ واحدة. وإذا مااستيقظ فسيزداد صلابة. أنظرْ الى صعود «الأخوان المسلمين».

كان لايعرف سوى غطرسة الأخوان المسلمين! ومعَ ذلك فإنّ هذا الضابط الجزائريّ،

الذي كان يأتي غالباً ليراني، ماكان، في ١٩٧٢، بالقادر على توقّع ظهور الخميني. كان السنّة يبدون هم الأقوى، والشيعة مايزالون يتكلّمون ويقفون أمامهم وَجِلين.

ـ لو انتصروا لخاضوا جهاداً في سبيل الله ولن تعود أنتَ هنا. لن يتسامح معك «الأخوان». فإمّا أن تموت أو تُسْلِم.

ـ لن أُسلِم، لكن لاتقلق بشاني. وأنتَ، ماالذي سيفعلون بك؟

ـ عندما أذهب الى الجزائر، فأنا لاأقدر حتى أن أقول لابني، وهو في سنّ السادسة عشرة، إنّني لاأومن بالله.

ـ أسيَغتالك؟

ـ لن يفهمني. وهو لن يُبلّغ الشرطة، وإنّما المصحّ النفسيّ.

لهذا الضابط اسم شهيرٌ بين الجزائريّين والفلسطينيّين، ومع ذلك فقد مات. لمَ كان يأتي لرؤيتي وتبادل بضع كلمات وإيّاي؟ لم أرَه ثانيةً، خلا مرّة أخيرة في بيروت.

ـ ينبغي ألاّ تبقى هنا. إنّ التدمير يتهيّا. ستسحق القنابل والعبوات الناسفة كلّ شيء وتخلط هذا الكلّ: رجالاً ونساءاً وأطفالاً وماعزَ وخيولاً وخرْدة، وإنهّم (إنّهم!) سيصنعون منه عصيدةً إسلاميّة أكثر منها فلسطينيّة.

سجّلتُ هذا في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٢. ماتَ قبلي، وقد تفجّرت سيّارته فوق قنبلة. إسرائيليّة؟

حصلَ أنْ كانَ بعض الثقَل محسوساً منذ أيلول/سبتمبر ١٩٧٢ في جنوب لبنان. كانَ يُرصّص حركات الفدائيّين وربّما أفكارهم أيضاً بعدَما تلاشى فرح القتال والتخريب. ولقد باتت السّماكة المُعيقة مرئيّة، مثلما يحدث دائماً عندما يشرع القادة وجنودهم بالتفكير بجديّة، أي عندما يدفعون بيقيناتهم الخاصّة في مواجهة اليقين، الغريب مع ذلك، القائل إنّ إلهاً كان قد وعدَ أرضهم لذريّة آفاق. كانت دراسة أدنى حركة للقوّات ضروريّة، لكن خانقة. وعندما ذهبَ المسؤولون الى بكّين وموسكو وجنيف، افكانوا يحسبون أنفسهم أحراراً بالذهاب الى هناك؟ وبالعودة؟ وبالكلام كلام الندّ للندّ؟ الامبراطوريّات الكبرى هائلة النفْخ، وهذا ممّا أطارَ روع منظمة التحرير الفلسطينيّة. وكانت ملاحظة الضابط الجزائريّ ماقبل-الأخيرة هي التالية تقريباً:

ـ سيعود الهدوء الى الشرق الأوسط عندما يكفّ الفلسطينيّون عن أن يكونوا أذكياء بصورة جنونيّة ومغامرين سماويّين، وتكون لهم مطامح سائرِ المعمورة حسنة الاطّلاع: إدارة الحاجات بحسب الثروات بدلَ الذهاب للقتل والموت.

لدى عودتي الى «السلط» في ١٩٨٤، رأيتُ ثانيةً البيوت ذوات المداخل الرومانيّة، مع طاقات بعقْدٍ كاملٍ تدعمها أعمدة البوّابة المرمريّة الأربعة، بوّابة آتية من جدّ بعيد لكن تحملها رغبتي في مبنى قابل للسكنى وجُنينة مع إطلالة على البحر وقبرص في البعيد، ولقد تصاعدَ فيَّ حنينٌ لاأدري إذا كان أصله رغبة في الانطواء أو الفرح بجَعل فكريَ يعوم في الرواية كما يعوم جسدٌ في البحر؛ وستكون الصيغة الأخيرة أنبل من السابقة وأقلّ حقيقيّة. هذا بدلاً من المجيء صباحاً في الساعة نفسها تقريباً إنّما قبل أربعة عشر عاماً، وسماع الدكتور محجوب وهو يعقّب على هتافي لدى رؤية المنزل الصغير في «السلط» مضاءاً بالشمس المشرقة: «ماأجملَه!»، يعقّب عليه بالقول: «يمكن استئجاره لك عن طريق منظمة التحرير الفلسطنيّة لمدّة ستّة أشهر». وعلى الفور أحال قرفي المنزلَ عصيّاً على السكنى، وكانت جميع المنازل التي رأيتُ في السلط تُعيد بهذه الدرجة من الوفاء، أو هكذا حسبتُ، معمارَ مدينة بيزنطيّة صغيرة بحيث رغبتُ في المكوث هناك حتّى موتي، أي البقاء هناك وحيداً لساعتين أو ثلاثٍ، لاأكثر؛ وهذه المرّة، في ١٩٨٤، ماعادت الشمس لتضيء المنزل من واجهته وإنّما من الخلف، أي انّه لمّا كانت البوّابة الرومانيّة في الظلّ، ممّا كان يضاعف الرجوع القروسطيّ للمدينة، فقد مكّنني ذلك من النوم، مادام يلزمني مأوى وقد تقدّم الظلّ والعُمر. واقترح عليّ زوجان صيّادان مأوى كان سيَحبسني في قعر الفضاء والزمن. ومن المنزل التركيّ والجُنينة والاطلالة على البحر وشواطيء قبرص، كنتُ آسفُ على المعركة البحريّة التي كنت أودّ رؤيتها من نافذتي، وعلى الغرقى عائمين على المياه العائدة إليها الهدأة.

وعندما عدتُ في أيلول/ سبتمبر ١٩٧١ للهيام حول عجلون، كنتُ في البدء أتأمّلُ ببلاهةٍ انهيارَ المقاومة الفلسطينيّة، وإذا ما فتّشت عن أسبابه فلن أجد سوى مايأتي:

عندما أستعرض ماكنت أحسب أنّني أعرف عن الفدائيّين، فأنا أفكّر بأنّ المقاومة، مع جميع التعاليم الموزّعة على المقاتلين، كانت توجّه الايعاز بان يكونوا في حالة دفاعيّة أكثر منها هجوميّة. وكان فعل القتل قد صار نائياً جداً، ومغلّفاً بطقوسيّة معقّدة، حتى إذا كان ذلك لصيد فراخ الحجل لاغير، إذْ كان يلزم ترخيص بالصيد، وشراء بندقيّة صيدٍ وخراطيش، واختيار الرصاص، جميع هذه الطقوس التي كان هدفها يبدو لي متمثّلاً في التخفيف من كثافة القتل، أضفْ الى ذلك اجتماعات الرجال، والمعجم الصيديّ، وانهماك النساء حول الأفران قبل عودة الصيّادين بكثير، واغاني الصيد، حتّى لقد صارت إيماءة القتل، من بعيدٍ،

بالضغط على الزناد، لاتدلّ على إزالة الحياة بقدرما على أداء فرضٍ صالوناتيّ. ولقد بدا لي أنّ الفلسطينيّين فقدوا العلاقة المباشرة بموت الضحيّة، علاقة قد تكون مقرفة لكن ضروريّة عندما تكون الحياة في خطر. وبدا لي هذا القرف من القتل في الحرب الفظّة امتداداً لنسيانهم، بل ربّما لمقتهم ضروبَ الرقص المتوارثة، الوليدة في الصحراء، والعفيفة لفرطما تاسلبَتْ فيها الايروسيّة على امتداد الفَي سنة او ثلاثة آلاف، وذلك الى هذا الحدّ بحيث حسبتُ في مخيّم «البقعة» انّني كنتُ ارى إلى جنود نبوخذ نصّر يرقصون. ولكنّهم كانوا جنوداً بدوّيين مازالوا يعرفون قدرات الرقص والقنص.

كان طعامنا اليوميّ يأتي من الأرجنتين في علب من التنك، ويدعى corned-beef («لحم البقر المعلّب»). وكان فعلنا الأكثر إجراماً ينحصر في تناول مفتاح العلّب لاخراج لحلم البقر المذبوح في «لاپلاتا» [سهول الأرجنتين]. أمّا البدو، فقد اثبت رقصهم انّهم مايزالون يتمتّعون بآصرة مباشرة مع الموت المتسبِّب به. كان العدوّ يصبح هو الحيوان المتعيّن صيده. ومن لم يقبض على الحيوان، التهمَه الحيوان، وإن كان الأخير سمانى. صار الفلسطينيّ هو العدوّ. ومن السهل قتل العدوّ. وماكان الفلسطينيّون ليعدّوا البدوَ أعداءَ أبداً.

يتعذّر عليّ أن أُغيّبَ من هذا الكتاب الشاحنة التي بقيت تحمل لنا الفطائرَ والمعلّبات، إلى عجلون، طوال ثمانية شهور. كانت تذهب من قاعدة الى اخرى، منطلقةً من مخيّم «البقعة»، تأتي في البدء الى عجلون، تلقي حصّتنا، وتعاود الزحف الى قاعدة اخرى. كيف اصفها؟ ومن أيّة زاوية اراها؟ يقيناً أنّ أعين صغار القرية الأردنيّة هي المرْقاب الأكثر عدلاً. كانوا يرونها من علٍ، وبالتالي غاصّة بالفطائر. وكانوا هم أنفسهم جائعين. والعوائلِ أيضاً. وكانت شاحنة تموينِنا تمرّ أمام أبصارهم، تمخر الطرق، وتلبّي حاجة الفدائيين وليس أبداً أولئك الصغار ذوي الأعين التي هي بِسعَة البطون. ولعلّ نظرات البدو وإيماءاتهم قد حولّها ذلك التعقّدُ والقلق البادِيان على الفلسطينيّين، الذين يشبهونهم كأشقّاء والذين صاروا يمثّلون زحفَ عالمٍ كان قد أُبقيَ لزمنٍ طويلٍ على مبعدةٍ بفضل الصحراء القاتلة بالأمس والتي أفلحوا اليومَ في عبورها بصورةٍ فاضحة.

قد تكون بداية التفسير هذه مقبولة، ولكنّ الجنون الأحمر للقتل كان يستبدّ أحياناً، بصورة عابرة على الأقلّ، بالكثير من الفدائيّين. ستُستعاد هذه الفكرة آنفاً.

كشفتْ لي هزيمة الفلسطينيّين، بين السلط وإربد، إمّا بفعل القتل او الهرب أو السجن أو التعرّض للتعذيب، عن انّ حياة الفدائيّين الخفيفة تلك كانت ناجمة عن تحليق الموت دائم

التحويم فوق رؤوسهم. صورة بلاغية مقيتة تعبّر مع ذلك عن انّ كلّ مقاتلٍ كانت له خفّة الكيان تلك، لأنّه كان يعرف نفسه محروماً من المستقبل. كان محجوب قد قال لي: «حتى أكون مقاتلاً حقيقيّاً، فانا لاافكّر ابداً بما ساقوم به بعدَ غد». عبارة لاشكّ أنها مغترفة من تعاليم الشهيد الحقيقيّ. كانت أهداف الثورة الى هذا الحدّ بعيدة بحيث وحدها لحظات القيام بها كانت تستحقّ أن تُعاش.

كنتُ أقول لنفسي هذا أوشيئاً مماثلاً، وكنت أعرف أنّه لن يشفيني: كان الفدائيّون الذين أصبحوا أصدقائي، على أنها صداقة غير مُلحّة أبداً، قد ماتوا او أصيبوا بجراحٍ او اعتُقلوا أو هربوا، أو تجمّعوا لنضالاتٍ أخرى في أقطارٍ أخرى. ولم تتعرّض للتنكيد الأشجار، من زانٍ الى نيريّاتٍ فبضع أشجار حور. كانت صامتة. لم يتنازلْ أيّ انتحاء. وكنت أنا أُغادرُ، كأنّما على أطراف أصابعي، كما يبتعد المرء عن حجرة كانت الغفوة تعمّ فيها حتّى السرير.

نُطقَ أحياناً بالتعبير: «ضراوة الفدائيّين»، ولكنْ يتعلّق الأمر خصوصاً بالخشونة إزاء الأشياء، وليس بالفظاظة قطّ.

كانت متعة السخرية في اختطاف قطع الأثاث الدالّة على اليُسر تَسحرني: كان ذلك مثلاً بين عجلون وإربد، في خلاء قاحل، صخريّ، وفي الليل، تحت ضوء القمر وحده؛ وإذا بي أراني محاطاً بمجْمعٍ من مقاعد مخمليّة ومن طراز «ڤولتير». كانت قاعدة الفدائيين بكاملها تحتلّ آنذاك، في آذار/ مارس ١٩٧١، الڤيلات النادرة التي كان الملك أمرَ ببنائها لوزرائه. وفي بضع ساعاتٍ أُخليَت الڤيلات من الكراسيّ الحُمر ذات المساند، وكانت هذه المقاعد الثلاثون أو الخمسة وثلاثون مطروحة دائرياً في عرْض الطريق المحروثة. ووُضعَ أمامها كرسيّان بمسندَين، احدهما للفدائيّ—الترجمان والآخر لي. أعتقد انّ نهر الأردنّ كان يُبعد اقلّ من كيلومتر واحد. كان الفلسطينيّون ينتظرون ندوةً، ولكنّ التجوال الحرّ للأفكار والابتسامات والضحك والحكايات طُبِّقَ بعفويّة.

هي ذي قائمة بالأشياء الهيّنة التي تبودلت: ولأعات بحجم بذور التفّاح، مذياعات «ترانزستور» صغيرة، عُلَب ثقاب، أدوات حلاقة آليّة، علبة موسى من علامة «جيليه»، تشابيه مصاحف نحاسيّة بعرض ظفر أكبر أصابع القدم، لكن فارغة، تضمّ اسم اللّه منقوشاً بالعربيّة، وأقلام حبرٍ ورصاص، وصوَر هويّة، ومرايا جيب، ومقاصّ قابلة للثني، أي مايملأ علبة ثقاب بأثاث قزمٍ لايصلح أكثر ممّا للعَدّ مثلما فعلتُ الآن، وهذا ماأحسب أنّه يشكّل خلاصة لكاتالوغٍ للأسلحة والعجلات لسانت—إتيان (١٠٢) صغيرة. إجمالاً، كان كلّ واحدٍ يتنازلُ

لي عن شيءٍ ضئيل.

آنَ الأوان للتساؤل: كانت اليونان، من ١٩٥٠ حتّى ١٩٥٥، رفيقةً لديَّ؛ وفي ١٩٦٧ كانت اليابان شائقةً عندي؛ وفي مطلع السبعينيّات أحببتُ «الفهود السود»؛ ومن نهاية ١٩٧٠ حتى نهاية ١٩٧٢ أحببت الفدائيّين أكثر من الجميع ومن الكلّ. فماالذي حدث؟ أكانَ اليونانيّون واليابانيّون والفهود والفلسطينيّون يتموضعون آنئذٍ في ظلِّ نَجمِ سُعود؟ أم هو انسحاريَ السهل؟ وهل هم الآنَ كما أتذكّرهم؟ كان هذا كلّه الى هذا الحدّ جميلاً بحيث أتساءل إن لم تكن فترات حياتي هذه كلّها مرئيّةً في الحلم؟

عندما يشفّ رسمٌ عن عيوبٍ كثيرة، فإنّ الرسّام يمحوه وتدَع ضربتان أو ثلاث بالممحاة الورقةَ من طراز «كانسون» بيضاء تماماً؛ وهكذا، فماإن مُحيَتْ فرنسا وأوربّا حتى أصبح هذا البياض القابع أمامي، والذي كان بالأمس يضمّ فرنسا وأوربا، فضاءاً للحرّية راحت تنخطّ فيه فلسطين التي عشتُها، إنّما في تصحيحاتٍ [رتوشٍ] تبدو لي خطيرة. فشأنها شأنها الجزائر وأقطار أخرى نَسيت الثورةَ في العالم العربيّ، ماكانت هي أيضاً لتفكّر إلاّ بالأرض التي ستقوم عليها دولة ثانية وعشرون، حاملةً معها ماتُطالَب به دولة جديدة: النظام والقانون. أكانت هذه الانتفاضة، التي بقيت خارجة على القانون زمناً طويلاً، تأمل أن تتحوّل الى قانونٍ تكون سماؤه هي أوربّا؟ حاولت أن أقول ماصارتْ عليه؛ أمّا أوربا، التي صارت تشكّل لديَّ أرضاًمجهولةً، فقد باتتْ ممحوّة.

ربّما لم تكن المجازر في شاتيلا في أيلول/ سبتمبر١٩٨٢ حاسمة [لتأليف هذا الكتاب]؛ لقد حدثتْ، وتأثّرتُ أنا بها، وتكلّمتُ عنها؛ لكن إذا كان فعل الكتابة قد جاء لاحقاً، بُعَيد زمن حضانة، في اللحظة أو اللحظات التي تبدأ فيها خليّة واحدة، وقد انشطرت عن إنجاعها المعهود، بإحداث الزردة الأولى في دنتيلٍ أو سرطانٍ لايخمّن أحدٌ ماسيكون، أو حتى إنْ كان سيكون، فقد قرّرتُ تأليف هذا الكتاب. ولقد أصبح القرار أكثر إلزاماً عندما ألحّ عليّ بعض المعتقلين السياسيّين في أن أوجز رحلاتي وأقلّل من زياراتي لفرنسا. كلّ مالم يكن هذا الكتابَ صارَ بعيداً عنّي، حتّى أنّه ماعادَ ليُرى. الشعب الفلسطينيّ، وبحثي عن حمزة، وعن أمّه، ورحلاتي الى الشرق، والى الأردنّ بخاصّة، وكتابي أخيراً؛ أمّا فرنسا وأوربّا والغرب كلّه فماعادوا قائمين. ولقد فصلتْني الزيارة التي قمتُ بها لبعض أنحاء أفريقيا، وإقامتي في عجلون، عن أوربا هذه، وعن الأوربيّين، الذين ماكان لهم من قبلُ كثيرُ وزن. واعتباراً من أواسط ١٩٨٣، صرتُ حرّاً بمافيه الكفاية للبدء بتحرير ذكرياتي التي سينبغي أن تُقرأ كتحقيق

صحفيّ (ريبورتاج).

كلمات الشاهد الاولى، بعدَ اسمه وعمره، هي التالية تقريباً: «أُقسم بأن أقول الحقيقة كلّ الحقيقة ولاشيء سوى الحقيقة». وأنا، قبل أن أشرع بكتابة هذا الكتاب، أقسمتُ بأن أقول فيه الحقيقة؛ ولم يكن ذلك في شعيرةٍ ما، بل في كلّ مرّة يطلب فيها فلسطينيّ أن يقرأ بداية الكتاب أو بعض مقاطعه، أو نشرها في مجلّة أو أخرى، كنت أبذل مافي وسعي للصمود أمام طلبه هذا. لايمثّل الشاهد، قضائياً، لاالرجل الذي يعارض القضاة ولاهذا الذي يخدمهم. وهو يكون بحسب القضاء الفرنسيّ قد أقسمَ بأن يقول الحقيقة، لابأن يقولها للقضاة. يؤدّي الشاهد قسَمه أمام المستمعين؛ أمام المحكمة وأمام المستمعين. إنّ الشاهد لَوحيد. يتكلّم. والقضاة يصغون صامتين. وهو لايردّ على السؤال الضمنيّ «كيف» فحسبُ، وإنّما ليُري الاخرين «لمَ» هذه «الكيف»، وليسلّط عليها إضاءة تُنعَت أحياناً بالفنيّة. ولأنّ القضاة لايكونون أبداً في الأماكن التي يُقام فيها بالأفعال التي يحكمون عليها، فالشاهد لاغنى عنه، ولكنّه يعلم أنّ صدْقيّة الوصف لن تعني شيئاً لأيّ شخصٍ، ولا للقضاة، إذا لم يُضفِ هو عليها الظلال والأضواء التي كان هو الوحيد الذي ميّزَها. يقدر القضاة أن ينعتوه بالثمين، وإنّه لكذلك.

لمَ يؤدّى ياترى في قاعات المحاكم هذا اليمين ذو الملمح القروسطيّ، شبه الكارولينيّ؟ ربّما لأنّه يحيط الشاهد بالعزلة، هذه العزلة التي تهَبه التخفّف الذي انطلاقاً منه يقدر أن يقول الحقيقة، لأنّه ربّما كان في القاعة ثلاثة أشخاص أو أربعة ممّن يعرفون الاستماع الى شاهد.

لاشكّ إن الواقع، أيّ واقع، يقيم خارجاً عنّي، قائماً بذاته ولذاته. ولاتعيش الثورة الفلسطينيّة، ولن تعيش، الاّ من ذاتها. أمّا تلك الاسْرة الفلسطينيّة المؤلّفة من أمّ وابنٍ كانا بين أوّل الأشخاص الذين التقيتُ في إربد، فإنّما التقيتُها في محلٍّ آخر. ربّما فيَّ. الزوجُ أمّ/ابن قائمٌ في فرنسا أيضاً، وفي كلّ مكان. فهل تراني سلّطتُ على هذا الزوج إضاءةً خاصّةً بي، صانعاً من الامّ وابنها لاغريبَين أراقبهما وإنّما زوجاً طالعاً منّي، وقد تكون براعتي في الحلم اليقظان ألصقتْه بفلسطينيّين، ابنٍ وأمّه، كانا مجروفَين نوعاًما في معركةٍ في الأردنّ؟

كلّ ماقلتُ وكتبتُ قد حدثَ، لكنْ لمَ تظلّ هذه العائلة هي كلّ مابقيَ لي من عميقٍ، من الثورة الفلسطينية؟

لقد بذلتُ كلّ مافي وسْعي لأفهَم إلى أيّ حدٍّ لم تكن هذه الثورة كسواها، ولقد

فهمتُ ذلك بصورةٍ من الصوَر، لكنْ لعلّ مابقيَ لي منها هو ذلك المنزل الصغير في إربد الذي رقدتُ فيه ليلةً واحدةً، واربعةُ عشر عاماً حاولتُ فيها ان اعرف إن كانت تلك الليلة قد حدَثتْ. هذه الصفحة الأخيرة من كتابي شفّافة.

حواشي المؤلف والمترجم

(١) فريق لكرة «الركبي» في نيوزيلندة، يرتدي لاعبوه ملابسَ لعب سوداء دائماً، ويؤدّون في الملعب رقصات سكّان البلاد الاصليّين.

(٢) كان الفلسطينيّون، الذين طالما كانوا يُدعَون الى الصين، يقدّمون لي افكار ماو من دون ان أقدر على الردّ: وفكرته الأكثر تواردًا على ألسنتهم تتعلّق بالنساء اللائي يدعوهنّ هو بـ«نصف النجوم» (المؤلف).

(٣) مكسمليان Maximilien (١٨٣٢-١٨٦٧) هو شقيق امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف. تزوّج من الأميرة شارلوت Charlotte في ١٨٥٧، ولم يمنحه شقيقه سوى وظائف فخريّة، حتّى جاء نابُليون الثالث (فرنسا) وبعثه إمبراطوراً للمكسيك. هناك، اصطدم بمعارضة الزعيم الوطنيّ خواريس Juares، وإذْ تخلّى نابليون الثالث عنه بعد فترة، وباءت بالفشل جميع المحاولات التي بذلتها زوجته شارلوت من اجل إسعافه بالامدادات، أسرَه خواريس واعدمه في كيريتارو، فاصيبت شارلوت بالجنون.

(٤) هنا سلسلة من مفردات يوردها جنيه لوقْعها الصوتيّ الذي يبهر البحّار إذْ يسمع بها لأوّل مرّة، ممّا يستوجب إيرادها للقارىء بالفرنسيّة. الصخور المدعوّة بـ«كاسرات الأمواج» هي: les brisants. و«الفنستيرات» أو دخْلات البحر في اليابسة: finistères (وتعني المفردة حرْفيّاً «نهاية اليابسة»، وهناك منطقة في فرنسا وأخرى في إسبانيا تحملان هذا الاسم بسبب من موقعهما الجغرافيّ). والدفّاقات هي: déferlants. والاقوام الغريبة: peuplades. واشجار «الباوباب»: baobabs. وشلاّلات «النياغارا» المعروفة: Niagara (وقد أوردها جنيه بالجمع، للدلالة على الشلاّل المعروف بهذا الاسم وأمثاله)...

(٥) لونوتر Le Nôtre: بستانيّ فرنسيّ عاش في القرن السابع عشر، كان مكلّفاً من قبل الملك بصيانة رياض «التويلري» بباريس، ويورده الكاتب هنا في معرض الحديث عن أسواق تونس على سبيل المَجاز او التشبيه الضمنيّ طبعاً.

(٦) لأنّها رحلتْ شابّة، فهي لم تكن تتكلم إلاّ بالإنجليزية الاميركان؛ هذه الاشياء لا تحْدث إلاّ لفلسطينيّي النبراسكا (المؤلف).

(٧) هو الطراز «المُديريّ»، نسبةً إلى «حكومة المُديرين» Directoire التي قامت في فرنسا في العام الثوريّ الثالث (١٧٩٥) واضطلعت بدور الجهاز التنفيذيّ.

(٨) كان لوي أدولف تييرْس Louis Adolphe Thiers رئيس المجلس التنفيذيّ (يعادل منصب رئيس الوزراء حاليّاً) في فرنسا عندما أسرَ بسمارك نابليونَ الثالث (١٨٧٠) في «سيدان»، مضطراً فرنسا الى توقيع معاهدة للسلام مع البروسيّين. وكان تتيرس هذا ممثّل فرنسا في المفاوضات، وقدّم فيها تنازلات كثيرة. وعندما انتفض الشعب وقامت «كومونة» باريس، سحقَها تييرس بضراوة، ولم يتردّد يومذاك عن دعوة البروسيّين الى قصف عاصمة بلده، ومن هنا إشارة جنيه.

(٩) «مريم السيوف السبعة، ربيبة السيّدة "موسيقى"»، كما كتبَ كلوديل في «حذاء السيتان» (المؤلف).

(١٠) هنا إشارة إلى مختلف قمصان الحركات الفاشيّة، وكان قميص النازيّين بنيّاً، وقميص «الكتائب» اللبنانيّة باللون شبه الأخضر المدعوّ بـ«الكاكي»، امّا «الفرقة الزرقاء» (تسمية آتية بالذات من لون قميص أعضائها)، فهي فرقة ضمّت متطوّعين اوربيّين ذهبوا لدعم هتلر ومحاربة الشيوعيّة، وتاه اغلب افرادها في الثلوج بالفعل.

(١١) «ثنايا الراية» و«حواشب العلَم»: هنا إشارة إلى أناشيد الحركات الفاشيّة. وعلى حدّ علمنا، فلم يكن للكتائب اللبنانيّة من نشيد، بل كان افرادها يردّدون النشيد الوطنيّ اللبنانيّ، ويبدأ بالبيت: «كلّنا للوطن / للعُلى والعلَم».

(١٢) كان ثسنيروس Cisneros كبير قضاة محاكم التفتيش التي قامت في إسبانيا في ظلّ الكنيسة الكاثوليكيّة بعد إسقاط الخلافة الاسلاميّة.

(١٣) الزغردة هي، بلغة الموسيقى والاوبرا، التكرار المسرع للحَنَين اثنين.

(١٤) الاول رسّام فرنسيّ مُحدث، والثاني الثانيّ مخضرم بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، معروف بأجوائه الدينيّة، فلاقرب بين الرسّامين، وبالتالي فلاقربَ في نظر جنيه بين ماركسيّة الفهود السود الليبيئيّة وعمليّ ماركس ولينين نفسهما.

(١٥) نرجو ان يكون واضحاً، ورغمَ اقتضاب المقطع وكثافته، التفريق الذي يُقيمه جنيه بين الزنجيّ والاسود، اي بين من يتمتّع بالروح الحقيقيّة للزنج الذين تعرّضوا تاريخياً للتهميش وعملوا على التمرّد، والاسود (باللون فحسب) الذي يمكن ان ينسلح عن الزنج او يتعرّض للاحتواء من قبَل البيض. وفي «موسم في الجحيم»، يتحدّث رامبو عن «زنج بيض» قاصداً، بصورة معاكسة ومُناظرة، بيضاً ينخرطون في عقليّة العبيد ولايعرفون تمرّد الزنج الحقيقيّ.

(١٦) لعلّ بين المفردة: gosses (صبية او احداث) و«لذعة الثوم» pointe d'ail، لعباً على الكلمات متعمّداً من قبل جنيه، سيّما وانّ فصّ الثوم يُدعى في الفرنسيّة: gousse d'ail، فيرى جنيه في وجود الاشبال إضافة كاوية للنشاط الفدائيّ وليس اكثر. وكان، كما يرى القارىء، شديد الانتقاد لتدريب الاطفال على حمل السلاح او غير موقن من جدواه.

(١٧) تارةً يكتب جينيه «لمياء الصلح»، بل حتى «لانيا الصلح» (خطأ مطبعيّ؟)، وطوراً «سامية الصلح». ومؤكّد انه يخلط هنا الأسماء، فقد اكّد لنا العارفون بشخصيات بيروت والاردن في تلك الفترة على انّ الامر يتعلق بالسيّدة علياء الصلح، شقيقة «لمياء» المتزوّجة من شقيق ملك المغرب. ثمّ إنّ جنيه يكتب هنا «عقد فينيسيا» اي «عقد البندقيّة» (المدينة الايطاليّة المعروفة)، لكنّه، إذ يتحدّث في مواضع اخرى من الكتاب عن العقد الذي تحمله علياء الصلح، يكتب: «عقد فينوس»، باسم الإلهة الأسطوريّة. وقد يكون خطأ مطبعيّ في إحدى الكتابتين.

(١٨) هنا فقرة لاتزيد على صفحة ونصف الصفحة اضطرّت الهيأة الناشرة إلى حذفها لدواعٍ تقنيّة.

(١٩) «الاوبول»: القطعة النقديّة التي كان شارون يطالب بها ليُعبر الموتى نهر الجحيم في الميثولوجيا اليونانيّة.

(٢٠) مخيم «الشرشف الذهبيّ» Camp du drap d'or، هو المخيّم الذي اقيم في ١٥٢٠ عند «مضيق الكاليه»، والتقى فيه فرانسوا الأول (ملك فرنسا) وهنري الثامن (ملك إنجلترا) في محاولة للتحالف ضد شارل الخامس («شارل كنت»، إمبراطور المانيا وأمير البلاد الواطئة وملك إسبانيا وصقلية). وقد باءت المفاوضات بالفشل، بالرغم من البذخ الذي حاول كلّ من العاهلين ان يبهر به الآخر، فكانت الخيم مثلاً مصفّحة بورق الذهب، ومن هنا تسمية المخيّم.

(٢١) «السفيو» هو مختصر إسم «الشعبة الفرنسيّة من امميّة العمال» Section Française de l'Internationale des Ouvriers، ولقب دوق هذه الأمميّة، وكذلك لقب «امير الخطوط الجويّة» غير موجودين في الواقع، وعليه تأتي العبارة سخرية او تخريف.

(٢٢) «حامل الأطباق الموسيقيّ» هو قطعة كانت شائعة في بدايات القرن، توضع عليها الأطباق الساخنة حماية للطاولة، وكانت تبعث بعض النوتات الموسيقيّة كما تفعل الآن بعض الدمى او علب السجائر عندما نفتحها.

(٢٣) تقول لي ليلى، خلافاً لمحمود الهمشري، إنّه قد هرب الكثير من الضبّاط والجنود. لكن مامقدار «الكثير» هذه؟ (المؤلف)

(٢٤) أهي اسطورة؟ قيل لي إنّ اتاتورك كاد ان يلقي نفسه في السجن لانّه ماكان يحسن النطق بالعربية، وماكان ليفهمها جيداً (المؤلف).

(٢٥) بيير لوتي Pierre Loti (١٨٥٠–١٩٢٣) كاتب فرنسيّ وضابط بحريّة طوال اثنين واربعين عاماً، وضع روايات عديدة

يستوحي فيها رحلاته إلى تركيا وسوريا ولبنان واليابان وافريقيا والشرق الاقصى. يوصف برهافة الإحساس اكثر مما بالذكاء او الشغف بالعدالة، فليس من الكتّاب الذين ساهموا في إدانة الاستعمار. امّا كلود فارّير Claude Farrère (١٨٧٦–١٩٥٧) فهو الآخر ضابط فرنسيّ وكاتب، وضع مؤلفات عديدة على طريقة بيير لوتي.

(٢٦) الارجح انّه يقصد هُوَيه نيوتن Huey Newton، وهو مناضل من «الفهود السود» اختطفته الشرطة الامريكيّة في الفترة نفسها التي اغتيل فيها المناضل الزنجيّ مارتن لوثر كنغ، وقام السود وعدد من البيض بمظاهرات واسعة من اجل إطلاق سراحه. ولايتخيّل جنيه في هذه الفقرة «الفهود السود» وقد تسنّموا الحكم ووضعوا على راسه نيوتن لدى خروجه من السجن، لانّ هذا، في رأيه، ممّا لا يتحقّق ابداً في الواقع لحركة ماكانت تجد اساسها إلاّ في التمرّد، والتمرّد وحده.

(٢٧) عزّ الدين هو الطفل المغربيّ الذي تبنّاه جنيه.

(٢٨) الساعي شوڤال Le facteur Cheval، رسّام فرنسيّ لُقّب بـ«الساعي» بباعث من مهنته، وكان قد لوّن بيته الريفيّ وحوّله إلى مايشبه لوحة كبيرة.

(٢٩) لاتربط عائلة الحسينيّ، غفيرة العدد، ابة صلة قرابة بحسين، ملك الاردن الحاليّ، خلا الوشيجة، بالغة البُعد، التي تمضي صعداً حتى النبيّ، مادامت العائلتان، الحجازية والفلسطينية، من «الاشراف»، اي احفاد محمّد (المؤلف).

(٣٠) كان جنيه قد كتب: «سلطان نسيت إسمه»، والحادث منسوب في الواقع للخليفة عمر لدى دخوله القدس.

(٣١) قرية فرنسيّة صغيرة اجهل موقعها الجغرافيّ (المؤلف).
(حاشية على الحاشية للمترجم: هذه ملاحظة ساخرة من جنيه. إذ شكّلت مدينة ڤيردان الصغيرة (في اللّورين) مسرح معارك متجدّدة طوال القرون الاخيرة بين البروسيّين (الالمان فيمابعد) والفرنسيّين. وفي معركة ڤيردان الشهيرة (١٩١٦–١٩١٧) بلغت خسائر الفرنسيّين من الارواح البشريّة ثلاثمائة وستّين الف نسمة، وخسائر الالمان ثلاثمائة وخمسة وثلاثين الف نسمة. وكان بين الصرعى دفاعاً عن المدينة الفرنسيّة جموع غفيرة من ابناء المستعمرات الفرنسيّة السابقة، من عرب وسينيغاليّين، إلخ.)

(٣٢) هنّ قاتلات أزواجهنّ في الميثولوجيا اليونانيّة، والمحكوم عليهنّ بسكب الماء إلى الابد في براميل بلاغور.

(٣٣) «أود ماني پاد مي أوم»: مقطع من صلاة بوذيّة بالسنسكريتيّة، معناه: «هي ذي الجوهرة في [قلب] اللوتس»، يهتف به المتعبّد البوذيّ إعلاناً عن الوفاق الروحيّ أو الاتّحاد بالهيأة العليّة. ولاتخفى الدلالة الايروسيّة في الصورة، وهي في البوذيّة غير مفصولة عن الدلالة الدينيّة.

(٣٤) كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد اتفقت مع الملك حسين على ان تواصل ميليشيا فلسطينية البقاء [في الاردن]، شريطة الاّ تكون اسلحتها ظاهرة. ولئن كنّا في مغارة، فحتّى يُفهم محجوب ذلك لمجموعات فدائيين عنيدين يفتقر سلاح لايُشهَر إلى كلّ لُجوع في نظرهم. وكان سيؤذيهم بالقدر نفسه ان يُطلب إليهم حلق شواربهم (المؤلف).

(٣٥) «يلعب» الكاتب على الجناس بين المفردة Panique وتعني، بالفرنسية، الذعر العنيف المفاجئ، واسم الإله «پان» Pan، وهو في الميثولوجيا اليونانية إله الرعيان.

(٣٦) السيتوس les Situs، مختصر Situationistes، وهي حركة «المواقفيّين» التي نشات في فرنسا وباقي الاقطار الاوربيّة في السبعينيّات، وجمعت منظّرين يساريّين متطرّفين من ابرزهم غي ديبور وراؤول ڤينيغام، قدّمت نقداً جذريّاً للسائد في الفكر والحياة اليوميّة في الغرب.

(٣٧) هنا لعب على الجناس بين بوشاسي Bochassi (اسم رسّام او كاتب غير معروف يقول جنيه إنّه عني بوصف الحسناوات

والعربات) والتعبير Beaux chassis، وهو أيضاً يفيد قراءتين: يعني «نساء مشيقات القامة»، كما يُطلق على «إطار» نافذة السيّارة وتسقيفتها. ممّا يهبنا، في هذا المشهد المخصّص لوصف الولع بالنساء وتجميع السيّارات، لعبة مزدوجة على الكلمات.

(٣٨) يهب بورقيبة أو حرّاسه النخلات المغروسة في الصناديق، وبالتالي «الكاذبة» أو «المرتجلة»، يهبونها للسخرية، أسماء معارك معروفة.

(٣٩) «السميرف» هو رقص شاعَ مؤخّراً يقوم على حركات شبيهة بحركات «الانسان الآليّ» وعلى الالتفاف على الأرض وتحريك الأيدي في مختلف الاتجاهات بنوع من التشنّج مقصود.

(٤٠) «الواحديّون» هم القائلون بطبيعة واحدة للسيّد المسيح.

(٤١) وصعناها بالعربيّة عن قصد للابانة عن فارق النطق.

(٤٢) الفرلانيّة: «لهجة» فرنسيّة ملفّقة، أو بالأحرى طريقة في الكلام تُلفَظ فيها الكلمات بمعكوس ترتيب أحرفها، وذلك للتمويه.

(٤٣) في المفردة الأخيرة Lorient (اسم مدينة فرنسيّة) جناس مع L'Orient، وتعني «الشرق».

(٤٤) الاشارة هنا بالطبع إلى «الانفجار الكبير» Big Bang الذي يرى بعض علماء الفيزياء والفلك انّه على اثره نشأت الارض بانفصالها عن بقيّة الكون.

(٤٥) تعني المفردة barbouze «لحية» (بالعاميّة، وافصح منها: barbe)، وتدلّ في الفرنسيّة المحكيّة على «مُخبر سريّ»، وإلى هذين المعنيين يُلمّح مخاطِب جنيه، أبو عمر.

(٤٦) هنا لبس في الكلمات يوضّحه جنيه بعد قليل.

(٤٧) لم نهتدِ إلى تشخيص هذه التسمية، ولعلّ الأمر يتعلّق بعصْبة دينيّة أو بمجموعة تلقينيّة سريّة.

(٤٨) هنا إشارات إلى لحظات متباينة من حياة نابليون بونابارت، فمعركتا «جسر آركول» و«اوسترليتز» هما من المعارك التي انتصر فيها على النمساويّين والروس. امّا «سانت–هيلين» فهو اسم الجزيرة (مستعمَرة برتغاليّة، ثمّ هولنديّة ثمّ إنجليزيّة، في جنوب الأطلسيّ) التي نُفي إليها نابليون وتوفّي فيها بعد تحالف الدول الأوربيّة ضدّه ورجوع الملكيّة في فرنسا. وهناك املى على الكاتب الفرنسيّ لاس كاز مذكّراته التي نشرها الأخير تحت عنوان: «مذكّرات السانت–هيلين». كما يذكر جنيه اللوحة التي وضعها الرسّام داڤيد لتكريس نابليون من قبل الكنيسة، وتصويره أمّ الامبراطور فيها بالرغم من غيابها في ذلك اليوم. والإشارة في هذا كلّه واضحة الى التمويهات التي يعمد إليها رجل فعل، أو مُغامر، للايهام بامتلاكه اكثر مالديه في الواقع من نجاح وقوّة.

(٤٩) «العار / السّعار»: جناس جزئيّ حاولنا ان نعكس به التردّد الذي يعبّر عنه جنيه بين hate (اللهفة أو العجلة) وhonte (العار).

(٥٠) «لا بايڤا» la Paiva: افادنا الصديق اوكاي ساتوشي Ukai Satoshi، مترجم كتاب جنيه هذا إلى اليابانيّة، انّ هذه مومس كانت معروفة خلال مايُدعى في فرنسا بـ«العهد الجميل» la Belle époque، الذي استمرّ من نهايات القرن الماضي حتى ١٩١٤. وضمنَ سخطه على حركة كانت موالية لجهة غير فلسطينيّة، يلعب جنيه هنا على القرب الايقاعيّ بين المفردتين «الصاعقة» (وتُنطَق بالفرنسيّة: «سايبكا») و«البايبڤا» وهو اسم المومس المذكورة.

(٥١) هنا قبسة من بيت معروف لمالارمه في رثاء ڤرلين يقول فيه: «ذلك الجدول الصغير المدعوّ افتراءاً بالموت» (يقصد انّ الموت

ماهو إلاّ جدول صغير، ووحده افتراؤنا نحن معشر البشر يجعلنا ندعوه بالموت). وفي الفقرة نفسها إشارة إلى طفولة جنيه كلقيط هجرته امّه وعثرت عليه مؤسّسة «الرعاية الاجتماعيّة» وتعهّدت بتربيته. وبتبنّيه البيت الشعريّ هذا، ربّما كان قصد جنيه هو انّه، لو كان ولد في إسرائيل، لكانت مؤسّسة «الرعاية الاجتماعية» فيها ستدَع على جسده آثارَ الموت، تزجّه في الحروب، وتمنعه من ان يختار مصيره الفرديّ كما فعلَ في فرنسا إذْ حقّق استقلاله عن المجتمع وعبّر عن تمرّده عليه باختياره ممارسة السرقة والاستفزاز والتسكّع.

(٥٢) عبارة ساخرة، ذلك انّ ريشليو Richelieu الكردينال (آرمان جان دو پليسيس، الدوق ريشليو، ١٥٨٥-١٦٤٢) هو في الواقع جَدّ السياسيّ الفرنسيّ المعروف، حامل الاسم نفسه (لوي فرانسوا آرمان دو ڤينييرو دو پليسيس، الدوق ريشيليو، ١٦٩٦-١٧٨٨)، وبهذا يشير جنيه إلى تضارب أطروحات مُحدّثه ومَزاعمه.

(٥٣) «الهون»: طوائف تركيّة-مغوليّة غزت أوربا في القرنين الرابع والخامس وقامت بتدميرات مشابهة لهذه التي ألحقتها بالشرق. وبدأ انحسارها مع موت قائدها القويّ آتيلا في العام ٤٥٣. امّا «الزمرة الذهبيّة»، فهو الاسم الذي كان يحمله المغول الذين سادوا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر على غرب سيبيريا وجنوب روسيا، وقام تيمورلنغ بتوحيد امبراطوريّتهم الحزاة.

(٥٤) تستخدم المتحدّثة هنا، لتسمية «الآسيويّ»، لاالمفردة asiatique، وإنّما تصغيرها: asiate، وهذه صيغة تحقير.

(٥٥) «السّيد» El Cid هو بطل الاسبان في حروبهم ضدّ المسلمين في القرن الحادي عشر، تمجّده ملامحهم القروسطيّة، واشيع انّه قبّلَ ابرصَ، فسار ذلك مثلاً على اريحيّته وشكّل جزءاً من اسطورته.

(٥٦) الهضامة هي ظاهرة ابتلاع الخلايا الاجسامَ الغريبة، كالبكتريا، والقضاء عليها.

(٥٧) اي مع إمكان عودتهم إلى السجن متى طُلب إليهم ذلك.

(٥٨) سبقت الإشارة الى قبلة القائد الاسبانيّ لاحد البُرْص، التي بقيت تشكّل جزءاً من اسطورة القائد. ويتساءل جنيه هنا عن الشروط التي تُنسَج فيها اسطورة حول شخص، وغالباً ماتكون العناصر حاضرة من قبل لإتاحة نشوء الاسطورة، ففي الأمر الكثير من المصادفة و«التوليف» احياناً.

(٥٩) العسبور سلالة من الكلاب تتميّز بالقوّة والفهم. وقد ركّزت الدعاية النازيّة على صورة تُظهر هتلر وهو يُداعب كلباً من هذا النوع (وهو غالباً كلب راعٍ)، للتدليل على لطفه ورفقه بالحيوان.

(٦٠) يدعو جنيه هنا بـ«العربيّ» القائد الاسبانيّ السابق ذكره، «السّيْد»، وكان في الواقع مقاتلاً ضدّ العرب والمسلمين.

(٦١) هيَ الحجارة التي تُستخدَم في البناء كما خرجت من المقلع، اي بدون معالجة.

(٦٢) إيفيجينيا هي إبنة اغاممنون وكليمنستره في مآسي يوريبيدس. وماتا-هاري راقصة ومُغامرة هولنديّة أُعدِمَت في ١٩١٧ بتهمة التجسّس لصالح الالمان.

(٦٣) المفردة «حارس» sentinelle مصوغة في الفرنسية على التانيث، كما نقول في العربيّة «راوية» أو «داعية».

(٦٤) مانون ليسكو: بطلة قصّة «حكاية فارس الغريو ومانون ليسكو» Histoire du chevalier des Grieux et de Manon Lescaut للاب بريڤو l'abbé Prévost، مدرجة ضمن عمله الضخم «مذكّرات رجل مرموق» (١٧٣١). وفي الحكاية الاصليّة، التي يُعيد جنيه هنا ترتيبها بمقتضى تجربته، يتبع فارس الغريو مانون الفاتنة. على حين تغادر مانون (نبيلة) هنا مُجبرَةً، تاركةً اخاً لها يحبّها (جنيه نفسه)، مراقباً المسؤول الفدائيّ محجوب وهو يمنع لعب الورق بلاورق، ممارساً هو نفسه، اي جنيه، نوعاً من الغشّ بالورق او اللعب بلاورق، باستعادته، كما اكّد عليه آنفاً، حياته مع الفدائيّين بكلمات هي كلماتهم لكنْ بعدّما عالجَها هوَ في كتابته.

(٦٥) يُدعى «يوحنّا» بالفرنسيّة «جان»، وهو الاسم الذي يحمله الكاتب، ومن هنا الالماحة المتهكّمة.

(٦٦) سان-جوست Sain-Just (Louis Antoine de) (١٧٦٧-١٧٩٤) أحد رجال الثورة الفرنسيّة، وخطيبها البارع، ناضل إلى جانب روبسبيير وأُلقيَ عليه القبض معه وأُعدِمَ مثله. ترك مؤلّفات معروفة، منها «المؤسّسات الجمهوريّة». و«الأسطورة الذهبيّة» كتاب وضعه الراهب الدومينيكانيّ الايطاليّ ياكوبو دا ڤارازه في القرن الثالث عشر، يصف فيه سيَر القدّيسين اليسوعيّين بأسلوب يختلط فيه الفنطاسيّ بالواقعيّ، وهو أشهر كتاب قروسطيّ من هذا النوع.

(٦٧) «نَجَحنا»: عبارة ينطق بها المشعوذون للدلالة على نجاح محاولتهم.

(٦٨) الاسم القديم لشمال البلقان، ويضمّ حاليّاً كرواتيا والدلماس والبوسنة والهرسك وألبانيا.

(٦٩) آل لوسينيان Les Lusignan عائلة فرنسيّة حكمت قبرص، خسر أميرها غي دو لوسينيان معركة طبريّة أمام صلاح الدين الأيوبي في ١١٨٧، ممّا مكّن الأخير من استعادة القدس.

(٧٠) حلقة شعريّة للشاعر الفرنسيّ جيرار دو نرڤال Gérard de Nerval (١٨٠٨-١٨٥٥)، مؤلّف «أوريليا» و«بنات النار» و«رحلات إلى الشرق».

(٧١) «الداء الأبيض»: ارمداد أو وصُم يصيب النبات في أوراقه وجذوره، قد يتّخذه جنيه هنا مجازاً، وقد يفكّر بأنّ هذه الحاجة للتماهي مع أمّ وابنها، والمقابلة بينهما وبين العذراء الباكية وابنها المصلوب، إنّما هي عبارة عن داء أبيض، أي خاصّ بالبيض أو الغربيّين.

(٧٢) الأب شارل دوفوكو Père Foucauld (وليس de Foucault كما طُبِعَ الاسم في كتاب جنيه، بالطريقة التي بها يُكتَب اسم الفيلسوف المعروف ميشيل فوكو): راهب ومتصوّف فرنسيّ (١٨٥٨-١٩١٦)، كان ضابطاً ومُستكشفاً فرنسيّاً زار فلسطين وسوريا وجاب المغرب والجزائر، ثمّ اختار حياة الرهبنة والتصومع. أقام في المنطقة الصحراوية، عند أبي عبّاس أوّلاً، ثمّ في تامانراسيت. واغتاله هناك سنوسيّون اشتبهوا به أو جاؤوا لسرقته.

(٧٣) «أورادور» Oradour: قرية فرنسيّة أحرقَ فيها الألمان في ١٩٤٤ ستّمائة وثلاثة وأربعين فرنسيّاً، بينهم خمسمائة امرأة وطفل، وصار اسم القرية يشكّل رمزاً للبربريّة النازيّة.

(٧٤) يلعب الكاتب على جناس جزئيّ بين المفردتين vernaculaire وتعني لغة محليّة و: vermicellaire، وهي صفة يجترحها جنيه عن دعابة، من: vermicelle وهو اسم شعريّة توضع في الحساء.

(٧٥) المقصود هو بالطبع آرتور رامبو، ويرد تعبير «الانتفاضات المنطقيّة» في إشراقته «ديموقراطيّة»، به يسمّي تمرّد الأهليّين ضدّ القوّات الاستعماريّة الأوروبيّة.

(٧٦) كتب جنيه: «الموت أو النصر» («ننتصر أو نموت»)، واضطررنا للتصحيح لأنّ العبارة الصحيحة التي يختتم بها عرفات رسائله هي: «ثورة حتّى النصر».

(٧٧) معروف أنّ عالم الفيزياء الذريّة ألبيرت إينشتاين ينتمي إلى الديانة اليهوديّة بالفعل، ويقصد مُحدّث جنيه هنا أنّه طالما ارتبط إسم إينشتاين في ذهنه بانتمائه الدينيّ أكثر ممّا بجنسيّته كألمانيّ، ثمّ سويسريّ، فأمريكيّ فيما بعد، وهو الشائع.

(٧٨) لعبة ورق يمارسها لاعب وحيد عادةً، وتلجأ إليها غالباً السيّدات البرجوازيّات الوحيدات لتزجية للوقت، ومن هنا سخرية جنيه من رئيسة اتّحاد النساء الفلسطينيّات، المذكورة. وإلى هذا، يلاحظ القارىء المقارنة الساخرة بين اسم هذه اللعبة («النجّاحة») و«النجاح» الذي يرى جنيه أنّ العجائز الفلسطينيّات كنّ بصدد تحقيقه، والمتمثّل في احتفاظهنّ بمرَحهنّ وسط الدمار والموت.

(٧٩) دُوِّنتْ هذه الملحوظة في ١٩٧٢. ويبدو ابو عمر وكأنّه رأى الى بيروت في ١٩٨٢ وهي تحترق وحيدةً، بلا نجدة من أيّ بلد، عربيّ أو سواه (المؤلّف).

(٨٠) هنا ذكر لمختلف معارك نابليون ولبعض قادة قوّاته. ومعروف أنّ نابليون اثبتَ لأوّل مرّة عبقريته السياسيّة والعسكريّة في الحملة على إيطاليا، ومن انتصاراته هناك انتصاره في معركة «جسر آركول». وواضح مايرمي إليه جنيه في هذه الفقرة من أنّ مايحتفظ به التاريخ على هيأة مآثر وبطولات يتخفّى في الواقع أحياناً على لحظات ضعف وتردّد (نابليون مرتجفاً على جسر آركول) او انتحال (الانتصار المحقّق على يد قائد سوى الامبراطور)، أو دهاء الدبلوماسيّين والمُفاوضين الذي يأتي، كما في حالة الجزائر التي يذكرها جنيه، لمصادرة عمل الأبطال وحَصد ثمار انتصارات ضحّى البعض من أجلها بحياتهم.

(٨١) «أمريكيّاً من أعلى الرأس حتّى أخمص القدم»: يستأثر الأمريكان الشماليّون عادةً بتسمية «الأمريكان»، فكأنّهم هم وحدهم «جميع» سكّان القارّة. وغالباً مايحتجّ الامريكان اللاتينيّون على هذا، ويذكّرون بأنّهم هم سكّان القارّة الأصليّون ومابرحوا ينتمون إليها كما تنتمي هي إليهم.

(٨٢) في التنويط الموسيقيّ، تتمتّع النوتة البيضاء المشدّدة بقيمة نغمتين سوداوَين. ونرى هنا لعباً على الكلام، إذ يُلمّح مبارك إلى أنّ السود طالما يهوون افتراع المرأة البيضاء (الجنس والعنف)، ومن هنا ردّ جنيه عليه بأنّه يجده مبتذلاً.

(٨٣) هنا لعب، لايقبل الترجمة، على مفردتين فرنسيّتين: fut، وهي صيغة الماضي البسيط للغائب المفرد لفعل الكينونة: être، و: feuوتعني «النار» كما تشكّل صفة تسبق اسم المتوفّى وتعني، في هذه الحالة، «الراحل».

(٨٤) «يلعب» الكاتب على الجناس بين: montreurs ، اي «مرقّصي العرائس» في مسرح خيال الظلّ، و: menteurs، وتعني «كذّابين».

(٨٥) «زهرو» (أم «زحرو»؟): أفهَمنا أكثر من صديق فلسطينيّ أنّه لاوجود لاسم كهذا بين أسماء عُمدات رام الله السابقين، ولعلّ جنيه اخطأ في تهجئة اسمه، فكانَ غالباً مايستعيد الأسماء والمواقف من الذاكرة.

(٨٦) ربّما كان مُحاوِر جنيه، بكلامه على «حرب ١٩٧٦ التي أنهاها الجنرال ديغول»، يشير إلى خطاب الجنرال ديغول المعروف الذي يهاجم فيه إسرائيل. امّا حكاية «حالة الحرب»، ففيها إشارة إلى ادّعاء اسرائيل، التي سبقت الى مهاجمة الطائرات المصريّة وهي رابضة، أنّ مصر، بتحشيدها قوّاتها على الحدود، هي التي خلقت «حالة الحرب» وبرّرت الهجوم.

(٨٧) «هوميه» Homais أحد شخوص رواية فلوبير «مدام بوفاري»، صيدلانيّ يعرب عن أفكار مضادّة للكنيسة، وعن تطلّع الى العلم، ولكنّه يخفي وراء اعتداده بنفسه ميلاً إلى الحسابات والإثرة، فهو يمثّل البرجوازيّة الصغيرة التي طالما سخّف فلوبير «أفكارها الجاهزة».

(٨٨) كان دوق وندسور، وهو إدوارد الثامن، ابن جورج الخامس، وليّاً للعهد في التاج البريطانيّ، فآثر في ١٩٣٦ ان يتنازل عن العرش كما تقضي به الأعراف الملكيّة البريطانيّة ليتزوّج من عشيقته المذكورة التي كانت تكبره قليلاً في السنّ، وماكانت، خصوصاً، تنحدر من العائلة المالكة.

(٨٩) يُدعى «جَوف المدفع» بالفرنسيّة حرفيّاً بـ: «روح المدفع» l'ame du canon، وإنّما تنبع حيرة جنيه وزملائه يومذاك من «طرافة» التعبير.

(٩٠) لعب ساخر على مفردتَي «الخيط» fil و«إبن» fils. وكمثْل ابن العذراء (المسيح) الذي ولِدَ بلا حبَل، يتخيّل جنيه «خيط العذراء» هذا كنايةً عن نسيج العنكبوت الذي سيرى هو إليه محيطاً بقاعدة المدفع وبُرَيجه المتداعي الذي بُنيَ هو أيضاً من دون معرفة بالبناء.

(٩١) التيروليّون، نسبة إلى «تيروليا» وهي منطقة من النمسا الحاليّة، علماً بأنّ لاهلها رقصة معروفة باسمهم، فيكون التلميح في «رقصة مفتشي التذاكر التيروليّين» (بباعث من اهتزاز القطار وترجّحه) مزدوجاً أو من قوّة ثانية.

(٩٢) في ١٩٥٤ ولدت «جبهة التحرير الوطنيّ» الجزائريّة، ومدينة المياه المعدنيّة المقصودة هي مدينة «إفيان» الفرنسيّة حيث دارت المفاوضات الجزائريّة–الفرنسيّة حول جلاء فرنسا من الجزائر.

(٩٣) ماكانت معرفة جنيه المتواضعة بالعربيّة تتيح له إدراك انّ هذا الاسم، «نضال»، إذا كان يُعطى في العربية للذكوروالنساء، فإنّ المثال الذي يطرحه هو (الكنية «أبو...») لايشكّل الكاشف اللغويّ الصحيح عن ذلك.

(٩٤) يُحيل البعض «المزّة» الى «المزازة» أو «المزوزة»، وهي صفة الشيء «المزّ» اي ماكان طعمه بين الحلو والحامض. وبحسب «المنجد»، «المزّة» هي الخمر لذيذة الطعم، ويُقال «مابقيَ في الاناء إلاّ مزّة»، اي شيء قليل. ولعلّ المعنى الاخير ينطبق على صحون المُقبّلات الصغيرة هذه التي تبدأ بها المائدة الشرقيّة. كما نعتقد نحن بانّ المفردة قد تكون تعريباً للاسبانيّةmesa والايطاليّة mensa، وتفيد «الطاولة» و«المائدة»، وصحون «المزّة» هيَ ماتُملأ به مائدة.

(٩٥) كان جنيه قد وصف في موضع آخر من الكتاب كيف كان المسؤولون الفلسطينيّون ينهضون باحتفاليّة لدى دخول احد الفدائيين إلى مكتبهم. ويُفسّر جنيه الدوافع –الخفيّة؟– لتصرّف المسؤولين هذا بأنّهم كانوا يرون امامهم شهيداً قادماً أو ممكناً يستدعي مرور «جثمانه» وقفة تكريم وحِداد.

(٩٦) إشارة إلى لجوء مفتي القدس الشيخ أمين الحسينيّ إلى برلين، وصلَها عن طريق روما، بعدَما اضطرّ إلى مغادرة بغداد (حيث كانت نفتْه الادارة الاستعماريّة البريطانيّة) على اثر فشل حركة رشيد عالي الكيلانيّ التي كان هو من مؤيّديها، وإيران، بعد دخول قوّات الحلفاء فيها. وقد قابلَ المفتي هتلر في ١٩٤٠، إذ كان يعتقد، شانه شان زعماء عرب آخرين، بإمكان نيل مساعدة الألمان في الاستقلال من الاستعماريّين البريطانيّ والفرنسيّ. وفي كتابه «فلسطين ١٩٤٨: التغييب»، الذي صدرَ بترجمتنا في منشورات «المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر» (بيروت، ١٩٨٦)، يتوقّف المؤرّخ الفلسطينيّ الياس صنبر عند هذه الهفوة التي حمّلت الفلسطينيّين مسؤوليّة عالية، ويموضعها في سياقها ويفنّد ماالصقه بها الاعلاميّون الصهاينة والغربيّون من عداء للساميّة يعزونه للمفتي وعامّة شعب فلسطين. (انظر خصوصاً، في الكتاب المذكور، الفصل الرابع: «فلسطين ١٩٣٩–١٩٤٧»).

(٩٧) قبلتُ بكتابة: «تبدو»، وكانت ابنة ثمانين، لانّ الزمن المعيش في الالم يقود الى التدهور أسرع فاسرع. كانت خمسينيّة قبل أربع عشرة سنة، والآن ماكانت تبدو ثمانينيّة، بل كانت كذلك (المؤلّف).

(٩٨) لاس كاز Las Cases (إمانويل اوغستان ديودونيه، ١٧٦٦–١٨٤٢): كاتب فرنسيّ كان مناصراً لنابليون ومنحه الاخير لقب «دوق الامبراطوريّة». رافق نابليون إلى منفاه الأخير في جزيرة «السانت–هيلين»، وهناك أملى عليه الامبراطور المخلوع مذكّراته، التي نشرها لاس كاز بعنوان «مذكّرات السانت–هيلين»، وقد ساهم الكتاب في تعزيز «أسطورة» نابليون ونشرها.

(٩٩) التعبير المجازيّ المستخدم في الفرنسيّة في هذه الحالة، والذي يورده جنيه على لسان الصبيّ في الجملة، هو "Il n'y a plus de jus" : (حرْفيّاً: «لم يعد فيه من عصير»). وغياب العصير او النسغ هذا هو مايهمّ جنيه في كلامه هنا على «النشاف».

(١٠٠) نسبة الى الروسيّ ستاخانوف، وهي نظريّة في زيادة الانتاج بمبادرة من العمّال أنفسهم.

(١٠١)تاليران (١٧٥٤–١٨٣٨) Charles Maurice de TALLEYRAND-PERIGORD، سياسيّ ودبلوماسيّ فرنسيّ، انتُخبَ عضواً في «الهيآت العامّة» التي تاسّست على اثر ثورة ١٧٨٩. عُرِفَ بقوّة حدسه في تلك الفترة الحافلة بالانقلابات، وباحتفاظه برباطة الجاش وغياب الانفعال في جميع الظروف، ومن هنا إشارة الكاتب إليه.

(١٠٢)مدينة فرنسيّة كانت معروفة بصناعة الأسلحة والعربات الحربيّة.